



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه  
صباح  
الرمضان

www.ghaemiyeh.com  
www.ghaemiyeh.org  
www.ghaemiyeh.net  
www.ghaemiyeh.ir

# الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي

٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب ( عليه السلام )

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
٣٩	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٣
٣٩	اشاره
٤٠	اشاره
٤٤	[اتمه سورة آل عمران]
٤٤	اشاره
٤٤	الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]
٤٤	اشاره
٤٤	التفسير
٤٤	اشاره
٤٤	غزوه حمراء الأسد:
٤٧	التربية الإلهيه و عطاؤها التريع:
٤٨	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٧٥]
٤٨	اشاره
٤٨	التفسير
٥٠	الآيتان [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٤ الى ١٧٧]
٥٠	اشاره
٥٠	التفسير
٥٠	اشاره
٥٠	تسليه التبي صلى الله عليه و آله و سلم:
٥٢	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٧٨]
٥٢	اشاره
٥٢	التفسير
٥٢	اشاره

٥٢ ..... المتقلون بأوزارهم:

٥٤ ..... جواب على سؤال:

٥٥ ..... لفته أدبيه:

٥٧ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٧٩]

٥٧ ..... اشاره

٥٧ ..... التفسير

٥٧ ..... اشاره

٥٧ ..... المسلمون في بوتقه الاختبار و الفرز:

٦٠ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٨٠]

٦٠ ..... اشاره

٦٠ ..... التفسير

٦٠ ..... اشاره

٦٠ ..... طوق الأسر الثقيل:

٦٣ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٨١ الى ١٨٢]

٦٣ ..... اشاره

٦٣ ..... سبب النزول

٦٤ ..... التفسير

٦٩ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٨٣ الى ١٨٤]

٦٩ ..... اشاره

٦٩ ..... سبب النزول

٦٩ ..... التفسير

٦٩ ..... اشاره

٦٩ ..... مغالطات اليهود و تعللاتهم:

٧٣ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٨٥]

٧٣ ..... اشاره

٧٣ ..... التفسير

٧٣ ..... اشاره

٧٣ ..... الموت و قانونه العام:

٧٦ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٨٦]

٧٦ ..... اشاره

٧٦ ..... سبب النزول

٧٧ ..... التفسير

٧٧ ..... اشاره

٧٧ ..... لا تتبعكم المقاومه:

٧٩ ..... الآية [سوره آل عمران (٣): آيه ١٨٧]

٧٩ ..... اشاره

٧٩ ..... التفسير

٨٠ ..... العلماء و الوظيفه الكبرى:

٨٢ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٨٨ الى ١٨٩]

٨٢ ..... اشاره

٨٢ ..... سبب النزول

٨٣ ..... التفسير

٨٣ ..... اشاره

٨٣ ..... المعجبون بأنفسهم:

٨٥ ..... الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٤]

٨٥ ..... اشاره

٨٥ ..... التفسير

٨٥ ..... اشاره

٨٥ ..... أهميه هذه الآيات:

٨٧ ..... التفسير

٨٧ ..... اشاره

٨٧ ..... أوضح السبل لمعرفة الله:

٩٣	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٩٥]
٩٣	اشاره
٩٣	سبب النزول
٩٤	التفسير
٩٤	اشاره
٩٤	النتيجه الطيبه لموقف أولى الألباب:
٩٥	القيمه المعنويه للزجل و المرأة:
٩٨	الآيات [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩٦ الى ١٩٨]
٩٨	اشاره
٩٨	سبب النزول
٩٩	التفسير
٩٩	اشاره
٩٩	سؤال مزعج:
١٠١	معرفة نقاط الضعف و القوه معا:
١٠٤	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٩٩]
١٠٤	اشاره
١٠٤	سبب النزول
١٠٥	التفسير
١٠٥	اشاره
١٠٥	أهل الكتاب ليسوا سواء:
١٠٧	الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ٢٠٠]
١٠٧	اشاره
١٠٧	التفسير
١١٠	سؤال:
١١٠	الجواب:
١١٣	سوره النساء



- ١١٣ ..... اشارة
- ١١٥ ..... ١-موضع نزول هذه السوره
- ١١٦ ..... ٢-محتويات هذه السوره:
- ١١٧ ..... ٣-فضل تلاوه هذه السوره
- ١١٨ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ١]
- ١١٨ ..... اشارة
- ١١٨ ..... التفسير
- ١١٨ ..... اشارة
- ١١٨ ..... مكافحه التمييزات و الاستثناءات:
- ١٢٠ ..... كيف كان زواج أبناء آدم؟:
- ١٢١ ..... الدّعوة إلى العناية بالرحم:
- ١٢٤ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٢]
- ١٢٤ ..... اشارة
- ١٢٤ ..... سبب النزول
- ١٢٤ ..... التفسير
- ١٢٤ ..... اشارة
- ١٢٤ ..... لا...للخيانة فى أموال اليتامى:
- ١٢٥ ..... ما ذا يعنى الحوب؟:
- ١٢٧ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٣]
- ١٢٧ ..... اشارة
- ١٢٧ ..... سبب النزول
- ١٢٨ ..... التفسير
- ١٢٨ ..... اشارة
- ١٢٩ ..... «مثنى» و «ثلاث» و «رباع»:
- ١٣٠ ..... ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟:
- ١٣٢ ..... تعدد الزّوجات ضروره اجتماعيه:

سؤال ..... ١٣٨

الجواب ..... ١٣٨

الآية [سورة النساء (٤): آية ٤] ..... ١٤٠

اشاره ..... ١٤٠

التفسير ..... ١٤٠

اشاره ..... ١٤٠

الضدق دعامة اجتماعيه للمرأة: ..... ١٤١

الآيتان [سورة النساء (٤): الآيات ٥ الى ٦] ..... ١٤٥

اشاره ..... ١٤٥

التفسير ..... ١٤٥

اشاره ..... ١٤٥

من هو السفية؟: ..... ١٤٥

أموالكم قوام لكم: ..... ١٤٨

تعليمان فى شأن اليتامى: ..... ١٤٩

تعليم آخر فى شأن اليتامى و أموالهم: ..... ١٥٠

الآية [سورة النساء (٤): آية ٧] ..... ١٥٣

اشاره ..... ١٥٣

سبب النزول ..... ١٥٣

التفسير ..... ١٥٤

اشاره ..... ١٥٤

خطوه أخرى لحفظ حقوق المرأة: ..... ١٥٤

الآية [سورة النساء (٤): آية ٨] ..... ١٥٦

اشاره ..... ١٥٦

التفسير ..... ١٥٦

اشاره ..... ١٥٦

حكم أخلاقى: ..... ١٥٦

- ١٥٨ ..... الآية [سورة النساء (٤): آية ٩]
- ١٥٨ ..... اشاره
- ١٥٨ ..... التفسير
- ١٥٨ ..... اشاره
- ١٥٨ ..... دعوه إلى العطف على اليتامى:
- ١٥٩ ..... إيضاح ضروري:
- ١٦١ ..... الآية [سورة النساء (٤): آية ١٠]
- ١٦١ ..... اشاره
- ١٦١ ..... التفسير
- ١٦١ ..... اشاره
- ١٦١ ..... الوجه الحقيقي لأفعال البشر:
- ١٦٤ ..... الآياتان [سورة النساء (٤): الآيات ١١ إلى ١٢]
- ١٦٤ ..... اشاره
- ١٦٥ ..... سبب النزول
- ١٦٥ ..... الإرث حق طبيعي:
- ١٦٧ ..... الإرث في الأمم السابقة:
- ١٦٩ ..... التفسير
- ١٦٩ ..... اشاره
- ١٦٩ ..... و هاهنا سؤال:
- ١٧٠ ..... الجواب:
- ١٧٠ ..... لما ذا يرث الرجل ضعف المرأة؟:
- ١٧٢ ..... إرث الأب و الأم:
- ١٧٣ ..... سؤال:
- ١٧٣ ..... الجواب:
- ١٧٤ ..... الإرث بعد الوصيه و الدين:
- ١٧٥ ..... سهم الأزواج بعضهم من بعض:

- ١٧٦ ..... إرث أخوه الميت و أخواته:
- ١٧٧ ..... عوده إلى تفسير الآية:
- ١٧٨ ..... بحوث أخرى عند هذه الآية:
- ١٨٠ ..... الأيتان [سوره النساء (٤): الآيات ١٣ الى ١٤] .....
- ١٨٠ ..... اشاره .....
- ١٨٠ ..... التفسير .....
- ١٨٠ ..... اشاره .....
- ١٨٢ ..... ميزات قانون الإرث الإسلامي:
- ١٨٤ ..... ما هو العول، و ما هو التعصيب؟:
- ١٨٧ ..... الأيتان [سوره النساء (٤): الآيات ١٥ الى ١٦] .....
- ١٨٧ ..... اشاره .....
- ١٨٧ ..... التفسير .....
- ١٨٧ ..... اشاره .....
- ١٩١ ..... العقوبات الإسلاميه السهل الممتنع:
- ١٩٣ ..... الأيتان [سوره النساء (٤): الآيات ١٧ الى ١٨] .....
- ١٩٣ ..... اشاره .....
- ١٩٣ ..... التفسير .....
- ١٩٣ ..... اشاره .....
- ١٩٣ ..... شرائط قبول التوبه:
- ١٩٩ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ١٩] .....
- ١٩٩ ..... اشاره .....
- ١٩٩ ..... سبب النزول .....
- ٢٠٠ ..... التفسير .....
- ٢٠٠ ..... اشاره .....
- ٢٠٠ ..... الدفاع عن حقوق المرأة أيضا:
- ٢٠٢ ..... الأيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٢٠ الى ٢١] .....

٢٠٢ ..... اشارة

٢٠٢ ..... سبب النزول

٢٠٢ ..... التفسير

٢٠٦ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٢٢]

٢٠٦ ..... اشارة

٢٠٦ ..... سبب النزول

٢٠٦ ..... التفسير

٢٠٩ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٢٣]

٢٠٩ ..... اشارة

٢٠٩ ..... التفسير

٢٠٩ ..... اشارة

٢٠٩ ..... تحريم الزواج بالمحارم:

٢١٥ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٢٤]

٢١٥ ..... اشارة

٢١٥ ..... التفسير

٢١٥ ..... اشارة

٢١٨ ..... الزواج المؤقت في الإسلام:

٢٢٠ ..... هل نسخ هذا الحكم؟:

٢٢٤ ..... الزواج المؤقت ضروره اجتماعيه:

٢٢٦ ..... مؤاخذات على الزواج المؤقت:

٢٢٨ ..... «راسل» و الزواج المؤقت:

٢٣١ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٢٥]

٢٣١ ..... اشارة

٢٣١ ..... التفسير

٢٣١ ..... اشارة

٢٣١ ..... التزوج بالإماء:

الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ٢٦ الى ٢٨] ----- ٢٣٧

اشاره ----- ٢٣٧

التفسير ----- ٢٣٧

اشاره ----- ٢٣٧

هذه القيود لما ذا؟: ----- ٢٣٧

الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠] ----- ٢٤٠

اشاره ----- ٢٤٠

التفسير ----- ٢٤٠

اشاره ----- ٢٤٠

سلامه المجتمع ترتبط بسلامه الإقتصاد: ----- ٢٤٠

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٣١] ----- ٢٤٤

اشاره ----- ٢٤٤

التفسير ----- ٢٤٤

اشاره ----- ٢٤٤

المعاصي الكبيره و الصغيره: ----- ٢٤٤

إشكال: ----- ٢٤٤

الجواب: ----- ٢٤٤

متى تنقلب الصغيره إلى كبيره؟: ----- ٢٤٤

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٣٢] ----- ٢٤٨

اشاره ----- ٢٤٨

سبب النزول ----- ٢٤٨

التفسير ----- ٢٤٩

اشاره ----- ٢٤٩

التفاوت الطبيعي بين الناس لما ذا؟: ----- ٢٥١

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٣٣] ----- ٢٥٤

اشاره ----- ٢٥٤

٢٥٤ ..... التفسير

٢٥٤ ..... الآية [سورة النساء (٤): آية ٣٤]

٢٥٤ ..... اشاره

٢٥٤ ..... التفسير

٢٥٤ ..... اشاره

٢٥٤ ..... القوامه فى النظام العائلى:

٢٥٩ ..... التساء المقصرات التاشرات

٢٥٩ ..... ١-المواعظه

٢٥٩ ..... ٢-الهجر فى المضاجع

٢٥٩ ..... ٣-الضرب:

٢٦٠ ..... اشكال:

٢٦٠ ..... الجواب:

٢٦٢ ..... الآية [سورة النساء (٤): آية ٣٥]

٢٦٢ ..... اشاره

٢٦٢ ..... التفسير

٢٦٢ ..... اشاره

٢٦٢ ..... محكمه الصلح العائليه:

٢٦٦ ..... الآية [سورة النساء (٤): آية ٣٦]

٢٦٦ ..... اشاره

٢٦٦ ..... التفسير

٢٦٦ ..... اشاره

٢٦٦ ..... ١-و اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا

٢٦٧ ..... ٢-و بالوالدين إحسانا

٢٦٧ ..... ٣-و بذى القربى

٢٦٨ ..... ٤-و اليتامى

٢٦٨ ..... ٥-و المساكين

٢٦٨ ..... ٦-و الجار ذى القربى

٢٦٩ ..... ٧-و الجار الجنب

٢٧٠ ..... ٨-و الضاحب بالجنب

٢٧١ ..... ٩-و ابن السبيل

٢٧١ ..... ١٠-و ما ملكت أيمانكم

٢٧٣ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ٣٧ الى ٣٩]

٢٧٣ ..... اشاره

٢٧٣ ..... التفسير

٢٧٣ ..... اشاره

٢٧٣ ..... الإنفاق رياء و الإنفاق قربه:

٢٧٧ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٤٠]

٢٧٧ ..... اشاره

٢٧٧ ..... التفسير

٢٧٧ ..... اشاره

٢٧٧ ..... ما هي «الذره»؟:

٢٧٩ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ٤١ الى ٤٢]

٢٧٩ ..... اشاره

٢٧٩ ..... التفسير

٢٧٩ ..... اشاره

٢٧٩ ..... شهود يوم القيامة:

٢٨٣ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٤٣]

٢٨٣ ..... اشاره

٢٨٣ ..... التفسير

٢٨٣ ..... اشاره

٢٨٣ ..... بعض الأحكام الفقيهيه:

٢٨٧ ..... بحوث عند الآية:



٢٨٧ ..... اشاره

٢٨٨ ..... فلسفه التيمم:

٢٩١ ..... الأيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٤٤ الى ٤٥] ..

٢٩١ ..... اشاره

٢٩١ ..... التفسير

٢٩٣ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٤٦] ..

٢٩٣ ..... اشاره

٢٩٣ ..... التفسير

٢٩٣ ..... اشاره

٢٩٣ ..... جانب آخر من أعمال اليهود:

٢٩٦ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٤٧] ..

٢٩٦ ..... اشاره

٢٩٦ ..... التفسير

٢٩٦ ..... اشاره

٢٩٦ ..... مصير المعاندين:

٢٩٩ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٤٨] ..

٢٩٩ ..... اشاره

٢٩٩ ..... التفسير

٢٩٩ ..... اشاره

٢٩٩ ..... أرجى آيات القرآن:

٣٠١ ..... أسباب مغفره الذنوب:

٣٠٣ ..... الأيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٤٩ الى ٥٠] ..

٣٠٣ ..... اشاره

٣٠٣ ..... سبب النزول

٣٠٣ ..... التفسير

٣٠٣ ..... اشاره

- ٣٠٣ ..... تزكيه النفس
- ٣٠٧ ..... الآياتان [سوره النساء (٤): الآيات ٥١ الى ٥٢]
- ٣٠٧ ..... اشاره
- ٣٠٧ ..... سبب النزول
- ٣٠٨ ..... التفسير
- ٣٠٨ ..... اشاره
- ٣٠٨ ..... المداهنون:
- ٣٠٩ ..... الجبت و الطاغوت:
- ٣١١ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ٥٣ الى ٥٥]
- ٣١١ ..... اشاره
- ٣١١ ..... التفسير
- ٣١١ ..... اشاره
- ٣١٤ ..... دور الحسد في الجرائم:
- ٣١٦ ..... الآياتان [سوره النساء (٤): الآيات ٥٦ الى ٥٧]
- ٣١٦ ..... اشاره
- ٣١٦ ..... التفسير
- ٣١٧ ..... بحث عن الآية:
- ٣١٧ ..... اشاره
- ٣١٨ ..... سؤال:
- ٣١٨ ..... جواب:
- ٣٢٠ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٥٨]
- ٣٢٠ ..... اشاره
- ٣٢٠ ..... سبب النزول
- ٣٢١ ..... التفسير
- ٣٢١ ..... اشاره
- ٣٢١ ..... قانونان إسلاميان مهمان:

أهميته الأمانة و العدل فى الإسلام: ..... ٣٢٣

الآية [سوره النساء (٤): آيه ٥٩] ..... ٣٢٥

اشاره ..... ٣٢٥

التفسير ..... ٣٢٥

اشاره ..... ٣٢٥

من هم أولوا الأمر؟ ..... ٣٢٦

أجوبه على أسئله: ..... ٣٣١

شهاده الأحاديث: ..... ٣٣٤

الآية [سوره النساء (٤): آيه ٦٠] ..... ٣٣٦

اشاره ..... ٣٣٦

سبب النزول ..... ٣٣٦

التفسير ..... ٣٣٧

اشاره ..... ٣٣٧

حكومه الطاغوت: ..... ٣٣٧

الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ٦١ الى ٦٣] ..... ٣٣٩

اشاره ..... ٣٣٩

التفسير ..... ٣٣٩

اشاره ..... ٣٣٩

نتائج حكم الطاغوت: ..... ٣٣٩

الآية [سوره النساء (٤): آيه ٦٤] ..... ٣٤٢

اشاره ..... ٣٤٢

التفسير ..... ٣٤٢

الآية [سوره النساء (٤): آيه ٦٥] ..... ٣٤٦

اشاره ..... ٣٤٦

سبب النزول ..... ٣٤٦

التفسير ..... ٣٤٧

٣٤٧ ..... اشاره

٣٤٧ ..... التسليم أمام الحق:

٣٥٠ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ٦٦ الى ٦٨]

٣٥٠ ..... اشاره

٣٥٠ ..... التفسير

٣٥٣ ..... الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٦٩ الى ٧٠]

٣٥٣ ..... اشاره

٣٥٣ ..... سبب النزول

٣٥٤ ..... التفسير

٣٥٤ ..... اشاره

٣٥٤ ..... رفقاء الجته:

٣٥٧ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٧١]

٣٥٧ ..... اشاره

٣٥٧ ..... التفسير

٣٥٧ ..... اشاره

٣٥٧ ..... الحذر الدائم:

٣٦٠ ..... الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

٣٦٠ ..... اشاره

٣٦٠ ..... التفسير

٣٦٢ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٧٤]

٣٦٢ ..... اشاره

٣٦٢ ..... التفسير

٣٦٢ ..... اشاره

٣٦٢ ..... إعداد المؤمنين للجهاد:

٣٦٤ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٧٥]

٣٦٤ ..... اشاره

التفسير ..... ٣٦٤

اشاره ..... ٣٦٤

الاستعانه بالعواطف و المشاعر الإنسانيه: ..... ٣٦٤

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٧٦] ..... ٣٦٧

اشاره ..... ٣٦٧

التفسير ..... ٣٦٧

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٧٧] ..... ٣٦٩

اشاره ..... ٣٦٩

سبب النزول ..... ٣٦٩

التفسير ..... ٣٧٠

اشاره ..... ٣٧٠

قوم بضاعتهم الكلام دون العمل: ..... ٣٧٠

الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٧٨ الى ٧٩] ..... ٣٧٤

اشاره ..... ٣٧٤

التفسير ..... ٣٧٤

اشاره ..... ٣٧٤

من أين تأتي الانتصارات و الهزائم؟ ..... ٣٧٦

جواب على سؤال مهم: ..... ٣٧٨

الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٨٠ الى ٨١] ..... ٣٨١

اشاره ..... ٣٨١

التفسير ..... ٣٨١

اشاره ..... ٣٨١

سنه النبي صلى الله عليه و آله و سلم بمنزله الوحي: ..... ٣٨١

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٨٢] ..... ٣٨٥

اشاره ..... ٣٨٥

التفسير ..... ٣٨٥

٣٨٥ ..... اشارة

٣٨٥ ..... خلق القرآن من الاختلاف دليل حى على إعجازه:

٣٨٨ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٨٣]

٣٨٨ ..... اشارة

٣٨٨ ..... التفسير

٣٨٨ ..... اشارة

٣٨٨ ..... نشر الإشاعات:

٣٨٩ ..... أضرار اختلاق الإشاعه و نشرها:

٣٩١ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٨٤]

٣٩١ ..... اشارة

٣٩١ ..... سبب النزول

٣٩٢ ..... التفسير

٣٩٢ ..... اشارة

٣٩٢ ..... كل انسان مسئول عما كلف به:

٣٩٢ ..... معنى كلمتى «عسى» و «لعل» فى كلام الله:

٣٩٥ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٨٥]

٣٩٥ ..... اشارة

٣٩٥ ..... التفسير

٣٩٥ ..... اشارة

٣٩٥ ..... عواقب التحريض على الخير أو الشر:

٤٠٠ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٨٦]

٤٠٠ ..... اشارة

٤٠٠ ..... التفسير

٤٠٠ ..... اشارة

٤٠٠ ..... دعوه إلى مقابله الودّ بالودّ:

٤٠١ ..... التسلام، تحيه الإسلام الكبرى:

- ٤٠٥ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٨٧] -
- ٤٠٥ ..... اشاره
- ٤٠٥ ..... التفسير
- ٤٠٧ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٨٨] -
- ٤٠٧ ..... اشاره
- ٤٠٧ ..... سبب النزول
- ٤٠٨ ..... التفسير
- ٤١٠ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٨٩] -
- ٤١٠ ..... اشاره
- ٤١٠ ..... التفسير
- ٤١٠ ..... اشاره
- ٤١٢ ..... سؤال:
- ٤١٢ ..... الجواب:
- ٤١٣ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٩٠] -
- ٤١٣ ..... اشاره
- ٤١٣ ..... سبب النزول
- ٤١٤ ..... التفسير
- ٤١٤ ..... اشاره
- ٤١٤ ..... الترحيب باقتراح السلم:
- ٤١٦ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٩١] -
- ٤١٦ ..... اشاره
- ٤١٦ ..... سبب النزول
- ٤١٦ ..... التفسير
- ٤١٦ ..... اشاره
- ٤١٦ ..... عقاب ذى الوجهين:
- ٤١٩ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ٩٢] -

٤١٩ ..... اشارة

٤١٩ ..... سبب التزول

٤٢٠ ..... التفسير

٤٢٠ ..... اشارة

٤٢٠ ..... أحكام القتل الناتج عن الخطأ:

٤٢٥ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٩٣] - - - - -

٤٢٥ ..... اشارة

٤٢٥ ..... سبب التزول

٤٢٦ ..... التفسير

٤٢٦ ..... اشارة

٤٢٦ ..... عقوبه القتل العمد:

٤٢٧ ..... جريمه القتل العمد و العقاب الأبدى:

٤٣٠ ..... ما هي أنواع القتل؟

٤٣٢ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ٩٤] - - - - -

٤٣٢ ..... اشارة

٤٣٢ ..... سبب التزول

٤٣٣ ..... التفسير

٤٣٣ ..... اشارة

٤٣٤ ..... الجهاد الإسلامى نفي من البعد المادى:

٤٣٤ ..... سؤال:

٤٣٥ ..... الجواب:

٤٣٦ ..... الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ٩٥ الى ٩٦] - - - - -

٤٣٦ ..... اشارة

٤٣٦ ..... التفسير

٤٣٦ ..... اشارة

٤٣٨ ..... نكات مهمه حول المجاهدين:



- الأهميه بالبالغه للجهد: ..... ٤٣٩
- الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ٩٧ الى ٩٩] ..... ٤٤٢
- اشاره ..... ٤٤٢
- سبب النزول ..... ٤٤٢
- التفسير ..... ٤٤٣
- اشاره ..... ٤٤٣
- نقاط يجب الالتفات إليها: ..... ٤٤٤
- اشاره ..... ٤٤٤
- ١- استقلال الزوج ..... ٤٤٤
- ٢- ملك الموت أم ملائكه الموت ..... ٤٤٥
- ٣- من هو المستضعف؟ ..... ٤٤٦
- الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٠٠] ..... ٤٤٨
- اشاره ..... ٤٤٨
- التفسير ..... ٤٤٨
- اشاره ..... ٤٤٨
- الهجره حكم اسلامي بناء: ..... ٤٤٨
- الإسلام و الهجره: ..... ٤٤٩
- الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٠١] ..... ٤٥٤
- اشاره ..... ٤٥٤
- التفسير ..... ٤٥٤
- اشاره ..... ٤٥٤
- صلاه المسافرين: ..... ٤٥٤
- سؤال: ..... ٤٥٦
- الجواب: ..... ٤٥٦
- الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٠٢] ..... ٤٦٠
- اشاره ..... ٤٦٠

٤٦٠ ..... سبب النزول

٤٦١ ..... التفسير

٤٦١ ..... اشاره

٤٦٢ ..... و هنا عدّه ملاحظات جديره بالانتباه، هي:

٤٦٣ ..... كيفيه صلاه الخوف:

٤٦٥ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٠٣]

٤٦٥ ..... اشاره

٤٦٥ ..... التفسير

٤٦٥ ..... اشاره

٤٦٥ ..... أهميه فريضه الصلاه:

٤٦٧ ..... سؤال:

٤٦٧ ..... الجواب:

٤٦٨ ..... الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٠٤]

٤٦٨ ..... اشاره

٤٦٨ ..... سبب النزول

٤٦٨ ..... اشاره

٤٦٨ ..... قرع السلاح بسلاح يشابهه:

٤٧٠ ..... التفسير

٤٧٢ ..... الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ١٠٥ الى ١٠٦]

٤٧٢ ..... اشاره

٤٧٢ ..... سبب النزول

٤٧٣ ..... التفسير

٤٧٣ ..... اشاره

٤٧٣ ..... منع الدفاع عن الخائنين:

٤٧٦ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٠٧ الى ١٠٩]

٤٧٦ ..... اشاره

٤٧٦ ..... التفسير

٤٧٩ ..... الآيات [سورة النساء (٤): الآيات ١١٠ الى ١١٢]

٤٧٩ ..... اشاره

٤٧٩ ..... التفسير

٤٧٩ ..... اشاره

٤٨١ ..... جريمه البهتان:

٤٨٣ ..... الآية [سورة النساء (٤): آيه ١١٣]

٤٨٣ ..... اشاره

٤٨٣ ..... التفسير

٤٨٣ ..... اشاره

٤٨٤ ..... مصدر عصمه الأنبياء!:

٤٨٧ ..... الآية [سورة النساء (٤): آيه ١١٤]

٤٨٧ ..... اشاره

٤٨٧ ..... التفسير

٤٨٧ ..... اشاره

٤٨٧ ..... النجوى أو الهمس:

٤٩١ ..... الآية [سورة النساء (٤): آيه ١١٥]

٤٩١ ..... اشاره

٤٩١ ..... سبب النزول

٤٩١ ..... التفسير

٤٩١ ..... اشاره

٤٩٣ ..... حجيه الإجماع:

٤٩٥ ..... الآية [سورة النساء (٤): آيه ١١٦]

٤٩٥ ..... اشاره

٤٩٥ ..... التفسير

٤٩٥ ..... اشاره

٤٩٥ ..... الشَّرْك ذَنْبٌ لَا يُغْتَفَرُ: .....

٤٩٧ ..... الآيات [سورة النساء (٤): الآيات ١١٧ إلى ١٢١] .....

٤٩٧ ..... اشاره .....

٤٩٧ ..... التفسير .....

٤٩٧ ..... اشاره .....

٤٩٧ ..... مكائد الشَّيْطَان: .....

٥٠٢ ..... الآية [سورة النساء (٤): آية ١٢٢] .....

٥٠٢ ..... اشاره .....

٥٠٢ ..... التفسير .....

٥٠٤ ..... الآيات [سورة النساء (٤): الآيات ١٢٣ إلى ١٢٤] .....

٥٠٤ ..... اشاره .....

٥٠٤ ..... سبب النزول .....

٥٠٥ ..... التفسير .....

٥٠٥ ..... اشاره .....

٥٠٥ ..... امتيازات حقيقه و أخرى زائفه: .....

٥٠٦ ..... سؤال: .....

٥٠٦ ..... الجواب: .....

٥٠٧ ..... الآيات [سورة النساء (٤): الآيات ١٢٥ إلى ١٢٦] .....

٥٠٧ ..... اشاره .....

٥٠٧ ..... التفسير .....

٥٠٨ ..... ما هو معنى الخليل؟ .....

٥١١ ..... الآية [سورة النساء (٤): آية ١٢٧] .....

٥١١ ..... اشاره .....

٥١١ ..... التفسير .....

٥١١ ..... اشاره .....

٥١١ ..... عود على حقوق المرأة: .....

- ٥١٣ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ١٢٨]
- ٥١٣ ..... اشاره
- ٥١٣ ..... سبب النزول
- ٥١٤ ..... التفسير
- ٥١٤ ..... اشاره
- ٥١٤ ..... الضلع خير:
- ٥١٦ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٢٩ الى ١٣٠]
- ٥١٦ ..... اشاره
- ٥١٦ ..... التفسير
- ٥١٦ ..... اشاره
- ٥١٦ ..... العدالة شرط في تعدد الزوجات:
- ٥١٨ ..... جواب على سؤال ضروري:
- ٥٢٠ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٣١ الى ١٣٤]
- ٥٢٠ ..... اشاره
- ٥٢٠ ..... التفسير
- ٥٢٤ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ١٣٥]
- ٥٢٤ ..... اشاره
- ٥٢٤ ..... التفسير
- ٥٢٤ ..... اشاره
- ٥٢٤ ..... العدالة الاجتماعيه:
- ٥٢٨ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ١٣٦]
- ٥٢٨ ..... اشاره
- ٥٢٨ ..... سبب النزول
- ٥٢٨ ..... التفسير
- ٥٣١ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٣٧ الى ١٣٩]
- ٥٣١ ..... اشاره

التفسير ..... ٥٣١

اشاره ..... ٥٣١

مصير المنافقين المعاندين: ..... ٥٣١

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٤٠] ..... ٥٣٤

اشاره ..... ٥٣٤

سبب النزول ..... ٥٣٤

التفسير ..... ٥٣٤

اشاره ..... ٥٣٤

التهى عن المشاركه فى مجالس يعصى الله فيها: ..... ٥٣٤

إن الآيه تخبرنا عن عده أمور: ..... ٥٣٥

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٤١] ..... ٥٣٧

اشاره ..... ٥٣٧

التفسير ..... ٥٣٧

اشاره ..... ٥٣٧

صفات المنافقين: ..... ٥٣٧

الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٤٢ الى ١٤٣] ..... ٥٤٠

اشاره ..... ٥٤٠

التفسير ..... ٥٤٠

الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٤٤ الى ١٤٦] ..... ٥٤٣

اشاره ..... ٥٤٣

التفسير ..... ٥٤٣

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٤٧] ..... ٥٤٦

اشاره ..... ٥٤٦

التفسير ..... ٥٤٦

اشاره ..... ٥٤٦

العقاب الإلهى ليس دافعه الانتقام: ..... ٥٤٦

- الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٤٨ الى ١٤٩] ..... ٥٤٨
- اشاره ..... ٥٤٨
- التفسير ..... ٥٤٨
- اشاره ..... ٥٤٨
- العفو عن المعتدى و أثره على نزعه العدوان: ..... ٥٥٠
- الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٥٠ الى ١٥٢] ..... ٥٥٢
- اشاره ..... ٥٥٢
- التفسير ..... ٥٥٢
- اشاره ..... ٥٥٢
- لا تمييز بين الأنبياء: ..... ٥٥٢
- التناسب بين الذنب والعقاب: ..... ٥٥٣
- الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٥٣ الى ١٥٤] ..... ٥٥٤
- اشاره ..... ٥٥٤
- سبب النزول ..... ٥٥٤
- التفسير ..... ٥٥٤
- اشاره ..... ٥٥٤
- هدف اليهود من اختلاق الأعذار: ..... ٥٥٤
- الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٥٥ الى ١٥٨] ..... ٥٦٠
- اشاره ..... ٥٦٠
- التفسير ..... ٥٦٠
- اشاره ..... ٥٦٠
- نماذج أخرى من ممارسات اليهود العدوانييه: ..... ٥٦٠
- اسطوره الصليب؟ ..... ٥٦٢
- الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٥٩] ..... ٥٦٧
- اشاره ..... ٥٦٧
- التفسير ..... ٥٦٧

٥٦٧ ..... اشارة

٥٦٩ ..... سؤال:

٥٦٩ ..... الجواب:

٥٧١ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٦٠ الى ١٦٢].

٥٧١ ..... اشارة

٥٧١ ..... التفسير

٥٧١ ..... اشارة

٥٧١ ..... مصير الصالحين و الطالحين من اليهود:

٥٧٥ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٦٣ الى ١٦٦].

٥٧٥ ..... اشارة

٥٧٥ ..... التفسير

٥٨١ ..... الآيات [سوره النساء (٤): الآيات ١٦٧ الى ١٦٩].

٥٨١ ..... اشارة

٥٨١ ..... التفسير

٥٨٣ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ١٧٠].

٥٨٣ ..... اشارة

٥٨٣ ..... التفسير

٥٨٥ ..... الآية [سوره النساء (٤): آيه ١٧١].

٥٨٥ ..... اشارة

٥٨٥ ..... التفسير

٥٨٥ ..... اشارة

٥٨٥ ..... اسطوره التثليث الوهميه:

٥٨٩ ..... عقيدة التثليث أكبر خرافه مسيحيه:

٥٩٦ ..... الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ١٧٢ الى ١٧٣].

٥٩٦ ..... اشارة

٥٩٦ ..... سبب النزول



التفسير ..... ٥٩٧

اشاره ..... ٥٩٧

المسيح هو عبد الله: ..... ٥٩٧

الآيتان [سوره النساء (٤): الآيات ١٧٤ الى ١٧٥] ..... ٦٠٠

اشاره ..... ٦٠٠

التفسير ..... ٦٠٠

اشاره ..... ٦٠٠

التور المبين: ..... ٦٠٠

الآيه [سوره النساء (٤): آيه ١٧٦] ..... ٦٠٢

اشاره ..... ٦٠٢

سبب النزول ..... ٦٠٢

التفسير ..... ٦٠٣

سوره المائده ..... ٦٠٧

اشاره ..... ٦٠٧

محتويات سوره المائده ..... ٦٠٩

الآيه [سوره المائده (٥): آيه ١] ..... ٦١٠

اشاره ..... ٦١٠

التفسير ..... ٦١٠

اشاره ..... ٦١٠

الإلزام بالوفاء بالعهد و الميثاق: ..... ٦١٠

الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٢] ..... ٦١٧

اشاره ..... ٦١٧

التفسير ..... ٦١٧

اشاره ..... ٦١٧

ثمانيه احكام فى آيه واحده: ..... ٦١٧

التعاون فى أعمال الخير: ..... ٦٢٠

- الآية [سوره المائده (٥): آيه ٣] - ٦٢٣
- اشاره - ٦٢٣
- التفسير - ٦٢٣
- اشاره - ٦٢٣
- الاعتدال فى تناول اللحوم: - ٦٢٧
- متى أكمل الله الدين للمسلمين: - ٦٢٨
- سؤال يفرض نفسه: - ٦٣٥
- الجواب: - ٦٣٥
- الآية [سوره المائده (٥): آيه ٤] - ٦٣٨
- اشاره - ٦٣٨
- سبب النزول - ٦٣٨
- التفسير - ٦٣٩
- اشاره - ٦٣٩
- الحلال من الصيد: - ٦٣٩
- الآية [سوره المائده (٥): آيه ٥] - ٦٤٢
- اشاره - ٦٤٢
- التفسير - ٦٤٢
- اشاره - ٦٤٢
- حكم طعام أهل الكتاب و حكم الزّواج بهم: - ٦٤٢
- حكم الزّواج بغير المسلمات: - ٦٤٧
- الآية [سوره المائده (٥): آيه ٦] - ٦٥٠
- اشاره - ٦٥٠
- التفسير - ٦٥٠
- اشاره - ٦٥٠
- تطهير الجسم و الزوج: - ٦٥٠
- فلسفه الوضوء و التيمم: - ٦٥٦

٦٥٧ ..... فلسفه الغسل:

٦٦١ ..... الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٧] -

٦٦١ ..... اشاره

٦٦١ ..... التفسير

٦٦١ ..... اشاره

٦٦١ ..... العهود الزبانيه:

٦٦٤ ..... الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٨ الى ١٠] -

٦٦٤ ..... اشاره

٦٦٤ ..... التفسير

٦٦٤ ..... اشاره

٦٦٤ ..... دعوه مؤكده إلى العدالة:

٦٦٦ ..... العدل ركن إسلامي مهم:

٦٦٩ ..... الآيه [سوره المائده (٥): آيه ١١] -

٦٦٩ ..... اشاره

٦٦٩ ..... التفسير

٦٧٢ ..... الآيه [سوره المائده (٥): آيه ١٢] -

٦٧٢ ..... اشاره

٦٧٢ ..... التفسير

٦٧٦ ..... الآيه [سوره المائده (٥): آيه ١٣] -

٦٧٦ ..... اشاره

٦٧٦ ..... التفسير

٦٧٦ ..... اشاره

٦٧٨ ..... الممارسات التحريفيه لليهود:

٦٧٨ ..... هل يجعل الله قلب الإنسان قاسياً؟

٦٨١ ..... الآيه [سوره المائده (٥): آيه ١٤] -

٦٨١ ..... اشاره

٦٨١ ..... التفسير

٦٨١ ..... اشاره

٦٨١ ..... العداة الأبدى:

٦٨٥ ..... الأيتان [سوره المائده (٥): الآيات ١٥ الى ١٦]

٦٨٥ ..... اشاره

٦٨٥ ..... التفسير

٦٨٩ ..... الآية [سوره المائده (٥): آيه ١٧]

٦٨٩ ..... اشاره

٦٨٩ ..... التفسير

٦٨٩ ..... اشاره

٦٨٩ ..... كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله؟!

٦٩٣ ..... الآية [سوره المائده (٥): آيه ١٨]

٦٩٣ ..... اشاره

٦٩٣ ..... التفسير

٦٩٦ ..... الآية [سوره المائده (٥): آيه ١٩]

٦٩٦ ..... اشاره

٦٩٦ ..... التفسير

٦٩٦ ..... اشاره

٦٩٧ ..... سؤال:

٦٩٧ ..... الجواب:

٦٩٩ ..... الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

٦٩٩ ..... اشاره

٧٠٠ ..... التفسير

٧٠٠ ..... اشاره

٧٠٠ ..... بنو إسرائيل و الأرض المقدسه:

٧٠٩ ..... الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

٧٠٩ ..... اشارة

٧٠٩ ..... التفسير

٧٠٩ ..... اشارة

٧٠٩ ..... أول حادثه قتل على الأرض:

٧١١ ..... نقاط مهمه يجب الانتباه لها:

٧١٣ ..... الأيتان [سوره المائده (٥): الآيات ٣٠ الى ٣١]

٧١٣ ..... اشارة

٧١٣ ..... التفسير

٧١٣ ..... اشارة

٧١٣ ..... التستر على الجريمة:

٧١٧ ..... الآية [سوره المائده (٥): آيه ٣٢]

٧١٧ ..... اشارة

٧١٧ ..... التفسير

٧١٧ ..... اشارة

٧١٧ ..... وحده الإنسانيه و كرامتها:

٧٢١ ..... الأيتان [سوره المائده (٥): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

٧٢١ ..... اشارة

٧٢١ ..... سبب النزول

٧٢٢ ..... جزاء مرتكب العدوان:

٧٢٤ ..... الآية [سوره المائده (٥): آيه ٣٥]

٧٢٤ ..... اشارة

٧٢٤ ..... التفسير

٧٢٤ ..... اشارة

٧٢٤ ..... حقيقه التوسل إلى الله:

٧٢٨ ..... التوسل في القرآن:

٧٢٩ ..... التوسل في الروايات الإسلاميه:

٧٣١ ..... ملاحظات ضروريه:

٧٣٤ ..... الأيتان [سوره المائده (٥): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

٧٣٤ ..... اشاره

٧٣٤ ..... التفسير

٧٣٦ ..... الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

٧٣٦ ..... اشاره

٧٣٦ ..... التفسير

٧٣٦ ..... اشاره

٧٣٦ ..... عقوبه السرقة:

٧٣٨ ..... أ-شروط معاقبه السارق:

٧٣٩ ..... ب-المقدار الذى يجب قطعه من يد السارق:

٧٣٩ ..... ج-حدّ السرقة و أقاويل اعداء الإسلام:

٧٤١ ..... د-اعتراضات أخرى:

٧٤١ ..... تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱











أشاره

[الآيات [سورة آل عمران (3): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

أشاره

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَال لَّهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسِ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)

التفسير

أشاره

غزوه حمراء الأسد:

قلنا أن جيش أبي سفيان المنتصر أسرع بعد انتصاره في معركة «أحد» على الجيش الإسلامي يغذ السير في طريق العوده إلى مكه حتى إذا بلغ أرض «الروحاء» ندم على فعله، وعزم على العوده إلى المدينه للإجهاز على ما تبقى من فلول المسلمين، واستئصال جذور الإسلام حتى لا تبقى له و لهم باقيه.

و لما بلغ هذا الخبر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر مقاتلى أحد أن يستعدوا للخروج إلى معركة اخرى مع المشركين، و خص بأمره هذا الجرحى و المصابين حيث أمرهم بأن ينضموا إلى الجيش.

يقول رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد شهد أحدا: شهدت أحدا و أخ لى

فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم بالخروج في طلب العدو قلنا:

لا تفوتنا غزوه مع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، فوالله ما لنا دابة نركبها و ما منّا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم و كنت أيسر جرحا من أخي، فكنت إذا غلب حملته عقبه و مشى عقبه حتى انتهينا مع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم إلى «حمراء الأسد».

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان و أدرك صمود المسلمين، و الذي تجلّى في اشتراك الجرحى و المصابين خاف و أربع، و لعله ظن أنه أدركت المسلمين قوّه جديده من المقاتلين و أتاهم المدد.

هذا و قد حدثت في هذا الموضوع حادثه زادت من إضعاف معنويه المشركين، و ألفت مزيدا من الوهن في عزائمهم، و هى أنه: مرّ برسول الله «معبد الخزاعي» و هو يومئذ مشرك، فلما شاهد النبى و ما عليه هو و أصحابه من الحاله تحركت عواطفه و جاشت، فقال للنبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم: يا محمّد و الله لقد عزّ علينا ما أصابك في قومك و أصحابك، و لوددنا أن الله كان أعفأك فيهم، ثمّ خرج من عند رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم حتى لقي أبا سفيان و من معه بالزّوجاء و قد أجمعوا الرّجعه إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراك يا معبد؟ قال: محمّد صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر قط مثله يتحرّقون عليكم تحرقا، و قد اجتمع عليه من كان تخلف عنه في يومكم، و ندموا على صنيعهم، و فيه من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ قال معبد: «فأنا و الله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل».

قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكره عليهم لنستأصلهم.

قال معبد: فأنا و الله أنهاك عن ذلك.

فثنى ذلك أبا سفيان و من معه و قفل راجعا و منسحبا إلى مكّه بسرعه، و حتى يتوقف المسلمون عن طلبه و ملاحقته و يجد فرصه كافيه للانسحاب قال

لجماعه من بنى عبد قيس كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح:

«أخبروا محمدا إنا قد أجمعنا الكثره عليه و على أصحابه لنستأصل بقيتهم» ثم انصرف إلى مكه.

و لما مرّت هذه الجماعه برسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم و هو بحمراء الأسد أخبره بقول أبي سفيان،

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم: «حسبنا الله و نعم الوكيل» و بقى هناك ينتظر المشركين ثلاثه أيام، فلم ير لهم أثرا فانصرف إلى المدينة بعد الثالثه. و الآيات الحاضره تشير إلى هذه الحادثه و ملابساتها (1) يقول سبحانه: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ .

و يتبين من تخصيص جماعه معينه بالأجر العظيم فى هذه الآيه أنه كان هناك بينهم من لم يملك الإخلاص الكامل، كما يمكن أن يكون التعبير ب«منهم» إشاره إلى أن بعض المقاتلين فى أحد امتنعوا ببعض الحجج عن تلبيه نداء الرسول و الإسهام فى هذه الحركه.

ثم أن القرآن الكريم يبين إحدى العلامه الحيه لاستقامتهم و ثباتهم إذ يقول:

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ

و المعنيون بالناس فى قوله: قَالَ لَهُمُ النَّاسُ هم ركب عبد القيس، أو نعيم بن مسعود الذى جاء بهذا الخبر على روايه اخرى.

ثم بعد ذكر هذه الاستقامه الواضحه و هذا الإيمان البارز يذكر القرآن الكريم نتيجه عملهم إذ يقول: فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلِهِ وَ أَيُّهُ نِعْمَةٌ وَ أَى فَضْلٌ أَعْظَمُ وَ أَعْلَى مِنْ أَنْ يَنْهَزَ الْأَعْدَاءُ الْخَطَرُونَ أَمَامَهُمْ مِنْ دُونِ أَى صَدَامٍ أَوْ لِقَاءٍ وَ يَعُودُ هَؤُلَاءِ الْمُقَاتِلُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَالِمِينَ.

يبقى أن نعرف أن الفرق بين النعمه و الفضل، يمكن أن يكون بأن النعمه هى

ص: ٧

الأجر بقدر الاستحقاق و الفضل هو النفع الزائد على قدر الاستحقاق.

و تأكيداً لهذا الأمر يقول القرآن: لَمْ يَمْسَسِيَهُمْ سُوءٌ مضافاً إلى أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ أَنَّهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ ينتظر المؤمنين الحقيقيين، و المجاهدين الصادقين.

### التربية الإلهية و عطاؤها السريع:

إنَّ مقارنة معنوية المسلمين في معركة «بدر» بمعنويتهم في حادثة «حمراء الأسد» التي مرَّ تفصيلها، أمر يدعو إلى الإعجاب لدى المرء، إذ كيف استطاعت جماعه منكسره لا تملك المعنوية العاليه، و لا العدد البشري الكافي، مع ما يحمل أفرادها من الجراحات الثقليه و الإصابات الفادحه أن تغير ملامحها في مدّه قد لا تزيد على يوم و ليله، فتستعد و على درجه عاليه من العزم و الإراده لطلب العدو و ملاحقته، و مواجهته مره اخرى إلى درجه أن القرآن الكريم يقول عنهم: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا وَ صَمَدُوا.

هذا هو أثر الإيمان بالهدف، فكلما ازدادت مصائب الإنسان المؤمن و ازدادت مشكلاته ازدادت استقامته، و تضعف ثباته، و شحذت عزمته، و في الحقيقه تهيأت كل قواه المعنويه و الماديه و تعبأت لمواجهه الخطر.

إن هذا التغير العجيب، و هذا التحول السريع و العظيم في مثل هذه المدّه القصيره يوقف الإنسان على مدى سرعه تأثير التربيه القرآنيه و عمقها، و مدى فاعليه البيان النبوي الأخاذ الذي يكاد يكون معجزه.

إشارة

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

التفسير

هذه الآية تعقيب على الآيات التي نزلت حول غزوه «حمراء الأسد»، ولفظه «ذلكم» إشارة إلى الذين كانوا يخوفون المسلمين من قوه قريش، و بأس جيشهم لإضعاف معنويات المسلمين.

و على هذا الأساس يكون معنى هذه الآية هو: إن عمل نعيم بن مسعود، أو ركب عبد القيس من عمل الشيطان لكي يخوفوا به أولياء الشيطان، يعنى أن هذه الوسوس إنما تؤثر فى أتباع الشيطان و أوليائه خاصه، و أما المؤمنون الثابتون فلا تزل أقدامهم لهذه الوسوس مطلقا، و لن يرعبوا و لن يخافوا أبدا، و على هذا الأساس فأنتم لستم من أولياء الشيطان، فلا تخافوا هذه الوسوس، و يجب أن لا تزلزلكم أو ترزعزع إيمانكم.

إنّ التعبير عن نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس و وصفهم ب«الشيطان» إنما لكون عملهم ذلك من عمل الشيطان و مستلهم منه و مأخوذ من وحيه، لأن القرآن يسمّى كل عمل قبيح و فعل مخالف للدين عمل شيطاني، لأنه يتم بوسوسته،



و يصدر عن وحيه إلى أتباعه.

و إِمَّا أَنْ الْمَقْصُودُ مِنَ الشَّيْطَانِ هُمْ نَفْسُ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ، فَيَكُونُ «هَذَا الْمُورِدُ» مِنَ الْمَوَارِدِ الَّتِي يُطْلَقُ فِيهَا اسْمُ «الشَّيْطَانِ» عَلَى الْمَصْدَاقِ الْإِنْسَانِيِّ لَهُ، لِأَنَّ لِلشَّيْطَانِ مَعْنَى وَسِيعًا يَشْمَلُ كُلَّ غَاوٍ مُضِلٍّ، إِنْسَانًا كَانَ أَمْ غَيْرَ إِنْسَانٍ كَمَا نَقَرْنَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ الْآيَةِ (١١٢)، وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ .

ثُمَّ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ فِي خَتَامِ الْآيَةِ: وَ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يَعْنِي أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْخَوْفَ مِنْ غَيْرِهِ لَا يَجْتَمِعَانِ، وَ هَذَا كَقَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ:

فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا

(١)

و عَلَى هَذَا الْإِسَاسِ فَإِنْ وَجَدَ فِي أَحَدِ الْخَوْفِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نَقْصَانِ إِيْمَانِهِ وَ تَأْثِيرِهِ بِالْوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِيَةِ لِأَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ وَ لَا مَوْثِرَ بِالذَّاتِ فِي هَذَا الْكُونِ الْعَرِيضِ سِوَى اللَّهِ الَّذِي لَيْسَ لِأَحَدٍ قَدْرُهُ فِي مَقَابِلِ قَدْرَتِهِ.

وَ أُسَاسًا لَوْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَارَنُوا وَلِيَهُمْ (وَ هُوَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ) بُولَى الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ (الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ) لَعَلِمُوا أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ تَجَاهَ اللَّهِ أَيَّ قَدْرِهِ، وَ لِهَذَا لَا يَخَافُونَهُمْ قَيْدَ شَعْرِهِ.

وَ خِلَاصُهُ هَذَا الْكَلَامِ وَ نَتِيجَتُهُ هِيَ أَنَّ الْإِيمَانَ أَيْنَمَا كَانَ، كَانَتْ مَعَهُ الشَّجَاعَةُ وَ الشَّهَامَةُ، فَهَمَا تَوَآمَانُ لَا يَفْتَرِقَانِ.

ص: ١٠

اشاره

وَلَا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنُضَرُّوا بِاللَّهِ شَيْئًا يَرِيدُ اللَّهُ الْإِلَّا- يَجْعَلْ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ  
(١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ إِشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنُضَرُّوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)

التفسير

اشاره

تسليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

الخطاب في قوله تعالى: وَلَا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ موجه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فالله تعالى يسلى نبيه في أعقاب أحداث «أحد» المؤلمة قائلا- له: أيها الرسول لا- يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ وَ كَانَتْهُمْ يتسابقون إليه إِنَّهُمْ لَنُضَرُّوا بِاللَّهِ شَيْئًا بل يَضْرَبُونَ بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ، و أساسا فالمتضرر و المنتفع إنما هي الموجودات التي لا تملك من عند أنفسها شيئا حتى وجودها، أمّا الله الأنزلى الأبدى سبحانه فهو الغنى المطلق، فما الذى يعود به كفر الناس أو إيمانهم عليه سبحانه، و أى أثر يمكن أن يكون لجهودهم و محاولاتهم بالنسبة إليه تعالى؟ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِإِيمَانِهِمْ إِذ يتكاملون بهذا الإيمان، و هم المتضررون

بالكفر أيضا، إذ يؤدي هذا الكفر إلى سقوطهم و انحطاطهم.

□ هذا مضافا إلى أن الله سوف لن ينسى مواقفهم المشينه و لن تفوته مخالفاتهم، و سيصيبهم جزاء ما يعملونه يوم القيامة: يُرِيدُ اللَّهُ  
□ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

و في الحقيقة فإن الآيه تقول: إذا كان هؤلاء يتسابقون في الكفر فليس ذلك لأن الله لا يقدر على كبح جماحهم، بل لأن الله أراد أن يكونوا أحرارا في اتّخاذ المواقف و سلوك الطريق الذي يريدون، و لا شك أن نتيجة ذلك هو الحرمان الكامل من المواهب الرّبانيه في العالم الآخر.

و على هذا فالآيه لا تنفى الجبر فحسب، بل هي من الأدله و البراهين الساطعه على حريه الإراده الإنسانيه.

□ ثم يقرّر القرآن هذه الحقائق في الآيه الثانيه بشكل أكثر تفصيلا إذ يقول: إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا  
□ يعنى ليس الذين يتسابقون في طريق الكفر و يسارعون إليه هم و حدهم على هذا الحال، بل كل الذين يسلكون طريق الكفر بشكل من الأشكال و يشترون الكفر بالإيمان، كل هؤلاء لن يضرّوا الله شيئا، و إنّما يضرّون أنفسهم.

□ و يختم سبحانه الآيه بقوله: وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ هذا التفاوت في التعبير في خاتمه هذه الآيه و الآيه التي قبلها حيث قال هناك: وَ  
□ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ و قال هنا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إنّما هو لأجل إن الذين جاء ذكرهم في الآيه السابقه أسرع في المبادره و التوجه نحو الكفر.

اشاره

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)

التفسير

اشاره

المثقلون بأوزارهم:

بعد تسليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات السابقة وطمينه تجاه ما يقوم به أعداء رساله و الحق من محاولات عدائيه لا تحصى، توجه سبحانه إلى الأعداء في هذه الآيه بالخطاب، وأخذ يحدّثهم عن المصير المشؤوم الذى ينتظرهم، (و هذه الآيه ترتبط فى الحقيقه-بأحداث معركه «أحد» فهى مكمله للأبحاث التى مرّت حول هذه الواقعه، لأن الحديث و الخطاب تاره كان موجها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و أخرى موجها إلى المؤمنين، و ها هو هنا موجه إلى الكفار و المشركين).

إنّ الآيه الحاضره التى يقول فيها سبحانه: **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** تحذّر المشركين بأن عليهم أن لا يعتبروا ما أتيح لهم من إمكانات فى العده و العدد، و ما

ص: ١٣

---

١-١) -نملى مشتقه من الإملاء، و تغنى المساعدة و الإعانه و تستعمل فى أكثر الموارد فى إطاله المدّه و الإمهال الذى هو نوع من المساعدة، و قد جاءت فى الآيه الحاضره بالمعنى الثانى.

يكسبونه من انتصارات فى بعض الأحيان، و ما يمتلكونه من حرّيه التصرف، دليلاً على صلاحهم، أو علامه على رضا الله عنهم.

و توضيح ذلك: إنّ المستفاد من الآيات القرآنيه هو أنّ الله سبحانه يتبه العصاه الذين لم يتوغلوا فى الخطيئه و لم يغرقوا فى الآثام غرقاً، فهو سبحانه يتبههم بالنذر تاره، و بما يتناسب مع أعمالهم من البلاء و الجزاء تاره أخرى، فيعيدهم بذلك إلى جاده الحق و الصواب. و هؤلاء هم الذين لم يفقدوا بالمّرّه قابليه الهدايه، فيشملهم اللطف الإلهي، فتكون المحن و البلايا نعمه بالنسبه إليهم، لأنها تكون بمثابة جرس إنذار لهم تتبههم من غفلتهم، و تنتشلهم من غفوتهم كما يقول الله سبحانه: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبُحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١)**.

و لكن الذين تمادوا فى الذنوب و غرقوا فيها، و بلغ طغيانهم نهايته فإنّ الله يخذلهم، و يكلهم إلى نفوسهم، أى أنّه يملئ لهم لتثقل ظهورهم بأوزارهم، و يستحقوا الحدّ الأكثر من العقوبه و العذاب المهين.

هؤلاء هم الذين نسفوا كلّ الجسور، و قطعوا كلّ علاقاتهم مع الله، و لم يتركوا لأنفسهم طريق لا العوده إلى ربّهم، و هتكوا كلّ الحجب، و فقدوا كلّ قابليه للهدايه الإلهيه، و كل أهليه للطف الرّباني.

إنّ الآيه الحاضره تؤكد هذا المفهوم و هذا الموضوع إذ تقول: **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُضِلُّهُمْ إِلَّا أَنَّمَا نُضِلُّ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .**

و لقد استدلت بطله الإسلام زينب الكبرى بنت الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام بهذه الآيه فى خطابها المدوى و الساخن أمام طاغيه الشام «يزيد بن معاويه» الذى كان من أظهر مصاديق العصاه و المجرمين الذين قطعوا جميع جسور العوده

ص: ١٤

على أنفسهم بما ارتكبوه من فطيع الفعال، و ما اقترفوه من شنيع الأعمال إذ قالت:

«أظننت يا يزيد... أن بنا على الله هوانا، و بك عليه كرامه، و أن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، و نظرت فى عطفك، جذلان مسرورا، حين رأيت الدنيا لك مستوثقه و الأمور متسقه، و حين صفا لك ملكنا و سلطاننا، فمهلا مهلا أنسيت قول الله عز و جل: **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُم لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**».

### جواب على سؤال:

إن الآيه الحاضره تجيب ضمنا على سؤال يخالغ أذهان كثير من الناس و هو: لما ذا يرفل بعض العصاه و المجرمين فى مثل هذا النعيم، و لا يلقون جزاءهم العادل على إجرامهم؟ فإن القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشائع قائلا: إن هؤلاء فقدوا كل قابليه للتغيير و الإصلاح، و هم بالتالى من الذين تقتضى سنّه الخلق و مبدأ حرّيه الإنسان و اختياره أن يتركوا لشأنهم، و يوكلوا إلى أنفسهم ليصلوا إلى مرحله السقوط الكامل، و يستحقوا الحدّ الأكثر من العذاب و العقوبه.

هذا مضافا إلى ما يستفاد من بعض الآيات القرآنيه من أنه سبحانه قد يمدّ البعض بالنعيم الوافره و هو بذلك يستدرجهم، أى أنه يأخذهم فجأه و هم فى ذروه النعم، و يسلبهم كل شىء و هم فى أوج اللذّه و التمتع، ليكونوا بذلك أشقى من كل شقى، و يواجهوا فى هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب، لأن فقدان هذا النعيم أشدّ وقعا على النفس، و أكثر مراره كما نقرأ فى الكتاب العزيز: **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (١)**.

ص: ١٥

و مثل هؤلاء-فى الحقيقه-مثل الذى يتسلق شجره،فإنه كلما إزداد رقيا إزداد فرحا فى نفسه،حتى إذا بلغ قمتهفا فاجأته عاصفه شديده،فهوى على أثرها من ذلك المترفع الشاهق إلى الأرض فتحطمت عظامه،فتبدل فرحه البالغ إلى حزن شديد.

### لفته أدبيه:

يتبين ممّا قلناه فى تفسير هذه الآيه أن «اللام» فى قوله سبحانه: لِيَزِدُّوا إِثْمًا «لام العاقبه» و ليست «لام الغايه».

و توضيح ذلك: إنّ العرب قد تستعمل اللام لبيان أن ما بعد اللام مراد للإنسان و مطلوب له كقوله: لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (١).

و من البديهي أن هدايه الناس و خروجهم من الظلمات إلى النور مراد له سبحانه.

و قد تستعمل العرب «اللام» لا لبيان أن هذا هو مراد و مطلوب للشخص،بل لبيان أن هذا نتيجة عمل المرء و مآل موقفه كقوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا (٢) و لا شك أنّهم إنما أخذوه ليكون لهم سرورا و قره عين. و لا يختص هذا الأمر باللغه العربيه و آدابها،بل هو مشهور فى غيره من اللغات و الآداب.

و من هنا يتضح الجواب على تساؤل آخر يطرح نفسه هنا و هو:لما ذا قال سبحانه: لِيَزِدُّوا إِثْمًا الذى معناه-بحسب الظاهر-أى نريد أن يزدادوا إثما.

لأن هذا الإشكال و التساؤل إنّما يكون واردا إذا كانت اللام هنا لام الإراده و الغايه المبينه للعلّه و الهدف،لا «لام العاقبه» ليكون معنى قوله لِيَزِدُّوا إِثْمًا

ص: ١٦

١-١) -إبراهيم،١.

٢-٢) -القصص،٨.

هو: لتكون عاقبه أمرهم ازديادهم الإثم.

و على هذا يكون معنى الآية: نحن نمهلهم لتكون عاقبه أمرهم ازدياد ذنوبهم و أوزارهم من الإثم، فالآية لا- تدلّ على الجبر مطلقاً، بل هي خير دليل على حرية الإنسان و اختياره.

ص: ١٧



اشاره

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

التفسير

اشاره

المسلمون في بوقه الاختبار و الفرز:

لم تكن قضيه «المنافقين» مطروحه بقوه قبل حادثه معركه «أحد» و لهذا لم يكن المسلمون يعرفون عدوا لهم غير الكفار، و لكن الهزيمه التي أفرزتها «أحد» و ما دبّ في المسلمين على أثرها من الضعف المؤقت مهّد الأرضيه لنشاط المنافقين المندسّين في صفوف المسلمين، و على أثر ذلك عرف المسلمون و أدركوا بأنّ لهم عدوا آخر أخطر يجب أن يراقبوا تحركاته و نشاطاته و هو «المنافقون»، و كان هذا إحدى أهم معطيات حادثه «أحد» و نتائجها الإيجابيه.

و الآيه الحاضره التي هي آخر الآيات التي تتحدث-هنا-عن معركه «أحد» و أحداثها، تبين و تستعرض هذه الحقيقه في صوره قانون عام إذ تقول: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ فلا بدّ أن تتميز

الصفوف، وتتمّ عمليه الفرز بين الطيب الطاهر، والخبيث الرجس. وهذا قانون عام و سنه إلهيه خالده و شامله، فليس كلّ من يدعى الإيمان، و يجد مكانا في صفوف المسلمين يترك لشأنه، بل ستبلى سرائره، و تنكشف حقيقته في الآخره بعد الاختبارات الإلهيه المتتابعه له.

و هنا يمكن أن يطرح سؤال (و هو السؤال الذى كان مطروحا بين المسلمين آنذاك أيضا حسب بعض الأحاديث و الزوايات) و هو: إذا كان الله عالما بسريره كل إنسان و أسراره فلما ذا لا يخبر بها الناس - عن طريق العلم بالغيب - و يعرفهم بالمؤمن و المنافق؟ إنّ المقطع الثانى من الآيه و هو قوله: **وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ** يجب على هذا السؤال. أى أن الله سبحانه لن يوقفكم على الأسرار، لأن الوقوف على الأسرار - على عكس ما يظن كثيرون لا يحلّ مشكله، و لا يفكّ عقده، بل سيؤدى إلى الهرج و المرج و الفوضى، و إلى تمزق العلاقات الاجتماعيه و انهيارها، و انطفاء شعله الأمل فى النفوس و تبدده، و توقف الناس عن الحركة و النشاط و الفعاله.

و الأهم من كلّ ذلك هو أنّه لا بدّ أن تتضح قيمه الأشخاص من خلال المواقف العمليه و السلوكيه، و ليس عن أى طريق آخر، و مسأله الاختبار الإلهي لا تعنى سوى هذا الأمر، و لهذا فإن الطريق الوحيد لمعرفة الأشخاص و تقويمهم هو أعمالهم فقط (1).

ثمّ إنّ الله سبحانه يستثنى الأنبياء من هذا الحكم إذ يقول: **وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ** أى أنّه يختار فى كل عصر من بين أنبيائه من يطلعهم على

ص: ١٩

١ - ١) - لقد مرّ طرح هذا السؤال بالتفصيل عند تفسير قوله تعالى: **وَ لَنْبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ...** و أجبنا هناك بأن الامتحان الإلهي - هو فى الحقيقه - نوع من التريبه العمليه للبشر، و لا - يعنى الاستخبار و الاستعلام، و لمزيد الاطلاع راجع ذلك البحث.

شئ من تلك الغيوب و يوقفهم على بعض الأسرار بحكم احتياج القيادة الرساليه إلى ذلك، و تبقى الأعمال-مع ذلك كله-هى الملاك الوحيد و المعيار الخالد و المسار الأبدى لمعرفة الأشخاص و تمييزهم و تصنيفهم.

و من هذه العبارة يستفاد أنّ الأنبياء-بحسب ذواتهم-لا يعرفون شيئاً من الغيب، كما و يستفاد منها أنّ ما يعلمونه منه إنما هو بتعليم الله لهم و اطلاعهم على شئ من الغيوب، و على هذا الأساس يكون الأنبياء ممن يطلعون على الغيب، كما أن مقدار علمهم بالغيب يتوقف على المشيئة الإلهيه.

و من الواضح و المعلوم أنّ المراد من المشيئة الإلهيه فى هذه الآيه-كغيرها من الآيات-هو«الإرادة المقرونة بالحكمه»أى أنّ الله سبحانه يطلع على الغيب كلّ من يراه صالحاً لذلك، و تقتضى حكمته سبحانه ذلك.

ثمّ أنّه تعالى يذكرهم فى ختام الآيه-بأن عليهم-و هو الآن فى بوتقه الحياه، بوتقه الامتحان الكبير، بوتقه التمييز بين الصالح و الطالح، و الطيب و الخبيث، و المؤمن و المنافق-عليهم أن يجتهدوا لينجحوا فى هذا الامتحان و يخرجوا مرفوعى الرؤوس من هذا الاختبار العظيم، إذ يقول: فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

ثمّ أن الملاحظه الملفته للنظر و الجديره بالتأمل فى هذه الآيه التعبير عن المؤمن بالطيب، و من المعلوم أن الطيب هو الباقي على أصل خلقته الذى لم تشبهه الشوائب، و لم يدخل فى حقيقه الغرائب. و لم تلوثه الكدورات، فالماء الطاهر الطيب، و الثوب الطيب الطاهر و ما شابه ذلك هو الذى لم تلوثه الكدورات، و يستفاد من هذا أن الإيمان هو فطره الإنسان الأصلية، و هو جبلته الأولى.

اشاره

وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

التفسير

اشاره

طوق الأسر الثقيل:

تبين الآيه الحاضره مصير البخلاء فى يوم القيامه، أولئك الذين يبذلون غايه الجهد فى جمع الثروه ثم يمتنعون عن الإنفاق فى سبيل الله، و لصالح عباده.

و الآيه هذه و إن لم تتعرض صراحه لذكر الزكاه و غيرها من الحقوق و الفرائض المالىه، إلا أن الأحاديث الوارده عن أهل البيت عليهم السلام، و كذا أقوال المفسرين خصصت هذه الآيه و ما وعد به فيها من الوعيد بمانعى الزكاه، و يؤيده التشديد المشهود فى الآيه، فإن أمثال هذا التشديد و التغليظ لا يتناسب مع الإنفاق المندوب المستحب.

تقول الآيه أولاً: وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ثُمَّ تصف مصير هؤلاء فى يوم القيامه هكذا: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أى ستكون تلك الأموال التى بخلوا بها طوقاً فى

أعناقهم فى ذلك اليوم الرهيب.

و من هذه الجملة يستفاد أن الأموال التى لم يدفع صاحبها الحقوق الواجبه فيها، و لم ينتفع بها المجتمع، بل صرفت فقط فى سبيل الأهواء الشخصيه، و ربّما صرفت فى ذلك السبيل بشكل جنونى، أو كدست دون أى مبرر و لم يستفد منها أحد سيكون مصيرها مصير أعمال الإنسان، أى أنّها-طبقا لقانون تجسم الأعمال البشريه-ستتجسم يوم القيامه و تتمثل فى شكل عذاب مؤلم يؤذى صاحبها و يخزيه.

إنّ تجسّم مثل هذه الأموال التى تطوق بها أعناق ذويها إشاره إلى الحقيقه التاليه، و هى أن كل إنسان يتحمل ثقل مسؤوليتها كاملا دون أن يكون هو قد انتفع بها.

إنّ الأموال الوفيره التى تجمع بشكل جنونى و تكثر و لا- تصرف فى خدمه المجتمع لا- تكون سوى أغلال و سجون لأصحابها، لأنّ للاستفاده- كما نعلم- من الأموال و الثروه الشخصيه حدودا، فإذا تجاوزها الإنسان عادت عليه نوعا من الأسر الثقيل، و الوزر الضار، اللهم إلا أن يستفيد من آثارها المعنويه و ذلك حينما يوظفها فى الأعمال الإيجابيه الصالحه.

ثمّ إن هذه الأموال لا تشكل طوقا ثقيلًا فى أعناق أصحابها فى الآخره فحسب، بل تكون كذلك فى هذه الدنيا أيضا، غايه الأمر أن هذا المعنى يكون أكثر ظهورا فى الآ-خره، بينما يكون فى شىء من الخفاء فى هذه الحياه، فأيه حماقه- ترى- أكبر من أن يتحمل المرء مسئوليه جمع الثروه مضافه إلى مسئوليه الحفاظ عليها و حسابها و الدّفاع عنها و ما يلازم ذلك من مشاق ثقيل كاهله، فى حين لا- ينتفع بها هو أبدا، و هل الأموال حينئذ لا طوق أسر ثقيل لا غير؟ ففى تفسير العياشى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الذى يمنع الزكاه يحول الله

ماله يوم القيامة شجاعا (1) من نار... ثم يقال له: ألزمه كما لزمك في الدنيا».

و الملفت للنظر التعبير عن المال في هذه الآيه بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الذى يفهم منه أن المالك الحقيقى لهذه الأموال و مصادرها هو الله سبحانه، و إن ما أعطاه لأى واحد من الناس فإتما هو من فضله، و لهذا ينبغى أن لا يبخل، أن ينفق من تلك الأموال فى سبيل صاحبها الحقيقى.

ثم إن بعض المفسرين يرى أن مفهوم هذه العبارة يعم جميع المواهب الإلهيه و منها العلم، و لكن هذا الاحتمال لا ينطبق مع ظاهر التعبيرات الواردة فى الآيه.

ثم إن الآيه تشير إلى نقطه أخرى إذ تقول: وَ لِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يعنى أن الأموال سواء أنفقت فى سبيل الله أو لم تنفق فإنها ستفصل فى النهايه عن أصحابها، و يرث الله الأرض و السماء و ما فيهما، فالأجدر بهم -و الحال هذه- أن ينتفعوا من آثارها المعنويه، لا أن يتحملوا وزرها و عناءها، و حسرتها و تبعثها.

ثم تختم الآيه بقوله تعالى: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ أى أنه عليم بأعمالكم، يعلم إذا بخلتم، كما يعلم إذا أنفقتم ما أوتيتموه من المال فى السبيل الصالح العام و خدمه المجتمع الإنسانى، و يجازى كلا على عمله بما يليق.

ص: ٢٣

اشاره

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَفَتَلَهُمُ الْآيَاتُ بَغْيِرٍ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ  
(١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

سبب النزول

هذه الآيه نزلت ردًا على مقاله اليهود و توبيخا لهم.

فعن ابن عباس أنه قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتابا إلى يهود «بنى قينقاع» دعاهم فيه لإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه و أن يقرضوا لله «و المراد منه الإنفاق في سبيل الله و إنما عبر عنه بالإقراض لتحريك المشاعر و إثارتها لدى الناس قدرا أكبر) فدخل رسول النبي إلى بيت المدارس (حيث يتلقى اليهود دروسا في دينهم) و سلم كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى «فنحاص» و هو من كبار أبحار اليهود فلما قرأه قال مستهزءا: لو كان ما تقولونه حقا فإن الله إذن لفقير و نحن أغنياء، و لو كان غنيا لما استقرض منا (و هو يشير إلى قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا

(١)

هذا مضافا إلى أن «محمّدا» يعتقد أنّ الله نهاكم عن أكل الزّبا، و هو يعدكم أن يضاعف لكم إذا أنفقتم أضعافا مضاعفه، و هو يشير إلى قوله تعالى:

يُزِيهِ الصَّدَقَاتِ

(٢)

و لكنّ «فنحاص» أنكر أنّه قال شيئا من هذه فى ما بعد فنزلت الآيتان المذكورتان أعلاه (٣).

### التفسير

تقول الآية الأولى لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ .

أى لو أنّ هؤلاء استطاعوا أن يخفوا عن الناس مقاتلهم هذه فإن الله قد سمعها و يسمعها حرفا بحرف فلا مجال لإنكارها، فهو يسمع و يدرك حتى ما عجزت أسمع الناس عن سماعها من الأصوات الخفيه جدا أو الأصوات العاليه جدا:

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ

إذن فلا فائده و لا جدوى فى الإنكار، ثم يقول سبحانه: سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا أى أن ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنكتبه جميعه.

و من البديهي أن المراد من الكتابه ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابه و التدوين، بل المراد هو حفظ آثار العمل التى تبقى خالده فى العالم حسب قانون بقاء «الطاقه-الماده».

بل و حتى كتابه الملائكه الموكّلين من قبل الله بالبشر لضبط تصرفاتهم، هو الآخر نوع من حفظ العمل الذى هو مرتبه أعلى من الكتابه المتعارفه.

ثم يقول: وَ قَتَلَهُمُ الْآبِيَاءُ أى أنّنا لا نكتفى بكتابه مقاتلهم الكافره



١-١) - الحديد، ١١.

٢-٢) - البقره، ٢٧٦.

٣-٣) - أسباب النزول للواقدي، ص ٩٩ و تفسير روح البيان في تفسير هذه الآيه.

الباطله فحسب، بل سنكتب موقفهم المشين جدا و هو قتلهم للأنبياء.

يعنى أن مجابهه اليهود، و مناهضتهم للأنبياء ليس بأمر جديد، فليست هذه هى المره الأولى التى تستهزء يهود برسول من الرسل، فإن لهم فى هذا المجال باعا طويلا فى التاريخ، و صفحه مليئه بنظائر هذه الجرائم و المخازى، فإن جماعه بلغت فى الدناءه و الشراسه و القحه و الجرأه أن قتلت جماعه من رسل الله و أنبيائه، فلا مجال للاستغراب من تفوهها بمثل هذه الكلمات الكافره.

و يمكن أن يقال فى هذا المقام: إن قتل الأنبياء مسأله لم ترتبط باليهود فى عصر الرساله المحمديه، فلما ذا حمل وزرها عليهم؟ و لكننا نقول- كما أسلفنا أيضا- أن هذه النسبه إنمأ صحت لأنهم كانوا راضين بما فعله و ارتكبه أسلافهم من اليهود، و لهذا أشركوا فى إثمهم و وزرهم و فى مسئوليتهم عن ذلك العمل الشنيع.

و أممأ تسجيل و كتابه أعمالهم فلم يكن أمرا اعتباطيا غير هادف، بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامه، و نقول لهم: ها هى نتيجه أعمالكم قد تجسدت فى صوره عذاب محرق و نقول: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

إِنَّ هَذَا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الَّذِي تَذُوقُونَهُ لَيْسَ سِوَى نَتِيجَةِ أَعْمَالِكُمْ، فَأَنْتُمْ - أَنْفُسَكُمْ - قَدْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ (١) وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ .

بل لو أنكم و أمثالكم من المجرمين لم تنالوا جزاء أعمالكم و لم تروها بأَم أعينكم، و وقفتم فى عداد الصالحين لكان ذلك غايه فى الظلم، و لو أن الله سبحانه لم يفعل ذلك لكان ظلما للناس.

ص: ٢٤

١- ١) -إنمأ أضيف أعمال الإنسان إلى يده و إن كانت الذنوب تكتسب بجميع الجوارح لأن أكثر ما يكسبه الإنسان إنمأ يكسبه بيده، و لأن العاده قد جرت بإضافه الأعمال التى يقوم بها الإنسان إلى اليد و إن اكتسبها بجارحه أخرى.

لقد نقل عن الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه أنه قال:

«و أيم الله ما كان قوم قط فى غض نعمه من عيش فرال عنهم إلا بذنوب اجترحوها لأن الله ليس بظلام للعبيد».

إن هذه الآيه تعدّ من الآيات التى تفنّد-من جهه-مقوله الجبريين،و-تعمم- من جهه اخرى-أصل-العداله و تسجبه على كل الأفعال الإلهيه،فتكون جميعا مطابقه للعداله.

و توضيح ذلك: إن الآيه الحاضره تصرّح بأنّ كلّ جزاء-من ثواب أو عقاب- ينال الناس من جانب الله سبحانه فإنّما هو جزاء أعمالهم التى ارتكبوها بمحض إرادتهم و اختيارهم ذلك بما قدّمت أيديكم .

و تصرّح من جانب آخر بأنّ الله ليس بظلام للعبيد و إنّ قانونه فى الجزاء يدور على محور العدل المطلق،و هذا هو نفس ما تعتقد به العدليه(و هم القائلون بالعدل الإلهي،و هم الشيعة و طائفه من أهل السنه المسمّون بالمعتزله).

غير أنّ هناك فى الطرف الآخر جماعه من أهل السنه«و هم الذين يسمّون بالأشاعره»لهم اعتقاد غريب فى هذا المجال فهم يقولون:إنّه تعالى هو المالك فى خلقه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد،فلو أدخل الخلاق بأجمعهم الجنّه لم يكن حيفا،و لو أدخلهم النار لم يكن جورا...فلا يتصوّر منه ظلم،و لا ينسب إليه جور (1).

و الآيه الحاضره تفنّد هذا النوع من الآراء و المقالات تفنيدا باتا و مطلقا و تقول بصراحه لا غبش فيها و لا غموض: ذلك بما قدّمت أيديكم و أنّ الله ليس بظلام للعبيد .

ص: ٢٧

على أنّ لفظه «ظلام» صيغه مبالغه، و تعنى من يظلم كثيرا، و لعل اختيار هذه الصيغه فى هذا المكان مع أنّ الله سبحانه لا يظلم حتى إذا كان الظلم صغيرا، لأجل أنّه إذا أجبر الناس على الكفر و المعصيه، و خلق فيهم دواعى العمل القبيح و دوافعه، ثمّ عاقبهم على ما فعلوه بإجباره و إكراهه لم يكن بذلك قد ارتكب ظلما صغيرا فحسب، بل كان «ظلاما».

### اشاره

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ اِلَيْنَا اَلَّا نُوْمِنَ لِرَسُوْلِ حَتّٰى يَأْتِيَنَا بِقُرْبٰنٍ تَاْكُلُهٗ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنٰتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ (١٨٣) فَاِنْ كَذَّبُوْكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاؤُ بِالْبَيِّنٰتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتٰبِ الْمُنِيْرِ (١٨٤)

### سبب النزول

حضر جماعه من أقطاب اليهود عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا له: يا محمد إن الله عهد إلينا فى التوراه أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أن الله بعثك إلينا فجننا به نصدقك، فأنزل الله هاتين الآيتين.

### التفسير

### اشاره

### مغالطات اليهود و تعللاتهم:

كانت اليهود تتحجج و تجادل كثيرا بهدف التملص من الانضواء تحت رايه الإسلام.

و من مغالطاتهم ما جاء ذكره فى هذه الآيه الحاضره التى تقول: الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ

قال المفسرون: إن اليهود كانت تزعم أنه يجب أن يكون للأنبياء خصوص هذه المعجزة، وهي أن يقربوا قربانا فتنزل النار من السماء و تأكل قربانهم، ففي ذلك دلالة على صدق المقرب (أى صاحب القربان).

و لو أن اليهود كانوا صادقين فى هذا الطلب، و كانوا يريدون-حقًا-مثل هذا الأمر من باب إظهار الإعجاز، و ليس من باب العناد و اللجاجه و المغالطه لكان من الممكن إعدارهم، و لكن تاريخهم الغابر، و كذا مواقفهم المشينه مع نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم تثبت الحقيقه التاليه، و هى أنهم لم يكونوا أبدا طلاب حقّ و بغاه علم، بل كانوا يأتون كل يوم بمغالطه و اقتراح جديد لمواجهة الجو الضاغط عليهم، و ما كان يخلقه القرآن من وضع محرّج لهم بفضل ما كان يقيمه من براهين ساطعه و قويه، و ذلك فرارا من قبول الإسلام، و الانصواء تحت رايته، و حتى لو أنهم حصلوا على مقترحاتهم فإنهم كانوا يمتنعون عن الإيمان، بدليل أنهم كانوا قد قرءوا فى كتبهم كل علائم نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و لكنهم مع ذلك أبوا إلا رفض الحقّ، و عدم الإذعان له.

يقول القرآن فى مقام الردّ عليهم: قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالذِّكْرِ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟ و فى ذلك إشاره إلى زكريا و يحيى و طائفه من الأنبياء الذين قتلوا على أيدي بنى إسرائيل.

هذا و يذهب بعض متأخرى المفسرين (مثل كاتب تفسير المنار) إلى احتمال آخر حول مسأله القربان خلاصته: إن مقصودهم لم يكن إن على النبى أن يذبح قربانا و تنزل من السماء نار بطريقه إعجازيه و تحرق ذلك القربان، بل كان مرادهم هو أنه كان فى تعاليم دينهم نوع من هذا القربان الذى يذبح بطريقه خاصه و فى مراسيم معينه، ثم يحرق بالنار و هو ما جاء شرحه فى الفصل الأوّل من سفر «اللاويين» من التوراه (العهد القديم).

إنهم كانوا يقولون: إنَّ الله عهد إلينا أن يبقى مثل هذا التعليم، و مثل هذا القربان في كل دين سماوى، و حيث إننا لا نجد مثل هذا الأمر في التعاليم الإسلاميه لذلك فإننا لا نؤمن لك.

و لكن هذا الاحتمال بعيد عن تفسير الآيه جدا لأنه:

أولاً: إنَّ هذه الجملة قد عطفت في الآيه الحاضره على «البينات» و يظهر من ذلك أن مرادهم كان عملاً إعجازياً، و هو لا ينطبق مع هذا الاحتمال.

و ثانياً: إنَّ ذبح حيوان ثم حرقه بالنار عمل خرافى و لا يمكن أن يكون من تعاليم الأنبياء و شرائعهم السماويه.

ثم يعقب سبحانه على الآيه السابقه بقوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ .

و فى هذه الآيه يسلى الله سبحانه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يقول: إن كذبتك هذه الجماعه فلا تقلق لذلك و لا تحزن، فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، و عارضوا دعوتهم بصلابه و عناد.

و لم يكن هؤلاء الأنبياء غير مزودين بما يبرهن على صدقهم، بل جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ .

و هنا لا بد من الانتباه إلى أن «زبر» و هو جمع (زبور) يعنى كتاباً أحكمت كتابه مواضعه، لأن الزبر أصلاً من الكتابه، لا مطلق الكتابه، بل الكتابه المتقنه المحكمه.

و أمّا الفرق بين «الزبر» و «الكتاب المنير» مع أنّهما من جنس واحد هو الكتاب، فيمكن أن يكون بسبب أن الاوّل إشاره إلى كتب الأنبياء قبل موسى عليه السلام، و الثانى إشاره إلى التوراه و الإنجيل، لأنّ القرآن الكريم عبر عنهما فى سورته المائده الآيه ٤٤، و ٤٦ بالنور إذ قال: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ...

وَ آتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ .

هذا و يحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من «الزبور» هو تلك الكتب السماويه التي تحتوى على المواعظ و الزواجر خاصه (كما كان عليه الزبور المنسوب إلى داود الذى هو الآن بين الأيدى و الذى يحتوى بأسره على المواعظ و الزواجر) و لكن «الكتاب المنير» أو الكتاب السماوى فيطلق على ما يحتوى على التشريعات و القوانين و الأحكام الفرديه و الاجتماعيه.

ص: ٣٢



اشاره

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ  
الْعُرُورِ (١٨٥)

التفسير

اشاره

الموت و قانونه العام:

تعقيبا على البحث حول عناد المعارضين و غير المؤمنين تشير هذه الآيه إلى قانون «الموت» العام و إلى مصير الناس في يوم القيامة، ليكون ذلك تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين، و تحذيرا- كذلك- للمعارضين العصاه.

فهذه الآيه تشير-أولا- إلى قانون عام يشمل جميع الأحياء في هذا الكون و تقول: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .

و الناس، و إن كان أكثرهم يحب أن ينسى مسأله الفناء و يتجاهل الموت، و لكن هذا الأمر حقيقه واقعه إن حاولنا تناسيها و التغافل عنها، فهي لا تنسانا، و لا تتغافل عنا.

إن لهذه الحياه نهايه لا محاله، و لا بد أن يأتي ذلك اليوم الذى يزور فيه الموت كل أحد، و لا يكون أمامه-حينئذ- إلا أن يفارق هذه الحياه.

إن المراد من «النفس» فى هذه الآيه هو مجموعه الجسم و الروح، و إن كانت النفس فى القرآن تطلق أحيانا على خصوص «الروح» أيضا.

و التعبير بالتذوق إشاره إلى الإحساس الكامل، لأن المرء قد يرى الطعام بعينه أو يلمسه بيده، و لكن كل هذه لا يكون- و الأخرى لا يحقق الإحساس الكامل بالشىء، نعم إلا أن يتذوق الطعام بحاسه الذوق فحينئذ يتحقق الإحساس الكامل، و كأن الموت- فى نظام الخلقه- نوع من الغذاء للإنسان و الأحياء.

ثم تقول الآيه بعد ذلك وَ إِنَّمَا تُوفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَي أَنَّهُ سَتَكُونُ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ مَرَحِلَةٌ أُخْرَى هِيَ مَرَحِلَةُ الثَّوَابِ وَ الْعِقَابِ، و بالتالى الجزاء على الأعمال، فهنا عمل و لا حساب و هناك حساب و لا عمل.

و عبارته «توفون» التى تعنى إعطاء الجزاء بالكامل تكشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله- يوم القيامة- و افا و بدون نقيصه، و لهذا لا مانع من أن يشهد الإنسان- فى عالم البرزخ المتوسط بين الدنيا و الآخرة- بعض نتائج عمله، و ينال قسطا من الثواب أو العقاب، لأن هذا الجزاء البرزخى لا يشكل الجزاء الكامل.

ثم قال سبحانه: فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .

و كلمه «زحرح» تعنى محاوله الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثير شىء، و تخليصها من جاذبيته تدريجا.

و أما كلمه «فاز» فتعنى فى أصل اللغه «النجاه» من الهلكه، و نيل المحبوب و المطلوب.

و الجملة بمجموعها تعنى أن الذين استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من جاذبيه النار و دخلوا الجنة فقد نجوا من الهلكه، و لقوا ما يحبونه، و كأن النار تحاول بكل طاقتها أن تجذب الأدميين نحو نفسها.. حقا أن هناك عوامل عديده تحاول أن تجذب الإنسان إلى نفسها، و هى على درجه كبيره من الجاذبيه.

أليس للشهوات العابره، و اللذات الجنسيه الغير المشروعه، و المناصب،

و الثروات الغير المباحه مثل هذه الجاذبيه القويه؟؟ كما أنه يستفاد من هذا التعبير أن الناس ما لم يسعوا و يجتهدوا لتخليص أنفسهم و تحريرها من جاذبيه هذه العوامل المغريه الخداعه فإنها ستجذبهم نحو نفسها تدريجا،و سيقعون فى أسرها فى نهايه المطاف.

أما إذا حاولوا من خلال تربيه أنفسهم و ترويضها،و تمرينها على مقاومه هذه الجواذب و المغريات و كبج جماحها،و بلغوا بها إلى مرتبه «النفس المطمئنه» كانوا من التاجين الواقعيين،الذين يشعرون بالأمن و الطمأنينه.

ثم يقول سبحانه فى نهايه هذه الآيه: وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

و هذه الجملة تكمل البحث السابق و كأنها تقول:إن هذه الحياه مجرد لهو و متاع تخدع الإنسان من بعيد،فإذا بلغ إليها الإنسان و نال منها و لمسها عن كثب وجدها-على الأغلب-فراغا فى فراغ و خواء فى خواء،و ما متاع الغرور إلا هذا.

هذا مضافا إلى أن اللذائذ الماديه تبدو من بعيد و كأنها خالصه من كل شائبه، و خاليه من كل ما يكدرها،حتى إذا اقترب إليها الإنسان وجدها ممزوجه بكل ألوان العناء و العذاب،و هذا جانب آخر من خداع الحياه الماديه.

كما أن الإنسان ينسى فى أكثر الأحيان-طبيعته الفانيه،و لكنه سرعان ما ينتبه إلى أنها سريعه الزوال،قابله للفناء.

إن هذه التعابير قد تكررت فى القرآن و الأحاديث كثيرا،و الهدف منها جميعا شىء واحد هو أن لا يجعل الإنسان هذه الحياه الماديه و لذاتها العابره الفانيه الزائله هدفه الأخير،و مقصده الوحيد النهائى الذى تكون نتيجته الغرق و الارتطام فى شتى ألوان الجريمه و المعصيه،و الابتعاد عن الحقيقه و عن التكامل الإنسانى،و أما الانتفاع بالحياه الماديه و مواهبها كوسيله للوصول إلى التكامل الإنسانى و المعنوى فليس غير مذموم فقط،بل هو ضرورى و واجب.

اشاره

لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَتَشِيْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

سبب النزول

عند ما هاجر المسلمون من مكّه إلى المدينة وابتعدوا عن دورهم وديارهم، راحت أيدي المشركين تطال أموالهم و تمتد إلى ممتلكاتهم، و تنالها بالتصرف و السيطرة عليها، و إيذاء كل من وقعت عليه أيديهم و الإيقاع فيه بالجفاء و الاستهزاء.

و عند ما جاؤوا إلى المدينة، واجهوا أذى اليهود القاطنين في المدينة، خاصّه «كعب بن الأشرف» الذي كان شاعرا سليط اللسان، فقد كان كعب هذا يهجو النبي صليّ الله عليه و آله و سلّم و المسلمين و يحرض المشركين عليهم حتى أنّه كان يشبّه بنساء المسلمين و يصف محاسنهن و يتغزل بهن.

و قد بلغت وقاحته مبلغا دفعت بالنبي صليّ الله عليه و آله و سلّم إلى أن يأمر بقتله، فقتل على أيدي المسلمين غيله.

و الآيه الحاضره-حسب بعض الأحاديث المنقوله عن المفسرين-تشير إلى هذه الأمور و تحت المسلمين على مواصله الصمود و المقاومه.

## التفسير

### اشاره

#### لا تتبعكم المقاومه:

لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

أجل إن هذه الحياه-أساسا-ساحه اختبار و دار إمتحان،فلا بد أن يتهيأ الإنسان لمواجهه كل الحوادث و المفاجئات الصعبه العسيره،و هذا فى الحقيقه تنبيه و تحذير لجميع المسلمين بأن لا يظنوا بأن الحوادث العسيره فى حياتهم قد انتهت،أو أنهم قد تخلصوا من أذى الأعداء، و سلاطه لسانهم بمجرد قتلهم لكعب بن الأشرف الشاعر السليط اللسان الذى كان يؤذى المسلمين بلسانه،و شعره.

و لهذا قال سبحانه: وَ لَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا .

إنّ مسأله التعرض الأذى المشركين اللسانى و سبهم و شتمهم و هجائهم و إن كانت من إحدى الابتلاءات التى جاء ذكرها فى مطلع الآيه،و لكنه ذكر هنا بخصوصه للأهميه الفائقه،لأن مثل هذا قلما يتحملة الشرفاء من الناس لعظيم أثره فى أرواحهم و نفوسهم،و من قديم قال الشاعر:

جراحات السنان لها التيام

و لا يلتام ما جرح اللسان

ثم أنه سبحانه عقب على هذا الإنذار و التنبيه بقوله: وَ إِنْ تَصَبَّرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

و بهذا يبين القرآن وظيفه المسلمين و واجبهم فى أمثال هذه الحوادث الصعبه و الظروف العسيره،و يدعوهم إلى الصبر و الاستقامه و الصمود و التزام التقوى فى مثل هذه الحوادث معلنا بأن هذه الأمور من الأمور الواضحه النتائج،

و لذلك يتعين على كل عاقل أن يتخذ موقفه منها.

و العزم فى اللغة هو «القرار المحكم» و ربّما يطلق على مطلق الأمور المحكمه، و على هذا فإن «عزم الأمور» يعنى الأعمال البينه الرشد التى يجب على كل إنسان عاقل العزم عليها أو بمعنى كل أمر محكم يطمأن إليه.

و اقتران الصبر بالتقوى فى هذه الآيه لعله إشاره إلى أن بعض الأشخاص قد يصبرون و لكنهم مع ذلك يظهرون الشكوى، و يبدوون التبرم بما لقوا، و لكن المؤمنين الصادقين هم الذين يمزجون الصبر بالتقوى دائما و أبدا و يتجنبون مثل ذلك السلوك.

ص: ٣٨

اشاره

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ  
(١٨٧)

التفسير

بعد ذكر جملة من أعمال أهل الكتاب المشينه و مخالفاتهم تشير الآيه الحاضره إلى واحده أخرى من تلك الأعمال و المخالفات، ألا- و هو كتمان الحقائق فتقول: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، أى اذكروا إذ أخذ الله مثل هذا الميثاق منكم.

و الملفت للنظر أن عبارته «لتبيننه» جاءت مع لام القسم، و نون التأكيد الثقيله، و ذلك نهايه فى التأكيد.

ثم أردفها-مع ذلك-بقوله: «و لا تكتموننه» الذى هو أمر صريح بعدم الكتمان و الإخفاء.

و من كل هذه التعبير يتضح أو يستفاد أن الله سبحانه قد أخذ بوساطه الأنبياء السابقين أكد المواثيق و العهود من أهل الكتاب لإظهار الحقائق، و بيانها، و لكنهم رغم كل ذلك-خانوا تلك العهود و تجاهلوا تلك المواثيق، و أخفوا ما أرادوا

إخفائه من حقائق الكتب السماويه، و لهذا قال سبحانه عنهم فَتَيَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ أَنَّهَا كُنَايَه رَائِعَه عَن عَدَمِ الْعَمَلِ بِالْوَاجِبِ وَ تَنَاسِيَه، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَزَمَ عَلَى الْعَمَلِ بِشَيْءٍ وَ أَرَادَ جَعْلَهُ مَلَكَ لَهُ، فَإِنَّ يَجْعَلُهُ قَدَامَهُ، وَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَ لَكِنَّهُ إِذَا لَمْ يَرِدِ الْعَمَلُ بِهِ وَ أَرَادَ تَنَاسِيَه بِالْمَرَّةِ أَزَاحَهُ مِنْ وَجْهِهِ، وَ أَلْقَاهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ.

ثُمَّ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَشَارَ إِلَى حِرْصِ الْيَهُودِ وَ جَشَعِهِمْ وَ حَبْئِهِمِ الْمَفْرُطِ لِلدُّنْيَا إِذْ يَقُولُ: وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

إِنَّ حَبْئَهُمِ الشَّدِيدِ لِلدُّنْيَا الَّذِي بَلَغَ حُدَّ الْعِبَادَةِ، وَ انْحِطَاطِهِمِ الْفِكْرِيَّ آلَ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَكْتُمُوا الْحَقَائِقَ لِقَاءِ مَكَاسِبِ مَادِيهِ، وَ لَكِنَّ الْآيَةَ تَقُولُ: أَنَّهُمْ لَمْ يَشْتَرُوا بِذَلِكَ وَ لَمْ يَكْسِبُوا إِلَّا ثَمَنًا قَلِيلًا، وَ بئس ما يشترون.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا لِقَاءَ كِتْمَانِ الْحَقَائِقِ - هَذِهِ الْجَرِيمَةُ الْكُبْرَى - عَلَى ثَرَوِهِ عَظِيمِهِ وَ طَائِلِهِ لَكَانَ ثَمَّهُ مَجَالٌ لِأَنَّ يُقَالَ: إِنَّ عَظْمَةَ الْمَالِ وَ الثَّرَوَةَ قَدْ أَعْمَتِ أَبْصَارَهُمْ وَ أَسْمَاعَهُمْ، وَ لَكِنَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الدَّهْشَةِ وَ الْعَجَبِ أَنَّهُمْ بَاعُوا كُلَّ ذَلِكَ لِقَاءِ ثَمَنِ بَخْسٍ وَ مَتَاعٍ قَلِيلٍ، (طَبْعًا الْمَقْصُودُ هُنَا هُوَ عِلْمَاؤُهُمِ الدُّنْيَوِيَّةَ الْهَمَّةَ).

### العلماء و الوظيفة الكبرى:

إِنَّ الْآيَةَ الْحَاضِرَةَ وَ إِنَّ كَانَتْ قَدْ وَرَدَتْ بِحَقِّ أَهْلِ الْكِتَابِ (مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى) إِلَّا أَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ تَحْذِيرٌ وَ إِذْكَارٌ لِكُلِّ عُلَمَاءِ الدِّينِ وَ رِجَالِهِ بِأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي تَبْلِيغِ الْحَقَائِقِ وَ بَيَانِ الْأَحْكَامِ الْإِلَهِيَّةِ، وَ تَوْضِيحِهَا وَ إِظْهَارِهَا بِجَلَاءٍ، وَ إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَ أَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقًا مُؤَكَّدًا وَ غَلِيظًا.

إِنَّ كَلِمَةَ «التَّيَيَّنَّة» وَ مَا اشْتَقَّتْ مِنْهُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَكْشِفُ عَن أَنَّ الْمَقْصُودَ لَيْسَ هُوَ فَقَطْ تَلَاوَهُ آيَاتِ اللَّهِ أَوْ نَشْرَ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ مِنْ كَلِمَاتٍ وَ عِبَارَاتٍ، بَلِ الْمَقْصُودُ هُوَ عَرْضُ مَا فِيهَا مِنَ الْحَقَائِقِ عَلَى النَّاسِ،



و جعلها فى متناول الجميع بوضوح و دون غبش ليقف عليها الناس أجمعون من دون إبهام، و يتذوقونها بأرواحهم و أفئدتهم دون أية حجب و سدود.

فالذين يتقاعسون أو يقصرون فى عرض الحقائق الإلهية و بيانها و توضيحها للمسلمين لا شك تشملهم هذه الآية، و ينالهم نفس المصير الذى ذكره الله فيها لعلماء اليهود و أحبارهم.

فقد روى عن النبى الأكرم-صلى الله عليه و آله و سلم- أنه قال: «من كتم علما عن أهله أجم يوم القيامة بلجام من نار».

و عن الحسن بن عمار قال: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدّثنى فقال: أو ما علمت أنّى تركت الحديث، فقلت: إما أن تحدّثنى و إما أن أحدثك؟ فقال: حدّثنى فقلت:

حدّثنى الحكم بن عيينه عن نجم الجزار قال: سمعت على بن أبى طالب عليه السّلام يقول: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا».

قال: فأطرق برأسه مليا بعد أن سمع قولى ثمّ قال: اسمع لأحدثك، فحدّثنى أربعين حديثا. (١)

هذا و للتعرف-بصوره أكبر-على خيانات أحبار اليهود و علماء النصارى، راجع الآيات (٧٩ و ١٧٤) من سورة البقره، و الآيات (٧١ إلى ٧٧) من سورة آل عمران.

ص: ٤١

---

١- (١) -تفسير أبو الفتوح الرازى، و تفسير مجمع البيان عند تفسير هذه الآية، و متن الحديث العلوى منقول عن نهج البلاغه.

اشاره

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

سبب النزول

ذكر المحدثون و المفسرون أسبابا عديده لنزول هذه الآيه، منها أن اليهود كانوا يفرحون لما يقومون به من تحريف لآيات الكتب السماويه و كتمان حقائقها ظنا منهم بأنهم يحصلون من وراء ذلك على نتيجة، و في الوقت نفسه كانوا يحبون أن ينسبهم الناس إلى العلم، و يعتبرونهم من حماة الدين فنزلت هذه الآيه ترد على تصورهم الخاطيء هذا.

و قال آخرون أنها نزلت في شأن المنافقين، لأنهم كانوا يجمعون و يتفقون على التخلف عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذا نشبت حرب من الحروب الإسلاميه، متذرعين لذلك بمختلف المعاذير و الحجج، فإذا عاد المجاهدون من القتال اعتذروا و حلفوا لهم بأنهم كانوا يودّوا المشاركة لو لا بعض الأعذار، و أحبوا بالتالي أن يقبل منهم العذر و يحمّدوا بما ليسوا عليه من الإيمان و بما لم يفعلوه من أفعال المجاهدين الصادقين. فنزلت هذه الآيه ترد على هذا التوقع غير

## التفسير

### اشاره

#### المعجبون بأنفسهم:

المرتكبون لقبائح الفعال على نوعين: طائفه تستحي من أفعالها فور انتباهها إلى قبح ما فعلت، و هي لم تفعل ما فعلت من القبيح إلا لطغيان غرائزها، و هيجان شهواتها، و هذه الطائفه سهله النجاه جدا، لأنها تندم بعد كل قبيح ترتكبه، و تتعرض لوخز ضميرها و عتب وجدانها باستمرار.

بيد أن هناك طائفه اخرى ليست فقط لا تشعر بالندم و الحياء مما ارتكبت من الإثم، بل هي على درجه من الغرور و الإعجاب بالنفس بحيث تفرح بما فعلت، بل تتبجح به و تتفاخر، بل و فوق ذلك تريد أن يمدحها الناس على ما لم تفعله أبدا من صالح الأعمال و حسن الفعال.

إِنَّ الْآيَةَ الْحَاضِرَةَ تَقُولُ عَنْ هَؤُلَاءِ: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَى لا- تحسبن أن هؤلاء يعذرون على موقفهم هذا و ينجون من العذاب، إنما النجاه لمن يستحون-على الأقل-من أعمالهم القبيحه، و يندمون على أنهم لم يفعلوا شيئا من الأعمال الصالحه.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَعْجِبِينَ بِأَنْفُسِهِمْ لَيْسُوا فِقْطاً ضَلُّوا طَرِيقَ النِّجَاحِ وَ حَزَمُوا مِنَ الْخِلَاصِ، بَلْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَنْتَظِرُهُمْ.

و يمكن أن نستفيد من هذه الآيه أن ابتهاج الإنسان بما وفق لفعله و إتيانه من صالح الأعمال ليس مذموما (إذا كان ذلك لا يتجاوز حد الاعتدال، و لم يكن سببا للغرور و العجب)، و هكذا الحال في رغبه الإنسان في التشجيع و الإجلال على

الأفعال الحسنه إذا كان- كذلك- في حدود الاعتدال، و لم يكن الإتيان بتلك الأعمال الصالحه بدافع الحصول على ذلك، لأن كل ذلك من غريزه الإنسان و مقتضى فطرته. و لكن أولياء الله و من هم في المستويات العليا من الإيمان بعيدون حتى من مثل هذا الابتهاج المباح و حبّ التقدير الغير المذموم.

إنّهم يرون أعمالهم دائما دون المستوى المطلوب، و يشعرون أبدا بالتقصير تجاه ربّهم العظيم، و بالتفريط في جنبه سبحانه و تعالى.

على أنّه ينبغي أن لا نتصور أنّ الآيه الحاضره- مورد البحث- تختص بأهل النفاق في صدر الإسلام أو من شاكلهم- في كل عصر و زمان- و في جميع الظروف و المجتمعات المختلفه، ممن يفرحون و يبتهجون بأعمالهم القبيحه أو يحركون الآخرين ليحمدوهم على ما لم يفعلوه بالقلم أو اللسان.

إنّ مثل هؤلاء مضافا إلى العذاب الأليم في الآخره، سيصيبهم- في هذه الحياه- غضب الناس و سخطهم، و سيؤول أمرهم إلى الانفصال عن الآخرين و إلى غير ذلك من العواقب السيئه.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول في آيه لاحقه: **وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ** و هذا الكلام يتضمن بشرى للمؤمنين، و تهديدا للكافرين، فهي تقول: إنّّه لا داعى لأن يسلك المؤمنون لإحراز التقدم طرقا و سبلا منحرفه، و أن يحمدوا على ما لم يفعلوه، ذلك لأنّهم يقدرّون أن يواصلوا تقدمهم، و يحرزوا النجاحات بالاستفاده من السبل المشروعه و الصحيحه و في ظل قدره الله خالق السماوات و الأرضين، كما أنّه على المنافقين و العصاه أن لا يتصوروا أنّهم قادرون على إحراز شيء أو على الخلاص و النجاه من عقاب خالق الكون و ربّ السماوات و الأرضين بسلوك هذه السبل المنحرفه و استخدام هذه الأساليب غير المشروعه!.

اشاره

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ هَيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سِيحَانِكَ فَيَقْنَأُ عَذَابِ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّأْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)

التفسير

اشاره

أهميه هذه الآيات:

لا شك أن جميع الآيات القرآنيه تتمتع بأهميه كبرى لأنها جميعا كلام الله، و آياته التي نزلت لتربيه الإنسان و نجاته و خلاصه، و إلا أن هناك من الآيات ما تحظى و تتميز على سواها ببريق خاص، و من هذا الصنف ما نقرؤه الآن من الآيات الخمسه التي تعد من القمم القرآنيه العظيمه التأثير، و التي امتزجت فيها

مجموعه من معارف الدين بلحن لطيف و ساحر من المناجاة و الدعاء، فإذا هي نعمه سماويه تدغدغ المشاعر، و تثير الشعور، و تحرك ما غفا من العقل و الضمير.

و لهذا أولتها الأحاديث و الأخبار المرويه أهميه خاصه و مكانه ساميه بين غيرها من الآيات.

عن «عطاء بن رباح» قال: قلت لعائشه: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم قالت: و أى شأن لم يكن عجباً، أنه أتاني ليله فدخل معي في لحافى ثم قال: ذرينى أتعبد لربى، فقام فتوضأ ثم قام يصلى، فبكى حتى سالت دموعه على صدره فركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاه، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر؟ قال: أ فلا أكون عبدا شكورا، و لم لا أفعل و قد أنزل علي هذه الليله: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ - إلى قوله - سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ثم قال: «ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها» (١) و العبارة الأخيره التى تأمر الجميع - بتأكيد كبير - بأن يفكروا فى هذه الآيات، و قد رويت فى روايت عديده بعبارات مختلفه.

و

فى روايه عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان إذا قام الصلاه الليل يسوك، ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ... إلى قوله تعالى: فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢).

و ورد عن الأئمه من أهل البيت عليه السّلام الأمر بقراءه هذه الآيات الخمس وقت القيام بالليل للصلاه (٣).

و

عن نوف البكالى قال: بت ليله عند أمير المؤمنين عليه السّلام فكان يصلى الليل

ص: ٤٦

١-١) - تفسير الدر المنثور، ج ٢، ص ١١١، و تفسير أبى الفتوح الرازى فى ذيل هذه الآيات.

٢-٢) - تفسير نور الثقلين و مجمع البيان.

٣-٣) - المصدر السابق.

كله، ويخرج ساعه بعد ساعه فينظر إلى السماء و يتلو القرآن- و يردد هذه الآيات - فمرّ بي بعد هدوء الليل، فقال: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟.

قلت: بل رامق ببصرى يا أمير المؤمنين.

قال: «يا نوف طوبى للزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، و ترابها فراشاً، و ماءها طيباً، و القرآن دثاراً، و الدعاء شعاراً...» (١).

## التفسير

### إشارة

### أوضح السبل لمعرفة الله:

آيات القرآن الكريم ليست للقراءة و التلاوه فقط، بل نزلت لكي يفهم الناس مقاصدها و يدركوا معانيها، و ما التلاوه و القراءة إلا مقدمه لتحقيق هذا الهدف، أى التفكير و التدبر و الفهم، و لهذا جاء القرآن فى الآيه الأولى من الآيات الحاضره يشير إلى عظمه خلق السماوات و الأرض، و يقول: **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (٢)**.

و بهذا يحثّ الناس على التفكير فى هذا الخلق البديع و العظيم، ليصيب كلّ واحد منهم -بقدر استعداده، و قدرته على الاستيعاب- من هذا البحر العظيم الذى لا يدرك له ساحل و لا قعر، و يرتوى من منهل أسرار الخلق العذب.

حقاً أنّ هذا الكون العظيم بما فيه من نظام متقن و بديع، و نقوش رائعة، و لوحات خلايه كتاب بالغ العظمه، كتاب فى كلّ حرف من حروفه، و كل سطر من أسطره دليل ساطع على وجود الله الخالق المبدع و وحدانيته، و تفرّده (٣).

ص: ٤٧

١- ١) -سفينه البحار، ماده نوف، ج ٢، ص ٦٢٢.

٢- ٢) -التعبير بأولى الأبواب- فى هذه الآيه و آيات عديده اخرى فى الكتاب العزيز- إشاره لطيفه إلى أرباب العقول، لأن اللب من كلّ شىء خير خالصه، و لا شك أنّ العقل هو خير ما فى الإنسان، و هو عصاره وجوده الإنسانى.

٣- ٣) -لقد بحثنا فى المجلد الأول من هذا التفسير فى معنى اختلاف الليل و النهار و أسرارهما عند تفسير الآيه ١٦٤ من سوره البقره فراجع.

إنّ هذا النقش الساحر الآسر للقلوب، المبتوث في كل ناحيه من نواحي هذا الكون العريض يشدّ إلى نفسه فؤاد كلّ لبيب و عقله شدّا- يجعله يتذكر خالقه، في جميع الحالات، قائما أو قاعدا، و حين يكون في فراشه نائما على جنبه، و لهذا يقول سبحانه: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ أَى أَنَّهُمْ مُسْتَغْرَقُونَ كَامِلَ الْاسْتِغْرَاقِ فِي التَّفَكِيرِ الْحَيَوِيِّ حَوْلَ هَذَا الْكَوْنِ الرَّائِعِ وَ نِظَامِهِ الْبَدِيعِ وَ مَبْدَعِهِ، وَ مَبْدِيهِ.

و لقد أشير في هذه الآيه- إلى الذكر أولا، ثمّ إلى الفكر ثانيا، و يعنى ذلك أن ذكر الله وحده لا يكفى، إنّ الذكر إنّما يعطى ثماره القئمه إذا كان مقترنا بالفكر، كما أنّ التفكير فى خلق السماء و الأرض هو الآخر لا يجدى و لا يوصل إلى النتيجة المتوخاه ما لم تقترن عمليه التفكير بعمليه التذكر، و بالتالى لا يقترن الفكر بالذکر.

فما أكثر العلماء الذين يقفون- فى تحقيقاتهم الفلكيه و الفضائيه- على مظاهر رائعه من النظام الكونى البدیع، و لكنهم حيث لا يتذكرون الله و لا- ينظرون إلى كل هذه المظاهر بمنظار الموحد الفاحص، بل ينظرون إليها من الزاويه العلميه المجرده البحته، فإنهم لا يقطفون من هذه التحقيقات ما يترتب عليها من النتائج التربويه و الآثار الإنسانيه، و مثلهم فى ذلك مثل من يأكل طعاما ليقوى به جسمه فلا يكون لما يأكله أى أثر فى تقويه فكره و روحه.

إنّ التفكير فى أسرار الخليقه، و فى نظام السماء و الأرض يعطى للإنسان وعيا خاصا و يترك فى عقله آثارا عظيمه، و أوّل تلك الآثار هو الانتباه إلى هدفه الخلق و عدم العثيه فيه، فالإنسان الذى يلمس الهدفيه فى أصغر أشياء هذا الكون كيف يمكنه أن يصدق بأنّ الكون العظيم بأسره مخلوق من دون هدف، و مصنوع من دون غايه؟ لو أنّنا نظرنا فى تركيبه نبتة معينه للاحظنا أهدافا واضحه فيها، و هكذا نلاحظ مثل تلك الأهداف فى قلب الإنسان و ما فيه من حفر، و صمامات، و أبواب



و بطون، فكل شيء فيه مخلوق لغايه، و مجعول لهدف، و كذا الحال فى طبقات العين، بل و حتى الأجفان، و الأظافر، كل واحد منها يؤدى دورا، و يحقق غايه، فهل يمكن أن يكون لهذه الأجزاء الصغيره جدا بالنسبه للكون العظيم أهداف واضحه و غايات ملحوظه، و لا يكون لمجموعه المتمثل فى الظاهره الكونيه الهائله العظيمه أى هدف مطلقا؟ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا .

إنَّ العقلاء لا يمكنهم و هم يواجهون هذه الحقيقه الساطعه إلا أن يقولوا بخشوع هذه الجملة: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ أى رَبَّنَا إِنَّكَ لم تخلق هذا العالم العظيم، و هذا الكون الذى لا يعرف له حد، و هذا النظام المتقن البديع الأعلى أساس الحكمه و المصلحه، و لهدف صحيح، فكل هذا آيه و حدانيتك، و كل هذا ينزهك عن اللغو و العبث.

إن أصحاب العقول السليمه الواعيه بعد أن يعترفوا بالهدفيه فى الخليقه يتذكرون أنفسهم فوراً، و كيف يعقل أن يكونوا- و هم ثمره هذا الوجود نفسه و هذا الكون بالذات- قد خلقوا سدى، أو جاؤوا إلى هذه الحياه عبثاً، و أنه ليس هناك من هدف سوى تربيتهم و تكاملهم!! إنهم لم يأتوا إلى هذه الحياه لأجل أن يعيشوا فيها أيّاماً سرعان ما تفتنى و تنقضى، فذلك أمر لا يستحق كل هذا العناء و التعب كما لا يليق بمكانه الإنسان و لا يتناسب مع حكمه الله العلياً، بل هناك دار اخرى تنتظرهم حيث يجدون فيها جزاء أعمالهم، أن خيراً فخير، و إن شراً فشر، و فى هذه اللحظه ينتبهون إلى مسئولياتهم، و يسألون الله التوفيق للقيام بها حتى يتجنبوا عقابه، و لهذا يقول:

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

ثم يقول: رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ....

و يستفاد من هذه العبارات أن العقلاء يخافون من الخزى قبل أن يخافوا من نار جهنم، و هذا هو حال كل من يمتلك شخصيه، فإنه مستعد لأن يتحمل كل شيء من الأذى و المحن شريطه أن يحافظ على شخصيته، و لهذا فإن أشد

عقوبات الآخرة على هؤلاء هو الخزي في محضر الله و عند عباده.

على أن النقطة الجديده بالاهتمام التي تنطوى عليها جملة وَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ هي أن العقلاء بعد التعرف على الأهداف التربويه المطلوبه للإنسان يقفون على هذه الحقيقه و هي أن الوسيله الوحيده لنجاح الإنسان و نجاته هي أعماله و ممارساته، و لهذا لا يمكن أن يكون للظالمين أى أنصار، لأنهم فقدوا النصير الأصلي و هو العمل الصالح، و التركيز على لفظه «الظلم» إنما لأجل خطوره هذه المعصيه من بين المعاصي الاخرى، و إنما لأن جميع الذنوب ترجع إلى ظلم الإنسان لنفسه.

على أنه ليست ثمة أي منافاه بين هذه الآيه و مسأله الشفاعة (بمعناها الصحيح) لأن الشفاعة (كما قلنا سابقا فى بحث الشفاعة) تحتاج إلى قابليه و أهليه خاصه فى المشفوع له، و هذه الأهليه و الصلاحيه لشمول الشفاعة تحصل فى ضوء بعض الأعمال الصالحه الخيره.

ثم إن أصحاب العقول و ذوى الألباب بعد التعرف على هدف الكون و الغايه من الخلق ينتبهون إلى هذه النقطة، و هي أن هذا الطريق الوعر يجب أن لا يسلكه أحد بدون قياده الهداه الإلهيين، و لهذا فهم يترصدون نداء من يدعوهم إلى الإيمان بصدق و إخلاص و يستجيبون لأوّل دعوه يسمعونها منه و يسرعون إليه، و يعتقونها بعد أن يحققوا فيها، و يتأكدوا من صدقها و صحتها و يؤمنون بها بكلّ وجودهم، و لهذا يقولون فى محضر ربهم:

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ تَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ

أى ربنا الآن و قد أمنا بكل وجودنا و إرادتنا، و لكننا يحيط بنا طوفان الغرائز المختلفه من كلّ جانب، فربما ننزلق و ربما نزل و نرتكب معصيه، ربنا فاغفر لنا زلتنا، و استر عثرتنا، و توفنا مع الأبرار الصالحين.

لقد اتصل هؤلاء بالمجتمع الإنساني اتصالا- عجيبا، و تركوا التفرد و الأنانية إلى درجة أنهم يطلبون من الله في دعواتهم أن لا يجعلهم مع الأبرار و الصالحين في حياتهم فحسب، بل يجعل مماتهم-سواء أ كان مماتا طيعيا أو بالشهادة في سبيل الله-كممات الأبرار الصالحين أيضا، أو يحشرهم معهم، لأن الموت مع الأشرار موته مضاعفه، و عناء مضاعف.

و هنا يطرح سؤال و هو: ما ذا يعنى الستر على السيئات بعد طلب غفرانها؟ و الجواب هو: مع ملاحظه بقيه الآيات القرآنيه تتضح حقيقه الإجابه على هذا السؤال، فإن الآيه ٣١ من سوره النساء تقول: **إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ فَيَسْتَفاد من ذلك أنّ السيئات تطلق على المعاصى الصغيره، و لهذا فإنّ العقلاء ذوى الألباب يطلبون من الله في أدعيتهم و ضراعاتهم أن يغفر لهم ذنوبهم الكبيره، و يستر-عقب ذلك- على ذنوبهم الصغيره، و يمحو آثارها من الوجود.**

ثمّ أن هؤلاء العقلاء يطلبون من ربهم في نهايه المطاف، و بعد أن يسلكوا طريق الإيمان و التوحيد و إجابته دعوه الأنبياء و القيام بالواجبات الموجهه إليهم، أن يؤتيتهم و عدهم على لسان الرسل فيقولون: **رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ أَي رَبَّنَا لَقَدْ وَفينا بالتزاماتنا، فأتنا ما وعدتنا عن طريق أنبيائك و رسلك و لا تفضحنا و لا تلحق بنا الخزي يوم القيامة: وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ .**

إنّ التركيز على «الخزي» يؤكّد مرّه أخرى هذه الحقيقه الهامه، و هى أن هؤلاء بسبب ما يرون لشخصيتهم من أهميه و احترام يعتبرون «الخزي» من أشد ما يلحق بالإنسان من الأذى، و لهذا يركزون عليه دون سواه من ألوان العقوبات.

و

فى مستدرك الوسائل نقلا- عن أبى الفتوح الرّازى فى تفسيره، أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: من كان له إلى الله حاجه فليقل خمس مرات ربنا يعطى حاجته، و مصداق

ص: ٥١

ذلك فى كلام الله فى قوله تعالى: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ لَنَا إِلَّا بِالْحَقِّ إِذْ تَرَيْنَا خَلْقَ الْمَاءِ تَبًا وَنُحًا وَإِنَّا لَنَنظُرُ الْخَلْقَ الْأُولَىٰ أَن يَكُونَ لَنَا آيَاتٌ كَمَا كُنَّا لِلْآيَاتِ قَدِيرًا ۗ فَاسْتَجِبْ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١).

و من الواضح الذى لا- يخفى أن التأثير الواقعى و العميق لهذه الآيات، إنما يتحقق إذا وافق اللسان فى ما يقوله القلب و العمل، و أن يحل مضمون هذه الآيات الذى يكشف عن طريقه تفكير اولى الألباب و شدّه حُبهم لله، و إحساسهم بالمسؤوليات الملقاه على عواتقهم، و القيام بواجباتهم، فى فؤاد قارئها و قلبه، فيحصل له نفس ذلك الخشوع و الخشوع الحاصل لأولى الألباب عند مناجاتهم لله، و تضرعهم إليه.

ص: ٥٢

---

١- ١) -مستدرک الوسائل، ج ١، ص ٣٦٩.

اشاره

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْشِيَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَمَّا كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَمَّا دَخَلْتَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

سبب النزول

هذه الآيه تعقيب على الآيات السابقة حول أولى الألباب و العقول الثيره و نتيجه أعمالهم، و الشروع بفاء التفریع فی هذه الآيه- أوضح دليل على هذا الارتباط، و مع ذلك ذكرت أسباب نزول متعدده لها في الأحاديث و أقوال المفسرين، لكنها لا تنافی في حقيقتها- الارتباط الذي ذكرناه لهذه الآيه مع الآيات السابقة.

و من جمله ذلك ما نقل عن أم سلمه (و هي إحدى زوجات النبي صلى الله عليه و آله و سلم) أنها قالت للنبي صلى الله عليه و آله و سلم: يا رسول الله ما بال الرجال يذكرون في الهجره دون النساء؟ فأنزل الله هذه الآيه.

كما نقل أيضا أنّ عليًا عليه السلام لما هاجر بالفواطم (و هن فاطمه بنت أسد، و فاطمه

بنت النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ الزَّيْبِرِ) مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَحِقَتْ بِهِ أُمُّ أَيْمَنَ - وَهِيَ إِحْدَى زَوْجَاتِ النَّبِيِّ الْمُؤْمِنَاتِ - فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ نَزَلَتِ الْآيَةُ الْحَاضِرَةُ (١).

والمسألة كما قلناه، فإن الأسباب المذكورة لنزول الآية لا تنافي الارتباط الذي أشرنا إليه بين هذه الآية. والآيات السابقة، كما أنه لا تنافي أيضا بين هذين السببين المذكورين للآية أيضا.

## التفسير

### إشارة

### التبجيه الطيبه لموقف أولى الألباب:

في الآيات الخمس الآنفه استعرض القرآن الكريم موجزا من إيمان أولى الألباب و العقول الثيرة، و برامجهم العمليه، و طلباتهم و ادعيتهم، و في هذه الآية يقول سبحانه: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ، و التعبير بلفظه «رَبُّهُمْ» حكاية عن غاية اللطف، و منتهى الرحمة الإلهية بالنسبة إليهم: ثُمَّ يَضِيفُ قَائِلًا: أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ دَفْعًا لَلِاسْتِبَاهِ وَ التَّوْهَمِ الَّذِي قَدْ يَسْبِقُ إِلَى الذَّهْنِ بِأَنَّهُ لَا ارْتِبَاطَ بَيْنَ الْفَوْزِ وَ النِّجَاحِ، وَ بَيْنَ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ وَ مَوَاقِفِهِ، فَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى أَصْلِ «الْعَمَلِ» وَ إِشَارَةٌ أَيْضًا إِلَى عَامِلِهِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَ الْمُحَوَّرَ الْأَصْلِيَّ لِقَبُولِ الدَّعَاءِ وَ اسْتِجَابَتِهِ هُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ النَّاشِئَةُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَ أَنَّ الْأَدْعِيَةَ الَّتِي تَسْتَجَابُ فَوْرًا هِيَ تِلْكَ الَّتِي يَدْعُمُهَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

ثمَّ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ: مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَ هَذَا لِأَجْلِ أَنْ لَا يَتَوَصَّرُ أَحَدٌ أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ الْإِلَهِيَّ يَخْتَصُّ بِطَائِفَةٍ مَعِينَةٍ كَالذَّكَورِ دُونَ الْإِنَاثِ مَثَلًا، فَلَا فَرْقَ فِي هَذَا الْأَمْرِ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ ذَكَرًا أَوْ أَنْثَى، لِأَنَّ الْجَمِيعَ يَعُودُونَ فِي أَصْلِ الْخَلْقِ إِلَى مَصْدَرٍ وَاحِدٍ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أَيْ تَوْلَدُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، النِّسَاءُ مِنَ الرِّجَالِ، وَ الرِّجَالُ مِنَ النِّسَاءِ، فَلَا تَفَاوُتَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ

ص: ٥٤

إذن بين الذكر أو الأنثى، فلما ذا يكون تفاوت في الجزاء و الثواب؟ و يمكن أن تكون عبارته بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ إشاره إلى أنكم جميعا أتباع دين واحد، و رواد منهج واحد و أنصار حقيقه واحده، فلا معنى لأن يفرق الله سبحانه بين جماعه و اخرى و يميز بين طائفه و طائفه، و جنس و آخر.

ثم أنه سبحانه يستتج من ذلك إذ يقول: فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أُودُوا فِي سَبِيلِي، وَ قَاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، أَى أَنَّ الله سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم، جاعلا- من هذه المشاق و المتاعب التى نالتهم كفاره لذنوبهم، ليطهروا من أدرانها تطهيرا.

ثم يقول تعالى: وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مضافا إلى غفران ذنوبهم و التكفير عنهم.

و هذا هو الثواب الإلهي لهم على ما قاموا به من تضحيه و فداء ثواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ... إِنَّ لَهُمْ أَفْضَلَ الْأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَحْسَنَهُ، و قوله:

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ

إشاره إلى أن الأجر الإلهي و المثوبات الإلهيه ليست قابله للوصف للناس بشكل كامل فى هذه الحياه، بل يكفى أن يعلموا بأنه أفضل و أعلى من أى ثواب.

هذا و يستفاد- جيدا- من هذه الآيه أن الإنسان لا بد أن يتطهر من أدران الذنوب فى ظل العمل الصالح أولا، ثم يدخل فى رحاب القرب الربانى و النعيم الإلهي، لأنه سبحانه قال أولا: لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ثُمَّ قَالَ: لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ .

و بعباره اخرى: أن الجنّه مقام المتطهرين، و لا طريق لمن لم يتطهر إليها.

### القيمه المعنويه للرجل و المرأة:

إن الآيه الحاضره- كبقية الآيات القرآنيه الاخرى- تساوى بين الرجل

و المرأة عند الله، و في مسأله الوصول إلى الدرجات المعنويه، و لا- تفرق بينهما بسبب اختلافهما في الجنس، و لا تعتبر الفروق العضويه و ما يلحقها من الفروق في المسؤوليات الاجتماعيه دليلا- على اختلافهما في إمكانيه الحصول على درجات التكامل الإنساني و بلوغهما للمقامات المعنويه الرفيعه، بل تعتبرهما في مستوى واحد- من هذه الجبهه- و لذلك ذكرتهما معا.

إن اختلافهما في التكاليف و توزيع المسؤوليات يشبه إلى حد كبير الاختلاف الذي تقتضيه مسأله النظام و الانضباط حيث يختار شخص كرئيس، و آخر كمعاون و مساعد، فإنه ينبغي أن يكون الرئيس أكثر حنكه و أوسع علما، و أكثر تجربه في مجال عمله، و لكن هذا التفاوت و الاختلاف في مراتب المسؤوليه و سلم الوظائف لا- يكون دليلا- مطلقا على أن شخصيه الرئيس و قيمته الوجوديه أكثر من شخصيه معاونيه و مساعديه، و قيمتهم الوجوديه.

إن القرآن الكريم يقول بصراحه: **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** (١).

و يقول في آيه اخرى: **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٢).

هذه الآيات و غيرها من الآيات القرآنيه الاخرى نزلت في عصر كان المجتمع البشرى فيه يشكك في إنسانيه جنس المرأه أساسا، بل و يعتقد أنها كائن ملعون، و أنها منبع كل إثم و انحراف و موت و فساد.

لقد كان الكثير من الشعوب الماضيه تذهب في نظرتها السلبيه تجاه المرأه إلى درجه أنها تعتقد أحيانا إن عباده المرأه و ما تقدمه في سبيل الله لا تقبل، و كان الكثير من اليونانيين يعتقدون أن المرأه كائن نجس و شرير و أنها من عمل

ص: ٥٦

١-١ - غافر، ٤٠.

٢-٢ - النحل، ٩٧.



الشيطان، و كان الرّوم و بعض اليونانيين يعتقدون أنّ المرأه ليست ذات روح إنسانيه أساسا، و أنّ الرجل وحده هو الذى يحمل بين جنبيه مثل هذه الروح دون غيره.

و الملفت للنظر أنّ العلماء المسيحيين فى أسبانيا كانوا يبحثون-حتى إلى الآونه الأخيره-فى أنّ المرأه هل تملك-مثل الرجل-روحا إنسانيه أم لا؟ و أنّ روحها هل تخلد بعد الموت أم لا؟ و قد توصلوا-بعد مداولات طويله-إلى أنّ للمرأه روحا برزخيه، و هى نوع متوسط بين الروح الإنسانيه و الروح الحيوانيه، و أنه ليس هناك روح خالده-بين أرواح النساء-إلاّ روح مريم (1).

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقه حيث يتهمون الإسلام أنه دين الرجال دون النساء.

إنّ بعض الاختلاف فى نوع المسؤوليات الاجتماعيه الذى يقتضيه اختلافات فى التركيب العضوى و العاطفى لدى الرجل و المرأه لا يضرّ بالمرأه و قيمتها المعنويه أساسا، و لهذا لا يختلف الرجل و المرأه من هذه الجبهه، فأبواب السعاده و التكامل الإنسانى مفتوحه فى وجهيهما كليهما على السواء كما ذكرنا ذلك عند البحث فى قوله تعالى: **بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**.

ص: ٥٧

---

١-١) -راجع كتاب و ستر مارك، و كتاب «حقوق المرأه فى الإسلام» و الكتب الباحثه فى مذاهب البشر و عقائدهم.

اشاره

لَا يَعْرُزُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)

سبب النزول

كان أكثر مشركى مكه أهل تجاره، وقد كانوا يحصلون من هذا الطريق على ثروه ضخمه، يتنعمون بها، وهكذا كان يهود المدينه أهل تجاره، وكانوا يعودون من رحلاتهم التجاريه على الأغلب موفورين، فى حين كان المسلمون بسبب أوضاعهم الخاصه، لا سيما بسبب الهجره، والحصار الذى كان مشركو مكه قد فرضوه عليهم، يعانون من وضع اقتصادى صعب جدا، وبكلمه واحده كانوا يعيشون فى عسر شديد.

فكانت مقارنه هاتين الحالتين تطرح على البعض السؤال التالى: كيف يتنعم أعداء الله فى العيش الرخى، بينما يقاسى المؤمنون ألم الجوع و الفقر المدقع؟

فنزلت الآيات الحاضره تجيب على هذا التساؤل (١).

## التفسير

### اشاره

#### سؤال مزعج:

السؤال الذى مرّ ذكره فى سبب نزول هذه الآيات و الذى كان يطرحه بعض المسلمين فى عصر النبى يعتبر سؤالاً عاماً يطرح نفسه على الناس فى كل زمان و مكان.

فإنهم يرون كيف يتنعم العصاه و الطّغاه، و الفراعنه و الفسّاق، و يرفلون فى النعيم، و يعيشون الحياه الرفاهيه، و الرخاء العريض، و يقيسونه-غالبا-بحياه الشّدّه و العسرّه التى يعيشها جماعه من المؤمنين، و يقولون متسائلين: كيف ينعم أولئك العصاه-مع ما هم عليه من الإثم و الفساد و الجريمه-بمثل تلك الحياه الرخيّه، بينما يعيش هؤلاء-مع ما هم عليه من الإيمان و التقوى و الصّلاح-فى مثل هذه الشّدّه و العسرّه، و ربّما أدى هذا الأمر ببعض ضعفاء الإيمان إلى الشكّ و التردد.

و لو أنّنا درسنا هذا السؤال بصوره دقيقه و جيده، و حللنا عوامل الأمر و أسبابه فى كلا الجانبين، لظهرت أجوبه كثيره على هذا التساؤل، و قد أشارت هذه الآيات إلى بعضها، و يمكننا الوقوف على بعضها الآخر بشىء من التأمل و الفحص.

تقول الآيه الأولى من هذه الآيات: **لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ وَالْمُخَاطَبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَ إِنْ كَانَ شَخْصَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ عَمُومَ الْمُسْلِمِينَ.**

ثمّ تقول: **مَتَاعٌ قَلِيلٌ أَى أَنَّ هَذِهِ النَّجَاحَاتِ الْمَادِيَةِ الَّتِي يَحْرُزُهَا**

ص: ٥٩

المشركون، وهذه الثروات الهائلة التي يحصلون عليها من كل سبيل ليست سوى متاع قليل، ولذَّه عابره.

تُمْ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

فالملذات الماديه تستعقب عواقب سيئه، فإنَّ مسئوليه هذه الأموال و الثروات ستجرّهم إلى مصير مشؤوم، ذلك هو الجحيم الذى ستكون محطتهم الأخيره و مآلهم و بئس المآل.

إنَّ هذه الآيه تشير-فى الحقيقه-إلى نقطتين:

الأولى: إنَّ أكثر مظاهر تفوق هؤلاء العصاه الطّغاه الظالمين محدوده الأبعاد، كما أنَّ متاعب أكثر المؤمنين و مشاكلهم و محنهم كذلك مؤقتة، و محدوده أيضا.

و أفضل شاهد على هذا الموضوع هو ما نلاحظه فى حياه المسلمين و حياه أعدائهم و مناوئهم فى صدر الإسلام.

فحيث أنَّ الحكومه الإسلاميه كانت آنذاك فى بدايه أمرها كنبته شابه لا-تمتلك كل عناصر القوه و المنعه لم تكن تملك القدره الكامله على الدفاع عن حوزتها و كيانها أمام هجوم أعدائها الألداء الذين كانوا يهاجمونها بشراسه و دونما رحمه، و خاصّه أنَّ هجره المسلمين الذين كانوا جماعه قليله فى مكّه جعلتهم فى وضع حرج جدّا إلى درجه أنّهم فقدوا كل شىء فى الهجره، و لا-يختص مثل هذا الوضع بهم، بل يتعرض لمثل هذه المعاناه و مثل هذا الوضع كل من يناصر ثوره تغييريه، و نهضه معنويه و روحيه جذريه فى مجتمع فاسد يراد تغييره بها.

و لكننا نعلم أنّ هذا الوضع لم يدم طويلا، فما لثبت الحكومه الإسلاميه إلا أن ترسخت جذورها و قويت دعائمها، و اشتدَّ أمرها، و قويت شوكتها، و انحدرت الأموال إلى مركز الإسلام من كل صوب و حذب، فانعكس الوضع تماما، إذ عاد المترفون الكافرون و الأعداء المتنعمون الذين كانوا يرفلون فى النعيم و الخير مساكين و فقدوا كل ذلك النعيم، و هذا هو ما يعنيه قوله سبحانه: مَتَاعٌ قَلِيلٌ .

الثانية: إن النجاحات المادية التي يحرزها بعض العصاة و الفاسقين إنما هي لكونهم لا- يتقيدون في جمع الثروة بأي قيد أو شرط، فهم يجمعون المال من كل سبيل، سواء كان مشروعاً أم غير مشروع، حراماً كان أم حلالاً، بل إنهم يجوزون لأنفسهم اكتناز الثروة حتى على حساب الضعفاء و الفقراء و امتصاص دمائهم، في حين يتقيد المؤمنون بمبادئ الحق و العدالة في هذا المجال، فلا يسوغون لأنفسهم بأن يكتسبوا المال من أى طريق كان، و أى سبيل اتفق، و لهذا لا يمكن (أو لا تصح) المقارنه و المقايسه بين هؤلاء و هؤلاء.

هؤلاء يشعرون بالمسئوليه الثقيله، و أولئك لا يشعرون بأيه مسئوليه، و لا يعترفون بأى ضابطه، و حيث إن الحياه الحاضره حياه الإراده البشريه الحرّه، و عالم الإختيار الحر، كان طبيعياً أن يترك الله سبحانه كلتا الطائفتين أحراراً ليتصرفوا كيف شاؤوا، و لينتهوا في المآل إلى نتائج أعمالهم التي اكتسبوها بأيديهم، و هو ما يقصده و يعنيه سبحانه، بقوله في ختام هذه الآيه: **تَمَّ مَاوَأَهُمْ جَهَنَّمَ وَ بَسَّسَ الْمِهَادُ .**

### معرفة نقاط الضعف و القوه معا:

ثم أن هناك سبباً آخر لتقدم و نجاح بعض الكفار و الفاسقين، و تأخر بعض المؤمنين هو أن الطائفة الأولى رغم خلوهم من عنصر الإيمان يتحلون- أحياناً- ببعض نقاط القوه التي يحققون في ظلها ما يحققون من المكاسب، و يحرزون ما يحرزون من النجاحات، فيما تعاني الطائفة الثانيه من نقاط ضعف توجب تأخرهم و انحطاطهم.

فنحن نعرف أشخاصاً- رغم انقطاعهم عن الله- يتسمون بالجدية الكبيره في أعمالهم، و يتحلون بالاستقامه و العزم، و التنسيق و التعاون فيما بينهم، و المعرفه بقضايا العصر و متطلباته، و مقتضياته و مستجداته، و من الطبيعي أن يحقق هؤلاء

مكاسب كبيره و يحرزوا انتصارات و نجاحات فى حياتهم الماديه، و ما هم فى هذا الأمر- فى الحقيقه- إلا مطبقون لتعاليم الدين و برامج من دون إسنادها إلى الدين و إعطائها صفتة و صبغته.

و فى المقابل، هناك أشخاص متدينون أوفياء للعقائد الدينيه، لكنهم بسبب غفلتهم عن تعاليم الدين الحيويه يعانوا من الجبن و الإحجام، و يفتقرون إلى الشهامه و الاستقامه و يفقدون عنصر الثبات و الاستمرار و الاتحاد و التعاون، و طبيعى أن يصاب هذا الصنف من الناس بإخفاقات متلاحقه و هزائم متتابعه، و لكن هذه الهزائم و الإخفاقات ليست أبدا بسبب إيمانهم بالله، بل هى بسبب ما بهم من نقاط الضعف، و ما بأنفسهم من عوامل الهزيمه، و موجبات السقوط و الإخفاق.

إنهم يتصورون (و بالأحرى يظنون) بأنهم سيتنصرون بمجرد الصلاه و الصوم فى جميع المجالات، و ينجحون فى جميع المواقف، فى حين جاء الدين بسلسله من البرامج و المناهج العمليه الحيويه للتقدم و النجاح فى الحياه، يستلزم تجاهلها الفشل و السقوط و الهزيمه.

إن لكل شىء سببا، و لكل نجاح مفتاحه الخاص، و وسيلته الخاصه، و قد أتى الدين بكل ذلك، و بينه فى تعاليمه و توصياته، فلا يمكن أن يتحقق نجاح بغيره هذه التعاليم و بغير هذه الوسائل.

و خلاصه القول: إنه لدى كل طائفه من هاتين الطائفتين نقاط ضعف، و نقاط قوه، و لكل واحده منها آثارها و نتائجها الطبيعيه، غايه ما فى الأمر أنه قد تلبس هذه الآثار و تشبه على المرء عند التقييم و المحاسبه.

مثلا: هناك كافر يتمتع لسعيه و جهاده و استمراره فى أعماله بالحياه و يحقق فى هذا المجال النجاح تلو النجاح، و لكنه إذ يفتقد عنصر الإيمان بالله فإنه يفتقر إلى نعمه الطمأنينه النفسيه و فضيله المشاعر الطاهره، و الأهداف الإنسانيه العالیه.

يبقى أن نعرف أن ما ذكرناه من العوامل الثلاث لتقدم الكفار و نجاحهم، و تأخر بعض المؤمنين و فشلهم لا تصدق في مكان واحد، بل لكل واحد منها مورده و مجاله الخاص.

ثم إن الله سبحانه بعد أن بين مصير الكفار في الآيه السابقه، بين هنا- في الآيه التي تلت تلك الآيه- مصير المؤمنين، إذ قال: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيُّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَوَازِينَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي الْوَصُولِ إِلَى الْمَكَاسِبِ الْمَادِيَةِ، أَوْ أَنَّهُمْ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ تَعَرَّضُوا لِلْحَصَارِ الْاِقْتِصَادِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ وَ لَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَقُولُوا مُلْتَزِمِينَ بِالتَّقْوَى، فَإِنَّهُ تَعَالَى سَيَعُوضُهُمْ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ بِجَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ .

و«النزل» في اللغة هو ما يعد للضيف من الكرامه و البر، و قال البعض: أنه أول ما يقدم إلى الضيف النازل من شراب أو فاكهه.

و على هذا يكون معنى الآيه أن الجنات المذكوره مع كل ما فيها من المواهب الماديه هي أول ما يقدم يوم القيامه إلى المؤمنين المتقين، و أما الضيافه المهمه و العليا فهي النعم و المواهب المعنويه التي عبر عنها سبحانه بقوله: وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ .

اشاره

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوتِيتُكُمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

سبب النزول

هذه الآيه-حسب ما يذهب إليه أكثر المفسرين-نزلت في مؤمنى أهل الكتاب الذين تركوا العصبية العمياء، و التحقوا بصفوف المسلمين، و كانوا يشكلون عددا معتداً به من النصارى و اليهود.

و لكنّها حسب اعتقاد بعض المفسرين أنّها نزلت في النجاشى ملك الحبشه العادل، و إن كان مفهومها أوسع من ذلك المورد.

ففى السنه التاسعه للهجره و فى شهر رجب بالذات توفى النجاشى، فبلغ خبر وفاته إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم بإلهام إلهى فى اليوم الذى مات فيه و

قال صلى الله عليه و آله و سلم «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم»، قالوا: و من؟ قال: النجاشى، فخرج النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى البقيع و كشف له من المدينه إلى أرض الحبشه فأبصر سرير النجاشى، و صلى عليه، فقال بعض المنافقين: انظروا إلى هذا يصلّى على علق نصرانى حبشى لم يره قطّ و ليس على دينه، فأنزل الله هذه الآيه ردّا على



هذا و يستفاد من هذه الروايه أن النجاشى اعتنق الإسلام بالكامل و إن لم يظهر ذلك.

## التفسير

### اشاره

#### أهل الكتاب ليسوا سواء:

قلنا- فى ما سبق- ان القرآن الكريم إذا تطرق إلى أمور حول إتباع الشرائع الاخرى لم ينظر إلى الجميع نظره سواء، و لم يحسب لهم حسابا واحدا، و لم تتسم أبحاثه حولهم بصفه قوميه أو حزبيه علائقيه، بل ينطلق فى أحكامه من أسس اعتقاديه و مبديه، و لهذا ينتقد أعمالهم، و ممارساتهم و لا يتناول بسوء قومياتهم أو أجناسهم، و لهذا لا ينسى فضل تلك القلله المؤمنه الصالحه منهم و التى تميزت عن الأكثرية الساحقه بصلاحتها و حسن عملها، و لا يتجاهل قيمتها و مكانتها.

و المقام الذى نحن فيه هو أحد تلك الموارد التى جاء فيها الكلام عن هذه القلله المؤمنه الصالحه التى استجابت لدعوه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و خضعت للحق.

فالآيه الحاضره بعد أن و بخت كثيرا من أهل الكتاب على كتمانهم لآيات الله، و طغيانهم و تمردهم فى الآيات السابقه ذكرت هذه القلله المؤمنه، و بينت خمسا من صفاتها الممتازه هى:

١- يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (أى أنهم يؤمنون بالله عن طواعيه و صدق).

٢- وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ (أى يؤمنون بالقرآن).

٣- وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ أى إيمانهم بنبي الإسلام نابع فى الحقيقه من إيمانهم بكتبهم السماويه الواقعيه التى بشرت بهذا النبي و دعت إلى الإيمان به إذا ظهر، فهم فى الحقيقه يؤمنون بكتبهم.

٤- خَاشِعِينَ لِلَّهِ أَي أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَخَاضِعُونَ لِإِرَادَتِهِ، وَهَذَا التَّسْلِيمُ وَالتَّخَضُّعُ هُوَ السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ لِإِيْمَانِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَصِيَّاتِ الْحَمَقَاءِ، وَحَزَّرَهُمْ مِنَ التَّعَنُّتِ وَالتَّكْبَارِ تَجَاهَ مَنْطِقِ الْحَقِّ.

٥- لَا- يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَي أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِثْلَ بَعْضِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يَحْرَفُونَ آيَاتِ اللَّهِ حِفَاظًا عَلَى مَرَاكِزِهِمْ وَإِبْقَاءِ عَلَى حَاكِمِيَّتِهِمْ عَلَى أَقْوَامِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ، وَصَوْلًا إِلَى بَعْضِ الْمَكَاسِبِ الْمَادِيَةِ.

وَإِلِّشَارُهُ إِلَى «الثَّمَنِ الْقَلِيلِ» فِي الْآيَةِ لِلتَّلْوِيحِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَوْلَثُكَ الْأَحْبَارِ الْمُحْرَفُونَ لِلْكَلْمِ مِنْ تَفَاهِهِ الْهَمِّهِ، وَضَعْفِ الطَّمُوحِ، وَقَصْرِ النَّظَرِ، وَحَقَارَةِ النَّفْسِ.

هَذَا مِضَافًا إِلَى أَنَّ كُلَّ أَجْرٍ دُونَ الْأَجْرِ الْإِلَهِيِّ حَقِيرٌ، وَكُلُّ مَكْسَبٍ يَحْصُلُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ عَوْضًا عَنِ آيَاتِ اللَّهِ فَهُوَ مَكْسَبٌ تَافَهُ وَرَخِيصٌ.

وَسيكون لهذه الطائفه من أهل الكتاب بسبب هذه الصفات الإنسانية العاليه هذا الموقف الواضح الحي، أجرهم عند ربهم أولئك لهم أجرهم عند ربهم .

وَالتَّعْبِيرُ هُنَا بِلَفْظِهِ «رَبَّهُمْ» إِشَارَةٌ إِلَى غَايَةِ لَطْفِهِ سُبْحَانَهُ وَمُنْتَهَى رَحْمَتِهِ بِهِمْ، كَمَا أَنَّهُ إِشَارَةٌ أَيْضًا إِلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَهْدِيهِمْ فِي هَذِهِ الْمَسِيرَةِ الْخَيْرِ، وَهُوَ يَتَكْفَلُ بِمُسَاعَدَتِهِمْ، وَيُعِينُهُمْ فِي هَذَا الطَّرِيقِ.

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

فَلَا يَتَأَخَّرُ عَنِ إِعْطَاءِ الصَّالِحِينَ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرَهُمْ، كَمَا لَا يَبْطِئُ عَنِ مَجَازَاهِ الْمُنْحَرِفِينَ وَالتَّظَالِمِينَ.

وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ بَشَارَةٌ إِلَى الصَّالِحِينَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا هِيَ أَيْضًا تَحْذِيرٌ وَتَهْدِيدٌ لِلْعَصَاةِ وَالتَّمَذِنِينَ (١).

ص: ٦٦

(١- ١) - للوقوف على تفصيل أكثر حول معنى هذه العبارة راجع، الآية ٢٠٢ من سورة البقرة.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

التفسير

هذه الآيه هي آخر الآيات من سوره آل عمران، و تحتوي على برنامج يتكون من أربع نقاط لعامة المسلمين، و هي لذلك تبدأ بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين إذ تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .

١-«اصبروا»: إن أول مادة في هذا البرنامج الذى يكفل عزه المسلمين و انتصارهم هو الاستقامه و الثبات، و الصبر فى وجه الحوادث الذى هو فى الحقيقه-أصل كل نجاح مادي، و عله كل انتصار معنوى، و هو الأمر الذى يستحق حديثاً مفصلاً لما له من أثر جدد مهم فى الانتصارات و النجاحات الفرديه و الاجتماعيه، و هو الذى

قال عنه الأمام على عليه السلام فى حكمه و كلماته القصار: «إن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد».

٢-«و صابروا» و هي من المصابره (من باب المفاعله) بمعنى الصبر و الاستقامه و الثبات فى مقابل صبر الآخرين و ثباتهم و استقامتهم.

و على هذا فإن القرآن يوصى المؤمنين أولاً بالصبر و الاستقامه (التي تشمل

كل ألوان الجهاد، كجهاد النفس، والاستقامه في مواجهه مشاكل الحياه)، ثم يوصى ثانيا بالصبر و الثبات و الاستقامه أمام الأعداء، و هذا بنفسه يفيد أن الأئمة ما لم تتغلب و تنتصر في جهادها مع النفس، و في إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخليه يستحيل انتصارها على الأعداء، و هذا يعنى أن أكثر هزائمها أمام أعدائها إنما هي بسبب ما لحق بها من هزائم في جبهه الجهاد مع النفس و ما أصابها من إخفاقات في إصلاح نقاط الضعف التي تعاني منها.

كما و أنه يستفاد من هذا التعليم «صابروا» أن على المسلمين أن يضاعفوا من صبرهم و من ثباتهم كلما ضاعف العدو من صبره و ثباته و مقاومته و عناده.

٣- «و رابطوا» و هذه العبارة مشتقه من ماده «الرباط» و تعنى ربط شىء في مكان (كربط الخيل في مكان)، و لهذا يقال لمنزل المسافرين «الرباط»، و يقال أيضا ربط على قلبه بمعنى أنه أعطاه السكينه، و ملأه بالطمأنينه و كأن قلبه انشد إلى مكان، و ارتكز على ركن و ثيق، و «المرابطه» بمعنى مراقبه الثغور و حراستها لأن فيها يربط الجنود أفراسهم.

و هذه العبارة أمر صريح إلى المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائم لمواجهه الأعداء، و أن يكونوا في حاله تحفز و تيقظ و مراقبه مستمره لثغور البلاد الإسلاميه و حدودها حتى لا- يفاجئوا بهجمات العدو المباغتة، كما أنه حثّ على التأهب الكامل لمواجهه الشيطان، و الأهواء الجامحه حتى لا تباغتهم و تأخذهم على حين غرّه و غفله، و لهذا جاء في بعض الأحاديث عن الإمام على عليه السلام تفسير المرابطه بانتظار الصلاه بعد الصلاه، لأن من حافظ على يقظه روحه و ضميره بهذه العبادات المستمره المتلاحقه، كان كالجندي المتأهب لمواجهه الأعداء على الدوام.

و خلاصه القول: إن للمرابطه معنى و سيعا يشمل كل ألوان الدفاع عن النفس و المجتمع.

ثم إنَّ هناك في الفقه الإسلامي بابا خاصًا-في كتاب الجهاد-تحت عنوان «المرابطة»بمعنى الاستعداد و التأهب الكامل في الثغور لحراستها و حمايتها و حفظها أمام حملات الأعداء الاحتماليه،و قد ذكرت لها أحكام خاصه يقف عليها كل من راجع الكتب الفقيهيه.

هذا و قد أطلق على العلماء-كما في بعض الأحاديث-صفه المرابط،

فعن الإمام الصادق عليه السلام:

«علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس و عفاريتيه،و يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا و عن أن يتسلط عليهم إبليس...» (١).

و تعتبر نهايه هذا الحديث العلماء أعلى مكانه من الجنود و القاده الذين يحرسون الثغور و يذبون عنها أعداء الإسلام.و ما ذلك إلا أن العلماء حماه الدين و حرّاسه و الأمناء المدافعون عن القيم الإسلاميه،و الجنود حماه الثغور الجغرافيه،و من الثابت المسلم به أن الثغور الفكرية و الثقافيه لأمه من الأمم لو تعرضت لكيد الأعداء،و لم تستطع المذب عنها بنجاح،فإنها سرعان ما تصيبها الهزائم العسكريه و السياسيه أيضا.

□  
٤- وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ هَذَا بَالِغُ آخِرِ التَّعَالِيمِ وَ الْأَمْرِ فِي هَذَا الْبَرْنَامِجِ، وَ هُوَ بِمِثَابِهِ الْمِظْلَهُ الْوَاقِيَهُ لِمَا سَبَقَهَا مِنَ التَّعَالِيمِ أَنَّهُ حَثَّ عَلَى التَّقْوَى، وَ لَا يَدَّ لِلْإِسْتِقَامَةِ وَ الْمَصَابِرَةِ وَ الْمُرَابَطَةِ مِنْ أَنْ تَمْتَرِجَ بِعَنْصَرِ التَّقْوَى، وَ لَا يَشُوبُهَا شَيْءٌ مِنْ أَنْيَابِهِ أَوْ رِيَاءٍ أَوْ أَغْرَاضٍ شَخْصِيَةٍ.

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

و هكذا تختم الآيه هذا البرنامج بذكر النتيجة التي تنتظر كل من يطبق هذا البرنامج،إنه الفلاح و النجاح الذي يمكنكم الوصول إليه عبر الأخذ بهذه التعاليم و الأوامر،و إلا فلن تحصلوا على شيء من النجاح و الإنتصار.

ص: ٦٩

هناك سؤال يطرح نفسه و هو:لما ذا تبدأ بعض العبارات و الجمل القرآنيه بلفظه«لعل»مثل قوله تعالى لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ،و لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ،و لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ و هي كما نعلم تفيد التردد الذى لا يليق بالله سبحانه العالم بكل شىء.

و قد صارت هذه المسأله ذريعه بأيدى بعض أعداء الإسلام الذين انطلقوا يقولون: إن الإسلام لا- يعطى وعودا قطعيه بالثواب،فوعوده مردده غير مجزوم بها،لأنها تبدأفى أغلبها-بلعلّ.

### الجواب:

من حسن الاتفاق أن هذا النمط من التعبير يشكّل جانباً من عظمه هذا الكتاب العزيز،و واقعته فى النظره إلى الأمور و فى بيانها،ذلك لأن القرآن استخدم هذه اللفظه فى كل مقام يتوقف الاستنتاج فيه على شرائط و مقدمات قد أشار إليها و لوح بها إجمالاً بلفظه«لعل».

فالسكوت عند الاستماع إلى القرآن و الانتباه و التوجه إلى ألفاظ الآيات القرآنيه مثلاً-لا- يكفى-بمجرده-لا-حراز الرحمه الإلهيه،بل لا- بدّ من فهم الآيات و درك معانيها،و مقاصدها،و تطبيق توصياتها،و تعاليمها و أوامرها و نواهيها، و لهذا يعلق سبحانه شمول الرحمه بقوله: وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١).

و على هذا الأساس لو كان القرآن يقول أنكم سترحمون حتما كان بعيداً عن الواقعيه،لأنّ لتحقيق هذا الموضوع كما قلنا شرائط أخرى أيضاً،فيكون التعبير الجازم تجاهلاً لهذه الشرائط،و لكنّه إذا قال«لعلكم»فإنّه يكون قد أخذ تلك الشرائط بنظر الإعتبار و حسب لها حسابها.

بيد أن عدم الالتفات إلى هذه الحقيقه جرّ البعض إلى الاعتراض على مثل هذا التعبير فى الآيات القرآنيه إلى درجه أن بعض علمائنا-أيضاً-ذهب إلى

ص :٧٠

القول بأن «لعل» ليست مستعمله في مثل هذه الموارد في معناها الحقيقي، وهذا كما ترى خلاف للظاهر دونما دليل.

و في المقام نجد الآيه الحاضره مع أنها أشارت إلى أربع نقاط من أهم التعاليم الإسلاميه، ولكن حتى لا يغفل المسلمون عن بقيه البرامج و التعاليم الإسلاميه البناءه استخدمت كلمه «لعل» للإيدان بأن هناك أيضا من الظروف و الشرائط ما له دخل في تحقق هذه الرحمه ينبغي أن تؤخذ بعين الإعتبار.

و على كل حال لو أن المسلمين اليوم جعلوا الآيه الحاضره شعارهم و منهجهم في حياتهم اليوميه و طبقوا مفادها لانحل الكثير من مشاكلهم التي يعانون منها الآن بشده.

إن الضربات الموجهه التي يتلقاها الإسلام و المسلمون اليوم ليست-في الحقيقه-إلا بسبب تجاهل هذه التوصيات الإسلاميه الأربع أو تناسيها كلها أو بعضها.

و لو أن المسلمين أعادوا إلى نفوسهم روح الثبات و الاستقامه، و لو أنهم ضاعفوا جهودهم في مقابل مضاعفه الأعداء لجهودهم، و لو أنهم-حسب ما في هذه الآيه-شددوا من مراقبتهم للثغور الجغرافيه و الفكرية و الاعتقاديه و حافظوا على حاله الاستعداد و التأهب الدائم لمواجهه أى خطر داهم، أو أى عدوّ مباغت، و لو أنهم-فوق كل هذا-تسلحوا بسلاح التقوى و الورع، أفرادا و جماعات، و طهروا بيئاتهم من أدران الفساد لضمنوا النصر و الظفر.

رباه، وفقنا جميعا للأخذ بتعاليم كتابك السماوى العزيز في حياتنا، وجد علينا برحمتك الواسعه، و منّ علينا بلطفك، آمين يا أرحم الراحمين و يا رب العالمين.





## سوره النساء

### اشاره

مدتيه و عدد آياتها مائه و ست و سبعون آيه

ص: ٧٣



سوره النساء قبل الخوض فى تفسير آيات هذه السوره يلزم أن نذكر للقارىء الكريم بعدة نقاط هى:

## ١- موضع نزول هذه السوره

كل آيات هذه السوره (باستثناء الآيه ٥٨ حسب نقل بعض المفسرين) نزلت فى المدينه المنوره، و تقع من حيث ترتيب النزول بعد سوره الممتحنه، لأنّ الترتيب الفعلى للسور القرآنيه- كما نعلم- لا يطابق ترتيبها فى النزول، بمعنى أن كثيرا من السور التى نزلت فى مكه تقع فى الترتيب الحاضر فى آخر القرآن الكريم، و كثيرا من السور التى نزلت فى المدينه تقع فى أوائل القرآن.

على أننا قد نوهنا فى بدايه المجلد الأول من هذه المجموعه التفسيريه، بأنّ ثمة دلائل تؤكد أن جمع السور القرآنيه على الشكل الفعلى قد تمّ فى زمن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم نفسه، و على هذا الأساس يكون النبى الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم قد أمر بأن ترتب السور على النحو الموجود الآن (بأن يكون أولها الحمد و آخرها الناس) لأسباب مختلفه منها أهميه المواضيع التى تضمنتها السور، و الترتيب الطبيعى لهذه السور بدون أن يكون قد تغيّر من هذا الترتيب أو زيد أو نقص فى الحروف و الآيات و السور.

إنّ هذه السوره تعتبر من حيث عدد الكلمات و الأحرف- أطول السور بعد

سوره البقره، و تحتوى على (١٧٦) آيه، و تسمى بسوره النساء نظرا لتضمنها أبحاثا كثيره و حديثا مفصلا حول أحكام «المرأه» و حقوقها.

## ٢- محتويات هذه السوره:

هذه السوره- كما قلنا- نزلت فى المدينه، بمعنى أنّ النبى الأ-كرم صلّى الله عليه و آله و سلّم عند ما كان مقبلا على تأسيس حكومه إسلاميه و تكوين مجتمع إنسانى قويم، نزلت هذه السوره و هى تحمل جمله من القوانين التى لها أثر كبير فى إصلاح المجتمع، و إيجاد البيئه الاجتماعيه الصالحه النقيه.

و من ناحيه أخرى فإنّ أكثر أفراد هذا المجتمع الجديد كانوا قبل ذلك من الوثنيين بما فيهم من لوثات الجاهليه و انحرافاتهما و رواسبها، لذلك يتعين قبل أى شىء تطهير عقولهم، و تزكيه أرواحهم و نفوسهم من تلك الرّوااسب، و إحلال القوانين و البرامج اللازمه لإعاده بناء المجتمع محل تلك العادات و التقاليد الجاهليه الفاسده.

و على العموم فإنّ المواضيع المختلفه التى تحدثت عنها هذه السوره هى عباره عن:

١- الدّعوة إلى الإيمان و العداله، و قطع العلاقات الوديّه بالأعداء الألداء، و الخصوم المعاندين.

٢- ذكر بعض قصص الأمم الماضيه لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحه.

٣- العنايه بالمحتاجين إلى حمايه مثل الأيتام، و بيان التعاليم اللازمه لصيانه حقوقهم.

٤- قانون الإرث و التوارث بنحو طبيعى و عادل فى قبال الكيفيه القبيحه التى كان عليها وضع التوريث فى ذلك الزمان، حيث كان يحرم الضعفاء بحجج واهيه، و أعدار غير وحيه.

٥-القوانين المتعلقة بالزواج و البرامج التي تصون العفاف العام.

٦-القوانين العامه لحفظ الأموال العامه.

٧-حفظ و تحسين حاله الوحده الأساسيه للمجتمع،أى العائله.

٨-الحقوق و الواجبات الفرديه المتقابله فى المجتمع.

٩-التعريف بأعداء المجتمع الإسلامى و تحذير المسلمين منهم.

١٠-الحكومه الإسلاميه و وجوب طاعه قائد هذه الحكومه.

١١-حث المسلمين على مجابهه الأعداء و جهادهم.

١٢-الكشف عن الأعداء و الخصوم الذين قد يتوسلون بالعمل السرى.

١٣-أهميه الهجره و وجوبها عند مواجهه مجتمع فاسد غير قابل للتأثير فيه و تغييره.

١٤-البحث مجددا عن الإرث و نظام التوريث،و ضروره تقسيم الثروات المكده بين الوارثين.

### ٣-فضل تلاوه هذه السوره

عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم كما فى روايه أنه قال: «من قرأها(أى سوره النساء) فكأنما تصدق على كل مؤمن وورث ميراثا،و أعطى من الأجر كمن اشترى محررا» (١).

و من البين أن المقصود فى هذه الروايه و أمثالها ليس هو القراءه المجرده،بل تلك القراءه التى تكون مقدمه للفهم و الإدراك الذى هو بدوره مقدمه لتطبيق تعاليم هذه السوره فى الحياه الفرديه و الاجتماعيه.

و من المسلم أن المسلمين لو استلهموا من مفاهيم هذه السوره فى حياتهم لنالوا كل هذا الأجر مضافا إلى النتائج الدينويه.

ص: ٧٧

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

التفسير

اشاره

مكافحه التمييزات و الاستثناءات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ

الخطاب في الآيه الأولى من هذه السوره موجه إلى كافه أفراد البشر، لأن محتويات هذه السوره-هي في الحقيقه-نفس الأمور التي يحتاج إليها كل أفراد البشر في حياتهم.

ثم إن الآيه تدعو إلى التقوى باعتبارها أساساً لأي برنامج إصلاحى للمجتمع، فأداء الحقوق و التقسيم العادل للثروه، و حمايه الأيتام، و رعايه الحقوق العائليه، و ما شابه ذلك كلها من الأمور التي لا تتحقق بدون التقوى، و لهذا تفتتح هذه السوره-التي تحتوى على جميع هذه الأمور-بالدعوة إلى التزام التقوى:

اتَّقُوا رَبَّكُمُ

و للتعريف بالله الذى يراقب كل أعمال الإنسان و تصرفاته أشير في الآيه إلى واحده من صفاته التي تعتبر أساساً للوحده الاجتماعيه في عالم البشر: الَّذِي

و على هذا الأساس لا مبرر للتمييز العنصرى، و اللغوى، و المحلى، و العشائرى و ما شابه ذلك ممّا يسبب فى عالمنا الزّاهن آلافاً من المشاكل فى المجتمعات. و لا مجال لهذه الأمور و ما يترتب عليها من الأمجاد الكاذبه و التفوق الموهوم فى المجتمع الإسلامى، لأنّ كافه البشر على اختلاف ألوانهم، و لغاتهم، و أقطارهم يرجعون إلى أب واحد و أم واحده.

و تتضح أهميه مكافحه هذا الأمر- أكثر فأكثر- إذا لاحظنا أنّ ذلك قد تمّ فى زمن كان يعانى بقايا و رواسب نظام قبلى و عشائرى ظالم، و نعى عصر النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم.

هذا و قد ورد نظير هذا التعبير فى موارد أخرى من القرآن الكريم أيضاً، و سنشير إلى كل ذلك فى موضعه.

و الآن يجب أن نرى من هو المقصود من «نفس واحده»؟ هل المراد من «نفس واحده» هو شخص معين، أو أنه واحد نوعى (أى جنس المذكور)؟ لا شك أنّ ظاهر هذا التعبير هو الشخص المعين، و الواحد الشخصى، و هو إشاره إلى أوّل إنسان قد سمّاه القرآن الكريم ب«آدم» و يعتبره أبا البشر.

كما و قد عبر عن البشر بنى آدم فى آيات كثيره من القرآن الكريم.

فاحتمال أن يكون المراد من نفس واحده هو الواحد النوعى بعيد عن ظاهر الآيه جدّاً.

ثمّ أنّ قوله تعالى: وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا قَدْ فُهِمَ مِنْهَا بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ أَنَّ «حِوَاءَ» قَدْ خَلَقَتْ مِنْ جَسْمِ آدَمَ وَ اسْتَشْهَدُوا لِذَلِكَ بِرَوَايَاتٍ وَ أَحَادِيثٍ غَيْرِ مَعْتَبَرَةٍ تَقُولُ: إِنَّ حِوَاءَ خَلَقَتْ مِنْ أَضْلاعِ آدَمَ (و هو أمر قد صرّح به فى سفر التكوين من التوراه أيضاً).

لكن مع ملاحظه سائر الآيات القرآنيه يرتفع كل إبهام حول تفسير هذه الآيه، و يتضح أن المراد منها هو أن الله سبحانه خلق زوجه آدم من جنسه (أى جنس البشر) فى الآيه (٢١) من سوره الروم نقرأ وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا كَمَا نَقَرَأُ: فى الآيه (٧٢) من سوره النحل وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .

و من الواضح أنّ معنى قوله تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا هو أنّه خلقهم من جنسكم لا أنّه خلقهن من أعضاء جسمكم. و وفقا لروايه منقوله عن الإمام محمّد الباقر عليه السّلام كما فى تفسير العياشى -أنه كذب بشدّه فكره خلق حواء من ضلع آدم، و صرح عليه السّلام -بأنه خلقت من فضل الطينه التى خلق منها آدم.

### كيف كان زواج أبناء آدم؟:

قال سبحانه: وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً هذه العبارة يستفاد منها أنّ انتشار نسل آدم، و تكاثره قد تمّ عن طريق آدم و حواء فقط، أى بدون أن يكون الموجود ثالث أى دخاله فى ذلك.

و بعبارة أخرى أنّ النسل البشرى الموجود إنّما ينتهى إلى آدم و زوجته من غير أن يشاركهما فى ذلك غيرهما من ذكر أو أنثى. و هذا يستلزم أن يكون أبناء آدم (أخوه و أخوات) قد تزوجوا فيما بينهم، لأنه إذا تمّ تكثير النسل البشرى عن طريق تزويجهم بغيرهم لم يصدق و لم يصح قوله: «منهما».

و قد ورد هذا الموضوع فى أحاديث متعدده أيضا، و لا داعى للتعجب و الاستغراب إذ طبقا للاستدلال الذى جاء فى طائفه من الأحاديث المنقوله عن أهل البيت عليهم السّلام إنّ هذا النوع من الزواج كان مباحا حيث لم يرد بعد حكم بحرمة



«تزوج الأخ بأخته».

و من البديهي أن حرمة شيء تتوقف على تحريم الله سبحانه له،فما الذى يمنع من أن توجب الضرورات الملحه و المصالح المعينه أن يبيح شيئاً فى زمان، و يحرمه بعد ذلك فى زمن آخر.

غير أنه قد صرّح فى أحاديث أخرى بأن أبناء آدم لم يتزوجوا بأخواتهم، و تحمل بشدّه على من يرى هذا الرأى و يذهب هذا المذهب.

و لو كان علينا عند تعارض الأحاديث أن نرجح ما وافق منها ظاهر القرآن لوجب أن نختار الطائفة الأولى،لأنها توافق ظاهر الآيه الحاضره كما عرفت قبل هذا.

ثمّ أنّ هاهنا احتمالاً- آخر يقول:إن أبناء آدم تزوجوا بمن تبقى من البشر الذين سبقوا آدم و نسله،لأن آدم-حسب بعض الروايات-لم يكن أوّل إنسان سكن الأرض.

و قد كشفت الدراسات و التحقيقات العلميه اليوم أن النوع الإنسانى كان يعيش فى الأرض منذ عهد ضارب فى القدم،فى حين لم يمر على تاريخ ظهور «آدم»فى الأرض زمن طويل،فلا بدّ إذن من القبول النظرية التى تقول:بأنه كان يعيش فى الأرض قبل آدم بشر آخرون قارن غياب آخر بقاياهم ظهور آدمنا،فما المانع من أن يكون«أبناء آدم»قد تزوجوا ببقايا النوع البشرى السابق الذى كان فى أواخر انقراضه؟ و لكن هذا الاحتمال هو أيضاً لا يتوافق و ظاهر الآيه الحاضره(و هذا البحث يحتاج إلى توسع أكثر لا يسعه هذا المجال).

### **الدّعوة إلى العناية بالرحم:**

بعد ذكر ما بين أبناء النوع الإنسانى من وشيجه القربى قال سبحانه: وَ اتَّقُوا

إنَّ أهميه التقوى، و دورها في بناء قاعده المجتمع الصالح سببت في أن تذكر مجدداً في نهايه الآيه الحاضره، و أن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غايه الأمر أنه تعالى أضاف إليها جمله أخرى إذ قال: اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَلُونَ بِهِ أَي اتقوا الله الذي هو عندكم عظيم، و تذكرون اسمه عند ما تطلبون حقوقكم و حوائجكم فيما بينكم.

ثمَّ أنه يقول: «و الأرحام» و هو عطف على «اللهم»، و لهذا كانت القراءه المعروفه هي نصب «و الأرحام» فيكون معناها: و اتقوا الأرحام، و لا تقطعوا صلواتكم بهم.

إنَّ ذكر هذا الموضوع هنا يدل أولاً على الأهميه الفائقه التي يعطيها القرآن الكريم لمسأله الرحم و وشيجه القربى إلى درجه أنه يذكر اسم الأرحام بعد ذكر اسم الله سبحانه، و هو إشاره-ثانياً- إلى الأمر الذي ذكر في مطلع الآيه، و هو أنكم جميعاً من أب واحد و أم واحده، و هذا يعنى فى الحقيقه-أنَّ جميع أبناء آدم أقرباء و أرحام، و هذا الارتباط و الترابط يستوجب أن يتحاب الجميع و يتوادوا دون تفریق أو تمييز بين عنصر و آخر، و قبيله و أخرى، تماماً كما يتحاب أفراد القبيله الواحده.

ثمَّ يختم الآيه بقوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

و الرقيب أصله من الترقب، و هو الانتظار من مكان مرتفع، ثمَّ استعمل بمعنى الحافظ و الحارس، لأن الحراسه من لوازم الترقب و النظاره.

و ارتفاع مكان الرقيب قد يكون من الناحيه الظاهريه بكون الرقيب يرقب على مكان مرتفع، و يمارس النظاره من ذلك الموقع، و قد يكون من الناحيه

يقول سبحانه: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمٌ رَقِيبًا أَي أَنَّهُ يَحْصِي عَلَيْكُمْ نِيَاتِكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ، وَيَعْلَمُ بِهَا وَيَرَاهَا جَمِيعًا، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُكُمْ أَمَامَ الْحَوَادِثِ (وَالْتَعْبِيرُ بِ«كَانَ» الْمَفِيدُ لِلْمَاضِي، إِنَّمَا هُوَ لِلتَّأْكِيدِ).

اشاره

وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)

سبب النزول

روى أن رجلا من بنى غطفان كان معه مالا كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عنه، فخاصمه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت: وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ... فلما سمع الغطفاني ذلك ارتدع وقال: أعوذ بالله من الحوب الكبير (١).

التفسير

اشاره

لا... للخيانة في أموال اليتامى:

كثيرا ما يحدث في المجتمعات البشريه أن يفقد أطفال صغار آباءهم بسبب الحوادث و النكبات و الكوارث، فتلك حاله كثيرا ما تقع، فإن المجتمعات المريضة التي تعاني من صراعات و حروب و نزاعات داخلية مستمره مثل المجتمع الجاهلي العربي يقع فيها هذا الأمر بنسبه أكبر، و لذلك يكثر فيها عدد الأيتام، و هو ما يجب أن تهتم به الحكومه الإسلاميه، بل و يهتم به كل المسلمين،

ص: ٨٤

فيتكفلوا أمر اليتامى و شؤونهم.

و فى هذه الآيه ثلاثه تعاليم بشأن أموال اليتامى.

١- وَ آتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ أَىٰ يجب أن تعطوا اليتامى عند رشدهم أموالهم المودعه عندكم، و يكون تصرفكم فى هذه الأموال على نحو تصرف الأمين و الناظر و الوكيل لا على نحو تصرف المالك.

٢- وَ لَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ أَىٰ لا تأخذوا أموالهم الطيبه و ثرواتهم الجيده و تضعوا بدلها من أموالكم الخبيثه و المغشوشه و هذا التعليم فى الحقيقه- يهدف إلى المنع ممّا قد يرتكبه بعض القيمين على أموال اليتامى من أخذ الجيد من مال اليتيم و الرفيع منه و جعل الخسيس و الردىء مكانه، بحجّه أن هذا التبديل يضمن مصلحه اليتيم، أو لأنّه لا تفاوت بين ماله و البديل، أو لأن بقاء مال اليتيم يؤول إلى التلف و الضياع و غير ذلك من الحجج و المعاذير.

٣- وَ لَا- تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ يعنى لا تخلطوا أموال اليتامى مع أموالكم بحيث تكون نتيجهها تملك الجميع، أو أنّ المراد لا تخلطوا الجيد من أموالهم بالردى من أموالكم بحيث تكون نتيجهها الإضرار باليتامى و ضياع حقوقهم، و لفظه «إلى» فى العبارة بمعنى (مع) فى الحقيقه.

### ما ذا يعنى الحوب؟:

ثمّ إنّه سبحانه، لبيان أهميه هذا الموضوع و التأكيد عليه يختم الآيه بقوله:

إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا

يقول الزّاغب فى مفرداته: «الحوبه حقيقتها هى الحاجه التى تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم» و حيث أن العدوان على أموال اليتامى ينشأفى الأغلب- من الحاجه، أو بحجّه الحاجه استعمل القرآن الكريم مكان لفظه الإثم فى هذه الآيه لفظه «الحوب» للإشاره إلى هذه الحقيقه.

إنّ ملاحظه الآيات القرآنيه المختلفه-فى هذا المجال-تكشف عن أن الإسلام يولى هذا الموضوع أهميه كبرى، و يهدد الخائنين فى أموال اليتامى بالعقوبات الشديده، و يدعو القيمين على اليتامى بكلمات صريحه و جازمه إلى مراقبه أموالهم و المحافظه عليها مراقبه شديده، و محافظه بالغه، و سيأتى تفصيل كلّ هذا فى نفس هذه السوره فى الآيات القادمه، و فى ذيل الآيات (١٥٢) من سوره الأنعام، و (٣٤) من سوره الإسراء.

إنّ اللهجه القويه التى اتسمت بها هذه الآيات قد تركت من التأثير البالغ فى نفوس المسلمين بحيث خافوا أن يخالطوا اليتامى و أن يشتركوا معهم فى الطعام، و لهذا كانوا يهيئون طعاما خاصا لأنفسهم و لأولادهم، و طعاما مستقلا لليتامى و لا يخالطون طعام اليتامى بطعامهم خشيه الإجحاف بهم، و قد شقّ هذا على الجميع-اليتامى و الأولياء-و لهذا أمرهم سبحانه فى الآيه (٢٢٠) من سوره البقره قائلا وَ إِن تَخَالَطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ أَى إِن كَانَ فى مخالطتهم لطعام اليتيم بطعامهم خير و مصلحه لليتيم فلا بأس (١).

ص: ٨٦

---

(١ - ١) - و للتوسع و التفصيل الأكثر راجع ما ذكرناه فى تفسير هذه الآيه فى سوره البقره فى الجزء الثانى من هذا التفسير.

اشاره

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)

سبب النزول

لقد نقل لهذه الآيه سبب نزول خاص، فقد كان المتعارف في العهد الجاهلي قبل الإسلام أن يتكفل أغلب الناس في الحجاز أمر اليتيمات، ثم يتزوجون بهنّ، ثم يمتلكون أموالهنّ، وربما ينكحوهنّ بدون صداق أو بصداق أقل من شأنهنّ، بل وربما يتركوهنّ لأدنى سبب أو كراهيه بكل سهوله، وبالتالي لم يكونوا يعطونهنّ ما يليق بهنّ -كزوجات- بل وحتى كبقية النساء العاديات- من الاحترام و المكانه، فنزلت هذه الآيه توصي أولياء اليتيمات إذا أرادوا الزواج بهنّ أن يلاحظوا جانب العدل معهن، وإلا فليختاروا الأزواج من غيرهنّ (١).

يقول سبحانه في هذه الآيه: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْكَلَامَ بَعْدَ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنَ الْحَثِّ عَلَىٰ حِفْظِ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ مِنَ التَّلْفِ وَعَدَمِ التَّفْرِيطِ فِيهَا،

ص: ٨٧

فجاءت هذه الآية لتنوه بحق آخر من حقوقهم، وهو هذه المره يتعلق باليتيمات خاصه.

## التفسير

### اشاره

بملاحظه ما ذكرناه فى سبب النزول يتضح تفسير هذه الآيه و المراد منها، كما يتضح الجواب أيضا على السؤال المطروح هنا، وهو: لما ذا ابتدئ الآيه بذكر اليتامى، و تنتهى بمسأله الزواج، و يرتفع ما قد يتوهم من المنافاه بين تلك البدايه، و هذه النهايه، فالبدايه و النهايه كلتاهما تتعلقان بمسأله الزواج، غايه ما فى الباب أن الآيه تقول: إذا لم يمكنكم الزواج باليتيمات و معاشرتهن على أساس من العدل و القسط فالأفضل أن تتركوا الزواج بهن، و تتزوجوا بغيرهن من النساء تجنبا لظلم اليتيمات و الإجحاف بحقوقهن، و الجور عليهن.

فالذى يستفاد من ذات الآيه-و إن اختلفت و جهات نظر المفسرين و كثرت أقوالهم و تعددت فى المراد منها-هو ما ذكرناه فى سبب النزول، و هو أن الخطاب موجه إلى أولياء اليتيمات اللاتى جاء الحث فى الآيه السابقه على حفظ أموالهن ضمن اليتامى.

فهذه الآيه تعليم آخر و وصيه أخرى بهم، و لكنها هذه المره تتعلق بمسأله الزواج باليتيمات، و إن على أوليائهن أن يعاملوهن فى مسأله الزواج على أساس من العدل و القسط كما يعاملونهن فى مسأله المال، فعليهم أن يراعوا فى أمر الزواج مصلحه اليتيمه، و إلا فمن الأحسن أن يدعوا الزواج بهن، و يختاروا الأزواج من غيرهن من النساء.

هذا و مما يؤيد و يوضح هذا التفسير ما جاء فى الآيه (١٢٧) من نفس هذه السوره (١) حيث حث سبحانه على التزام العدل فى الزواج باليتيمات، و سيأتى

ص: ٨٨

---

(١-١) - و هو قوله تعالى: وَ يَشْتَفُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ... .



كما أن ثمة أحاديث نقلت في الكتب المختلفه تشهد بهذا الاتجاه، و تؤيد هذا التفسير (1) و ما نقل عن الإمام على عليه السلام من الأخبار بسقوط أو حذف شيء كثير من القرآن بين مطلع هذه الآيه، و نهايتها غير معتبر من حيث السند أصلا، فهذه الأحاديث و ما يشابهها من الأحاديث التي تدل على حذف شيء من الآيات القرآنيه و إسقاطها أو وقوع التحريف فيه إمّا أنّها من موضوعات أعداء الإسلام و خصومه و المنافقين بغيه الحط من اعتبار القرآن و أهميته و مكانته، و إمّا لأنّها ناشئه من عجز البعض عن التوفيق بين صدر الآيه و ذيلها و فهم الارتباط الطبيعي بينهما، و لهذا توهموا بأنّ هناك حذفًا و إسقاطًا و قد تطور هذا الوهم حتى اتخذ صورته الحديث المروى و الخبر المنقول، في حين يتّضح الارتباط الوثيق بين هذه الجمل و العبارات بالتأمل و التدبر و الإمعان.

### «مثنى» و «ثلاث» و «رباع»:

و تعنى «مثنى» فى اللغه اثنتين اثنتين، و «ثلاث» ثلاثا ثلاثا، و «رباع» أربعاً أربعاً، و حيث أنّ الخطاب فى هذه الآيه موجّه إلى المسلمين كافه، كان المعنى: إن عليكم أن تنصرفوا عن الزواج باليتيمات تجنبا من الجور عليهنّ، و أن تتزوجوا بالنساء اللاتي لا تسمح مكانتهنّ الاجتماعيه و العائليه بأن تجوروا عليهنّ، و تظلموهنّ، و يجوز لكم أن تتزوجوا منهنّ باثنتين أو ثلاث أو أربع، غايه ما فى الأمر حيث أنّ الخطاب هنا موجّه إلى عامه المسلمين، و كافتهم عبر بالمثنى، و الثلاث، و الرباع إذ لا شك فى أن تعدد الزوجات-بالشروط الخاصه- لا يشمل أكثر من أربع نساء.

ولا بدّ من التنبيه إلى أن «الواو» هنا أتت بمعنى «أو»، فليس معنى هذه الجملة هو أنه يجوز لكم أن تتزوجوا باثنتين و ثلاث و أربع ليكون المجموع تسع زوجات، لأن المراد لو كان هذا لوجب أن يذكر ذلك بصراحة فيقول: و انكحوا تسعا لا أن يذكره بهذه الصورة المتقطعة المبهمة.

هذا مضافا إلى أنّ حرمة الزّواج بأكثر من أربع نسوة من ضروريات الفقه الإسلامى، و أحكامه القطعية المسلمة.

و على كلّ حال فإنّ الآيه الحاضره دليل صريح على جواز تعدد الزوجات.

طبعا بشروطها التى سنذكرها قريبا.

ثمّ أنّه سبحانه عقب على ذلك بقوله: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَى التزوج بأكثر من زوجه إنّما يجوز إذا أمكن مراعاة العدالة الكامله بينهما، أمّا إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهما، فاكتفوا بالزوجه الواحده لكى لا تجوروا على أحد.

ثمّ يقول: أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَى يجوز أن تقتصروا على الإماء اللاتى تملكونهنّ بدل الزوجه الثانيه لأنهنّ أخف شروطا (و إن كن يجب أن يحظين و يتمتعن بما لهنّ من الحقوق أيضا).

و يقول: ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا أَى أن هذا العمل (و هو الاقتصار على زوجه واحد أو الاقتصار على الإماء و عدم التزوج بزوجه حرّه ثانيه) أحرى بأن يمنع من الظلم و الجور، و يحفظكم من العدوان على الآخرين (و سيكون لنا حديث مفصل عن الرّق فى الإسلام عند تفسير الآيات المناسبه إن شاء الله).

### ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟:

قبل الخوض فى بيان فلسفه تعدد الأزواج فى الشريعة الإسلاميه يجب أن يتّضح أولا المراد من العدل بين الأزواج الذى هو من شروط جواز التعدد، فما هو المقصود من العدل هنا يا ترى؟

أهي العدالة في الجوانب المادية كالمضاجعة و توفير وسائل العيش و تحقيق الرفاه و المتطلبات المعيشية؟ أم أنّ المراد أيضا هو العدالة في نطاق القلب و العواطف و الأحاسيس الإنسانية؟ و بعبارة صريحه:العدالة في الحبّ و الرغبة، مضافا إلى العدالة في الجوانب المادية؟ لا شك أنّ مراعاة العدالة في الميل القلبي، و الحبّ، و الرغبة شيء خارج عن نطاق القدره البشريه.

فمن ذا يستطيع أن يضبط حبه من جميع الجوانب، و يعطيه الحجم الذي يريد، و الحال أنّ موجباته و عوامله خارجه عن نطاق قدرته، و إطار إرادته؟ و لهذا لم يوجب سبحانه مراعاة مثل هذه العدالة حيث قال سبحانه في الآية ١٢٩ من نفس هذه السوره- النساء: وَ لَنْ تَسِيءَ تَطْيُئُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَ لَوْ حَرَضْتُمْ أَى لا يمكنكم مهما أردتم أن تعدلوا بين الأزواج في الميل القلبي، و الحبّ و الموده.

إذن فلا- ضير في الحبّ و الميل القلبي الذي لا- يوجب تفضيل بعض الأزواج في المواقف العمليه، و على هذا الأساس فإن ما يجب على الرجل مراعاته هو العدالة بين أزواجه في الجوانب العمليه الخارجيه أى في نوع التعامل العملى خاصه إذ يستحيل مثل هذه المراعاة في المجال العاطفى.

من هذا الكلام يتضح بجلاء إن الذين أرادوا من ضمّ قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً إِلَى قوله تعالى في الآية (١٢٩): وَ لَنْ تَسِيءَ تَطْيُئُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَ لَوْ حَرَضْتُمْ أن يستتجوا حرمة تعدد الأزواج مطلقا بحجّه استحاله مراعاة العدالة بينهن قد وقعوا في خطأ كبير، لأن العدالة المستحيله مراعاتها- كما أسلفنا- هي العدالة في المجال العاطفى،- و ليس هذا من شرائط جواز التعدد في الأزواج، بل إن من شرائط جوازه هو مراعاة العدالة في المجال العملى.

و يشهد بذلك ما جاء فى ذيل الآيه (١٢٩) من نفس هذه السوره حيث يقول سبحانه: **فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ أَى أَنْكُمْ إِذْ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَى مَرَاعَاهِ الْمَسَاوَاهِ الْكَامِلَه فى محبّه الزوجات و ودهنّ، فلا أقل أن لا تميلوا فى حبّ بعض الأزواج ميلا شديدا يحملكم على أن تذرّوا التى لا تميلون إليها، فلا هى ذات زوج و لا أيم.**

و خلاصه القول و نتيجته، هى أن الذين أمسكوا بقسم من هذه الآيه، و نسوا القسم الآخر و تورطوا فى رفض تعدد الزوجات فى خطأ يدهش كل محقق، و يستغرب منه كل باحث.

أضف إلى ذلك أن مسأله جواز تعدد الأزواج بشرائطها على درجه من الثبوت و الوضوح فى الفقه الإسلامى و مصادره الشيعيه و السنيه بحيث لا يبقى مجال للجدل، و لا محل للنقاش، بل هو من ضروريات الفقه الإسلامى و مسلماته، و بديهيته. و لنعطف عنان البحث الآن إلى معرفه فلسفه هذا القانون الإسلامى.

### **تعدد الزوجات ضروره اجتماعيه:**

لقد أجازت الآيه الحاضره تعدد الزوجات (و لكن بشرائط ثقيله و فى حدود معينه) و قد أثارت هذه الإباحه جماعه، فانطلقوا يوجهون إليها الاعتراضات و الإشكالات، و تعرض هذا القانون الإسلامى لهجمه كبيره من المعارضين الذين تسرعوا فى إصدار الحكم عن هذا القانون الإسلامى متأثرين بالأحاسيس، و دون أن يتناولوه بالدرس و التمحيص، و التأمل و التحقيق. و كان الغربيون أكثر هذه الجماعه معارضه لهذا القانون و هجوما عليه، متسائلين كيف يجوز للإسلام أن يسمح للرجال أن يقيموا لأنفسهم حريما و يتخذوا زوجات متعدده على نحو ما كان شائعا فى الجاهليه؟

كلاً، إنّ الإسلام لم يسمح لأحد بأن يقيم حريماً بالمعنى الذى تصورتم، ولا أنه أباح تعدد الزوجات دون قيد أو شرط، و دون حدّ أو قانون.

و لتوضيح هذه الحقائق نقول: إن دراسته البيئات المختلفه قبل الإسلام تكشف لنا أنّ تعدد الزوجات دونما عدد معين كان أمراً عادياً و شائعاً، لدرجة أنّ بعض الوثنيين أسلموا و تحت الرجل منهم عشر زوجات أو أقل، من هنا لم تكن مسأله تعدد الزوجات ممّا أبدعه الإسلام، نعم إنّ ما فعله الإسلام هو وضع هذا الأمر فى إطار الحاجه و الضروره الحيويه الإنسانيه، و تقييده بطائفه من القيود و الشروط الثقيله.

إنّ قوانين الإسلام و تشريعاته تدور على محور الحاجات الإنسانيه، و تقوم على أساس مراعاة الضرورات الحيويه فى دنيا البشر، لا الدعايه الظاهره و لا المشاعر الموجهه توجيهها غير صحيح، و مسأله تعدد الزوجات من هذا القبيل أيضاً، فقد لوحظت هى الاخرى من هذه الزاويه، لأنّه لا أحد يمكنه أن ينكر أنّ الرجال أكثر تعرضاً من النساء لخطر الفناء و الموت بسبب كثره ما يحيط بهم من الحوادث، المختلفه.

فالرجال يشكلون القسم الأكبر من ضحايا الحروب، و المعارك.

كما أنّه لا- يمكن إنكار أنّ أعمار الرجال من الناحيه الجنسيه أطول من أعمار النساء فى هذا المجال، فالنساء يفقدون القدره الجنسيه (و القدره على الإنجاب) فى سن معين من العمر قريب، فى حين يبقى الرجال متحفّظين بهذه الطاقه و القدره مدّه أطول بكثير.

كما أنّ النساء- فى فتره العاده الشهريه و شىء من فتره الحمل- يعانين من موانع جنسيه بصوره عمليه فى حين لا يعانى الرجل من أى مانع جنسى من هذا النوع.

هذا كلّه مضافاً إلى أن هناك نساء يفقدون أزواجهنّ لبعض الأسباب، فلا

يتيسر لهن أن يجلبن اهتمام نظر الرجال إلى أنفسهن كزوجه أولى، فإذا لم يسمح بتعدد الزوجات، ووجب أن تبقى تلك النسوة بلا أزواج، كما نقرأ ذلك في الصحف المختلفه حيث يشكو هذا النوع من النساء الأرامل من صعوبات الحياه و مشكلات العيش بسبب تحديد مسأله تعدد الأزواج أو إلغائها بالمره، و حيث يعتبرن المنع من التعدد نوعا من القوانين الظالمه الجائره و المعاديه لهن.

بالنظر إلى هذه الحقائق، و عند ما يضطرب التوازن بين عدد النساء و الرجال نجد أنفسنا مضطرين لأن نختار أحد طرق ثلاث هي:

١- أن يقنع كل رجل بزوجه واحده فقط في جميع الحالات و الموارد، و يبقى العدد الإضافي من النساء بلا أزواج إلى آخر أعمارهن، و يكتبن حاجتهن الفطريه و يقمعن غرائزهن الباطنيه الملتهبه.

٢- أن يتزوج الرجل بامرأه واحده بصوره مشروعه ثم يترك حرا لإقامه علاقات جنسيه مع من شاء و أراد من النساء اللاتي فقدن أزواجهن لسبب و آخر على غرار اتّخاذ الأخدان و العشيقات.

٣- أن يسمح لمن يقدر أن يتزوج بأكثر من واحده و لا يقع في أيه مشكله من الناحيه «الجسميه» و «الماليه» و «الخلقيه» من جراء هذا الأمر، كما و يمكنه أن يقيم علاقات عادله بين الزوجات المتعدده و أولادهن، أن يسمح لهم بأن يتزوجوا بأكثر من واحده (على أن لا يتجاوز عدد الأزواج أربعا)، و هذه هي ثلاث خيارات و طرق لا رابع لها.

و إذا أردنا اختيار الطريق الأول يلزم أن نعادي الفطره و الغريزه البشريه، و نحارب جميع الحاجات الروحيه و الجسميه لدى البشر، و نتجاهل مشاعر هذه الطائفه من هذه النسوة، هذه الحرب و المعركه التي لن يكون فيها أي انتصار، و حتى لو نجح هذا الطرح و كتب له التوفيق، فإن ما فيها من الجوانب اللاإنسانيه أظهر من أن تخفى على أحد.

و بعبارة أخرى أن تعدد الزوجات فى الموارد الضرورية يجب أن لا ينظر إليه أو يدرس من منظور الزوجه الأولى، بل يجب أن يدرس من منظور الزوجه الثانية أيضا.

إن الذين يعالجون هذه المسألة و ينظرون إلى خصوص مشاكل الزوجه الأولى فى صورته تعدد الزوجات هم أشبه بمن يطالع مسأله ذات زوايا ثلاث من زاويه واحده، لأن مسأله تعدد الزوجات ذات ثلاث زوايا، فهى يجب أن تطالع من ناحيه الرجل، و من ناحيه الزوجه الأولى، و من ناحيه الزوجه الثانية أيضا، و يجب أن يكون الحكم بعد ملاحظه كل هذه الزوايا فى المسأله، و يتم على أساس مراعاة مصلحه المجموع فى هذا الصعيد.

و إذا اخترنا الطريق الثانى و جب أن نعترف بالفحشاء و البغاء بصوره قانونيه، هذا مضافا إلى أن النساء العشيقات اللائى يجعلن أنفسهن فى متناول هؤلاء الرجال لإرواء حاجتهم الجنسيه يفتقدن كل ضمانه و كل مستقبل، و يعنى ذلك سحق شخصيتهن سحقا كاملا- فى الحقيقه- إذ يصبحن حينئذ مجرد متاع يقتنى عند الحاجه و يترك عند ارتفاعها دون التزام و مسئوليه، و لا شك أن هذه الأمور ممّا لا يسمح به أى عاقل مطلقا.

و على هذا الأساس لا- يبقى إلا- الطريق الثالث، و هو الطريق الذى يلبي الحاجات الفطريه و الغريزيه للنساء، كما أنه يجنب هذه الطائفه من النساء و يحفظهنّ من عواقب الفحشاء و الانزلاق إلى الفساد، و بالتالى ينفذ المجتمع من مستنقع الآثام و الذنوب.

على أن من الواجب أن نلتفت إلى أنّ السماح بتعدد الزوجات مع أنّه ضروره اجتماعيه فى بعض الموارد و مع أنّه من أحكام الإسلام القطعيه، إلا أن توفير شرائطه يختلف اختلافا كبيرا عن الأزمنه الماضيه، لأن الحياه كانت فى العصور

السابقه ذات نمط بسيط و مواصفات سهله، و لهذا كانت رعايه المساواه و العداله بين الزوجات المتعددات أمرا ممكنا و ميسرا لأكثر الناس، في حين يجب على الذين يريدون الأخذ بهذا القانون الإسلامى فى هذا العصر أن يراعوا مسأله العداله من جميع الجوانب، و أن يقدموا على هذا الأمر إذا كانوا قادرين على الوفاء بجميع شروطه.

و بالجمله يجب أن لا يقدم أحد على هذا العمل بدافع الهوى و الهوس.

هذا و الملفت للنظر هنا هو أن الذين يعارضون مبدأ تعدد الزوجات (كالغربيين) قد واجهوا طوال تاريخهم ظروفًا ألجأتهم إلى هذا المبدأ بصورة واضحة.

ففى الحرب العالميه الثانيه برزت حاجه شديده فى البلاد التى تعرضت لويلات الحرب هذه و بالأخص ألمانيا، إلى هذا الموضوع مما دفع بطائفه من المفكرين فى سياق البحث عن حلّ لهذه المشكله إلى إعاده النظر فى مسأله المنع عن تعدد الزوجات، إلى درجه أنهم طلبوا من الجامع «الأزهر» بالقاهره البرنامج الإسلامى حول تعدد الزوجات للدراسه، و لكنهم اضطروا-و تحت ضغوط شديده من جانب الكنائس- إلى التوقف عن المضى فى دراسه هذا البرنامج، و كانت النتيجة هو تفشى الفحشاء و الفساد الجنسى الشديدين فى جميع البلاد التى تعرضت للحرب و ويلاتها.

هذا بغض النظر عن أنه لا يمكن إنكار ما يحس به طائفه من الرجال من الميل إلى اتّخاذ زوجات متعدده، فإن كان هذا الميل و الرغبه ناشئين من الهوى و الهوس لم يكن جديرا بالنظر، أمّا إذا كانا ناشئين عن عقم الزوجه عن إنجاب الأولاد من جانب، و رغبه الرجل الشديده فى الحصول على أبناء له- كما هو الحال فى كثير من الموارد- من جانب آخر، فهو ميل و رغبه منطقيان و جديران



كما أنه لو كانت الرغبة في تعدد الزوجات ناشئة من الميل الجنسي الشديد لدى الرجل و عدم قدره الزوجه الأولى على تلبية هذا الميل كما ينبغي، و لهذا يرى الرجل نفسه مضطرا إلى اتخاذ زوجه ثانيه حتى لا يقدم على إشباع هذه الحاجه من طريق غير مشروع لإمكان إشباعه من طريق مشروع، و في هذه الصوره أيضا لا يمكن إنكار منطقيه هذا الميل لدى الرجل، و لهذا تكون إقامه العلاقات مع النساء المتعددات أمرا رائجا عمليا حتى في البلاد التي تحظر تعدد الزوجات، فيعقد الرجل الواحد علاقات غير مشروعه مع نساء عديداً.

إن المؤرخ الفرنسي المعروف «غوستاف لوبون» يعتبر قانون تعدد الزوجات الذي يقره الإسلام ضمن حدود و شروط خاصه - من مزايا هذا الدين، و يكتب عند المقارنه بينه و بين طريقه العلاقات الجنسيه الحره غير المشروعه الرائجه في الغرب قائلاً: «و في الغرب حيث الجو و الطبيعه لا يساعدان على تعدد الزوجات، و برغم أن القوانين الغربيه تمنع التعدد، و لكن الغربيين قلما تقيدوا بهذه القوانين و خرقوها بعلاقاتهم السريه الآثمه.

و لا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبه من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين، بل أرى ما يجعله أسنى منه» (1) طبعاً لا يمكننا إنكار أن هناك بعض أدياء الإسلام ممن يستخدمون هذا القانون الإسلامي من دون مراعاة الروح الإسلامية فيه فيتخذون حريماً كلاً فساد و فجور و يتعدون على حقوق أزواجهم، بيد أن هذا ليس هو عيب في هذا القانون الإسلامي و لا يجوز اعتبار أعمالهم القبيحه و أفعالهم الرخيصة هذه من الإسلام، فهي ليست من أحكام الإسلام في شيء. ترى أي حكم أو قانون جيد

من الأحكام و القوانين لم يستغله النفعيون و المصلحيون استغلالا سيئا؟

## سؤال

ثم إن هاهنا من يسأل أنه قد تتوفر الشرائط و الكيفيات المذكوره أعلاه بالنسبه إلى امرأه أو نساء، فهل يجوز أن نسمح لها أن تختار لنفسها زوجين كما نسمح للرجال ذلك؟

## الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال ليس صعبا كما يمكن أن يتصور، و ذلك:

أولاً: إنّ الرغبه الجنسيه لدى الرجال (على خلاف ما هو شائع بين السواد من الناس) أقوى و أشدّ بأضعاف من النساء، و أن المرض النفسى الذى تصرّح به أكثر الكتب النفسيه و الطبيه هو «البرود الجنسى» لدى المرأه فى حين أن الأمر فى الرجال هو العكس، و لا يقتصر هذا الأمر على البشر، ففى عالم الحيوانات كذلك نجد ذكورها أسبق إلى إظهار الميول الجنسيه من إناثها.

ثانياً: إنّ تعدد الزوجات للرجال لا ينطوى على أية مشاكل اجتماعيه و حقوقيه، فى حين أنّ السماح بتعدد الأزواج للنساء (أى لو أننا سمحنا لامرأه أن تتزوج برجلين) يسبب مشاكل كثيره أبسطها هو ضياع النسب، إذ لا يعرف فى هذه الصوره إلى من ينتسب الولد، و لا شك أن مثل هذا الولد المجهول الأب لن يحظى باهتمام أى واحد من الرجال، بل و يعتقد بعض العلماء أن الولد المجهول الأب قلماً يحظى حتى بحبّ الأمّ و اهتمامها به، و بهذه الصوره يصاب الولد الناشئ من مثل المرأه ذات الزوجين بحرمان مطلق من الناحيه العاطفيه، كما أنّه يكون -بطبيعته الحال- مجهول الحال من الناحيه الحقوقيه أيضاً.

و لعلّه لا يحتاج إلى التذكير بأن التوسل بوسائل منع الحمل للحيلولة دون انعقاد النطفه، و حصول ولد لا يورث الاطمئنان مطلقاً، و لا يكون دليلاً قاطعاً

على عدم حمل الزوجه بولد، لأن ثمّه كثيرا من النساء يستخدمن هذه الوسائل، أو يخطئن في استخدامها فيلدن و ينجبن أولادا، و لهذا لا يمكن لأيه امرأه أن تسمح لنفسها بأن تتزوج بأكثر من رجل اعتمادا على هذه الوسائل.

لهذه الأسباب لا يمكن أن يكون السماح للمرأة بتعدد الأزواج أمرا منطقيا، في حين أنه بالنسبه للرجال-ضمن الشروط المذكوره سابقا- أمر منطقي، و عملي أيضا.

اشاره

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَهُ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤)

التفسير

اشاره

«النحل» في اللغة تعني الدين، كما أنها بمعنى العطيهِ أيضاً، يقول الرّاعب الأصفهاني في مفرداته: «و اشتقاقه فيما أرى أنه من النحل نظرا منه إلى فعله فكان نحلته أعطيته النحل».

و«صدقاتهن» جمع الصداق و هي بمعنى المهر...

و الآيه الحاضره التي جاءت بعد البحث المطروح في الآيه السابقه حول انتخاب الزّوجه تتضمن إشاره إلى إحدى حقوق النساء المسلّمه، و تؤكد قائله:

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَهُ

أى أعطوا المهر للزوجه كتملا- و اهتموا بذلك كما تهتمون بما عليكم من ديون فتؤدونها كامله دون نقص (و في هذه الصوره نكون قد أخذنا لفظه النحله بمعنى الدين).

و أما إذا أخذنا لفظه النحله بمعنى العطيهِ و الهبه فيكون تفسير الآيه المذكوره بالنحو التالي: «أعطوا النساء كامل مهرهنّ الذي هو عطيه من الله لهنّ لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر في المجتمع و ينجبر بهذا الأمر ما فيهنّ من ضعف

ثم بعد أن يأمر الله سبحانه-بصراحه-فى مطلع الآيه بأن تعطى للنساء مهورهن كامله و دون نقصان حفظا لحقوقهن،يعمد فى ذيل هذه الآيه إلى بيان ما من شأنه احترام مشاعر كلا-الطرفين،و من شأنه تقويه أواصر الودّ و المحبّه و العلاقه القليه،و كسب العواطف إذ يقول: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا أى لو تنازلت الزوجه عن شىء من المهر و وهبته للزوج عن طيب نفسها جاز للزوج أكل الموهوب له،و إنّما أقرّ الإسلام هذا المبدأ لكيلا تكون البيئه العائليه و الحياه الزوجيه ميدانا لسلسله من القوانين و المقررات الجافه،بل يكون مسرحا للتلاقى العاطفى الإنسانى،و تسود فى هذه الحياه المحبّه جنباً إلى جنب مع المقررات و الأحكام الحقوقيه المذكوره.

### الصدّاق دعامة اجتماعيه للمرأة:

لَمَّا كانت المرأة-فى العصر الجاهلى-لم تحظ بأيه قيمه أو مكانه كان الرجل إذا تزوج امرأه ترك أمر صدّاقها-الذى هو حقها المسلم-إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صدّاقها،و يعتبرونه حقاً مسلماً لهم لا لها،و ربّما جعلوا التزوج بامرأه صدّاقاً لامرأه أخرى،مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل،و كان هذا هو صدّاق الزوجتين.

و لقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد و الأعراف الظالمه،و اعتبر الصدّاق حقاً مسلماً خاصاً بالمرأه،و أوصى الرجال مرّات عديده و فى آيات الكتاب العزيز برعايه هذا الحق للمرأة.

على أنه ليس للصدّاق حدّ معين فى الإسلام،فهو أمر يتبع اتفاق الزوجين، و إن تأكد فى روايات كثيره على التخفيف فى المهور،و لكن هذا لا يكون حكماً إلزامياً،بل هو أمر مستحب.

و هاهنا ينطرح هذا السؤال، و هو إذا كان الرجل و المرأة يستفيدان من الزواج بشكل متساو، و كانت رابطة الزوجيه قائمه على أساس مصالح الطرفين فلما ذا يجب على الرجل أن يدفع مبلغا- قليلا أو كثيرا- إلى المرأة بعنوان الصداق و المهر؟ ثم ألا ينطوى هذا الأمر على إساءة إلى شخصيه المرأة، ألا يسبغ هذا الأمر صبغه البيع و الشراء على مشروع الزواج؟ إن هذه الأمور هي التي تدفع بالبعض إلى أن يعارضوا بشده مبدأ المهر و مسأله الصداق، و يقوى هذا الاتجاه لدى المتغربين خاصه ما يجدونه من عدم الأخذ بهذا المبدأ فى الزيجات الغربيه، فى حين أن حذف الصداق و المهر من مشروع الزواج ليس من شأنه رفع شخصيه المرأة فقط، بل يعرض وضعها للخطر.

و توضيح ذلك هو، أنه صحيح أنّ المرأة و الرجل يستفيدان من مشروع الزواج، و إقامه الحياه الزوجيه على قدم المساواه، و لكن لا يمكن إنكار أنّ الأكثر تضررا لدى افتراق الزوج عن زوجته هي المرأة، و ذلك:

أولا: إنّ الرجل- بحكم قابليته الجسديه الخاصه- يمتلك- عاده- سلطانا و نفوذا و فرصا أكثر فى المجتمع، و هذه هي حقيقه ساطعه مهما حاول البعض إنكارها عند الحديث حول المرأة، و لكن الوضع الاجتماعى و حياه البشر- حتى فى المجتمعات الغربيه و الأوروبيه التي تحظى فيها النساء بما يسمّى بالحزّيه الكامله ترينا بوضوح- و كما هو مشهود للجميع- إنّ الفرص و أزمه الأعمال المربحه جدّا هي فى الأغلب فى أيدي الرجال.

هذا مضافا إلى أنّ أمام الرجال إمكانيات أكثر لاختيار الزوجات، و إقامه حياه عائليه جديده بينما لا تتوفر مثل هذه الإمكانيات للمرأة، فإن النساء الثيبات- خاصه تلك التي يصبين بهذه الحاله بعد مضي شطر من أعمارهنّ،

و فقدان شبابهنّ و جمالهنّ -يتملكن فرصا أقل للحصول على أزواج لهنّ.

بملاحظه هذه النقاط يتضح أنّ الإمكانات التي تخسرهما المرأة بالزواج أكثر من الإمكانات التي يفقدها الرجل بذلك، و يكون الصداق و المهر -في الحقيقه- بمثابة التعويض عن الخساره التي تلحق بالمرأة، و وسيله لضمان حياتها المستقبليه، هذا مضافا إلى أنّ المهر و الصداق خير وسيله رادعه تردع الرجل عن التفكير في الطلاق و الإفتراق.

صحيح أنّ المهر -في نظر القوانين الإسلاميه يتعلق بدمه الرجل من لحظه انعقاد الرابطة الزوجيه و قيامها بين الرجل و المرأة، و يحق للمرأة المطالبه به فورا، و لكن حيث أن الغالب هو أن يتخذ الصداق صفه الدين المتعلق في الذمه يكون لذلك بمثابة توفير للمرأة تستفيد منه في مستقبلها، كما يعتبر خير دعامة لحفظ حقوقها، إلى جانب أنه يساعد على حفظ الرابطة الزوجيه من التبعثر و التمزق (طبعا هناك استثناءات لهذا الموضوع، و لكن ما ذكرناه صادق في أغلب الموارد).

و أما تفسير البعض لمسأله المهر بنحو خاطئ، و اعتبار الصداق أنّه من قبيل ثمن المرأة فلا يرتبط بالقوانين الإسلاميه، لأن الإسلام لا يعطى للصداق الذي يقدمه الرجل إلى المرأة صفه الثمن كما لا يعطى المرأة صفه البضاعه القابله للبيع و الشراء، و أفضل دليل على ذلك هو صيغه عقد الزواج الذي يعتبر فيه الرجل و المرأة كركنين أساسيين في الرابطة الزوجيه، في حين يقع الصداق و المهر على هامش هذا العقد، و يعتبر أمرا إضافيا، بدليل صحه العقد إذا لم يرد في صيغه البيع و الشراء و غير ذلك من المعاملات الماليه إذ بدونه تبطل هذه المعاملات (طبعا لا بدّ من الانتباه إلى أن على الزوج -إذا لم يذكر الصداق ضمن عقد الزواج- أن يدفع إلى المرأة مهر المثل في صورته الدخول بها).

من كلّ ما قيل نستنتج أنّ المهر بمثابة جبران للخساره اللاحقه بالمرأه، و بمثابة الدعامه القويه التي تساعد على احترام حقوق المرأه، لا أنّه ثمن المرأه، و لعل التعبير بالنّحله التي هي بمعنى العطيّه في الآيه إشاره إلى هذه النقطه.

ص: ١٠٤



اشاره

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسِّرْ تَعْفِيفٌ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)

التفسير

اشاره

الآيات الحاضره تكمله للأبحاث المرتبطه باليتامى،التي مرّت فى الآيات السابقه.

يقول الله سبحانه: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ بل انتظروا رشدهم، و نضجهم فى المسائل الاقتصاديه لكى لا تتعرض أموالكم للتلف و الفناء.

من هو السفیه؟:

قال الزاغب فى المفردات:«السِّفه خفّه فى البدن(يحصل بسببها عدم التعادل فى المشى)و منه قيل زمام سفیه أى كثير الاضطراب،و استعمل فى خفّه

النفس لنقصان العقل في الأمور الدنيوية، والأخروية».

و لكن من الواضح أنّ المراد من السّفه في الآيه الحاضرّه هو عدم الرشد اللازم في الأمور الاقتصاديّه بحيث لا يستطيع الشخص من تدبير شؤونه الاقتصاديّه وإصلاح ماله على الوجه الصحيح، ولا- يتمكن من ضمان منافعها في المبادلات و المعاملات الماليّه، أي أنّه عرضة للغبن و الضرر، و يدل على هذا المعنى ما جاء في الآيه الثانيه إذ يقول سبحانه: فَإِنْ أَنْسَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .

و على هذا الأساس فإنّ الآيه الحاضرّه و إن كانت تبحث حول اليتامى، لكنّها تتضمن حكماً كلياً و قانوناً عامّاً لجميع الموارد، و هو أنّه لا يجوز لأحد مطلقاً أن يعطى أموال من يتولى أمره، أو ترتبط به حياته بنوع من الارتباط، إليه إذا كان سفيهاً غير رشيد، و لا فرق في هذا الحكم بين الأموال الخاصّه و الأموال العامّه (و هي أموال الحكومه الإسلاميه) و يشهد على هذا الموضوع-مضافاً إلى سعه مفهوم الآيه-و خاصّه كلمه «السّفيه» روايات منقوله عن أئمه الدين في هذا الصدد.

ففي روايه عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ أنّ شخصاً يدعى إبراهيم بن عبد الحميد يقول: سألت أبا عبد الله عن قول الله: وَ لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ قَالَ:

«كلّ من يشرب المسكر فهو سفيه (1) فلا تعطوهم أموالكم».

و في روايه أخرى نجد النهى عن اختيار شارب الخمر لجعله أميناً على الأموال.

و خلاصه القول أنّنا نجد توصيف شارب الخمر بالسّفه في أحاديث كثيره و موارد متعدده، و هذا التعبير إنّما هو لأن شارب الخمر فقد رأس ماله المادى و رأس ماله المعنوى، و أى سفيه أشدّ من أن يعطى الإنسان ماله، و عقله أيضاً،

ص: ١٠٦

١- ١) -تفسير البرهان، ج ١، في ذيل هذه الآيه.

و يتناع الجنون...و يضحى فى هذا السبيل بكل طاقاته البدنيه و الروحيه، و يتسبب فى أضرار اجتماعيه كثيره و كبيره.

ثم أننا نلاحظ أن روايه أخرى تصف كل من لا يوثق به بالسفيه، و تنهى من تسليم الأموال الخاصه و العامه إليه، فعن يونس بن يعقوب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** قال: «من لا تثق به (١)».

و من هذه الروايات يتبين أن لفظه السفيه معنى واسعاً، و أن النهى يشمل تسليم الأموال الخاصه و العامه إليهم، غايه ما فى الأمر أن هذا النهى يكون فى بعض الموارد نهى تحريم، و فى بعض الموارد الاخرى التى لا تشتد فيها درجه السفه يكون نهى كراهه.

و هنا ينطرح سؤال و هو، إذا كانت هذه الآيه فى مورد أموال اليتامى فلما ذا قال تعالى: **أَمْوَالِكُمْ** و لم يقل «أموالهم»؟ يمكن أن تكون النكته و السرّ فى هذا التعبير هو بيان مسأله اجتماعيه و اقتصاديه مهمه فى المقام و هى أن الإسلام يعتبر الأفراد فى المجتمع بمثابة فرد واحد بحيث لا يمكن أن تنفصل مصالح فرد عن مصالح الآخرين، و هكذا تكون خساره فرد عين خساره الآخرين، و لهذا السبب أتى القرآن فى هذا المقام بضمير المخاطب بدل ضمير الغائب إذ قال: «أموالكم» و لم يقل «أموالهم»، يعنى أن هذه الأموال فى الحقيقه-ليست مرتبطه باليتامى فقط، بل هى مرتبطه بكم أيضاً، فإذا لحق بها ضرر، يكون ذلك الضرر قد لحق بكم بصوره غير مباشره أيضاً، و لهذا يجب أن تحرصوا فى حفظها كل الحرص.

ثم إن هناك تفسيراً آخر لهذا التعبير و هو أن المقصود من «أموالكم»، هو أموال نفس الأولياء لا أموال اليتامى، فيكون المعنى إذا أردتم مساعدته الأيتام الذين لم يرشدوا ربّما أعطيتهم شيئاً من أموالكم-تحت تأثير العاطفه و الإشفاق

ص: ١٠٧

---

(١-١) -تفسير البرهان، ج ١، ذيل الآيه المبحوثه و هكذا فى تفسير نور الثقلين.

-إليهم، واخترتموهم لبعض الأعمال التي لا يقدرّون عليها فلا تفعلوا ذلك، بل عليكم أن تعملوا شيئاً آخر مكان هذا العمل الغير العقلاني، و هو أن تقوموا بالإنفاق على مآكلهم و ملبسهم و مسكنهم حتى يبلغوا سن الرشد، فإذا بلغوا هذه المرتبه، و حصلت لديهم البصيره الكافيه أعطوهم ما شئتم، و انتخبوهم لما تريدون من الأعمال.

و هذا فى الواقع درس اجتماعى كبير يعلمه القرآن لنا حيث ينهانا عن تشغيل من لا يقدر على بعض الأعمال فيها، و ذلك بدافع مساعدتهم و تحت تأثير الإشفاق و العاطفه، لأن هذه الأعمال و إن كانت تنطوى على بعض الأرباح القليله، و لكنّها من الممكن أن تجرّ على المجتمع أضراراً و ويلات كبيره، فلا بدّ إذن من إداره أمور هذه الطائفه من المجتمع عن طريق تقديم المساعدات الغير المعوضه إليهم أو تشغيلهم فى أمور سهله و صغيره.

من هنا يتّضح أنّ بعض قاصرى النظر يختارون الضعفاء و القصر لبعض المسؤوليات التبليغيه و الدينيه إرفاقاً بهم و إشفاقاً عليهم و هذا لا شك من أضرّ الأعمال، و أكثرها بعداً عن العقل و المنطق الصحيح.

### أموالكم قوام لكم:

ثمّ أنّ القرآن الكريم يصف الأموال المذكوره فى مطلع الآيه الحاضره بقوله:

الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا

هو تعبير جميل و رائع جدا عن الأموال و الثروات، فهى قوام الحياه الناس و المجتمع، و بدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه، فلا يصحّ إعطاؤها إلى السفهاء و المسرفين الذين لا يعرفون إصلاحها، بل ربّما أفسدوها و أتلفوها و ألحقوا بسبب ذلك أضراراً كبيره بالمجتمع.

و من هذا التعبير نعرف جيداً ما يوليه الإسلام من الاهتمام بالأمور و الشؤون الاقتصاديه و الماليه، و على العكس نقرأ فى الإنجيل الحاضر: «فقال يسوع

لتلاميذه: الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات» (١) في حين يرى الإسلام أن الأمه الفقيره لا تستطيع أبدا الوقوف على قدميها. و أنه لعجيب أن نرى تلك الطائفه بلغت إلى ما بلغت من المراتب في عالمنا الراهن في حقول التقدم الاقتصادى مع ما هم عليه من التعاليم الخاطئه، في حين نعانى من هذا الوضع المأسوى مع ما نملك من التعاليم الحيويه العظيمه.

غير أنه لا داعى للعجب، فهم تركوا تلك الخرافات و الأضاليل- فى الحقيقه- فوصلوا إلى ما وصلوا، بينما تركنا نحن هذه التعاليم الراقية فوقنا فى هذه الحيره، و التخلف.

### تعليمان فى شأن اليتامى:

ثم أن الله سبحانه يأمر- فى شأن اليتامى- بأمرين مهمين هما:

أولاً: رزق اليتامى و إكسائهم من أموالهم حتى يبلغوا سن الرشد إذ يقول:

وَ ارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَاَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا

و الجدير بالنظر هو أن الله تعالى عبّر فى هذه الآيه بلفظه «فيها» أى فى أموال اليتامى لا «منها» أى من أموالهم إذ المفهوم من هذا التعبير هو أن تدبير شؤون اليتامى و الإنفاق عليهم يجب أن يتم من أرباح أموالهم، إذ لو قال سبحانه:

و ارزقوهم منها لفهم من ذلك أن على الولي أن يقطع من أصل أموالهم شيئاً فشيئاً، و هذا يعنى أن يفقد اليتامى شيئاً كبيراً من أموالهم حينما يبلغون و يصلون إلى سن الرشد، و لكن القرآن الكريم باستبداله لفظه «منها» بلفظه «فيها» يكون قد أوصى أولياء اليتامى بأن يحرسوا كلّ الحرص على أموال اليتامى، و يحاولوا الإنفاق من أرباح رؤوس أموالهم و ذلك باسترباح هذه الأموال و استثمارها و لو بقدر نفقات اليتامى كيما تبقى هذه الأموال على حالها حين بلوغهم سن الرشد.

ص: ١٠٩

ثانيا:مخاطبه اليتامى و التكلم معهم بقول طيب و رقيق إذ قال سبحانه:

وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا

كيما يزيلوا بمثل هذا القول المعروف ما يشعر به اليتامى من نقصان روحى و عقد نفسيه، كما يساعدوا بذلك على ترشيدهم و بلوغهم حدّ الرشد العقلى، حتى يتمتعوا عند البلوغ بالرشد العقلى اللازم، و بهذا الطريق يكون بناء شخصيه اليتيم و ترشيدته عقليا من وظائف الأولياء و مسئولياتهم أيضا.

### تعليم آخر فى شأن اليتامى و أموالهم:

هاهنا تعليم آخر فى شأن اليتامى و أموالهم، إذ يقول سبحانه: وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِذَا بَلَغُوا سن الرشد الذى أنستم فيه قدرتهم على إداره أموالهم و التصرف فيها بنحو معقول فأعطوهم أموالهم: فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَ هَا هُنَا نَقَاطٌ لَا بَدَّ مِنَ الْاَلْتِفَاتِ إِلَيْهَا.

١-إنه يستفاد من التعبير ب«حتى» أنه يجب اختبار اليتامى قبل بلوغ سنّ النكاح، و أن يتمّ هذا الأمر بصوره مستمره و متكرره حتى يعرف بلوغهم حدّ النكاح و يتبين أنّهم بلغوا الحدّ اللازم من الرشد العقلى اللازم لإداره الأمور الماليه على الوجه الصحيح.

كما أنه يستفاد-ضمنا-أنّ المراد من الاختبار و الابتلاء هو الترييه التدريجيه و المستمره لليتامى، و هذا يعنى أن لا تتركوا اليتامى و تهملوهم حتى يبلغوا سن الرشد ثمّ تعمدوا إلى إعطائهم أموالهم، بل لا بدّ أن تهيئوهم-قبل البلوغ-للحياه المستقله و ذلك بالبرامج التربويه العمليه.

و أمّا أنه كيف يمكن اختبار اليتيم فطريقه هو أن يعطى مقدارا من المال، فيتّجر به و يشتري و يبيع مع نظاره الولي بنحو لا يسلب اليتيم استقلاله فإذا تبين أنه قادر على الاتجار و التعامل كما ينبغى و من دون أن يغبن، و جب تسليم أمواله

إليه و إلا فلا بد أن تستمر تربيته و إعداده حتى يبلغ تلك الدرجة التى يستطيع فيها أن يستقل بإداره شؤونه و تدبير معيشته، و أخذ زمام حياته المستقبلية بيده.

٢- إن التعبير بجمله إذا بَلَغُوا النِّكَاحَ إشارة إلى أن الرشد المطلوب هو أن يبلغ اليتيم إلى درجة القدره على الزواج، و واضح أن الذى يقدر على الزواج لا بد أنه يقدر على تشكيل عائله، و لا شك أن الإنسان بدون امتلاكه لرأس مال لا يتوصل إلى أهدافه، و لهذا فإن بدايه الحياه العائليه تتزامن مع بدايه الحياه الاقتصاديه المستقله.

و بعبارة أخرى أن الثروه لا تعطى إليهم إلا عند ما يصلون إلى البلوغ الجسمى، فيحتاجون إلى المال بشده و يصلون إلى البلوغ الفكرى، و يتمكنون من المحافظه على أموالهم فى وقت واحد.

٣- إن التعبير بجمله أَنَسَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا إشارة إلى أنه يجب أن يتأكد من رشدهم، لأن الإيناس بمعنى المشاهده و الرؤيه و هذه الماده مشتقه من ماده «الإنسان» الذى فى معانيه ناظر العين و عدستها التى بها تبصر (و الرؤيه إنما تتم بالاستعانه من إنسان العين- فى الحقيقه- و لهذا عبر عن المشاهده بالإيناس).

ثم أنه سبحانه قال: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَ بَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَ هُوَ تَأْكِيدٌ آخِرٌ لِلْأَوْلِيَاءِ بِأَنْ لَا يَسْلَمُوا الْأَمْوَالَ إِلَى الْيَتَامَى قَبْلَ أَنْ يَكْبُرُوا بِأَنْ يَحْفَظُوا عَلَى أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَ لَا يَتَلَفُوهَا أَبَدًا.

ثم أنه تعالى يردف هذا التأكيد بقوله: وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ وَ بهذا أذن الله تعالى للأولياء بأن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى لقاء ما يتحملون من أتعاب فى حفظها، و حراستها، على أن يراعوا جانب العدل و الإنصاف فيما يأخذونه بعنوان الأجره، هذا إذا كان الولى فقيرا، أما إذا كان غنيا فلا يأخذ من مال اليتيم شيئا أبدا.

و قد وردت فى هذا الصدد كذلك روايات توضح و تبين ما أشير إليه من

و من هذه الأحاديث ما

روى عن الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «فذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشه، فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم فإن كان المال قليلا (و لا يستغرق ذلك وقتا كبيرا) طبعا فلا يأكل منه شيئا». (١)

ثم يقول سبحانه: فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ لِكى لا يبقى أى مجال للاتهام و التنازع، و هذا هو آخر حكم فى شأن الأولياء و اليتامى جاء ذكره فى هذه الآيه.

و اعلموا أنّ الحسيب الواقعى هو الله تعالى، و الأهم من ذلك هو أن حسابكم جميعا عنده لا يخفى عليه شىء أبدا و لا يفوته صغير و لا كبير فإذا بدرت منكم خيانه خفيت على الشهود فإنه سبحانه سيحصيها عليكم، و سوف يحاسبكم عليها و يؤاخذكم بها: وَ كَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا .

ص: ١١٢



اشاره

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)

سبب النزول

كانت العرب فى الجاهليه تورث الذكور دون الإناث، و كانوا يعتقدون أنه لا يرث من لا يطاعن بالرماح و لا يقدر على حمل السلاح، و لا يذود عن الحريم و المال، و لهذا كانوا يحرمون النساء و الأطفال عن الإرث، و يورثون الرجال الأبعد، و لو كان من الورثه من هو أقرب منهم.

حتى إذا مات أنصارى يدعى «أوس بن ثابت» و قد ترك صغارا من بنات و أولاد، فاقسم أبناء عمومته «خالد» و «عرفجه» أمواله بينهم و لم يورثوا زوجته و أولاده الصغار من تركته أبدا، فشكت زوجته إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لم يكن فى ذلك حكم إلى ذلك الحين، فنزلت هذه الآيه فاستدعى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ذينك الشخصين، و أمرهما بأن لا يتصرفا فى أموال الأنصارى، و أن يتركا تلك الأموال إلى ورثه الميت من الطبقة الأولى و هم زوجته و أولاده، بانتظار أن تنزل آيات أخرى توضح كيفية تقسيمها بين هؤلاء الورثه.

## خطوه أخرى لحفظ حقوق المرأة:

هذه الآيه-في الحقيقة-خطوه أخرى على طريق مكافحة العادات و الأعراف الخاطئه التي تؤدي إلى حرمان الأطفال و النساء من حقوقهم المسلمه الطبيعيه،و على هذا الأساس تكون هذه الآيه مكمله للأبحاث التي مرّت في الآيات السابقه،لأن العرب الجاهليين كانوا-حسب تقاليدهم و أعرافهم الظالمه- يمنعون النساء و الصغار من حق الإرث،و لا- يسهمون لهم من الموارث،فأبطلت هذه الآيه هذا التقليد الخاطئ الظالم إذ قال سبحانه: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ .

ثم قال سبحانه في ختام هذه الآيه بغية التأكيد على الموضوع نصيباً مفروضاً حتى يقطع الطريق على كل تشكيك أو ترديد في هذا المجال.

ثم أنّ الآيه الحاضره-كما هو ملاحظ-تذكر حكماً عامّاً،و شاملاً لجميع الموارد،و لهذا فإن ما يتصوره البعض من أنّ الأنبياء لا يورثون،أى أنهم إذا تركوا شيئاً من ثروه و مال لم يرثهم أقرباؤهم،خلاف الآيه(طبعاً المقصود من الأموال التي يتركها النبي صلى الله عليه و آله و سلم هي تلك الأموال الخاصه به،و أمّا الأموال المتعلقة ببيت المال الذي هو من حق المسلمين عامّه،فالحكم الإسلامى فيها هو صرفها فى مواردّها).

كما أنّه يتبين من إطلاق الآيه الحاضره و الآيات الاخرى التي تأتي فى ما بعد حول الإرث أنّ القول بالتعصيب(و هو إعطاء شىء من التركة إلى عصبه الميت و هم من ينتسبون إليه من طرف الأب،و ذلك فى بعض الموارد كما يذهب إليه علماء السنه)يخالف هو أيضاً ما جاء به القرآن الكريم من تعاليم فى مجال

الإرث، لأن ذلك يستلزم حرمان النساء من الميراث في بعض الموارد، وهذا ضرب من التمييز الجاهلي الذي رفضه الإسلام و  
أبطله بالآية الحاضرة و الآيات المشابهة لها.

ص: ١١٥

اشاره

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)

التفسير

اشاره

حكم أخلاقي:

نزلت الآيه الحاضره بعد قانون تقسيم الإرث حتما إذ تقول: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ .

و على هذا الأساس يتضمّن محتوى هذه الآيه حكماً أخلاقياً استجابياً في شأن طبقات محجوبه عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلى المورث، فالآيه تقول: إذا حضر مجلس تقسيم الإرث جماعه من الأقرباء من الطبقة الثانيه و الثالثه، و كذا بعض اليتامى و المساكين فارزقوهم من الإرث، و بهذا تكونون قد منعتهم من تحرك شعور الحسد و البغضاء لدى من يمكن أن يثور لديهم ذلك الشعور بسبب حرمانهم من الإرث، و لا شك أنّ هذا العمل من شأنه أن يقوى أو اصر القرابه الإنسانيه بينكم.

إنّ كلمتى «اليتامى» و «المساكين» و إن ذكرتا بنحو مطلق فى هذه الآيه، غير أنّ الظاهر هو أنّ المراد منهما هم اليتامى و المساكين من قربى الميت، لأنّ الأقرب

يوجب-فى قانون الإرث-الأبعد من الإرث،و على هذا فلو حضر أحد من هذه الطبقات قسمه الميراث فإنه ينبغي أن يعطى الورثه له شيئاً من الميراث هديه (يتوقف مقدارها على إرادته الوراث على أن يكون ذلك من مال الورثه الكبار دون الصغار).

هذا و يحتمل جماعه من المفسرين أن يكون المراد من اليتامى و المساكين فى هذه الآيه هو مطلق اليتامى و المساكين سواء كانوا من قرابه الميت أم لا، و لكن هذا الاحتمال يبدو بعيداً فى النظر،لأن الأجنب ليس لهم طريق إلى المجالس العائليه غالباً.

كما أنه يعتقد بعض المفسرين أن الآيه تتضمن حكماً وجوبياً لا استجبائياً، بيد أن هذا الأمر فيها على نحو الوجوب،ووجب تعيين و تحديد ما يلزم إعطاؤه لهاتين الطائفتين،فى حين ترك الأمر فيه إلى إرادته الورثه.

ثم أنه سبحانه يختم هذه الآيه بدستور أخلاقى إذ يقول: وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا يعنى أنه مضافاً إلى تقديم مساعده ماديه إلى هؤلاء أشفعوا ذلك بموقف أخلاقى و استفيدوا من المعين الإنسانى لكسب مودتهم،و حتى لا يبقى فى قلوبهم أى شعور عدائى تجاهكم،و هذا الدستور علامه أخرى و دليل آخر على أن الأمر بإعطاء شىء من الميراث إلى اليتامى و المساكين إنما هو على نحو الندب لا الوجوب.

من كل ما ذكرناه اتضح أنه لا-مبرر أبداً لأين يقال أن الحكم المذكور فى هذه الآيه منسوخ بالآيات التى تعين السهام فى الإرث،لعدم وجود أية منافاه و تعارض بين هذه الآيه و تلك الآيات المحدده للأسهم.

اشاره

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)

التفسير

اشاره

دعوه إلى العطف على اليتامى:

يشير القرآن الكريم-بهدف إثارة مشاعر العطف والإشفاق لدى الناس بالنسبه إلى اليتامى-إلى حقيقه يغفل عنها الناس أحيانا،و تلك الحقيقه هي: إن على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحب أن يعامل الناس يتاماه.

تصوروا مشهد أطفال فقدوا آباءهم و أمهاتهم يعيشون تحت كفاله شخص قاسى القلب خائن لا يرفعى مشاعرهم، كما لا يراعى جانب العدالة فى حقهم.

أجل تصوروا هذا المشهد المؤلم، كم يؤلمكم و يحزنكم ذلك؟ هل تحبون مثل ذلك لأبنائكم الصغار من بعدكم؟ كلا حتما،فكما تحبون ورتثكم فأحبوا ورثه غيركم و يتاماهم،و أحزنوا لما يحزنهم.

و على هذا يكون مفهوم قوله سبحانه: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ هو أنّ الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبه الخيانه فى شؤون اليتامى و يخافوا مغبه إيدائهم.

و أساسا: إن القضايا الاجتماعيه تنتقل فى شكل سنه من السن- من اليوم إلى الغد، و من الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يروجون فى المجامع سنه ظالمه مثل إيذاء اليتامى فإن ذلك سيكون سببا لسريان هذه السنه على أولادهم و أبنائهم أيضا، و على هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد أذى يتامى الآخرين و ورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده و يتاماه أيضا.

لهذا و جب أن يتجنب أولياء اليتامى مخالفه الأحكام الإلهيه، و يتقوا الله فى اليتامى و يقولوا لهم قولا- عدلا موافقا للشرع و الحق، قولا- ممزوجا بالعواطف الإنسانيه و المشاعر الأخويه، لكى يندمل بذلك ما فى قلوب أولئك من الجراح، و ينجر ما فى أفئدتهم من الكسر، و إلى هذا يشير قوله سبحانه: فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا .

إن هذا التعليم الإسلامى الرفيع المذكور فى عبارته السابقه إشاره إلى ناحيه نفسيه فى مجال تربيه اليتامى- جديره بالاهتمام و الرعايه، و هى: إن حاجه الطفل اليتيم لا تنحصر فى الطعام و الكساء، بل مراعاة مشاعرهم و أحاسيسهم القليه هو الأهم، و هو ذو تأثير كبير جدا فى بناء مستقبلهم، لأن الطفل اليتيم إنسان كغيره، يجب أن يحصل على غذائه اللازم من الناحيه العاطفيه، فيجب أن يحظى بالحنو و الرعايه كما يحظى بذلك أى طفل آخر فى حضن أبيه و أمه. أنه ليس «حمل» يخرج مع القطيع للرعى عند الصباح، و يعود عند الغروب، بل هو إنسان يجب- مضافا إلى الرعايه الجسديه- أن يحظى بالرعايه الروحيه، و العنايه العاطفيه، و إلا نشأ قاسيا مهزوما، عديم الشخصيه، بل و حاقدا خطيرا.

### إيضاح ضرورى:

عن عبد الأعلى مولى آل سام قال قال أبو عبد الله عليه السلام مبتدءا: «من ظلم سَلَطَ اللهُ عليه من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه، قال (أى الراوى) فذكرت فى

نفسى فقلت: يظلم (و) هو يتسلط على عقبه و عقب عقبه؟ فقال لى قبل أن أتكلم: إن الله يقول: وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ .»

إن السؤال الذى خالغ ذهن الراوى يخالغ نفسه أذهان كثيرين، فيتساءلون:

كيف يحمل البارئ تعالى جزاء شخص على شخص آخر، بل و ما ذا فعل أبناء العاصى حتى يبتلوا بمن يظلمهم، و يتحملوا و زر ما جناه و الدهم؟ إن جواب هذا السؤال يتضح من الإيضاح الذى ذكر فى الحديث السابق و هو أن ما يرتكبه الأشخاص فى المجتمع من أعمال تتخذ شكل السنه شيئا فشيئا، و ينتقل إلى الأجيال اللاحقه، و على هذا الأساس فإن الذين يظلمون اليتامى فى المجتمع، و يرسون قواعد هذا السلوك الظالم سيصاب أبناؤهم بلهيب هذه البدعه يوما ما أيضا، و يعدّ هذا فى الحقيقه أحد الآثار الوضعيه التكوينيّه لمثل هذا العمل، و أمّا نسبتة إلى الله فهى لأجل أن جميع الآثار التكوينيّه و كل خواص العلّه و المعلول منسوبه إلى الله و مستنده إليه تعالى، و لا يظلم ربك أحدا أبدا.

و خلاصه القول: إذا ساد الظلم فى المجتمع فإنه سوف يسرى و يصيب الظالم و أولاده أيضا.

ص: ١٢٠



اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)

التفسير

اشاره

الوجه الحقيقي لأفعال البشر:

لقد ذكرنا في مطلع هذه السوره أن آيات هذه السوره نزلت لبناء مجتمع صالح و سليم، و لهذا تسعى آياتها في تطهير المجتمع من الرواسب الجاهليه و ما تبقى في نفوس بعض المسلمين الحديثى العهد بالإسلام من العادات السيئه أولاً، لتتهيأ الأرضيه لإقامه ذلك المجتمع الصالح المنشود.

و آيه عاده ترى أقبح من أكل أموال اليتامى؟ و لهذا ابتدأت هذه السوره بعبارات شديده النكير على من يتصرف في أموال اليتامى تصرفاً غير مشروع، و غير صحيح، و الآيه الحاضره هي أوضح هذه العبارات.

تقول هذه الآيه: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا .

و لقد ورد نظير هذه العبارة في موضع آخر من القرآن الكريم و ذلك في شأن الذين يكتمون الحق، و يحرفون الكلم عن مواضعها لتحقيق بعض المكاسب

الماديه الشخصيه إذ يقول سبحانه عنهم: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ (١).

ثم أنه سبحانه يقول في بيان نتيجة أكل أموال اليتامى: وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا .

و«يصلى» من «الصلى» بمعنى الدخول فى النار و الاحتراق بلهيبها، و أما «السعير» فبمعنى النار المشتعله.

و يقصد القرآن من هذه الجملة إن الذين يأكلون أموال اليتامى مضافا إلى أنهم يأكلون النار- فى الحقيقة- فى هذه الدنيا سيدخلون عمّا قريب نارا مشتعله الأوار و حارقه اللهب فى الدار الآخرة.

و يستفاد من هذه الآيه أن لأعمالنا مضافا إلى وجهها الظاهرى وجهها واقعيا أيضا، ووجهها مستورا عنّا فى هذه الدنيا، لا نراه بعينونا هنا، و لكنّه يظهر فى العالم الآخر، و هذا الأمر هو ما يشكل مسأله تجسم الأعمال المطروحه فى المعتقدات الإسلاميه.

إنّ القرآن يصرح فى هذه الآيه بأنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما و جورا، و إن كان الوجه الظاهرى لفعلهم هذا هو الأكل من الأطعمه اللذيذه الملونه، و لكن الوجه الواقعى لهذه الأغذيه هو النار المحرقه الملتهبه، و هذا الوجه هو الذى يظهر و يتجلّى على حقيقته فى عالم الآخره.

إنّ بين الوجه الواقعى للعمل و الكيفيه الظاهريه للعمل تناسب و تشابها دائما، فكما أن أكل مال اليتيم و غصب حقوقه يحرق فؤاد اليتيم، و يؤذى روحه، فكذا يكون الوجه الواقعى للعمل نارا محرقه.

إنّ الانتباه إلى هذا الأمر (أى الوجه الحقيقى الواقعى لكل عمل) خير رادع للذين يؤمنون بهذه الحقائق، كيما لا يرتكبوا المعاصى و لا يقترفوا الذنوب، فهل يوجد ثمّه من يجب أن يأخذ بيديه قبسات من النار، و يضعها فى فمه و يتلعها؟

ص: ١٢٢

إنه من غير الممكن-و الحال هذه-أن يقدم المؤمنون على أكل مال اليتيم ظلماً، و لو أننا وجدنا ثمّة من لا يقدم على هذا الفعل، بل و لا يفكر فى المعصية أبداً(كالأولياء)، فلأنهم يرون-بفضل ما لديهم من الإيمان و العلم، و ما حصلوا عليه من تربيته خلقه- حقائق الأفعال البشريه و وجوهها الواقعيه، فلا يفكرون فى اقتراف هذه الأعمال السيئه، فضلاً عن الهمّ باقترافها.

إنّ الطفل الجاهل هو الذى يمكن أن يسحره و يجذبه جمال الجذوات المتقدمه و ألسنه اللهب المندفعه منها فيمد يده إليها، و لكن الإنسان العاقل الذى جرب حراره النار و ذاق ألمها، كيف يمكن أن يفكر يوماً بذلك.

هذا و لقد وردت أحاديث كثيره تنهى بشدّه عن أكل مال اليتيم و العدوان على حقوقه، و تؤكد على أنّها كبيره موبقه، بل و تعتبر أبسط الأعمال من هذا النوع مشمولاً لهذا الحكم الصارم و موضوعاً لهذه العقوبه القاسيه.

ففى حديث عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليه السّلام لما سئل فى كم يجب لأكل مال اليتيم من النار؟ قال: فى درهمين (1).

ص: ١٢٣

---

(١-١) - تفسير البرهان عند تفسير الآيه.

اشاره

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَّرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ أَوْ دَيْنِ آبَائِكُمْ وَأَبْنَاؤِكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمُ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجِكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّتَهُ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

لَمَّا مات «عبد الرحمن بن ثابت الأنصاري» «أخو حسان بن ثابت» الشاعر المعروف في صدر الإسلام و قد خلف امرأه و خمسسه أخوان، اقتسم إخوانه ميراثه بينهم و لم يعطوا زوجته شيئاً ممّا تركه من المال، فشكت ذلك إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فنزلت الآيات الحاضره التي تبيّن و تحدد سهم الأزواج من الإرث بنحو دقيق.

كما

نقل عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال: مرضت فعادني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فأغمرني عليّ، فطلب النبي ماء و توضأ لبعضه و صب بعضه الآخر عليّ فأفقت فقلت: يا رسول الله كيف أصنع في مالي (أى كيف يجب أن يكون أمره من بعد وفاتي) فسكت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ و لم يقل شيئاً، فنزلت آية الموارث تبين نظام الإرث و تحدد أسهم الورثه.

### الإرث حق طبيعي:

قبل أن نعمد إلى تفسير الآيات الحاضره لا بدّ أن نشير إلى عدّه نقاط.

أولاً: قد يتصور كثيرون أنّ من الأفضل أن تعود أموال الشخص بعد وفاته إلى الملكيه العامه، و أن تضاف إلى بيت مال المسلمين، و لكن الإمعان في هذا العمل يكشف لنا عن كونه خلاف العدل، لأنّ مسأله الإرث و التوارث مسأله طبيعيه منطقيه جدا، فكما أن الآباء و الأمهات ينقلون قسماً من صفاتهم الجسميه و الروحيه إلى أبنائهم - حسب قانون الوراثة الطبيعي - فلما ذا يستثنى من ذلك أموالهم فلا تنتقل إلى أبنائهم؟ هذا مضافاً إلى أنّ الأموال المشروعه هي نتاج جهود الإنسان المضنيه، و مساعيه و أتعابه فهي في الحقيقه طاقاته المتجسده في صوره المال و هيئه الثروه، و لهذا لا بدّ من الاعتراف بأن كل شخص هو المالك الطبيعي لحاصل

جهوده و ثمره أتعابه، وهذا هو حكم فطرى.

و على هذا، فعند ما يمتنع أن يتصرف الشخص فى أمواله بعد وفاته و يحال بينه و بين ثروته بسبب الموت، تصبح هذه الأموال من حق أقرب الناس إليه، و الذين يعتبرون-فى الحقيقه- بشخصيتهم و وجودهم امتدادا لشخصيته و وجوده.

على هذا الأساس نجد الكثيرين لا يتركون الكد و العمل، و الكسب و التجاره حتى آخر لحظه من حياتهم رغم ما يملكون من ثراء طائل، و ذلك لبعيه أن يوفروا لأبنائهم مستقبلا زاهرا و يقيموا لهم حياه سعيده بعدهم، و هذا يعنى أن الإرث و قانون التوريث قادر على إعطاء العجله الاقتصاديه دفعه قويه و يزيد من حركتها و دورانها و نشاطها، و أما إذا عرف الشخص أن أمواله بعد موته، و امتناع تصرفه فى تلك الأموال بسبب الوفاه تعود إلى الملكيه العامه، فإنه قد يفقد قسطا كبيرا من نشاطه الاقتصادى، و يصاب بالفقر و الكسل.

و يشهد بهذا الأمر ما وقع فى فرنسا قبل حين، عند ما أقدم مجلس النواب الفرنسى- كما قيل- على إلغاء قانون الإرث قبل مدّه و أقرّ بدل ذلك إلحاق أموال الأشخاص بعد موتهم إلى خزانه الدوله، و صيرورتها أموالا عامه، فتؤخذ من قبل الدوله و تصرف فى المصارف العامه بحيث لا- يحصل ورثه الميت على أى شىء من التركه، فكان لهذا القانون أثر سىء و ظاهر على الحركه الاقتصاديه، فقد لوحظ اختلال كبير فى أوضاع التصدير و الاستيراد، كما خف النشاط الاقتصادى هناك بشكل ملحوظ، فأقلق ذلك بال الحكومه، و كان السبب الوحيد وراء هذه الحاله هو «إلغاء قانون الإرث» ممّا دفع بالدوله إلى إعادته النظر فى هذا القرار.

و على هذا لا- يمكن إنكار أن قانون الإرث و مبدأ التوريث مضافا إلى كونه قانونا طبيعيا فطريا، له أثر قوى و عميق فى تنشيط الحركه الاقتصاديه.

لما كان لقانون الإرث جذورا فطريه فإنه شوهد وجود الإرث و التوريث في الشعوب و الأمم السابقه في أشكال و صور مختلفه.

أمّا بين اليهود-و إن ادعى البعض عدم وجود مبدأ التوارث عندهم-و لكننا حينما نراجع التوراه نجدها تذكر هذا القانون في سفر الأعداد بصوره صريحه إذ يقول:

و تكلم بنى إسرائيل قائلا: أيما رجل مات و ليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته،و إن لم تكن له ابنة تعطوا ملكه لإخوته،و إن لم يكن له أخوه تعطوا ملكه لإخوه أبيه،و إن لم يكن لأبيه أخوه تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه فصارت لبنى إسرائيل فريضه قضاء كما أمر الرب موسى (١) يدور لدى بنى إسرائيل.

و يستفاد من هذه العبارات أنّ مبدأ التوارث كان على محور النسب فقط، و لهذا لم يرد ذكر عن سهم الزوجه في الميراث.

و أمّا في الدين النصراني فالمفروض أن يكون مبدأ الإرث المذكور في التوراه معتبرا أيضا،و ذلك لما نقل عن المسيح عليه السلام من أنه قال: «أنا لم أبعث لأغير من أحكام التوراه شيئا»و لهذا لا نجد في كتابات الفتاوى الدينيه أى كلام حول الإرث،نعم ورد في هذه الكتب بعض مشتقات الإرث في بعض الموارد،و لكنها تعنى جميعا الإرث المعنوى الأخرى.

هذا و قد كان التوارث لدى العرب الجاهليين يتحقق بإحدى هذه الطرق الثلاث:

١-بالنسب،و كان المقصود منه عندهم هم الأبناء الذكور و الرجال خاصه، فلا يرث الصغار و النساء أبدا.

ص: ١٢٧

٢- بالتبني، وهو من طرده أهله من الأبناء، فتكفله و تنبأه شخص آخر أو عائلته أخرى، وفي هذه الصورة يتحقق التوارث بين المتبني و المتبني له.

٣- بالعهد، يعني إذا تعاهد شخصان أن يدافع كل واحد منهما عن الآخر طيله حياتهما و يرث أحدهما الآخر بعد وفاته، فإنه يقع التوارث بينهما بعد وفاه أحدهما.

و قد حرّر الإسلام قانون الإرث الطبيعي الفطري مما علق به من الخرافات، و لحق به من رواسب التمييز العنصري الظالم الذي كان يفرق بين الرجل و المرأة حيناً، و بين الكبار و الأطفال حيناً آخر، و جعل ملاك التوارث في ثلاثة أمور لم تكن معروفة إلى ذلك الحين:

١- النسب و ذلك بمفهومه الواسع، و هم كل علاقته تنشأ بين الأشخاص بسبب الولاده في مختلف المستويات من دون فرق بين الرجال و النساء و الصغار و الكبار.

٢- السبب و هي العلاقات الناشئه بين الأفراد بسبب المصاهره و التزاوج.

٣- الولاء و هي العلاقات الناشئه بين شخصين من غير طريق القرابه (السبب و النسب) مثل ولاء العتق، يعني إذا أعتق رجل عبده، ثم مات العبد و خلف من بعده مالا و لم يترك أحدا ممن يرثونه بالسبب أو النسب، و ورثه المعتق، و في هذا حيث على التحرير و الإعناق، و كذلك ولاء ضمان الجريه، و هو أن يركن شخص إلى آخر- لا سبب بينهما و لا نسب- و يتعاهدان أن يضمن كل منهما جنايه الآخر و يدافع كل منهما عن الآخر، و يكون إرث كل منهما للآخر، و «ولاء الإمامه» يعني إذا مات أحد و لم يترك من يرثونه ممن ذكر ورثه الإمام عليه السلام، أي أن أمواله تنتقل إلى بيت المال الإسلامي، و تصرف في شؤون المسلمين العامه.

هذا، و لكل واحد من هذه الطبقات أحكام و شرائط خاصه مذكوره في الكتب الفقهيه المفصله.



قال الله تعالى فى الآيه الأولى من هذه الآيات يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ وَهُوَ بِذَلِكَ يَشِيرُ إِلَى حَكْمِ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ الْوَرِثَةِ (وَهُمُ الْأَوْلَادُ وَالْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ)، وَ مِنْ الْبَدِيهِى أَنَّهُ لَا رَابِطَهُ أَقْوَى وَ أَقْرَبَ مِنْ رَابِطَةِ الْأَبَوِّ وَ الْبَنُوهِ وَ لِهَذَا قَدَمُوا عَلَى بَقِيَةِ الْوَرِثَةِ مِنَ الطَّبَقَاتِ الْآخَرَى.

ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْجَدِيرِ بِالْإِهْتِمَامِ مِنْ نَاحِيَةِ التَّرْكِيبِ اللَّفْظِيِّ جَعَلَ الْأُنْثَى هِىَ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَصْلُ فِي تَعْيِينِ سَهْمِ الرَّجُلِ، أَى أَنْ سَهْمَهَا مِنَ الْإِرْثِ هُوَ الْأَصْلُ، وَ إِرْثُ الذَّكَرِ هُوَ الْفَرْعُ الَّذِى يَعْرِفُ بِالْقِيَاسِ عَلَى نَصِيبِ الْأُنْثَى مِنَ الْإِرْثِ إِذْ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، وَ هَذَا نَوْعُ التَّأَكِيدِ عَلَى تَوْرِيثِ النِّسَاءِ وَ مَكَافَحَةِ الْعَادَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَعْتَدِيَةِ الْقَاضِيَةِ بِحَرْمَانِهِنَّ مِنَ الْإِرْثِ وَ الْمِيرَاثِ، حَرْمَانًا كَامِلًا.

وَ أَمَّا فِلْسَفُهُ هَذَا التَّفَاوُتِ بَيْنَ سَهْمِ الْأُنْثَى وَ الذَّكَرِ فَذَلِكَ مَا سَتَعْرَضُ لَهُ عَمَّا قَرِيبَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ آى لَوْ زَادَتْ بَنَاتُ الْمَيِّتِ عَلَى اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ الثَّلَاثَانُ أَى قِسْمِ الثَّلَاثَانِ بَيْنَهُنَّ.

ثُمَّ قَالَ وَ إِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ أَى لَوْ كَانَتْ الْبِنْتُ وَاحِدَةً وَرِثَتْ النِّصْفَ مِنَ التَّرْكِهِ.

### و هاهنا سؤال:

القرآن يقول فى هذا المجال «فوق اثنتين» أَى لَوْ كَانَتْ بَنَاتُ الْمَيِّتِ أَكْثَرَ مِنْ بِنْتَيْنِ اسْتَحَقَّقْنَ ثُلْثَى التَّرْكِهِ يَقْسَمُ بَيْنَهُنَّ، وَ هَذَا يَعْنَى أَنَّ الْقُرْآنَ ذَكَرَ حَكْمَ الْبِنْتِ الْوَاحِدَةِ، وَ حَكْمَ الْبَنَاتِ فَوْقَ اثْنَتَيْنِ، وَ سَكَتَ عَنِ حَكْمِ «الْبِنْتَيْنِ»، فَلَمَّا ذَا؟

## الجواب:

بملاحظه المقطع الأول من الآيه الحاضره يتضح جواب هذا السؤال، ونعنى قوله تعالى: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، و لو إجمالاً، لأن ورثه الميت إن انحصروا فى ابن واحد و بنت واحده كان للابن الثلثان و للبنت الثلث، فإذا كانتا بنتين كان لهما الثلثان حسب هذه العبارة.

و خلاصه القول: أنه إذا قال للذكر مثل حظ الأنثيين و كان أول العدد ذكراً و أنثى و للذكر الثلثان و للأنثى الثلث، علم من ذلك أن للبنتين الثلثين، و لعل لوضوح هذا الأمر لم تتعرض الآيه لبيانها (أى لذكر سهم الأختين) و اكتفت بذكر سهم البنات المتعددات فوق اثنتين، و هو الثلثان.

على أن هذا المطلب يتضح أيضاً بمراجعته الآيه الأخيره من سوره النساء، لأنها جعلت نصيب الأخت الواحده النصف (مثل نصيب البنت الواحده) ثم تقول:

فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ فَمِنْ هَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ سَهْمَ الْبَنَتَيْنِ هُوَ الثُّلُثَانِ أَيْضًا.

هذا مضافاً إلى ورود مثل هذا التعبير فى الأدب العربى، إذ يقول العرب أحياناً «فوق اثنتين» و يكون مرادهم هم «اثنتان فما فوق».

و بغض النظر عن كل ما قيل أنّ الحكم المذكور من الأحكام القطعيه المسلمه من وجهه نظر الفقه الإسلامى و الأحاديث الشريفه، و الرجوع إلى السنه المطهره (أى الأحاديث) كفى برفع أى إبهام فى الجملة المذكوره إن كان.

## لما ذا يرث الرجل ضعف المرأة؟:

مع أنّ ما يرثه الرجل هو ضعف ما ترثه المرأة، إلاّ أنّه بالإمعان و التأمل يتّضح أنّ المرأة ترث فى الحقيقه -ضعف ما يرثه الرجل إذا لا حظنا القضيّه من جانب آخر، و هذا إنّما هو لأجل ما يوليه الإسلام من حمايه لحقوق المرأة.

توضيح ذلك: إن هناك وظائف أنيطت بالرجل (و بالأحرى كلف بأدائها تجاه

المرأة) تقتضى صرف و إنفاق نصف ما يحصل عليه الرجل على المرأة، فى حين لا يجب على المرأة أى شىء من هذا القبيل.

إنّ على الرجل (الزوج) أن يتكفل نفقات زوجته حسب حاجتها من المسكن و الملبس و المأكل و المشرب و غير ذلك من لوازم الحياه كما أن عليه أن ينفق على أولاده الصغار أيضا، فى حين أعفيت المرأة من الإنفاق حتى على نفسها، و على هذا يكون فى إمكان المرأة تدخر كل ما تحصله عن طريق الإرث، و تكون نتيجة ذلك أن الرجل يصرف و ينفق نصف مدخوله على المرأة، و نصفه فقط على نفسه، فى حين يبقى سهم المرأة من الإرث باقيا على حاله.

و لمزيد من التوضيح نلفت نظر القارئ الكريم إلى المثال التالى: لنفترض أنّ مجموع الثروات الموجوده فى العالم و التى تقسم تدريجا- عن طريق الإرث - بين الذكور و الإناث هو (٣٠) مليار دينا، و الآن فلنحاسب مجموع ما يحصل عليه الرجال و نقيسه بمجموع ما تحصل عليه النساء عن طريق الإرث.

فلنفترض أن عدد الرجال و النساء متساو فتكون حصه الرجال هو (٢٠) ملياردا، و حصه النساء هي (١٠) مليارات.

و حيث أن النساء يتزوجن- غالبا- فإن الإنفاق عليهنّ يكون من واجب الرجال، و هذا يعنى أن تحتفظ النساء ب(١٠) مليارات (و هو سهمهنّ من الإرث)، و يشارك الرجال فى العشرين ملياردا، لأن على الرجال أن يصرفوا من سهمهم على زوجاتهم و أطفالهم.

و على هذا يصرف الرجال (١٠) مليارات على النساء (و هو نصف سهمهم من الإرث) فيكون مجموع ما تحصل عليه النساء و يملكه هو (٢٠) ملياردا و هو ثلثا الثروه العالميه فى حين لا يعود من الثروه العالميه على الرجال إلا (١٠) مليارات، أى ثلث الثروه العالميه (و هو المقدار الذى يصرفه الرجال على أنفسهم).

و تكون النتيجة أنّ سهم المرأة التي تصرفه و تستفيد منه و تملكه واقعا هو ضعف سهم الرجل، و هذا التفاوت إنّما لكونهنّ أضعف من الرجال على كسب الثروه و تحصيلها (بالجهد و العمل)، و هذا في حقيقته -حمايه منطقيه و عادله قام بها الإسلام للمرأة، و هكذا يتبين أنّ سهمها الحقيقي أكثر- في النظام الإسلامي - و إن كان في الظاهر هو النصف.

و من حسن الصدق أنّنا نقف على هذه النقطة إذا راجعنا التراث الإسلامي حيث أنّ هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بدايه الإسلام و خالجه بعض الأذهان، فكان الناس يسألون أنّهم الدين عن سرّ ذلك بين حين و آخر، و كانوا يحصلون على إجابات متشابهه في مضمونها- على الأغلب- و هو أنّ الله إذ كلف الرجال بالإنفاق على النساء و أمهارهنّ، جعل سهمهم أكثر من سهمهنّ.

إن أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه في ما كتب من جواب مسائله علّه إعطاء النساء نصف ما يعطى الرجال من الميراث: لأن المرأة إذا تزوجت أخذت، و الرجل يعطى، فلذلك و فرّ على الرجال، و علّه أخرى في إعطاء الذكر مثل ما يعطى الأنثى لأن الأنثى من عيال الذكر إن احتاجت، و عليه أن يعولها و عليه نفقتها، و ليس على المرأة أن تعول الرجل و لا تؤخذ بنفقتها إن احتاج فوفرّ على الرجال لذلك (١).

### إرث الأب و الأم:

و أمّا ميراث الآباء و الأمهات الذين هم من الطبقة الأولى، و في مصاف الأبناء أيضا، فإن له كما ذكرت الآية الحاضره (أى الآية الأولى من هذه المجموعه) ثلاث حالات هي:

الحاله الأولى: إنّ الشخص المتوفى إن كان له ولد أو أولاد، وورث كل من الأب

ص: ١٣٢

و الأم السدس: وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ .

الحاله الثانيه: إن لم يكن للمتوفى ولد، و انحصر ورثته فى الأب و الأم، وورثت الأم ثلث ما ترك، يقول سبحانه: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ و إذا كنا لا نجد هنا أى ذكر عن سهم الأب فلان سهمه واضح و بين و هو الثلثان، هذا مضافا إلى أنه قد يخلف الميت زوجه فينقص فى هذه الصوره من سهم الأب دون سهم الأم، و بذلك يكون سهم الأب متغيرا فى الحاله الثانيه.

الحاله الثالثه: إذا ترك الميت أبا و أمًا و أخوه من أبويه أو من أبيه فقط، و لم يترك أولادا، فى مثل هذه الحاله ينزل سهم الأم إلى السدس، و ذلك لأن الأخوه يحجبون الأم عن إرث المقدار الزائد عن السدس و إن كانوا لا يرثون، و لهذا يسمى أخوه الميت بالحاجب، و هذا ما يعنيه قول الله سبحانه: فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ .

و فلسفه هذا الحكم واضح، إذ وجود أخوه للميت يثقل كاهل الأب، لأن على الأب الإنفاق على أخوه الميت حتى يكبروا، بل عليه أيضا أن ينفق عليهم بعد أن يكبروا، و لهذا يوجب وجود أخوه للميت من الأبوين أو من الأب خاصه تدنى سهم الأم، و لا يوجب تدنى سهم الأب، و لا- يحجبونها عن إرث ما زاد على السدس إذا كانوا من ناحيه الأم خاصه، إذ لا يجب لهم على والد الميت شىء من النفقات. كما هو واضح.

### سؤال:

و يرد هنا سؤال، و هو أن القرآن استعمل فى المقام صيغه الجمع إذ قال: فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ وَ نحن نعلم أن أقل الجمع هو ثلاثه، فى حين يذهب جميع الفقهاء إلى أن الأخوين يحجبان أيضا، فكيف التوفيق بينهما؟

### الجواب:

إن الجواب يتضح من مراجعه الآيات القرآنيه الاخرى، و إذ لا يلزم أن يكون

المراد كلما استعملت صيغته الجمع، الثلاثة فما فوق، بل استعملت أحيانا على شخصين فقط كما في الآية (٧٨) من سورة الأنبياء وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ .

و الآية ترتبط بقضاء داود و سليمان، و قد استخدم القرآن الكريم ضمير الجمع في شأنهما، فقال «لحكمهم».

و من هنا يتضح أنه قد تستعمل صيغته الجمع في شخصين أيضا، و لكن هذا يحتاج طبعا إلى قرينه و شاهد، و الشاهد في المقام هو ورود الدليل من أئمة الدين على ذلك، و إجماع المسلمين، إذ أجمع فقهاء المسلمين سنه و شيعه (إلا ابن عباس) إن الحكم المذكور في الآية يشمل الأخوين أيضا.

### الإرث بعد الوصيه و الدين:

ثم إن الله سبحانه يقول: مَنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ فَلَا بَدَّ مِنْ تَنْفِيذِ مَا أَوْصَى بِهِ الْمَيِّتُ مِنْ تَرْكِهِ، أَوْ آدَاءِ مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ أَوْلاً، ثُمَّ تَقْسِيمِ الْبَقِيَّةِ بَيْنَ الْوَرَثَةِ.

(و قد ذكرنا في باب الوصيه أن لكل أحد أن يوصي بأمر في مجال الثلث الخاص به فقط، فلا يصح أن يوصي بما زاد عن ذلك إلا أن يأذن الورثه بذلك).

ثم قال سبحانه: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمُ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً وَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَفِيدُ أَنَّ قَانُونَ الْإِرْثِ الْمَذْكُورَ قَدْ أَرَسَى عَلَى أَسَاسِ مَتْنَيْنِ مِنَ الْمَصَالِحِ الْوَاقِعِيَّةِ، وَ أَنَّ تَشْخِيسَ هَذِهِ الْمَصَالِحِ بِيَدِ اللَّهِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْجُزُ عَنِ تَشْخِيسِ مَصَالِحِهِ وَ مَفَاسِدِهِ جَمِيعاً، فَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَظُنَّ الْبَعْضُ أَنَّ الْآبَاءَ وَ الْأُمَّهَاتِ أَكْثَرَ نَفْعاً لَهُمْ، وَ لِذَلِكَ فَهَمُ أَوْلَى بِالْإِرْثِ مِنَ الْأَبْنَاءِ وَ إِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَاقْدِمَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَظُنَّ آخَرُونَ الْعَكْسَ، وَ لَوْ كَانَ أَمْرُ الْإِرْثِ وَ قِسْمَتِهِ مَتْرُوكاً إِلَى النَّاسِ لَذَهَبُوا فِي ذَلِكَ أَلْفَ مَذْهَبٍ، وَ لَأَلَّ الْأَمْرَ إِلَى الْهَرَجِ وَ الْمَرْجِ وَ الْفَوْضَى، وَ انْتَهَى إِلَى الْاِخْتِلَافِ وَ التَّشَاجُرِ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ الَّذِي يَعْلَمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ كَمَا هِيَ أَقَامَ قَانُونَ

الإرث على نظام ثابت يكفل خير البشريه و يتضمّن صلاحها...

و لأجل أن يتأكد كلٌّ ما ذكره من الأمور، و يتخذ صفه القانون الذى لا يحتمل التردد، و لا يكون فيه للناس أى مجال نقاش، يقول سبحانه: فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا و بذلك يقطع الطريق على أى نقاش فى مجال القوانين المتعلقة بالأسهم فى الإرث.

### سهم الأزواج بعضهم من بعض:

فى الآيه السابقه أشير إلى سهم الأولاد و الآباء و الأمهات، و فى الآيه التى تليها يقول الله سبحانه: وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ و يشير سبحانه إلى كيفية إرث الزوجين بعضهما من بعض، فإن الزوج يرث نصف ما تتركه الزوجه هذا إذا لم يكن للزوجه ولد، فإن كان لها ولد أو أولاد (و لو من زوج آخر) و رث الزوج ربع ما تتركه فقط، و إلى هذا يشير تعالى فى نفس الآيه:

فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعَ مِمَّا تَرَكَنَّ

على أن هذا التقسيم يجب أن يتم بعد تنفيذ وصايا المتوفاه، أو تسديد ما عليها من ديون كما يقول سبحانه: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ .

و أمّا إرث الزوجه مما يتركه الزوج، فإذا كان للزوج أولاد (و إن كانوا من زوجه أخرى) و رثت الزوجه الثمن لقوله سبحانه: فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ .

و يكون لها الربع إن لم يكن للزوج الميت ولد لقوله سبحانه: وَ لَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ .

على أن هذا التقسيم يجب أن يتم أيضا من بعد تنفيذ وصايا الميت أو تسديد ديونه من أصل التركة: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ .

و الملفت للنظر فى المقام هو انخفاض سهام الأزواج إلى النصف إذا كان

للميت ولد،و ذلك رعايه لحال الأولاد.

و أما العله لكون سهم الأزواج ضعف سهم الزوجات فهي ما ذكرناه فى البحث السابق حول عله الفرق بين سهم الذكر و الأنثى.

ثم إن هاهنا نقطه مهمه يجب التنبيه إليها أيضا،و هي أن السهم المعين للنساء (سواء الربع أو الثمن)خاص بمن ترك زوجته واحده فقط(فإنها ترث كل الربع أو كل الثمن)و أما إذا ترك الميت زوجات متعدده قسم ذلك السهم(الربع أو الثمن) بينهن بالتساوى،و هذا هو ما يدل عليه ظاهر الآيه مورد البحث أيضا.

### إرث أخوه الميت و أخواته:

ثم أنه سبحانه بعد أن يذكر سهم الأزواج بعضهم من بعض،يعمد إلى ذكر أسهم أخوه الميت و أخواته فيقول: وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً... .

و فى هذه العبارة نواجه مصطلحا جديدا ورد فى موضعين من القرآن فقط، أحدهما،فى الآيه المبحوثة هنا،و الثانى،فى آخر آيه من سوره النساء و هي كلمه «كلاله».

إن ما يستفاد من كتب اللغه هو اشتقاق كلاله من الكلال،و هو ذهاب القوه، فقد جاء فى صحاح اللغه:الكلاله فى الأصل مصدر بمعنى الكلال و هو ذهاب القوه.

و لكنّها استعملت فى ما بعد فى أخوه الميت و أخواته الذين يرثونه،و لعل التشابه بين المعنى الأول و الثانى هو أن الأخوه و الأخوات يعتبرون من الطبقة الثانیه فى طبقات الإرث،و هم لا يرثون إلا مع عدم وجود الأب و الأمّ و الأولاد للميت و مثل هذا الفاقد للأب و الأمّ و الأبناء لا- بدّ أن يعانى من الضعف الشديد، و ذهاب القوه،و لهذا قيل له كلاله،قال الراغب فى كتابه المفردات:«الكلاله اسم لما عدا الولد و الوالد من الورثه».



روى أنّ النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلّم سئل عن الكلاله، فقال: من مات و ليس له ولد و لا والد، فجعله اسماً للميت، كلال القولين صحيح فإن الكلاله مصدر يجمع الوارث و الموروث جميعاً.

و أمّا تعبير القرآن الكريم عن أخوه الميت و أخواته بالكلاله فلعله لأنّ على أمثال هؤلاء ممن عدموا الآباء و الأمهات و الأولاد أن يعلموا أن أموالهم ستقع من بعدهم فى أيدي من يمثلون ضعفه، و يدلون على ذهاب قوتهم، و لذلك ينبغى لهم أن يصرفوها فى مواضع أكثر ضروره و لزوماً، و ينفقونها فى سبيل المحتاجين و فى حفظ المصالح العامه.

### عوده إلى تفسير الآية:

يقول الله سبحانه تعالى: **وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَ لَهٗ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ** أى إن مات رجل و لم يترك إلاّ أخاً أو أختاً، أو ماتت امرأه و لم تترك سوى أخ أو أخت، يورث كل منهما السدس من التركة، هذا إذا كان الوارث أخاً واحداً و أختاً واحده.

أما إذا كانوا أكثر من واحد وورث الجميع ثلثاً واحداً، أى قسم مجموع الثلث بينهم: **فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ**

ثمّ أضاف القرآن: **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ** أى تكون قسمه الميراث هكذا بعد أن ينفذ الورثه من التركة ما أوصى به المتوفى، أو يسددوا ما عليه من ديون، ثم قال: **غَيْرَ مُضَارٍّ** أى فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث و كذا الدين مضراً بالورثه، أى أن لا يكون أكثر من الثلث، لأن تجاوز الوصيه أو الدين عن حد الثلث إضرار، كما أنّه يتوقف إمضاء الزائد على الثلث على إذن الورثه و رضاهم بذلك، أو أن يخبر الميت عن ديون كذبا، ليحرم ورثته عن الإرث و يضرّ بهم، كما نصت على ذلك روايات كثيره مرويه عن رسول

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ثُمَّ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ لِلتَّأَكِيدِ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ يَقُولُ: وَصِيَّتُهُ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ أَيْ أَنَّ هَذَا الْمَطْلَبَ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ يَجِبُ أَنْ تَحْتَرَمُوهَا، لِأَنَّهُ الْعَالَمُ بِمَصْلَحَتِكُمْ وَخَيْرِكُمْ، فَهُوَ أَمْرٌ كَرِيمٌ بِهَذَا عَنِ حُكْمِهِ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى عَالَمُ بَنِيَاتِ الْأَوْصِيَاءِ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى حَلِيمٌ لَا يِعَاقِبُ الْعَصَاةَ فُورًا، وَلَا يَأْخُذُهُمْ بِظُلْمِهِمْ بِسُرْعَةٍ.

### بحوث أخرى عند هذه الآية:

هذا و تعجب و الإشارةه-هنا-إلى عدّه أمور:

١-إنّ ما ورد في الآيه السابقه حول إرث الأخوه و الأخوات و إن كان في ظاهره مطلقا يشمل الأخوه و الأخوات من الأبوين أو من الأب وحده أو من الأم وحدها، إلاّ أنّه بملاحظه آخر آيه من سوره النساء (التي يأتي تفسيرها قريبا) يتّضح أنّ المراد-هنا-هو الأخوه و الأخوات من جانب الأم فقط (أى الذين ينتسبون إلى الميت من جانب الأم فقط)، في حين أنّ المقصود في الآيه الأخيره من السوره هو الأخوه و الأخوات من جانب الأبوين أو من جانب الأب خاصّه (سنتعرض لذكر الأدله على هذا الأمر عند تفسير الآيه الأخيره من هذه السوره إن شاء الله).

و على هذا الأساس فإن الآيتين و إن كانتا حول إرث «الكلاله» (أى أخوه الميت و أخواته) و يبدو للنظر تعارض الآيتين، إلاّ أن التدبر و الإمعان في مضمون الآيتين يكشف لنا أنّ كل واحد منهما تقصد طائفه خاصّه من أخوه الميت و أخواته، و أنّه لا تعارض بين مفاد الآيتين أبدا.

٢-من الواضح أن هذه الطبقه لا- ترث إلا- عند فقدان الطبقة الأولى (و هو الأب و الأم، و الأولاد) مطلقا، و يدل على ذلك قوله تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ

كما تدل عليه روايات متظافره وردت في هذا الصعيد تعين طبقات الإرث، و ترجح بعضها على البعض الآخر.

٣- إن لفظه فَهْمٌ شُرَكَاءٌ فِي التُّلْثِ تفيد أن أخوه الميت و أخواته أي «الكلاله» إن كانوا أكثر من أخ و أخت يقتسمون الثلث فيما بينهم بالتساوى، من دون فرق بين الذكور و الإناث، لأن المفهوم من «الشركاء في الثلث» هو تساوى الأسهم.

٤- يستفاد من الآيه المبحوثه أنه لا يحق للإنسان أن يعترف بديون-كذبا- ليضرّ بالورثه و يضيع حقوقهم و يحرمهم من إرثه، أنه يجب عليه فقط أن يعترف- في آخر فرصه من حياته- بما عليه من الديون واقعا، كما له أن يوصى بوصايا عادله عبر عنها في الروايات بأن تكون في حد «الثلث» و إطاره.

فقد وردت في روايات الأئمه عليهم السلام- في هذا الصعيد- عبارات شديده النكير على من يوصى بوصايا مضره بالورثه منها

قولهم: «إن الضرار في الوصيه من الكبائر» (٢).

إن الإسلام الحنيف بسنّه لهذا القانون يكون قد حفظ للميت نفسه شيئا من الحق في مسأله، إذ يهيئ له إمكانيه الاستفادة و الانتفاع بمقدار الثلث، كما حفظ حقوق الورثه أيضا حتى لا ينشأ في أفئدتهم أيه ضغينه، و حتى لا تتزعزع و شائج المودّه و روابط القربى التي يجب أن تستمر بعد وفاه المورث.

ص: ١٣٩

١-١) - الأنفال، ٧٥.

٢-٢) - مجمع البيان.

اشاره

تَلَمَّكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَ مَنْ  
يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)

التفسير

اشاره

«الحدود» جمع حدّ، ويعنى فى أصل اللغه لمنع، ثم اطلق على كلّ حائل و حاجز بين شيئين يفصل بينهما و يميز، فحدّ البيت و البستان و الدّوله يراد منه الموضوع الذى يفصل هذه النقطه عن غيرها من النقاط الاخرى.

هذا و لقد بدأت الآيه الأولى من هاتين الآيتين بالإشاره إلى قوانين الإبرث التى مرّت فى الآيات السابقه بلفظه «تلك» إذ قال سبحانه: تَلَمَّكَ حُدُودُ اللَّهِ أى تلك حدود الله التى لا يجوز تجاوزها و تجاهلها لأحد، فإن من تعدى هذه الحدود كان عاصيا مذنبًا.

و قد وردت هذه العبارة تَلَمَّكَ حُدُودُ اللَّهِ فى مواضع عديده من القرآن الكريم، و قد جاءت دائما بعد ذكر سلسله من الأحكام و القوانين و المقررات الاجتماعيه، ففى الآيه ١٨٧ من سوره البقره مثلا تأتى هذه العبارة بعد الإعلان

عن حرمة اللقاء الجنسي بين الزوجين حال الاعتكاف، و بعد ذكر سلسله من الأحكام المتعلقة بالصوم، كما جاءت فى الآيات (٢٢٩ و ٢٣٠) من سورة البقره، و الآيه (١٠) من سورة الطلاق بعد بيان قسم من أحكام الطلاق، و فى الآيه (٤) من سورة المجادله بعد بيان كفاره «الظهار».

و فى جميع هذه الموارد أحكام و قوانين منع من تجاوزها، و لهذا و صفت بكونها «حدود الله» (١).

ثم بعد الإشاره إلى هذا القسم من حدود الله يقول سبحانه: **وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**، و هو بذلك يشير إلى النتيجة الأخرويه للالتزام بحدود الله و احترامها، ثم يصف هذه النتيجة الأخرويه بقوله: **وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**.

ثم يذكر سبحانه ما يقابل هذا المصير فى صوره المعصيه، و تجاوز الحدود الإلهيه إذ يقول: **وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا**.

على أننا نعلم أن معصيه الله (مهما كانت كبيره) لا توجب الخلود و العذاب الأبدى فى النار، و على هذا الأساس يكون المقصود فى الآيه الحاضره هم الذين يتعدون حدود الله عن تمرد و طغيان و عداء و إنكار لآيات الله، و فى الحقيقه الذين لا يؤمنون بالله و لا- باليوم الآخر، و لا يستبعد هذا المعنى إذا لا حظنا أن «حدود» جمع، و هو مشعر بأن يكون التعدى شاملا لجميع الحدود و الأحكام الإلهيه، لأن الذى يتجاهل كل القوانين الإلهيه لا يؤمن بالله عاده، و إلا فإنه يحترم و لو بعضها- على الأقل.

إن الملفت للنظر فى الآيه السابقه أن الله تعالى عبّر عن أهل الجنه بصيغه الجمع حيث قال تعالى: **خَالِدِينَ فِيهَا** بينما عبّر عن أهل النار بصيغه المفرد

ص: ١٤١

حيث قال خَالِدًا فِيهَا .

إنّ هذا التفاوت في التعبير-في الآيتين المتلاحقتين-شاهد واضح على أن لأهل الجنّة اجتماعات(أو بعبارة أخرى أنّ هناك حالة اجتماعيه بين أهل الجنّة ونزلاتها)و تلك هي في حد ذاتها نعمه من نعم الجنّة،ينعم بها ساكنوها و أصحابها، بينما يكون الوضع بالنسبه إلى أهل النار مختلفا عن هذا،فكل واحد من أهل النار مشغول بنفسه-لما فيه من العذاب-بحيث لا يلتفت إلى غيره،و لا يفكر فيه، بل هو مهتم بنفسه،يعمل لوحده،و هذه هي حاله المستبدين المتفردين بالرأى و الموقف،و الجماعات المتحدّه و المجتمعه في المقابل،في هذه الدنيا أيضا، فالفريق الأول يمثل أهل جهنم،بينما يمثل الفريق الثاني أهل الجنّة.

### مميزات قانون الإرث الإسلامي:

في قانون الإرث عموما،و في نظام الإرث الإسلامي خاصّه مزايا نشير إلى قسم منها في ما يلي:

١-في نظام الإرث الإسلامي،و في ضوء ما أقرّ من الطبقات للورثه لا-يحرم أى واحد من أقرباء المتوفى من الإرث،فليس في الإسلام ما كان متعارفا(أو لا يزال)عند العرب الجاهليين،أو في بعض المجتمعات البشريه من حرمان النساء و الأطفال من الإرث لعدم قدرتهم على حمل السلاح و المشاركة في الحروب و ما شاكل ذلك، بل يشمل نظام الإرث الإسلامي كل من يمتّ إلى المتوفى بوشيجه القربى.

٢-يلبى هذا النظام الحاجات الإنسانيه الفطريه و المشروعه،لأنّ كل إنسان من أبناء البشر يجب أن يرى حصيله جهوده و ثمره أتعابه و نتاج كدّه و كدحه بيد من يعتبره امتدادا لوجوده و شخصيته،و لهذا يكون سهم الأبناء-حسب هذا النظام-أكثر من سهام غيرهم،في حين تكون سهام الآباء و الأمهات و غيرهم من

الأقرباء و أنصبتهم بدورها سهاماً و أنصبه محترمه و جديره بالاهتمام أيضاً.

٣- إن هذا القانون يشجع الأشخاص على السعى و العمل و بذل المزيد من الفعاليه فى سبيل تحصيل الثروه، و تشغيل عجله الإقتصاد.

و ذلك لأن الإنسان إذا عرف أن نتاج كده و كدحه و حصيله جهوده و أتعبه طوال حياته ستنقل إلى من يحبهم و يودهم، فإنه يتشجع على المزيد من العمل و النشاط مهما كان عمره و سنه، و مهما كانت ظروفه و ملابساته، و بهذا لا يحدث أى ركود فى فعاليته و نشاطه مطلقاً.

و قد أشرنا فى ما مضى - كيف أن إلغاء قانون الإرث و التوارث فى بعض البلاد، و تأمين أموال الموتى، و حيازتها من قبل الدوله أدى إلى آثار سيئه فى المجال الإقتصادى، و ظهر فى صورته ركود إقتصادى مخيف دفع بالدوله إلى إعاده النظر فى إلغاء قانون الإرث و حذفه.

٤- إن قانون الإرث الإسلامى يمنع من تراكم الثروه، لأن هذا النظام يقضى بتقسيم الثروه - بعد كل جيل - بين الأفراد المتعددين بصوره عادله، و هذا مما يساعد على تفتيت الثروه، كما يساعد على التوزيع العادل لها.

هذا و الجدير بالاهتمام أن هذا التقسيم لا يعانى مما تعانى منه بعض الأشكال السائده فى عالمنا الراهن لتقسيم الثروه، و التى ترافق غالباً سلسله من المضاعفات و الآلام الاجتماعيه السيئه، فهو نظام فريد من نوعه يشمل الجميع برحمته، و لا يتسبب فى انزعاج أى شخص أو جهه.

٥- إن الأسهم و الأنصبه فى قانون الإرث الإسلامى لم تنظم على أساس الارتباط و الانتساب إلى المتوفى برابطه النسب خاصه، بل على أساس الحاجات الواقعيه عند الورثه، فإذا رأينا الذكور من أولاد الميت يرثون ضعف ما ترثه الإناث، أو يرث الأب - فى بعض الموارد - أكثر من الأم، فهو لأجل أن الرجال يتحملون مسئوليه ماليه أكبر فى النظام الإسلامى، و لأن عليهم أن

يتحملوا الإنفاق على زوجاتهم و عوائلهم، و لهذا لا بد أن يسهم لهم فى الإرث - أكثر من الإناث.

### ما هو العول، و ما هو التعصيب؟:

فى كتاب الإرث نقف على بحثين أحدهما تحت عنوان «العول»، و الآخر تحت عنوان «التعصيب» و هما حالتان تعرضان لمسألة الإرث عند ما تكون الأسهم المذكوره فى الآيات المتقدمه أقل من التركة أحيانا، أو أكثر أحيانا أخرى.

و للمثال نقول: إذا ترك الميت أختين من جانب الأب و الأم، و زوجا، و ورثت الأختان ثلثى المال و ورث الزوج النصف، فىكون المجموع  $\frac{7}{6}$  أى بزياده  $\frac{1}{6}$  على مجموع المال، و هنا يطرح السؤال التالى و هو: ننقص هذا السدس الزائد  $\frac{1}{6}$  من جميع الورثه - حسب سهامهم - و بصوره عادله، أم يجب أن تنقص من نصيب أشخاص معينين خاصه؟ المعروف عن علماء السنه أنهم يذهبون إلى إدخال النقص على جميع الورثه، و سمى الفقهاء هذا القسم عولا، لأن العول يعنى فى اللغه الارتفاع و الزياده.

فى المثال الحاضر يقول فقهاء السنه: إن السدس الزائد يجب أن يقسم على الجميع، و أن ننقص من جميع الورثه من كل واحد حسب سهمه (1)، و هكذا يكون العمل فى الموارد الاخرى، و فى الحقيقه ينزل الورثه - هنا - منزله الغرماء الذين لا تفى أموال المفلس بتسديد ديونهم جميعا و بصوره كامله، فهنا يدخل النقص

ص: ١٤٤

١ - ١) فتكون طريقه الحساب هنا هى أننا يجب أن ننقص  $\frac{1}{6}$  من سهم الأختين الذى هو  $\frac{4}{6}$  و سهم الزوج الذى هو  $\frac{3}{6}$  بمقدار أسهمهم أى نقسم  $\frac{1}{6}$  على ٧ أقسام فننقص من سهم الأختين بمقدار ٤، و من الزوج بمقدار ٣، و ذلك طبقا لقانون «الإسهام بالنسبه» المذكوره فى الرياضيات فتكون النتيجة أنه ينقص من سهم الأختين بمقدار  $\frac{4}{42}$  و من سهم الزوج بمقدار  $\frac{3}{42}$ .



على جميع الغرماء بنسب متناسبه مع مقادير ديونهم.

و لكن فقهاء الشيعة يذهبون في هذا المجال مذهبا آخر، فهم يدخلون النقص على أشخاص معينين، لا على جميع الورثة.

فهم في المثال الحاضر، مثلا يدخلون النقص على الأختين، و يقولون كما جاء في حديث شريف: «إن الذي أحصى رمل عالج-أى المتراكم من الرمل الداخل بعضه في بعض-ليعلم أن السهام لا تعول» أى لا تتعدى الأسهم و لا تؤول إلى الكسر، فلا بد أن يكون سبحانه قد وضع لمثل هذه الحالة قانونا، و ذلك هو أن بين الورثة الذين ذكرهم القرآن الكريم من له سهم ثابت من حيث الأقل أو الأكثر كالزوج و الزوجه و الأب و الأم، و من ليس سهم كذلك كالأختين و البننتين، و من هنا نفهم أن النقص يجب أن يدخل دائما على من ليس له سهم محدد في جانب القله أو الكثره (أى الذى ليس له حدّ أقل أو حدّ أكثر معين) أى الذى يكون عرضه للتغير و الاضطراب، و لهذا لا يدخل النقص المذكور على سهم الزوج، فهو يرث سهمه من التركة و هو النصف بلا نقصان بسبب العول، و إنّما يدخل النقص على سهم الأختين فقط (فلا حظ ذلك بدقه).

و قد يكون مجموع الأسهم أقلّ من مجموع المال-فيفضل شىء من المال بعد أخذ كل واحد من أفراد الطبقة الوارثه فرضه.

فمثلا- إذا توفى رجلا و خلف بنتا واحده و أمّا، فإن سهم الأم هو  $\frac{1}{6}$  و سهم البنت هو  $\frac{3}{6}$  فيكون مجموع الأسهم هو  $\frac{4}{6}$  أى يفصل  $\frac{2}{6}$  من المال، فى هذه الصوره يذهب علماء السنه و فقهاؤهم إلى إعطاء هذا الفاضل من التركة إلى عصبه الميت (1) و هم رجال الطبقة الثانيه من الإرث (كالأخوه) و يسمى هذا القسم بالتعصيب.

و لكن فقهاء الشيعة يذهبون إلى أنّ ذلك الفاضل يجب أن يقسم بين الوارثين

ص: ١٤٥

(١-١) -العصبه هم الرجال الذين ينتسبون إلى الميت بلا واسطه كالأخوه.

المذكورين أى بنسبه ١ و ٣، لأنه مع وجود الطبقة السابقه لا تصل النويه إلى الطبقة اللاحقه، هذا مضافا إلى أن إعطاء الفاضل من التركة إلى رجال الطبقة اللاحقه يشبه ما كان سائدا في العهد الجاهلى حيث تحرم النساء من الإرث.

هذا و البحث الراهن من الأبحاث العلميه المعقده، وقد أعطينا هنا خلاصه موضحه منه تبعا للحاجه، و أما التفصيل فموكول إلى محله فى الكتب الفقهيه المفصله.

ص: ١٤٦

اشاره

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَهُ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)

التفسير

اشاره

تعنى لفظه «الفاحشه» حسب اللغه: العمل أو القول القبيح جدًا- كما أسلفنا -و يستعمل فى الزنا لقبحه الشديد، وقد وردت هذه اللفظه فى (١٣) موردا من القرآن الكريم، وقد استعملت تاره فى «الزنا» و أخرى فى «اللواط» و تاره فى الأفعال الشديده القبح على العموم.

و الآيه الأولى- من هاتين الآيتين- تشير كما فهم أكثر المفسرين- إلى جزاء المرأة المحصنه التى تزنى. فتقول: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَهُ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ .

و ما يدل على أن الآيه المبحوثة تعنى زنا المحصنه-مضافا إلى القرينه

المذكوره فى الآيه اللاحقه-التعبير ب«من نساءكم» أى زوجاتكم، لأنّ التعبير بهذه اللفظه عن الزوجات قد تكرر فى مواضع عديده من القرآن الكريم، و على هذا يكون جزاء المحصنه التى ترتكب الزنا فى هذه الآيه هو الحبس الأبدى.

و لكنه تعالى أردف هذا الحكم بقوله: **أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا** فإذن لا بدّ أن يستمر هذا الحبس فى حقهنّ إلى الأبد حتى يأتى أجلهنّ، أو يعين لهنّ قانون جديد من جانب الله سبحانه.

و يستفاد من هذه العبارة أنّ هذا الحكم (أى الحبس الأبدى للمحصنه الزانيه) حكم مؤقت، و لهذا ذكر من بدايه الأمر أنّه سوف ينزل فى حقهنّ قانون جديد، و حكم آخر فى المستقبل (و بعد أن تنتهى الظروف و الأفكار لمثل ذلك) حينئذ سيتخلص النساء اللاتى شملهنّ ذلك الحكم (أى الحكم بالحبس أبدا) من ذلك السجن إذا كن على قيد الحياه طبعاً، و لا يشملهنّ حكم جزائى آخر، و ليس الخلاص من السجن إلّا بسبب إلغاء الحكم السابق، و أما عدم شمول الحكم الجديد لهنّ فلئن الحكم الجزائى لا يشمل الموارد التى سبقت مجيئه، و بهذا يكون الحكم و القانون الذى سيصدر فى ما بعد-مهما كان- سبباً لنجاه هذه السجينات، على أنّ هذا الحكم الجديد يشمل حتماً كل الذين سيرتكبون هذا المنكر فى ما بعد. (فلا حظ بدقّه هذه النقطة).

و أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من قوله تعالى: **أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا** هو أنّ الله سبحانه قد جعل الرجم للمحصنات الزانيات فى ما بعد، يجعل و بذلك سيكون للسجينات سبيلاً إلى النجاه و الخلاص من عقوبه السجن، فهو احتمال مردود، لأنّ لفظه «لهنّ سبيلاً» لا-تلاءم أبداً مع مسأله الأعدام، فعبارته «لهنّ» تعنى ما يكون نافع لهنّ و ليس الأعدام سبيلاً لنجاتهنّ، و الحكم الذى قرره الله فى الإسلام للمحصنات الزانيات فى ما بعد هو الرجم (و قد ورد هذا الحكم فى لسان السنه النبويه الشريفه أى الأحاديث قطعاً، و إن لم ترد فى القرآن الكريم

أيه إشاره إليها).

من كل ما قلناه أتضح أنّ الآيه الحاضره لم تنسخ قط، لأنّ النسخ إنّما يكون فى الأحكام التى تردّ مطلقه من أول الأمر لا التى تذكر مؤقته و محدوده كذلك، و الحكم المذكور فى الآيه الحاضره (أى الحبس الأبدى) من القسم الثانى، أى أنّه حكم مؤقت محدود، و ما نجده فى بعض الروايات من التصريح بأنّ الآيه الحاضره قد نسخت بالأحكام التى وردت فى عقوبه مرتكبى الفاحشه، فالمراد منه ليس هو النسخ المصطلح، لأنّ النسخ فى لسان الروايات و الأخبار يطلق على كل تقييد و تخصيص (فلا حظ ذلك بدقّه و عنايه).

ثمّ لا بدّ من الالتفات إلى ناحيه مهمّيه، و هى أن الحكم بحبس هذا النوع من النساء فى «السيوت» من صالحهن من بعض الجهات، لأنّه أفضل -بكثير- من سجنهن فى السجون العامّه المتعارفه، هذا مضافا إلى أن التجربه قد دلّت أن للسجون و المتعلقات العامّه أثرا سيئا و عميقا فى إفساد المجتمع، إذ أنّ هذه المراكز تتحول -شيئا فشيئا- إلى معاهد كبرى لتعليم شتى ألوان الجريمه و الفساد بسبب أن المجرمين سيتبادلون فيها -من خلال المعاشره و اللقاء و فى سعه من الوقت و فراغ من الشغل- تجاربهم فى الجريمه.

ثمّ أنّ الله سبحانه يذكر بعد ذلك حكم الزنا عن إحصان إذ يقول: **وَ الذانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَ أَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً** و يقصد أنّ الرجل غير المحصن أو المرأه غير المحصنه إن أتيا بفاحشه الزنا فجزاؤهما أن يؤذيا.

و الآيه و إن كانت لا تذكر قيد «عدم الإحصان»، صراحه، إلا أنّها حيث جاءت بعد ذكر حكم المحصنه و ذكر عقوبتها التى تختلف عن هذه العقوبه التى هى أخف من العقوبه المذكوره فى الآيه السابقه، أستفيد منها إنها وارده فى حق الزنا عن غير إحصان، و إنها بالتالى عقوبه الزانى غير المحصن و الزانيه غير

المحصنه اللذين لا- يدخلان في عنوان الآيه السابقه، و بالتالى حيث أن الآيه السابقه اختصت-بالقرينه التي ذكرت-بالزانيه المحصنه استنتجنا أنّ هذه الآيه تبين حكم الزنا عن غير إحصان.

كما أنّ هناك نقطه واضحه أيضا، و هي أنّ الحكم المذكور في هذه الآيه (أى الإيذاء)عقوبه كليه، يمكن أن تكون الآيه الثانيه من سوره النور التي تذكر أن حدّ الزنا هو (١٠٠)جلده لكل واحد من الزانى و الزانيه تفسيرا و توضيحا لهذه الآيه و تعيينا للحكم الوارد فيها، و لهذا لا يكون هذا الحكم منسوخا أيضا.

ففى تفسير العياشى روى عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآيه أنّه قال: «يعنى البكر إذا أتت الفاحشه التي أتها هذه الثيب فأذوهما».

و على هذا يكون المراد من «اللذان»-و إن كان للإشاره إلى مثنى مذكر-هو الرجل و المرأه أى من باب التغلب.

هذا و قد احتمل جماعه من المفسرين أن يكون الحكم الوارد فى هذه الآيه واردا فى مجال «اللواط»و اعتبروا الحكم فى الآيه السابقه واردا فى مجال «المساحقه»، و لكن رجوع الضمير فى «يأتيانها»إلى «الفاحشه»فى الآيه السابقه يفيد أن العمل المستلزم لهذا الحكم الصارم فى هذه الآيه هو من نوع العمل المذكور فى الآيه السابقه لا من نوع آخر، و لهذا فإن اعتبار أنّ هذه الآيه وارده فى شأن اللوط، و الآيه السابقه وارده فى شأن المساحقه خلاف الظاهر، (و إن كان كلا العملين اللواط و المساحقه يشتركان فى عنوان كلى، و هو الميل إلى الجنس الموافق)و على هذا تكون كلتا الآيتين واردتين فى حدّ الزنا و حكمه.

هذا مضافا إلى أننا نعلم أنّ عقوبه «اللواط»فى الإسلام هو القتل و الإعدام و ليست الإيذاء و الجلد، و ليس ثمه أى دليل على انتساخ الحكم المذكور فى الآيه الحاضره.

ثمّ إنّ الله سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسأله التوبه و العفو عن مثل

هؤلاء العصاة، فيقول: فَإِنْ تَابُوا، وَأَصْلَحُوا، فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

و هذا التعليم هو فى الحقيقه يفتح طريق العوده و يرسم خط الرجعه لمثل هؤلاء العصاة، فإن على المجتمع الإسلامى أن يحتضن هؤلاء إذا تابوا و رجعوا إلى الطهر و الصواب و أصلحوا، و لن يطردوا من المجتمع بعد هذا بحجّه الفساد و الانحراف.

هذا و يستفاد من هذا الحكم أيضا-أنه يجب أن لا يعير العصاة الذين رجعوا إلى جاده الصواب و تابوا و أصلحوا على أفعالهم القبيحه السابقه، و أن لا يلاموا على ذنوبهم الغابره، فإذا كان الحكم الشرعى و العقوبه الإلهيه يسقطان بسبب التوبه و الإنابه، فإن من الأولى أن يغض الناس الطرف عن سوابقهم، و هذا بنفسه جار فى من نفذ فيه الحدّ الشرعى ثم تاب بعد ذلك، فإنه يجب أن تشمله مغفره المسلمين و عفوهم.

### **العقوبات الإسلاميه السهل الممتنع:**

قد يتساءل البعض أحيانا: لما ذا قرر الإسلام عقوبات صارمه، و أحكاما جزائيه قاسيه و ثقيه؟ فمثلا: لما ذا حكم بالحبس الأبدى أولا على الزانيه عن إحصان، ثم قوّر الحكم القتل و الإعدام فى شأنهما فى ما بعد، ألم يكن من الأفضل أن يتخذ الإسلام موقفا أكثر تسامحا و لينا تجاه هذه الأفعال، لتتعدل الجريمه و العقوبه و لا يرجح أحدهما على الآخر؟ غير أنّ العقوبات الإسلاميه و إن كانت تبدو فى الظاهر صعبه و قاسيه و ثقيه، إلا أنّ إثبات الجريمه فى الإسلام فى المقام ليس سهلا، أيضا فقد عين الإسلام و حدد لإثبات الجريمه شروطا لا تثبت-فى الأغلب-إلا إذا وقعت الجريمه علنا.

فمثلاً: تصعيد عدد الشهود في الزنا إلى الأربعة- كما في الآيه الحاضره- من الأمور الصعبه جداً بحيث لا يثبت بها إلا من كان مجرماً جسوراً جداً، ولا شك أن مثل هؤلاء لا بد أن ينالوا عقاباً ثقيلاً و قاسياً ليعتبر بهم الآخرون، فتطهر بذلك البيئه الاجتماعيه من لوث الفساد و الانحراف و التورط في الجريمة، كما أن المواصفات و الشروط المعتره في الشهود مثل رؤيه العمليه الجنسيه بعينها، و عدم الاكتفاء بالقرائن، و مثل الاتحاد في الشهاده و ما شاكل ذلك تجعل إثبات الجريمة أصعب جداً.

و بهذا الطريق جعل الإسلام احتمال التعرض لمثل هذه العقوبه القاسيه الثقيله نصيب عيني هذا النوع من المجرمين، و هو احتمال مهما كان ضعيفاً من شأنه أن يؤثر في ردع الأشخاص، و كبح جماحهم، و أمّا الدقه في كيفية إثبات هذه الجريمة، و التشدد في الشرائط التي اعتبرها في الشهاده و الشهود فهو لأجل أن لا تتسع دائره هذه الأعمال الخشنه، و لا يقتصر استعمال العقوبات الخشنه فيها على أقل الموارد، و في الحقيقه أراد الإسلام أن يحافظ على الأثر التهديدى لهذا القانون الجزائي من دون أن يعرض أفراداً كثيرين لعقوبه الإعدام من جانب آخر.

و نتيجة ذلك هي أنّ هذا الأسلوب الإسلامى في تعيين العقوبه و طريق إثبات الجريمة من أكثر الأساليب تأثيراً و نجاحاً في خلاص المجتمع من التورط في الآثام و المعاصى في حين لا- يتعرض لمثل هذه العقوبه أفراد كثيرين، و بهذا نصف هذا الأسلوب بالأسلوب «السهل الممتنع».



اشاره

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

التفسير

اشاره

شروط قبول التوبه:

في الآيه السابقه بين الله تعالى بصراحه مسأله سقوط العقوبه عن مرتكبي الفاحشه و معصيه الزنا إذا تابوا و أصلحوا، ثم عقب ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا مشيرا بذلك إلى قبول التوبه من جانب الله أيضا.

و في هذه الآيه يشير سبحانه إلى شروط قبول التوبه إذ يقول: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ .

و هنا يجب أن نرى ما ذا تعنى «الجهاله» هل هى الجهل و عدم المعرفه بالمعصيه، أم هى عدم المعرفه بالآثار السيئه و العواقب المؤلمه للذنوب و المعاصى؟

إنَّ كلمه الجهل و ما يشتق منها و إن كانت لها معان مختلفه، و لكن يستفاد من القرائن أنَّ المراد منها فى الآيه المبحوثه هنا هو طغيان الغرائز، و سيطره الأهواء الجامحه و غلبتها على صوت العقل و الإيمان، و فى هذه الصوره و إن لم يفقد المرء العلم بالمعصيه، إلاَّ - أنه حينما يقع تحت تأثير الغرائز الجامحه، ينتفى دور العلم و يفقد مفعوله و أثره، و فقدان العلم لأثره مساو للجهل عملاً.

و أما إذا لم يكن الذنب عن جهل و غفله، بل كان عن إنكار لحكم الله سبحانه و عناد و عداًء، فإن ارتكاب مثل هذا الذنب ينبئ عن الكفر، و لهذا لا تقبل التوبه منه، إلاَّ أن يتخلَّى عن عناده و عدائه و إنكاره و تمرده.

و

فى الحقيقه إنَّ هذه الآيه تبين نفس الحقيقه التى يذكرها الإمام السجاد عليه السلام فى دعاء أبى حمزه بيان أوضح إذ يقول: «إلهى لم أعصك حين عصيتك و أنا برؤيتك جاحد و لا بأمرك مستخف، و لا لعقوبتك متعرض، و لا لوعيدك متهاون، لكن خطيئه عرضت و سولت لى نفسى و غلبنى هواى».

ثمَّ إنَّ الله سبحانه يشير إلى شرط آخر من شروط قبول التوبه إذ يقول: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ .

هذا و قد وقع كلام بين المفسرين فى المراد من «قريب» فقد ذهب كثيرون إلى أنَّ معناه التوبه قبل أن تظهر آثار الموت و طلائعه، و يستشهدون لهذا الرأى بقوله تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ الَّذِي جَاءَ فِي مَطْلَعِ الْآيَةِ الْآلِاحِقَةِ، و يشير إلى أن التوبه لا تقبل إذ ظهرت علامات الموت.

و لعل استعمال لفظه «قريب» إنما هو لأجل أن نهايه الحياه الدنيويه مهما بعدت فهى قريبه.

و لكن بعض المفسرين ذهب إلى تفسير لفظه «من قريب» بالزمان القريب من وقت حصول المعصيه، فيكون المعنى أن يتوبوا فوراً، و يندموا على ما فعلوه

بسرعه، و يتوبوا إلى الله، لأن التوبه الكامله هي التي تغسل آثار الجريمه و تزيل رواسبها من الجسم و الروح بشكل مطلق حتى لا يبقى أى أثر منه فى القلب، و لا- يمكن هذا إلا- إذا تاب الإنسان و ندم قبل أن تتجذر المعصيه فى كيانها، و تتعمق آثارها فى وجوده فتكون له طبيعه ثانيه، إذ فى غير هذه الصوره ستبقى آثار المعصيه فى زوايا الروح الإنسانيه، و تعشعش فى خلايا قلبه، فالتوبه الكامله- إذن- هي التي تتحقق عقيب وقوع الذنب فى أقرب وقت، و لفظه «قريب» أنسب مع هذا المعنى من حيث اللغه و الفهم العرفى.

صحيح أن التوبه التي تقع بعد زمن طويل من ارتكاب المعصيه تقبل أيضا، إلا أنها ليست التوبه الكامله، و لعل التعبير بجمله «على الله» (أى على الله قبولها) كذلك إشاره إلى هذا المعنى، لأن مثل هذا التعبير لم يرد فى غير هذا المورد من القرآن الكريم، و مفهومه هو أن قبول التوبه القريبه من زمن المعصيه حق من حقوق العباد، فى حين ان قبول التوبه البعيده عن زمن المعصيه تفضل من الله و ليس حقا.

ثم أنه سبحانه- بعد ذكر شرائط التوبه- يقول: فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا مشيرا بذلك إلى نتيجه التوبه التي توفرت فيها الشروط المذكوره.

ثم يقول تعالى: وَ لَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ... و هو إشاره إلى من لا تقبل توبته.

و علّه عدم قبول هذا النوع من التوبه واضحه، لأن الإنسان عند الاحتضار فى رحاب الموت تنكشف له الأستار، فيرى ما لم يكن يراه من قبل، فهو يرى بعد انكشاف الغطاء عن عينيه بعض الحقائق المتعلقة بالعالم الآخر، و يشاهد بعينه نتائج أعماله التي ارتكبها فى هذه الدنيا، و تتخذ القضايا التي كان يسمع بها صفه

محسوسه، و في هذه الحالة من الطبيعي أن يندم كل مجرم على جرمه و أفعاله السيئه، و يفتر منها فرار الذي يرى اقتراب ألسنه اللهب من جسمه.

و من المسلم أن التكليف الإلهي و الإختيار الرباني للبشر لا يقوم على أساس هذا النوع من المشاهدات و المكاشفات، بل يقوم على أساس الإيمان بالغيب، و المشاهده بعيني العقل و القلب.

و لهذا نقرأ في الكتاب العزيز أن أبواب التوبه كانت تغلق في وجه بعض الأقسام العاصيه عند ظهور طلائع العذاب الدنيوي و النقمه العاجله، و للمثال نقرأ قول الله سبحانه عن فرعون إذ يقول: حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (١).

كما يستفاد من بعض الآيات القرآنيه (مثل الآيه ١٢ من سوره السجده) إن العصاه يندمون عند ما يشاهدون العذاب الإلهي في الآخره، و لكن لات حين مندم، فلا فائده لندمهم في ذلك الوقت، إن هؤلاء أشبه ما يكونون بالمجرمين الذين إذا شاهدوا أعواد المشنقه و أحسوا بالحبل على رقابهم ندموا على جرائمهم و أفعالهم القبيحه، فمن الواضح أن مثل هذه التوبه و هذا الندم لا يعد فضيله، و لا مفخره و لا تكاملا، و لهذا لا يكون أى تأثير.

على أن هذه الآيه لا تنافي الروايات التي نصت على إمكان قبول التوبه حتى عند اللحظه الأخيره من الحياه، لأن المراد في هذه الروايات هي اللحظات التي لم تظهر فيها بعد ملامح الموت و آثاره و طلائعه، و بعبارة أخرى لم تحصل لدى الشخص العين البرزخيه التي يقف بها على حقائق العالم الآخر.

هذا عن الطائفه الأولى الذين لا تقبل توبتهم، و هم من يتوبون عند ما تظهر أمام عيونهم ملامح الموت و تبدو عليهم آثاره.

ص: ١٥٦

و أما الطائفة الثانية الذين لا تقبل توبتهم فهم الذين يموتون كفارا، إذ يقول سبحانه: **وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارًا** .

و لقد ذكر الله سبحانه بهذه الحقيقه فى آيات أخرى فى القرآن الكريم (١) .

و هنا يطرح سؤال و هو: متى لا- تقبل توبه الذين يموتون كفارا؟ احتمال البعض أن لا- تقبل توبتهم فى العالم الآخر، و احتمال آخرون أن يكون المراد من التوبه- فى هذا المقام- ليس هو توبه العباد، بل توبه الله، يعنى عود الله على العبد و عفوه و رحمته له.

و لكن الظاهر هو أن الآيه تهدف أمرا آخر و تقول: إن الذين يتوبون من ذنوبهم حال العافيه و الإيمان و لكنهم يموتون و هم كفار لا تقبل توبتهم و لا يكون لها أى أثر.

و توضيح ذلك: إننا نعلم إن من شرائط قبول الأعمال «الموافقا على الإيمان» بمعنى أن يموت الإنسان مؤمنا، فالذين يموتون و هم كفار تحبط أعمالهم السابقه حتى الصالحه منها حسب صريح الآيات القرآنيه (٢) . و تنتفى فائده توبتهم من ذنوبهم حتى إذا تابوا حال الإيمان فى هذه الصوره أيضا.

و خلاصه القول إن قبول التوبه مشروط بأمرين.

الأول: أن تتحقق التوبه قبل أن يرى الشخص علائم الموت.

و الثانى: أن يموت و هو مؤمن.

ثم أنه يستفاد من هذه الآيه أيضا إن على الإنسان أن لا- يؤخر توبته، إذ يمكن أن يأتية أجله على حين غفله، فتغلق فى وجهه أبواب التوبه و لا يتمكن منها حينئذ.

و الملفت للنظر أن تأخير التوبه الذى يعبر عنه بالتسويق قد أورد فى الآيه

ص: ١٥٧

١-١) - آل عمران-٩١، البقره، ١٦١، البقره، ٢١٧، محمّد-٣٤.

٢-٢) - البقره، ٢١٧.

الحاضره بالموت حال الكفر، و هذا يكشف عن أهميه التسوييف و خطورته البالغه فى نظر القرآن.

ثم يقول سبحانه فى ختام الآيه: **أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**، و لا حاجه إلى التذكير بأن للتوبه مضافا إلى ما قيل شرائط اخرى  
مذكوره فى آيات مشابهه من الكتاب العزيز.

ص: ١٥٨

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَغْضٍ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَ  
عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)

سبب النزول

روى فى مجمع البيان عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «نزلت فى الرجل يحبس المرأة-من دون أن يعاملوها كالزوجه-عنده لا حاجه له إليها ينتظر موتها حتى يرثها»، أى فى أخذ أموالها من بعد وفاتها.

و روى عن ابن عباس أنّ الآيه الحاضره نزلت فى الذين أمهروا نساءهم بمهور كبيره ثمّ يحبسونهن من دون حاجه إليهن، و لا يطلقونهن لغلاء المهر و ثقله، و يؤذونهن حتى يقبلن بالطلاق بعد أن يتنازلن عن تلك المهور.

و قد روى جماعه من المفسرين سببا آخر لنزول هذه الآيه لا يناسب هذه الآيه، بل يناسب الآيه (٢٢) من هذه السوره، و سنذكر ذلك الرأى عند تفسير تلك الآيه بإذن الله تعالى.

## الدفاع عن حقوق المرأة أيضا:

قلنا فى مطلع تفسير هذه السوره أنّ آيات هذه السوره تهدف إلى مكافحه الكثير من الأعمال الظالمه و الممارسات المجحفه التى كانت رائجه فى العهد الجاهلى، و فى هذه الآيه بالذات أشير إلى بعض هذه العادات الجاهليه المقيته و حذر الله سبحانه فيها المسلمين من التورط بها، و تلك هى:

١- لا- تحبسوا النساء لثروا أموالهنّ، فلقد كانت إحدى العادات الظالمه فى الجاهليه- كما ذكرنا فى سبب نزول الآيه- أنّ الرجل كان يتزوج بالنساء الغنيات ذوات الشرف و المقام اللاتى لم يكن يحظين بالجمال، ثم كانوا يذرونهن هكذا فلا يطلقونهنّ، و لا يعاملونهنّ كالزوجات، بانتظار أن يمتن فيرثوا أموالهن، فقالت الآيه الحاضره: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا** و بهذا استنكر الإسلام هذه العاده السيئه.

٢- لا تضغطوا على أزواجكم ليهنّ لكم مهورهنّ، فقد كان من عادات الجاهليين المقيته أيضا أنّهم كانوا يضغطون على الزوجات بشى الوسائل و الطرق ليتخلين عن مهورهنّ، و يقبلن بالطلاق، و كانت هذه العاده تتبع إذا كان المهر ثقيلًا باهظًا، فمنعت الآيه الحاضره من هذا العمل بقولها: **وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَيَّ مَنَ الْمَهْرِ.**

و لكن ثمّ استثناء لهذا الحكم قد أشير إليه فى قوله تعالى فى نفس الآيه:

**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ**

و الفاحشه هى أن ترتكب الزوجه الزنا و تخون بذلك زوجها، وفى هذه الحاله يجوز للرجل أن يضغط على زوجته لتتنازل عن مهرها، و تهبه له و يطلقها عند ذلك، و هذا هو فى الحقيقه نوع من العقوبه، و أشبه ما يكون بالغرامه فى قبال ما ترتكبه هذه الطائفه من النساء.

هذا و المقصود من الفاحشه المبينه فى الآيه هل هو خصوص الزنا، أو كل



سلوك ناشز مع الزوج؟ فيه كلام بين المفسرين إلا أنه

روى فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام التصريح بأنه كل معصيه من الزوجه (1) (طبعاً يستثنى من ذلك المعاصى الطفيفه لعدم دخولها فى مفهوم الفاحشه التى تشير إلى أهميه المعصيه و خطرها، و الذى يتأكد بكلمه «ميينه»).

٣-عاشروهـن بالمعاشره الحسنه، و هذا هو الشىء الذى يوصى به سبحانه الأزواج فى هذه الآيه بقوله: **وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**، أى عاشروهـن بالعشره الإنسانيه التى تليق بالزوجه و المرأه، ثم عقب على ذلك بقوله: **فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**.

فحتى إذا لم تكونوا على رضا كامل من الزوجات، و كرهتموهنّ لبعض الأسباب فلا- تبادروا إلى الانفصال عنهن و الطلاق، بل عليكم بمداراتهنّ ما استطعتم، إذ يجوز أن تكونوا قد وقعتم فى شأنهنّ فى الخطأ و أن يكون الله قد جعل فيما كرهتموه خيراً كثيراً، و لهذا ينبغى أن لا تتركوا معاشرتهنّ بالمعروف و المعاشره الحسنه ما لم يبلغ السيل الزبى، و لم تصل الأمور إلى الحدّ الذى لا- يطاق، خاصّه و إن أكثر ما يقع بين الأزواج من سوء الظن لا يستند إلى مبرر صحيح، و أكثر ما يصدرونه من أحكام لا يقوم على أسس واقعیه إلى درجه أنهم قد يرون الأمر الحسن سيئاً و الأمر السيء حسناً فى حين ينكشف الأمر على حقيقه بعد مضى حين من الزمن، و شىء من المداراه.

ثم إنّه لا بدّ من التذكير بأن للخير الكثير فى الآيه الذى يبشر به الأزواج الذين يدارون زوجاتهنّ مفهومها واسعاً، و من مصاديقه الواضحه الأولاد الصالحون و الأبناء الكرام.

ص: ١٦١

## إشارة

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ وَآخُذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)

## سبب النزول

كان التقليد المتبع قبل الإسلام أنه إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته، ويتزوج بأخرى أن يتهم الزوجه الأولى بالزنا و الخيانه الزوجيه فرارا من دفع مهرها، أو يعمد إلى معاملتها بقسوه حتى ترد مهرها الذي قد أخذته من قبل إلى الرجل، ليستطيع أن يعطى ذلك المبلغ للزوجه الجديده التي يبغى الزواج بها، ويمهرها به.

فنزلت هذه الآيات تستنكر هذا العمل القبيح الظالم بشده، وتشجبهه و تقبحه و تدعو إلى إنصاف الأزواج و عدم ظلمهن في مهورهن.

## التفسير

نزلت الآيتان الحاضرتان لتحميا قسما آخر من حقوق المرأة، فقد جاءت الآيه الأولى تقول: وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ

فهى تخبر المسلمين-إذا عزموا على تطليق الزوجه و اختيار زوجه أخرى-أنه لا- يحق لهم أبدا أن يبخسوا من صداق الزوجه الأولى شيئا أو يستردوا شيئا من الصداق إذا كانوا قد سلموه إلى الزوجه مهما كان مقداره كثيرا و ثقيلًا، و الذى عبّر عنه فى الآيه بالقنطار، و القنطار- كما سبق يعنى المال الكثير و قد جاء فى المفردات للراغب: أن القنطار جمع القنطره، و القنطره من المال ما فيه عبور الحياه تشبيها بالقنطره (١).

لأن المفروض أن تطليق الزوجه الأولى-هنا- يتم لأجل مصلحه الزوج، و ليس لأجل انحراف الزوجه عن جاده العفاف و الطهر، و لهذا لا معنى لأن تهمل حقوقها القطعيه.

ثم إن الآيه تشير فى مقطعها الأخير إلى الأسلوب السائد فى العهد الجاهلى حيث كان الرجل يتهم زوجته بالخيانة الزوجيه لحبس الصداق عنها، إذ تقول فى استفهام إنكارى: أ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا أى هل تأخذون صداق الزوجه عن طريق بهتة، و اتهامه بالفاحشه، و هو إثم واضح و معصيه بينه، و هذا يعنى أن أصل حبس الصداق عن الزوجه ظلم و معصيه، و التوسل لذلك بمثل هذه الوسيله الأثيمه معصيه اخرى واضحة، و ظلم آخر بين.

ثم أضاف سبحانه- فى الآيه الثانيه من الآيتين الحاضرتين- و ضمن استفهام إنكارى بهدف تحريك العواطف الإنسانيه لدى الرجال بأنه كيف يحق لكم ذلك، و قد عشت مع الزوجه الأولى زمنا طويلا، و كانت لكم معهن حياه مشتركه، و اختليتم بهن و استمتع كل واحد منكما بالآخر كما لو كنتما روحا واحده فى جسمين، أ فبعد ما كانت بينكما هذه العلاقه الزوجيه الحميمه يحق لكم-أيها الأزواج- أن تبخسوا حق الزوجه الأولى؟ و قد لخص سبحانه كل هذه بقوله:

ص: ١٦٣

وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ (١) بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

أفصح أن تفعلوا ذلك و كأنكما غريبان لا رباط بينكما و لا علاقته؟ و هذا يشبه قولنا لمن عاشا صديقين حميمين زمنا طويلا ثم تنازعا: كيف تنازعا و قد كنتما صديقين حميمين سنوات طويلة و أعواما عديده؟ و فى الحقيقه أن ارتكاب مثل هذا الفعل فى حق الزوجه شريكه الحياه ما هو إلا ظلم للنفس.

ثم أنه سبحانه تعالى: وَ أَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا أَي كيف تبخسون الزوجه حقها فى الصداق و قد أخذت منكم -لدى عقد الزواج بينكما- ميثاقا غليظا و عهدا موثقا بأن تؤدوا إليهن حقوقهن كامله، فكيف تنتكرون لهذا الميثاق المقدس و هذا العهد المأخوذ منكم لها حاله العقد؟ ثم يجب أن نعرف أن الآيه الحاضره و إن وردت فى مقام تطليق الزوجه الأولى لغرض إحلال زوجه أخرى مكانها إلا- أنها لا- تختص بهذا المورد خاصه، بل تعم كل موارد الطلاق الذى يتم باقتراح من جانب الزوج و لا تكون لدى الزوجه رغبه فى الإفتراق، فإنه يجب على الزوج فى هذه الحاله أن يعطى الصداق بكامله إلى الزوجه إذا أراد أن يطلقها، و أن لا يسترد شيئا من الصداق إذا كان قد أعطاه إياها، سواء قصد أن يتزوج بامرأه أخرى أو لا.

و على هذا تكون عبارته: وَ إِنِ ارْتَدْتُمْ اسْتَبْدَالَ زَوْجٍ نَاضِرًا إِلَىٰ الْحَقِيقَةِ إِلَىٰ مَا كَانَ سَائِدًا فِى الْعَهْدِ الْجَاهِلِيِّ، و ليس له أى دخل فى أصل الحكم، فهو ليس قيدا.

على أنه ينبغى التنبيه أيضا إلى أن لفظه «استبدال» تعنى طلب البديل، و لهذا يكون قد أخذ فيها قيد الإراده، فإذا قرنت بكلمه «أردتم» فإنما ذلك لأجل التنبيه

ص: ١٦٤

١- ١) -الإفضاء أصله من الفضاء، و هو السعه، و بذلك يكون معنى الإفضاء إيجاد السعه، لأن الإنسان بسبب الاتصال و التعايش مع شخص آخر يكون و كأنه وسع دائره وجوده، و لهذا استعمل الإفضاء بمعنى الملامسه و الاتصال.

إلى نقطه فى المقام، و هى أنكم-عند تهيئه المقدمات و العزم على استبدال زوجه اخرى-يجب أن لا تبدأوا من المقدمات الغير المشروعه الظالمه،فتضيعوا مهر زوجتكم إذا أردتم زوجه أخرى.

ص: ١٦٥

### اشاره

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)

### سبب النزول

كانت العاده فى الجاهليه أنه إذا مات رجل و خلف زوجه و أولادا، و كان الأولاد من زوجه أخرى و رثوا زوجه أبيهم كما يرثون أمواله، أى أنه كان يحق لهم أن يتزوجوا بها أو يزوجوها لأحد، و أن يتصرفوا فيها كما يتصرفون فى المتاع و المال، و قد حدث مثل هذا-بعد ظهور الإسلام-لأحد المسلمين، فقد مات أحد الأنصار يدعى «أبو قيس» و خلف زوجه و ولدا من زوجه أخرى، فاقترح الولد عليها الزواج بها، فقالت تلك المرأة له: إنى أعتبرك مثل ابنى و أنت من صالحى قومك، و لكن

أتى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فاستأمره و استوضحه الحكم، فأنته فأخبرته. فقال لها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «ارجعى إلى بيتك» فأنزل الله هذه الآيه تنهى عن هذا النوع من النكاح بشده.

### التفسير

هذه الآيه-كما ذكرنا فى شأن النزول-تبطل عاده سيئه من العادات

الجاهليه المقيته فتقول: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ أَي لَا تَنْكِحُوا زَوْجَهُ أَبِيكُمْ.

و لكن حيث أنّ القانون لا يشمل ما سبق من الحالات الواقعه قبل نزول القانون عقب سبحانه على ذلك النهى بقوله: إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ .

ثمّ أنّه سبحانه لتأكيد هذا النهى يستخدم ثلاث عبارات شديده حول هذا النوع من الزواج و النكاح إذ يقول أولاً: إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ثمّ يضيف قائلاً:

وَمَقْتًا

أى عملاً منفراً لا تقبله العقول، و لا تستسيغه الطباع البشريه السليمه، بل تمقته و تكرهه، ثمّ يختم ذلك بقوله: وَ سَاءَ سَبِيلًا أَي أَنَّهَا عَادَهُ خَبِيثَهُ وَ سَلُوكَ شَائِنًا.

حتى أنّنا لنقرأ فى التاريخ أنّ الناس فى الجاهليه كانوا يكرهون هذا النوع من النكاح و يصفونه بالمقت، و يسمّون ما ينتج منه من ولد بالمقيت، أى الأولاد المبعوضين.

و من الواضح أنّ هذا الحكم إنّما هو لمصالح مختلفه و حكم متنوعه فى المقام، فإنّ الزواج بامرأه الأب هو من ناحيه يشبه الزواج بالأمّ، لأنّ امرأه الأب فى حكم الأمّ الثانيه، و من ناحيه أخرى اعتداء على حريم الأب و هتك له، و تجاهل لاحترامه.

مضافاً إلى أنّ هذا العمل يزرع عند أبناء الأب الميئ بذور النفاق بسبب النزاع على نكاح زوجته، و بسبب الاختلاف الواقع بينهم فى هذا الأمر (أى فى من يتزوج بها).

بل إنّ هذا النوع من النكاح يوجب الاختلاف و التنافس البغيض بين الأب و الولد، لأنّ هناك تنافساً و حسداً بين الزوجه الأولى و الزوجه الثانيه غالباً، فإذا تحقق هذا النكاح (أى نكاح زوجه الأب من جانب الولد) فى حياه الوالد (أى بعد طلاقها من الأب طبعاً) كان السبب فى الحسد واضحاً، لأنّ امرأه الأب

ستحظى بهذا الزواج منزله أرفع، ممّا يؤدي إلى تأجج نيران الحسد لدى الزوجه الاخرى أكثر، و أمّا إذا تحقق بعد وفاته فإنّه من الممكن أن يوجد لدى الابن نوعا من الحسد بالنسبه لأبيه.

هذا و ليس من المستبعد أن تكون التعابير الثلاثة الواردة في ذم هذا النوع من النكاح إشارات إلى هذه الحكم الثلاث لتحريم نكاح امرأه الأب على وجه الترتيب.

ص: ١٦٨



اشاره

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣)

التفسير

اشاره

تحريم الزواج بالمحارم:

في هذه الآيه أشار سبحانه إلى النساء اللاتي يحرم نكاحهنّ و الزواج بهنّ، و يمكن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسباب و هي:

١-الولادة التي يعبر عنها بالارتباط النسبي.

٢-الزواج الذي يعبر عنه بالارتباط السبي.

٣-الرضاع الذي يعبر عنه بالارتباط الرضاعي.

وقد أشار في البدايه إلى النساء المحرمات بواسطة النسب و هنّ سبع

طوائف إذ يقول حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ .

و يجب التنبية إلى أنّ المراد من «الأم» ليس هي التي يتولد منها الإنسان دونما واسطه فقط، بل يشمل الجدّه من ناحيه الأب و من ناحيه الأمّ و إن علون، كما أنّ المراد من البنت ليس هو البنت بلا-واسطه، بل تشمل بنت البنت و بنت الابن و أولادهما و إن نزلن، و هكذا الحال في الطوائف الخمس الاخرى.

و من الواضح جدّاً أنّ الإنسان يبغض النكاح و الزواج بهذه الطوائف من النسوة، و لهذا تحرمه جميع الشعوب و الجماعات (إلا من شدّ و هو قليل)، و حتى المجوس الذين كانوا يجوزون هذا النوع من النكاح في مصادرهم الأصليه ينكرونه و يشجبونه اليوم، و إن حاول البعض أن يردّ هذه المبعوضيه إلى العاده و التقليد القديم، و لكن عموميه هذا القانون و شيوعه لدى جميع أفراد البشر و طوائفه و في جميع القرون و الأعصار تحكى-عاده-عن فطريه هذا القانون، لأن التقليد و العاده لا يمكن أن يكون أمرا عاقما و دائما.

هذا مضافا إلى أنّ هناك حقيقه ثابتة اليوم، و هي أنّ الزواج بين الأشخاص ذوى الفئه المشابهه من الدم ينطوى على أخطار كثيره، و يؤدي إلى انبعاث أمراض خفيه و موروثه، و تشددها و تجددتها (لأنّ هذا النوع من الزواج يولد هذه الأمراض، بل يساعدها على التشدد و التجدد و الانتقال) إلى درجه أنّ البعض لا يستحسن حتى الزواج بالأقرباء البعيدين (فضلا عن المحارم المذكوره هنا) مثل الزواج الواقع بين أبناء و بنات العمومه (1) و يرون أنّه يؤدي هو الآخر أيضا إلى أخطار تصاعد الأمراض الوارثيه.

ص: ١٧٠

١ - ١) - طبعاً إنّ الإسلام لم يحرمّ الزواج بين أبناء و بنات العمومه، لأنّ هذا النوع من الزواج ليس مثل الزواج بالمحارم في الخطوره، و احتمال ظهور مثل هذه الحوادث الخطيره في هذا النوع من الزواج أقل، و قد لا حظنا بأنفسنا موارد و نماذج عديده من نتائج هذا النوع من الزواج حيث يكون الأولاد-في هذه الحاله- أكثر سلامه و أفضل فكرا و موهبه من غيرهم.

إلا أن هذا النوع من الزواج إذا لم يسبب أيه مشكله لدى الأقرباء البعيدين (كما هو الغالب) فإنه لا شك يسبب مضاعفات خطيره لدى الأقرباء القريبين الذين تشتدّ عندهم ظاهره وحده الدم و تشابهه.

هذا مضافا إلى ضعف الرغبه الجنسيه و التجاذب الجنسي لدى المحارم عاده، لأنّ المحارم-في الأغلب- يكبرون معا، و يشبّون معا، و لهذا لا- ينطوى الزواج فيما بينهم على عنصر المفاجأه و صفه العلاقه الجديده، لأنّهم تعودوا على التعامل فيما بينهم، فلا يكون أحدهم جديدا على الآخر، بل العلاقه لديهم علاقه عاديه و رتيبه، و لا يمكن أن يكون بعض الموارد النادره مقياسا لانتزاع القوانين الكليه العامه أو سببا لنقض مضاداتها، و نحن نعلم أن التجاذب الجنسي شرط أساسى لدوام العلاقه الزوجيه و استمرار الرابطه العائليه، و لهذا إذا تمّ التزاوج بين المحارم فإن الرابطه الزوجيه الناشئه من هذا الزواج ستكون رابطه ضعيفه مهزوزه و قصيره العمر.

وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعِ

يشير الله سبحانه في هذه الآيه إلى المحارم الرضاعيه و القرآن و إن اقتصر في هذا المقام على الإشاره إلى طائفتين من المحارم الرضاعيه، و هى الأم الرضاعيه و الأخت الرضاعيه فقط، إلا أنّ المحارم الرضاعيه- كما يستفاد من روايات عديده- لا تنحصر في من ذكر في هذه الآيه، بل تحرم بالرضاعه كل من يحرم من النساء بسبب «النسب» كما يصرّح بذلك الحديث المشهور

المروى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» (1).

على أن بيان مقدار الرضاع الموجب للحرمة و الشروط و الكيفيه المعتبره فيه، و غير ذلك من التفاصيل و الخصوصيات متروك للكتب الفقيهيه.

و فلسفه حرمة الزواج بالمحارم الرضاعيه هى، أن نشوء و نبات لحم المرتضع

ص: ١٧١

و عظمه من لبن امرأه معينه تجعله بمشابه ابنها الحقيقي، فالمرأه التي ترضع طفلا- مقدارا معيناً من اللبن ينشأ و ينبت معه و منه للطفل لحم و عظم، فإنّ هذا النوع من الرضاع يجعل الطفل شبيهاً بأبنائها و أولادها لصيرورته جزء من بدنها كما هم جزء من بدنها، فإذا هم جميعاً (أى الأخوه الرضاعيون و الأخوه النسيون كأنهم أخوه بالنسب).

ثم إنّ الله سبحانه يشير- فى المرحله الأخيره- إلى الطائفة الثالثه من النسوة اللاتى يحرم الزواج بهنّ و يذكرهنّ ضمن عدّه عناوين:

١- وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ يعنى أن المرأه بمجرّد أن تتزوج برجل و يجرى عقد النكاح بينهما تحرم أمها و أم أمها و إن علون على ذلك الرجل.

٢- وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ يعنى أنّ مجرّد العقد على امرأه لا يوجب حرمة نكاح بناتها من زوج آخر على زوجها الثانى، بل يشترط أن يدخل بها أيضاً مضافاً على العقد عليها.

إنّ وجود هذا القيد فى هذا المورد دَخَلْتُمْ بِهِنَّ يؤيد كون حكم أمّ الزوجه الذى مرّ فى الجملة السابقه وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ غير مشروط بهذا الشرط، و بعبارته أخرى إن هذا القيد هنا يؤيد و يؤكّد إطلاق الحكم هناك، فتكون النتيجة أن بمجرّد العقد على امرأه تحرم أمّ تلك المرأه على الرجل و إن لم يدخل بتلك المرأه، لخلو ذلك الحكم من القيد المشروط هنا فى مورد الرّبيبه.

ثمّ أنّ قيد فى حُجُورِكُمْ و إن كان ظاهره يفهم منه أنّ بنت الزوجه من زوج آخر إذا لم ترب فى حجر الزوج الثانى لا- تحرم عليه، و لكن هذا القيد بدلاله الروايات، و قطعيه هذا الحكم- ليس قيدياً احترازياً- بل هو فى الحقيقة إشاره إلى نكته التحريم- لأنّ أمثال هذه الفتيات اللاتى تقدم أمهاتها على زواج آخر، هنّ فى الأغلب فى سنين متدنيه من العمر، و لذلك غالباً ما يتلقين نشأتهنّ و تربيتهنّ فى حجر الزوج الجديد مثل بناته، فالآيه تقول إنّ بنات نساءكم من غيركم

كبناتكم أنفسكم، فهل يتزوج أحد بابنه نفسه؟ و اختيار وصف الرئائب التي هي جمع الربيبه (لتربيه الزوج الثانى إياها فهي مربوبته) إنما هو لأجل هذا.

ثم يضيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلا: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَي إِذَا لَمْ تَدْخُلُوا بِأَمِّ الرُّبَيْبِ جاز لكم نكاح بناتهن.

٣- وَ حَلَائِلُ (١) أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَضْرَابِكُمْ و المراد من حلائل الأبناء زوجاتهم، و أما التعبير ب«من أصلابكم» فهو فى الحقيقة لأجل أن هذه الآيه تبطل عادة من العادات الخاطئه فى الجاهليه، حيث كان المتعارف فى ذلك العهد أن يتبنى الرجل شخصا ثم يعطى للشخص المتبنى كل أحكام الولد الحقيقى، و لهذا كانوا لا- يتزوجون بزوجات هذا النوع من الأبناء كما لا يتزوجون بزوجه الولد الحقيقى تماما، و التبنى و الأحكام المرتبه عليها لا أساس لها فى نظر الإسلام.

٤- وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ يعنى أنه يحرم الجمع بين الأختين فى العقد، و على هذا يجوز الزواج بالأختين فى وقتين مختلفين و بعد الانفصال عن الأخت السابقه.

و حيث أن الزواج بأختين فى وقت واحد كان عادة جاريه فى الجاهليه، و كان ثمه من ارتكبوا هذا العمل فإن القرآن عقب على النهى المذكور بقوله: إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ يعنى إن هذا الحكم كالأحكام الاخرى لا يشمل الحالات السابقه، فلا يؤاخذهم الله على هذا الفعل و إن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الأختين، و يفارقوا الاخرى، بعد نزول هذا الحكم.

ص: ١٧٣

١- ١) -الحلائل جمع الحليله، و هى من ماده حل، و هى بمعنى المحلله، أى المرأه التى تحل للإنسان، أو من ماده حلول معنى المرأه التى تسكن مع الرجل فى مكان واحد و تكون بينهما علاقته جنسيه، لأن كل واحد منهما يحل مع الآخر فى الفراش.

يبقى أن نعرف أن سرّ تحريم هذا النمط من الزواج (أى التزوج بأختين فى وقت واحد) فى الإسلام لعلّه أن بين الأختين بحكم ما بينهما من نسب و رابطة طبيعیه-علاقه حبّ و موّدّه، فإذا أصبحتا متنافستين فى ظل الانتماء إلى زوج واحد لم يمكنهما الحفاظ على تلك المودّه و المحبّه و العلاقة الوديه بطبيعته الحال، و بهذه الصوره يحدث هناك تضاد عاطفى فى وجود كل من الأختين يضرّ بحياتهما، لأن كلّ واحد منهما ستعانى حينئذ و بصوره دائميه من صراع حالتين نفسيّتين متضادتين هما دافع الحب، و غريزه التنافس، و هو صراع نفسى مقيت ينطوى على مضاعفات خطيره لا تحمد عقباها.

ثمّ إن بعض المفسّرين احتمل أن تعود جملة <sup>□</sup>إلاّ ما قد سلفَ إلى كل المحارم من النسوة اللاتى مرّ ذكرهنّ فى مطلع الآيه فيكون المعنى: إذا كان قد أقدم أحد فى الجاهليه على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهنّ لم يشمله حكم تحريم الزواج بهنّ هذا، و كان ما نتج من ذلك الزواج الذى حرم فى ما بعد من الأولاد شرعيين، و إن وجب عليهم بعد نزول هذه الآيه أن يتخلوا عن تلكم النساء، و يفارقوهنّ.

و تناسب خاتمه هذه الآيه أعنى قوله سبحانه و تعالى: <sup>□</sup>إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا هذا المعنى الأخير.

اشاره

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنَاتٍ مِنْ غَيْرِ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)

التفسير

اشاره

هذه الآيه تواصل البحث السابق حول النساء اللاتي يحرم نكاحهنّ و الزواج بهنّ و تضيف قائله:

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ

أى و يحرم الزواج بالنساء، اللاتي لهنّ أزواج.

و المحصنات جمع المحصنه و هى مشتقه من «الحصن»، و قد أطلقت على المرأه ذات الزوج لأنها بالزواج برجل تكون قد أحصنت فرجها من الفجور، و كذا أطلقت على النساء العفيفات النقيات الجيب، أو اللاتي يعشن فى كنف رجل و تحت كفالته و بذلك يحفظن أنفسهنّ و يحصنها من الفجور و الزنا.

و قد تطلق هذه اللفظه على الحرائر مقابل الإماء، لأن حريتهنّ تكون بمشابه حصن يحفظهنّ من أن يتجاوز حدوده أحد دون إذنهنّ، إلا أنه من الواضح أن

المراد بها فى الآيه الحاضره هو ذوات الأزواج.

إن هذا الحكم لا يختص بالنساء المحصنات المسلمات، بل يشمل المحصنات حتى غير المسلمات، أى أنه يحرم الزواج بهنّ مهما كان دينهنّ.

نعم يستثنى من هذا الحكم فقط النساء المحصنات الكتائيات اللاتى أسرهنّ المسلمون فى الحروب، فقد اعتبر الإسلام أسرهنّ بمثابه الطلاق من أزواجهنّ، و أذن أن يتزوج بهنّ المسلمون بعد انقضاء عدتهنّ (1) أو يتعامل معهنّ كالإماء كما قال سبحانه: **إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**.

و لكن هذا الاستثناء (استثناء منقطع يعنى أن هذه النساء المحصنات اللاتى وقعن أسيرات فى أيدي المسلمين لا يعتبرن محصنات لأن علاقتهنّ بأزواجهنّ قد انقطعت بمجرد وقوعهنّ أسيرات، تماما كما تنقطع علاقه النساء غير المسلمات بأزواجهنّ باعتناقهنّ الإسلام فى صورته استمرار الزوج السابق على كفره، فيمكن فى مصاف النساء المجردات من الأزواج (أى غير المحصنات).

و من هنا يتضح أنّ الإسلام لا يسمح مطلقا بأن يتزوج المسلمون بالنساء المحصنات حتى الكتائيات و غيرهنّ من أهل الديانات الاخرى، و لهذا قرّر لهنّ العده، و منع من الزواج بهنّ فى تلك الفتره.

و فلسفه هذا الحكم تتمثل فى أن هذا النوع من النساء إمّا يجب أن تعاد إلى دار الكفر، أو يبقين هكذا بدون زوج بين المسلمين، أو تقطع علاقتهنّ بالزوج السابق، و يتزوجن من جديد بزواج آخر، و حيث أن صورته الأولى تخالف الأسس التربويه الإسلاميه، كما أن صورته الثانيه عمليه ظالمه، و لهذا لا تبقى إلا صورته واحده و هى صورته الثالثه.

و يظهر من بعض الروايات التى ينتهى إسنادها إلى أبى سعيد الخدرى أنّ

ص: ١٧٦

---

١- (١) - مقدار عدتهن حيضه واحده أو وضع حملهن إذا كن حبالى.



الآية نزلت في سبايا غزوه أوطاس (١) و أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ سمح للمسلمين بأن يتزوجوا بهن بعد التأكد من كونهنّ غير حبالى أو يعاملن كما تعامل الأمه، و هو يؤيد الصورة الثالثة التى أشرنا إليها فى ما سبق.

ثمّ أن الله سبحانه أكد هذه الأحكام الواردة فى شأن المحارم من النساء و من شابههنّ حيث قال: **كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** و على هذا لا يمكن تغيير هذه الأحكام أو العدول عنها أبداً.

ثمّ إنّه يشير سبحانه إلى حلّيه الزواج بغير هذه الطوائف من المذكورات فى هذه الآية و الآيات السابقة إذ يقول: **وَ أَجَلَ لَكُمْ** مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُخَصَّيْنٍ غَيْرِ مُسَافِحِينَ أى أنّه يجوز لكم أن تتزوجوا بغير هذه الطوائف من النساء شريطة أن يتم ذلك وفق القوانين الإسلاميه و أن يرافق مبادئ الفقه و الطهر و يتعد عن جاده الفجور و الفسق.

و على هذا يكون معنى «محصنين» فى الآية و الذى هو إشاره إلى حال الرجال هو «عفيفين»، و عبارته «غير مسافحين» تأكيد لهذا الوصف، لأن السفاح (الذى هو وزن كتاب) يعنى الزنا و أصله من السفح و هو صب الماء أو الأعمال العابثه و الأفعال الطائشه و حيث أنّ القرآن يستخدم فى مثل هذه الموارد- الكنايات يكون المراد من السفاح الزنا و اللقاء الجنى غير المشروع.

و جملة أنّ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ إشاره إلى أنّ العلاقة الزوجيه إمّا يجب أن تتمّ من خلال الزواج مع دفع صداق و مهر، أو من خلال تملك أمه فى لقاء دفع قيمتها (٢) .

كما أن عبارته «غير مسافحين» فى الآية الحاضره لعلها إشاره إلى حقيقه أنّ

ص: ١٧٧

١- ١) - أوطاس منطقه وقعت فيها إحدى المعارك الإسلاميه و هو واد فى ديار بنى هوازن.

٢- ٢) - لقد بحثنا بالتفصيل عن برنامج الإسلام حول تحرير العبيد و ما هناك من تخطيط دقيق فى النظام الإسلامى فى هذا المجال عند تفسير الآيات المناسبه فى سوره «محمد» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

الهدف من الزواج يجب أن لا- يكون فقط إطفاء الشهوة، و تلبية الرغبة الجنسية، بل الزواج قضيه حيويه هائمته تهدف غايه جد ساميه يجب أن تكون الغريزه الجنسيه فى خدمتها أيضا، ألا و هو بقاء النوع البشرى، و حفظه من التلوث و الانحراف.

## الزواج المؤقت فى الإسلام:

يقول سبحانه: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً** أى أنه يجب عليهم دفع أجور النساء اللاتى تستمتعون بهن، و هذا القسم من الآيه إشاره إلى مسأله الزواج المؤقت أو ما يسمّى بالمتعّه، و يستفاد منها أن أصل تشريع الزواج المؤقت كان قطعيًا و مسلما عند المسلمين قبل نزول هذه الآيه، و لهذا يوصى المسلمون فى هذه الآيه بدفع أجورهنّ.

و حيث أن البحث فى هذه المسأله من الأبحاث التفسيريه و الفقيهيه و الاجتماعيه المهمه جدا يجب دراستها من عدّه جهات هى:

١- القرائن الموجوده فى هذه الآيه التى تؤكّد دلالتها على الزواج المؤقت.

٢- إن الزواج المؤقت كان فى عصر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و لم ينسخ.

٣- الحاجه بل و الضروره الاجتماعيه إلى هذا النوع من الزواج.

٤- الإجابة على بعض الإشكالات.

و أمّا بالنسبه إلى النقطه الأولى فلا بدّ من الالتفات إلى أمور:

أولاً: إنّ كلمه المتعه التى اشتق منها لفظه «استمتعتم» تعنى الزواج المؤقت، و بعباره أخرى المتعه حقيقه شرعيه فى هذا النوع من الزواج، و يدل على ذلك أن هذه الكلمه استعملت فى هذا المعنى نفسه فى روايات النبى الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم و كلمات الصحابه مرارا و تكرارا (١).

ص: ١٧٨

---

١- ١) - راجع كتاب كثر العرفان و تفسير مجمع البيان و تفسير نور الثقلين و البرهان، و الغدير، ج ٦.

ثانياً: إنَّ هذه اللفظة إذا لم تكن بالمعنى المذكور يجب أن تفسّر حتماً بمعناها اللغوي و هو «الانتفاع» فيكون معنى هذا المقطع من الآية هكذا: «إذا انتفعت بالنساء الدائمات فادفعوا إليهنَّ أجورهنَّ» في حين أننا نعلم إن دفع الصداق و المهر غير مقيد و لا مشروط بالانتفاع بالزوجات الدائمات بل يجب دفع تمام المهر-بناء على ما هو المشهور (١) بين الفقهاء-أو نصفه على الأقل إلى المرأه بمجرد العقد للزوج الدائم عليها.

ثالثاً: إنَّ كبار «الصحابه» و «التابعين» (٢) مثل ابن عباس العالم (المفسّر الإسلامى الكبير) و أبى بن كعب، و جابر بن عبد الله الأنصارى، و عمران بن الحصين، و سعيد بن جبير، و مجاهد، و قتاده و السدى، و جماعه كبيره من مفسّرى أهل السنه، و جميع مفسّرى أهل البيت، فهموا من الآية الحاضره حكم الزواج المؤقت إلى درجه أن الفخر الرازى-رغم ما عهد عنه من التشكيك الكثير فى القضايا المرتبطه بالشيعة و عقائدهم قال بعد بحث مفصل: و الذى يجب أن يعتمد عليه فى هذا الباب أن نقول أنّها منسوخه و على هذا التقدير فلو كانت هذه الآية داله على أنها مشروعه لم يكن ذلك قادحا فى غرضنا، و هذا هو الجواب أيضا عن تمسكهم بقراءه أبى و ابن عباس فإن تلك القراءه بتقدير ثبوتها لا تدل إلا على أن المتعه كانت مشروعه، و نحن لا ننازع فيه، إنّما الذى نقوله أن النسخ طراً عليه (٣) .

رابعاً: اتفق أئمه أهل البيت عليهم السّلام و هم أعلم الناس بأسرار الوحى، على تفسير الآية المذكوره بهذا المعنى (أى بالزواج المؤقت) و قد وردت فى هذا الصعيد روايات كثيره منها.

ص: ١٧٩

١- ١) - المشهور أو الأشهر وجوب تمام المهر بمجرد عقد الزواج الدائم و إن كان الطلاق قبل الدخول يوجب إعادته نصفه إلى الزوج.

٢- ٢) - التابعون هم الذين جاؤوا بعد الصحابه و لم يدركوا عهد النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم.

٣- ٣) - التفسير الكبير، ج ١٠، ص ٥٣.

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المتعه نزل بها القرآن و جرت بها السنّه من رسول الله» (١).

و

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال في جواب سؤال أبي بصير حول المتعه: نزلت في القرآن فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً (٢).

و

عن الإمام الباقر عليه السلام أيضا أنه قال: في جواب عبد الله بن عمير الليثي الذي سأل عن المتعه: «أحلّها الله في كتابه و على لسان نبيّه فهي حلال إلى يوم القيامة» (٣).

### هل نسخ هذا الحكم؟:

لقد اتفق عامّه علماء المسلمين، بل قامت ضروره الدين على أنّ الزواج المؤقت (المتعه) كان أمرا مشروعاً في صدر الإسلام (و الكلام حول دلاله الآيه الحاضره على مشروعيه المتعه لا ينافي قطعيه وجود أصل الحكم لأنّ المخالفين يرون ثبوت مشروعيه هذا الحكم في السنه النبويه)، بل كان المسلمون في صدر الإسلام يعملوا بهذا الحكم، و العبارة المعروفه المرويّه عن عمر: «متعتان كانتا على عهد رسول الله و أنا محرمهما و معاقب عليهما، متعه النساء و متعه الحج» (٤) دليل واضح على وجود هذا الحكم في عصر النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، غاية ما في الأمر أن من خالف هذا الحكم ادعى أنّه قد نسخ في ما بعد، و حرم هذا النوع من الزواج.

و لكن الملفت للنظر هو أنّ الروايات الناسخه لهذا الحكم التي ادعوها مضطربه اضطرابا كبيرا، فبعضها يقول: إنّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم نفسه هو الذي نسخ هذا الحكم، و على هذا يكون الناسخ لهذا الحكم القرآني هو السنه النبويه، و بعضها

ص: ١٨٠

١-١) -نور الثقلين، ج ١، ص ٤٦٧، و تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٦٠.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -تفسير البرهان ذيل الآيه (و قد ورد هذا الحديث و الحديثان السابقان عليه في كتاب الكافي).

٤-٤) -كنز العرفان، ج ٢، ص ١٥٨، و لقد روى الحديث المذكور عن تفسير القرطبي و الطبري بعبارات تشابه العبارة أعلاه، كما أن هذا الحديث جاء في السنن الكبرى للبيهقي، ج ٧، كتاب النكاح.

يقول: إن ناسخه هو آية الطلاق إذ يقول سبحانه: إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ فِي حِينَ أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ لَا تَرْتَبِطُ بِالمسألة المطروحة في هذا البحث لأن هذه الآية تبحث في الطلاق، في حين أن الزواج المؤقت (أو المتعه) لا يترتب عليه طلاق، والإفتراق بين الطرفين في هذا الزواج يتم بانتهاء المدّة المقرره.

إن القدر المتيقن في المقام هو أن أصل مشروعيه هذا النوع من الزواج في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر قطعي و مفروغ عنه، وليس ثمة أى دليل يمكن الاطمئنان إليه و يثبت نسخ هذا الحكم، ولهذا فلا بد من أن نحكم ببقاء هذا الحكم، بناء على ما هو مقرر و ثابت في علم الأصول.

و العبارة المشهوره المرويّه عن «عمر» خير شاهد على هذه الحقيقه، و هي أنّ هذا الحكم لم ينسخ في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم...و إلخ.

ثم إن من البديهي أنه لا يحق لأحد إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينسخ الأحكام، فهو وحده يحق له -و بأمر من الله سبحانه و إذنه- أن ينسخ بعض الأحكام، و قد سد باب نسخ الأحكام بعد وفاه النبي تماما، و إلا لاستطاع كل واحد أن ينسخ شيئا من الأحكام الإلهيه حسب اجتهاده و مزاجه، و حينئذ لا يبقى شىء من الشريعه الخالده الأبدية، و هذا مضافا إلى أنّ الاجتهاد في مقابل النص النبوي لا ينطوي على أيه قيمه أبدا.

و الملفت للنظر أننا نقرأ في صحيح الترمذى الذى هو من صحاح أهل السنه المعروفه، و كذا عن الدارقطنى (١) أن رجلا من أهل الشام سأل «عبد الله بن عمر» عن التمتع بالعمره إلى الحج، فقال ابن عمر: حسن جميل، قال: فإن أباك كان ينهى عنها، فقال: ويلك فإن كان أبى نهى عنها و قد فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أمر به أفبقول أبى آخذ، أم بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قم عني (٢).

ص: ١٨١

١-١) -تفسير القرطبي، ج ٢، ص ٧٦٢، ذيل الآية (١٩٥) البقره.

٢-٢) -المراد من متعه الحج التي حرّمها عمر هو لو أننا صرفنا النظر عن حج التمتع، فإن حج التمتع عباره عن الأمر

و قد ورد نظير هذا الحديث و بنفس الصورة التي قرأتها حول زواج المتعه عن «عبد الله بن عمر» في صحيح الترمذى (١).

و جاء في كتاب «المحاضرات» للراغب أنّ رجلا- من المسلمين كان يفعلها (أى المتعه) ف قيل له: عمّن أخذت حلّها؟ فقال: عن عمر، فقالوا: كيف ذلك و عمر هو الذى نهى عنها و عاقب على فعلها؟ فقال: لقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله، و أنا أحرمهما و أعاقب عليهما متعه الحج و متعه النساء، فأنا أقبل روايته فى شرعيتها على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و ما أقبل نهيه من قبل نفسه (٢).

ثمّ إن هناك مطلبا آخر لا بدّ أن نذكر به هنا و هو أن الذين ادعوا نسخ هذا الحكم (أى انتساخه) قد واجهوا مشكلات عديدة.

أولا: أنّه صرّح فى روايات عديدة فى مصادر أهل السنه بأنّ هذا الحكم لم ينسخ فى عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أبدا، بل نهى عنه فى عهد عمر، و على هذا يجب على مدعى النسخ أن يجيبوا على هذه الروايات البالغه-عددا-عشرين روايه، جمعها العلامة الأمينى رحمه الله مفصله فى الجزء السادس من «الغدير» و ها نحن نشير إلى نموذجين منها.

١- روى فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنّه كان يقول: كنا نستمتع بالقبضه من التمر و الدقيق الأيام على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أبى بكر حتى -ثمّ- نهى عنه عمر فى شأن عمرو بن حريث (٣).

٢- و فى حديث آخر فى كتاب «الموطأ» لمالك و «السنن الكبرى» للبيهقى

(٢)

التالى: إن يحرم الشخص أولا-ثمّ بعد الإتيان بمناسك «العمره» يخرج من إحرامه (فيحلّ له كل شىء حتى الجماع) ثمّ يحرم من جديد ليؤدى مناسك الحج من تاسع ذى الحجه، و قد كان الناس فى الجاهليه يبتلون هذا العمل و يستغربون ممن يدخل مكّه أيام الحج ثمّ يأتى بالعمره و يخرج من إحرامه قبل أن يأتى بالحج، و لكن الإسلام أباح هذا و قد صرّح بهذا الأمر فى الآيه (١٨٦) من سوره البقره.

ص: ١٨٢

١- ١) - شرح اللمعه دمشقيه، ج ٢، كتاب النكاح.

٢- ٢) - كنز العرفان، ج ٢، ص ١٥٩ الهامش.

٣- ٣) - الغدير، ج ٦، ص ٢٠٥ و ٢٠٦.

روى عن «عروه بن زبير» إن خوله بنت حكيم دخلت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت: إن ربيعه بن أميه استمتع بامرأه مولده فحملت منه فخرج عمر رضى الله عنه يجرّ رداءه فرعا فقال: هذه المتعه لو كنت تقدمت فيه لرجمته، (أى أ منع منها من الآن) (١).

و فى كتاب «بدايه المجتهد» تأليف «ابن رشد الأندلسى» نقرأ أيضا أنّ جابر بن عبد الله الأنصارى كان يقول: تمتعنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أبى بكر و نصفا من خلافه عمر ثم نهى عنها عمر الناس (٢).

و المشكله الاخرى هى أنّ الروايات التى تتحدث عن نسخ حكم المتعه فى عهد رسول الله مضطربه و متناقضه جدّا، فبعضها يقول نسخ فى خيبر و بعضها يقول: نسخ يوم فتح مكّه، و بعض يقول: فى معركة تبوك و آخر يقول: يوم أوطاس و ما شابه ذلك، و من هنا يتبيّن إن هذه الأحاديث المشيره إلى النسخ موضوعه برمتها لما فيها من التناقض البين و التضارب الواضح.

من كل ما قلناه اتّضح أنّ ما كتبه صاحب تفسير المنار حيث قال: «و قد كُنّا قلنا فى (محاورات المصلح و المقلد) التى نشرت فى المجلدين الثالث و الرابع:

من المنار أن عمر نهى عن المتعه اجتهادا منه وافقه عليه الصحابه ثم تبين لنا أنّ ذلك خطأ فنستغفر الله منه» (٣).

إنّه حديث العصبية لأنّ هناك فى مقابل الروايات المتضاربه المتناقضه التى تتحدث عن انتساخ حكم المتعه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم روايات تصرّح باستمرار المسلمين على ممارسه هذا الأمر (أى المتعه) إلى عهد عمر، و على هذا ليس المقام مقام الاعتذار و لا الاستغفار، فالشواهد التى ذكرناها سابقا تشهد بأن

ص: ١٨٣

١-١) -الغدیر، ج ١، ص ٢٠٥ و ٢٠٦.

٢-٢) -بدايه المجتهد كتاب النكاح.

٣-٣) -تفسير المنار، ج ٥، ص ١٦.

كلامه الأوّل مقترن بالحقيقه و ليس كلامه الثّانى كذلك.

و لا يخفى أنّه لا «عمر» و لا أى شخصيه أخرى حتى أئمه أهل البيت عليهم السّلام و هم خلفاء النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بقادرين على نسخ أحكام ثبتت فى عهد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بل لا معنى للنسخ-أساسا-بعد وفاه النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و انسداد باب الوحي و انقطاعه، و حملهم كلام «عمر» على الاجتهاد مثير للعجب، لأنّه من «الاجتهاد» فى مقابل «النص».

و أعجب من ذلك أن جماعه من فقهاء السنه اعتبروا الآيات المرتبطه بأحكام الزواج مثل الآيه (٦) من سوره المؤمنين ناسخه لآيه المتعه، و كأنّهم تصوّروا أن زواج المتعه ليس زواجا أصلا، فى حين أنّه أحد أقسام الزواج.

### الزّواج المؤقت ضروره اجتماعيه:

إنّه قانون عام إن الغريزه البشريه الطبيعيه إذا لم تلّب بصوره صحيحه سلك الإنسان لإشباعها و تلبيتها طريقا منحرفا، لأن من الحقائق المسلمه غير القابله للإنكار أن الغرائز الطبيعيه لا يمكن أن يقضى عليها بالمرّه و حتى أننا إذا استطعنا أن نقضى عليها-افتراضا-لم يكن هذا العمل عملا صحيحا، لأنّه حرب على قانون من قوانين الخلقه.

و على هذا فإنّ الطريق الصحيح هو أن نشبع هذه الحاجه، و نلبي هذه الغريزه بطريقه معقوله، و أن نستفيد منها فى سبيل البناء.

على أننا لا يمكننا أن ننكر أنّ الغريزه الجنسيه هى إحدى أقوى الغرائز الإنسانيه إلى درجه أن بعض المحللين النفسانيين اعتبرها الغريزه الإنسانيه الأصليه التى إليها ترجع بقيه الغرائز الاخرى.

فإذا كان الأمر كذلك ينطرح سؤال فى المقام و هو أنّه قد يكون هناك من لا يمكنه-و فى كثير من الظروف و الأحوال-أن يتزوج بالزواج الدائم فى سن



خاص، أو يكون هناك من المتزوجين من سافر في رحله طويله و مهمه بعيده عن الأهل فيواجه مشكله الحاجه الجنسيه الشديده التي تتطلب منه التلبيه و الإرضاء.

خاصه و إنّ هذه المسأله قد اتّخذت في عصرنا الحاضر الذي أصبح فيه الزواج-بسبب طول مدّه الدراسه و بعد زمن التخرج و بعض المسائل الاجتماعيه المعقده التي قلّما يستطيع معها الشباب أن يتزوجوا في سن مبكره، أي في السن التي تعتبر فتره الفوران الجنسي لدى كل شاب-اتّخذت صفه أكثر عنفا و ضراوه، ترى ما الذي يجب عمله في هذه الحاله؟ هل يجب حثّ الناس على أن يقيموا هذه الغريزه (كما يفعل الرهبان و الراهبات)؟ أو أنّه يجب أن يفسح لهم المجال لأن يتحرروا جنسيا فيفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا، فتتكرر الصوره المقرفه؟ أو أن نسلك طريقا ثالثه تخلو عن مشاكل الزواج الدائم، كما و تخلو عن مفسد التحرر الجنسي أيضا؟ و خلاصه القول إن الزواج الدائم لم يكن لا في السابق و لا في الحاضر بقادر على أن يلبي كل الاحتياجات الجنسيه، و لا أن يحقق رغبات جميع الفئات و الطبقات في الناس، فنحن لذلك أمام خيارين لا ثالث لهما و هما: إمّا أن نسمح بالفحشاء و البغاء و نعترف به (كما هو الحال في المجتمعات الماديه اليوم حيث سمحوا بالبغاء بصوره قانونيه) أو أن نعالج المسأله عن طريق الزواج المؤقت (المتعّه) فما هو يا ترى جواب الذين يعارضون فكره البغاء، و فكره المتعّه، على هذا السؤال الملح؟ إنّ أطروحه الزواج المؤقت (المتعّه) ليست مقيده بشرائط النكاح الدائم لكي يقال بأنّها لا تنسجم و لا تتلاءم مع عدم القدره الماليه، أو لا تتلاءم مع ظروف

الدراسه، كما لا تنطوى على إضرار الفحشاء و البغاء و مفسده و ويلاتة.

### مؤاخذات على الزواج المؤقت:

نعم هناك مؤاخذات تؤخذ على الزواج المؤقت لا بد أن نذكرها هنا، و نجيب عليها باختصار.

١-ربما يقال: ما الفرق بين «الزواج المؤقت» و «الزنا»، أليس كلاهما بيع للجسد لقاء دفع مبلغ معين، و فى الحقيقة ليس وصف الزواج المؤقت سوى ستار على وجه الفحشاء و الزنا، نعم غايه الفرق بين الأمرين هو إجراء ما يسمّى بالصيغه، و هى ليست سوى عباره بسيطه.

و الجواب هو: إن الذين يرددون هذا الكلام كأنهم لم يطلعوا أصلا على مفهوم الزواج المؤقت و حقيقته، لأنّ الزواج المؤقت ليس عباره عن مجرد كلمتين تقال و ينتهى كل شىء، بل ثمة مقررات نظير ما فى الزواج الدائم، يعنى أن المرأه المتمتع بها تكون- طوال المده المضروبه فى الزواج المؤقت خاصه بالرجل المتمتع، ثمّ عند ما تنتهى المده المذكوره يجب على المرأه أن تعتد، يعنى أن تمتنع من الزواج مطلقا برجل آخر لمده خمس و أربعين يوما على الأقل، حتى يتبين أنّها حملت من الرجل الأول أو لا، على أنّها يجب أن تعتد حتى إذا توسلت بوسائل لمنع الحمل أيضا و إذا حملت من ذلك الرجل و أتت بوليد و جب أن يتكفله ذلك الرجل كما يتكفل أمر ولده من الزواج الدائم و يجرى عليه من الأحكام كل ما يجرى على الولد الناشئ من الزواج الدائم، فى حين أن الزنا و البغاء لا ينطوى على أى شىء من هذه الشروط و الحدود، فهل يمكن أن نقيس هذا الزواج بالبغاء؟ نعم إنّ بين الزواج المؤقت و الزواج الدائم بعض الفروق من حيث التوارث

بين الزوجتين (١) و النفقه و بعض الأحكام، و لكن هذه الفروق لا تسبب فى أن يجعل «الزواج المؤقت» فى رديف البغاء، خلاصه القول: إنَّ المتعه نوع من الزواج بمقررات الزواج و النكاح.

٢- إنَّ «الزواج المؤقت» يتيح لبعض الأشخاص من طلاب الهوى أن يسىء استعمال هذا القانون، و أن يرتكبوا كل فاحشه تحت هذا الستار لدرجه أن ذوى الشخصيات من الناس لا تقبل بمثل هذا الزواج، بل و تأنف منه كما أن ذوات الشخصيه من النساء يأتين ذلك أيضا.

و الجواب هو: أى قانون فى عالمنا الراهن لم يسأ استعماله؟ و هل يجوز أن نمنع من الأخذ بقانون تقتضيه الفطره البشريه و تمليه الحاجه الاجتماعيه الملحه بحجّه أن هناك من يسىء استعماله، أم أن علينا أن نمنع من سوء استخدام القانون الصحيح؟ لو أنّ البعض استغل موسم الحج لبيع المخدرات على الحجيج-افتراضا- فهل يجب أن نمنع من هذا التصرف الشائن، أم نمنع من اشتراك الناس فى هذا المؤتمر الإسلامى العظيم؟ و هكذا الأمر فى المقام، و إذا لا حظنا بعض الناس من ذوى الشخصيات يكره الأخذ بهذا القانون الإسلامى (أى الزواج المؤقت) لم يكشف ذلك عن عيب فى القانون، بل يكشف عن عيب فى العاملين به، أو بتعبير أصح: يكشف عن عيب فى الذين يسيئون استخدام القانون.

فلو أنّ الزواج المؤقت اتّخذ فى المجتمع المعاصر صورته الصحيحه، و قامت الحكومه الإسلاميه بتطبيقه على النحو الصحيح، و ضمن ضوابطه و مقرراته الخاصه به، أمكن المنع من سوء استخدام المستغلين لهذا القانون، كما لم يعد ذوو الشخصيات يكرهون هذا القانون و يرفضونه عند وجود ضروره

ص: ١٨٧

١-١) - طبعاً ليس هناك أى فرق بين أولاد الزواج المؤقت و أبناء الزواج الدائم من هذه النواحي.

٣- يقولون: إنَّ «الزواج المؤقت» يسبب في أن يحصل في المجتمع أطفال بلا-أسر، تماما كما يحصل من البغاء من الأولاد الغير الشرعيين.

و الجواب هو: إنَّ الإجابة على هذه المؤاخذه تتضح تماما ممَّا قلناه، لأنَّ الأولاد غير الشرعيين غير مرتبطين بأبائهم و لا أمهاتهم من الناحية القانونية، في حين إن الأولاد الناتجين من الزواج المؤقت لا يختلفون في أى شىء عن الأولاد الناشئين من الزواج الدائم حتى في الميراث و سائر الحقوق الاجتماعيه، و هذا الاعتراض نشأ من عدم الانتباه إلى هذه الحقيقه الساطعه في صعيد الزواج المؤقت.

### «راسل» و الزواج المؤقت:

في خاتمه هذا البحث من المفيد الإشاره إلى موضوع هام ذكره في هذا المجال العالم الإنجليزي المعروف «برتراندراسل» في كتابه: «الزواج و الأخلاق» تحت عنوان «زواج اختياري».

لقد كتب راسل بعد أن ذكر اقتراحا لأحد قضاة محاكم الشباب يدعى «بن بن بي ليندسى» في مجال «الزواج الودى أو الزواج الاختياري» قائلا: وفق هذا الاقتراح يجب أن يكون الشباب قادرين على أن يدخلوا في نوع جديد من الزواج يختلف عن الزواج المتعارف (الدائم) من ثلاث نواح:

أولا: أن لا يقصد الطرفان الحصول على أبناء، و لهذا يجب أن يتعرفوا على أفضل السبل لمنع الحمل.

و ثانيا: أن يتمّ الإفتراق بين الطرفين بأبسط الطرق و أسهلها.

و ثالثا: أن لا تستحق المرأة أى نفقه من الرجل بعد وقوع الإفتراق و الطلاق بينهما.

ثم إن راسل بعد أن يذكر خلاصه ما اقترحه «ليندسى» يقول: و إننى لأتصور أن مثل هذا الأمر لو اعترف به القانون لأقبل جمهور كبير من الشباب و خاصه الطلبة الجامعيين على الزواج المؤقت و لدخلوا فى حياه مشتركه مؤقتة، حياه تتمتع بالحريه، و خالصه من كثير من التبعات و العواقب السيئه للعلاقات الجنسيه الطائشه، الراهنه» (١).

إن هذا الطرح- كما تلاحظ أيها القارئ الكريم- حول الزواج المؤقت يشابه إلى حد كبير قانون الزواج المؤقت الإسلامى، غايه ما هنالك إن الشروط التى قررها الإسلام فى صعيد «الزواج المؤقت» أوضح و أكمل من نواحي كثيره مما اعتبر فى ذلك الطرح (الذى اقترحه ليندسى)، هذا مضافا إلى أن المنع من تكون الولد فى الزواج المؤقت الإسلامى غير محصور و إن الانفصال سهل، كما أنه لا تجب النفقه فى هذا الزواج على الرجل.

ثم إن الله سبحانه قال:- بعد ذكر وجوب دفع المهر- **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ وَ هُوَ بِذَلِكَ يَشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنَ التَّغْيِيرِ فِي مَقْدَارِ الصَّدَاقِ إِذَا تَرَاضَى طَرَفَا الْعَقْدِ، وَ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يَكُونُ الصَّدَاقُ نَوْعًا مِنَ الدَّيْنِ الَّذِى يَخْضَعُ لِلتَّغْيِيرِ مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ إِذَا تَرَاضِيَا.** (و لا فرق فى هذا الأمر بين العقد المؤقت و العقد الدائم و إن كانت الآيه الحاضره- كما شرحنا ذلك سلفا- تدور حول الزواج المؤقت).

ثم إن هناك احتمالا آخر فى تفسير الآيه أيضا و هو أنه لا مانع من أن يقدم الطرفان- بعد انعقاد الزواج المؤقت على تمديد مدّه هذا الزواج و كذا التغيير فى مقدار المهر برضا الطرفين، و هذا يعنى أن مدّه الزواج المؤقت قابله للتمديد حتى عند إشرافها على الانتهاء (أى قبيل انتهائها) بأن يتفق الزوجات أن يضيفا على المدّه المتفق عليها فى مطلع هذا الزواج، مدّه أخرى معينه لقاء إضافه مقدار معين

ص: ١٨٩

من المال إلى الصداق المتفق عليه أولاً (وقد أشير في روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا التفسير أيضا).

ثم أنه سبحانه قال: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يريد بذلك أن الأحكام المذكوره في هذه الآيه تتضمن خير البشريه و صلاحها و سعادتها لأن الله عليم بمصالحهم، حكيم في ما يقرره لهم من القوانين.

ص: ١٩٠

اشاره

وَمَنْ لَمْ يَشْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

التفسير

اشاره

التزويج بالإماء:

تعقيباً على الأبحاث السابقة المتعلقة بالزواج نزلت هذه الآية تبين شروط التزويج بالإماء، فتقول أولاً: وَمَنْ لَمْ يَشْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا (١) أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ أَي من لم يجد قدره ماليه على أن يتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، وليس لديه ما يقدر على

ص: ١٩١

١- ١) -«الطول» على وزن «نوع» مأخوذ من الطول (على وزن النور) بمعنى القدره و الإمكانيه الماليه و ما شابه ذلك.

مهرهنّ و نفقتهنّ، فإن له أن يتزوج ممّا ملكت أيمانكم من الإمام، فإن مهرهنّ أقل، و مؤونتهنّ أخفّ عادة.

على أنّ المراد من الأمه هنا هي أمه الغير، إذ لا يجوز لصاحب الأمه أن يتزوج بأمته و يتعامل معها كما يتعامل مع زوجته بشروط مذكوره فى الكتب الفقهيّه.

كما أن التعبير ب«المؤمنات» فى الآيه يستفاد منه أنّه يجب أن تكون «الأمه» التى يراد نكاحها مسلمه حتى يجوز التزوج بها، و على هذا لا يصح التزوج بالإماء الكتابيات.

ثمّ إنّ الملفت للنظر فى المقام هو أنّ القرآن عبر عن الإمام بالفتيات جمع فتاه، هو مشعر عاده بالاحترام الخاص الذى يولى للنساء، و هى تستخدم غالباً فى الشّابات من الإناث.

ثمّ إن الله سبحانه عقّب على هذا الحكم بقوله: **وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ** و يريد بذلك أنكم لستم مكلفين فى تشخيص إيمان الإمام -إلا بالظاهر، و أمّا الباطن فالله هو الذى يعلم ذلك، فهو وحده العالم بالسرائر، و المطلع على الضمائر.

و حيث إن البعض كان يكره التزوج بالإماء و يستنكف من نكاحهنّ قال تعالى: **بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** أى أنكم جميعاً من أب واحد، و أمّ واحده، فإذن يجب أن لا تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتى لا يختلفن من الناحيه الإنسانيه عنكم، و اللاتى يشبهنّ غيرهنّ من ناحيه القيمه المعنويه، فقيمتهنّ تدور مدار التقوى و الإيمان لا غير.

و خلاصه القول إنّ الإمام من جنسكم، و كلّكم كأعضاء جسم واحد.

نعم لا بدّ أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهنّ و إلاّ كان باطلاً، و إلى هذا أشار سبحانه بقوله: **فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ** و التعبير عن المالك بالأهل إنّما هو للإشاره إلى أنّه لا يجوز التعامل مع الإمام على أنّهنّ متاع أو بضاعه، بل يجب



أن يكون التعامل معهم على أنهم من أعضاء العائلة، فلا بد أن يكون تعاملنا إنسانيا كاملا.

ثم إنَّه سبحانه قال: وَآتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ و من هذه الجملة يستفاد أن الصِّدَاق الذى يعطى نهنَّ يجب أن يكون متناسبا مع شأنهن و مكاتتهن، و أن يعطى المهر لهنَّ، يعنى أن الامه تكون هى المالكه للصدّاق، و إن ذهب بعض المفسرين إلى أن فى الآيه حذفاً، أى أن الأصل هو (و آتوا مالكنَّ أجورهنَّ) غير أن التفسير لا يوافق ظاهر الآيه، و إن كانت تؤيده بعض الروايات و الأخبار.

هذا و يستفاد أيضا من ظاهر الآيه أنه يمكن للعبيد و الإماء أن يملكوا ما يحصلون عليه بالطرق المشروعه.

كما يستفاد من التعبير ب«المعروف» أنه لا يجوز أن تظلم الإماء فى تعيين مقدار المهر، بل هو حقهنَّ الطبيعى الحقيقى الذى يجب أن يعطى إليهنَّ بالقدر المتعارف.

ثم إن الله سبحانه ذكر شرطا آخر من شروط هذا الزواج، و هو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللاتى لم يرتكن البغاء إذ قال:

مُحْصَنَاتٍ

سواء بصوره علنيه غير مُسَافِحَاتٍ أو بصوره خفيه و لا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ (١) أى أصدقاء و أخلاء فى السرّ.

و يمكن أن يرد هنا سؤال هو أن النهى عن الزنا بلفظه غير مُسَافِحَاتٍ تكفى و تغنى عن النهى عن اتّخاذ الأخدان، فلما ذا الوصف الثانى أيضا؟ و يجاب على هذا: بأن البعض فى عهد الجاهليه- كان يرى أن المذموم فقط هو الزنا العلنى و السفاح الظاهر، و أمّا اتّخاذ الأخلاء و الرفاق أو الرفيقات فى

ص: ١٩٣

١- ١) -الأخدان جمع «خدن» و هى بمعنى الرفيق و الخل فى الأصل، و لكنها تستعمل عادة فى الأشخاص الذين يقيمون علاقات جنسيه غير مشروعه مع الجنس الآخر، و لا بدّ أن نعرف أن القرآن أطلق لفظه الخدن على المرأه كما أطلقها على الرجل.

السَّرِّ فلا بأس به، وبهذا يتضح سبب ذكر القرآن و تصريحه بكلا النوعين.

ثم إن الله سبحانه قال: فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشِهِ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .

و تتضمن الآيه بحثا حول عقوبه الإمام إذا خرج عن جاده العفه و الطهر، و ذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإمام، و بعض الأحكام حول حقوقهنّ.

و الحكم المذكور في هذا المجال هو أن الإمام إذا زنى فجزاؤهنّ نصف جزاء الحرائر إذا زنى، أى خمسون جلده.

ثم إن هاهنا نقطه جديره بالانتباه هي أن القرآن الكريم يقول في هذا المقام فَإِذَا أَحْصِنَ فيكون معناه أن الجزاء المذكور إنما يترتب على زنا الأمه إذا أحصنت، فماذا يعنى ذلك؟ لقد احتمل المفسرون هنا احتمالات عديدة، فبعضهم ذهب إلى أن المراد هو الأمه ذات بعل (و ذلك حسب الاصطلاح الفقهي المعروف و الآيه السابقه).

و ذهب آخرون إلى أن المراد هي الأمه المسلمه، بيد أن تكرار لفظه المحصنه مرتين في الآيه يقضى بأن يكون المعنى واحدا في المقامين، هذا من جهة، و من جهة أخرى فإن جزاء النساء المحصنات هو الرجم لا الجلد، فيتضح أن التفسير الأول و هو تفسير المحصنه بالأمه ذات بعل غير مقبول، كما أن التفسير الثاني و هو كون المراد من المحصنه هو المسلمه ليس له ما يدل عليه.

فالحق هو أن مجيء لفظه الْمُحْصِنَاتِ في القرآن الكريم بمعنى المرأه العفيفه الطاهره-على الأغلب-يجعل من القريب إلى النظر أن تكون لفظه المحصنه هنا في الآيه الحاضره مشيره إلى هذا المعنى نفسه، فيكون المراد أن الإمام اللاتي كن يرتكبن الفاحشه بضغط و إجبار من أوليائهنّ لا يجرى عليهنّ

الحكم المذكور (أى الجلد)، أما الإمام اللاتى لم يتعرضن للضغط و الإجبار، و يمكنهنّ أن يعشن عفيفات نقيات، فإنهنّ إذا أتبن بالفاحشه عوقبن كما تعاقب الحرائر و إن كانت عقوبه هذا النوع من الإمام على النصف من حدّ الحرائر فى الزنا.

ثمّ قال سبحانه معقبا على الحكم السابق: **ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ** و «العنت» (على وزن سند) يقال فى الأصل للعظم المجبور- بعد الكسر- إذا أصابه ألم و كسر آخر فهضّه قد أعتته، لأن هذا النوع من الكسر مؤلم جدّا، و لهذا يستعمل فى المشاكل الباهظه و الأعمال المؤلمه.

و يقصد الكتاب العزيز من العبارة الحاضره أنّ الزواج بالإمام إنّما يجوز لمن يعانى من ضغط شديد بسبب شدّه غلبه الغريزه الجنسيه عليه و لم يكن قادرا على التزوج بالحرائر من النساء، و على هذا الأساس لا يجوز الزواج بالإمام لغير هذه الطائفه.

و يمكن أن تكون فلسفه هذا الحكم فى أنّ الإمام خاصّه فى تلك العهود لم يحظين بتربيه جيده، و لهذا كن يعانين من نواقص خليه و نفسيه و عاطفيه، و من الطبيعى أن يتخذ الأطفال المتولدون من هذا الزواج صفه الأمهات و يكتسبوا خصوصياتهنّ الخليه، و لهذا السبب طرح الإسلام طريقه دقيقه لتحرير العبيد تدريجا حتى لا يبتلوا بهذا المصير السيء، و فى نفس الوقت فسح للأرقاء أنفسهم أن يتزوجوا فيما بينهم.

نعم، هذا الموضوع لا- يتنافى مع وضع بعض الإمام اللاتى حظين بوضع استثنائى و خاص من الناحيه الخليه و التربويه، فالحكم المذكور أعلامه يرتبط بأغلبيه الإمام، و كون بعض أمهات الأئمّه، من أهل البيت النبوى عليهم السّلام من الإمام هو من هذه الجهه، و لكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ ما قيل فى مجال الإمام من

«المنع فى غير الضروره» هو الزواج بهنّ، لا نكاحهنّ بسبب الملك، فإنّه لا مانع منه حتى فى غير الضروره.

ثمّ عقب سبحانه على ذلك بقوله: وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ أَى إن صبركم عن التزوج بالإماء ما استطعتم و ما لم تقعوا فى الزنا خير لكم و من مصلحتكم:

□  
وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أى يغفر الله لكم ما تقدم منكم بجهل أو غفله فهو رحيم بكم.

ص: ١٩٦

اشاره

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُبُلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَتُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ  
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)

التفسير

اشاره

هذه القيود لما ذا؟:

بعد أن بين الله سبحانه في الآيات السابقة ما هناك من شروط وقيود وأحكام مختلفه في مجال الزواج، يمكن أن ينقدح سؤال في ذهن البعض وهو: ما المقصود من كل هذه القيود ولما ذا الحدود القانونية؟ أ لم يكن من الأفضل أن تترك للأفراد الحريه الكامله في هذه المسائل، ليتاح لهم أن يستفيدوا من هذا الأمر و ليتعرفوا في هذا المجال كما يفعل عبده الدنيا حيث يتوسلون بكل وسيله في طريق اللذه؟ إن الآيات الحاضره هي في الحقيقه إجابته على هذه التساؤلات إذ يقول سبحانه: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُبُلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَتُتُوبَ عَلَيْكُمْ أَي أَنَّ اللَّهَ يَبِينُ لَكُمْ الْحَقَائِقَ بِوَاسِطَةِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ وَيَهْدِيكُمْ إِلَى مَا فِيهِ مَصَالِحُكُمْ،

مع العلم بأن هذه الأحكام لا تختص بكم، فقد سار عليها من سبقكم من أهل الحق من الأمم الصالحة، هذا مضافاً إلى أن الله تعالى يريد أن يغفر لكم و يعيد عليكم نعمه التي قطعت عنكم بسبب انحرافكم عن جاده الحق، و كل هذا إنما يكون إذا عدتم عن طريق الانحراف الذي سلكتموه في عهد الجاهليه و قبل الإسلام.

□  
وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

يعلم بأسرار الأحكام، و يشرعها لكم عن حكمه.

□  
ثم إن الله سبحانه أكد ما مرّ بقوله: وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا أَي أَنَّ اللَّهَ يريد بتشريع هذه الأحكام لكم أن يعيد عليكم نعمه التي قطعت و منعت عنكم بسبب ذنوبكم، و ارتكابكم للشهوات، و لكن الذين يريدون الانسياق وراء الشهوات الغارقين في الآثام و الذنوب يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق السعاده، إنهم يريدون أن تسايروهم في اتباع الشهوات و أن تنغمسوا في الآثار انغماساً كاملاً، فهل ترون- و الحال هذه- إن هذه القيود و الحدود الكفيله بضممان سعادتكم و خيركم و مصلحتكم أفضل لكم، أو الحريه المنفلته المقرونه بالانحطاط الخلقى، و الفساد و السقوط؟ إن هذه الآيات في الحقيقه تجيب على تساؤل أولئك الأفراد الذين يعيشون في عصرنا الحاضر أيضاً و الذين يعترضون على القيود و الحدود المفروضه في مجال القضايا الجنسيه، و تقول لهم: إن الحريات المطلقه المنفلته ليست أكثر من سراب، و هي لا تنتج سوى الانحراف الكبير عن مسير السعاده و التكامل الإنساني، و كما توجب التورط في المتاهات و المجاهل، و تستلزم العواقب الشريره التي يتجسد بعضها في ما نراه بأم أعيننا من تبعر العوائل، و وقوع أنواع الجريمه الجنسيه البشعه، و ظهور الأمراض التناسليه و الآلام الروحيه و النفسيه المقيته، و نشوء الأولاد غير الشرعيين حيث يكثر فيهم المجرمون القساه الجناه.

□  
ثم إنه سبحانه يقول بعد كل هذا: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسَانُ

و هذه الآيه إشاره إلى أنّ النقطه التاليه و هى أنّ الحكم السابق فى مجال حريه التزوج بالإماء بشروط معينه ما هو فى الحقيقه-  
إلاّ تخفيف و توسعه، ذلك لأنّ الإنسان خلق ضعيفاً، فلا بدّ و هو يواجه طوفان الغرائز المتنوعه الجامحه التى تحاصره و تهجم  
عليه من كل صوب و حذب أن تطرح عليه طرق و وسائل مشروعه لإرضاء غرائزه، ليتمكن من حفظ نفسه من الانحراف و  
السقوط.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَ ظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّيهِ نَارًا وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

التفسير

اشاره

سلامه المجتمع ترتبط بسلامه الاقتصاد:

الآيه الأولى من هاتين الآيتين تشكل- في الحقيقة- القاعده الأساسيه للقوانين الإسلاميه في مجال المسائل المتعلقة بالمعاملات و المبادلات الماليه» و لهذا يستدل بها فقهاء الإسلام في جميع أبواب المعاملات و المبادلات الماليه.

إن هذه الآيه تخاطب المؤمنين بقولها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَ هذا يعنى أن أى تصرف فى أموال الغير بدون حق أو بدون أى مبرر منطقى و معقول، ممنوع و محرم من وجهه نظر الإسلام، فقد أدرج الإسلام كل هذه الأمور تحت عنوان «الباطل» الذى له مفهوم واسع و كبير.

و الباطل كما نعلم يقابل «الحق» و هو شامل لكل ما ليس بحق و كل ما لا هدف له و لا أساس.



و في آيات أخرى من القرآن الكريم أكد هذا المعنى بعبارة شبيهة بالعبارة المذكورة في الآية الحاضرة، فعند ما يشنع على اليهود و يذكر أعمالهم القبيحة يقول: **وَ أَكَلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ (١)** و يقول في الآية (١٨٨) من سورة البقرة **لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ** كمقدمه للنهي عن جر الناس إلى المحاكم و أكل أموالهم بحجج واهيه غير منطقيه.

و على هذا الأساس يندرج تحت هذا العنوان الكلى كل لون من ألوان العدوان، و الغش، و جميع المعاملات الرّبويه، و المعاملات المجهوله الخصوصيات تماما، و تعاطى البضائع التى لا فائده فيها بحكم العقلاء، و التجاره بأدوات اللهو و الفساد و المعصيه و ما شاكل ذلك.

و تفسير بعض الروايات كلمه «الباطل» بالقمار و الرّبا و ما شابه ذلك إنّما هو فى الحقيقه من باب ذكر المصاديق الواضحه لهذا المفهوم، و ليس من باب الحصر و القصر.

و لعلنا لا نحتاج إلى التذكير بأنّ التعبير ب«الأكل» كناية عن كل تصرف، سواء تمّ بصوره الأكل المتعارف أو اللبس، أو السكنى أو غير ذلك، تعبير رائج فى اللغه العربيه و غير العربيه، غير غريب على الاستعمال.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول معقبا على العبارات السابقه: **إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ**.

و هذه العبارة استثناء من القانون الكلى، و هو بحسب الاصطلاح «استثناء منقطع» (٢) و هو يعنى إن ما جاء فى هذا العبارة لم يكن مشمولا للحكم السابق من الأساس، بل قد ذكر تأكيدا و تذكيرا، فهو فى حدّ ذاته قانون كلى، و ضابطه عامّه

ص: ٢٠١

١-١) - النساء، ١٦١.

٢-٢) - الاستثناء المنقطع يأتي غالبا- لتأكيد عموميه الحكم العام، و هو أمر صادق فى المقام، هذا مضافا إلى أنه يكشف عن هذه الحقيقه، و هى أن تحريم التصرفات الباطله لا يقفل عليكم أبواب الرزق و الحياه، بل فى إمكانكم أن تحققوا أهدافكم عن طريق التجاره المشروعه و الكسب المباح شرعا.

برأسها، لأنه يقول: إلا أن يكون التصرف في أموال الآخرين بسبب تجارته الحاصلة في ما بينكم، و التي تكون عن رضا الطرفين.

فبناء على هذا تكون جميع أنواع المعاملات الماليه و التبادل التجارى الرائج بين الناس- فى ما إذا تمّ برضا الطرفين و كان له وجه معقول- أمرا جائزا من وجهه نظر الإسلام (إلا الموارد التي ورد فيها نهى صريح لمصالح خاصه).

ثمّ أنّه تعالى ينهى فى ذيل هذه الآيه عن قتل الإنسان لنفسه إذ يقول: **وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** و ظاهر هذه الجملة بقرينه قوله: **إِنَّ اللَّهَ كَذَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** النهى عن الانتحار، يعنى أنّ الله الرحيم كما لا يرضى بأن تقتلوا أحدا، كذلك لا يسمح لكم و لا يرضى بأن تقتلوا أنفسكم بأيديكم، و قد فُشرت الآيه الحاضره فى روايات أهل البيت عليهم السلام بالانتحار أيضا (1).

و هنا يطرح سؤال و هو: أى ارتباط بين مسأله قتل الإنسان لنفسه، و«التصرف الباطل فى أموال الناس»؟ إنّ الجواب على هذا السؤال واضح تماما، و فى الحقيقه يشير القرآن بذكر هذين الحكمين بصوره متتاليه إلى نكته اجتماعيه مهمه، و هى أنّ العلاقات الاقتصاديه فى المجتمع إذا لم تكن قائمه على أساس صحيح، و لم يتقدم الإقتصاد الاجتماعى فى الطريق السليم، و وقع الظلم و التصرف العدوانى فى أموال الغير أصيب المجتمع بنوع من الانتحار، و آل الأمر إلى تصاعد حالات الانتحار الفردى مضافا إلى الانتحار الجماعى الذى هو من آثار الانتحار الفردى ضمنا.

إنّ الحوادث و الثورات التى تقع فى المجتمعات العالميه المعاصره خير شاهد و أفضل دليل على هذه الحقيقه، و حيث أنّ الله لطيف بعباده رحيم بخلقه فقد أنذرهم و حذرهم من مغبه الأمر، و حثهم على تجنب المبادلات الاقتصاديه

ص: ٢٠٢

(١-١) -راجع تفسير مجمع البيان، ذيل الآيه، و تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٧٢.

الماليه الغير الصحيحه، و أخطرهم بأن الإقتصاد المريض يؤدي بالمجتمع إلى السقوط و الانهيار، و الفناء و الاندحار.

كما حذر قائلاً: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصِيبُ بِهِ (١) نَارًا أَى أَنْ مَنْ يَعصى هذه الأحكام و يتجاهل هذا التحذير، و يأكل أموال الآخريين بالباطل و دون استحقاق، أو ينتحر بيديه لم يصبه العذاب الأليم فى الدنيا فحسب، بل ستصيبه نار الغضب الإلهى، و هذا أمر هين على الله: وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

ص: ٢٠٣

---

١ - ١) - «الصلى» يعنى فى الأصل الاقتراب إلى النار، و يطلق على التدفؤ و الاحتراق و الاكتواء بالنار أيضاً، و قد استعملت فى الآيه الحاضره فى معنى الاحتراق بالنار احتراقاً.

اشاره

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

التفسير

اشاره

المعاصي الكبيره و الصغيره:

هذه الآيه تقول بصراحه: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا .

و من هذا التعبير يستفاد أنّ المعاصي و الذنوب على قسمين:

القسم الأول: هو ما يسميه القرآن الكريم بالمعصيه الكبيره.

و القسم الثاني و هو ما يسميه القرآن الكريم بالسيئه.

و قد عرّف في الآيه (٣٢) من سوره النجم «باللمم» (١) بدلا عن السيئه، و في الآيه (٤٩) من سوره الكهف ذلك لفظه «الصّغيره» في مقابل الكبيره عند ما يقول:

لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .

و من التعابير المذكوره يثبت-بوضوح- أنّ الذنوب و المعاصي على صنفين محددتين، يعبر عنهما تارة بالكبيره و الصغيره، و تارة أخرى بالكبيره و السيئه،

ص: ٢٠٤

(١-١) -«اللمم»(على وزن القسم)تعني الأعمال الصغيره غير الهامه.

و ثالثه بالكبيره و«اللمم».

و الآن يجب أن نعرف ما هو الملاك و الضابطه فى تحديد الصّغيره و الكبيره.

يذهب البعض إلى أنّ هذين الوصفين من الأمور النسبيه، تكون كل معصيه بالنسبه إلى ما هو أكبر منها صغيره، و بالنسبه إلى ما هو أصغر منها كبيره (١).

و لكن من الواضح أنّ هذا المعنى لا يتجسم مع ظاهر الآيه الحاضره، لأنّ الآيه الحاضره تقسم الذنوب إلى صنفين مستقلين، و تعتبرهما نوعين متقابلين، و تعتبر الاجتناب عن صنف موجبا للعفو و التكفير عن الصنف الآخر.

و لكننا إذا راجعنا المعنى اللغوى للكبيره وجدنا أنّ الكبيره هى كل معصيه بالغه الأهميه من وجهه نظر الإسلام، و يمكن أن تكون علامه تلك الأهميه أن القرآن لم يكتف بالنهاى عنها فقط، بل أردف ذلك بالتهديد بعذاب جهنم، مثل قتل النفس و الزنا و أكل الربا و أمثال ذلك، و لهذا

جاء فى روايات أهل البيت عليهم السّلام:

«الكبائر التى أوجب الله عز و جل عليها النار»، و قد روى مضمون هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام، و الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام (٢).

و على هذا الأساس تسهل معرفه المعاصى الكبيره إذا أخذنا بنظر الإعتبار الضابطه المذكوره، و ما قد ذكر فى بعض الروايات من أنّ عدد الكبائر سبع و فى بعضها عشرون و فى بعضها سبعون لا ينافى ما ذكرناه قبل قليل، إذ أنّ بعض هذه الروايات يشير فى الحقيقه-إلى المعاصى الكبيره من الدرجه الأولى، و بعضها الآخر يشير إلى المعاصى الكبيره من الدرجه الثّانيه، و بعضها الثالث يشير إلى جميع الذّنوب الكبيره.

ص: ٢٠٥

١-١) - و قد نسب العلامه الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان هذا الإعتقاد إلى علماء الشيعة فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، فلكثير من علماء الشيعة رأى آخر سنأتى على ذكره بالتفصيل.

٢-٢) - نور الثقلين، ج ١، ص ٤٧٣.

## إشكال:

يمكن أن يقال أنّ هذه الآيه تشجع الناس على ارتكاب المعاصى و الذنوب الصغيره إذا، كأنّها تقول: لا بأس بارتكاب المعاصى الصغيره شريطه ترك الكبائر من الذنوب.

## الجواب:

إنّ الجواب على هذا الإشكال يتّضح من التعبير المذكور فى الآيه الحاضره، إذ يقول القرآن الكريم: **نُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** يعنى إنّ الاجتناب عن الذنوب الكبار، خصوصاً مع توفر أرضيه ارتكابها، يوجد حاله من التقوى الروحيه لدى الإنسان يمكنها أن تطهره من آثار الذنوب و المعاصى الصغيره.

و فى الحقيقه أنّ الآيه الحاضره تشبه الآيه (١١٤) من سوره هود التى تقول:

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ فهى إشاره إلى أحد الآثار الواقعيه للأعمال الصالحه و هو يشبه ما إذا قلن، إذا اجتنب الإنسان المواد السيئه الخطيره و توفرت له صحه جيده و مناعه قويه أمكنه أن يتخلص من الآثار السيئه لبعض الأطمعه غير المناسبه لسلامه مزاجه، و بسبب مناعته الجسميه.

و بتعبير آخر إنّ التكفير عن الذنوب الصغيره و غفرانها يعد نوعاً من «الأجر المعنوى» لتاركى المعاصى و الذنوب الكبيره، و لهذا- فى الحقيقه- أثر تشجيعى قوى على ترك الكبائر، محفز على اجتنابها.

## متى تنقلب الصّغيره إلى كبيره؟:

إلا أنّ هاهنا نقطه مهمه لا بدّ من الالتفات إليها، وهى أنّ المعاصى الصغيره تبقى صغيره ما لم تتكرر، هذا مضافاً إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور و طغيان، لأنّ الصغائر- كما يستفاد من الكتاب العزيز و الأحاديث الشريفه- تتبدل إلى الكبيره فى عدّه موارد هى:

١- إذا «تكررت الصغيره»،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا صغيره مع الإصرار».

٢- إذا استصغر صاحب المعصية معصيته و استحقرها،

فقد جاء في نهج البلاغه: «أشدُّ الذنوب ما استهان به صاحبه».

٣- إذا ارتكبها مرتكبها عن عناد و استكبار و طغيان و تمرد على أوامر الله تعالى، و هذا هو ما يستفاد من آيات قرآنيه متنوعه إجمالاً، من ذلك قوله تعالى:

فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ

(١)

٤- إن صدرت المعصية ممن لهم مكانه اجتماعيه خاصه بين الناس و ممن لا تحسب معصيتهم كمعصيه الآخرين، فقد جاء في القرآن الكريم حول نساء النبي صلى الله عليه و آله و سلم في سورة الأ-حزاب الآية (٣٠): يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، و

قد روى عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال:

(من سن سنه سيئه فعليه وزرها و وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً).

٥- أن يفرح مرتكب المعصية بما اقترفه من المعصية، و يفتخر بذلك كما

روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «من أذنب ذنباً و هو ضاحك دخل النار و هو باك».

٦- أن يعتبر تأخير العذاب العاجل عنه على المعصية دليلاً على رضاه تعالى، و يرى العبد نفسه محصناً من العقوبه آمنناً من العذاب، أو يرى لنفسه مكانه عند الله لا يعاقبه الله على معصيه لأجلها، كما جاء في سورة المجادله الآية (٨) حاكياً عن لسان بعض العصاه المغرورين الذين يقولون في أنفسهم: لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ، ثم يرد عليهم القرآن الكريم قائلاً: حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ (٢).

ص: ٢٠٧

١- (١) -النازعات، ٣٧-٣٩.

٢- (٢) -المحججه البيضاء، ج ٧، ص ٦١.

اشاره

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)

سبب النزول

قال المفسر الشهير الطبرسي رحمه الله في «مجمع البيان»: قيل أن أم سلمه (و هي من أزواج النبي صلى الله عليه وآله و سلم) قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث؟ فليتنا رجال ونغزو و نبلغ ما يبلغ الرجال، فنزلت الآية تعجب على جميع هذه التساؤلات.

و نقرأ في تفسير المنار: إن جماعه من الرجال المسلمين قالوا: نرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقالت جماعه من النساء المسلمات: إنا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا، فنزلت الآية.

و قد ذكر سبب النزول هذا بعينه في تفسير «في ظلال القرآن» و تفسير «روح المعاني» مع فارق بسيط.



لقد أوجب التفاوت في سهم الرجال و النساء من الإرث- كما قرأت في سبب النزول- تساؤلاً لدى البعض، و يبدو أنهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذا التفاوت إنما هو لأجل أن النفقه بكاملها على الرجل، و ليس على النساء شيء من نفقات العائله، بل نفقه المرأه هي الاخرى مفروضه على الرجل، و لهذا يكون ما تصيبه المرأه ضعف ما يصيبه الرجل من الثروه، و لهذا قال الله تعالى في هذه الآيه: **وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ**، لأنّ لكل نوع من أنواع هذا التفصيل و التفاوت أسرار خفيه عنكم غير ظاهره لكم، سواء كان التفاوت من جهه الخلقه و الجنسيه و بقيه الصفات الجسميه و الروحيه التي تشكل أساس النظام الاجتماعى فيكم، أو التفاوت من الناحيه الحقيقه بسبب اختلاف الموقع و المكانه كالتفاوت في سهم الإرث، إنّ جميع أنواع هذا التفاوت قائم على أساس العدل و القانون الإلهى الحكيم، و لو كانت مصلحتكم في غير ذلك لسنّه و بينه لكم.

و على هذا فإنّ تمنى تغيير هذا الوضع نوع من المخالفه للمشيئه الربانيه التي هي عين الحق و العداله.

على أنّه يجب أن لا نتصور خطأ أنّ الآيه الحاضره تشير إلى التفاوت المصطنع الذى برز نتيجة الاستعمار و الاستغلال الطبقي، بل تشير إلى الفروق الطبيعیه الواقعيه، لأنّ الفروق المصطنعه لا هي من المشيئه الإلهيه فى شيء، و لا أن تمنى تغييرها مرفوض و غير صحيح، بل هي فروق ظالمه و غير منطقيه يجب السعى فى رفعها و إزالتها و تنفيذها، فللمثال: لا يمكن للنساء أن يتمنين أن يكنّ رجالاً، كما لا يمكن للرجال أن يتمنوا أن يكونوا نساء، لأنّ وجود هذين الجنسين أمر ضرورى للنظام الاجتماعى الإنسانى، و لكن هذا التفاوت الجنسى يجب أن لا يتخذ ذريعه، لأنّ يسحق أحد الجنسين حقوق الجنس الآخر، و من هنا فإنّ الذين اتّخذوا هذه الآيه ذريعه لإثبات التمييز الاجتماعى الظالم أو

يتصوروها حجة على هذا التمييز قد أخطئوا خطأ كبيرا.

ولذا عقب الله سبحانه على الجملة السابقة فورا بقوله: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِنْ سَعِيهِ وَجَهْدِهِ وَمَكَانَتِهِ سِوَا مَا كَانَتْ مَكَانَهُ طَبِيعِيَّةً (كالتفاوت و الفرق بين جنسى الرجل و المرأة) أو غير طبيعیه ناشئه عن التفاوت بسبب الجهود الاختياریه.

إنَّ الجدير بالالتفات هنا هو: إنَّ لكلمه «الاكتساب» التي هي بمعنى التحصيل مفهومًا واسعًا يشمل الجهود الاختياریه، كما يشمل ما يحصل عليه الإنسان بواسطه بنيانه الطبيعي.

ثمَّ يقول: وَ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ أَى بدل أن تتمنوا هذا التفصيل و التفاوت اطلبوا من فضل الله و اسألوا من لطفه و كرمه أن يتفضل عليكم من نعمه المتنوعه و توفيقاته و ثوباته الطيبه، لتكونوا- بنتيجته ذلك- سعداء رجالا و نساء، و من أی عنصر كنتم، و على كل حال اطلبوا و اسألوا ما هو خيركم و سعادتكم واقعا، و لا- تتمنوا ما هو خيال أو ما تتخيلونه (و لعلَّ التعبير بلفظه «من فضله» إشاره إلى المعنى الأخير).

على أنه من الواضح جدًا أن طلب الفضل و العناية الربانية ليس بمعنى أن لا- يسعى الإنسان في الأخذ بأسباب كلِّ شيء و عوامله، بل لا بدَّ من البحث عن فضل الله و رحمته من خلال الأسباب التي قزرها و أرساها في الكون.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

أى يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع و ما يلزمه من الفروق سواء من الناحية الطبيعيه أو الحقوقيه، و لهذا لا وجود للظلم و الحيف و لا لأى شيء من التفاوت الظالم و التمييز غير العادل في أفعاله، كما أنه تعالى خبير بما في بواطن الناس من الأسرار و الخفايا و النوايا و يعلم من الذى يتمنى الأمانى الخاطئه في قلبه، و من يتمنى الأمانى الإيجابيه الصحيحه البناءه.

## التفاوت الطبيعي بين الناس لما ذا؟:

إنّ ثمة كثيرين يطرحون على أنفسهم السؤال التالي:لما ذا خلق البعض بمواهب وقابليات أكثر،و آخرون بمواهب وقابليات أقل،و البعض متحلين بالجمال،و آخرون خلو منه،أو بجمال قليل،و البعض بامتيازات جسميه عاليه وقويه متفوقه،و آخرون عاديين،هل يتلاءم هذا التفاوت مع العدل الإلهي؟؟.

فى الإجابة على هذه التساؤلات لا بدّ من الالتفات إلى النقاط التاليه:

١-إنّ بعض الفروق الجسميه و الروحيه بين الناس ناشئه عن الاختلافات الطبقيه و المظالم الاجتماعيه،أو التفريط الفردى الذى لا علاقه له بنظام الخلق و جهاز الإيجاد أبدا،فمثلا- كثير من أبناء الأغنياء أقوى من أبناء الفقراء و أكثر جمالا و تقدما من ناحيه المواهب و القابليات بسبب أن الفريق الأوّل(أولاد الأغنياء)يحظى بإمكانيات أكبر من حيث الغذاء و الجوانب الصحيه،فى حين يعانى الفريق الثانى من حرمان و نقصان من هذه الجهه.أو أن هناك من يخسر الكثير من طاقاته الجسميه و الروحيه بسبب التوانى،و البطاله،و التفريط و التقصير.

إنّنا يجب أن نعتبر هذه الفروق و هذا التفاوت تفاوتا و مصطنعا و مزيفا،و غير مبرر،و يتحقق القضاء عليها من خلال القضاء على النظام الطبقي،و تعميم العداله الاجتماعيه فى الحياه البشريه،و القرآن الكريم و الإسلام لا يقرّ أى شىء من هذه الفروق،و أى لون من ألوان هذا التفاوت و التمييز أبدا.

٢-إنّ القسم الآخر من الفروق و ألوان التفاوت أمر طبيعى،و شىء لازم من لوازم الجبله البشريه،بل و ضروره من ضرورات الحياه الإنسانيه،يعنى أنّ مجتمعا من المجتمعات حتى إذا كان يحظى بالعداله الاجتماعيه الكامله لا- يمكن أن يكون جميع أفراده متساوين و على نمط واحد و صوره واحده مثل منتجات معمل.بل لا بدّ أن يكون هناك بعض التفاوت،و لكن يجب أن نعلم أنّ المواهب

الإلهيه و القابليات الجسميه و الروحيه قد قسمت-فى الأغلب-تقسيمًا يصيب فيه كل واحد قسطًا من تلك المواهب و القابليات. لا أن يحظى بعض بجميع المواهب، و يحرم آخرون من أى شىء منها، و بمعنى أنه قل أن يوجد هناك من تجتمع فيه كل المواهب جملة واحده، بل هناك من يحظى بالمقدره البدنيه الكافيه، و آخر يحظى بموهبه رياضيه جيده، و من يحظى بذوق شعرى رفيع، و آخر يحظى برغبه كبيره فى التجاره، و من يتمتع بذكاء وافر فى مجال الزراعه، و آخر بمواهب و قابليات خاصه أخرى.

المهم أن يكتشف المجتمع أو الأفراد أنفسهم تلك المواهب و القابليات، و أن يقوموا بتربيتها و تنميتها فى بيئه سليمه، حتى يتمكن كل إنسان إظهار ما ينطوى عليه من نقطه ضعف و يستفيد منها.

٣- يجب أن نذكر القارئ أيضا بأن المجتمع مثل الجسد الإنسانى بحاجه إلى الأنسجه و العضلات و الخلايا المختلفه، يعنى كما أن البدن لو تألف جميعه من خلايا دقيقه و رقيقه مثل خلايا العين و المخ لم يدم طويلا، و لو تألف جميعه من خلايا غليظه و خشنه لا- تعرف انعطافا مثل خلايا العظام، فقدت القدره الكافيه على القيام بوظائفها، بل لا بدّ أن تكون الخلايا المكونه للجسم متنوعه، ليصلح بعضها للقيام بوظيفه التفكير، و بعضها للمشاهده و النظر، و آخر على الاستماع و رابع على التحدث، هكذا لا بدّ لوجود «المجتمع الكامل» من وجود عناصر ذات مواهب و قابليات و أذواق، و تراكيب مختلفه متنوعه، بدنيه و فكريه، لكن لا يعنى هذا أن يعانى بعض أعضاء الجسد الاجتماعى من حرمان، أو تستصغر خدماته أو يستحقق دوره، تماما كما تستفيد كل خلايا البدن الواحد رغم ما بينها من تفاوت و فروق من الغذاء و الهواء و غيرها من الحاجات بالمقدار اللازم لكل واحد.

و بعباره أخرى: إنّ الفروق و أشكال التفاوت فى البيئه الروحيه و الجسميه

فى الجوانب الطبعفه (اللى لا هى ظالمه و لا هى مفروضه) إنّما هى فى الحقيقه مقتضى «الحكمه الربانيه»، و العدل لا يمكنه بحال أن ينفصل عن الحكمه.

فعلى سبيل المثال إذا كانت خلايا الجسم البشرى مخلوقه فى شكل واحد كان ذلك بعيدا عن الحكمه كما أنّه خال عن العدل الذى يعنى وضع كل شىء فى محله و موضعه المناسب، و كذلك إذا تشابه الناس فى يوم من الأيام فى التفكير أو تشابهوا فى القابليه و الموهبه لتهافت بنیان المجتمع برمته فى ذلك اليوم.

إذن فما ورد فى هذه الآيه فى مجال التفصيل و التفاوت فى جبله الرجل و المرأه و خلقتهمما إنّما هو فى الواقع إشاره إلى هذا الموضوع، لأنّه من البديهى إذا كان البشر جميعا رجالا، أو كانوا جميعا نساء لانقرض النوع البشرى عاجلا، هذا مضافا إلى انتفاء قسم من ملاذ البشر المشروعه.

فإذا اعترض جماعه قائلين لما ذا خلق البشر صنفين رجالا و نساء، و زعموا بأنّ هذا الأمر لا يتلاءم مع العداله الإلهيه. لم يكن هذا الاعتراض منطقيًا، لأنهم لم يلتفتوا إلى حكمه هذا التفاوت، و لم يتدبروا فيها.

اشاره

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

التفسير

يعود القرآن مره أخرى إلى مسأله الإرث إذ يقول: وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ (١) مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ أى لكل رجل أو امرأه جعلنا ورثه يرثون ممّا ترك الوالدان و الأقربون الذى يجب أن يقسم بينهم طبق برنامج خاص.

إنّ هذه العبارة هي -فى الحقيقة- خلاصه أحكام الإرث التى مرّ ذكرها فى الآيات السابقه فى مجال الأقرباء، و هى مقدمه لحكم سيأتى بيانه فى ما بعد.

ثمّ إنّ الله تعالى يضيف قائلاً: وَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ أى ادفعوا إلى الذين عقدتم معهم عقدا نصيبهم من الإرث.

و التعبير عن الميثاق بعقد اليمين (و هو العقد باليد اليمنى) لأجل أنّ الإنسان

ص: ٢١٤

١- ١) -«الموالى» جمع مولى، و هى فى الأصل من ماده الولايه بمعنى الاتصال و الارتباط، و تطلق على جميع الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بنوع من الارتباط، غايه ما هناك أنّها تكون فى بعض الموارد بمعنى ارتباط الولى، مع أتباعه، و أمّا فى الآيه الحاضره فتكون بمعنى الورثه.

غالباً ما يستفيد من يده اليمنى للقيام بأعماله، كما أنّ الميثاق يشبه نوعاً من العقد (فى مقابل الحل).

و الآن لننظر من هم الذين عقد معهم الميثاق، الذين لا بدّ أن يعطوا نصيبهم من الإرث؟ يحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد هو الزوج و الزوجه لأنّهما عقدا فى ما بينهما رابطته الزوجيه.

و لكن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأنّ التعبير عن الزواج بعقد اليمين و نظيره فى القرآن الكريم قليل جداً، هذا مضافاً إلى أنّه يعد تكراراً للمواضيع السابقه.

إنّ ما هو أقرب إلى مفهوم الآيه هو عقد «ضمان الجريه» الذى كان رائجا قبل الإسلام، و قد عدله الإسلام بعد أن أفزّه لما فيه من ناحيه إيجابيه و هو: «أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على أن يتعاونوا فيما بينهما بشكل أخوى أن يعين أحدهما الآخر عند المشكلات، و إذا مات أحدهما قبل الآخر ورثه الباقي» و لقد أقر الإسلام هذا النوع من التعاقد الأخوى الودى، و لكنّه أكد على أنّ التوارث بسبب هذا الميثاق إنّما يمكن إذا لم يكن هناك ورثه من طبقات الأقرباء، يعنى إذا لم يبق أحد من الأقرباء ورث ضامن الجريه الذى وقع بينه و بين الآخر مثل هذا العقد (لمعرفه التفاصيل أكثر راجع بحث الإرث فى الكتب الفقهيّه) (1).

ثمّ ختم سبحانه الآيه بقوله: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا** كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدًا أَي إِذَا قَصَرْتُمْ فِي إِعْطَاءِ نَصِيبِ الْوَرِثَةِ وَ لَمْ تَعْطُوهُمْ حَقُّوقَهُمْ كَامِلَةً، علم الله بذلك و لم يخف عليه ما فعلتم، لأنّه على كل شىء شهيد و بكل شىء عليم.

ص: ٢١٥

١ - ١) - صوره عقد ضمان الجريه هكذا «عاقدتك على أن تنصرنى و أنصرك و تعقل عنى و أعقل عنك و ترثنى و أرثك» فيقول الآخر: «قلت».

اشاره

الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله و اللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن و اهجروهن في المضاجع و اضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً (٣٤)

التفسير

اشاره

القوامه في النظام العائلي:

قال الله تعالى في مطلع هذه الآيه الرجال قوامون على النساء و لا بدّ لتوضيح هذه العبارة من الالتفات إلى أنّ العائله وحده اجتماعيه صغيره، و هي كالاتحاد الكبير لا بدّ لها من قائد و قائم بأمرها، لأن القيادة و القوامه الاجتماعيه التي يشترك فيها الرجل و المرأه معاً، لا- معنى لها و لا- مفهوم، فلا- بدّ أن يستقل الرجل أو المرأه بالقوامه، و يكون «رئيساً» للعائله، بينما يكون الآخر بمثابة «المعاون» له الذي يعمل تحت إشراف الرئيس.

إنّ القرآن يصرّح- هنا- بأنّ مقام القوامه و القيادة للعائله لا- بدّ أن يعطى للرجل (و يجب أن لا- يساء فهم هذا الكلام، فليس المقصود من هذا التعبير هو





أيضا إلى هذه الحقيقة، لأنَّ القسم الأوَّل من هذه فقره يقول: إن هذه القوامه إنّما هو لأجل التفاوت الذي أوجده الله بين أفراد البشر من ناحيه الخلق لمصلحه تقتضيها حياه النوع البشرى، بينما يقول فى القسم الثانى منها: و أيضا لأجل أن الرجال كلفوا بالقيام بتعهدات ماليه تجاه الزوجات و الأولاد فى مجال الإنفاق و البذل.

و لكن غير خفى أن إناطه مثل هذه الوظيفه و المكانه إلى الرجل لا تدل على أفضليه شخصيه الرّجل من الناحيه البشريه، و لا يبرر تميزه فى العالم الآخر (أى يوم القيامه) لأنّ التميز و الأفضليه فى عالم الآخره يدور مدار التقوى فقط، كما أنّ شخصيه المعاونه الإنسانيه قد ترجح فى بعض الجهات المختلفه على شخصيه الرئيس، و لكن الرئيس يتفوق على معاونه فى الإراده التى أنيطت إليه، فيكون أليق من المعاون فى هذا المجال.

ثمّ إنّّه سبحانه يضيف قائلا: فَالصّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ، و هذا يعنى أن النساء بالنسبه إلى الوظائف المناطه إليهنّ فى مجال العائله على صنفين:

الطّائفه الأولى: و هنّ «الصالحات» أى غير المنحرفات «القانتات» أى الخاضعات تجاه الوظائف العائليه «الحافظات للغيب» اللاتى يحفظن حقوق الأزواج و شؤونهم لا- فى حضورهم فحسب، بل يحفظنهم فى غيبتهم، يعنى أنهنّ لا- يرتكبن أيه خيانه سواء فى مجال المال، أو فى المجال الجنسى، أو فى مجال حفظ مكانه الزوج و شأنه الاجتماعى، و أسرار العائله فى غيبته، و يقمن بمسئولياتهنّ تجاه الحقوق التى فرضها الله عليهنّ و التى عبّر عنها فى الآيه بقوله:

بِمَا حَفِظَ اللَّهُ

خير قيام.

و من الطبيعى أن يكون الرجال مكلفين باحترام أمثال هذه النسوه، و حفظ حقوقهنّ، و عدم إضاعتهن.

ص: ٢١٨

الطوائف الثانية: هنّ النسوة اللاتي يتخلفن عن القيام بوظائفهنّ واجباتهنّ، و تبدو عليهنّ علائم النشوز و أماراته فإن على الرجال تجاه هذه الطائفة من النساء واجبات لا بدّ من القيام بها مرحله فمرحله، و على كل حال يجب أن يراعوا جانب العدل و لا يخرجوا عن حدوده و إطاره، و هذه الوظائف هي بالترتيب:

### ١- الموعظه

إنّ المرحلة الأولى التي على الرجال أن يسلكوها تجاه النساء اللاتي تبدو عليهنّ علائم التمرد و النشوز و العداوة، تتمثل في وعظهن كما قال سبحانه في الآية الحاضرة: **وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ (١)**. و على هذا فإن النساء اللاتي يتجاوزن حدود النظام العائلي و حريمه لا بدّ قبل أي شيء أن يذكرن-من خلال الوعظ و الإرشاد- بمسئولياتهنّ و واجباتهنّ و نتائج العصيان و النشوز.

### ٢- الهجر في المضاجع

و تأتي هذه المرحلة إذا لم ينفع الوعظ و لم تنجح النصيحة و اهجرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، و بهذا الموقف و الهجر و عدم المبالاه بالزوجه أظهروا عدم الرضا من الزوجه، لعل هذا الموقف الخفيف يؤثر في أنفسهنّ.

### ٣- الضرب:

و أمّا إذا تجاوزن في عصيانهنّ، و التمرد على واجباتهنّ و مسئولياتهنّ الحدّ، و مضيّن في طريق العناد و اللجاج دون أن يرتد عن الأساليب السابقه، فلا النصيحة تفيد، و لا العظه تنفع، و لا الهجر ينجح، و لم يبق من سبيل إلاّ استخدام العنف، فحينئذ يأتي دور الضرب ف **إِضْرِبُوهُنَّ** لدفعهنّ إلى القيام بواجباتهنّ الزوجيه لانحصار الوسيله في هذه الحاله في استخدام شيء من العنف، و لهذا

ص: ٢١٩

(١- ١) -«النشوز» من نشز(على وزن نذر)يعنى الأرض المرتفعه، و يكنى به هنا عن الطغيان و الترفع.

سمح الإسلام في مثل هذه الصورة بالضغط عليهنّ و دفعهنّ إلى القيام بواجباتهنّ من خلال التنبيه الجسدى.

## اشكال:

يمكن أن يعترض معترض في هذا المقام قائلا: كيف سمح الإسلام للرجال بأن يتوسلوا بأسلوب التنبيه الجسدى المتمثل بالضرب؟

## الجواب:

إنّ الجواب على هذا الاعتراض يبدو غير صعب بملاحظه معنى الآيه و الروايات الواردة لبيان مفادها و ما جاء في توضيحها في الكتب الفقيهيه، و أيضا بملاحظه ما يعطيه علماء النفس اليوم من توضيحات علميه في هذا المجال، و نلخص بعض هذه الأمور في نقاط:

أولاً: إنّ الآيه تسمح بممارسه التنبيه الجسدى في حق من لا يحترم وظائفه و واجباته، الذى لا تنفع معه أيه وسيله أخرى، و من حسن الصدق أن هذا الأسلوب ليس بأمر جديد خاص بالإسلام في حياه البشر، فجميع القوانين العالميه تتوسل بالأساليب العنيفه في حق من لا تنجح معه الوسائل و الطرق السلميه لدفعه إلى تحمل مسؤولياته و القيام بواجباته، فإن هذه القوانين ربّما لا تقتصر على وسيله الضرب، بل تتجاوز ذلك في بعض الموارد الخاصّه- إلى ممارسه عقوبات أشد تبلغ حدّ الإعدام و القتل.

ثانيا: إنّ التنبيه الجسدى المسموح به هنا يجب أن يكون خفيفا، و أن يكون الضرب ضربا غير مبرح، أى لا يبلغ الكسر و الجرح، بل و لا الضرب البالغ حد السواد كما هو مقرر في الكتب الفقيهيه.

ثالثا: إنّ علماء التحليل النفسى-اليوم- يرون أن بعض النساء يعانين من حاله نفسيه هي «المازوخيه» التى تقتضى أن ترتاح المرأه لضربها و أن هذه الحاله قد تشتد في المرأه إلى درجه تحس باللذّه و السكون و الرضا إذا ضربت

ضرباً طفيفاً.

و على هذا يمكن أن تكون هذه الوسيله ناظره إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يكون التنبيه الجسدى الخفيف بمثابة علاج نفسى لهم.

و من المسلم أن أحد هذه الأساليب لو أثر فى المرأه الناشزه و دفعها إلى الطاعه، و عادت المرأه إلى القيام بوظائفها الزوجيه لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأه، و يعمد إلى إيذائها، و مضايقتها حتى تعود إلى جاده الصواب و استقامت فى سلوكها و لهذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقه بقوله: فَإِنْ أَطَغْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْنَّ سَبِيلًا .

و لو قيل: إن مثل هذا الطغيان و العصيان و التمرد على الواجبات الزوجيه و العائليه قد يقع من قبل الرجال أيضاً، فهل تشمل هذه المراحل الرجال أيضاً؟ أى أ يمكن ممارسه هذه الأمور ضد الرجل كذلك، أم لا؟ نقول فى الإجابه على ذلك: نعم إن الرجال العصاه يعاقبون حتى بالعقوبه الجسديه أيضاً- كما تعاقب النساء العاصيات الناشزات- غاية ما هنالك أن هذه العقوبات حيث لا تيسر للنساء، فإن الحاكم الشرعى مكلف بأن يذكر الرجال المتخلفين بواجباتهم و وظائفهم بالطرق المختلفه و حتى بالتعزير (الذى هو نوع من العقوبه الجسديه).

و قصه الرجل الذى أجحف فى حق زوجته و رفض الخضوع للحق، فعمد الإمام على عليه السلام إلى تهديده بالسيف و حمله على الخضوع، معروفه.

ثم أن الله سبحانه ذكر الرجال مره أخرى فى ختام الآيه بأن لا يسيئوا استخدام مكانتهم كقيميين على العائله فيجحفوا فى حق أزواجهم، و أن يفكروا فى قدره الله التى هى فوق كل قدره إن الله كان عليمًا كبيراً .

ص: ٢٢١

إشاره

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

التفسير

إشاره

محكمه الصلح العائليه:

في هذه الآيه إشاره إلى مسأله ظهور الخلاف و النزاع بين الزوجين، فهى تقول: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ليتفاوضا و يقربا من أوجه النظر لدى الزوجين، ثم يقول تعالى: إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا أى ينبغي أن يدخل الحكمان المندوبان عن الزوجين فى التفاوض بتيه صالحه و رغبه صادقه فى الإصلاح، فإنهما إن كانا كذلك أعانهما الله و وفق بين الزوجين بسببهما.

و من أجل تحذير (الحكمين) و حثهما على استخدام حسن التيه، يقول سبحانه فى ختام هذه الآيه: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا .

إن محكمه الصلح العائليه التى أشارت إليها الآيه الحاضره، هى إحدى مبتكرات الإسلام العظيمه، فإن هذه المحكمه تمتاز بميزات تفتقر إليها المحاكم

١- إن البيئه العائليه بيئه عاطفيه، و لذلك فإن المقياس الذى يجب أن يتبع فى هذه البيئه، يختلف عن المقاييس المتبعه فى البيئات الآخري، يعنى كما أنه لا- يمكن العمل فى «المحاكم الجنائيه» بمقياس المحبّه و العاطفه، فإنه لا يمكن- فى البيئه العائليه- العمل بمقياس القوانين الجافه. الضوابط الصارمه الخاليه عن روح العاطفه، فهنا يجب حل الخلافات العائليه بالطرق العاطفيه حدّ الإمكان، و لهذا يأمر القرآن الكريم أن يكون الحكمان فى هذه المحكمه ممن تربطهم بالزوجين رابطه النسب و القرابه ليتمكنهما تحريك المشاعر و العواطف باتجاه الإصلاح بين الزوجين، و من الطبيعى أن تكون هذه الميزه هى ميزه هذا النوع من المحاكم خاصّه دون بقيه المحاكم الآخري.

٢- إن المدعى و المدعى عليه فى المحاكم العاديه القضائيه مضطرين- تحت طائله الدفاع عن النفس- أن يكشفوا عن كل ما لديهما من الأسرار، و من المسلم أنّ الزوجين لو كشفوا عن الأسرار الزوجيه أمام الأجنب و الغرباء لجرح كل منهما مشاعر الطرف الآخر، بحيث لو اضطر الزوجان أن يعودا- بحكم المحكمه- إلى البيت لما عادا إلى ما كانا عليه من الصفاء و المحبه السالفه، بل لبقيا يعيشان بقيه حياتهما كشخصين غريبين مجبرين على القيام بوظائف معينه، و لقد دلت التجربه و أثبتت أنّ الزوجين اللذين يضطران إلى التحاكم إلى مثل هذه المحاكم لحل ما بينهما من الخلاف لم يعودا ذينك الزوجين السابقين.

بينما لا تطرح أمثال هذه الأمور فى محاكم الصلح العائليه للاستحياء من الحضور، أو إذا اتفق أن طرحت هذه الأمور فإنّها تطرح فى جو عائلي، و أمام الأقرباء فإنّها لن تنطوى على ذلك الأثر السىء الذى أشرنا إليه.

٣- إنّ الحكّمين فى المحاكم العاديه المتعارفه لا- يشعرون عاده بالمسؤوليه الكامله فى قضايا الخلاف و المنازعات، و لا تهمهما كيفيه انتهاء القضيّه المرفوعه

إلى المحكمة، هل يعود الزوجان إلى البيت على وفاق، أو انفصلا مع طلاق؟ فى حين أنّ الأمر فى محكمة الصلح العائليه على العكس من ذلك تماما، فإن الحكّمين فى هذه المحكمة حيث يرتبطان بالزوجين برابطه القرابه، فإن لافتراق أو صلح الزوجين أثرا كبيرا فى حياه الحكّمين من الناحيه العاطفيه، و من ناحيه المسؤوليات الناشئه عن ذلك، و لهذا فإنّهما يسعيان-جهد إمكانهما- أن يتحقق الصلح و السلام و الوفاق و الوثام بين الزوجين اللذين يمثلانهما، و أن يعيدا المياہ إلى مجاريها كما يقول المثل.

٤-مضافا إلى كلّ ذلك فإن مثل هذا المحكمة لا تعانى من أيه مشكلات، و لا تحتاج إلى أيه ميزانيات باهظه، و لا تعانى من تلك الخساره و الضياع الذى تعانى منه المحاكم العاديه، فهى تستطيع أن تقوم بأهدافها و تحقق أغراضها من دون أيه تشريفات و فى أقل مدّه من الزمن.

و لا- يخفى أنّه يجب أن يختار الحكّمان من بين الأشخاص المحنّكين المطلعين المعروفين، فى عائلتى الزوجين بالفهم و حسن التدبير.

مع هذه المميزات التى عددناها يتبيّن أنّ هذه المحكمة تحظى بفرصه للإصلاح بين الزوجين.

إنّ مسأله الحكّمين و ما يشترط فيهما من الشروط، و مدى صلاحيتهما و ما يحكمان به فى مجال الزوجين، قد ذكر فى الكتب الفقهيّه بالتفصيل، منها أن يكون الحكّمان بالغين عاقلين عادلين بصيرين بعملهما.

و أمّا مدى نفوذ حكمهما فى حق الزوجين، فقد ذهب بعض الفقهاء إلى نفوذ كل ما يصدر أنّه من حكم فى هذا المجال، و ظاهر التعبير به «حكم» فى الآيه الحاضره يفيد هذا المعنى أيضا، لأن مفهوم الحكميه و القضاء هو نفوذ الحكم مهما كان، و لكن أكثر الفقهاء يرون نفوذ ما يراه الحكّمان فى مورد التوفيق بين



الزوجين و رفع الاختلاف و النزاع بينهما، بل يرون نفوذ ما يشترطه الحكمان على الزوجين، و أمّا حكمهما في مجال الطلاق و الإفتراق بين الزوجين فغير نافذ لوحده، و ذيل الآيه الذي يشير إلى مسأله الإصلاح أكثر ملاءمه مع هذا الرأي، و للتوسع في هذا المجال يجب مراجعه الكتب الفقيهيه.

ص: ٢٢٥

اشاره

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُجُورًا (٣٦)

التفسير

اشاره

الآيه الحاضره تبين سلسله من الحقوق الإسلاميه بما فيها الحقوق الإلهيه، و حقوق العباد، و آداب العشره مع الناس، و يستفاد منها عشره تعاليم:

١- و اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا

إنّ الآيه تدعو الناس قبل أى شىء إلى عبادته الله و الخضوع له وحده، و ترك الشرك و الوثنيه التى هى أساس كل البرامج و المناهج الإسلاميه.

إنّ الدّعوة إلى التوحيد و عبادته الله وحده تطهر الروح، و تخلص النيه، و تقوى الإراده، و تشدد من عزمه الإنسان على الإتيان بأى برنامج مفيد.

و حيث أنّ الآيه الحاضره تبين سلسله من الحقوق الإسلاميه لذلك فقد

أشارت إلى حقّ الله على الناس قبل أى شىء وقبل أى حقّ وقالت: **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**.

## ٢- وبالوالدين إحسانا

ثمّ إنّها تشير إلى حقّ الوالدين وتوصى بالإحسان إليهما ولا شك أنّ حقّ الوالدين من القضايا التي يهتمّ بها القرآن الكريم كثيرا، وكلّما حظى موضوع بمثل هذا الاهتمام والعناية، فقد جاءت التوصية بالوالدين بعد الدعوه إلى التوحيد في العباده في أربعه مواضع في القرآن الكريم (١).

من هذه التعابير المتكرره يستفاد أنّ ثمة ارتباطا بين هاتين المسألتين، والقضية في الحقيقة كالتالي: حيث إنّ أكبر نعمه هي نعمه الوجود والحياه وهي مأخوذه من جانب الله سبحانه في الدرجه الأولى، فيما ترتبط بالوالدين في الدرجه الثانيه، لأنّ الولد جزء من وجود الوالدين، لذلك كان تركّ حقوق الوالدين وتجاهلها، في مصاف الشرك بالله سبحانه.

هذا ولنا أبحاث مفصله حول حقوق الوالدين في ذيل الآيات المناسبه في سورة الإسراء ولقمان بإذن الله تعالى.

## ٣- وبذى القربى

ثمّ أنّها توصى بالإحسان إلى كلّ الأقرباء، وهذا الموضوع من المسائل التي يهتمّ بها القرآن الكريم اهتماما بالغاً تارة تحت عنوان «صله الرحم» وأخرى بعنوان «الإحسان إلى القربى» وقد أراد الإسلام بهذا- في الحقيقة- أن يقوى من أواصر العلاقه الواسعه بين جميع أفراد البشر مضافا إلى إيجاد أواصر وعلاقات أقوى وأمتن منها في الوحدات الاجتماعيه التي هي أكثر انسجاما مثل

ص: ٢٢٧

---

(١- ١) -سوره البقره، الآيه ٨٣، سوره الأنعام، الآيه ١٥١، سوره الإسراء، الآيه ٢٣ مضافا إلى الآيه الحاضره.

«العشيره» و«العائله» ليستطيعوا التعاون فى ما بينهم عند ظهور المشاكل و الحوادث، و التعاون على الدفاع عن حقوقهم.

#### ٤- و اليتامى

ثم أشارت إلى حقوق «اليتامى» و أوصت المؤمنين ببرهم و الإحسان إليهم، لأنه يوجد فى كل مجتمع أطفال أيتام على أثر الحوادث المختلفه، لا- يهدد تناسيهم و إهمالهم وضعهم الخاص فقط، بل الوضع الاجتماعى بصوره عامه، لأنّ الأطفال اليتامى لو تركوا دون ولايه أو حمايه و لم ينالوا حاجتهم من المحبّه و اللطف يتحولون إلى أفراد منفلتين فاسدين، بل أشخاص خطرين جناه.

و على هذا يكون الإحسان إلى اليتامى إحسانا إلى الفرد و إلى المجتمع معا.

#### ٥- و المساكين

ثم يذكر سبحانه- فى هذه الآيه- بحقوق الفقراء و المساكين، لأنه قد يوجد حتى فى المجتمع السليم الذى يسوده العدل من يعانى من نواقص و عاهات تعوقه عن الحركه و النشاط و الفعاليه، و لا- شك أنّ تناسى هؤلاء أمر يخالف كل الأسس و القيم الإنسانيه، فلا بدّ من تقديم العون إليهم، و معالجه حرمانهم.

و أمّا إذا كان الفقر و الحرمان الذى يعانى منه الأفراد الأصحاء ناشئين عن الانحراف عن مبادئ و أسس العدالة الاجتماعيه فإنّه لا بدّ من مكافحتهم أيضا.

#### ٦- و الجار ذى القربى

ثم يوصى بالجيران من ذوى القربى، و هناك احتمالات متعدده حول المراد من «الجار ذى القربى» أبداه المفسرون، فبعضهم قال: معناه الجار القريب فى النسب، غير أن هذا التفسير يبدو بعيدا بملاحظه العبارات السابقه التى أشارت

إلى حقوق الأقرباء فى هذه الآيه، فلا بد أن يكون المراد هو القرب المكاني لا القرب النسبي، لأن الجيران الأقربين مكانا يستحقون احتراماً و حقوقاً أكثر من غيرهم، أو أن يكون المراد الجيران الأقربين إلى الإنسان من الناحية الدينية و الاعتقادية.

## ٧- و الجار الجنب

ثم إنها توصى بالجيران البعيدين، و المراد- كما أسلفنا- هو البعد المكاني، لأن كل أربعين داراً من بين يديه و خلفه و عن يمينه و شماله تعتبر من الجيران، كما تصرّح بعض الروايات (١)، و هذا يستوعب فى المدن الصغيره كل المدينة تقريباً (لأننا لو فرضنا دار كل شخص مركز دائره يقع فى امتداد شعاعها من كل صوب أربعون بيتاً لا تضحّت من خلال محاسبه بسيطه مساحه هذه الدائره التى يكون مجموع البيوت الواقعه فيها ما يقرب من خمسه آلاف بيت، و من المسلم أن المدن الصغيره قلماً تتشكل من أكثر من هذا العدد من المنازل و البيوت.

و الجدير بالتأمل أن القرآن يصرّح فى هذه الآيه- مضافاً إلى ذكر الجيران القريبين- بحقّ الجيران البعيدين، لأنّ لفظه الجار لها فى العاده مفهوم محدود و ضيق و تشمل الجيران القريبين فقط، و لهذا لم يكن بداً فى نظر الإسلام أن يذكر بالجيران البعيدين أيضاً.

كما يمكن أن يكون المراد من الجيران البعيدين الجيران غير المسلمين، لأنّ حقّ الجوار غير منحصر فى نظر الإسلام بالجيران المسلمين، فهو يعمّ المسلمين و غير المسلمين (اللهم إلا الذين يحاربون المسلمين و يعادونهم).

إنّ لحقّ الجوار فى الإسلام أهميته بالغه إلى درجه أنّنا نقرأ

فى وصايا الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام المعروفه: «ما زال (رسول الله) يوصى بهم حتى ظننا أنّه

ص: ٢٢٩

سيورثهم» (١) (و قد ورد هذا الحديث في مصادر أهل السنه أيضا فقد روى في تفسير المنار و تفسير القرطبي من البخارى مثل هذا المضمون عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم أيضا).

و

روى في حديث آخر عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم أنه قال ذات يوم «والله لا يؤمن و الله لا يؤمن، فقيل: يا رسول الله و من؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه» (٢).

كما نقرأ في حديث آخر أيضا

أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فليحسن إلى جاره» (٣).

و

روى عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال: «حسن الجوار يعمر الديار و يزيد في الأعمار» (٤).

في عالمنا المادى حيث لا يعرف الجار عن جاره شيئا، بل و ربّما لا يتعرف على اسم صاحبه بعد عشرين سنه من الجيره و الجوار يتألق هذا التعليم الإسلامى فى حق الجار بشكل خاص، فإنّ الإسلام يقيم للعلاقات العاطفيه و التعاون الإنسانى وزنا خاصا، و يوليها اهتماما كبيرا، فى حين تؤول هذه العلاقات و العواطف فى الحياه الصناعيه الماديه إلى الزوال يوما بعد يوم، و تعطى مكانها إلى القسوه و الجفاء و الخشونه.

## ٨- و الصّاحب بالجنب

ثمّ أوصت بالرفيق و الصّاحب، غير أنه لا بدّ من الانتباه إلى أنّ ل«الصّاحب بالجنب» معنى أوسع من الرفيق و الصديق المتعارف، و فى الحقيقه تشمل كل من رافق أو صاحب الإنسان مرافقه ما سواء كان صديقا دائما أو صديقا مؤقتا

ص: ٢٣٠

١-١) - تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٧٥٤.

٢-٢) - تفسير المنار، ج ٥، ص ١٩٢، طبعه بيروت.

٣-٣) - تفسير الصافي، ص ١٣٠.

٤-٤) - تفسير الصافي، ص ١٢٠.

(كالذى يرافق الإنسان فى السفر بعض الوقت) و تفسير لفظه «لصاحب بالجانب» فى بعض الروايات بالرفيق مثل «رفيقتك فى السفر» أو الذى يقصد الإنسان رجاء نفعه مثل: (المنقطع إليك يرجو نفعك) ليس المراد هو اختصاص هذا العنوان بهم، بل هو نوع من التوسعه فى مفهوم هذه اللفظه بحيث تشمل هذه الموارد أيضا، و بهذا الطريق تكون هذه الآيه أمرا كلياً و جامعاً بحسن معاشره كل من يرتبط بالمرء، سواء كان صديقاً واقعياً، أو زميلاً، أو رفيق سفر، أو مراجعاً، أو تلميذاً، أو مشاوراً، أو خادماً.

و قد فسرت لفظه صاحب الجانب فى بعض الروايات بالزوجه، و قد روى صاحب تفسير المنار، و تفسير روح المعانى و القرطبى فى ذيل هذه الآيه هذا المعنى عن على عليه السلام، و لكن لا يبعد أن يكون هذا من باب بيان أحد المصاديق أيضا.

## ٩- و ابن السبيل

و أما الصنف الآخر الذى أوصت بهم الآيه هنا فهم الذين تحدث لهم حاجه السفر و بلاد الغربه، فابن السبيل هو الذى ينقطع فى السفر و إن كان يمكن أن يكون متمكناً ذا مال فى بلده، و التعبير عن هذا الشخص بابن السبيل (أى ابن الطريق) إنما هو لأجل أننا لا نعرفهم أصلاً حتى ننسبهم إلى عائله أو قبيله أو شخص، بل لا بد أن نحميمهم بمجرد أنهم مسافرون انقطعوا فى السفر، و برزت لديهم حاجه إلى المساعده و العون.

## ١٠- و ما ملكت أيما نكم

و فى نهايه المطاف توصى هذه الآيه بالإحسان إلى العبيد و الأرقاء، و بهذا تكون الآيه فى الحقيقه -قد بدأت بحق الله، و ختمت بحقوق العبيد، لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

على أنّ هذه الآية ليست هي الآية الوحيدة التي توصى بالعبود، بل لقد بحثت هذه المسألة في آيات مختلفه أخرى أيضا.

هذا مضافا إلى أنّ الإسلام قد نظم برنامجا دقيقا لتحرير العبيد تدريجا، و الذي يؤول في النتيجة إلى تحريرهم المطلق، و سوف نتحدث حول هذه المسألة في ذيل الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

ثمّ إنّه سبحانه يقول في ختام هذه الآية إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا و هو بذلك يحذر كل من يتمرّد و يعصى أوامر الله، و يتقاعس عن القيام بحقوق أقربائه و والديه و اليتامى و المساكين و ابن السبيل و الأصدقاء و الأصحاب بدافع التكبر بأنّه سيكون معرضا لسخط الله، و سيحرم من عنايته سبحانه، و لا ريب أنّ من حرم من اللطف الإلهي و العناية الزبانية حرم من كل خير و سعاده.

و تؤيد هذا المعنى روايات و أخبار قد رويت في ذيل هذه الآية منها ما

□ عن أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حيث قال: كنت عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقرأ هذه الآية إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ فذكر الكبير فعظمه، فبكى ذلك الصحابي فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ما يبكيك؟ فقال يا رسول الله: إنني لأحب الجمال حتى أنه ليعجبني أن يحسن شراكي نعلي قال: «فأنت من أهل الجنة، أنه ليس بالكبير أن تحسن راحلتك و رحلك، و لكن الكبير من سفه الحقّ و غمص الناس» (١).

و الخلاصه أنّ ما يستفاد من العبارة الاخيره أنّ مصدر الشرك و هضم حقوق الآخرين هو الانانية و التكبر غالبا، و لا يتسنى للشخص أداء تلك الحقوق، و خاصه حقوق الأيتام و المساكين و الأرقاء إلاّ من تحلّى بروح التواضع و نكران الذات (٢).

ص: ٢٣٢

(١-١) - غمص الناس: احتقرهم و استصغروهم و لم يرههم شيئا. انظر لسان العرب (غمص).

(٢-٢) - «مختال» من ماده «خيال» حيث يرى الشخص نفسه بسبب بعض المتخيلات عظيما و كبيرا، و سمي الخيل خيلا لأن مشيته تشبه مشيه المتكبر، «فخور» من ماده «فخر» و الفرق بينها و بين الأولى ان المختال اشاره إلى تخيلات الكبر في مجالها الذهني و الاخرى يراد بها الأعمال الصادره عن كبر في المجال الخارجى.



إشاره

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ  
أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)

التفسير

إشاره

الإففاق رياء و الإففاق قربه:

الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث- هي في الحقيقة- تعقيب على الآيات السابقة و إشارة إلى المتكبرين إذ تقول: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ  
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ هذا مضافا إلي أنهم يسعون دائما أن يخفوا عن الآخرين ما تفضل الله عليهم به من الخير كيلا يتوقع  
المجتمع منهم شيئا وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .

ثم يقول عن نهايه هذا الفرق من الناس و عاقبه أمرهم: وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا و لعل السر في استخدام هذا التعبير في حق  
هذه الطائفة هو أن

«البخل» ينبع في الغالب من الكفر، لأنَّ البخلاء لا- يمتلكون الإيمان الكامل بالموهب الربانيه المطلقه و الوعود الإلهيه العظيمة للمحسنين. إنهم يتصورون أنَّ مساعده الآخرين و تقديم العون إليهم يجزّ إليهم التعاسه و الشقاء.

و أما الحديث عن الخزى في عذاب هؤلاء، فلأنَّ الجزاء المناسب للتكبر و الاستكبار هو العذب المهين.

ثمَّ إنَّه لا- بدّ من الالتفات إلى أنَّ البخل لا- يختص بالأموال الماليه، بل يشمل كل نوع من أنواع الموهبه الإلهيه، فتمّه كثيرون لا يعانون من صفه البخل الذميمه في المجال المالى، و لكنَّهم يبخلون عن بذل العلم أو الجاه أو الأمور الاخرى من هذا القبيل.

ثمَّ إنَّ الله سبحانه يذكر صفه أخرى من صفات المتكبرين إذ يقول: **وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ** إنَّهم ينفقون أموالهم لا في سبيل الله و كسب رضاه، بل مرآه الناس لكسب السمعه و جلب الشهره و الجاه، و بالتالى ليس هدفهم من الإنفاق هو خدمه الناس و كسب رضا الله سبحانه، و لهذا فإنَّهم لا- يتقيدون في من ينفقون عليه بملاك الاستحقاق، بل يفكرون دائما في أنه كيف يمكنهم أن يستفيدوا من إنفاقاتهم و يحققوا ما يطمحون إليه من أغراض شخصيه، و أهداف خاصه، كتقويه نفوذهم و تكريس موقعهم في المجتمع مثلا- لأنَّهم لا- يؤمنون بالله و اليوم الآخر، و لهذا السبب يفتقر إنفاقهم إلى الدافع المعنوى الذى ينبغى توفره في الإنفاق، بل دافعهم هو الوصول إلى الشهره و الشَّخصيه الكاذبه المزيفه من هذا السبيل، و هذا هو أيضا من آثار التكبر و نتائج الأنانيه.

إنَّ هؤلاء اختاروا الشَّيطان رفيقا و قرينا لهم: **مَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا** إنَّه لن يكون له مصير أفضل من مصير الشَّيطان، لأنَّ منطقهم هو منطق الشيطان، و سلوكهم سلوكه سواء بسواء، إنَّه هو الذى يقول لهم: **إِنَّ الْإِنْفَاقَ**

بإخلاص يوجب الفقر الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ (١) و لهذا فإمّا أن ييخلوا و يمتنعوا عن الإنفاق و البذل (كما أشير إلى هذا فى الآيه السابقيه) أو أنهم ينفقون إذا ضمن هذا الإنفاق مصالحتهم الشخصيه و عاد عليهم بفوائد شخصيه (كما أشير إلى ذلك فى الآيه الحاضره).

من هذه الآيه يستفاد مدى ما للقرين السىء من الأثر فى مصير الإنسان، ذلك الأثر الذى ربّما يبلغ فى آخر المطاف إلى السقوط الكامل.

كما يستفاد أنّ علاقته «المتكبرين» ب«الشيطان و الأعمال الشيطانيه» علاقته مستمره و دائمه لا مؤقتة و لا مرحليه، ذلك لأنهم اختاروا الشيطان قرينا و رفيقا لأنفسهم.

و هنا يقول سبحانه و كأنه يتأسف على أحوال هذه الطائفة من الناس و مَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ... أى شىء عليهم لو تركوا هذا السلوك و عادوا إلى جاده الصواب و أنفقوا ممّا رزقهم الله من الخير و النعمه فى سبيل الله، بإخلاص لا رياء، و كسبوا بذلك رضا الله، و تعرضوا للطفه و عنايته، و أحرزوا سعاده الدنيا و الآخره؟ فلما ذا لا يفكر هؤلاء و لا- يعيدون النظر فى سلوكهم؟ و لما ذا ترى يتركون طريق الله الأنفع و الأفضل و يختارون طريقا أخرى لا تنتج سوى الشقاء، و لا تنتهى بهم إلا إلى الضرر و الخسران؟ و على كل حال فإنّ الله يعلم بأعمالهم و نواياهم و يجزيهم بما عملوا: وَ كَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا .

و الجدير بالانتباه أنّ الإنفاق فى الآيه السابقيه التى كان الحديث فيها حول الإنفاق مرآه نسب إلى الأموال يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ، و فى هذه الآيه نسب إلى مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، و هذا التفاوت و الاختلاف فى التعبير يمكن أن يكون إشاره إلى

ص: ٢٣٥

ثلاث نقاط:

أولاً-إنَّه في الإنفاق رياء لا تلحظ حليّه المال و حرّمته،في حين تلحظ في الإنفاق لله حليّه المال و أن يكون مصداق مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ .

ثانياً:إنَّه في الإنفاق رياء حيث أنّهم يحسبون أنّ المال الذي ينفقونه خاص بهم،لذلك فهم لا يمتنعون عن الكبر و المنّ،في حين أنّ المنفقين لله حيث يعتقدون بأنّ الله هو الذي رزقهم ما يملكون من المال،و أنّه لا مجال للمنّ إذا هم أنفقوا شيئاً من ذلك،و لذلك يمتنعون من الكبر و السنّ.

ثالثاً:إنّ الإنفاق رياء ينحصر غالباً في المال،لأنّ أمثال هؤلاء محرمون من أيّ رأسمال معنوي لينفقوا منه،و لكنّ الإنفاق لوجه الله تتسع دائرته فتشمل كل المواهب الإلهيه من المال،و العلم و الجاه،و المكانه الاجتماعيه و ما شابه ذلك من الأمور الماديه و المعنويه.

ص: ٢٣٦

اشاره

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)

التفسير

اشاره

ما هي «الذره»؟:

«الذره» في الأصل هي النمله الصغيره التي لا ترى، و قال البعض: هي من أجزاء الهباء و الغبار في الكوّه التي تظهر عند دخول شعاع الشمس خلالها، و قيل أيضا أنه الغبار الدقيق المتطاير من يدى الإنسان إذا جعلهما على التراب و ما شابهه ثم نفخهما.

و لكنّها أطلقت تدريجا على كل شىء صغير جدًا، و تطلق الآن و يراد منها ما يتكون من الإلكترون و البروتون أيضا. لأنها إذا كانت تطلق سابقا على أجزاء الغبار، فلأن تلك الأجزاء كانت أصغر أجزاء الجسم، و لكن حيث ثبت اليوم أنّ أصغر أجزاء الجسم المركب هو «المولوكول» أو الجزئيه، و أصغر أجزاء الجسم البسيط هو «الذرات»، اختيرت لفظه «الذره» فى الاصطلاح العلمى على تلك الجزئيات التي لا ترى بالعين المجزّده، بل لا يمكن أن ترى حتى بأقوى الميكروسكوبات الإلكترونيه، و إنّما يحسّ بوجودها من خلال القوانين و المعادلات العلميه و التصوير بآلات مزوده بأدقّ الأجهزة و أقواها، و حيث أن

«مِثْقَالٌ» يعنى الثقل، فَإِنَّ التّعبير بمِثْقَالِ ذرّه يعنى جسماً فى غاية الدقه و الصغر.

إِنَّ الْآيَةَ الْحَاضِرَةَ تَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ قَطُّ زَنَّهُ ذَرَّةً، بَلْ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةَ إِذَا قَامَ بِهَا أَحَدٌ، وَ يُعْطَى مِنْ لَدُنْهِ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا عَظِيمًا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَ إِنَّ تَكُّ حَسَنَةً يُضَاعَفُهَا وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ-فِي الْحَقِيقَةِ-تَقُولُ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ الَّذِينَ مَرَّ الْحَدِيثُ عَنْ أَحْوَالِهِمْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ: إِنَّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي تَصِيبُكُمْ مَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا جَزَاءٌ مَا قَمْتُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَ أَنَّهُ لَا يَصِيبُكُمْ أَى ظَلَمَ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ، بَلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ الْكُفْرَ وَ الْبُخْلَ وَ سَلَكْتُمْ طَرِيقَ اللَّهِ لَنَلْتُمْ الْمَثُوبَاتِ الْعَظِيمَةَ الْمَضَاعِفَةَ.

ثُمَّ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الْإِنْتِبَاهِ إِلَى أَنْ لَفْظُهُ «ضَعْفٌ» وَ «الْمَضَاعِفُ» تَعْنَى فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا يَعَادِلُ الشَّيْءَ أَوْ يَرْتَبِعُ عَلَيْهِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ، وَ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ لَا تَنَافَى هَذِهِ الْآيَةُ الْآخَرَى الَّتِي تَقُولُ: إِنَّ أَجْرَ الْإِنْفَاقِ قَدْ يَصِلُ إِلَى عَشْرَةِ أضعافٍ، وَ قَدْ يَصِلُ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ مَرَّةً....

وَ عَلَى أَى حَالٍ فَإِنَّهَا تَحْكِي عَنْ لَطْفِ اللَّهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى عِبَادِهِ، حَيْثُ لَا-يُعَاقِبُهُمْ عَلَى سَيِّئَاتِهِمْ وَ ذُنُوبِهِمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا عَمِلُوا، بَيْنَمَا يُضَاعَفُ الْأَجْرَ بِمَرَّاتٍ كَثِيرَةٍ إِذَا أَتَوْا بِحَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ.

يَبْقَى أَنْ نَعْرِفَ لِمَاذَا لَا يَظْلِمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ؟ فَإِنَّ السَّبَبَ فِيهِ وَاضِحٌ، لِأَنَّ الظلم عادة-إِذَا نَاشِئٌ عَنِ الْجَهْلِ، وَ إِذَا نَاشِئٌ عَنِ الْحَاجَةِ، وَ إِذَا نَاشِئٌ عَنِ نَقْصِ نَفْسِي.

وَ مِنْ كَانَ عَالِمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، وَ كَانَ غَتِيًّا عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، وَ لَمْ يَكُنْ يَعْانِي مِنْ أَى نَقْصٍ، لَا يُمْكِنُ صُدُورُ الظلمِ مِنْهُ، فَهُوَ لَا يَظْلِمُ أَسَاسًا، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ عَلَى الظلمِ، وَ لَا أَنْ الظلمَ غَيْرَ مَتَصَوِّرٍ فِي حَقِّهِ (كَمَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ)، بَلْ مَعَ قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الظلمِ-لَا-يَظْلِمُ أَبَدًا لِحِكْمَتِهِ وَ عِلْمِهِ، فَهُوَ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ مَوْضِعَهُ، وَ يَعْامِلُ كُلَّ أَحَدٍ حَسَبَ عَمَلِهِ، وَ طَبَقًا لِسُلُوكِهِ وَ سِيرَتِهِ.

إشارة

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ  
الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

التفسير

إشارة

شهود يوم القيامة:

تعقيبا على الآيات السابقة التي كانت تدور حول العقوبات و المثوبات المعدّة للعصاة و المطيعين. جاءت هذه الآية تشير إلى مسألة الشهود في يوم القيامة فتقول: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا و هكذا يكون نبي كل أمة شهيدا عليها، مضافا إلى شهاده أعضاء الإنسان و جوارحه، و شهاده الأرض التي عليها عاش، و شهاده ملائكة الله على أعماله و تصرفاته، و يكون نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و هو آخر أنبياء الله و رسله و أعظمهم، شاهدا على أمته أيضا، فكيف يستطيع العصاة مع هذه الشهود إنكار حقيقه من الحقائق، و تخليص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

ثم إنّ نظير هذا المضمون قد جاء أيضا في عدّه آيات قرآنيه أخرى، منها الآية (١٤٣) من سورة البقره، و الآية (٨٩) من سورة النحل، و الآية (٧٨) من سورة الحج.

و الآن يطرح هذا السؤال، وهو: كيف تتم شهادة الأنبياء على أعمال أممهم، و كيف تكون؟ إذا كانت كلمه «هؤلاء» إشاره إلى المسلمين كما جاء في تفسير مجمع البيان، فإن الجواب على هذا السؤال يكون واضحاً، لأن كل نبى ما دام موجوداً بين ظهرانى أمته فهو شاهد على أعمالهم، و بعده يكون أوصياؤه و خلفاؤه المعصومون هم الشهداء على أعمال تلك الأمه، و لهذا جاء في حق المسيح عليه السلام أنه يقول في يوم القيامة في جواب سؤال الله سبحانه وإياه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ، وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١)﴾.

و لكن بعض المفسرين احتمل أن تكون لفظه «هؤلاء» إشاره إلى شهود الأمم السابقه، يعنى أننا نجعلك أيها النبى شهيدا على شهداء الأمم من الأنبياء، و قد أشير في بعض الروايات إلى هذا التفسير (٢) و على هذا يكون معنى الآية هكذا: إن كل نبى شاهد على أعمال أمته جميعها في حياته و بعد مماته عن طريق المشاهده الباطنيه و الروحانيه، و هكذا الحال بالنسبه إلى رسول الإسلام، فإن روحه الطاهره ناظره- عن هذا الطريق أيضا- على أعمال أمته و جميع الأمم السابقه، و بهذا الطريق يمكنه أن تشهد على أفعالهم و أعمالهم، بل و حتى الصلحاء من الأمه و الأبرار الأتقياء منها يمكنهم الاطلاع و الحصول على مثل هذه المعرفه، فيكون المفهوم من كل ذلك وجود روح النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم من بدء الخلق، لأن معنى الشهود هو العلم المقترن بالحضور، و لكن هذا التفسير لا ينسجم مع ما نقل عن السيد المسيح، لأن الآية المذكوره تقول: إن المسيح لم يكن شاهدا على أمته جمعا، بل كان شاهدا عليها ما دام في الحياه (فتأمل).

ص: ٢٤٠

١-١) -المائده، ١١٧.

٢-٢) -راجع تفسير نور الثقلين و البرهان في ذيل الآية.



أمّا إذا أخذنا الشهاده بمعنى الشهاده العمليه، يعنى أن تكون أعمال «فرد نموذجى» مقياسا و معيارا لأعمال الآخرين كان التفسير حينئذ خاليا عن أى إشكال، لأنّ كل نبى بما له من صفات متميزه و خصال ممتازه يعدّ خير معيار لأمته، إذ يمكن معرفه الصالحين و الطالحين بمشابهتهم أو عدم مشابهتهم له، و حيث إن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم هو أعظم الأنبياء و الرسل الإلهيين كانت صفاته و أعماله معيارا لشخصيه كل الأنبياء و الرسل.

نعم لا يبقى هنا إلا سؤال واحد هو: هل جاءت الشهاده بهذا المعنى، أم لا؟ بيد أنه مع الانتباه إلى أنّ أعمال الرجال النموذجيين و تصرفاتهم و أفكارهم تشهد عمليا على أنه من الممكن أن يرقى إنسان ما إلى هذه الدرجه، و يطوى هذه المقامات و المراحل المعنويه لم يبد مثل هذا المعنى بعيدا فى النظر.

عندئذ يندم الكفار الذين عارضوا الرسول و عصوه، أى عند ما رأوا بأنّ أعينهم تلك المحكمه الإلهيه العادله، و واجهوا الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم، إنهم يندمون ندما بالغاً لدرجه أنّهم يتمنون لو أنّهم كانوا ترابا أو سووا بالأرض كما يقول القرآن الكريم فى الآيه الثانيه من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: **يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ**.

و قد ورد مثل هذا التعبير فى آخر سوره النبأ إذ يقول تعالى: **و يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا**.

و لكن لفظه **لَوْ تُسَوَّى** تشير إلى مطلب آخر أيضا، و هو: إنّ الكفار مضافا إلى أنّهم يتمنون أن يصيروا ترابا، يحبون أن تضيع معالم قبورهم فى الأرض أيضا و تسوى بالأرض حتى ينسوا بالمرّه، و لا يبقى لهم ذكر و لا خبر و لا أثر.

إنّهم فى هذه الحاله لا يمكنهم أن ينكروا أيه حقيقه واقعه و لا أن يكتموا شيئا: **و لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا** لأنه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

نعم، لا ينافى هذا الكلام ما جاء فى الآيات الأخر التى تقول: هناك من الكفار من يكتُم الحقائق يوم القيامة أيضا و يكذبون (١) لأن كذبهم و كتمانهم واقع قبل إقامة الشهود و قيام الشهادة، و أما بعد ذلك فلا مجال لأى كتمان، و لا سبيل إلى أى إنكار، بل لا بد من الاعتراف بجميع الحقائق.

و

قد روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى بعض خطبه أنه قال عن يوم القيامة «ختم على الأفواه فلا تكلم و تكلمت الأيدي و شهدت الأرجل و نطقت الجلود بما عملوا فلا يكتُمون الله حديثا». (٢)

هذا و يحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من لا يكتُمونَ اللهَ حديثاً أنهم يتمنون لو أنهم لم يكتُموا فى الدنيا أية حقيقته، خصوصا فى ما يتعلق برسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و على هذا تكون هذه العبارة عطفًا على جملة لَوْ تُسَوِّ بِهْمُ الْأَرْضُ .

و لكن هذا التفسير لا- ينجس مع ظاهر «لا- يكتُمون» الذى هو فعل مضارع، و لو كان المراد ما ذكره هذا الفريق من المفسرين لوجب أن يقول: «لم يكتُموا».

ص: ٢٤٢

١- ١) - مثل الآية (٢٢) و (٢٣) من سورة الأنعام، و الآية (١٨) من سورة المجادلة.

٢- ٢) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٨٢-٤٨٣، نقلا عن تفسير العياشى.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسِسُوا بِيُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا (٤٣)

التفسير

اشاره

بعض الأحكام الفقيهيه:

تستفاد من الآيه الحاضره عدّه أحكام إسلاميه هي:

١- حرمة الصّلاه في حال السكر، أى لا يجوز للسكرانى أن يقربوا الصّلاه لبطلان صلاتهم في حاله السكر، و فلسفه ذلك واضحه، فإن الصلاه حديث العبد إلى ربّه و مناجاته و دعاؤه، و لا بدّ أن يتمّ كل هذا في حاله الوعى الكامل، و السكرانى أبعد ما يكونون عن هذه الحاله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .

و هنا يمكن أن يطرح أحد سؤالاً- هو: أليس مفهوم الآيه هو المنع من شرب المسكرات إذا بقى أثرها و سكرها إلى وقت الصلاه، و هو ينطوى على دليل

جوازه فى سائر الحالات؟ و الإجابة على هذا السؤال تأتي- بإذن الله-مفصّله عند تفسير الآيه (٩٠) من سورة المائدة، إلا- أن الجواب الإجمالى هو: إن الإسلام استخدم لتطبيق الكثير من أحكامه أسلوب «التغيير التدريجى» فمثلا مسألة تحريم تعاطى الخمر هذه طبقها الإسلام فى مراحل، فهو أولا أعطاه صفه المشروب الغير المحبذ فى قبال «الرزق الحسن» (كما فى الآيه (٦٧) من سورة النحل «و رزقا حسنا») ثم منع من الاقتراب إلى الصلاة إذا كان السكر الناشئ منها لا يزال باقيا (كما فى الآيه الحاضره) ثم قارن بين منافعه و مضاره و رجحان مضاره و مساوئه، كما فى سورة البقره الآيه (٢١٩)، و فى المرحله الأخيره نهى عن الخمر بصوره قاطعه و صريحه، كما فى سورة المائدة الآيه (٩٠).

و أساسا ليس هناك من سبيل لتطهير المجتمع من جذور مفسده اجتماعيه أو خلقيه متجذره فى أعماق المجتمع و اقتلاعها من الجذور أفضل من هذا الأسلوب، و أجدى من هذا الطريق، و هو أن يهيا الأفراد تدريجا، ثم يتم الإعلان عن الحكم النهائى.

كما أنه لا بدّ من الالتفات إلى نقطه مهمه، هى أنّ الآيه الحاضره لا تجيز بأى وجه من الوجوه شرب الخمر، بل هى تتحدث فقط عن مسأله الاقتراب إلى الصلاة فى حال السكر، بينما التزمت الصمت بالنسبه إلى حكم شرب الخمر فى غير هذا المورد حتى يحين موعد المرحله النهائيه للحكم.

هذا مع الالتفات إلى أنّ أوقات الصلوات الخمس خاصه فى ذلك الزمان الذى كانت العاده فيه إقامة الصلوات الخمس فى أوقاتها، بحكم أنّها كانت متقاربه كان الإتيان بالصلاه فى حال الوعى يقتضى أن ينصرف الأشخاص عن تناول المسكرات فى الفترات الواقعه بين أوقات الفرائض انصرافا كليا، لأنّ السكر كان يستمر غالبا إلى حين حلول وقت الفريضة و على هذا كان الحكم

المذكور في الآيه الحاضره أشبه بالحكم النهائى و التحريم الأبدى المطلق.

كما أنّ هناك موضوعا لا بدّ من التذكير به، و هو أنّ الآيه الحاضره فسّرت في روايات عديده في كتب الشيعة و السنه بسكر النوم، يعنى لا تقربوا الصلاه ما لم تطردوا النوم عن عيونكم كامله لتعلموا ما تقولون.

و لكن يبدو للنظر أن هذا التفسير مستفاد من مفهوم: **حَتَّى تَعَلَّمُوا مَا تَقُولُونَ** و إن لم يدخل في مصداق «السكرارى» (١).

و بعبارة أخرى، يستفاد من جمله: **حَتَّى تَعَلَّمُوا مَا تَقُولُونَ** المنع عن الصلاه في كل حاله لا يتمتع فيها الإنسان بالوعى الكامل، سواء كان بسبب حاله السكر، أو بسبب ما تبقى من النوم.

كما أنّه يستفاد من هذه الجملة أيضا أنّ الأفضل عدم إقامة الصلاه عند الكسل أو قلّه التوجه، لأنّ حاله السابقه توجد في هذه الصوره بشكل ضعيف، و لعلّه لهذا السبب جاء في ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام من أنّه قال: «لا تقم إلى الصلاه متكاسلا، و لا متناعسا و لا متثاقلا و قد نهى الله عزّ و جلّ المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاه و هم سكارى...» (٢).

٢- بطلان الصلاه في حال الجنابه الذى أشير إليه بعبارة **وَ لَا جُنْبًا** ثم استثنى سبحانه من هذا الحكم بقوله: **إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ** أى إذا فقدتم الماء في السفر جاز لكم أن تقيموا الصلاه (شريطه أن تتيمموا كما يجيء في ذيل الآيه).

غير أن هناك تفسيراً آخر جاء لهذه الآيه في الروايات و الأخبار (٣)، هو أنّ المقصود من الصلاه في الآيه هو محل الصلاه-أى المسجد-أى لا تدخلوا المساجد و أنتم على جنابه، ثم استثنى العبور في المسجد بقوله:

ص: ٢٤٥

١- ١) -تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٨٣، و تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١١٧١.

٢- ٢) -تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٨٣، و قد جاء نظير هذا المضمون في صحيح البخارى أيضا.

٣- ٣) -وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٨٦.

يعنى يجوز لكم العبور فى المسجد و أنتم على جنباه و إن لم يجر لكم المكث و اللبث فيه.

و استفاد من بعض الروايات أن جماعه من المسلمين، و صحابه النبى كانوا قد بنوا بيوتهم حول المسجد النبوى بحيث تفتح أبوابها فى المسجد، فسمح لهم بأن يعبروا من المسجد و هم على جنباه دون أن يتوقفوا فيه.

و لكن لا- بد أن ننتبه إلى أن هذا التفسير يستلزم أن تكون لفظه الصلاة فى الآيه الحاضره قد أتت بمعنيين: أحدهما الصلاة نفسها، و الآخر محل الصلاة، لوجود بيان حكيمين مختلفين فى الآيه: أحدهما المنع و النهى عن الاقتراب إلى الصلاة فى حاله السكر، و الآخر الاجتناب عن دخول المساجد فى حاله الجنابه (طبعاً لا مانع و لا ضير فى استعمال لفظه واحده فى معنيين أو أكثر كما قلنا فى علم الأصول، و لكنّه خلاف الظاهر، و هو لا يجوز بدون قرينه، نعم يمكن أن تكون الروايات المذكوره قرينه على ذلك).

٣- جواز الصلاة، أو عبور المسجد بعد الاغتسال، هو المبين بقوله: **حَتَّى تَغْتَسِلُوا**.

٤- التيمم لذوى الأعذار، ثم تشير الآيه إلى حكم التيمم لذوى الأعذار فتقول:

**وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ**

و فى هذه العبارة من الآيه قد اجتمعت فى الحقيقه- كل موارد التيمم، فالمورد الأول هو ما إذا كان فى استعمال الماء ضرر على البدن، و المورد الآخر هو ما إذا تعذر على الإنسان الحصول على الماء (أم لم يمكن استعماله) و بقوله: **أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسَتُمُ النِّسَاءَ** إشاره إلى علل الاحتياج إلى التيمم و أسبابه، و معناه إذا أحدثتم حدثاً أو جامعتم النساء فلم تجدوا ماءً أى لم تقدرُوا على تحصيل الماء أو استعماله فَيَتَيَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً .

ثم أنه سبحانه يبين طريقه التيمم بقوله: **فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ** .

ثم أنه في ختام الآيه يشير إلى حقيقه أن الحكم المذكور ضرب من التخفيف عنكم، لأن الله كثير الصفح كثير الستر لذنوب عباده إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا .

## بحوث عند الآيه:

### إشاره

هنا لا بد من التنبيه إلى نقاط عديده:

١- إن عبارته فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً المبدوه بفاء التفريع ترتبط بعبارته أَوْ عَلَيَّ سَفَرٍ يعنى أنكم إذا كنتم فى سفر و لم تجدوا ماء للوضوء أو الغسل، فتحتاجون إلى التيمم، لأن الإنسان قلما تتفق له هذه الحاله و هو فى البلد، و من هنا يتبين بطلان ما قاله بعض المفسرين- مثل صاحب المنار- من أن مجرد السفر وحده كاف للتكليف بالتيمم بدل الوضوء حتى لو كان الشخص المسافر واجدا للماء، فإن فاء التفريع فى قوله فَلَمْ تَجِدُوا يبطل هذا الكلام، لأن المفهوم منه هو أن السفر قد يوجب أحيانا عدم التمكن من الماء، و هنا لا مناص من التيمم، لا أن السفر بوحده يسوغ التيمم، و العجب أن الكاتب المذكور تحامل على فقهاء الإسلام فى هذا المجال من دون مبرر لهذا التحامل.

٢- إن كلمه (أو) فى قوله تعالى: أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ هى بمعنى (الواو) لأن مجرد المرض أو السفر لا يوجب التيمم، بل يجب التيمم إذا تحققت موجبات التيمم أو الغسل فى هذا الحال.

٣- إن «العفه فى البيان» المعهوده من القرآن دفعت بالقرآن فى هذه الآيه- كما فى الآيات الكثيره الاخرى- إلى أن يعبر عن قضاء الحاجه بعبارته تفهم المراد من جانب، و لا تكون غريبه و غير مناسبه من جانب آخر إذ يقول: أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ .

و توضيح ذلك أن «الغائط»-خلاف ما يفهم منه هذا اليوم-يعنى فى أصل اللغه المنخفض من الأرض الذى كان يقصده الإنسان و سكان الصحارى و المسافرين فى تلك العهود لقضاء الحاجه فيه ليستريح عن أعين الناظرين، و على هذا يكون معنى هذه الجملة هو: إذا عاد أحدكم من المكان المنخفض من الأرض الذى هو فى جملة كنايه عن قضاء الحاجه.

و الملفت للنظر أن القرآن استعمل لفظه «أحد منكم» بدل ضمير الجمع المخاطب المصدر بالفعل أى «جئتم» ليحافظ على خصيصه «عفه البيان» التى تجلى بها القرآن الكريم أكثر فأكثر.

و هكذا الحال عند ما يتحدّث عن الجماع فإنّ القرآن يشير إلى هذا الموضوع بعبارته **أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ** و لفظه اللمس كنايه جميله عن المقاربه الجنسيه.

٤-ستتحدث بتفصيل حول بقيه خصوصيات التيمم عند تفسير قوله تعالى:

صَعِيدًا طَيِّبًا

فى ذيل الآيه (٦) من سوره المائده إن شاء الله.

#### فلسفه التيمم:

يتساءل كثيرون: ما الفائدة من ضرب اليدين بالتراب و مسح الجبين و ظهر اليدين بهما خاصه أننا نعلم أن كثيرا من الأترابه ملوثه، و ناقله للميكروبات و الجراثيم؟ فى جواب هذه الأسئلة نشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: الفائدة الخلقية، فإن التيمم إحدى العبادات، و تتجلى فيها روح العباده بكل معنى الكلمه، لأن الإنسان يمس جبهته التى هى أشرف الأعضاء فى بدنه بيديه المتربتين ليظهر بذلك خضوعه لله و تواضعه فى حضرته و لسان حاله يقول:

يا ربى إن جبهتى و كذا يداى خاضعات أمامك إلى أبعد حدود الخضوع و التواضع، ثم يتوجه عقيب هذا العمل إلى القيام بالصلاه و سائر العبادات



المشروطه بالغسل و الوضوء، و بهذا الطريق يزرع التيمم فى نفس الإنسان روح الخضوع لله، و ينمى فيه صفه التواضع فى حضره ذى الجلال، و يدربه على العبوديه له سبحانه، و الشكر لأنعمه تعالى.

الثانيه:الفائده الصحيه،فقد ثبت اليوم بأنّ التراب بحكم احتوائه على كميات كبيره من البكتريا تزيل التلوثات،إن البكتريات الموجوده فى التراب و التى تعمل على تحليل الموارد العضويه و إباده كل أنواع العفونه،توجد-فى الأ-غلب- بوفره فى سطح الأرض،و الأعماق القريبه التى يمكن لها الانتفاع بنور الشمس و الهواء بصوره أكثر،و لهذا عند ما تدفن جثث الأموات من البشر أو الحيوان فى الأرض،و كذا ما يشابهها من المواد العضويه،نجدها تتحلل فى مدّه قصيره تقريبا و تتلاشى بؤر التعفن على أثر هجوم البكتريات عليها،و من المسلّم أنّ هذه الخاصيه لو لم تكن فى التربه لتحولت الكره الأرضيه فى مدّه قصيره إلى بؤره عفونه قاتله.

إنّ للتربه خاصيه تشبه مواد«الأنثيوبوتيك»التي لها أثر فعال جدّا فى قتل و إباده الميكروبات.

و على هذا لا- يكون التراب عاريا عن التلوث فقط،بل هو مطهر فعال للتلوثات،و يمكنه-من هذه الجبهه-أن يحل محل الماء بفارق واحد،هو أن الماء يحلل الميكروبات،و يذهب بها معه،فى حين أن مفعول التراب يقتصر على قتل الميكروبات فقط.

و لكن يجب الانتباه إلى أنّ التراب الذى يستعمل فى التيمم يجب أن يكون طاهرا نظيفا،كما أشار اليه القرآن الكريم فى تعبيره الجميل إذا يقول: طَيِّبًا .

و الجدير بالانتباه أنّ التعبير ب«الصعيد»المشتق من«الصعود»يشير إلى أن أفضل أنواع التربه الذى ينبغى أن تختاره للتيمم هو التريه الموجوده فى سطح الأرض،يعنى تلك التربه التى هى عرضه لأشعه الشمس و المليئه بالهواء

والبكتريا المبيده للميكروبات، فإذا كانت تلك التربه المستعمله فى التيمم طيبه و طاهره أيضا كان التيمم بها ينطوى على الآثار المذكوره من دون أن يكون فيه أى ضرر أو أيه مضاعفات. (و سنتحدث فى هذا المجال أيضا عند تفسير المقطع الأخير من الآيه (٦) فى سورة المائده).

ص : ٢٥٠

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَهَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥)

التفسير

فى هذه الآيات يخاطب الله سبحانه نبيه الكريم بعبارة حاكيه عن التعجب و الاستغراب قائلا: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَهَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ أى عجيب أمر هؤلاء الذين أتوا نصيبا من الكتاب السماوى، ولكنهم بدل أن يقوموا بهدايه الآخرين و إرشادهم فى ضوء ما أوتوا من الهدى، فإنهم يشترون الضلاله لأنفسهم و يريدون أن تضلوا أنتم أيضا.

و بهذا الطريق فإن ما نزل لهدايتهم و هدايه الآخرين تحول إلى وسيله لضلالهم و إضلال الآخرين بسوء نيتهم، لأنهم لم يكونوا أبدا بصدد الحقيقه، بل كانوا ينظرون إلى كل شىء بمنظار النفاق و الحسد و الماديه السوداء.

ثم يقول سبحانه: إِنَّ هَؤُلَاءِ و إن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لكم إلا أنهم أعداؤكم الحقيقون وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ .

و آيه عداوه أشدّ و أكثر من أن يكرهوا هدايتكم و يخالفوا سعادتكم، تاره

باللسان و تاره عن طريق إظهار النصح، و ثالثه عن طريق الذم، و يجتهدون فى تحقيق أهدافهم المشؤومه فى كل ظرف و زمان بنحو خاص، و شكل معين.

و لكن لا تخافوا عدواؤهم أبدا و لا تستوحشوا لمواقفهم المعاديه فلستم وحدكم فى الميدان، فكفاكم أنّ الله قائدكم و وليكم و ناصركم: وَ كَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَ كَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا .

لأنه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئا، فإذا تجاهلتم أحاديثهم و وساوسهم لم يبق أى مجال للخوف و القلق.

ثم إنه يستفاد من عبارته: أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ أَنَّ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ لَمْ يَكُنْ كُلُّ مَا فِي الْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ «التوراه» بل كان بعضه و قسما منه، و هذا يتفق مع حقائق التاريخ المسلمه أيضا، تلك الحقائق التى تؤكد ضياع أو تحريف أقسام من التوراه الحقيقيه مع مضى الزمن.

ص: ٢٥٢

اشاره

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَإِذْ نُسِرْنَا أَصَمْنَا وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَإِذْ نُسِرْنَا لَكُنَّا مِنَّا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

التفسير

اشاره

جانب آخر من أعمال اليهود:

تعقيبا على الآيات السابقة تشرح هذه الآيه صفات جماعه من أعداء الإسلام، و تشير إلى جانب من أعمالهم و مواقفهم.

فتقول أولًا: إنّ أحد أعمال هذه الجماعه هو تحريف الحقائق، و تغيير حقيقه الأوامر الإلهيه: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ أَي أَنَّ جماعه من اليهود يحرفون الكلمات عن مواضعها.

و هذا التحريف قد يكون له جانب لفظي، و قد يكون له جانب معنوي و عملي.

أمّا العبارات اللاحقه فتفيد أن المراد من التحريف فى المقام هو التحريف اللفظي و تغيير العبارة، لأنّه تعالى يقول بعد هذه الجملة: وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا

يعنى بدل أن يقولوا «سمعنا و أطلعنا» يقولون «سمعنا و عصينا» و هذا يشبه تماما كلام من يقول مستهزاء: «منك الأمر و منّا عدم السماع»، هذا و العبارات الاخرى فى هذه الآيه خير شاهد على هذا القول.

ثمّ يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائيه المزيجه بروح التحدى و الصلافه حيث يقول: إنهم يقولون: وَ اسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ و بهذا الطريق يتوسل هذا الفريق للحفاظ على جماعه من المغفلين،-مضافا إلى سلاح تحريف الحقائق و الخيانه فى إبلاغ الكتب السماويه التى كانت تشكل الوسيله الحقيقيه لنجاه ذلك الفريق و شعبهم من مخالف الطغاه الظلمه مثل فرعون-يتوسلون بسلاح الاستهزاء و السخرية الذى هو سلاح الأنايين و المغرورين و وسيله العتاه و المعاندين،و ربّما استخدموا مضافا إلى كل ذلك عبارات كان المسلمون المخلصون يرددونها أمام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مع تغييرات فى معانيها تكميلا لاستهزائهم و سخريتهم، مثل جمله «راعنا» التى معناها «تفقدنا و أمهلنا» و كان المسلمون الصادقون فى صدر الإسلام و مطلع الدّعوه المحمّديه يرددونها أمام النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ليتمكنوا من سماع صوت النّبي و كلامه بنحو أفضل،و لكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجملة لإيذاء النّبي و يسيئون استخدامها و يكررونها أمام النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هم يقصدون منها معناها العبرى الذى هو «سمعنا غير مسمع» أو «أسمعنا لا سمعت» أو معناها العربى الآخر،و هو ما يرجع إلى الرعونه (1) الذى يعنى الحمق،قصدنا منهم إلى أن عمل النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كان -و العياذ بالله-خداع الناس و استغلال سذاجتهم.

و قد كان هذا كله بهدف إزاحه الحقائق عن محورها الأصلي بألسنتهم

ص: ٢٥٤

١ - ١) -راعنا إذا أخذت مشتقه من ماده الرعى تكون بمعنى فعل الطلب من المراعاة و المراقبه،و بمعنى أمهلنا،و إذا أخذت مشتقه من الرعونه تكون بمعنى «أخدعنا و اجعلنا حمقاء عندك»،يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء و السب،و لا بدّ من الالتفات إلى أن راعنا على الوجه الأوّل تكون بدون تشديد النون،و على الوجه الثانى بتشديد النون،و يستفاد من جمله من الروايات أن اليهود كانوا يتعمدون تشديد النون فى راعنا و مد آخرها.

و الطعن فى الدين الحق، و الشريعة الحقه: لَيَّا بِالسِّنِّهِمْ وَ طَعْنَا فِي الدِّينِ .

(و اللى على وزن الحى بمعنى القتل، مثل قتل الجبل و ما شابهه، و يأتى أيضا بمعنى التغيير و التحريف).

وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أَسْمَعُ وَ أَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَقْوَمَ

أى أنهم إن سلكوا الطريق المستقيم و تركوا كل ذلك اللجاج و العناد، و معاداه الحق، و سوء الأدب، و الجراه و القحه و قالوا: سمعنا كلام الله و أطعنا، فاستمع إلى كلامنا و أمهلنا لكى ندرك الحقائق إدراكا كاملا، لكان ذلك من مصلحتهم، و كان فى ذلك منفعتهم، و أكثر انسجاما و توافقا مع العدل و المنطق و العدل و الأدب.

وَ لَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا

أى أنهم لن يتخلوا عن هذا السلوك الشائن بسرعه، كيف؟ و قد ابتعدوا عن رحمه الله بسبب ما هم عليه من كفر و تمرد و طغيان، و ماتت أفئدتهم و تحجرت بحيث صار من المتعذر أن تخضع للحق، و أن تحيا من رقتها بهذه السرعه، اللهم إلا بعضهم ممن يمتلك فؤادا طاهرا و عقلا يقظا، فهؤلاء هم المستعدون للقبول بالحقائق، و الاستماع إلى نداء الحق و الإيمان به.

و قد اعتبر جماعه هذه الجمله من مغيبات القرآن و إخباراته الغيبية، لأنه- كما يخبر القرآن الكريم فى هذه الآيه- لم يؤمن من اليهود طوال التاريخ الإسلامى و لم يدعن للحق إلا جماعه قليله، و أمّا غيرهم- و هم الأكثرية الساحقه -فقد بقوا- إلى الآن- على عدائهم الشديد، و خصومتهم للإسلام، و لم يزالوا يكيدون له المكائد، و يحيكون ضده المؤامرات.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)

التفسير

اشاره

مصير المعاندين:

تعقيباً على البحث السابق في الآيه المتقدمه حول أهل الكتاب، وجه الخطاب في هذه الآيه إليهم أنفسهم، إذ قال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ أى آمنوا بالقرآن الكريم الذى تجددونه موافقاً لما جاء فى كتبكم من العلامات و البشائر، ولا شك أنكم أولى من غيركم- و لديكم مثل هذه الأدله و العلائم- بالإيمان بهذا الدين الطاهر.

ثم إن الله سبحانه يهددهم بأن عليهم أن يخضعوا للحق و يدعوا له قبل أن يصابوا بإحدى عقوبتين، الأولى: أن تمنحى صورهم كامله، و أن تذهب عنهم جوارحهم و أعضاؤهم التى يرون و يسمعون و يدركون بها الحق، كلها ثم تقلب و جوههم إلى خلف كما يقول سبحانه: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ (١) وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا

ص: ٢٥٦

١- ١) -الطمس هو إزاله الأثر بالمحو، مثل أن نهدم بيتا ثم نزيل أثره بالمره- ولكنه يطلق- كناية- على ما فقد أثره



و لعلنا لسنا بحاجة إلى أن نذكر بأن المراد من هذه العبارة هو تعطل عقولهم و حواسهم من حيث عدم رؤيه حقائق الحياه و إدراكها، و الانحراف عن الصراط المستقيم كما جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام من أن المراد: «نطمسها عن الهدى فنردّها على أدبارها في ضلالتها ذمّا لها بأنّها لا تفلح أبدا» (١).

توضيح ذلك أنّ أهل الكتاب، و بخاصّه اليهود منهم، عند ما أعرضوا عن الإذعان بالحق رغم كل تلك العلائم و البراهين، و عاندوا تعنتا و استكبارا و أظهروا مواقفهم المعانده في أكثر من ساحه، صار العناد و الزور طبيعتهم الثانيه شيئا فشيئا، و كأن أفكارهم قد مسخت و كأن عيونهم قد عميت و آذانهم قد صمت، و مثل هؤلاء من الطبيعي أن يتقهقروا في طريق الحياه بدل أن يتقدموا، و أن يرتدوا على الأدبار بدل أن يتحركوا إلى الأمام، و هذا هو جزاء كل من ينكر الحق عنادا و عتوا، و هذا في الحقيقه يشبه ما أشرنا اليه في مطلع سوره البقره الآيه (٦).

و على هذا، فإن المراد من «الطمس و عفو الأثر و الرد على العقب» في الآيه الحاضره هو المحو الفكري و الروحي، و التأخر المعنوي.

و أما العقوبه الثانيه التي هددهم الله بها فهي اللعن و الطرد من رحمته تعالى إذ قال: **أَوْ نُلْعَنُهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ** (٢).

و هنا يطرح سؤال و هو: ما الفرق بين هذين التهديدين، حتى يفصل بينهما ب «أو»؟

(١)

و خاصيته.

ص: ٢٥٧

١-١) -مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٥، في ذيل الآيه الحاضره.

٢-٢) -أصحاب السبت هم الذين ستأتى قصّتهم في سوره الأعراف عند تفسير الآيات (١٦٣-١٦٦) و هم جماعه من اليهود كانوا قد كلفوا بتعطيل العمل و الكسب في يوم السبت، و لكنهم اشتغلوا بالصيد في ذلك اليوم بالرغم من نهى نبيهم، فتجاوزوا في الطغيان الحدّ، فابتلاهم الله بأشد العقوبات.

ذهب بعض المفسرين إلى أنّ التهديد الأول ينطوى على جانب معنوى، و التهديد الثانى ينطوى على جانب ظاهرى و مسخ جسمى، و ذلك بقريته أن الله قال فى هذه الآيه: **كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ** و نحن نعلم أن أصحاب السبت- كما يتضح من مراجعه الأعراف- قد مسخوا مسخا ظاهريا و جسديا.

و ذهب آخرون إلى أن هذا اللعن و الطرد من رحمه الله ينطوى أيضا على جانب معنوى بفارق واحد، هو أنّ التهديد الأول إشاره إلى الانحراف و الضلال و التقهقر الذى أصابهم، و التهديد الثانى إشاره إلى معنى الهلاك و الفناء (الذى هو أحد معانى اللعن).

خلاصه القول: إنّ أهل الكتاب بإصرارهم على مخالفه الحق يسقطون و يتقهقرون أو يهلكون.

ثمّ إنّ هنا سؤالا آخر هو: هل تحقق التهديد فى شأن هؤلاء، أم لا؟ لا شك أنّ التهديد الأول قد تحقق فى شأن كثير منهم، و أما التهديد الثانى فقد تحقق فى بعضهم، و لقد هلك كثير منهم فى الحروب الإسلاميه، و ذهبت شوكتهم و قدرتهم. و إنّ تأريخ العالم ليشهد كيف تعرضوا بعد ذلك لكثير من الضغوطات فى البلاد المختلفه، و فقدوا الكثير من أفرادهم و عناصرهم، و خسروا الكثير من طاقاتهم، و لا يزالون إلى الآن يعيشون فى ظروف صعبه و أحوال قاسيه.

ثمّ إنّ الله يختم هذه الآيه بقوله: **وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا لِيُوَكِّدَ** هذه التهديدات، فإنّه لا توجد قوه فى الأرض تستطيع أن تقف فى وجه إرادته الله و مشيئته.

اشاره

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)

التفسير

اشاره

أرجى آيات القرآن:

الآيه الحاضره تعلن بصراحه أنّ جميع الذنوب و المعاصي قابله للمغفره و العفو، إلا «الشرك» فإنه لا- يغفر أبداً، إلا أن يكف المشرك عن شركه و يتوب و يصير موحداً، و بعباره أخرى: ليس هناك أى ذنب قادر بوحده على إزالة الإيمان، كما ليس هناك أى عمل صالح قادر على خلاص الإنسان إذا كان مقروناً بالشرك إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

إن ارتباط هذه الآيه بالآيات السابقه إنما هو من جهه أن اليهود و النصارى كانوا بشكل من الاشكال مشركين، كل طائفه بشكل معين، و القرآن يندرهم- بهذه الآيه- بأن يتركوا هذه العقيدته الفاسده التى لا يشملها العفو و الغفران، ثم يبين فى خاتمه الآيه دليل هذا الأمر إذ يقول: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (١).

ص: ٢٥٩

و هذه الآيه من الآيات التي تطمئن الموحدين إلى رحمة الله و لطفه، لأنّ في هذه الآيه قد بين سبحانه إمكان العفو عن جميع المعاصي و الذنوب غير الشرك، فهي كما جاء

في حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام أرجى آيات القرآن الكريم إذ قال: «ما في القرآن آيه أرجى عندي من هذه الآيه». و هذه الآيه - كما قال ابن عباس «ثمانى آيات نزلت في سورة النساء، خير لهذه الأئمة ممّا طلعت عليه الشمس و غربت و عدّ منها هذه الآيه» (١).

لأنّ هناك كثيرين يرتكبون المعاصي العظيمة ثمّ يقنطون من رحمة الله و غفرانه إلى الأبد، فيتسبب قنوطهم في أن يسيروا بقيه عمرهم في طريق المعصية و الخطأ بنفس القوّه و الإصرار، و لكن الأمل في عفو الله و غفرانه خير و سيّله رادعه بالنسبه إلى هؤلاء، و خير مانع من تماديهم في المعصية و الطغيان، و على هذا الأساس فإنّ هذه الآيه تهدف - في الحقيقة - إلى مسأله تربويه.

فإذا رأينا عصاه مجرمين (كما يقول بعض المفسّرين، و يعلم ذلك من الروايات المذكوره في ذيل هذه الآيه) أمثال «وحشى» غلام هند و قاتل بطل الإسلام حمزه بن عبد المطلب عم النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم يؤمن مع نزول هذه الآيه، و ينتهي عن جرائمه و شقاوته، فإنّ من الطبيعي أن يوجد ذلك مثل هذا الأمل لدى العصاه الآخرين، فلا يأسوا من رحمة الله و غفرانه، و لا يتورطوا في المزيد من الذنوب و المعاصي.

و يمكن أن يقال: إنّ هذه الآيه من شأنها أن تشجع الناس في الوقت ذاته على الذنب و تغريهم بالمعصيه، لما فيها من الوعد بالعفو عن «جميع الذنوب ما عدا الشرك».

و لكن لا شك أنّ المراد من الوعد بالعفو و المغفره ليس هو الوعد المطلق من

(١)

ذلك الشيء و يخربه استعمال في كل مخالفه، و من جمله ذلك الشرك و الكذب و التهمه.

ص: ٢٦٠

كل قيد و شرط، بل يشمل الأشخاص الذين يظهرون من أنفسهم نوعاً من اللياقة و الصلاح لمثل هذا العفو و الغفران، و كما أشرنا إلى ذلك في ما سبق، فإن مشيئة الله - في هذه الآيه و الآيات المشابهه لها - بمعنى الحكمة الإلهيه، لأن مشيئته تعالى لا تنفصل عن حكمته أبداً، و من البديهي و المسلم أن حكمته لا تقتضى أن ينال أحد العفو الإلهي من دون قابليه و صلاح لذلك.

و على هذا الأساس فإن الجوانب و الأبعاد التربويه البناءه في هذه الآيه تفوق - بمراتب كثيره - إمكان سوء استخدام الوعد الموجود فيها.

### أسباب مغفره الذنوب:

ثم إنَّ النقطه الجديده بالانتباه إنَّ هذه الآيه لا ترتبط بمسأله التوبه، لأنَّ التوبه و العوده عن الذنب تغسل جميع الذنوب و المعاصي حتى الشرك، بل المراد هو إمكان شمول العفو الإلهي لمن لم يوفق للتوبه، يعنى الذين يموتون قبل الندم من ذنوبهم، و بعد الندم و قبل جبران ما بدر منهم من الأعمال الطالحه بالأعمال الصالحه.

و توضيح ذلك: أنه يستفاد من آيات عديده في القرآن الكريم أن وسائل التوصل إلى العفو و المغفره الإلهيه متعدده، و يمكن تلخيصها في خمسه أمور:

١- التوبه و العوده إلى الله تعالى، المقرونه بالندم على الذنوب السابقه، و العزم على الاجتناب عن الذنب و المعصيه في المستقبل، و جبران و تلافى الأعمال الطالحه السالفه بالأعمال الصالحه (و الآيات الداله على هذا المعنى كثيره) و من جملتها قوله سبحانه: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ (١).

٢- الأعمال الصالحه المهمه جدّاً و التي تسبب العفو عن الأعمال القبيحه

ص: ٢٤١

كما يقول سبحانه: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ (١).

٣- الشفاعة التي مرّ شرحها في المجلد الأول عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقره.

٤- الاجتناب عن المعاصى الكبيره الذى يوجب العفو عن المعاصى الصغيره كما مرّ شرحها عند تفسير الآيتين (٣١ و ٣٢) من هذه السوره.

٥- العفو الإلهى الذى يشمل الأشخاص اللائقين له، كما مرّ بحثه فى تفسير هذه الآيه.

هذا و نكرر تذكيرنا بأن العفو الإلهى مشروط و مقيد بالمشيئه الإلهيه، و لا يكون قضيه مطلقه دون أى قيد أو شرط، بل تشمل هذه المشيئه و الإراده خصوص الأشخاص الذين يثبتون بصوره عمليه لياقتهم و صلاحيتهم لهذه الهبه الإلهيه بنحو من الأنحاء.

و من هنا يتضح لما ذا لا يكون الشرك ممّا يشمل العفو و الغفران الإلهى، فالسبب فى ذلك هو: إنّ المشرك قد قطع صلته بالله بصوره كامله، و ارتكب ما يخالف كل الشرائع و الأديان و القوانين الطبيعيه و التواميس الكونيه.

ص: ٢٦٢

## اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِيَلِّ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ  
إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠)

## سبب النزول

روى فى كثير من التفاسير فى ذيل هذه الآيه أنّ اليهود و النصارى كانوا يرون لأنفسهم أموراً و امتيازات، فهم - كما نرى ذلك فى آيات القرآن الكريم عند الحكاياه عنهم - كانوا يقولون: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ رَبِّمَا قَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى (الآيه ١٨) من سوره المائده، و الآيه (١١١) من سوره البقره) فنزلت هذه الآيات تبطل هذه التصورات و المزاعم.

## التفسير

## اشاره

## تزكيه النفس

تزكيه النفس (١):

قال تعالى فى الآيه الأولى من الآيتين الحاضرتين: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ

ص: ٢٦٣

١ - ١) - يزكون من مادّه «تزكيه» بمعنى تطهير، و تأتى أحياناً بمعنى التريبه و التنميه، ففى الحقيقه إذا كانت التزكيه مقترنه بالعمل فإنها تعتبر امراً محموداً، و إلا لو كانت مجرد ادعاء و كلام فارغ فهى مذمومه.

و فى هذه إشاره إلى إحدى الصفات الذميمة التى قد يتلى بها كثير من الأفراد و الشعوب، إنها صفة مدح الذات و تزكيه النفس، و ادعاء الفضيله لها.

ثم يقول سبحانه: بَلِ اللّٰهُ يُرَكِّبُ مَنْ يَشَاءُ فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِى يَمْدَحُ الْأَشْخَاصَ وَ يَزْكِيهِمْ طَبَقًا لِّمَا يَتَوَفَّرُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَّوَاهِلَاتٍ وَ خِصَالٍ حَسَنَةٍ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ، وَ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ الْمَشِيئَةِ الْبَالِغَةِ، وَ لَيْسَ اعْتِبَاطًا أَوْ عِبْثًا. وَ لَذَلِكَ فَهُوَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مَقْدَارَ فَيْتِيلٍ: وَ لَا يُظْلَمُونَ فَيْتِيلًا (١).

و فى الحقيقه أنّ الفضيله هى ما يعتبرها الله سبحانه فضيله لا ما يدعيه الأشخاص لأنفسهم انطلاقا من أنانيتهم، فيظلمون بذلك أنفسهم و غيرهم.

إن هذا الخطاب و إن كان موجها إلى اليهود و النصارى الذين يدعون لأنفسهم بعض الفضائل دونما دليل، و يعتبرون أنفسهم شعوبا مختاره فيقولون أحيانا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً (٢) و يقولون تاره أخرى: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُؤُهُ (٣) إلا أنّ مفهومه لا يختص بقوم دون قوم، و جماعه دون جماعه، بل يشمل كل الأشخاص أو الأمم المصابه بمثل هذا المرض الوبى، و هذه الصفة الذميمة.

إنّ القرآن يخاطب جميع المسلمين فى (سوره النجم-آيه ٣٢) فيقول:

فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .

إنّ مصدر هذا العمل هو الإعجاب بالنفس و الغرور، و العجب الذى يتجلى شيئا فشيئا فى صورته امتداح الذات و تزكيه النفس، بينما ينتهى فى نهايه المطاف إلى التكبر و الاستعلاء على الآخرين.

إنّ هذه العاده الفاسده-مع الأسف-من العادات الشائعه بين كثير من

ص: ٢٦٤

١-١) -القتيل فى اللغه بمعنى الخيط الدقيق الموجود بين شقى نواه التمر، و يأتى كناية عن الأشياء الصغيره و الدقيقه جدا، و أصله من ماده «قتل» بمعنى البرم.

٢-٢) -البقره، ٨٠.

٣-٣) -المائده، ١٨.



الشعوب و الفئات و الأشخاص، و هى مصدر الكثير من المآسى الاجتماعيه و الحروب و حالات الاستعلاء و الاستعمار.

إنّ التاريخ يرينا كيف أن بعض الأمم فى العالم كانت تزعم تفوقها على الشعوب و الأمم الاخرى تحت وطأه هذا الشعور و الإحساس الكاذب، و لهذا كانت تمنح لنفسها الحق فى أن تستعبد الآخرين، و تتخذهم لأنفسها خولا و عبيدا.

لقد كان العرب الجاهليون مع كل التخلف و الانحطاط و الفقر الشامل الذى كانوا يعانون منه، يرون أنفسهم «العنصر الأعلى» بل و كانت هذه الحاله سائده حتى بين قبائلهم حيث كان بعض القبائل يرى نفسه الأفضل و الأعلى.

و لقد تسبب الإحساس بالتفوق لدى العنصر الألماني و الإسرائيلي فى وقوع الحروب العالميه أو الحروب المحليه.

و لقد كان اليهود و النصارى فى صدر الإسلام يعانون-أيضا-من هذا الإحساس و الشعور الخاطئ و هذا الوهم، و لهذا كانوا يستثقلون الخضوع أمام حقائق الإسلام، و لهذا السبب شدد القرآن الكريم النكير-فى الآيه اللاحقه الثانيه-على هذا التصور و شجب هذا الوهم، و هم التفوق العنصرى، و يعتبره نوعا من الكذب على الله و الافتراء عليه سبحانه، و معصيه كبرى و ذنبا بينا إذ يقول سبحانه: **أُنظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ، وَ كَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا** أى أنظر كيف أن هذه الجماعه بافتعالها لهذه الفضائل و ادعائها لنفسها من ناحيه، و نسبتها إلى الله من ناحيه أخرى، تكذب على الله، و لو لم يكن لهذه الجماعه أى ذنب إلا هذا لكفى فى عقوبتهم.

يقول الإمام على عليه السلام فى حديثه المعروف ل«همام» الذى يذكر فيه صفات المتقين:

«لا يرضون من أعمالهم القليل، و لا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، و من

أعمالهم مشفقون إذا زكى أحد منهم خاف ممّا يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسى من غيرى و ربّى أعلم بى من نفسى، اللّهم لا تؤاخذنى بما يقولون، و اجعلنى أفضل ما يظنون، و اغفر لى ما لا يعلمون».

ص: ٢٦٦

إشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا  
(٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)

سبب النزول

قال كثير من المفسرين- في شأن نزول الآيتين الحاضرتين: أنه بعد معركة «أحد» توجه أحد أقطاب اليهود وهو «كعب بن الأشرف» مع سبعين شخصا من اليهود إلى مكة للتحالف مع مشركي مكة ضد رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم و نقض ما كان بينهم وبين رسول الله من الحلف.

فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مشواه و نزلت اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: أنكم أهل كتاب و محمّد صاحب كتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكر منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين (و أشاروا إليها) و آمن بهما، ففعل.  
ثم اقترح كعب بن الأشرف على أهل مكة قائلا: يا أهل مكة ليجيء منكم ثلاثون و منا ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ هذا البيت لنجهدن على

قتال محمّد، ففعلوا ذلك.

فلَمَّا فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب و تعلم، و نحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى طريقا و أقرب إلى الحق، نحن أم محمّد؟ قال كعب: اعرضوا على دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء (و هي الناقه العظيمة السنام) و نسقيهم الماء، و نقرى الضيف، و نفك العاني، و نصل الرحم، و نعمر بيت ربنا، و نطوف به، و نحن أهل الحرم، و محمّد فارق دين آبائه، و قاطع الرحم، و فارق الحرم، و ديننا القديم، و دين محمّد الحديث.

فقال كعب: أنتم و الله أهدى سبيلا ممّا عليه محمّد.

فأنزل الله تعالى الآيات الحاضره إجابه لهم وردا عليهم:

## التفسير

## إشاره

## المداهنون:

إن الآيه الأولى من الآيتين الحاضرتين تعكس-بملاحظه- ما ذكر في سبب النزول قريبا-صفه أخرى من صفات اليهود الذميمة، و هي أنّهم لأجل الوصول إلى أهدافهم كانوا يداهنون كل جماعه من الجماعات، حتى أنّهم لكي يستقطبوا المشركين سجدوا لأصنامهم، و تجاهلوا كل ما قرءوه في كتبهم، أو عملوا به حول صفات رسول الله صلى الله عليه و آله و سلمّ و عظمه الإسلام، بل و ذهبوا-بغيه إرضاء المشركين- إلى ترجيح عقيدته الوثنيين بما فيها من خرافات و تفاهات و فضائح على الإسلام الحنيف، مع أنّ اليهود كانوا من أهل الكتاب، و كانت المشتركات بينهم و بين الإسلام تفوق بدرجات كبيره ما يجمعهم مع الوثنيين، و لهذا يقول سبحانه في هذه الآيه مستغرابا: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ هِيَ الْأَصْنَامُ؟ وَ لَكِنَّمْ لَا يَقْتَنَعُونَ بِهَذَا، وَ لَا يَقْفُونَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بل: وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هُوَ لَا يَهْدِي مِنَ الدِّينِ آمَنُوا سَبِيلًا .

ص: ٢٤٨

استعملت لفظه «الجبت» في هذه الآيه من القرآن الكريم خاصّه، وهو اسم جامد لا- تعريف له في اللغة العربيه، و يقال أنّه يعنى «السّحّر» أو «السّباحر» أو «الشّيطان» بلغه أهل الحبشه، ثمّ دخل في اللغة العربيه و استعمل بهذا المعنى، أو بمعنى الصنم أو أى معبود غير الله في هذه اللغه، و يقال: أنه في الأصل «جبس» ثمّ أبدل «س» إلى «ت».

و أمّا لفظه «الطّاغوت» فقد استعملت في ثمانية موارد من القرآن الكريم، و هى- كما قلنا في المجلد الأوّل من هذا التّفسير لدى الحديث عن الآيه (٢٥٦) من سوره البقره- صيغه مبالغه (١) من ماده الطغيان، بمعنى التعدى و تجاوز الحدّ، و يطلق على كل شىء موجب لتجاوز الحدّ (و منها الأصنام) و لهذا يسمى الشيطان، و الصنم و الحاكم الجبار المتكبر، و كل معبود سوى الله، و كل مسيره تنتهى إلى غير الحق، طاغوتا.

هذا هو المعنى الكلى لهاتين اللفظتين.

أمّا المراد منهما في الآيه المبحوثة الآن، فذهب المفسرون فيه مذاهب شتى.

فقال البعض بأنهما اسمان لصنمين سجد لهم اليهود في القصّه السابقه.

و قال آخرون: الجبت هنا هو الصنم، و الطّاغوت هم عبده الأصنام، أو حماتها الذين كانوا يمثلون تراجمه الأصنام الذين كانوا يتكلمون بالتكذيب عنها ليخدعوا الناس (٢)، و هذا المعنى أوفق لما جاء في سبب النزول و تفسير الآيه، لأنّ اليهود سجدوا للأصنام كما خضعوا أمام عبدتها الوثنيين أيضا.

ثمّ إنّه سبحانه بين- في الآيه الثانيه- مصير أمثال هؤلاء المداهنين قائلا:

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا

ص: ٢٦٩

١- ١) -تفسير المنار، ج ٣، ص ٣٥، و ذهب البعض إلى أنه مصدر استعمل بالمعنى الوصفى و صيغه المبالغه.

٢- ٢) -تفسير التبيان، و تفسير روح المعانى.

إن اليهود- كما تقول هذه الآيه- لم يحصلوا من مداهنتهم الفاضحه على نتيجة، بل انهزموا فى النهايه، و تحققت نبوءه القرآن الكريم فى شأنهم.

إن الآيات الحاضره و إن كانت قد نزلت فى شأن جماعه خاصه، و لكنها لا تختص بهم حتما، بل تشمل كل الأشخاص المداهنين المصلحين (الانتهازيين) الذين يضحون بشخصيتهم و مكانتهم، بل و إيمانهم و معتقداتهم فى سبيل الوصول إلى مآربهم السافله و أغراضهم الدنيئه.

فإن هؤلاء أبعد ما يكونون عن رحمه الله فى الدنيا و الآخره، و غالبا ما يؤول أمرهم إلى الهزيمة و الفشل.

إن الجدير بالانتباه هو أن هذه الحاله أو الصفه الذميه المذكوره لا تزال باقيه على قوتها عند هؤلاء القوم، فإننا نجد كيف أنهم لا يمتنعون عن أى مداهنه مهما كانت الشروط للوصول إلى أهدافهم، و لهذا ظلوا يعانون من هزائمهم المنكره طول تاريخهم الماضى و الحاضر.

ص : ٢٧٠

إشارة

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

التفسير

إشارة

فى تفسير الآيتين السابقتين قلنا أنّ اليهود عمدوا-لإرضاء الوثنيين فى مكه و استقطابهم-إلى الشهاده بأنّ وثنيه قريش أفضل من توحيد المسلمين، بل و عمدوا عمليا إلى السجود أمام الأصنام، و فى هذه الآيات يبين سبحانه أن حكمهم هذا لا قيمه له لوجهين.

١- إنّ اليهود ليس لهم-من جهه المكانه الاجتماعيه-تلك القيمه التى نؤهلهم للقضاء بين الناس و الحكم فى أمورهم، و لم يفوض الناس إليهم حق الحكم و القضاء بينهم أبدا ليكون لهم مثل هذا العمل: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ؟ هذا مضافا إلى أنّهم لا-يمتلكون أیه قابليه و أهليه للحكومه الماديه و المعنويه على الناس، لأن روح الاستثثار قد استحکم فى كيانهم بقوّه إلى درجه أنّهم إذا حصلوا على مثل هذه المكانه لم يعطوا لأحد حقّه، بل خصّوا كل شىء

بأنفسهم دون غيرهم فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (١).

فبالنظر إلى أنّ هذه الأحكام التي يطلقها اليهود صادرة عن مثل هذه النفسية المريضة التي تسعى دائما إلى الاستثثار بكل شيء لأنفسهم أو لغيرهم ممن يعملون لصالحهم، على المسلمين أن لا يتأثروا بأمثال هذه الأحاديث والأحكام وأن لا يقلقوا لها.

٢- إنّ هذه الأحكام الباطلة ناشئة من حسدهم البغيض للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْمَكْرَمِينَ، ولهذا تفقد أية قيمة، إنهم إذ خسروا مقام النبوة والحكومة بظلمهم وكفرهم، لذلك لا- يَحْتَبُونَ أَنْ يَنَاطَ هَذَا الْمَقَامَ الْإِلَهِيَّ إِلَى أَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، ولذا يحسدون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ الَّذِينَ شَمَلَتْهُمْ هَذِهِ الْمَوْهَبَةُ الْإِلَهِيَّةُ وَأَعْطَوْا ذَلِكَ الْمَقَامَ الْكَرِيمَ وَذَلِكَ الْمَنْصَبَ الْجَلِيلَ، ولأجل هذا يحاولون بإطلاق تلك الأحكام الباطلة وتلك المزاعم السخيفة أن يخففوا من لهيب الحسد في كيانهم: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .

ثم أن الله سبحانه يقول معقبا على هذا: ولما ذا تتعجبون من إعطائنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَبَنِي هَاشِمٍ ذَلِكَ الْمَنْصَبَ الْجَلِيلَ وَذَلِكَ الْمَقَامَ الرَّفِيعَ، وقد أعطاكم الله سبحانه وأعطى ال إبراهيم الكتاب السماوى والعلم والحكمة والملك العريض (مثل ملك موسى وسليمان و داود) و لكنكم- مع الأسف-أسأتم خلافتهم ففقدتم تلكم النعم المادية والمعنوية القيمة بسبب قسوتكم و شروركم: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا .

و المراد من الناس في قوله: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ - كما أسلفنا-هم رسول الله و أهل بيته عليهم السلام، لإطلاق لفظه الناس على جماعه من الناس، و أمّا إطلاقها على شخص واحد (هو النبي خاصه) فلا يصح ما لم تكن هناك قرينه على إرادته

ص: ٢٧٢

١- ١) -«النقير» مشتقه من ماده النقر (وزن فقر) الدق فى شىء بحيث يوجد فيه ثقبا و اشتق منه المنقار، و قال بعض: النقير و قبه صغيره جدّا فى ظهر النّوّاه و يضرب به المثل فى الشىء الطفيف.



هذا مضافاً إلى أنّ كلمه آل إبراهيم قرينه أخرى على أنّ المراد من «الناس» هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، لأنه يستفاد من قرينه المقابلة- أننا إذا أعطينا لبني هاشم مثل هذا المقام و مثل هذه المكانة- فلا داعى للعجب- فقد أعطينا لآل إبراهيم أيضاً تلك المقامات المعنويه و الماديه بسبب أهليتهم و قابليتهم.

و قد جاء التصريح فى روايات متعدده وردت فى مصادر الشيعة و السنه بأن المراد من «الناس» هم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام فى ذيل هذه الآيه أنه قال فى تفسير الآيه:

«جعل منهم الرسل و الأنبياء و الأئمه فكيف يقرّون فى آل إبراهيم و ينكرونه فى آل محمد» (٢) ؟ و

فى روايه أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام يجب الإمام على من يسأل عن المحسودين فى هذه الآيه قائلاً: «نحن محسودون» (٣).

و

روى فى الدر المنثور عن ابن منذر و الطبرانى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآيه: «نحن الناس دون الناس».

ثم قال القرآن الكريم فى الآيه اللاحقه: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا. أى أنّ من الناس آنذاك من آمن بالكتاب الذى نزل على آل إبراهيم، و منهم من لم يكتف بعدم الإيمان بذلك الكتاب، بل صدّ الآخرين عن الإيمان و حال دون انتشاره، أولئك كفاهم نار جهنم المشتعله عذاباً و عقوبه.

و سينتهى إلى نفس هذا المصير كل من كفر بالقرآن الكريم الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ص: ٢٧٣

١-١) -الناس اسم جمع و يؤيد ذلك ضمير الجمع الراجع إليه فى الآيه.

٢-٢) -تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٧٦، و قد جاء فى تفسير روح المعانى حديث مشابه لهذا الحديث فى المضمون (روح المعانى، ج ٥، ص ٥٢).

٣-٣) -المصدر السابق.

«الحسد» يعنى تمنى زوال النعمه عن الآخرين سواء وصلت تلك النعمه إلى الحسود، أم لم تصل إليه، و على هذا الأساس تنصب جهود الحسود على فناء ما لدى الآخرين و زواله عنهم أم تمنى ذلك، لا أن تنتقل تلك النعمه إليه.

إن الحسد منشأ للكثير من المآسى و المتاعب الاجتماعيه، من ذلك.

١- إنَّ الحاسد يصرف كل أو جُلَّ طاقاته البدنيه و الفكرية-التي يجب أن تصرف فى ترشيد الأهداف الاجتماعيه-فى طريق الهدم و التحطيم لما هو قائم، و لهذا فهو يبدد طاقاته الشخصيه و الطاقات الاجتماعيه معاً.

٢- إنَّ الحسد هو الدافع لكثير من الجرائم فى هذا العالم، فلو أنّنا درسنا العلل الأصلية وراء جرائم القتل و السرقة و العدوان و ما شابه ذلك لرأينا-بوضوح- أنّ أكثر هذه العلل تنشأ من الحسد، و لعلّه لهذا السبب شبّه الحسد بشراره من النار يمكنها أن تهدد كيان الحاسد أو المجتمع الذى يعيش فى وسطه بالخطر، و تعرضه للضرر.

يقول أحد العلماء: إنَّ الحسد من أخطر الصفات، و يجب أن يعتبر من أعدى أعداء السعاده، فيجب أن يجتهد الإنسان لدفعه و التخلص منه.

إنَّ المجتمعات التى تتألف من الحاسدين الضيقى النظره مجتمعات متأخره متخلفه، و الحساد-فى الأغلب-عناصر قلقه و أفراد مرضى يعانون من متاعب و آلام جسديه و عصبيه، و ذلك قد أصبح من المسلم اليوم أن أكثر الأمراض و الآلام الجسديه تنشأ من علل نفسيه، فإننا نلاحظ الآن بحوثاً مفصله فى الطب حول الأمراض التى تختص بمثل هذه.

هذا و الجدير بالذكر و ررود التأكيد على هذه المسأله فى أحاديث أئمّه الدين وقاده الإسلام،

ففى روايه عن الإمام على عليه السّلام نقرأ قوله: «صححه الجسد من قلّه الحسد» و

«العجب لغفله الحساد عن سلامه الأجساد».

بل ووردت روايات تصرّح بأن الحسد يضّرّ بالحاسد قبل أن يضّرّ بالمحسود، بل و يؤدي إلى القتل و الموت تدريجاً.

٤- إنّ الحسد يعدّ-من الناحية المعنوية-من علائم ضعف الشخصية و عقده الحقاره، و من دلائل الجهل و قصر النظر و قلّه الإيمان، لأنّ الحاسد-في الحقيقة- يرى نفسه أعجز و أقل من أن يبلغ ما بلغه المحسود من المكانه أو أعلى من ذلك، و لهذا يسعى الحاسد إلى أن يرجع المحسود إلى الوراء، هذا مضافاً إلى أنّه بعمله يعترض على حكمه الله سبحانه و اهب جميع النعم و جميع المواهب، و على إعطائه سبحانه النعم إلى من تفضل بها عليه من الناس، و لهذا

جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السّلام «الحسد أصله من عمى القلب و الجحود لفضل الله تعالى، و هما جناحان للكفر، و بالحسد وقع ابن آدم في حسره الأبد، و هلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً» (١).

فهذا هو القرآن الكريم يصرّح بأنّ أوّل جريمه قتل ارتكبت في الأرض كان منشؤها الحسد (٢).

و

جاء في نهج البلاغه عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب» (٣) و ذلك لأنّ الحاسد يزداد سوء ظنه بالله و بحكمته و عدالته شيئاً فشيئاً، و هذا الأمر يؤدي به إلى الخروج عن جاده الإيمان.

إنّ آثار الحسد و أضراره المادية و المعنوية و تبعاته الفرديه و الاجتماعيه كثيره جدّاً، و ما ذكرناه إنّما هو في الحقيقة جدول سريع عن بعض هذه الآثار و المضار.

ص: ٢٧٥

١-١) -مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ٣٢٧.

٢-٢) -المائده، ٢٧.

٣-٣) -نهج البلاغه، الخطبه ٨٦.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)

التفسير

تعقيباً على الآيات السابقة شرحت هاتان الآيتان مصير المؤمنين و الكافرين.

فآية الأولى تقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ (١) نَارًا كَلَّمًا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا .

و عله تبديل الجلد-على الظاهر-هى أنه عند ما تنضج الجلود يخف الإحساس بالألم لدى الإنسان، و لكى لا تتخفف عقوبتها و عذابها و ليحس

ص: ٢٧٦

١ - ١) - «نصلِّيهم» من ماده «الصلى» بمعنى الإلقاء فى النار، و الاشتواء بالنار، أو التدفؤ بالنار، و «نضجت» من ماده «نضج» بمعنى أدركت شيها، و صارت مشويه.

الإنسان بالألم إحساساً كاملاً، تبدل الجلود، وتأتي مكان الجلود الناضجة جلود جديدة، وما هذا إلا نتيجة الإصرار على تجاهل الأوامر الإلهية، ومخالفة الحق والعدل، والإعراض عن طاعة الله.

ثم يقول سبحانه في ختام الآية: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا أَي أَنَّهُ قَادِرٌ بِعَزَّتِهِ أَنْ يُوَقِّعَ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ بِالْعَصَاةِ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ عَبَثًا، بَلْ عَلَى حُكْمِهِ وَعَلَى أَسَاسِ الْجَزَاءِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

ثم يقول سبحانه في الآية الثانية: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (١).

أى أننا نعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن ندخلهم جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار والسواقي يعيشون فيها حياة خالده، هذا مضافاً إلى ما يعطون من أزواج مطهرات يستريحون إليهن، ويجدون في كنفهن لذة الروح والجسد، وينعمون تحت ظلال خالده بدل الظلال الزائلة، لا تؤذيهم الرياح اللافحة كما لا يؤذيهم الزمهرير أبداً.

### بحث عن الآية:

### إشارة

من الأمور الجديرة بالاهتمام والمستفاد من المقاييس بين هاتين الآيتين هو عموم الرحمة الإلهية و سبق رحمته على غضبه، لأن في الآية الأولى ذكرت عقوبه الكفار مبدوءه بكلمه «سوف» في حين بدأ الوعد الإلهي للمؤمنين ب «السين» «سندخلهم»، و من المعلوم استعمال سوف في اللغة العربية في المستقبل البعيد، و استعمال السين في المستقبل القريب، مع أننا نرى أنّ كلتا الآيتين

ص: ٢٧٧

١ - ١) - «الظليل» من مادته «الظل» بمعنى الفىء، و استعمل هنا للتأكيد، لأن معناه الظل المظلل أو الظل الظليل و هو كناية عن غايه الراحة و الدعه و الرفاه.

ترتبطان بالعالم الآخر، وجزاء المؤمنين و عقوبه الكافرين فى ذلك العالم-من الناحيه الفاصله الزمانيه-بالنسبه إلينا سواء.

فيكون الاختلاف و التفاوت بين التعبيرين للإشاره إلى سرعه وسعه الرحمه الإلهيه، و بعد و محدوديه الغضب الإلهي، و هو يشابه نفس العبارة التي نرددها فى الأدعيه و هي: «يا من سبقت رحمته غضبه».

### سؤال:

من الممكن أن يعترض معترض هنا قائلا- بأن الآيه الحاضره تقول:إننا كلما نضجت جلود العصاه الكفره بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العقوبه الإلهيه، فى حين أنّ الجلود العاصيه هي الجلود الأصليه، فيكون تعذيب الجلود الجديده مخالفا للعدل الإلهي، فكيف ذلك؟

### جواب:

لقد طرح هذا السؤال بعينه من قبل ابن أبى العوجاء الرجل المادى المعروف على الإمام الصادق عليه السلام حيث قال بعد تلاوه هذه الآيه «و ما ذنب الغير؟» يعنى ما ذنب الجلود الجديده؟ فردّ الإمام على هذا السؤال بجواب مختصر فى غايه العمق حيث

قال: «هى هى و هى غيرها» يعنى أنّ الجلود الجديده هي نفس الجلود السابقه فى حين أنّها غيرها.

فقال ابن أبى العوجاء الذى كان يعلم أنّ فى هذه العبارة القصيره سرّاً: مثل لى فى ذلك شيئاً من أمر الدنيا.

فقال الإمام عليه السلام: «أ رأيت لو أنّ رجلاً أخذ لبنه فكسرها، ثمّ ردها فى ملبنها، فهى هى، و هى غيرها» (١).

و يستفاد من هذه الروايه أن الجلود الجديده تتألف من نفس عناصر الجلود القديمه، أى أن العناصر هي ذات العناصر و إن اختلف التركيب.

ص: ٢٧٨

ثم إنه لا- بدّ الالتفات إلى أن الثواب و العقاب يرتبطان-فى الحقيقة- بروح الإنسان و قوّه إدراكه، و الجسم-دائما-وسيله لانتقال الثواب و العذاب إلى روح الإنسان.

ص: ٢٧٩

اشاره

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا  
بَصِيرًا (٥٨)

سبب النزول

و روى فى تفسير مجمع البيان و تفاسير إسلاميه أخرى إن هذه الآيه نزلت عند ما دخل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مكة المكرمه منتصرا فاتحا، فاستحضر عثمان بن طلحه و كان سادن الكعبه فطلب منه مفتاح الكعبه المعظمه، ليطهرها من الأصنام و الأوثان الموضوعه فيها، فلما فرغ النبى صلى الله عليه و آله و سلم من ذلك سأل العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين منصب السقايه و منصب السدانه الذى له فى العرب شان و شاو مجيد (و الظاهر أن العباس أراد أن يستفيد من نفوذ و مكانه ابن أخيه الاجتماعيه و السياسيه لمصلحته الشخصيه)، و لكن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فعل خلاف ذلك، فإنه بعد ما طهر الكعبه من الأصنام و الأوثان، أمر عليا عليه السلام أن يرد المفتاح إلى «عثمان بن طلحه» ففعل ذلك و هو يتلو الآيه الحاضره: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا... (١).

ص: ٢٨٠

١- ١) - ذهب بعض المفسرين إلى أن الآيه الحاضره قبل فتح مكة، و أن ما ذكر فى سبب النزول ليس بصحيح، و لكن ما



## قانونان إسلاميان مهمان:

الآية الحاضرة و إن نزلت - كالكثير من الآيات - فى مورد خاص، إلا أن من البديهي أنها تتضمن حكماً عاماً و شاملاً للجميع، فهى تقول بصراحة: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا .

و من الواضح أن للأمانة معنى و سيعا يشمل كل شىء مادي و معنوي، و يجب على كل مسلم - بصريح هذه الآية - أن لا يخون أحداً فى أية أمانة دون استثناء، سواء كان صاحب الأمانة مسلماً أو غير مسلم، و هذا هو فى الواقع إحدى المواد فى «الميثاق الإسلامى لحقوق الإنسان» التى يتساوى تجاهها كل أفراد البشر.

و الجدير بالذكر أن الأمانة المذكورة فى سبب النزول لم تكن مجرد أمانة مادية، و من جانب آخر كان صاحبها المؤدى إليه تلك الأمانة مشركاً.

ثم إنه سبحانه يشير فى القسم الثانى من الآية - إلى قانون مهم آخر، و هو مسأله «العدالة فى الحكومه» فىقول: وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ أَى إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ أَيْضاً أَنْ تلتزموا جانب العدالة فى القضاء و الحكم بين الناس، فتحكموا بعدل. ثم قال سبحانه تأكيداً لهذين التعليمين: إِنَّ اللَّهَ نَعِماً يَعِظُكُمْ بِهِ .

ثم يقول مؤكداً ذلك أيضاً: إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً فهو يراقب أعمالكم و هو يسمع أحاديثكم و يرى أفعالكم.

إن هذا القانون هو الآخر قانون كلى و عام، و يشمل كل نوع من القضاء و الحكومه، سواء فى الأمور الكبيره و الأمور الصغيره، إلى درجه أننا نقرأ فى الأحاديث الإسلاميه

أن صبين ترافعا إلى الإمام الحسن بن على فى خط كتبه و حكماه فى ذلك ليحكم أى الخطين أجود، فبصر به على عليه السلام فقال: «يا بنى انظر

ذكر فى سبب النزول صح أم لا، فإنه لا يؤثر فى القانون المهم المستفاد من الآية.

كيف تحكم فإن هذا حكم و الله سائلك عنه يوم القيامة» (١).

إن هذين القانونين المهمين (حفظ الأمانة، والعدالة في الحكم والحكومة) يمثلان قاعدة المجتمع الإنساني السليم، ولا يستقيم أمر مجتمع، سواء كان ماديا أو إلهيا من دون تنفيذ وإجراء هذين الأصليين.

فالأصل الأوّل يقول: إن الأموال والثروات والمناصب والمسؤوليات والمهام والرساميل الإنسانية والثقافات والتراث والمخلفات التاريخية، كلها أمانات إلهية سلمت بأيدي أشخاص مختلفين في المجتمع، والجميع مكلفون أن يحفظوا هذه الأمانات، ويجتهدوا في تسليمها إلى أصحابها الأصليين، ولا يخونوا فيها أبدا.

ومن جهة أخرى حيث إن الاجتماعات تلازم التصادمات والاحتكاكات في المصالح والمنافع، ولهذا يتطلب الحل والفصل على أساس من الحكومة العادلة والقضاء العادل حتى يزول و ينمحي كل أنواع التمييز الظالم من الحياة الاجتماعية.

و كما أسلفنا فإن الأمانة لا تنحصر في الأموال التي يودعها الناس -بعضهم عند بعض- بل العلماء في المجتمع هم أيضا مستأمنون يجب عليهم أن لا- يكتنوا الحقائق، بل حتى أبناء الإنسان وأولاده أمانات إلهية لدى الآباء والأمهات فلا يفرطوا في تربيتهم، ولا يقصروا في تأديبهم وتعليمهم، وإلا- كان ذلك خيانه في الأمانة الإلهية التي أمر الله بأدائها، بل و فوق ذلك كله الوجود الإنساني، فهو و جميع الطاقات المودوعة فيه «أمانات الله» التي يجب على الإنسان أن يجتهد في المحافظه عليها، كما عليه أن يحافظ على صحه جسمه و سلامه روحه، و يحافظ على طاقه الشباب الفياضه، و فكره، و لا يفرط فيها، و لهذا لا يجوز له أن ينتحر أو يلحق الضرر بنفسه، حتى أنه يستفاد من بعض الأحاديث والنصوص

ص: ٢٨٢

(١-١) - تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٤.

الإسلاميه إنّ علوم الإمامه و أسرارها و ودائعها التي يسلمها كل إمام إلى الإمام الذي بعده داخله في هذه الآيه أيضا (١).

و الجدير بالذكر، إنّ مسأله «أداء الأمانه» قدمت في هذه الآيه على مسأله «العداله» و لعلّ ذلك لأجل أنّ مسأله العدل في القضاء و الحكم مترتبه دائما على الخيانه، لأنّ الأصل هو أن أمناء بالأصالة، فإذا انحرف شخص أو أشخاص عن هذا الأصل وصل الدور إلى العداله لتوفّهم على مسؤولياتهم و تعرفهم بوظائفهم.

### أهميه الأمانه و العدل في الإسلام:

لقد ورد تأكيد كبير على هذه المسأله في المصادر الإسلاميه إلى درجه أنّنا قلّما نجد مثله في مورد غيره من الأحكام و المسائل، و الأحاديث القصيره التاليه توضيح هذه الحقيقه:

-١

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده فإن ذلك شيء اعتاده فلو تركه استوحش، و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته» (٢).

-٢

جاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إن عليا إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بصدق الحديث و أداء الأمانه» (٣).

-٣

روى في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضا قال لأحد أصحابه:

«أعلم أن ضارب على بالسيف و قاتله لو ائتمنى و استنصحنى و استشارنى ثمّ قبلت ذلك منه لأديت إليه الأمانه» (٤).

ص: ٢٨٣

١-١) -نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٦.

٢-٢) -نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٦.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -المصدر السابق.

فى روايات مرويه فى مصادر الشيعة و السنه عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم نلاحظ هذا الحديث الساطع:

«آيه المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان» (١).

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لعلى عليه السلام:

«سوى بين أخصمين فى لحظك و لفظك» (٢).

١-١) - صحيح الترمذى و النسائى بناء على نقل المنار و قد ورد نفس هذا المضمون فى سفينه البحار أيضا.

٢-٢) - مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٤.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

التفسير

اشاره

هذه الآيه و بعض الآيات اللاحقه تبحث عن واحده من أهم المسائل الإسلاميه، ألا و هى مسأله القيادة، و تعيين القاده و المراجع الحقيقين للمسلمين فى مختلف المسائل الدينيه و الاجتماعيه.

فهى تأمر المؤمنين-أولاً-بأن يطيعوا الله، و من البديهي أنه يجب أن تنتهى جميع الطاعات-عند الفرد المؤمن-إلى طاعه الله سبحانه، و كل قياده و ولايه يجب أن تنبع من ولايه الله سبحانه و ذاته المقدسه تعالى و تكون حسب أمره و مشيئته، لأنه الحاكم و المالك التكويني لهذا العالم، و كل حاكميه و مالكيه يجب أن تكون بإذنه و بأمره: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ .

و فى المرحله الثانيه تأمر بالتباع النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إطاعته، و هو النبى المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى و لا ينطق من الهوس، و النبى الذى هو خليفه الله بين الناس، و كلامه كلام الله، و قد أعطى هذا المقام من جانب الله سبحانه، و لهذا تكون

إطاعة الله ممّا تقتضيه خالقيته و حاكميه ذاته المقدسه، و لكن إطاعه النبي و أتباع أمره ناشئ من أمر الله. و بعبارة أخرى فإنّ الله واجب الإطاعه بالذات و النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم واجب الإطاعه بالعرض، و لعل تكرار «أطيعوا» في هذه الآيه للإشاره إلى مثل هذا الفرق بين الطاعتين و أطيعوا الرّسول .

و في المرحله الثانيه يأمر سبحانه بإطاعه أولى الأمر القائمين من صلب المجتمع الإسلامى، و الذين يحفظون للناس أمر دينهم و دنياهم.

### من هم أولوا الأمر؟

ثمّه كلام كثير بين المفسرين فى المقصود من أولى الأمر فى هذه الآيه، و يمكن تلخيص أوجه النظر فى هذا المجال فى ما يلى:

١- ذهب جماعه من مفسرى أهل السنّه إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم الأمراء و الحكام فى كل زمان و مكان، و لم يستثن من هؤلاء أحدا، فتكون نتيجة هذا الرأى هى: إنّ على المسلمين أن يطيعوا كل حكومه و سلطه مهما كان شكلها حتى إذا كانت حكومه المغول، و دولتهم الجائره.

٢- ذهب البعض من المفسرين-مثل صاحب تفسير المنار و صاحب تفسير فى ظلال القرآن و آخرون- إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» ممثلو كافه طبقات الأمه، من الحكام و القاده و العلماء و أصحاب المناصب فى شتى مجالات حياه الناس، و لكن لا تجب طاعه هؤلاء بشكل مطلق و بدون قيد أو شرط، بل هى مشروطه بأن لا تكون على خلاف الأحكام و المقررات الإسلاميه.

٣- ذهبت جماعه أخرى إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم القاده المعنويون و الفكريون، أى العلماء و المفكرون العدول العارفون بمحتويات الكتاب و السنه معرفه كامله.

٤- و ذهب بعض مفسرى أهل السنه إلى أنّ المراد من هذه الكلمه هم

«الخلفاء الأربعة» الذين شغلوا دست الخلافة بعد رسول الله خاصه و لا تشمل غيرهم، و على هذا لا يكون لأولى الأمر أى وجود خارجى فى الأعصر الاخرى.

٥- يفسر بعض المفسرين «أولى الأمر» بصحابه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

٦- هناك احتمال آخر يقول- فى تفسير أولى الأمر- إن المراد منه هم القاده العسكريون المسلمون، و أمراء الجيش و السرايا.

٧- ذهب كل مفسر شيعى بالاتفاق إلى أن المراد من «أولى الأمر» هم الأئمة المعصومون عليهم السلام الذين أنيطت إليهم قياده الأمة الإسلاميه الماديه و المعنويه فى جميع حقول الحياه من جانب الله سبحانه و النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و لا تشمل غيرهم، اللهم إلا الذى يتقلد منصبا من قبلهم، و يتولى أمرا فى إداره المجتمع الإسلامى من جانبهم- فإنه يجب طاعته أيضا إذا توفرت فيه شروط معينه، و لا تجب طاعته لكونه من أولى الأمر، بل لكونه نائبا لأولى الأمر و وكىلا من قبلهم.

و الآن لنستعرض التفاسير المذكوره أعلاه باختصار:

لا- شك أن التفسير الأول لا يناسب مفهوم الآيه و روح التعاليم الإسلاميه بحال، إذ لا يمكن أن تقترن طاعه كل حكومه- مهما كانت طبيعتها- و من دون قيد أو شرط بإطاعته الله و النبى، و لهذا تصدى كبار علماء السنه لنفى هذا الرأى و التفسير مضافا إلى علماء الشيعه.

و كذا التفسير الثانى: فإنه لا يناسب إطلاق الآيه الشريفه، لأن الآيه توجب إطاعه أولى الأمر من دون قيد أو شرط.

و هكذا التفسير الثالث، يعنى تفسير «أولى الأمر» بالعلماء و العدول و العارفين بالكتاب و السنه، فهو لا يناسب إطلاق الآيه، لأن لإطاعه العلماء و إتباعهم شروطا من جملتها أن لا- يكون كلامهم على خلاف الكتاب و السنه، و على هذا لو ارتكبوا خطأ (لكونهم عرضه للخطأ و غير معصومين) أو انحرفوا

عن جاده الحقّ لأى سبب آخر لم تجب طاعتهم، فى حين توجب الآيه الحاضره إطاعه أولى الأمر بنحو مطلق كإطاعه النّبى صلّى الله عليه وآله و سلّم، هذا مضافا إلى أنّ إطاعه العلماء إنّما هى فى الأحكام التى يستفيدونها من الكتاب و السنه، و على هذا لا تكون إطاعتهم شيئا غير إطاعه الله و إطاعه النّبى صلّى الله عليه وآله و سلّم، فلا حاجه إلى ذكرها بصوره مستقله.

و أما التّفسير الرّابع (و هو حصر عنوان أولى الأمر بالخلفاء الأربعة الأوائل) فمؤداه عدم وجود مصداق لأولى الأمر بين المسلمين فى هذا الزمان هذا مضافا إلى عدم وجود دليل على مثل هذا التخصيص.

و التّفسير الخامس و السادس: يعنىان تخصيص هذا العنوان بالصحابه أو القاده العسكريين المسلمين، و يرد عليها نفس الإشكال الوارد على التّفسير الرّابع، يعنى أنّه لا يوجد أى دليل على مثل هذا التخصيص أيضا.

و قد أراد جماعه من مفسّرى السنه مثل «محمّد عبده» العالم المصرى المعروف-تبعا لبعض ما قاله المفسّر المعروف الفخر الرازى- أن يقبل بالاحتمال الثّانى (القاضى بأنّ أولى الأمر هم ممثلو مختلف طبقات المجتمع الإسلامى من العلماء و الحكام و غير هؤلاء من طبقات و فئات المجتمع الإسلامى) مشروطا ببعض الشروط و مقيدا ببعض القيود، مثل أن يكونوا مسلمين (كما يستفاد من كلمه «منكم» فى الآيه) و أن لا يكون حكمهم على خلاف الكتاب و السنه، و أن يحكموا عن اختيار لا جبر و لا قهر، و أن يحكموا وفق مصالح المسلمين، و أن يتحدّثوا فى مسائل يحقّ لهم التّدخل فيها (لا مثل العبادات التى لها قوانين و أحكام ثابتة فى الإسلام) و أن لا يكون قد ورد فى الحكم الذى أصدره نص خاص من الشرع، و أن يكونوا-فوق كل هذا-متفقين فى الرأى و الحكم.

و حيث إنّ هؤلاء يعتقدون أن مجموع الأّمه أو مجموع ممثليها لا تخطأ و لا تجتمع على خطأ، و بعبارة أخرى-أن مجموع الأّمه معصومه (أو أنّ الأّمه



بوصفها معصومه) تكون نتيجة هذه الشروط وجوب إطاعه مثل هذا الحكم بشكل مطلق و من دون قيد أو شرط تماما مثل إطاعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ (و مؤدى هذا الكلام هو حجّيه الإجماع). و لكن ترد على هذا التفسير أيضا إشكالات و اعتراضات عديدة و هي:

أولا- إنّ الاتفاق في الرأي في المسائل الاجتماعية قلما يتفق و قلما يتحقق، و على هذا فإن هذا الرأي يستلزم وجود حاله من الفوضى و الانتظام في أغلب شؤون المسلمين و بصوره دائمه.

و أما إذا أراد هؤلاء قبول رأى الأكثرية فيرد عليه: إنّ الأكثرية لا تكون معصومه أبدا، و لهذا لا تجب إطاعتها بنحو مطلق.

ثانيا: لقد ثبت في علم الأصول، أنه ليس هناك أى دليل على عصمه مجموع الأمة من دون وجود الإمام المعصوم بينهم.

ثالثا: إنّ أحد الشرائط التي يذكرها أنصار هذا التفسير هو أن لا- يكون حكم هؤلاء «أى أولوا الأمر» على خلاف الكتاب و السنه، فيجب حينئذ أن نرى من الذى يشخص أن هذا الحكم مخالف للكتاب و السنه أو لا- لا- شك أن ذلك من مسئولية المجتهدين و الفقهاء العارفين بالكتاب و السنه، و يعنى هذا إنّ إطاعه أولى الأمر لا يجوز بدون إجازة المجتهدين و العلماء، بل تلزم أن تكون إطاعه العلماء أعلى من إطاعه أولى الأمر، و هذا لا يناسب و لا يوافق ظاهر الآيه الشريفه.

صحيح أن هؤلاء اعتبروا العلماء جزء من أولى الأمر «و لكن الحقيقة أن العلماء و المجتهدين- وفق هذا التفسير- اعترف بهم على أنّهم المراقبون و المراجع العليا من بقيه ممثلى مختلف فئات الأمة، لا أنّهم فى مستوى بقيه الممثلين المذكورين، لأنّ على العلماء و الفقهاء أن يشرفوا على أعمال الآخرين و يشخصوا موافقتها للكتاب و السنه، و بهذا يكون العلماء مراجع عليا لهم، و هذا لا

يناسب التفسير المذكور ولا يوافق.

و على هذا الأساس يواجه التفسير الحاضر (أى الثانى) إشكالات و مأخذ من وجهات عديده.

فيبقى تفسير واحد سليما من جميع الاعتراضات السابقه و هو التفسير السابع: (و هو تفسير أولى الأمر بالأئمه المعصومين عليهم السلام لموافقته هذا التفسير لإطلاق وجوب الإطاعه المستفاد من الآيه المبحوثه هنا، لأن مقام «العصمه» يحفظ الإمام من كل معصيه و يصونه عن كل خطأ، و بهذا الطريق يكون أمره-مثل أمر الرسول- واجب الإطاعه من دون قيد أو شرط، و ينبغى أن يوضع فى مستوى إطاعته صلى الله عليه و آله و سلم، بل و إلى درجه أنها تعطف على إطاعه الرسول من دون تكرار «أطيعوا».

و الجدير بالانتباه إلى أن بعض العلماء المعروفين من أهل السنه، و منهم المفسر المعروف الفخر الرازى اعترف بهذه الحقيقه فى مطلع حديثه عند تفسير هذه الآيه حيث قال: «إن الله تعالى أمر بطاعه أولى الأمر على سبيل الجزم فى هذه الآيه، و من أمر الله بإطاعته على سبيل الجزم و القطع لا بد أن يكون معصوما عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوما عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمرا بفعل ذلك الخطأ، و الخطأ لكونه خطأ منهى عنه، فهذا يفضى إلى اجتماع الأمر و النهى فى الفعل الواحد، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعه أولى الأمر على سبيل الجزم، و ثبت إن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم و جب أن يكون معصوما عن الخطأ».

و أضاف قائلا: «ذلك المعصوم إما مجموع الأئمه أو بعض الأئمه، و لا يجوز أن يكون بعض الأئمه لأن إيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم، و نحن عاجزون عن الوصول إليهم، و إذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذى أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأئمه، و لَمَّا بطل هذا و جب أن يكون ذلك

المعصوم الذى هو المراد بقوله: «و أولى الأمر» هم أهل الحل و العقد و من الأئمة (أى الأئمة كلها و ذلك يوجب القطع بأن إجماع الأئمة حجّه) (١).

و هكذا نرى الفخر الرازى مع ما نعهد منه من كثيره الإشكال فى مختلف المسائل العلميه، قد قبل دلاله هذه الآيه على أنّ أولى الأمر يجب أن يكونوا معصومين، غايه ما فى الأمر حيث أنه لم يكن عارفا بمذهب أهل البيت النبوى عليهم السلام و أئمه هذا المذهب تجاهل احتمال أن يكون «أولى الأمر» أشخاصا معينين من الامه، فاضطر إلى تفسير «أولى الأمر» بمجموع الامه (أو ممثلى عموم فئات الامه)، فى حين أن هذا الاحتمال لا- يمكن القبول به، لأن أولى الأمر - كما قلنا فى ما سبق- يجب أن يكونوا قادة المجتمع الإسلامى، و تتمّ الحكومه الإسلاميه و الحكم بين المسلمين بهم، و نعلم أنه لا- يمكن لا فى الحكومه الجماعيه (المتألفه من مجموعه الأئمه) بل و لا من ممثلى فئاتها أن يتحقق اجتماع و اتفاق فى الرأى مطلقا، لأنّ الحصول على إجماع من جانب الأئمه جميعا أو من جانب ممثليها فى مختلف المسائل الاجتماعيه و السياسيه و الثقافيه و الخلقيه و الاقتصاديه، لا يتيسر و لا يتحقق فى الأغلب، كما أنّ إتباع الأكثريه- كذلك- لا يعد أتباعا لأولى الأمر، و لهذا يلزم من كلام الرازى و من تبعه من العلماء المعاصرين أن تتعطل مسأله إطاعه «أولى الأمر»، أو تصير مسأله نادره و استثنائيه جدا....

و من كل ما قلناه نستنتج أنّ الآيه الشريفه تثبت قياده و ولايه الأئمه المعصومين الذين يشكلون نخبه من الامه الإسلاميه (تأمل).

### أجوبه على أسئله:

ثمّ إنّ هناك اعتراضات و مآخذ على هذا التفسير (السابع) يجدر طرحها هنا

ص: ٢٩١

١- ١) -التفسير الكبير للفخر الرازى، ج ١٠، ص ١٤٤، طبعه مصر، عام ١٣٥٧.

١- إذا كان المراد من «أولى الأمر» هم الأئمة المعصومون، فإنّ ذلك لا يناسب مع كلمه «أولى» التي هي بصيغه الجمع، لأنّ الإمام المعصوم في كل عصر، شخص واحد لا أكثر.

و الجواب على هذا السؤال: أنّ الإمام المعصوم و إن كان في كل عصر شخصا واحدا لا أكثر، إلا أنّ الأئمة المتعددين في الأعصر المختلفه يشكلون جماعه، و نحن نعلم أنّ الآيه لا تحدد وظيفه الناس في عصر واحد.

٢- إنّ أولى الأمر- بهذا المعنى- لم يكونوا في عصر النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فكيف أمر القرآن الكريم بإطاعتهم؟ إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح أيضا من الكلام السابق، لأنّ الآيه لا تنحصر (أو لا تعنى) زمانا خاصا، بل توضح و تبين وظيفه المسلمين و واجبه في جميع العصور و القرون.

و بعباره أخرى، يمكن أن نقول أن أولى الأمر في زمان النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم كان شخص النبي بالذات، لأنّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم كان له منصبان منصب «الرساله» الذي أشير إليه في الآيه المذكوره تحت عنوان «أطيعوا الرّسول و الآخر منصب «قياده الأئمة الإسلاميه» الذي ذكره القرآن الكريم تحت عنوان «أولى الأمر» .

و على هذا يكون القائد و ولي الأمر المعصوم في عهد النبي هو النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، فهو مضافا إلى ما له من منصب الرساله و إبلاغ الأحكام الإسلاميه، له منصب قياده الأئمه و ولايه أمرها، و لعل عدم تكرار جمله (و أطيعوا) بين (الرّسول) و «أولى الأمر» لا يخلو عن الإشاره إلى هذه النقطة.

و بعباره أخرى إن منصب «الرساله» و منصب «أولى الأمر» منصبان مختلفان اجتماعا في شخص رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و لكن المنصب الثانی فقط يتوفر في كل إمام على حده، فلإمام منصب اولی الأمر فقط.

٣- إذا كان المقصود من «أولى الأمر» هم الأئمة المعصومون، فلما إذا أشار سبحانه في ذيل الآية إلى مسأله التنازع و الاختلاف بين المسلمين إذ قال: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا فَإِنَّا لا نشاهد هنا أى حديث عن «أولى الأمر» بل أشير إلى الله تعالى (كتاب الله-القرآن) و النبي (السنه) كمرجع يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف و التنازع.

فى الإجابة على هذا الإشكال يجب أن نقول:

أولاً: إنَّ هذا الإشكال لا يختص بالتفسير الشيعى لهذه الآية، بل يردّ على بقية التفاسير أيضاً، إذا أمعنا النظر قليلاً.

و ثانياً: لا شك أن المراد من الاختلاف و التنازع فى العبارة الحاضره هو الاختلاف و التنازع فى الأحكام، لا فى المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومه و القيادة الإسلاميه، لأنه فى هذه المسائل يجب إطاعه أولى الأمر (كما صرح بذلك فى الجملة الأولى من الآية المبحوثه هنا).

و على هذا فالمراد من الاختلاف هو الاختلاف فى الأحكام و القوانين الكليه الإسلاميه التى يعود أمر تشريعها إلى الله سبحانه و نبيه صلى الله عليه و آله و سلم، لأننا نعلم أن الإمام مجرّد منفذ للأحكام الإلهيه و ليس مشرعاً، و لا- ناسخاً لشيء من تلك الأحكام، و إنما عليه فقط أن يطبق الأحكام و الأوامر الإلهيه و السنه النبويه فى حياه الأمة، و لهذا جاء فى أحاديث أهل البيت عليهم السلام إنهم قالوا: «إذا بلغكم عنّا ما يخالف كتاب الله و سنه نبيه فاضربوه عرض الحائط و لا تقبلوه» أى يستحيل أن نقول ما يخالف كتاب الله و سنه نبيه صلى الله عليه و آله و سلم.

و على هذا فإنّ أول مرجع يرجع إليه المسلمون لحل خلافاتهم فى الأحكام الإسلاميه هو الله سبحانه و النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم الذى يوحى إليه، و إذا ما بين الأئمة المعصومون أحكاماً، فإنّ تلك الأحكام ليست سوى اقتباس من كتاب الله، أو هى

من العلوم التي وصلت إليهم من النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وبهذا تَتَضَحَّ عَلَهُ عدم ذكر أولى الأمر إلى جانب المرجع في حلّ الاختلاف في الأحكام المذكورة في هذا الجزء من الآية (١).

### شهاده الأحاديث:

هذا وقد وردت في المصادر الإسلامية أيضا أحاديث تؤيد تفسير «أولى الأمر» بأئمة أهل البيت عليهم السلام منها:

١- ما كتبه المفسر الإسلامي المعروف أبو حيان الأندلسي المغربي (المتوفى عام ٧٥٦) في تفسيره البحر المحيط: من أن هذه الآية نزلت في حقّ علي عليه السلام وأهل بيته (٢).

٢- روى العالم السني أبو بكر بن مؤمن الشيرازي في رساله الاعتقاد (حسب نقل الكاشي في المناقب) عن ابن عباس أن الآية الحاضره نزلت في علي عليه السلام عند ما خلفه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في المدينة (في غزوه تبوك)

فقال علي عليه السلام:

يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«أما ترضى أن تكون مني بمنزله هارون من موسى حين قال أخلفني في قومي وأصلح فقال عز وجل: وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (٣).

٣-

روى الشيخ سليمان الحنفى القندوزى و هو من أعلام أهل السنه المشهورين فى كتابه «ينابيع الموده» من كتاب «المناقب» عن «سليم بن قيس

ص: ٢٩٤

١- ١) - وإذا رأينا سبحانه يرجع الأمة في حلّ بعض اختلافاتها إلى أولى الأمر في الآية (٨٣) من هذه السوره فالمراد منه ليس هو الاختلاف في الأحكام والقوانين الإسلامية الكلية، بل هو - كما سيأتى في تفسير هذه الآية - الاختلاف في المسائل المتعلقة بطريقه تطبيق الأحكام الإسلامية، و سيأتى شرح مفصل في هذا المجال عند تفسير الآية بإذن الله.

٢- ٢) - البحر المحيط، ج ٣، طبعه مصر، ص ٤٢٥.

٣- ٣) - إحقاق الحق، ج ٣، ص ٤٢٥.

الهلالي» قال سمعت عليا صلوات الله عليه يقول: أتاه رجل فقال أرني أدنى ما يكون به العبد مؤمنا، وأدنى ما يكون به العبد كافرا، وأدنى ما يكون به العبد ضالا- فقال: قد سألت فافهم الجواب... وأما أدنى ما يكون العبد به ضالا أن لا يعرف حجه الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله عز وجل عباده بطاعته وفرض ولايته. قلت: يا أمير المؤمنين. صفهم لي. قال: الذين قرنهم الله تعالى:

بنفسه وبنبيه فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

فقلت له: جعلني الله فداك أوضح لي؟ فقال: الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مواضع وفي آخر خطبه يوم قبضه الله عز وجل إليه: «إني تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى إن تمسكتم بهما: كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي» (١).

٤- وكذلك كتب نفس العالم في كتاب «ينابيع الموده»: وفي المناقب في تفسير مجاهد: إن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي عليه السلام (٢).

٥- رويت أحاديث كثيرة في مصادر الشيعة مثل كتاب الكافي وتفسير العياشي وكتب الصدوق ومصنفاته وغيرها تشهد جميعها بأن المراد من «أولى الأمر» هم الأئمة المعصومون، حتى أن بعضها ذكرت أسماء الأئمة عليهم السلام واحدا واحدا (٣).

ص: ٢٩٥

١-١) -ينابيع الموده طبعه النجف الأشرف (الطبعة السابعة ص ١٣٦-١٣٧).

٢-٢) -ينابيع الموده النجف، ص ١٣٤.

٣-٣) -راجع تفسير البرهان، ج ١، تفسير الآية.

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ  
يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)

سبب النزول

كان بين رجل من اليهود و رجل من المسلمين المنافقين خصومه و اختلاف، فعزما على أن يحتكما إلى شخص، و حيث كان اليهودى يعرف بعدل النبى و حياده و لأنه علم أنه لا يأخذ الرّشوه و لا يجور فى الحكم قال: أحاكم إلى محمّد، و لكن المنافق قال: لا بل بينى و بينك كعب بن الأشرف، (لأنه يأخذ الرّشوه و هو من أقطاب اليهود)، و بذلك رفض التحاكم إلى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، فنزلت الآيه توبّخ أمثال هذا الشخص، و تشجب بشده موقفهم المشين هذا (١).

و قد ذكر بعض المفسرين أسبابا أخرى لنزول هذه الآيه تشهد بأنّ بعض المسلمين الحديثى العهد بالإسلام كانوا على عادتهم فى الجاهليه-يحتكمون فى مطلع الإسلام- إلى علماء اليهود أو الكهنة، فنزلت الآيه الحاضره تنهى عن

ص: ٢٩٦

١- (١) - تفسير مجمع البيان، نقل هذا السبب عن أكثر المفسرين.



## التفسير

### اشاره

#### حكومه الطاغوت:

الآيه الحاضره-هى فى الواقع-مكمله للآيه السابقه، لأن الآيه السابقه كانت تدعو المؤمنين إلى طاعه الله و الرسول و أولى الأمر، و التحاكم إلى الكتاب و السنه، و هذه الآيه تنهى عن التحاكم إلى الطاغوت و اتباع أمره و حكمه.

و الطاغوت-كما أشرنا إلى ذلك سابقا-مشتقه من الطغيان، و هذه الكلمه مع جميع مشتقاتها تعنى التجاوز و التعدى و كسر الحدود و تجاهل القيود، أو كل شىء يكون وسيله للطغيان أو التمرد.

و على هذا الأساس يكون كل من يحكم بالباطل طاغوتا، لأنه تجاوز حدود الله و تعدى على قوانين الحق و العدل،

ففى الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال:

«الطاغوت كل من يتحاكم إليه ممن يحكم بغير الحق».

و الآيه الحاضره تنهى المسلمين عن أن يترافعوا فى الحكم و القضاء إلى مثل هؤلاء الحكام و تقول: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ .

ثم يضيف القرآن قائلا: وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا أى أن التحاكم إلى الطاغوت فسخ الشيطان ليضل المؤمنين عن الصراط المستقيم.

و غير خفى أن الآيه الحاضره-شأنها شأن سائر الآيات القرآنيه الاخرى- تتضمن حكما عاما، و تبين قانونا خالدا لجميع المسلمين فى جميع العصور و الدهور. و تحذرهم من مراجعه الطواغيت، و طلب الحكم منهم، و إن ذلك لا

ص: ٢٩٧

يناسب الإيمان بالله و الكتب السماويه، هذا مضافا إلى كونه يضل الإنسان عن طريق الحق، و يلقيه في مجاهيل الباطل بعيدا عن الحق.

إن مفسد و تبعات مثل هذه الأفضيه و الأحكام، و أثرها في تحطيم كيان المجتمع البشرى و تخريب علاقاته و روابطه و أسسه مما لا يخفى على أحد، فهي أحد العوامل المؤثره في انحطاط المجتمعات و تأخرها.

ص: ٢٩٨

اشاره

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تُمْ لَجَاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَ تَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عَظُّهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

التفسير

اشاره

نتائج حكم الطاغوت:

في أعقاب النهى الشديد عن التحاكم إلى الطاغوت و حكام الجور الذى مرّ في الآيه السابقه جاءت هذه الآيات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحكام و الأفضيه، و ما يتمسك به المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطواغيت و حكام الجور و الباطل.

ففي الآيه الأولى يقول سبحانه: وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا.

و في الحقيقه يقول القرآن في هذه الآيه: إنَّ التحاكم إلى الطاغوت ليس خطأ عابرا يمكن أن يعالج ببعض التذكير، بل إنَّ الإصرار على هذا العمل يكشف عن ضعف إيمانهم و روح النفاق فيهم، و إلا لوجب أن ينتبهوا و يثوبوا إلى رشدهم على

دعوه رسول الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ وَيَعْتَرِفُوا بِخَطِيئَتِهِمْ: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا .

ثم في الآيه الثانيه يبين هذه الحقيقه، و هي أن هؤلاء المنافقين عند ما يتورطون في مصيبه كنتيجه لمواقفهم و أعمالهم، و يواجهون طريقا مسدوده يعودون إليك عن اضطرار و يأس: فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ ... .

و يحلفون في هذه الحاله أن هدفهم من التحاكم إلى الآخرين لم يكن إلا الإحسان و التوصل إلى الوفاق بين طرفي الدعوى: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَ تَوْفِيقًا .

و هنا لا بد من الإشارة إلى نقطتين:

الأولى: أن نرى ما هو المقصود من المصيبه التي تصيبهم؟ لا يبعد أن تكون المصيبه هي ما ينشأ من مضاعفات و مآسى و ويلات من حكم الطواغيت، لأنه لا شك في أن الحكم الصادر من الأشخاص غير الصالحين و الظالمين و إن كان ينطوى على منفعه آنيه لأحد جانبي الدعوى، و لكن لا يمضى زمان إلا و يوجب هذا الحكم ظهور الفساد و انتشار الظلم و الجور، و سياده الهرج و المرج و تبعثر الكيان الاجتماعى، و لهذا فإنه سرعان ما تواجه هؤلاء المتحاكمين إلى الطواغيت تبعات و مفاسد عملهم هذا، و سرعان ما يندمون على فعلهم هذا.

هذا و يحتمل بعض المفسرين أن المراد من «المصيبه» هو الفضيحه التي تلحق بالمنافقين، أو المصائب التي تصيبهم بأمر الله سبحانه (كالمآسى و المحن الغير المتوقعه).

الثانيه: إن مقصود المنافقين من «الإحسان» هل هو الإحسان إلى طرفي الدعوى، أو إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ يمكن أن يكون مرادهم كلا الأمرين، فهم تذرعوا

بحجج مضحكه لتحاكمهم إلى الطاغوت و الرجوع إلى الأجنب، من جملتها أنهم كانوا يقولون: إن التحاكم إلى الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلّم لا- يناسب شأنه و لا- يليق بمقامه، لأنّ الغالب أن يحصل شجار و صياح في محضر القضاة و من جانب المتداعيين، و ذلك أمر لا يناسب شأن النبي و لا يليق بمكانته و محضره.

هذا مضافا إلى أنّ القضاء ينتهي دائما إلى الإضرار بأحد الطرفين، و لذلك فهو يثير حفيظته و عداوته ضد القاضي و الحاكم، و كأنهم بأمثال هذه الحجج الواهية و الأعذار الموهونه، كانوا يحاولون تبرئه أنفسهم و تبرير مواقفهم الباطلة، و ادعاء أنّ تحاكمهم إلى غير النبي كان بهدف التخفيف عن النبي.

و ربّما اعتدروا لذلك قائلين: إنّ هدفنا لم يكن ماديا في الأساس، بل كان التوصل إلى وفاق بين المتداعيين.

و لكن كشف سبحانه في الآيه الثالثه النقاب عن وجههم، و أبطل هذه التبريرات الكاذبه و قال: **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ .**

و لكنّه سبحانه يأمر نبيّه مع ذلك أن ينصرف عن مجازاتهم و عقوبتهم فيقول:

**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**

و لقد كان رسول الله يدارى المنافقين ما أمكنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنّه كان مأمورا بالتعامل معهم على حسب ظواهرهم، فلم يكن يجازيهم إلاّ في بعض الموارد الاستثنائية، لأنّهم كانوا بين صفوف المسلمين في الظاهر- فكانت مجازاتهم يمكن أن تحمل على أنها نشأت من أغراض شخصيه.

ثمّ إنّ سبحانه يأمر النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم أن يعظهم، و أن ينفذ إلى قلوبهم بالقول البالغ، و العظه المؤثره، يذكّرهم بنتائج أعمالهم: **وَ عِظُهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا .**

اشاره

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)

التفسير

فى الآيات السابقه شجب القرآن الكريم التحاكم إلى حكام الجور، و فى هذه الآيه يقول سبحانه مؤكدا:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ

أى أننا بعثنا الأنبياء ليطاعوا بإذن الله و أمره و لا يخالفهم أحد، لأنهم كانوا رسل الله و سفراءه كما كانوا رؤساء الحكومه الإلهيه أيضا، و على هذا يجب على الناس أن يطيعوهم من جهه بيان أحكام الله و من جهه طريقه تطبيقها، و لا يكتفوا بمجرد ادعاء الإيمان.

و من هذه العبارة يستفاد أنّ الهدف من إرسال الرسل و بعث الأنبياء هو إطاعه جميع الناس لهم، فإذا أساء بعض الناس استخدام حريتهم و لم يطيعوا الأنبياء كان اللوم متوجها إلى أنفسهم لا إلى أحد. و بهذا تنفى الآيه الحاضره عقيدته الجبريين الذين يقولون: الناس صنفان: صنف كلف بالطاعه من البدء، و صنف كلف بالمعصيه من البدء.

كما أنه يستفاد من عبارته بِإِذْنِ اللَّهِ أَنْ كُلَّ مَا عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ اللَّهِ، أو بعبارته أخرى: إن وجوب طاعتهم ليس بالذات، بل هي -أيضا- بأمر الله و من ناحيته.

ثم إنَّه سبحانه يترك باب التوبه و الإنابه-عقيب تلك الآية-مفتوحا على العصاه و المذنبين، و على الذين يراجعون الطواغيت و يتحاكمون إليهم أو يرتكبون معصيه بنحو من الأنحاء، و يقول: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

و الجدير بالتأمل و الانتباه إنَّ القرآن يقول بدل: عصوا أمر الله و تحاكموا إلى الطاغوت: إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ و هو إشاره إلى أنَّ فائده الطاعه لأمر الله و أمر الرسول تعود إليكم أنفسكم، و إن مخالفه ذلك نوع من الظلم توقعونه على أنفسكم، لأنها تحطم حياتكم الماديه، و توجب تخلفكم و انحطاطكم من الناحيه المعنويه.

إنَّ هذه الآية تجيب ضمنا على كل الذين يعتبرون التوسل برسول الله أو بالإمام نوعا من الشرك، لأنَّ الآية تصرح بأن التوسل بالنبي و الاستشفاع به إلى الله، و طلب الاستغفار منه لمغفره المعاصي، مؤثر و موجب لقبول التوبه و شمول الرحمه الإلهيه.

فلو كانت وساطه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و دعاؤه للعصاه المتوسلين به، و الاستشفاع به و طلب الاستغفار منه شركا، فكيف يمكن أن يأمر القرآن العصاه و المذنبين بمثل هذا الأمر؟ نعم، غايه ما في الباب أنَّ على العصاه و المذنبين أنفسهم أن يتوبوا هم و يرجعوا عن طريق الخطأ، ثم يستفيدوا-لقبول توبتهم-من استغفار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

و من البديهي أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ليس من شأنه أن يغفر الذنوب، بل شأنه في المقام أن يطلب من الله المغفره خاصه، و هذه الآية إجابته مفحمه للذين ينكرون مشروعيه أو فائده هذه الوساطات.

هذا و المفلت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يقل: استغفر لهم يا رسول الله، بل قال: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ الرّسُولُ و هذا التعبير-لعله-إشاره إلى أن يستفيد النبي من مقامه و مكانته و يستغفر للعصاه التائبين.

إنّ هذا الموضوع (أى تأثير استغفار النبي صلى الله عليه و آله و سلم للمؤمنين) ورد في آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا مثل الآيه (١٩) من سوره محمّد و الآيه (٥) من سوره المنافقون و الآيه (١١٤) من سوره التوبه التى تشير إلى استغفار إبراهيم لأبيه (عمّه)، و الآيات الأخرى التى تنهى عن الاستغفار للمشركين، و مفهومها جواز الاستغفار للمؤمنين، كما يستفاد من بعض الروايات إن الملائكه تستغفر لجماعه من المؤمنين المذنبين عند الله (سوره غافر الآيه ٧٧، و سوره الشورى الآيه ٥).

و خلاصه القول، إنّ هناك آيات كثيره تكشف عن هذه الحقيقه و هى إنّ الأنبياء، أو الملائكه، أو المؤمنين الصادقين الطيبين بإمكانهم أن يستغفروا لبعض العصاه، و إن استغفارهم مؤثر عند الله، و هذا هو أحد معانى شفاعه النبي أو الملائكه أو المؤمنين الطيبين للعصاه و الخاطئين، و لكن الشفاعه كما قلنا تحتاج إلى أرضيه و صلاحيه و أهليه فى العصاه أنفسهم.

و العجيب أنه يستفاد من بعض ما قاله جماعه من المفسرين أنّهم أرادوا اعتبار استغفار النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى الآيه الحاضره-مرتبطا بالتجاوزات الواقعه فى شؤون النبي خاصه لا مطلق المعاصى و الذنوب، و كأنّهم أرادوا أن يقولوا: لو أنّ أحدا ظلم النبي أو أساء إليه و جب استحلاله و استرضائه ليغفر الله تلك الإساءه و يتوب على ذلك التجاوز.

و لكن من الواضح البين أن إرجاع التحاكم إلى غير النبي ليس ظلما شخصا يهدف به شخص النبي، بل هى مخالفه لمنصبه الإلهى الخاص (أو بعبارة أخرى) إنّها مخالفه للأمر الإلهى، و حتى إذا كان ذلك ظلما شخصا موجهها إلى شخص



النبي-افتراضا-فإن القرآن لم يقصده و لم يركز عليه، بل ركز القرآن على هذا الموضوع و هو أن ذلك التحاكم مخالفه لأمر الله و تجاهل لإرادته.

هذا مضافا إلى أننا لو ظلمنا أحدا كفانا رضاه، فما الحاجه إلى طلب استغفاره، و دعائه للمسيء؟ بل و فوق ذلك كله، لو أننا فسرنا الآية بمثل هذا التفسير-فرضا-فما الذي نقوله في تلك المجموعه الكبيره من الآيات التي تشير إلى استغفار الأنبياء، و الملائكه و المؤمنين للعصاه و الخاطئين؟ فهل المقام فيها مقام الحقوق الشخصيه أيضا؟

ص: ٣٠٥

اشاره

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)

سبب النزول

وقع خصام بين الزبير بن العوام - وهو من المهاجرين - وبين رجل من الأنصار على سقى نخيلهما التي كانت متقاربه في المكان، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم - حيث أن نخيل الزبير كانت أعلى مكانا من نخيل الأنصارى،

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك» (وقد كانت هذه هي العاده في البساتين المتجاوره آنذاك) فغضب الأنصارى من حكم النبي العادل هذا، وقال: يا رسول الله لئن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انزعاجا من موقف الأنصارى وكلامه، فنزلت الآية الحاضره تحذر المسلمين من مثل هذه المواقف.

وقد ذكرت في بعض التفاسير أسباب أخرى لنزول الآية تشابه - إلى درجة كبيره - ما ذكر في سبب النزول المتقدم (راجع تفسير التبيان والطبرسى، والمنار).

## التسليم أمام الحق:

الآية، وإن ذكر لها سبب نزولها خاص -و لكننا أسلفنا غير مرّة أن أسباب النزول الخاصّه لا تنافى عموميه مفهوم الآيات، و لهذا يمكن اعتبار هذه الآية تكميلا لما جاء من البحث في الآيات السابقة.

و لقد أقسم الله -في هذه الآية- بأنّ الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيمانا واقعيا إلا إذا تحاكموا إلى النبي وقضائه، و لم يتحاكموا إلى غيره فلا وَ رَبُّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .

ثمّ يقول سبحانه: يجب عليهم، أن يتحاكموا إليك فقط، و مضافا إلى ذلك ليرضوا بما تحكمه، سواء كان في صالحهم أو في ضررهم و لا يشعروا بأى حرج في نفوسهم فضلا عن أن لا يعترضوا، و بالتالى ليسلموا تسليما.

ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

:

و الانزعاج النفسى الباطنى من الأحكام التى ربّما تكون فى ضرر الإنسان، و إن كان فى الأغلب أمرا غير اختيارى، إلا أنّه على أثر التريه الخلقية المستمره يمكن أن تحصل لدى الإنسان روح التسليم أمام الحق، و الخضوع للعداله، خاصّه بملاحظه المكانه لواقعيه النبي صلى الله عليه و آله و سلّم، فلا يتزعج من أحكام النبي صلى الله عليه و آله و سلّم، بل و لا من أحكام العلماء الذين يخلفونه، و على كل فإن المسلمين الواقعيين مكلفون دائما بتنميه روح الخضوع للحق، و التسليم أمام العدل فى نفوسهم.

إن الآية الحاضره تبين علانم الإيمان الواقعى الراسخ فى ثلاث مراحل:

١- أن يتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلّم -و حكمه النابع من الحكم الإلهى- فى ما اختلفوا فيه، كبيرا كان أم صغيرا، لا إلى الطواغيت و حكام الجور و الباطل.

٢- أن لا يشعروا بأى انزعاج أو حرج فى نفوسهم تجاه أحكام الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم و أقضيته العادله التى هى -فى الحقيقه- نفس الأوامر الإلهيه، و لا

يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

٣- أن يطبقوا تلك الأحكام- في مرحله تنفيذها- تطبيقا كاملا و يسلموا أمام الحق تسليما مطلقا.

و من الواضح أنّ القبول بأي دين و أحكامه في ما إذا كانت في مصلحه الإنسان و كانت مناسبة لمنافعه و تطلعاته، لا يمكن أن يكون دليلا- على إيمانه بذلك الدين، بل يثبت ذلك إذا كانت تلك الأحكام في الاتجاه المتعاكس لمنافعه و تطلعاته ظاهرا، و إن كانت مطابقه للحق و العدل في الواقع، فإذا قبل بمثل هذه الأحكام و سلم لها تسليما كاملا كان ذلك دليلا على إيمانه و رسوخ اعتقاده.

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «لو أن قوما عبدوا الله وحده لا شريك له و أقاموا الصلاه و أتوا الزكاه و حجوا البيت و صاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله و صنع رسوله صلى الله عليه و آله و سلم لم صنع هكذا و كذا، و لو صنع خلاف الذي صنع، أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية (الحاضره) ثم قال عليه السلام: عليكم بالتسليم» (١).

ثم أنه يستفاد من الآية الحاضره مطلبان مهمان- ضمنا:

١- إن الآية إحدى الأدلة على عصمه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّ الأمر بالتسليم المطلق أمام جميع أحكامه و أوامره قولا و عملا، بل و التسليم القلبي و الخضوع الباطني له أيضا دليل واضح على أنه صلى الله عليه و آله و سلم لا يخطئ في أحكامه و أفضيته و تعليماته، و لا يتعمد قول ما يخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ، كما هو معصوم عن الذنب أيضا.

٢- إن الآية الحاضره تبطل كلّ اجتهاد في مقابل النص الوارد عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و تنفي شرعيه كل رأى شخصي في الموارد التي وصلت إلينا فيها أحكام صريحه من جانب الله تعالى و نيته صلى الله عليه و آله و سلم.

ص: ٣٠٨

و على هذا الإساس فإن ما نراه فى التاريخ الإسلامى من اجتهاد بعض الأشخاص فى مقابل الأحكام الإلهيه و النصوص النبويه، و قولهم: قال النبى كذا و نقول كذا، فليس أمامنا حياه إلا أن ندعن بأنهم عملوا على خلاف صريح هذه الآيه، و خالفوا نصها.

ص: ٣٠٩

إشاره

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٦٦) وَإِذَا لَا تَقِينَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)

التفسير

تكميلاً للبحث السابق حول أولئك الذين يشعرون بضيق و حرج تجاه أحكام النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أفضيته العادله بعض الأحيان-يشير القرآن هنا إلى بعض التكاليف و الفرائض الثقيله فى الأمم السالفه فيقول: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ .

أى أننا لم نكلفهم بأيه فريضه شاقه لا- تتحمل، و لو أننا كنا نكلفهم بمثل ما كلفنا به الأمم السابقه (مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضهم البعض الآخر كفاره لما ارتكبوه من عباده العجل، أو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟ إنهم لم يتحملوا حكماً بسيطاً أصدره النبي فى أمر سقى نخلات، و لم يسلموا لهذا القضاء العادل، فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمات العظيمة و المسؤوليات الجسيمه و يمروا بالاختبارات الصعبه بنجاح، فلو أننا

أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم (أى يقتل بعضهم بعضاً) أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلا قليل منهم.

إنَّ مسأله «الاستعداد للقتل» تشبه -حسب قول بعض المفسرين- مسأله «الخروج عن الوطن» من جهات عديده، لأنَّ البدن وطن الروح الإنسانيه تماما كما أنَّ الوطن مثل الجسم الإنسانى، فكما أنَّ التغاضى عن ترك وطن الجسم أمر صعب، كذلك التغاضى عن الوطن الذى هو مستقط رأس الإنسان و محل ولادته و نشأته.

ثمَّ إنَّ الله سبحانه يقول: **وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا** أى لو أنَّهم قبلوا نصائح النبى و مواعظه لكان ذلك من مصلحتهم، و لكان سببا لتقويه أسس الإيمان عندهم.

و الملفت للنظر أنَّ القرآن يعبر -فى هذه الآيه- عن الأحكام و الأوامر الإلهيه بالموعظه، و هو إشاره إلى أنَّ الأحكام المذكوره ليست أمورا تصب فى مصلحه المشرع (أى الله) أو تجر له نفعاً، بل هى -فى الحقيقه- نصائح و مواعظ نافعه لكم، و لهذا يقول و دون تأخير: **وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا** أى تقويه لإيمانهم و ترسيخاً لجذورها فى نفوسهم.

و لا بدَّ أيضا أن ننتبه إلى هذه النقطه، و هى أنَّ الله سبحانه يقول فى ختام هذه الآيه **وَ أَشَدَّ تَثْبِيثًا** أى كلما اجتهد الإنسان فى السير فى سبيل طاعه الله و تنفيذ أوامره ازدادت استقامته و ازداد ثباته، و هذا يعنى أن إطاعه الأوامر الإلهيه نوع من الرياضه الروحيه التى تحصل للإنسان من تكرارها قوه و ثبات أكبر و استحكام أكثر، على غرار ما يحصل للجسم نتيجة تكرار الرياضات الجسميه و التمارين الرياضيه البدنيه، فيصل الإنسان -نتيجه ذلك- إلى مرحله لا يمكن لأيه قدره أن تغلب قدرته أو تخدعه أو تزغزعه.

ثمَّ إنَّه سبحانه يبيِّن -فى الآيه الثانيه- الفائده الثالثه من فوائد التسليم لأوامر

اللّٰهُ و طاعته إذ يقول: وَ إِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا أَى إِذَا لَاعَطَيْنَاهُمْ- مضافا إلى ما ذكرناه-أجرا من عندنا عظيما، لا يعرف منتهاه ولا يدرك مداه.

ثمّ فى آخر آیه من هذه الآيات يشير سبحانه إلى رابع نتیجه إذ يقول:

وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا

و من الواضح البين أنّ المراد من هذه «الهداية» ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد الطاف جديده يمن بها اللّٰهُ سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب و الهدايه الثانويه، فهو يشبه ما أشير إليه فى الآيه (١٧) من سوره محمّد صلّى اللّٰهُ عليه و آله و سلّم إذ قال: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .

و

قد روى أنّه عند ما نزل قوله: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...

قال رجل من المسلمين: و اللّٰهُ لو أمرنا لفعلنا فالحمد لله الذى عافانا.

فلما بلغ هذا الكلام إلى رسول اللّٰهُ صلّى اللّٰهُ عليه و آله و سلّم قال:

«إنّ من أمتى لرجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى» (١).

ص: ٣١٢



إشاره

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا  
(٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)

سبب النزول

كان أحد الصحابه يدعى «ثوبان» شديد الحبّ لرسول الله قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا ثوبان ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله ما من مرض ولا وجع غير أنى إذا لم أراك اشتقت إليك حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخره فأخاف أنى لا أراك، وإنى إن أدخلت الجنه كنت فى منزله أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنه فذاك حتى لا أراك أبدا.

فنزلت الآيتان الحاضرتان تبشران أمثال هذا بأن المطيعين سيكونون مع النبيين و من اختارهم الله و أنعم عليهم فى الجنه.

ثم

أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «و الذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه و أبويه و أهله و ولده و الناس أجمعين» أى يكون مسلما لتعاليمى و أوامرى، تسليما كاملا.

فى هذه الآيه يبين القرآن ميزه أخرى من ميزات من يطيع أوامر الله تعالى و النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و فى الحقيقة مكمله للميزات التى جاء ذكرها فى الآيات السابقه، و هى صحبه الذين أتم الله نعمه عليهم و مرافقتهم: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ... .

و كما أسلفنا فى سورة الحمد فإنّ الذين أنعم الله عليهم هم الذين ساروا فى الطريق المستقيم و لم يرتكبوا أى خطأ، و لم يكن فيهم أى انحراف.

ثمّ يشير-لدى توضيح هذه الجملة، و تحديد من أنعم الله عليهم-إلى أربع طوائف يشكّلون فى الحقيقة الأركان الأربعة لهذا الموضوع و هم:

١-الأنبياء: أى رسل الله تعالى الذين كانوا طليعه السائرين فى سبيل هدايه الناس و دعوتهم إلى الصراط المستقيم مِنَ النَّبِيِّينَ .

٢-الصدّيقون: و هم الذين يصدقون فى القول و يصدقون إيمانهم بالعمل الصالح، و يشبتون أنّهم ليسوا مجرد أدعياء الإيمان، بل مؤمنون بصدق بأوامر الله و تعاليمه وَ الصّٰدِقِيْنَ .

و من هذا التعبير يتّضح أنّه ليس بعد مقام النبوه أعلى من مقام الصدق، و الصدق هذا لا ينحصر فى الصدق فى القول فقط، بل هو الصدق فى الفعل و العمل...الصدق فى الممارسات و المواقف، و هو لذلك يشمل الأمانه و الإخلاص أيضا، لأن الأمانه هى الصدق فى العمل كما أن الصدق أمانه فى القول، و فى المقام ليس هناك صفه بعد الكفر أقبح من الكذب و النفاق و الخيانه فى القول و العمل (و يجب الانتباه-هنا-إلى أن الصّدّيق صيغه مبالغه و هى بمعنى الصادق كله، ظاهرا و باطنا).

و قد فسّر «الصدّيق» فى بعض الروايات و الأخبار بعلى عليه السلام و الأئمّه من أهل

البيت النبوي عليهم السلام، وهذا التفسير كما قلنا في ما سبق من باب بيان المصداق الأكمل والأوضح لهذه الآيات، فلا تفيد الحصر والقصر.

٣- الشهداء: الذين قتلوا في سبيل الله و في سبيل العقيدة الإلهية الطاهرة، أو الذين يشهدون على الناس و أعمالهم في الآخرة و الشهداء (١).

٤- الصّالحون: وهم الذين بلغوا بأعمالهم الصالحة و المفيدة و باتباع الأنبياء و أوامرهم إلى مراتب عالية و مقامات رفيعة و الصّالحين .

و لهذا فسّر «الصّالحون» في رواياتنا و أحاديثنا، بالصفوه المختاره من أصحاب الأئمة عليهم السلام و هذا هو أيضا من باب بيان أظهر المصداق و أوضحها كما أسلفنا في تفسير الصديقين.

و النقطة الجديده بالتذكير هنا هي أن ذكر هذه المراحل الأربع يمكن أن يكون إشاره إلى أنه لا- بدّ لبناء المجتمع الإنساني الصالح و السليم من: أن يبدأ الأنبياء-و هم القاده و الهداه بحق الهدايه، ثم يتبعهم المبلغون الصادقون بالقول و العمل، و هم الصادقون الذين يصدق عملهم قولهم و فعلهم دعواهم فينشروا الحقائق في كل مكان، ثم بعد مرحله البناء الفكرى و الاعتقادى هذه، يقوم جماعه في وجه العناصر الفاسده و من يريدون الوقوف في طريق الحقّ، فيضحون بأنفسهم و يقدمون أجسادهم و حياتهم قرابين للحقّ و العدل، فيكون حاصل هذه الجهود و المساعى ظهور الصّالحين و استقرار المجتمع الطاهر السليم.

و من الواضح البيّن أنّ على الصّالحين أيضا أن يقوموا بهذه الواجبات الثلاث أى عليهم أن يقودوا، و يبلغوا، و يضحوا لكي يبقوا على جذوه الحق متقدمه، و على مشعل العدل مضيئا للأجيال اللاحقه.

ص: ٣١٥

١- ١) - الشهيد في أصل اللغه هو من يشهد، غايه ما هناك أن الإنسان قد يشهد على حق بكلامه، و قد يشهد بعمله و قتله في سبيل أهدافه الطاهره.

كما أنه يستفاد من الآيات الحاضره ضمننا هذه الحقيقه، و هي أنّ مسأله مرافقه الصالحين و صحبه الرفقاء الطيبين لها من الأهميه بحيث تعتبر فى الآخره الجزء المكمل للنعم الإلهيه الكبرى التى يمنّ الله بها على المطيعين فى الجنّه، فهم علاوه على كل ما يحصلون عليه من نعم و ميزات سيحظون بمرافقه رفقاء كالأنبياء و الصّديقين و الشّهداء و الصّالحين.

و لعنا فى غنى عن التذكير بأن معاشره المطيعين لهذه الطوائف الأربع ليس معنا أنّهم فى منزلتهم و رتبتهم، و إنّهم فى درجتهم من جميع الجهات، بل يعنى أن لكل واحد منهم -مع معاشره بعضهم لبعض- سهما خاصا (يتناسب و مقامه) من المواهب و الألفاف الإلهيه، فهم كأشجار بستان واحد و وروده و أعشابه، فهى مع كونها مجتمعها متجاوزة و مع أنّها تستفيد برمتها من ضوء الشمس و المطر، و لكنها ليست متساويه فى حجم الاستفادة من تلك العناصر، كما أنّها ليست متساويه فى القيمه.

ثمّ بيّن سبحانه فى الآيه اللاحقه أهميه هذا الامتياز الكبير (أى مرافقه تلك الصفوه المختاره) إنّ هذه الهبه من جانب الله، و هو عليم بأحوال عبادته و نواياهم و مؤهلاتهم: **ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَ كَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا**، فلا يخطئ فى الإثابه و الجزاء حيث أن «ذلك» إشاره إلى البعيد لهذا يوحى فى هذه الموارد إلى أهميه المقام و علوه.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا بِلِبَاتٍ أَوْ ائْفِرُوا جَمِيعًا (٧١)

التفسير

اشاره

الحذر الدائم:

«الحذر» يعنى اليقظه و التأهب و الترقب لخطر محتمل، كما يعنى أحيانا الوسيله التى يستعان بها لدفع الخطر.

أمّا كلمه «ثبات» فتفيد معنى المجموعات المتفرقه، و مفردها «ثبه» من ماده «ثبى» أى جمع.

و القرآن يخاطب عامه المسلمين فى الآيه المذكوره أعلاه، و يقدم لهم اثنتين من التعاليم اللازمه لصيانته وجود المسلمين و المجتمع الإسلامى تجاه كل خطر يهدد هذا الوجود.

فى البدايه تأمر الآيه المؤمنين بالتمسك باليقظه و البقاء فى حاله التأهب من أجل مواجهه العدو، و تحذرهم من الغفله عن هذا الأمر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ....

ثم تأمر الآيه بالاستفاده من الأساليب و التكتيكات المختلفه فى مواجهه

العدو، من ذلك الزحف على شكل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو على شكل جيش موحد مترابط إن استدعت المواجهه هجوما شاملا منسجما، و في كلتا الحالتين لا بد من المواجهه الجماعيه فأنفروا لِبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا .

ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى «الحذر» في الآية هو «السلاح» لا غير، بينما للحذر معنى واسع لا يقتصر على السلاح، ثم أن الآية (١٠٢) من هذه السوره تدل بوضوح على أن الحذر غير السلاح حيث يقول تعالى: ... أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ... و جواز وضع السلاح (في الصلاه) مع أخذ الحذر يدل على أن الحذر لا يعنى السلاح بالذات.

الآيه الكريمه هذه تشتمل على أمر عام مطلق لجميع المسلمين في كل العصور و الأزمنه، و يدعو هذا الأمر المسلمين إلى الالتزام باليقظه و الاستعداد الدائم لمواجهه أى طارئ من جانب الأعداء و لحمايه أمن الأئمّه، و ذلك عن طريق التحلّي بالاستعداد المادى و المعنوى الدائمين.

و كلمه «الحذر» أيضا تستوعب بمعانيها الواسعه - كل أنواع الوسائل الماديه و المعنويه الدفاعيه التى يتحتم على المسلمين اتباعها، من ذلك التعرف على قدره العدو من حيث العدّه و العدد، و أساليبه الحربيه، و الإستراتيجيه، و مدى فاعليه أسلحته، و كيفيه مواجهتها و الاحتماء من خطرها و خطر العدو نفسه، و بذلك يكون المسلمون قد أوفوا من حيث العمل بما يتطلبه منهم أمر «الحذر» من الاستعداد و التأهب و اليقظه لمواجهه أى خطر طارئ.

و يشتمل أمر «الحذر» أيضا على الاستعداد النفسى و الثقافى و الاقتصادى، لتعبئه كافه الإمكانيات البشريه، و الاستفادة من أقوى أنواع الأسلحه و أكثرها تطورا فى الوقت المطلوب، و كذلك الإمام بصور استخدام هذا السلاح و أساليبه، فإذا كان المسلمون يلتزمون بهذا الأمر و يطبقونه على حياتهم لاستطاعوا أن

يجنبوا أنفسهم و أمّتهم الفشل و التقهقر و الهزيمه على مدى تاريخهم الملىء بالأحداث.

و الشيء الآخر الذى يفهم من هذه الآيه الكريمه، هو اختلاف أساليب مواجهه العدو بحسب ما تقتضيه الضروره، و يعينه الظرف، و يحدد موقع العدو- فلو كان هذا الموقع يتطلب مقابله العدو بجماعات منفصله، لوجب استخدام هذا الأسلوب مع كل ما يحتاج إليه من عدد و عدّه و غير ذلك، و قد يكون موقع العدو بصوره تقتضى مواجهه العدو فى هجوم عام ضمن مجموعه واحده متماسكه، و عند هذا يجب أن يعدّ المسلمون العدّه اللازمه و العدد الكافى لمثل هذا الهجوم الشامل.

و من هنا يتّضح أنّ إصرار البعض على أن يكون للمسلمين أسلوب كفاحى واحد دون اختلاف فى التكتيك لا يقوم على منطق و لا تدعّمه التجارب، إضافة إلى أنّه يتنافى مع روح التعاليم الإسلاميه.

لعل الآيه-أعلامه- تشير أيضا إلى أنّ المسأله الهامه هى تحقيق الأهداف الواقعيه سواء تطلب الأمر أن يسلك الجميع أسلوبا واحدا، أو أن يهجموا أساليب متنوعه.

و يفهم من كلمه «جميعا» أنّها تعنى أنّ المسلمين كافّه مكلفون بالمشاركه فى أمر مواجهه العدو، و لا يختص هذا الحكم بطائفه معينه.

إشاره

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مَوْجِبُهُ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٣)

التفسير

بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد والاستعداد لمقابله العدو في الآيه السابقه تبين هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد، و تفضح تذبذبهم، فهم يصرون على الامتناع عن المشاركة في صفوف المجاهدين في سبيل الله...

وَإِنَّ مِنْكُمْ (١) لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ (٢) ...

و حين يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معاركهم، فإن

ص: ٣٢٠

١ - ١) - ينبغي الالتفات إلى أن الآيه أعلاه تخاطب المؤمنين، لكنّها تتطرق إلى المنافقين أيضاً، كما أن عبارته «منكم» جعلت المنافقين جزءاً من المؤمنين، و ما ذلك إلا لأنّ المنافقين كانوا دائماً متغلغلين بين المؤمنين، و من هنا فهم يحسبون على الظاهر جزءاً منهم.

٢ - ٢) - «ليبطئن» من «البطء» في الحركة، و هو فعل لازم و متعد كما ذكر علماء اللغه، أي أنّهم يبطؤون في حركتهم و يدعون الآخرين إلى البطء، و لعل استعمال الفعل في باب التفعيل هنا يعنى أنّه متعد فقط، أي أنّهم يدفعون أنفسهم إلى البطء تاره، و يدفعون الآخرين إلى ذلك تاره أخرى.



كان قد أصابهم مكروه في قتالهم يتحدث المنافقون بابتهاج بأن الله قد أنعم عليهم نعمه كبيره إذ لم يشاركوا المجاهدين في ذلك القتال، ويفرحون لعدم حضورهم في مشاهد الحرب الرهيبة فإن أصابكم مصيبه قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً....

و حين تصل الأخبار بانتصار المسلمين المجاهدين و نيلهم المغانم، يتبدل موقف هؤلاء المنافقين فتبدو الحسره عليهم و يظهر الندم على وجوههم، و يشرعون-و كأنهم غرباء لا تربطهم بالمسلمين أيه رابطه- بترديد عبارات التأسف: وَ لَئِن أَصَابَكُم فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا .

في الآيه إشاره إلى المفهوم المادى للنصر في نظر المنافقين، فالذى يرى الشهاده و القتل في سبيل الله مصيبه و بلاء، و يخال النجاه من القتل أو الشهاده في هذه السبيل نعمه إلهيه، لا- ينظر إلى النصر و الفوز إلا- من خلال منظار كسب الغنائم و المتاع المادى لا غير.

هؤلاء المتلونون الموجودون-مع الأسف- في كل المجتمعات، سرعان ما يغيرون أفتعتهم تجاه ما يواجهه المؤمنون من نصر أو هزيمه، هؤلاء لا- يشاركون المؤمنين في معاناتهم و لا- يساعدونهم في الملمات، لكنهم يتوقعون أن يكون لهم في الانتصارات السهم الأوفى، و أن يحصلوا على ما يحصل عليه المجاهدون المؤمنون من امتيازات.

اشاره

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)

التفسير

اشاره

إعداد المؤمنين للجهاد:

بعد أن أوضحت الآيه السابقه إحصام المنافقين عن مشاركة المجاهدين فى القتال تتوجه الآيه (٧٤) و التى تليها-بلغه مشجعه مشوقه-إلى المؤمنين فتدعوهم إلى الجهاد فى سبيل الله، و نزول هذه الآيات حين كان الإسلام مهددا من قبل مختلف الأعداء- سواء من الداخل أو الخارج- يدل على أهميتها فى تربيته الروح الجهاديه لدى المسلمين.

و توضح الآيه فى بدايتها أنّ أعباء الجهاد يجب أن تكون على عاتق أولئك النفر الذين باعوا حياتهم الدنيويه الماديه الزائله، مقابل فوزهم بالحياه الأخرويه الخالده: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ... أى أن المجاهدون الحقيقيون هم وحدهم المستعدون للدخول فى هذه الصفقه، بعد أن انكشفت لهم دناءه الحياه الماديه (و هو ما يفهم من لفظ الدنيا)، فهؤلاء أدركوا أن هذه الحياه لا قيمه لها تجاه الحياه الأبديه الخالده، أما الذين يرون الأصاله فى

الحياه الماديه الدينئه،و يعتبرونها أرفع و أكبر من الأهداف الإلهيه المقدسه و الأهداف الإنسانيه الساميه،فلا يمكن أن يكونوا أبدا مجاهدين صالحين.

و تستمر الآيه مبينه أنّ مصير المجاهدين الحقيقيين الذين باعوا الحياه الدنيا بالآخره واضح لا يخرج عن حالتين:إمّا النصر على الأعداء،أو الشهاده فى سبيل الله،و هم فى كلتا الحالتين ينالون الأجر و الثواب العظيم من الله تعالى ...

وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

و بديهى أن جنودا كهؤلاء لا يفهمون معنى الهزيمه،فهم يرون النصر إلى جانبهم فى الحالتين:

سواء تغلبوا على العدو،أو نالوا الشهاده فى سبيل الله،و مثل هذه المعنويات كفيله بأن تمهد الطريق للانتصار على العدو،و يعتبر التاريخ خير شاهد على أنّ هذه المعنويات هى العامل فى انتصار المسلمين على أعداء فأقوهم عددا و عدّه.

و يؤكّد هذا الأمر حتى المفكرون من غير المسلمين ممن كتبوا عن انتصارات المسلمين السريعه التى حققوها فى عصر الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم و فى العصور التاليه،فهؤلاء المفكرون يرون أن منطق الفوز بإحدى الحسنين أحد العوامل الحاسمه فى تقدم المسلمين.

يقول مؤرخ غربى مشهور فى كتاب له فى هذا المجال:إنّ المسلمين لم يكونوا ليخافوا الموت فى سبيل دينهم الجديد،لما وعدوا به من هبات إلهيه فى الآخره،و أنّهم لم يعتقدوا بأصالة خلود هذه الحياه الدنيا،و لذلك فهم قد تنازلوا عن هذه الحياه فى سبيل العقيد و الهدف (1).

و الجدير ذكره هنا هو أنّ هذه الآيه-و آيات أخرى من القرآن الكريم- اعتبرت الجهاد أمرا مقدسا إذا كان فى سبيل الله،و من أجل إنقاذ البشر، و إحياء مبادئ الحق و العداله و الطهاره و التقوى،على عكس الحروب التى تشن بهدف التوسع و بدافع من التعصب و التوحش و الاستعمار و الاستغلال.

ص: ٣٢٣

اشاره

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ  
أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)

التفسير

اشاره

الاستعانه بالعواطف و المشاعر الإنسانيه:

كانت الآيه السابقه تطالب المؤمنين بالجهاد معتمده على إيمانهم بالله و اليوم الآخر، و قد اعتمدت أيضا قضيه الربح و الخساره في سياق دعوتها إلى الجهاد، أما هذه الآيه فتستند في دعوتها الجهاديه إلى العواطف و المشاعر الإنسانيه و تستثيرها في هذا الاتجاه-فهى تخاطب مشاعر المؤمنين و عواطفهم بعرض ما يتحمله الرجال و النساء و الأطفال المضطهدون من عذاب و ظلم بين مخالبا الطغاه الجبارين، و تطالب المؤمنين-مستثيره عواطفهم في هذا الاتجاه-عن طريق عرض المشاهد المأساويه التى يعانى منها المستضعفون و تدعوهم إلى الجهاد فى سبيل الله من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومين فتقول الآيه: وَمَا لَكُمْ لَا

تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ (١) مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوُلْدَانِ...

و لأجل إثاره المشاعر أكثر، تتبّه الآيه المؤمنين بأنّ المستضعفين المذكورين لكثرة معاناتهم من البطش و الإرهاب و الاضطهاد قد انقطع أملهم في النجاه و يسوا من كل عون خارجي، فأخذوا يدعون الله لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش و الرعب و الظلم الفاحش: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا و يطلب المستضعفون من الله- أيضا- أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم و ينجيهم من الظالمين بقولهم:

وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا

الآيه- في الواقع- نشير إلى أنّ الله قد استجاب دعاء المستضعفين، فهذه الرساله الإنسانيه الكبرى قد أوكلت إليكم أنتم أيها المسلمون المخاطبون، فقد أصبحتم أنتم «الولي» المرتقب و أنتم «النصير» من قبل الله تعالى لإنقاذ المستضعفين، من هنا عليكم أن تنهضوا بهذه المسؤوليه و تستثمروا هذه المكانه الكبرى المناطه إليكم و لا تضيعوها.

و الآيه هذه يستفاد منها أيضا عدّه أمور، هي:

١- إنّ الجهاد في سبيل الله و كما أشير إليه من قبل- ليس من أجل انتزاع الأموال و السلطه و الثروات من أيدي الآخرين، كما أنّه لا يستهدف إيجاد أسواق لاستهلاك البضائع أو لفرض عقائد خاصّه بالقوّه، بل أنه يستهدف نشر الفضيله و الإيمان و الدفاع عن المظلومين و المضطهدين من النساء و الرجال و الولدان، و من هذا المنطلق يتّضح أنّ للجهاد هدفين شاملين جامعين أشارت الآيه إليهما، أحدهما «ربّاني»، و آخر «إنساني» يكمل أحدهما الآخر، و لا ينفصلان، بل

ص: ٣٢٥

١- ١) - إنّ الفرق بين المستضعف و الضعيف واضح و جلي، فالضعيف هو من كان معدوم القدره و القوّه، و المستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم و جور الآخرين، سواء كان الاستضعاف فكريا أم ثقافيا أم كان أخلاقيا أو اقتصاديا أم سياسيا أم اجتماعيا، فالعبارة هنا جامعته شامله تستوعب جميع أنواع الاستضعاف.

كلاهما يعودان إلى حقيقه واحده.

٢- إن الإسلام يرى أن المحيط السالم الذى يمكن للإنسان أن يعيش فيه، هو ذلك المحيط الذى يوفر الحريه للإنسان، و يضمن له العمل بما يعتقد دون مانع أو أذى، و يرى الإسلام-أيضا-أنّ المحيط الذى يسوده الكبت و الإرهاب و القمع، و لا يستطيع المسلم فيه إظهار عقيدته أو إعلان إسلامه، فهو محيط لا يجدر بالإنسان المسلم أن يبقى فيه، لذلك فإن الآيه تنقل عن المؤمنين دعاءهم إلى الله لكى يخلصهم من مثل هذا الجو الملىء بالقمع و الإرهاب.

و على الرغم من أن مكّه كانت ملجأ و ملاذا للمهاجرين، فإنّ نفشى الظلم فيها جعل المؤمنين يدعون الله لإنقاذهم من ظلم أهل هذه المدينة، و يبسر لهم سبيلا إلى الخروج منها.

٣- و فى نهايه الآيه نرى أنّ المؤمنين الذين يعانون من محيطهم الظالم، يسألون الله أن يبعث لهم من يتولى شؤونهم، و أن يمددهم-أيضا-بمن ينصرهم على الظالمين و يخلصهم من مخالبتهم، و يفهم من هذه الآيه أهميه قياده الصالحه، و أهميه قدره هذه القياده فى إنقاذ المظلومين و ضروره امتلاكها من العدد و العده ما يمكنها من القيام بمسؤوليتها الخطيره هذه.

بذلك نستنتج من الآيه العناصر التى يجب أن تتوفر فى كل قياده إسلاميه، و هى كما يلى:

أ- أن تكون القياده صالحه (بما فى كلمه الصلاح من شموليه) ب- أن تكون قويه مقتدره (أن تملك العدد و العده الكافيين، بالإضافة إلى الخطط العسكريه التى تضمن نجاح استخدام القوه الموجوده).

٤- تبين الآيه أنّ المؤمنين يطلبون حاجاتهم من الله العلى القدير وحده، و لا يلجئون إلى غيره فى حوائجهم، حتى أنّهم يسألون الله أن يمددهم بمن يتولى الدفاع عنهم و ينصرهم على الظالمين.

اشاره

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا  
(٧٦)

التفسير

لقد أوضحت الآيات السابقة قضية الجهاد، وأبرزت عناصره و المخاطبين به و دوافعه، و في هذه الآيه نلاحظ أنها تحث المجاهدين على القتال، و تبين أهدافهم، مؤكده أنهم يقاتلون في سبيل الله و لمصلحه عباد الله، و أن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت المتجبر: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ أَي أَنَّ الحياه في كل الأحوال لا تخلو من الكفاح و الصراع، غير أن جمعا يقاتلون في طريق الحق، و جمعا يقاتلون في طريق الشيطان و الباطل.

لذلك تطلب الآيه من أنصار الحق أن ينبروا لقتال أنصار الشيطان دونما رهبة و خوف: فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ .

كما توضح هذه الآيه حقيقه مهمه، هي أن الطاغوت و القوى المتجبره-مهما امتلكت من قوه ظاهريه-ضعيفه في نفسها و جبانه في باطنها، و بهذا تطمئن الآيه

المؤمنين كى لا يخافوا من هؤلاء الطواغيت مهما أوتوا من عدّه أو عدد، لأنهم خالون من الهدف فارغون من الإيمان، ولذلك كانت خطتهم كلها ضعيفه خاويه كقدرتهم ولأنهم لا يعتمدون على منشأ قدره الأزليه الأبدية الذى هو الله العزيز القدير، بل يعتمدون على قدره الشيطان الضعيفه الجوفاء: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا .

أما سبب قوه المؤمنين من أنصار الحق فيعود إلى أنهم يسرون فى طريق أهداف و حقائق تنسجم مع قانون الخليقه و الوجود، و تتمتع بالصفه الأزليه الأبدية، فهم يجاهدون فى سبيل تحرير الإنسان و محو آثار الظلم و العدوان بينما الطاغوت و أنصاره يقاتلون من أجل منافعهم الشخصيه أو يعملون فى خدمه الطواغيت و المستكبرين من أجل استغلال البشر إرضاء لشهواتهم الفانيه الزائله، الأمر الذى يدفع فى النهايه بالمجتمع إلى الانحطاط و الزوال، لأنّ عمل الطواغيت يتناقض و سرّ الوجود و يتعارض مع قوانين الفطره و الطبيعه، هذا من جهه، و من جهه أخرى فإن المؤمنين باعتمادهم على القوى الروحيه يتمتعون بثقه عاليه بالنفس و بهدوء باطنى يمهد لهم سبيل النصر و الفوز على العدو، بل و يهبهم القوه و القدره على الاندفاع لمواجهة الأعداء، بينما العدو و الكافر لا يعتمد على أساس قوى أبدا.

و تجدر الملاحظه هنا أنّ الآيه قرنت الطاغوت بالشيطان، و هذا يدل على أن القوى الطاغوتيه المتجبره إنّما تستمد القوه و العون من منبع ضعيف يتمثل فى القوى الشيطانيه و الجوفاء.

هذا المضمون تذكره- أيضا- الآيه (٢٧) من سوره الأعراف: **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .**



اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلًا (٧٧)

سبب النزول

روى جمع من المفسرين كالشيخ الطوسي في التبيان، والقرطبي و صاحب المنار عن ابن عباس أن نفرا من المسلمين كانوا أثناء وجودهم في مكة قبل الهجرة يعانون من ضغط المشركين و أذائهم، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و طلبوا منه أن يسمح لهم بقتال الأعداء فأجابهم النبي في حينه أنه لم يؤمر بالجهاد.

و مضت أيام على طلب هؤلاء، حتى هاجر المسلمون إلى المدينة و تهيأت هناك ظروف و شروط الجهاد المسلح، و أمر الله المسلمين بالجهاد، فأخذ بعض من أولئك نفر الذين كانوا يصرون على النبي للسماح لهم بالجهاد و قتال الأعداء في مكة يظهر الكسل و التهاون في تنفيذ الأمر الإلهي، و لم يبدوا أي حماس أو رغبة في الجهاد، كما كانوا يظهر ذلك في مكة، فنزلت هذه الآية و هي تحث

المسلمين على الجهاد و تؤنب المتهاونين و المتقاعسين عن هذا الواجب الحساس.

و قد تطرقت الآيه الكريمة إلى عدد من الحقائق فى هذا الصدد.

## التفسير

### إشاره

#### قوم بضاعتهم الكلام دون العمل:

تحدث الآيه بلغه التعجب من أمر نفر أظهروا رغبه شديده فى الجهاد خلال ظرف غير مناسب، و أصروا على السماح لهم بذلك، و قد صدرت الأوامر لهم - حينئذ - بالصبر و الاحتمال، و دعوا إلى إقامة الصلاة، و أداء الزكاه، و بعد أن سنحت الفرصه و آتت الظروف للجهاد بصوره كامله و أمروا به، استولى على هؤلاء نفر الخوف و الرعب، و انبروا يعترضون على الأمر الإلهى و يتهاونون فى أدائه.

تقول الآيه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ الدَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً... فكان هؤلاء فى اعتراضهم على أمر الجهاد يقولون صراحه: لما ذا أسرع الله فى إنزال أمر الجهاد؟ و يتمنون لو أخرج الله هذا الأمر و لو قليلاً! أو يطلبون أن يناط أمر الجهاد للأجيال القادمه (١) و قالوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ...

و القرآن الكريم يردّ على هؤلاء أولاً من خلال عباره: يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً أى أن هؤلاء بدل أن يخافوا الله القادر القهار، أخذتهم الرّجفه و استولى عليهم الرعب من إنسان ضعيف عاجز، بل أصبح خوفهم من هذا

ص: ٣٣٠

---

(١- ١) - تدل بعض الأحاديث أنّ هذا نفر من المسلمين كان قد سمع بحديث نهضه المهدي المنتظر، فكان البعض منهم يترقب أن يؤخر الجهاد إلى زمن المهدي عليه السلام، تفسير نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥١٨.

الإنسان أكبر من خشيتهم الله العلى القدير.

ثم يواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقيقه: لو أنهم استطاعوا بعد تركهم الجهاد أن يوفروا لأنفسهم -فرضا- حياه قصيره رغيده هانئه، فإنهم سيخسرون هذه الحياه لأنها زائله لا محاله، بينما الحياه الأبدية التي وعد الله بها عباده المؤمنين المجاهدين الذين يخشونه و لا يخشون سواه، هي خير من تلك الحياه الزائله، و إن المتقين سيلقون فيها ثوابهم كاملا غير منقوص دون أن يصيبهم أى ظلم، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَ لَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (١).

من الضرورى الالتفات إلى عده نقاط فى تفسير هذه الآيه، و هي:

١- لما ذا أمرت أولئك النفر بإقامه الصلاه و أداء الزكاه دون غيرهما من الفرائض الكثيره الاخرى؟ و الجواب على هذا السؤال يتلخص فى أنّ الصلاه هي سر الاتصال بالله سبحانه عزّ و جل، و الزكاه تعتبر مفتاحا لباب الاتصال بعباد الله، و على هذا الأساس فقد صدرت الأوامر للمسلمين بأن يعدّوا أنفسهم و أرواحهم و مجتمعهم للجهاد فى سبيل الله، عن طريقه إقامه الصله الوثيقه بينهم و بين الله و عباده، و بعباره أخرى أن يسعوا إلى بناء أنفسهم و إعدادها، و بديهى أن أى جهاد يحتاج بالضروره إلى إعداد النفس و الروح، و إلى توثيق عرى التلاحم الاجتماعى، و بدون ذلك لا يمكن إحراز أى انتصار.

و الإنسان يقوى صلته بالله من خلال الصلاه و يربى بها روحه و معنوياته، فيكون بذلك مستعدا لتقديم أعلى التضحيات بما فى ذلك التضحيه بالنفس، كما أنّ الزكاه هي الوسيله الوحيده لرأب كل صدع اجتماعى، بالإضافة إلى كونها دعما اقتصاديا فى سبيل إعداد ذوى الخبره و التجربه و العده الحريه، و ما

ص: ٣٣١

١- ١) -الفتيل يعنى الشعيره الرفيعه جدا الموجوده بين فلتتى نواه التمر، و قد تطرفنا إلى شرح ذلك فى الآيه (٤٩) من سوره النساء و فى هذا المجلد من تفسيرنا هذا.

يحتاجه المسلمون في قتال الأعداء ليكونوا على استعداد لمواجهة العدو إذا صدر الأمر إليهم بذلك.

٢- المعروف أنّ حكم الزكاه ورد في آيات نزلت في المدينة (أى أنّها آيات مدنيه) ولم يكلف المسلمون بأداء الزكاه في مكّه- فكيف إذن يمكن القول إن هذه الآيه تتحدث عن وضع المسلمين في مكّه؟ يجب على هذا السؤال الشيخ الطوسى رحمه الله في تفسير «التبيان» فيقول: إنّ المقصود بالزكاه الوارده في هذه الآيه هو الزكاه المستحبه التى كانت معروفه في مكّه، أى أنّ القرآن المجيد كان يحث المسلمين حتى في مكّه على تقديم المساعدات المالىه إلى مستحقيها و لدعم اقتصاد المجتمع الإسلامى الجديد في مكّه.

٣- و تشير هذه الآيه الكريمه إلى حقيقه مهمه، هى أنّ المسلمين في مكّه كان لهم منهج، ثم أصبح لهم في المدينة منهج آخر، ففي مكّه انشغل المسلمون ببناء شخصيتهم الإسلاميه بعد أن تحرروا من أدران الجاهليه، فكان سعى النّبى صلّى الله عليه و آله و سلم في مكّه منصبا على تربيته هؤلاء الذين نذوا عباده الأصنام ليجعل منهم أناسا يسترخصون النفس و النفيس في مواجهه ما يعترض سبيل المسلمين من تحديات، فما أحرزه المسلمون من انتصارات باهره في المدينة المنوره، كان حصيله عمليه بناء الشخصيه الإسلاميه، هذه العمليه التى تعهدت بها رساله الإسلام في مكّه.

لقد تعلم المسلمون الكثير في مكّه و مارسوا تجارب جمّه و اكتسبوا استعدادا روحيا و معنويا عظيما خلال العهد المكي، و دليل هذا الأمر هو نزول قرابه التسعين سوره- من مجموع سور القرآن الكريم البالغه مائه و أربع و عشره سوره- في مكّه، و قد تناولت هذه السور في الغالب الجوانب العقائديه التربويه الخاصه بإعداد الشخصيه الإسلاميه- أمّا في المدينة فقد انصرف المسلمون إلى

تشكيل الحكومه الإسلاميه و إقامه أسس المجتمع الإسلامى السليم.

و يدل هذه-أيضا-على عدم نزول حكم الجهاد و الزكاه الواجبين فى العصر المكى لأنّ الجهاد من واجبات الحكومه الإسلاميه مثل تشكيل بيت المال فإِنَّه من شؤون الحكومه الإسلاميه أيضا.

ص: ٣٣٣

اشاره

أَيُّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْ بِهِمْ حَسْبِنَا يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْ بِهِمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)

التفسير

اشاره

نستنتج من الآيات السابقة و اللاحقه أنّ هاتين الآيتين تقصدان مجموعه من المنافقين تسللوا إلى صفوف المسلمين، وقد قرأنا في الآيات السابقة أن هؤلاء قد أبدوا الخوف و القلق من المشاركة في مسئولييه الجهاد، و قد ظهر عليهم الضجر و الاستياء حين نزول حكم الجهاد، فردّ عليهم القرآن الكريم و أتبهم لموقفهم هذا بقوله: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى (١) موضحا أن الحياه بكل زخارفها سرعان ما تزول، و إنّ ما يناله المؤمنون الذين يخشون الله

ص: ٣٣٤

و لا يعصونه من الخير و الثواب هو خير من كل ما فى هذه الدنيا من خيرات.

و فى هذا المقطع القرآنى ردّ آخر على أولئك المنافقين، حيث بيّن أن الموت آتيهم يوماً لا محاله، حتى إذا تحصنوا فى قلاع عالية و منيعه بحسب ظنّهم، و ما دام الموت يدرك الإنسان بهذه الصورة أليس من الخير له أن يموت على طريق مشر و صحيح كالجهاد؟! و ممّا يلفت الانتباه أنّ القرآن الكريم يطلق فى مواقع متعدده اسم «اليقين» على الموت، كما فى الآية (٩٩) من سوره الحجر، و الآية (٤٨) من سوره المدثر- و معنى هذه العبارة القرآنيه هو أن الإنسان مهما كانت عقيدته- يؤمن بوجود الموت إيماناً لا- يخامره فيه شك مطلقاً، و مهما أنكر المرء من حقائق لا يستطيع إنكار الموت الذى يشهده بأمر عينه أو يسمع عنه كل يوم، و الإنسان الذى يحب الحياه و يخال أن الموت هو الفناء الذى لا حياه بعده أبدا يخاف من ذكر الموت و يفر من مظهره.

الآيتان الأخيرتان تؤكّدان حقيقة عدم جدوى الفرار من الموت، فهو يدرك الإنسان يوماً ما لا محاله، و هو حقيقة قطعيه يقينيه فى عالم الوجود.

و عبارة يُدْرِكُكُمْ الواردة فى الآية الأولى تعنى الملاحقه، و اللاحق هو الموت الذى يدرك الإنسان، و توحى بأنّ الفرار لا ينقذ الإنسان من هذا المصير الحتمى.

و تؤكّد الحقيقه المذكوره الآية الثامنه من سوره الجمعه إذ تقول: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ .

إذن ليس من العقل و المنطق أن يدرك الإنسان هذه الحقيقه و يفر بعد ذلك من ميدان الجهاد، و يحرم نفسه أشرف ميته و هى الشهاده فى سبيل الله، فيموت على فراشه فلو عاش الإنسان بعد فراره من الجهاد أيّاماً أو شهوراً أو سنوات لتكرر ما فعل و لتكررت أمامه المشاهد الماضيه، فهل من العقل أن يحرم الإنسان نفسه

لأجل هذه المتكررات من الثواب الأبدى الذى يناله المجاهد فى سبيل الله؟! و هنا أمر ثان يجب الانتباه له فى الآيه الأولى من هاتين الآيتين، و هو عبارة بروجٍ مُشَيِّدَةٍ (١) التى تؤكد أنّ الموت لا تحول دونه القلاع و الحصون المنيعة العالیه، و السرّ فى هذا الأمر هو أنّ الموت الطبیعی لا- يدهام الإنسان من خارج وجوده-خلافًا لما يتصورون-ولا- يحتاج إلى اجتياز القلاع و الحصون، بل يأتي من داخل وجود الإنسان حيث تقف أجهزه الإنسان عن العمل بعد نفاذ قدرتها المحدوده على البقاء.

نعم، الموت غير الطبیعی يأتي الإنسان طبعًا من خارج وجوده، و بذلك قد تنفع القلاع و الحصون فى تأخير هذا النوع من الموت عنه.

و لكن ما ذا ستكون النهايه و النتيجة؟ هل بمقدور القلاع و الحصون أن تحول دون وصول الموت الطبیعی الذى سيدرك الإنسان-دون شك-فى يوم من الأيام!؟

### من أين تأتي الانتصارات و الهزائم؟

يشير القرآن فى هاتين الآيتين إلى و هم آخر من أوهام المنافقين، حين يوضح أن هؤلاء إذا أحرزوا نصرًا أو غنموا خيرا قالوا: إنّ الله هو الذى أنعم عليهم بذلك، و زعموا أنّهم أهل لهذه النعمة: وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

أما إذا منى هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى فى ميدان القتال، ألقوا اللوم على النبی صلی الله عليه و آله و سلّم و افتروا عليه بقولهم إنّ ما نالهم من سوء هو من عنده، متهمين خططه

ص: ٣٣٦

---

١- ١) -«مشيده» فى الأصل من ماده «شيد» على وزن فيل، بمعنى الجص و المواد الاخرى التى تستخدم لتقويه البنيان، و بما أن أكثر المواد استعمالا فى البناء فى تلك الأزمنة هو الجص فان هذه الكلمه تطلق عليه عادة، فيكون معنى «بروج مشيده» هو القلاع الرصينه و المتينه، و قد تستعمل و يراد بها المرتفعه و العالیه. و ذلك أيضا لنفس السبب لأنّه من دون استخدام الجص لم يكن بالإمكان بناء تلك الابنيه المرتفعه.



العسكريه بالضعف، من ذلك ما حدث فى غزوه أحد، تقول الآيه: وَ إِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ... .

و يحتمل بعض المفسرين أن تكون هذه الآيه قد نزلت بشأن اليهود، و يرون أن المقصود بالحسنه و السيئه-هنا-هو ما كان يحدث من وقائع ساره و ضاره، حيث كان اليهود حين بعثه النبي صلى الله عليه و آله و سلم ينسبون كل حدث سار و نافع إلى الله، و يعزون حدوث الوقائع الضاره إلى وجود النبي صلى الله عليه و آله و سلم بين ظهرانيهم، بينما اتصال الآيه بالآيات السابقه و التاليه-التي يدور الحديث فيها عن المنافقين-يدل على أن المقصود فى هذه الآيه الأخيره هم المنافقون.

و مهما يكن من أمر، فإن القرآن الكريم يردّ على هؤلاء مؤكداً إن الإنسان المسلم الموحد الذى يؤمن صادقاً بالله و يعبده و لا يعبد سواه، إنما يعتقد بأن كل الوقائع و الأحداث و الانتصارات و الهزائم هى بيد الله العليم الحكيم، فالله هو الذى يهب الإنسان ما يستحقه و يعطيه بحسب قيمته الوجوديه، و فى هذا المجال تقول الآيه: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

و الآيه-هذه-تحمل فى آخرها تقريبا و تأنيبا للمنافقين الذين لا يتفكرون و لا يمعنون فى حقائق الحياه المختلفه، حيث تقول: فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا .

و بعد هذا-فى الآيه التاليه-يصرح القرآن بأن كل ما يصيب الإنسان من خيرات و فوائد و كل ما يواجهه الكائن البشرى من سرور و انتصار هو من عند الله، و إن ما يحصل للإنسان من سوء و ضرر و هزيمه أو خساره فهو بسبب الإنسان نفسه تقول الآيه: مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ... و تردّ الآيه فى آخرها على أولئك الذين كانوا يرون وجود النبي صلى الله عليه و آله و سلم سببا لوقوع الحوادث المؤسفه فيما بينهم فتقول: وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

السؤال المهم الذى يتبادر إلى الذهن حين قراءة هاتين الآيتين الأخيرتين هو: لما ذا نسب الخير و الشر فى الآيه الأولى كله لله؟ و لما ذا حصرت الآيه التالیه الخير-وحده-لله، و نسبت الشرّ إلى الإنسان؟ حين نمعن النظر فى الآيتين تواجهنا عدّه أمور، يمكن لكل منها أن يكون هو الجواب على هذا السؤال.

١-لو أجرينا تحليلا على عناصر تكوين الشر لرأينا أنّ لها اتجاهين:

أحدهما إيجابى و الآخر سلبى، و الاتجاه الأخير هو الذى يجسد شكل الشر أو السيئه و يبرزه على صورته «خساره نسيه» فالإنسان الذى يقدم على قتل نظيره بسلاح نارى أو سلاح بارد يكون قد ارتكب بالطبع عملا شريرا و سيئا، فما هى إذن عوامل حدوث هذا العمل الشرير؟ إنّها تتكون من: أولا: قدره الإنسان و عقله و قدره السلاح و القدره على الرمي و التهديد الصحيحين و اختيار المكان و الزمان المناسبين، و هذه تشكل عناصر الاتجاه الإيجابى للقضيه، لأنّ كل عنصر منها يستطيع فى حدّ ذاته أن يستخدم كعامل لفعل حسن إذا استغل الاستغلال الحكيم، أمّا الاتجاه السلبى فهو فى استغلال كل من هذه العناصر فى غير محله، فبدلا من أن يستخدم السلاح لدرء خطر حيوان مفترس أو للتصدى لقاتل و مجرم خطير، يستخدم فى قتل إنسان برىء، فيجسد بذلك فعل الشر، و إلاّ فإنّ قدره الإنسان و عقله و قدرته على الرمي و التهديد، و أصل السلاح و كل هذه العناصر، يمكن أن يستفاد منها فى مجال الخير.

و حين تنسب الآيه الأولى الخير و الشرّ كله لله، فإن ذلك معناه أنّ مصادر القوّه جميعها بيد الله العليم القدير حتى تلك القوّه التى يساء استخدامها، و من هذا المنطلق تنسب الخير و الشرّ لله، لأنّه هو واهب القوى.

و الآيه الثانيه:تنسب«السيئات»إلى الناس انطلاقا من مفهوم«الجوانب السلبيه»للقضيه و من الإساءه فى استخدام المواهب الإلهيه.

تماما مثل والد وهب ابنه مالا ليبنى به دارا جديده،لكن هذا الولد بدلا من أن يستخدم هذا المال فى بناء البيت المطلوب،اشترى مخدرات ضاره أو صرفه فى مجالات الفساد و الفحشاء،لا شك أنّ الوالد هو مصدر هذا المال،لكن أحدا لا ينسب تصرف الابن لوالده،لأنه أعطاه للولد لغرض خيرى حسن،لكن الولد أساء استغلال المال،فهو فاعل الشرّ،و ليس لوالده دخل فى فعلته هذه.

٢-و يمكن القول-أيضا-بأنّ الآيه الكريمه إنّما تشير إلى موضوع«الأمر بين الأمرين».

و هذه قضيه بحثت فى مسأله الجبر و التفويض،و خلاصه القول فيها أنّ جميع وقائع العالم خيرا كانت أم شرّا-هى من جانب واحد تتصل بالله سبحانه القدير لأنّه هو الذى وهب الإنسان قدره و القوّه و حريه الانتخاب و الإختيار، و على هذا الأساس فإنّ كل ما يختاره الإنسان و يفعله بإرادته و حريته لا يخرج عن إرادته الله،لكن هذا الفعل ينسب للإنسان لأنّه صادر عن وجوده،و إرادته هى التى تحدد اتجاه الفعل.

و من هنا فإنّنا مسئولون عن أعمالنا،و استناد أعمالنا إلى الله-بالشكل الذى أوضحناه-لا يسلب عنّا المسئوليه و لا يؤدى إلى الإعتقاد بالجبر.

و على هذا الأساس حين تنسب«الحسنات»و«السيئات»إلى الله سبحانه و تعالى،فلفاعليه الله فى كل شىء،و حين تنسب السيئه إلى الإنسان فلاإرادته و حريته فى الإختيار.

و حصيله هذا البحث إنّ الآيتين معا تثبتان قضيه الأمر«الأمر بين الأمرين» (تأمل بدقه)!٣-هناك تفسير ثالث للآيتين ورد فيما أثر عن أهل البيت عليهم السّلام،و هو أنّ

المقصود من عباره السّئيات جزاء الأعمال السيئه و عقوبه المعاصى التى ينزلها الله بالعاصين، و لما كانت العقوبه هى نتيجه لأفعال العاصين من العباد، لذلك تنسب أحيانا إلى العباد أنفسهم و أحيانا أخرى إلى الله، و كلا النسبتين صحيحتان، إذ يمكن القول فى قضيه إنّ القاضى هو الذى قطع يد السارق، كما يجوز أن يقال إنّ السارق هو السبب فى قطع يده لارتكابه السرقة.

ص : ٣٤٠

اشاره

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُشِئُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)

التفسير

اشاره

سنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنزله الوحي:

توضح الآيه الأولى موضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الناس و حسناتهم و سيئاتهم و تؤكد أولاً بأن إطاعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي في الحقيقة طاعه لله: وَمَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ... أى لا انفصال بين طاعه الله و طاعه الرسول، و ذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يخطو أية خطوه خلافا لإرادته الله... كل ما يصدر منه من فعل و قول و تقرير إنما يطابق إرادته الله سبحانه و تعالى و مشيئته.

ثم تبين إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس مسئولاً عن الذين يتجاهلون و يخالفون أوامره، كما أنه ليس مكلفاً بإرغام هؤلاء على ترك العصيان، بل إن مسئوليته النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي الدعوه للرساله الإلهيه التى بعث بها، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و إرشاد الضالين و الغافلين تقول الآيه: وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

و تجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة «حفيظ» صفه مشبهه باسم الفاعل، و تدل على ثبات و استمرار الصفه فى الموصوف، بخلاف اسم الفاعل «حافظ»، فعبارة «حفيظ» تعنى الذى يراقب و يحافظ بصوره دائمه مستمره، و يستدل من الآيه على أن واجب النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو قياده الناس و هدايتهم و إرشادهم، و دعوتهم إلى اتّباع الحقّ و اجتناب الباطل، و مكافحه الفساد، و حين يصير البعض على اتّباع طريق الباطل و الانحراف عن جاده الحقّ، فلا النبى صلى الله عليه و آله و سلم مسئول عن هذه الانحرافات، و لا المطلوب منه أن يراقب هؤلاء المنحرفين فى كل صغيره و كبيره، كما ليس المطلوب منه صلى الله عليه و آله و سلم أن يستخدم القوه لإرغام المنحرفين على العدول عن انحرافهم، و لا يمكنه بالوسائل العاديه القيام بمثل هذه الأعمال.

و على هذا الأساس، فإنّ الآيه قد تكون-أيضا-إشاره إلى غزوات كغزوه أحد حيث كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم مكلفا- فقط-بتجنيد الإمكانيات المتوفره من الناحيه العسكريه فى إعداد خطه للدفاع عن المسلمين حيال هجمات الأعداء، و بديهى أن تكون إطاعه الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم فى هذا الأمر إطاعه لله، و لو افترضنا أنّ أفرادا عصوا الرّسول فى هذا المجال و أدى عصيانهم إلى تراجع المسلمين، فالعاصون- و حدهم-هم المسؤولون عن ذلك، و ليس الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم.

و الأمر المهم الآخر فى هذه الآيه هو أنّها واحده من أكثر آيات القرآن دلالة على حجّيه السنّه النبويه الشّريفه، فهى حكم بوجوب الإذعان للأحاديث الصحيحه المرويّه عنه صلى الله عليه و آله و سلم، و استنادا إلى هذه الآيه لا يجوز لأحد القول بقبول القرآن وحده و عدم قبول أحاديث و سنّه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّ الآيه صريحه بأن إطاعه أقوال النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أحاديثه المرويّه عنه بطرق صحيحه، هى بمثابة إطاعه الله.

و من المنطلق نفسه تثبت حقيقه أخرى، هى ضروره إطاعه أئمه أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و هى ما أكد عليها حديث «الثقلين» الوارد فى المصادر الإسلاميه السنيه و الشيعيه، و فيه بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم-صراحه-حجّيه أحاديث أئمه أهل

البيت عليهم السلام، ومنه نستنتج أن إطاعه أوامرهم هي إطاعه للرسول و بالنتيجة إطاعه لله تعالى، و لما كانت أحاديث أئمه أهل البيت عليهم السلام بمثابة أحاديث النبي صلى الله عليه وآله و سلم، فلا- يستطيع أحد أن يقول: إنني أقبل القرآن و أرفض أحاديث أهل البيت عليهم السلام، فذلك نقض للآية المذكوره أعلاه و للآيات المشابهه.

و لذلك نقرأ في الأحاديث التي أوردها صاحب تفسير البرهان في تفسير هذه الآية ما يؤكد هذه الحقيقة:

إن الله وهب نبيه حق الأمر و النهي في الآية المذكوره، و النبي صلى الله عليه وآله و سلم بدوره وهب هذا الحق لعلي بن أبي طالب عليه السلام و سائر الأئمه عليهم السلام من بعده، و الناس ملزمون بإطاعه أوامر هذه النخبه الطاهره عليهم السلام، لأن أوامر و نواهي النبي صلى الله عليه وآله و سلم و الأئمه من أهل بيته الكرام هي أوامر و نواهي الله، و طاعتهم طاعه لله، و هم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم و كل ما جاؤوا به للمسلمين هو من عند الله. (١)

أمّا الآية الثانيه ففيها إشاره إلى وضع نفر من المنافقين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان، الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النبي صلى الله عليه وآله و سلم و المسلمين بأنهم مع الجماعه، و يظهرن الطاعه للرسول صلى الله عليه وآله و سلم ليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم و ليحموا مصالحهم الخاصه، بدعوى الإخلاص و الطاعه للنبي صلى الله عليه وآله و سلم و يقولون طاعه .

و بعد أن ينصرف الناس من عند النبي صلى الله عليه وآله و سلم و يختلى هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم في إطاعه النبي و يتآمرون في ندواتهم الخاصه- السريه الليليه- على أقوال النبي: <sup>□</sup> فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ <sup>□</sup> بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ... .

نعرف من هذه الآية أن المنافقين في زمن الرسول صلى الله عليه وآله و سلم كانوا لا يألون جهدا في التآمر على النبي صلى الله عليه وآله و سلم، و كانوا يخططون في اجتماعاتهم السريه للوقوف

ص: ٣٤٣

بوجه الدعوه.

و لكن الله يأمر نبيه بأن لا- يلتفت إلى مكائد هؤلاء، و أن لا- يخافهم و لا- يخشى خطتهم و أن يتجنب الاعتماد عليهم في مشاريعه، بل يتوكل على الله الذى هو خير ناصر و معين: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً .

ص: ٣٤٤



اشاره

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)

التفسير

اشاره

خَلْقُ الْقُرْآنِ مِنَ الْاِخْتِلَافِ دَلِيلٌ حَىٰ عَلَىٰ إِعْجَازِهِ:

هذه الآيه تخاطب المنافقين و سائر الذين يرتابون من حقيقه القرآن المجيد، و تطلب منهم-بصيغه السؤال-أن يحققوا فى خصائص القرآن ليعرفوا بأنفسهم أنّ القرآن وحى منزل، و لو لم يكن كذلك لكثير فيه التناقض و الاختلاف، و إذا تحقق لديهم عدم وجود الاختلاف، فعليهم أن يدعونا أنه وحى من الله تعالى.

و التدبر من ماده «دبر» و هو مؤخر الشىء و عاقبته «و التدبر» المطلوب فى هذه الآيه هو البحث عن نتائج آثار الشىء، و الفرق بين التدبر و التفكير هو أنّ الأخير يعنى التحقيق فى علل و خصائص الموجود، أما التدبر فهو التحقيق فى نتائجه و آثاره.

و نستدل من هذه الآيه على عدّه أمور:

١- إنّ الناس مكلفون بالبحث و التحقيق فى أصول الدين و المسائل المشابهه لها، مثل صدق دعوى النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم، و حقانيه القرآن، و أن يتجنبوا التقليد

و المحاكاه فى مثل هذه الحالات.

٢- إن القرآن-خلافًا لما يظن البعض-قابل للفهم والإدراك للجميع، ولو كان على غير هذه الصورة لما أمر الله بالتدبر فيه.

٣- أحد الأدلة التى تثبت أن القرآن حقّ، وأنّه منزل من الله الحكيم العليم خلوه المطلق من كل تناقض أو اختلاف.

و لتوضيح هذه الحقيقة نقول:

الجوانب الروحية للإنسان تتغير باستمرار، «قانون التكامل»-فى الظروف العادية الخالية من الأوضاع الاستثنائية-يستوعب الإنسان و جوانبه الروحية و أفكاره، و بمرور الأيام يتغير بموجب هذا القانون كلام الإنسان و فكره و أحاديثه.

لو أمعنا النظر فيما يكتبه الكتاب، لما وجدنا مؤلفات الكاتب الواحد على نمط واحد، بل أن بدايه كل كتاب تختلف أيضا عن نهايته.

هذا التغيير يزداد سرعه حين يعيش الإنسان فى خضم أحداث كبرى كالتى تصاحب إرساء قواعد ثوره فكرية و اجتماعية و عقائديه شامله، الشخص الذى يعيش مثل هذه التحولات الاجتماعيه الكبرى لا يستطيع أن يسيطر على وحده كلامه، و لا يمكنه أن يوجد انسجاما كاملا فى أقواله، خاصّه إذا كان هذا الشخص غير متعلم، و كان ناشئا فى بيئه اجتماعيه متخلفه.

و القرآن كتاب نزل خلال مدّه (٢٣) عاما بحسب ما يحتاجه الناس من تربيّه و توجيه فى الظروف المختلفه، و موضوعات القرآن متنوعه، فهو لا يشبه كتابا عاديا متخصصا فى بحث اجتماعى أو سياسى أو فلسفى أو حقوقى أو تاريخى، بل هو يتحدث تاره عن التوحيد و أسرار الخلقه، و تاره يطرح القوانين و الأحكام و الآداب و السنن، و تاره يقص علينا أخبار الأمم السابقيه، و تاره يتناول المواعظ و النصائح و العبادات و ارتباط العبد بخالقه.

ص: ٣٤٦

و كما يقول (غوستاف لوبون): القرآن-كتاب المسلمين السماوى-لا- يقتصر على التعاليم الدينيه، بل يتناول-أيضا-الأحكام السياسيه و الاجتماعيه للمسلمين.

مثل هذا الكتاب-بهذه الخصائص-لا يمكن أن يكون-عاده-خاليا من التناقض و التضاد و الاختلاف و التآرجح، أمّا حين نرى هذا الكتاب-مع كل ذلك-متناسقا متوازنا فى آياته خاليا من كل تضاد و اختلاف نستطيع أن نفهم-بوضوح-أنّ هذا الكتاب ليس وليد فكر بشرى، بل هو من قبل الله تعالى، كما تذكر الآيه الكريمه أعلاه.

ص: ٣٤٧

اشاره

وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)

التفسير

اشاره

نشر الإشاعات:

تشير هذه الآيه إلى حركة منحرفه أخرى من حركات المنافقين أو ضعاف الإيمان، تتمثل في سعيهم إلى تلقف أى نبأ عن انتصار المسلمين أو هزيمتهم، و بثه بين الناس فى كل مكان، دون التحقيق و التدقيق فى أصل هذا النبأ أو التأكد من مصدره، و كان الكثير من هذه الأنباء لا يتعدى إشاعه عمد أعداء المسلمين إلى بثها لتحقيق أهدافهم الدنيئه و ليسيئوا إلى معنويات المسلمين و يضرروا بهم، وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ... .

بينما كان من واجب هؤلاء أن يوصلوا هذه الأخبار إلى قادتهم كى يستفيدوا من معلومات هؤلاء القاده و فكرهم و لكى يتجنبوا دفع المسلمين إلى حاله من الغرور حيال انتصارات خياليه وهميه، أو إلى إضعاف معنوياتهم بإشاعه أنباء عن هزيمه لا حقيقه لها، وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

«يستنبطونه» من مادة «نبط» التي تعنى أول ما يستخرج من ماء البئر أو ينبوع، والاستنباط استخراج الحقيقة من الأدلة والشواهد و الوثائق، سواء كانت العملية في الفقه أو الفلسفة أو السياسة أو سائر العلوم.

### أولى الأمر

في الآية هم المحيطون بالأمر القادرون على أن يوضحوا للناس ما كان حقيقيا منها و ما كان إشاعه فارغه. و هم النبي صلى الله عليه و آله و سلم و خلفاؤه من أئمة أهل البيت عليهم السلام بالدرجة الأولى.

و يأتي من بعدهم العلماء المتخصصون في هذه المسائل.

روى عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في تفسير أولي الأمر في هذه الآية قال: «هم الأئمة» كما في تفسير نور الثقلين، و هناك روايات أخرى أيضا في هذا المجال بنفس المضمون.

و لعل هناك من يعترض على هذه الروايات قائلا: إن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا موجودين في زمن نزول هذه الآية، و لم يتعين أحد منهم في ذلك الوقت بمنصب الإمامة أو الولاية، فكيف يمكن القول بأنهم هم المعنيون بهذه الآية؟ و الجواب على هذا الاعتراض: هو أن هذه الآية مثل سائر الآيات القرآنية الأخرى لا تقتصر على زمن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فقط، بل تحمل حكما عاما يشمل كل الأزمنة و القرون التالية لمواجهة الإشاعات التي يبثها الأعداء أو البسطاء من المسلمين بين الأئمة.

### أضرار اختلاق الإشاعة و نشرها:

لقد ابتليت المجتمعات البشرية و عانت الكثير من المصائب و النكبات الرهيبة، بسبب بروز ظاهره اختلاق الإشاعة و نشرها بين الأفراد حيث كانت تؤثر تأثيرا سلبيا كبيرا على معنويات أفراد المجتمع، و تضعف فيهم الروح الاجتماعية و روح التفاهم و التعاون بين أبناء المجتمع الواحد.

و تبدأ الإشاعه بأن يختلق مناقق كذبه، ثم ينشرها بين أفراد مغرضين أو بسطاء، ليقوموا بدورهم بالترويج لها بين أبناء المجتمع دون التحقيق فيها، بل يهولونها و يفرعونها مما يؤدي إلى استنزاف مقدار كبير من طاقات الناس و أفكارهم و أوقاتهم، و إلى إثارة القلق و الاضطراب بينهم، و كثيرا ما تؤدي الإشاعه إلى زعزعه الثقة بين أفراد المجتمع، و تؤدي إلى خلق حاله من اللامبالاه و التردد في أداء المسؤوليات.

و مع أنّ بعض المجتمعات التي تعاني من الكبت و الإرهاب تعمد إلى الإشاعه كأسلوب من الكفاح السلبي، انتقاما من الحكومات الطاغيه الجائره، فالإشاعه بحدّ ذاتها تعتبر خطرا كبيرا على المجتمعات السليمه، فإذا اتجهت الإشاعه إلى الأفراد الكفوئين من المفكرين و الخبراء و العاملين في المرافق الهامه للمجتمع، فإنها ستؤدي إلى حاله من البرود في نشاطات هؤلاء، و قد تصادر مكانتهم الاجتماعيه، و تحرم المجتمع من خدماتهم.

من هنا كافح الإسلام بشده «اختلاق الإشاعات» و الافتراء و الكذب و التهمه، مثل ما حارب نشر الإشاعات كما في هذه الآيه.

و تؤكد الآيه في ختامها على أنّ الله قد صان المسلمين بفضله و لطفه و كرمه من آثار إشاعات المنافقين و المغرضين و ضعاف الإيمان، و أنقذهم من نتائجها و عواقبها البخيمه، و لو لا- الإنقاذ الإلهي ما نجى من الانزلاق في خط الشيطان إلا قليلا: وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا أَيْ أَنَّ النَّبِيَّ وَ أَصْحَابَ الرَّأْيِ وَ الْعُلَمَاءَ الْمَدْقِقِينَ هُمْ وَحْدَهُمُ الْقَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَكُونُوا مُصَوِّنِينَ مِنْ وَسْوَاسِ الشَّائِعَاتِ وَ مَشِيعِيهَا، أَمَّا أَكْثَرِيهِ الْمَجْتَمَعُ فَلَا بَدَّ لَهَا مِنَ الْقِيَادَةِ السَّلِيمَةِ لِتَسْلَمَ مِنْ عَوَاقِبِ اخْتِلَاقِ الشَّائِعَاتِ وَ نَشْرِهَا (١).

ص: ٣٥٠

---

١- (١) - يتبين مما قلناه أن عبارته «إلا قليلا» هي استثناء من ضمير «اتبعتم» و لا يوجد في الآيه تقديم أو تأخير (تأمل بدقه).

اشاره

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا  
(٨٤)

سبب النزول

ورد في بعض التفاسير مثل «مجمع البيان» و«القرطبي» و«روح المعاني» في سبب نزول هذه الآية أنه حين عاد أبو سفيان و معه جيش قريش منتصرين في واقعه أحد توعدوا المسلمين بالمواجهه مره أخرى في موسم «بدر الصغرى» أى وقت إقامه السوق التجاريه فى شهر ذى القعدة الحرام فى منطقته بدر، و حين حان موعد المواجهه دعا النبى صلى الله عليه و آله و سلم المسلمين للاستعداد و التوجه إلى المنطقه المذكوره، إلا- أن نفرا من المسلمين-الذين كانوا إلى ذلك الحين ما زالوا يعانون من مراره الهزيمة فى واقعه أحد-رفضوا التحرك مع النبى، فنزلت هذه الآية، فجدد النبى صلى الله عليه و آله و سلم الدعوه إلى المسلمين بالتحرك، فما تبعه غير سبعين رجلا منهم الذين حضروا موقع المواجهه، و لكن أبا سفيان الذى كان قد تملكه الرعب من مواجهه المسلمين جبن و لم يحضر إلى المكان الموعود و عاد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مع أصحابه سالما إلى المدينه.

## كل انسان مسئول عما كلف به:

بعد ما تقدم من الآيات الكريمة حول الجهاد، تأتي هذه الآية لتعطي أمرا جديدا و خطيرا إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم و أنه مكلف بمواجهه الأعداء و جهادهم حتى لو بقى وحيدا و لم يرافقه أحد من المسلمين إلى ميدان القتال. لأنه صلى الله عليه وآله وسلم مسئول عن أداء واجبه هو، و ليس عليه مسئوليته بالنسبة للآخرين سوى التشويق و التحريض و الدعوة إلى الجهاد: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ .

الآية تشتمل على حكم اجتماعي مهم يخص القادة، و يدعوهم إلى التزام الرأي الحازم و العمل الجاد في طريقهم و مسيرتهم نحو الهدف المقدس الذي يعملون و يدعون من أجله، حتى لو لم يجدوا من يستجيب لدعوتهم، لأن استمرار الدعوة غير مشروط باستجابته الآخرين لها، و أى قائد لا يتوفر فيه هذا الحزم فهو بلا ريب عاجز عن النهوض بمهام القيادة، فلا يستطيع أن يواصل الطريق نحو تحقيق الأهداف المرجوه خاصه القادة الإلهيون الذين يعتمدون على الله... مصدر كل قدره و قوه في عالم الوجود، و هو سبحانه أقوى من كل ما يدبره الأعداء من دسائس و مكائد بوجه الدعوة، لذلك تقول الآية: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا (١) وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا (٢) .

## معنى كلمتي «عسى» و «لعل» في كلام الله:

في كلمه «عسى» طمع و ترج، و في كلمه «لعل» طمع و إشفاق، هنا يتبادر إلى

ص: ٣٥٢

١- (١) -البأس و البأساء بمعنى الشده و القهر و الغلبه.

٢- (٢) -التنكيل من نكل في الشىء، أى ضعف و عجز، و النكل: قيد الدابه و حديده اللجام لكونهما مانعين، و التنكيل: أداء عمل يردع مشاهده عن الذنب و هو العقاب الذى ينزل بالظالمين فيردعهم و يردع من يتعض بمصيرهم.



الذهن سؤال هو: لو كان التمني و الترجي جائزين بالنسبه للإنسان لعدم علمه بالغيب و لمحدوديه قدرته و عجزه عن فعل و إنجاز كل ما يريد، فكيف يجوز استخدامهما من قبل الله العالم بالغيب و الشهاده و القادر على كل شيء؟! و الطمع و الترجي يكونان في جاهل عاجز و الله منزّه عن ذلك؟ ذهب كثير من العلماء إلى تأويل معنى كلمتي «عسى» و «لعل» الواردتين في كلام الله فقالوا: بأنهما إذا وردتا في كلامه سبحانه عزّ و جل فإنهما تفقدان معانيهما الحقيقيه الأصليه و تكتسبان معاني جديده، و قالوا: إن كلمه «عسى» إذا أتت في كلام الله جاءت بمعنى «الوعد» و إن كلمه «لعل» تأتي في كلامه -عزّ من قائل- بمعنى «الطلب».

و الحق أنّ هاتين الكلمتين لا- يتغير معنهما إذا وردتا في كلام الله، و لا يستلزمان الجهل أو العجز، لكن استخدامهما يأتي في مواضع يكون الوصول فيها إلى الهدف بحاجه إلى مقدمات عديده، فإن لم تتوفر إحدى هذه المقدمات أو بعضها لم يمكن القطع بتحقيق ذلك الهدف، بل تأتي مسأله تحقيق الهدف على شكل احتمال، و يكون الحكم في هذا المجال احتماليا.

على سبيل المثال يقول القرآن الكريم: <sup>□</sup>وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١) و لا- يعنى هنا أنّ رحمه الله تشمل كل من يستمع أو ينصت إلى القرآن أثناء قراءته، بل أنّ الاستماع و الإنصات يكونان مقدمه من مقدمات نيل رحمه الله، و هناك مقدمات أخرى مثل فهم القرآن و تدبر آياته و العمل بأحكامه.

و يتّضح من هذا أنّ تحقيق مقدمه واحده لا يكفي لحصول النتيجة المطلوبه و لا يمكن الجزم أو القطع بحتميه تحقيق النتيجة، بل كل ما يمكن الحكم به هو احتمال حدوثها، و الحقيقه إن مثل هذه الكلمات حين تأتي في كلام الله، يكون

ص: ٣٥٣

الهدف منها تنبيه السامع إلى وجود مقدمات و شروط أخرى يجب تحقيقها للوصول إلى الهدف بالإضافة إلى الشرط أو المقدمه المذكوره المصرح بها فى الكلام.

و قد تبين لنا أنّ نيل رحمه الله لا يتحقق فقط بالاستماع و الإنصات إلى القرآن فقط، بل يجب لنيل هذه الرحمه توفير المقدمات الاخرى لذلك.

من هنا فإنّ هذه الآيه التى نبحت فيها تقول إن قدره الكفار و قوتهم لا تزول و لا تضحل بمجرد دعوه المؤمنين إلى الجهاد و ترغيبهم فيه، بل يجب هنا-أيضا- أن يسعى المؤمنون لتوفير المقدمات الاخرى للقضاء على قدره الكفار، منها إعداد وسائل القتال و الالتزام بالخطه التى يضعها النبى صلى الله عليه و آله و سلم و السير عليها من أجل الوصول إلى الهدف النهائى.

و هكذا يتبين لنا أنّ لا ضروره لصرف كلمتى «عسى» و «لعل» و أشباههما عن معانيها الحقيقيه متى ما وردت فى كلام الله تعالى (1).

ص: ٣٥٤

---

١- ١) - يذكر الراغب فى «المفردات» احتمالا آخر فى تفسير «عسى» و «لعل» هو أنّ الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجيا، لا لأن يكون الله هو الذى يرجو. أى انه يقول للإنسان كن أنت راجيا لا انا الذى أرجو.

اشاره

مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا (٨٥)

التفسير

اشاره

عواقب التحريض على الخير أو الشر:

لقد أشير في الآيه السابقه إلى أنّ كل إنسان مسئول عن عمله و عمّا هو مكلف بأدائه، و لا يسأل أى إنسان عن أفعال الآخرين. أمّا هذه الآيه فقد جاءت لكى تسدّ الطريق أمام كل فهم خاطئ للآيه السابقه، فبينت أنّ الإنسان إذا حرّض الغير على فعل الخير أو فعل الشر فينال نصيبا من ذلك الخير أو الشر:

مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا...

و هذا بحدّ ذاته -حثّ على دعوه الآخرين إلى فعل الخير و التزام جانب الحق، و نهى الغير عن فعل الشر، كما تبين هذه الآيه اهتمام القرآن بنشر الروح الاجتماعيه لدى المسلمين، و دعوتهم إلى نبذ الأنانيه أو الانطوائيه، و إلى عدم تجاهل الآخرين، و ذلك من خلال التواصى بالخير و الحق و التحذير من الشرّ

و الباطل.

و كلمه «الشّفاعه» الوارده فى الآيه من «الشّفع» و هو ضم الشىء إلى مثله، و قد يكون هذا الضم أحيانا فى عمل الإرشاد و الهدايه، أى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و تكون الشفاعه السيئه أمرا بالمنكر و نهيا عن المعروف.

و إذا حصلت الشفاعه للعاصين لإنقاذهم من نتائج أعمالهم السيئه، فهى بمعنى الإغاثه للعاصين اللاتقين للشفاعه، بعباره أخرى قد تحصل الشفاعه قبل القيام بممارسه الذنب، و فتعنى الإرشاد و النصح، كما تحصل بعد ارتكاب الذنب أو الخطأ، و تعنى -هنا- إنقاذ المذنب أو الخاطئ من عواقب و نتائج جريرته، و كلا الحالتين يصدق عليهما معنى ضم شىء إلى آخر.

و مع أنّ مفهوم الآيه عام شامل لكل دعوه إلى الخير أو الشر، و لكن ورود الآيه ضمن آيات الدعوه إلى الجهاد يجعل معنى الشفاعه الحسنه دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم المسلمين إلى الجهاد، و حثهم عليه، و يجعل معنى الشفاعه السيئه دعوه المنافقين المسلمين إلى ترك الجهاد و عدم المشاركه فيه، و الآيه تؤكد بأن كلا الشفيعين ينال نصيبا من شفاعته.

ثم إن ورود كلمه الشفاعه هنا ضمن الحديث عن القيادة (القياده إلى الحسنات أو إلى السيئات) قد يكون إشاره إلى أن حديث القائد (قائد خير كان أم قائد شر) لا يدخل قلوب الآخرين إلا إذا ألغوا كل امتياز يفرقهم عن هؤلاء الآخرين، فلا بدّ لهم أن يكونوا قراء للناس و منضمين إليهم كى تكون لهم الكلمه النافذه، و هذه مسأله هامه فى تحقيق الأهداف الاجتماعيه.

و ما ورد بعباره «أخوهم» أو «أخاهم» فى الحديث عن الأنبياء و الرسل، ضمن آيات سور الشعراء و الأعراف و هود و النمل و العنكبوت، إلا للإشاره إلى هذه المسأله.

و الشىء الآخر الذى تجدر الإشاره إليه هنا، هو أنّ القرآن أتى بعباره

ص: ٣٥٦

«نصيب» لدى الحديث عن الشفاعة الحسنه، بينما استخدم عبارته «كفل» حين تحدث عن الشفاعة السيئه، والفرق بين التعبيرين هو أنّ الأولى تستخدم حين يكون الحديث عن حصّه من الربح والفائده والخير، أمّا الثانيه فتستخدم إذا كان الكلام عن الخساره والضرر والشّر، فالنصيب تعبير عن نصيب الخير، والكفل تعبير عن حصّه الشّر (1).

و هذه الآيه، تبين نظره إسلاميه أصيله إلى المسائل الاجتماعيه، وتصرّح أنّ الناس شركاء في مصائر ما يقوم به قسم منهم من أعمال عن طريق الشفاعة والتشجيع والتوجيه، من هنا فكل كلام أو عمل -بل كل سكوت- يؤدي إلى تشجيع الآخرين على الخير، فإنّ المشجع يناله سهم من نتائج ذلك العمل دون أن ينقص شيء من سهم الفاعل الأصلي.

في حديث عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو دل على خير أو أشار به، فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دل عليه أو أشار به، فهو شريك».

و يبيّن هذا الحديث الشريف ثلاث مراحل لدعوه الأشخاص إلى الخير أو إلى الشر.

المرحلة الأولى: الأمر، وهي الأقوى.

و الثانية: الدلاله وهي الوسطى.

و الثالثه: الإشاره وهي المرحلة الضعيفه.

و على هذا الأساس فإنّ حتّى الآخرين أو تحريضهم على ممارسه فعل معين، سيجعل للمحررض نصيباً من نتيجة هذا الفعل يتناسب و مدى قوّه التحريض وفق المراحل الثلاث المذكوره.

و بناء على هذه النظره الإسلاميه، فإنّ مرتكبي الذنب ليسوا هم وحدهم

ص: ٣٥٧

---

١-١) -الكفل هو عجز الحيوان و مؤخرته التي يصعب ركوبها و يشق، من هنا فكل ذنب و حصه رديئه كفل، والكفاله كل عمل ينطوى على تعب و عناء.

مدنيين، بل يشترك في الذنب معهم كل الذين شجعوا المرتكبين على ذنبهم، عن طريق وسائل الإعلام المختلفه أو إعداد الأجواء المساعدة، بل حتى عن طريق إطلاق كلمه صغيره مشجعه، وهكذا الذين يقومون بمثل هذه الأعمال على طريق الخيرات ينالون سهمهم من نتائجها.

و يستشف من الأحاديث المرويّه في تفسير هذه الآيه أنّ الشفاعة بكلا- جانبيها تطلق-أيضا-على الدعاء بالخير أو بالشر للآخرين، وإنّ الدعاء للآخرين أو عليهم يعتبر نوعا من الشفاعة لدى الله تعالى.

نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب أستجيب له و قال له الملك: فلك مثلاه، فذلك النصيب» (١).

و لا ينافى هذا التفسير ما تطرقنا إليه سابقا، بل يعتبر توسعا في معاني الشفاعة، فكل إنسان يقدم مساعده لنظيره الإنسان، سواء كانت عن طريق الدعوه إلى فعل الخيرات أو الدعاء له أو عن أى طريق آخر، فسينال نصيبا من ثمار هذه المساعده.

و بهذا الأسلوب من المشاطره الفعلية الخيره يخلق الإسلام لدى الإنسان روحا اجتماعيه تخرجه من أنانيته و انطوائيته و تجعله يعتقد أن لن يصيبه ضرر إذا سعى في حاجه أخيه الإنسان أو ساعد على تحقيق مصالح غيره، بل سيناله الخير، و سيكون شريكا لأخيه فيما سعى إلى تحقيقه له من مصالح و منافع.

و الآيه-هذه- تؤكد أيضا حقيقه ثابتة أخرى، و هي أنّ الله قادر على مراقبه الإنسان و تدوين ما يقوم به من أعمال، ثمّ محاسبته عليها، و اثابته على خيرها، و معاقبته على شرها وَ كَانَ اللهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيِتًا .

و عبارته «مقيت» مشتقه من «القوت» و هو الغذاء الذى يساعد جسم الإنسان على البقاء و على هذا يكون «مقيت» اسم فاعل من باب افعال، و تعنى هنا

ص: ٣٥٨

الشخص الذى يعطى الآخرين قوتهم و غذاءهم، و هو بهذه الوسيله يكون حافظا لحياتهم و لهذا تأتى كلمه «مقيت» بمعنى «حافظ» و الحافظ يمتلك القدره على الحفظ، و من هنا تكون كلمه «مقيت» بمعنى «المقتدر» أيضا، كما أن المقتدر يمتلك حساب من يعملون ضمن قدرته فتكون عندئذ كلمه «المقيت» بمعنى «الحسيب» أيضا، و قد يكون معنى الكلمه فى الآيه شاملا لكل هذه المعانى.

اشاره

وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيْبًا (٨٦)

التفسير

اشاره

دعوه إلى مقابله الودّ بالودّ:

رغم أنّ بعض المفسّرين يرون أنّ العلاقة بين هذه الآيه و الآيات السابقه ناشئه عن كون الآيات تلك تناولت موضوع الجهاد و الحرب، و الآيه الأخيره تدعو المسلمين إلى أن يواجهوا كل بادره سليمه من قبل العدو بموقف يناسبها، و لكن هذه الصله لا تمنع أن تكون الآيه الأخيره حكما عاما يشمل كل أقسام تبادل المشاعر الخيره النبيله بين مختلف الأطراف و الأفراد، و هذه الآيه تأمر المسلمين بمقابله مشاعر الحبّ بما هو أحسن منها، أو على الأقل بما يساويها أو يكون مثلها، فتقول الآيه: وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .

و«التّحيه» مشتقه من «الحياه» و تعنى الدعاء لدوام حياه الآخرين، سواء كانت التحيه بصيغه «السّلام عليكم» أو «حياك الله» أو ما شاكلهما من صيغ التحيه و السلام، و مهما تنوعت صيغ التحيه بين مختلف الأقوام تكون صيغه «السّلام» المصداق الأوضح من كل تلك الأنواع، و لكن بعض الروايات و التفاسير تفيد أنّ



مفهوم التحية يشمل-أيضا-التعامل الودى العملى بين الناس.

فى تفسير على بن إبراهيم عن الباقر و الصادق عليهما السلام أن:«المراد بالتحية فى الآيه السلام و غيره من البر».

و فى «المناقب» أن جاريه أهدت إلى الإمام الحسن عليه السلام باقه من الورد فأعتقها، و حين سئل عن ذلك استشهد بقوله تعالى: وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا .

و هكذا يتضح لنا أن الآيه هى حكم عام يشمل الرد على كل أنواع مشاعر الودّ و المحبّه سواء كانت بالقول أو بالعمل - و تبين الآيه فى آخرها أن الله يعلم كل شىء، حتى أنواع التحية و السلام و الرد المناسب لها، و أنه لا يخفى عليه شىء أبدا، حيث تقول: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيًّا .

### السلام، تحية الإسلام الكبرى:

لا يخفى أن لكل جماعه إنسانيه تقاليد خاصه فى التحية لدى التلاقى فيما بينهم، بها يتبادلون مشاعر الحبّ و الصفاء، و الموده، و التحية كما هى صيغه لفظيه يمكن أن تكون-أيضا-حركه عمليه يستدل منها على مشاعر الحبّ و الودّ المتبادل.

و قد جاء الإسلام بكلمه «السلام» مصطلحا للتحية بين المسلمين، و الآيه موضوع البحث مع كونها عامه شامله لأنواع التحية، لكن المصداق الأوضح و الأظهر لها يتجسد فى كلمه «السلام».

و بناء على ذلك فإنّ المسلمين مكلفون بردّ السلام بأحسن منه، أو على الأقل بما يماثله.

و فى آيه أخرى إشاره واضحه إلى أن السلام هو التحية حيث تقول: فَإِذَا

دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّهٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ

(١)

و يمكن الاستدلال من هذه الآية على أن عبارته (السلام عليكم) هي في الأصل «سلام الله عليكم» أي ليهبك الله السلامه و الأمن، و هكذا يتضح لنا أن السلام يعتبر دلالة على الحب و الود المتبادل، كما هو دلالة على نبذ الحرب و النزاع و الخصام.

و قد دلت آيات قرآنيه أخرى على أن السّلام هو تحية أهل الجنّة، حيث يقول سبحانه: **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّهً وَ سَلَامًا (٢)**.

و يقول تعالى: **تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ... (٣)**.

كما أن آيات قرآنيه أخرى دلت على أن السلام أو أى صيغه أخرى تعادله، كان سائدا بين الأقسام التي سبقت الإسلام، و هذا هو ما تشير إليه الآية (٢٥) من سورة الذاريات فى قصه إبراهيم مع الملائكة حيث تقول: **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ**.

و الشعر الجاهلى فيه دلائل تثبت أن السلام كان-أيضا- تحية أهل الجاهليه (٤).

إنّ تحية الإسلام تبرز أهميتها و قيمتها العظيمة، لدى مقارنتها بما لها من نظائر لدى الأمم و الأقسام الاخرى.

النصوص الإسلاميه تؤكد كثيرا على السّلام و التّحيه، حيث

يروى عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من بدأ بالكلام قبل السّلام فلا تحببوه» (٥).

ص: ٣٤٢

١-١) -التور، ٦١.

٢-٢) -الفرقان، ٧٥.

٣-٣) -إبراهيم، ٢٣.

٤-٤) -روى أن «نوبه» و هو من شعراء الجاهليه قال: و لو أن ليلي الأخيلىه سلمت على و دونى جندل و صفائح لسلمت تسليم

البشاشه أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح

٥-٥) -أصول الكافي، الجزء الثانى، باب التسليم.

يروى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ الله يقول: «البخيل من يبخل بالسّلام» (١) و عن الإمام الباقر عليه السّلام: «إنّ الله يحبّ إفشاء السلام» (٢).

وقد ورد في الروايات والأحاديث آداب كثيرة للتحيه و السلام، منها أنّ السلام يجب أن يشيع بين جميع أبناء المجتمع و أن لا ينحصر في إطار الأصدقاء و الأقارب،

فقد روى عن النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنه سئل: أي العمل خير: فأجاب صلّى الله عليه و آله و سلّم:

«تطعم الطّعام و تقرأ السّلام على من عرفت و من لم تعرف» (٣).

كما ورد في الأحاديث أن من آداب التحيه أن يسلم الراكب على الراكب، و الراكب على دابه غاليه الثمن يسلم على من يركب دابه أقل ثمنا، و قد يكون الأمر حثّا على التزام التواضع، و نهيا عن التكبر أو محاربه له، فالتكبر غالبا ما يستولى على أهل المال و الجاه و هذا عكس ما نشاهده في عصرنا حيث يتحتم على الطبقات الدانيه من المجتمع أن تبادر الطبقات العليا بالسّلام، و بذلك يصفون على هذا الأمر طابعا استعباديا و ثنيا، بينما كان النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم هو أوّل من يبادر الآخرين بالسّلام، و كان صلّى الله عليه و آله و سلّم يتدبّر بالسّلام حتى على الصبيه الصغار، و بديهى أنّ هذا الأمر لا ينافى ما ورد في الروايات من حثّ صغار السن على مبادره كبارهم بالسّلام و التحيه و الاحترام، لأنّ هذا السلوك يعتبر نوعا من الآداب الإنسانيه الحميده، و لا ارتباط له بالتمييز الطبقي.

و من جانب آخر نجد روايات تأمر بعدم السّلام على المرابين و الفاسقين و أمثالهم، و يعتبر هذا الأمر سلاحا لمحاربه الفساد و الربا، أمّا إذا كان السلام يؤدي إلى التأثير على المفسد و المنحرف، و يجعله يرتد عن غيه و يترك الفساد و الانحراف، فلا مانع منه و لا بأس به.

ص: ٣٦٣

١-١) - أصول الكافي، الجزء الثاني، باب التسليم.

٢-٢) - أصول الكافي، الجزء الثاني، باب التسليم.

٣-٣) - تفسير في ظلال القرآن، في هامش الآية.

ولا يفوتنا هنا أن نوضح أنّ المراد من رد التحية بالأحسن هو أن نعقب السلام بعبارات مثل «و رحمه الله» أو «و رحمه الله و بركاته».

ورد في تفسير «الدر المنثور» أنّ شخصا أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقال: السّلام عليكم. فإجابه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «و عليكم السّلام و رحمه الله. ثمّ جاءه آخر و قال:

السّلام عليكم و رحمه الله.

فأجابه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و عليكم السّلام و رحمه الله و بركاته. فجاءه ثالث و قال:

السّلام عليكم و رحمه الله و بركاته. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «و عليكم» - و عند ما سئل عن عله هذا الجواب القصير، قال: إنّ القرآن يقول: إذا حيّتم بتحية فحيوا بأحسن منها، و لكنك لم تبق شيئا» (1).

و في الحقيقة أنّ الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد ردّ التحية بأحسن منها في الموردين السابقين، أمّا في المورد الثالث ردّها بالمساوى كلمه «و عليكم» تعنى أنّ كل ما قلته لي مردود عليك.

ص: ٣٦٤

اشاره

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)

التفسير

جاءت هذه الآيه مكمله لما سبقتها و مقدمه لما تليها من آيات، فالآيه السابقه بعد أن أمرت بردّ التحيه قالت: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيًّا .

و الآيه موضوع البحث تشير إلى قضيه غيبه مهمه هي قضيه يوم البعث و الحساب، حيث محكمه العدل الإلهيه العامه للبشر أجمعين، و تفرنها بمسأله التوحيد الذي هو ركن آخر من أركان الإيمان اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ . و عباره لِيَجْمَعَنَّكُمْ تدلّ على الشموليه لكل البشر من أولهم حتى آخرهم، حيث سيجمعون «كلهم» في يوم واحد هو يوم الحشر و القيامه.

و في موضع آخر من القرآن (الآيتان ٩٣ و ٩٤ من سوره مريم) أشير أيضا إلى هذه الحقيقه... حقيقه بعث جميع عباد الله-من سكن منهم على هذه الكره الأرضيه أو على كرات أخرى- في يوم واحد.

و عباره لَا رَيْبَ فِيهِ الوارده في الآيه و في آيات أخرى، إنّما هي إشاره

إلى الأدلة القطعية البديهية على وقوع يوم القيامة، مثل دليل «قانون التكامل» و«حكمه الخلق» و«قانون العدل الإلهي»، المذكوره بالتفصيل في مبحث المعاد.

□  
و تؤكد الآيه في نهايتها على حقيقه أنّ الله هو أصدق الصادقين: مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيْثُ مِنْ هُنَا لَا- يجوز أن يساور أحد الشك فيما يعد به الله من بعث و نشور و غيره من الوعود، فالكذب لا- يصدر إلا- عن جهل أو ضعف و حاجه، و الله أعلم العالمين، و إليه سبحانه يحتاج العباد دون أن يحتاج هو إلى أحد مطلقاً، فهو منزّه عن صفات الجهل و الضعف و العجز، و لذلك فهو أصدق الصادقين، بل إن الكذب بالنسبه إلى الله تعالى لا مفهوم له إطلاقاً.

ص: ٣٦٦

اشاره

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)

سبب النزول

نقل جمع من المفسرين عن ابن عباس أن نفرا من أهل مكّه من الذين كانوا قد أظهروا الإسلام امتنعوا عن ترك مجاوره و مداهنه المنافقين، و أحجموا لذلك عن الهجره إلى المدينه، و كان هؤلاء في الحقيقه يساندون و يدعمون عبده الأوثان المشركين، إلاّ أنّهم اضطروا في النهايه إلى الخروج من مكّه (و ساروا مع المسلمين حتى وصلوا إلى مشارف المدينه، و لعلهم فعلوا ذلك لدرء الفضيحه عن أنفسهم أو بهدف التجسس على المسلمين المهاجرين) و كانوا يظهرون الفرح لانطواء حيلتهم على المسلمين، كما حسبوا أن دخولهم إلى المدينه سوف لا تعترضه أى مشاكل من قبل الآخرين- لكن المسلمين انتبهوا الى حقيقه هؤلاء، غير أنّهم انقسموا إلى فئتين، فئه منهم رأّت ضروره طرد أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا في الحقيقه يدافعون عن المشركين أعداء الإسلام، و الفئه الثانيه من المسلمين الذين كانوا لسذاجتهم يرون ظاهر الأمور دون باطنها، و خالفوا طرد المنافقين و اعترضوا بزعمهم أنّه لا يمكن محاربه أو طرد من يشهد لله بالوحدانيه

و لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالنبوه، وقالوا: أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ اسْتِبَاحَهُ دِمَاءَ هَؤُلَاءِ لِمَجْرَدِ عَدَمِ هِجْرَتِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ: فنزلت هذه الآيه الكريمة و هي تلوم الفئه الأخيره على خطئها، و ترشدها إلى طريق الحق الصواب (١).

## التفسير

استنادا إلى سبب النزول الذى ذكرناه، تتضح لنا الصيغه الوثيقه بين هذه الآيه و الآيات التى تليها، و كذلك الآيات السابقه التى تناولت مواضيع و قضايا عن المنافقين.

فهذه الآيه تخاطب فى البدايه المسلمين و تلومهم على انقسامهم إلى فئتين، كل فئه تحكم بما يحلو لها بشأن المنافقين، حيث تقول: **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ... (٢)** و تنهى المسلمين عن الاختلاف فى أمر نفر أبوا أن يهاجروا معهم، و تعاونوا مع المشركين، و أحجموا عن مشاركه المجاهدين، فظهر بذلك نفاقهم، و دلت على ذلك أعمالهم، فلا يجوز للمسلمين أن يندعوا بتظاهر هؤلاء بالتوحيد و الإيمان، كما لا يجوز لهم أن يشفعوا فى هؤلاء، و قد أكدت الآيه السابقه أن: **مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا .**

و تبين الآيه بعد ذلك: **إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَلَبَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ كُلَّ فِرْصَةٍ لِلنَّجَاحِ، وَ حَرَمَهُمْ مِنْ لُطْفِهِ وَ عِنَايَتِهِ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَفُوهُ وَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَلَبَ تَصَوُّرَاتِ هَؤُلَاءِ بِصُورِهِ تَامَةً فَأَصْبَحُوا كَمَنْ يَقِفُ عَلَى رَأْسِهِ بَدَلَ رِجْلَيْهِ: ... وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا... (٣)**.

ص: ٣٦٨

١- ١) - ذكرت أسباب أخرى لنزول هذه الآيه و الآيات التى تليها، و قيل أنها نزلت فى واقعه أحد بينما الآيات التالیه تتحدث عن الهجره و لا تنسجم مع هذا القول، بل تنسجم مع سبب النزول الذى ذكرناه أعلاه.

٢- ٢) - فى هذه الجملة، جملة أخرى محذوفه تتضح لدى الإمعان فى الأجزاء الاخرى من الآيه و التقدير: «فما لكم تفرقتم فى المنافقين فئتين...».

٣- ٣) - «أركسهم»: من ركس و هو قلب الشيء على رأسه، و تأتى أيضا بمعنى ردّ أول الشيء إلى آخره.



و تدل عبارته «بما كسبوا» على أنّ كل ارتداد أو خروج عن جاده الحقّ و طريق الهدايه و السعاده و النجاه، إنّما يتمّ بعمل الإنسان و فعله، و حين ينسب الإضلال إلى الله سبحانه عزّ و جلّ، فذلك معناه أنّ الله القدير الحكيم يجازى كل إنسان بما كسبت يده و يثيبه بقدر ما يستحق من ثواب.

و فى الختام تخاطب الآيه أولئك البسطاء من المسلمين الذين انقسموا على أنفسهم و أصبحوا يدافعون لسذاجتهم عن المنافقين، فتؤكد لهم أنّ هدايه من حرمه الله من لطفه و رحمته بسبب أفعاله الخبيثه الشنيعه أمر لا يمكن تحقيقه، لأنّ الله قد كتب على هؤلاء المنافقين ما يستحقونه من عذاب و ضلال و حرمان من الهدايه و النجاه أ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا .

إذ أنّ عمل كل شخص لا- ينفصل عنه... و هذه سنه إلهيه... فكيف يؤمل فى هدايه أفراد امتلأت أفكارهم و قلوبهم بالنفاق، و اتجهت أعمالهم إلى حمايه أعداء الله؟! إنّه أمل لا يقوم على دليل (1).

ص: ٣٦٩

---

(١- ١) - فى المجلد الأول من هذا التفسير بحث عن الهدايه و الضلاله، فراجع.

اشاره

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)

التفسير

اشاره

لقد تحدثت الآيه السابقه عن المنافقين الذين كانوا يحظون بحمايه نفر من المسلمين البسطاء و شفاعتهم، و أوضحت أن هؤلاء المنافقين غرباء عن الإسلام، و هذه الآيه تبين أن المنافقين لفرط انحرافهم و ضلالتهم يعجبهم أن يجرؤ المسلمون إلى الكفر كى لا يظلموا و حدهم كافرين: و دُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً .

و لهذا السبب فإنَّ المنافقين أسوأ من الكفار، لأنَّ الكافر لا يحاول سلب معتقدات الآخرين، و المنافقون يفعلون هذا الشيء و يسعون دائما لإفساد المعتقدات، و هم بطبعهم هذا لا يليقون بصحبه المسلمين أبدا، تقول الآيه الكريمة: فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ... إلَّا إذا غيروا ما فى أنفسهم من شرٍّ، و تخلوا عن كفرهم و نفاقهم و أعمالهم التخريبية.

و لكي يثبتوا حصول هذا التغيير، و يثبتوا صدقهم فيه، عليهم أن يبادروا إلى الهجره من مركز الكفر و النفاق إلى دار الإسلام (أى يهاجروا من مكه إلى المدينه) فتقول الآيه: **حَتَّىٰ يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...** أما إذا رفضوا الهجره فليعلم المسلمون بأن هؤلاء لا يرضون لأنفسهم الخروج من حاله الكفر و النفاق، و إن تظاهرهم بالإسلام ليس إلا من أجل تمرير مصالحهم و أهدافهم الدينيه و من أجل أن يسهل عليهم التآمر و التجسس على المسلمين.

و فى هذه الحاله يستطيع المسلمون أن يأسروهم حيثما وجدوهم، و أن يقتلوهم إذا استلزم الأمر، تقول الآيه الكريمه: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ .**

و تكرر هذه الآيه التأكيد على المسلمين أن يتجنبوا مصاحبه هؤلاء المنافقين و أمثالهم فتقول: **لَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .**

و القرآن فى هذا الحكم يؤكد حقيقه مصيريه للمجتمع، هى أن حياه أى مجتمع تمرّ بمرحله إصلاحيه لا يمكن أن تستمر بصوره سليمه ما لم يتخلص من جرائم الفساد المتمثله بهؤلاء المنافقين أو الأعداء الذين يتظاهرون بالإخلاص، و هم فى الحقيقه عناصر مخربه هدامه تعمل فى التآمر و التجسس على المجتمع و مصالحه العامه.

و الطريف هنا أن الإسلام-مع اهتمامه برعايه أهل الكتاب من اليهود و النصارى و غيرهم و منعه الظلم و العدوان عنهم-نراه يشدد كثيرا فى التحذير من خطر المنافقين، و يرى ضروره التعامل معهم بعنف و قسوه، و رغم تظاهرهم بالإسلام يصرح القرآن بأسرهم، بل حتى بقتلهم إن استلزم الأمر.

و ما هذا التشديد إلا لأن هؤلاء يستطيعون ضرب الإسلام تحت ستار الإسلام، و هذا ما يعجز عن أدائه أى عدو آخر.

## سؤال:

قد يرى البعض أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يتحاشى قتل المنافقين كي لا يتهمه الأعداء بأنه يقتل أصحابه، أو أنّه لم يقتلهم حتى لا يستغل الآخرون هذا الأمر فيقتلون كل من يعادونه بدعوى أنّه منافق، فكيف يتلاءم هذا الموقف مع الآية الشريفة.

## الجواب:

الحقيقة أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اتّبع هذا الأسلوب مع منافقي المدينة الذين لم يظهروا العداء الصريح له أو للإسلام، بينما اتّبع مع منافقي مكّة الذين جهروا بعدائهم للمسلمين و ساعدوا الكفار عليهم أسلوباً غير هذا.

ص: ٣٧٢

اشاره

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)

سبب النزول

وردت روايات عديدة تفيد أن إثنين من القبائل العربيه فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم و هما قبيلتا «بنى ضميره» و «أشجع» كانت إحداهما و هى قبيله بنى ضميره قد عقدت مع النبى اتفاقا بترك النزاع، و كانت القبيله الثانيه حليفه للقبيله الأولى دون أن تعقد مثل هذا الاتفاق مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم، و تقول الروايات إن بعض المسلمين أخذوا يشككون فى وفاء «بنى ضميره» للمسلمين، و اقترحوا على النبى أن يهاجم هذه القبيله قبل أن تبادر هى بالهجوم على المسلمين،

فرد النبى صلى الله عليه وآله وسلم قائلا:

«كلا، فإنهم أبر العرب بالوالدين، و أوصلهم للرحم، و أوفاهم بالعهد».

و بعد فتره علم المسلمون أن قبيله «أشجع» و على رأسها «مسعود بن رجيله» قد وصلت حتى مشارف المدينه، و هى فى سبعمائته رجل، فبعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم وفدا للتعرف على سبب مجيئهم إلى ذلك المكان، فأجابت هذه القبيله

بأنها جاءت لكي تعقد اتفاقا مع المسلمين مماثلا لاتفاق «بنى ضمرة» معهم، و ما أن علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بهذا الأمر حتى أمر أصحابه بأن يأخذوا مقداراً من التمر هديه لهذه القبيلة، ثم التقى بهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأخبروه بأنهم لعجزهم عن موازرة المسلمين في قتال الأعداء، و لعدم رغبتهم في المشاركة في قتال ضد المسلمين، لما تربطهم بهم من صلة الجوار، لذلك يرومون عقد اتفاق أو ميثاق مع المسلمين بتحريم العدوان بينهما، فنزلت الآية المذكورة بهذا الشأن و هي تبين للمسلمين ما يجب عليهم أن يفعلوه في مثل هذه الحالة.

و يقول مفسرون آخرون إنَّ قسماً من هذه الآية قد نزل في شأن قبيلة «بنى مدلج» التي جاءت إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أخبرته أنها تريد الاتفاق معه على عدم اللجوء إلى العدوان فيما بينهما، و ذلك لرغبتها في البقاء على الحياد تجاه المسلمين و دعوتهم.

## التفسير

### إشارة

### الترحيب باقتراح السلم:

بعد أن أمر القرآن الكريم المسلمين في الآيات السابقة باستخدام العنف مع المنافقين الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام، تستثنى هذه الآية من الحكم المذكور طائفتين:

١- من كانت لهم عهود و موثيق مع حلفائكم إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ .

٢- من كانت ظروفهم لا تسمح لهم بمحاربه المسلمين، كما أن قدرتهم ليست على مستوى التعاون مع المسلمين لمحاربه قبيلتهم أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ .

و من الواضح أن أفراد الطائفة الأولى يجب أن يكونوا مستثنين من هذا

القانون احتراماً للعقود و العهود، و أما المجموعه الثانيه-و إن لم تكن معذوره، بل عليها أن تستجيب للحق بعد معرفته-فقد أعلنت حيادها، و لذلك فمجابتها يتعارض مع مبادئ العداله و المروءه.

و لكي لا- يستولى الغرور على المسلمين إزاء كل هذه الانتصارات الباهره، و كي لا يعتبروا ذلك نتيجة قدرتهم العسكريه و ابتكارهم، و لا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحايدته تقول الآيه: **وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ .**

و هذا تذكير للمسلمين بعدم نسيان الله في كل انتصار، و أن يتجنبوا الغرور و العجب حيال ما لديهم من قوه، و أن لا يعتبروا العفو عن الضعفاء خساره أو ضرراً لأنفسهم.

و تكرر الآيه في ختامها التأكيد بأن الله لا يسمح للمسلمين بالمساس بقوم عرضوا عليهم الصلح و تجنبوا قتالهم، و إن المسلمين مكلفون بأن يقبلوا دعوه الصلح هذه، و يضافحوا اليد التي امتدت إليهم و هي تريد الصلح و السلام **فَإِنْ اِعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ اَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا .**

يلفت النظر أن القرآن في هذا الموضوع و مواضع أخرى يذكر مقترح السلام بعبارة «إلقاء السلام» و قد يكون ذلك إشارة إلى التباعد بين الجانبين المتنازعين قبل الصلح، حتى أن أحد الجانبين يطرح اقتراحه باحتياط و عن بعد ليلقيه على الجانب الآخر.

اشاره

سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُذِّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ وَ  
يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَاذْهَبُوا وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)

سبب النزول

لقد ذكروا أسبابا مختلفه لنزول هذه الآيه، وأشهرها هو أن نفرا من أهل مكه كانوا حين يحضرون عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتظاهرون بالإسلام كذبا و خداعا، وما أن يرجعوا إلى قريش يعودون لعباده الأصنام، وقد انتخب هؤلاء هذا النوع من السلوك درء لخطر المسلمين و خطر قريش عن أنفسهم، بالإضافة إلى سعيهم لإمرار مصالحهم لدى الطرفين، فنزلت هذه الآيه و أمرت المسلمين بالتعامل مع هؤلاء بعنف و شدّه.

التفسير

اشاره

عقاب ذي الوجهين:

إنّ هذه الآيه تصور لنا طائفه من الناس نقيض تلك الطائفه التي تحدثت عنها



الآيه السابقه و أمرت بقبول الصلح منها، و الطائفه تتشكل من أفراد نفعيين انتهازيين، همهم الوحيد تحقيق مصالحهم و التحرك بحريه تامه لدى المسلمين، و قریش عن طريق الرياء و الخيانه و الخداع، و التظاهر بتأييد و اتباع الجانبين و التعاون معهما، و فى هذا المجال تقول الآيه الكريمه: سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ... .

و هؤلاء حين تسنح لهم الفرصه ينقلبون على أعقابهم و ينغمسون فى الفتنه و الشرك نكسا على رؤوسهم كَلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا... .

و عمل هؤلاء و سلوكهم على عكس سلوك الطائفه السابقه التى أرادت أن تبقى على الحياد فقد تجنبت الفئه السابقه إيذاء المسلمين، أما هذه الأخيره فقد انطوت سريرتها على إيذاء المسلمين و الوقوف ضدهم.

و قد اشترط القرآن الكريم على هذه الطائفه ثلاثه شروط من أجل أن تبقى فى مأمن من انتقام المسلمين، و هذه الشروط هى: اعتزال المسلمين، أو مصالحتهم، أو الكف عن إيذائهم حيث تقول الآيه الكريمه: فَإِنْ لَمْ يَغْتَرِ لَوْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَ يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ... .

و إذا رفضت هذه الطائفه الشروط المذكوره و أصرت على العصيان و التمرد، فالمسلمون مكلفون عند ذلك بإلقاء القبض على أفرادها و قتلهم أينما وجدوا، كما تقول الآيه: فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ .

و لما كانت الحجّه قد تمّت على هؤلاء، تقول الآيه فى الخاتمه: أُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا .

و قد يكون هذا التسلط فى مجال الكلام و المنطق إذا تغلب منطق المسلمين على منطق المشركين و الكافرين، و قد يكون سلطانا ماديا ظاهريا عليهم لأن الآيه نزلت فى وقت كان المسلمون يتمتعون فيه بقدر كاف من القوه.

و تشير عبارته «تقفتموهم» الوارده فى الآيه إلى احتياج المسلمين إلى الدقه

والمهاره فى التعرف على هذه الفئة المنافقه الخطيره،لما لها من قابليه عجيبه على التلون و الخداع و الانفلات من العقاب،فعباره «ثقتموهم» مشتقه من المصدر «ثقافه»الذى يعنى الحصول على شىء باستخدام الدقه و المهاره،بينما الفعل «وجد»يعنى الحصول على الشىء بصوره مطلقه.

ص: ٣٧٨

اشاره

وَمَنْ كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوًّا لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)

سبب النزول

ذكروا أنّ مشركاً من أهل مكّه و هو «الحارث بن زيد» كان يعذب أحد المسلمين - و لفته طويله - بالتعاون مع أبي جهل، و كان اسم هذا المسلم «عياش بن أبي ربيعه» و لم يكن تعذيبه بسبب جرم اقترفه، بل كان يعذب لمجرد أنّه آمن بالإسلام، و بعد هجره المسلمين إلى المدينة هاجر «عياش» إليها، فصادف يوماً «الحارث بن زيد» في إحدى طرقات المدينة فقتله ظنّاً منه أنّه ما زال عدواً للمسلمين، و لم يكن على علم بأن الحارث كان قد تاب و أسلم، فعلم النبي صلى الله عليه و آله و سلّم بهذا الحادث، فنزلت الآيه الشريفة و هي تبين حكم مثل هذا القتل الناتج عن الخطأ.

## أحكام القتل الناتج عن الخطأ:

لقد أطلقت الآية السابقة أيدي المسلمين في المنافقين الذين كانوا يشكلون خطراً كبيراً على الإسلام، وسمحت لهم حتى بقتل أمثال هؤلاء المنافقين، ولكن تفادياً لاستغلال هذا الحكم استغلالاً سيئاً، ولسد الطريق أمام الأغراض الشخصية التي قد تدفع صاحبها إلى قتل إنسان بتهمه أنه منافق، و أمام أي تساهل في سفك دماء الأبرياء، يبيّن هذه الآية و التي تليها أحكام قتل الخطأ و قتل العمد، لكي يكون المسلمون على غيابه الدقة و الحذر في مسأله الدماء التي تحظى باهتمام بالغ في الإسلام، تقول الآية الكريمة: **وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُقْتَلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً .**

هذه الآية تقرر في الواقع حقيقة من الحقائق، فالمؤمن لا يسمح لنفسه إطلاقاً أن يسفك دماً بريئاً، لأنّ المشاعر الإيمانية تجعل من الجماعة المؤمنة أعضاء جسد واحد، و هل يقدم عضو في جسد على قطع عضو آخر إلا خطأ! من هذه الحقيقة يتضح أنّ مرتكب جريمة القتل متهم أولاً في إيمانه.

و عبارته «إلا خطأ» - تعني السماح بارتكاب قتل الخطأ! لأنّ مثل هذا القتل لا يكون عن قرار مسبق، و لا يكون مرتكبه حين الارتكاب على علم بخطئه أنّها - إذن - تقرير لحقيقته عدم ارتكاب المؤمن مثل هذه الجريمة إلا عن خطأ.

ثمّ تبين الآية الكريمة غرامه قتل الخطأ، و تقسمها إلى ثلاثة أنواع:

فالنوع الأول: هو أن يحرق القاتل عبداً مسلماً، و يدفع الديه عن دم القتل إلى أهله إذا كان القتل ينتمي إلى عائله مسلمه و من قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبه مؤمنه و ديه مسلمه إلى أهله فإذا وهب أهل القتل الديه و تصدقوا بها له فلبس على القاتل أن يدفع شيئاً: إلا أن يصدّقوا... .

و النوع الثاني: من غرامه قتل الخطأ يكون في حاله ما إذا كان القتل مسلماً،

و لكن من عائلته معاديه للإسلام و يجب فى هذه الحاله عتق عبد مسلم و لا تدفع الدية إلى أهل القتل، لأن الإسلام يرفض تعزيز الحاله المالىة لأعدائه،بالإضافه إلى ذلك فإن الإسلام قد قطع الصله بين هذا الفرد و عائلته المعاديه للإسلام،فلا معنى إذن لجبران الخساره.

أما النوع الثالث:من غرامه القتل الناتج عن الخطأ،فيكون فى حاله كون القتل من عائله غير مسلمه لكن بينها و بين المسلمين عهدا و ميثاقا،فى مثل هذه الحاله أمر بدفع ديه القتل إلى أهله، كما أمر-أيضا-بتحرير عبد من العبيد المسلمين احتراماً للعهود و المواثيق تقول الآيه: وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ... .

و اختلف المفسرون فى قتل الحاله الثالثه،هل يجب أن يكون من المسلمين، أم أن الحكم يشمل غيرهم من الكفار الذميين؟ و ظاهر الآيه و الروايات التى وردت فى تفسيرها تدل على أن المقصود فيها هو القتل «المسلم».

كما اختلف المفسرون فى جواز دفع الديه إلى أهل القتل غير المسلمين، حيث أن الديه تعتبر جزءاً من الإرث،و الكافر لا يرث المسلم،و لكن ظاهر الآيه يدل على وجوب دفع الديه إلى أهل مثل هذا القتل،و ذلك تأكيداً من الإسلام لاحترامه للعهود و المواثيق.

و ذهب بعض المفسرين إلى أن الديه تدفع فى هذه الحاله إلى المسلمين من ورثه القتل دون الكافرين منهم معتمدين على أن الكافر لا يرث المسلم و أن الديه هى جزء من الإرث،و قد وردت إشارات إلى هذا المعنى فى بعض الروايات أيضاً.

بينما ظاهر الآيه يدل على أن الورثه ليسوا من المسلمين،و ذلك حين تقول:

مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...

لأن العهود و المواثيق كانت فى ذلك الزمان

بين المسلمين و بين غيرهم، و لم تكن بين المسلمين أنفسهم -حينذاك- عهود أو موثيق، (و هنا يجب الإمعان و التدقيق كثيرا من الأمر).

و تستطرد الآيه فى بيان الحكم فتتطرق إلى أولئك النفر من المسلمين الذين يرتكبون القتل عن خطأ، و لا يسعهم -لفقرهم- دفع المال ديه عن القتل، كما لا- يسعهم شراء عبد لتحرير رقبته غرامه عن ارتكابهم للقتل الخطأ، و تبين حكم هؤلاء، و تعلن أنهم يجب أن يصوموا شهرين متتابعين غرامه عن القتل الخطأ الذى ارتكبه، بدلا من الديه و تحرير الرقبه، و قد اعتبرت ذلك نوعا من تخفيف الجزاء على الذين لا- يطيقون الغرامه المالىه و توبه منهم إلى الله، علما أن جميع أنواع الغرامات التى ذكرت فى الآيه عن القتل الخطأ، إنما هى توبه و كفاره للذنب المرتكب فى هذا المجال، و الله يعلم بخفايا الأمور و قد أحاط علمه بكل شىء حيث تقول الآيه: تَوْبَهُ مِنَ اللَّهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

لقد وردت فى الآيه-موضوع البحث-أمور عديده يجدر الانتباه إليها و هى:

١- ذكرت الآيه ثلاثه أنواع من التعويض عند حصول قتل عن خطأ، و كل نوع فى حد ذاته تعويض عن خساره الناجمه عن هذا القتل.

فتحرير رقبه عبد مسلم يعتبر تعويضا عن خساره اجتماعيه ناتجه عن القتل الواقع على إنسان مسلم، إذ بعد أن خسر المجتمع فردا نافعا من أفرادہ بسبب وقوع القتل عليه، حصل على تعويض مماثل و ذلك بدخول إنسان نافع آخر بين أفرادہ عن طريق التحرير.

و أما التعويض المادى «الديه» فهو مقابل خساره الماديه اللاحقه بأهل القتل نتيجة فقدهم إياه، و الحقيقه أن الديه ليست ثمنا لدم القتل المسلم البرىء، لأن دمه لا- تعادله قيمه، بل هى -و كما أسلفنا- نوع من التعويض عن خساره ماديه لاحقه بذوى القتل بسبب فقدانه.

و أما الخيار الثالث الوارد فى حاله تعذر تقديم التعويض المادى، فيتمثل فى

صيام شهرين متتابعين يقوم به القاتل،فهو تعويض أخلاقي و معنوي لخساره معنويه لحقت بالقاتل نفسه بسبب ارتكابه لحادث قتل،فالكفاره تتحقق في الدرجة الأولى في تحرير رقبه مؤمنه،فإن عجز القاتل فصيام شهرين متتابعين- و يجب الانتباه هنا إلى أن تحرير العبيد يعتبر بحد ذاته عباده،لما له من أثر معنوي على العبد الذي يتحرر من قيود الرق.

□  
٢-ورود عبارته إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا بالنسبه إلى أهل القتيل الذين هم من المسلمين،أى أن يتنازلوا عن «ديه»قتيلهم،حيث لم ترد هذه العبارة بالنسبه لغير المسلمين-و سبب ذلك واضح،و هو لأن الأرضيه للصفح و العفو متوفره لدى المسلمين حيال أمثالهم،بينما لا تتوفر مثل هذه الأرضيه لدى غير المسلمين تجاه المسلمين،كما أن المسلم يجب أن لا يقبل معروفا أو منه من غير المسلم في هذه الحالات.

٣-و مما يجلب الانتباه أن الحالة الثالثه الوارده في آيه موضوع البحث،قد قدمت كفاره الديه على كفاره التحرير، و هذه الحالة تتناول مسأله القتل الخطأ الواقع على شخص لا- ينتمى أهله إلى الإسلام،بينما الحاله الأولى-التي كان القتل فيها من عائله إسلاميه-تقدمت فيها كفاره التحرير على كفاره الديه.

و يمكن الاستنتاج من هذا التقديم و التأخير أن مسأله دفع الديه في موعد متأخر بالنسبه للمسلمين فيما بينهم،لا تترك أثرا سلبيا عليهم-في الغالب-بينما لو كان أهل القتيل من غير المسلمين لوجب التعجيل في دفع الديه-أولا-اتقاء للفتنه،و لكي لا يفسر أهل القتيل و قومه مسأله القتل الحاصله بأنها نقض للعهد من جانب المسلمين.

٤-لم تحدد الآيه الكريمه مقدار الديه أو مبلغها في أى من الحالات الثلاثه المذكوره،و يستنتج من هذا أن مسأله التحديد هذه إنما أوكلت إلى السنه التي عينت بالفعل مقدارها الكامل بألف مثقال من الذهب،أو بمائه بغير،أو مائتين من

البقر، ويمكن أن يكون ثمن هذه الأنواع مالا- إذا حصل اتفاق بين طرفي القضية، (و بديهي أن تخصيص الذهب أو نوع من أنواع الماشيه ديه عن القتل، إنما هو سنه إسلاميه تستند مبرراتها على الأمور الطبيعیه لا الوضعیه المتغيره بتغير الزمان).

٥- قد يرد هذا الوهم لدى البعض بأنّ القتل الواقع خطأ، يجب أن لا يكون بإزائه غرامه أو عقوبه، لأن القاتل لم يرتكب جريمه عن عمد أو سبق إصرار و إن الخطأ لا عقوبه أو غرامه ماليه عليه.

و جواب هذا-أو توضيحه-هو أن القتل، دون سواه من الجرائم، تدخل فيه قضيه بالغه الأهميه و هي قضيه الدم المراق فيها و الحياه الإنسانيه التي تسلب عضو من أعضاء المجتمع...و لكي يبين الإسلام اهتمامه الكبير بحياه الأفراد، و يدفع معتنقيه إلى التزام الحيطه و الحذر الدقيقين لعدم التورط في ارتكاب مثل هذه الأخطاء، شدد في مسأله الغرامه و العقوبه حرصا منه على حياه أفراد المجتمع، و لكي لا يصبح الخطأ عذرا يتوسل به من شاء في إهدار دماء الأبرياء من الناس.

□  
و العبارة الأخيره من الآيه الكريمه التي هي تَوْبَهُ مِنَ اللَّهِ... قد تكون إشاره إلى أنّ وقوع الخطأ يكون غالبا بسبب التهاون و قله الحذر، و ان الخطأ إذا كان كبيرا كالقتل-يجب التعويض عنه أولا و إرضاء أهل القتل لكي تشمل القاتل أو الخاطيء بعد ذلك التوبه الإلهيه.



اشاره

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْرًاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)

سبب النزول

ذكروا أن «المقيس بن صبابه الكناني» كان قد وجد قاتل أخيه «هشام» في محله بني النجار، وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الأمر، فبعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع «قيس بن هلال المهري» إلى زعماء بني النجار يأمرهم أن يسلموا قاتل «هشام» إلى أخيه «المقيس» وإن لم يكن لهم علم به أو بمكانه فليدفعوا إلى «المقيس» دية أخيه القاتل، فدفعت بنو النجار الديه لعدم علمهم بمكان القاتل، فأخذ «المقيس» الديه وتوجه إلى المدينة مع «قيس بن هلال المهري» إلا أنه في الطريق راودته نعره من نعرات الجاهليه، فظن أنه قد جلب على نفسه العار بقبوله المال بدل دم أخيه، فعمد إلى قتل رفيق سفره، أي قيس بن هلال الذي كان من قبيله بني النجار، انتقاماً لدم أخيه على حسب ظنه، ثم هرب «المقيس» إلى مكه وارتد عن إسلامه، فاستباح النبي صلى الله عليه وآله وسلم دم هذا القاتل، أي «المقيس» لخيانته، وقد نزلت هذه الآيه في هذه المناسبه و هي تبين عقوبه مرتكب القتل العمد.

## عقوبه القتل العمد:

لقد بينت الآيه السابقه عقوبه-أو غرامه-القتل الناتج عن الخطأ،و جاءت الآيه الأخيره عقوبه القتل عن عمد و سبق إصرار،في حاله إذا كان القتل من المؤمنين،و بما أن جريمه قتل الإنسان من أعظم و أكبر الجرائم و أخطر الذنوب، و ان التهاون في مكافحه مثل هذه الجريمه يهدد أمن المجتمع و سلامه أفراده، الأمن الذى يعتبر من أهم متطلبات المجتمع السليم،لذلك فإن القرآن الكريم قد تناول هذه القضيه في آيات مختلفه بأهميه بالغه،حتى أنه اعتبر قتل النفس الواحده قتلا للناس جميعا،إلا أن يكون القتل عقابا لقتل مثله أو عقابا لجريمه الإفساد فى الأرض حيث يقول القرآن فى هذا المجال: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا (١).

و قد قررت الآيه-موضوع البحث-أربع عقوبات أخرويه لمرتكب القتل العمد،و عقوبه أخرى دنيويه هى القصاص،و العقوبات الأخرويه هى:

١-الخلود و البقاء الأبدى فى نار جهنم،حيث تقول الآيه: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا .

٢-حاطه غضب الله و سخطه بالقاتل: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ... .

٣-الحرمان من رحمه الله: وَ لَعَنَهُ .

٤-العذاب العظيم الذى ينتظره يوم القيامة: وَ أَعِدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا و الملاحظ هنا أن العقاب الأخروى الذى خصصه الله للقاتل فى حاله العمد،هو أشد أنواع العذاب و العقاب بحيث لم يذكر القرآن عقابا أشد منه فى مجال آخر أو لذنب آخر.

أما العقاب الدنيوى الذى وردت تفاصيله فى الآيه(١٧٩)من سوره البقره،

ص: ٣٨٦

فهو القصاص، و قد تطرقنا إليه لدى تفسير هذه الآية في الجزء الأول من كتابنا هذا.

## جريمه القتل العمد و العقاب الأبدى:

يرد سؤال فى هذا المجال، و هو أن الخلود فى العذاب قد ورد بالنسبه إلى من يموت كافرا، بينما قد يكون مرتكب جريمه القتل العمد مؤمنا، كما يحتمل أن يندم على ما ارتكبه من إثم و يتوب عن ذلك فى الدنيا، و يسعى إلى تعويض و تلافى ما حصل بسبب جريمته، فكيف إذن يستحق مثل هذا الإنسان عذابا أبديا و عقابا يخلد فيه؟ إن جواب هذا السؤال يشتمل على ثلاث حالات هي:

١- قد يكون المراد بقتل المؤمن-الوارد فى الآية موضوع البحث-هو القتل بسبب إيمان الشخص، أى استباحه دم المؤمن، و واضح من هذا إن الذى يعمد إلى ارتكاب جريمه قتل كهذه إنما هو كافر عديم الإيمان، و إلا كيف يمكن لمؤمن أن يستيحي دم أخيه المؤمن، و بناء على هذا يستحق القاتل الخلود فى النار و يستحق العذاب و العقاب المؤبد، و قد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام حديث بهذا الفحوى (١).

٢- كما يحتمل أن يموت مرتكب جريمه القتل العمد مسلوب الإيمان بسبب تعمده قتل إنسان مؤمن برىء، فلا يحظى بفرصه للتوبه عن جريمته، فينال فى الآخرة العذاب العظيم المؤبد.

٣- و يمكن أيضا-أن يكون المراد بعبارة «الخلود»الوارده فى الآية هو العذاب الذى يستمر لآماد طويله و ليس العذاب المؤبد.

و يمكن أن يطرح سؤال آخر-فى هذا المجال-و هو هل أن جريمه القتل

ص: ٣٨٧

---

١-١) - فقد ورد فى كتاب الكافى و تفسير العياشى فى تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إن من قتل مؤمنا على دينه فذلك المتعمد الذى قال الله تعالى فى كتابه عنه: «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا» .

العمد قابله للتوبه؟! لقد ردّ جمع من المفسّرين بالنفى صريحا على هذا السؤال، وقالوا: أن هذه الجريمة التي ورد ذكرها في الآية موضوع البحث غير قابله للتوبه مطلقا، حيث أشارت الروايات الواردة في هذا الأمر إلى ذلك، فقد صرحت الروايات بأن لا توبه لقاتل المؤمن عمدا.

و لكن الذى نستنتجه من روح التعاليم الإسلاميه، و روايات الأئمه عليهم السّلام، و غيرهم من علماء الدين الكبار، و كذلك من فلسفه التوبه القائمه على أساس التربيه و الوقايه من الوقوع فى الذنوب و الخطايا فى مستقبل الفرد المسلم...

المستخلص من ذلك كله هو أنه لا يوجد ذنب غير قابل للتوبه، لكن التوبه من بعض الذنوب تكون مقيده بشروط قاسيه جدا يصعب بل يستحيل أحيانا على الفرد تحقيقها.

و الدليل على هذا الأمر هو قول القرآن الكريم: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (١)**.

و قد قلنا فى تفسير هذه الآية: إنّها وردت فى شأن العفو عن الذنوب بواسطة الشفاعة و ما شاكل ذلك، و لكن المعروف أنّه حتى الشرك-ذاته-يعتبر من الجرائم و الذنوب القابله للتوبه، إذا تخلى الإنسان عنه و عاد فأمن بالله الواحد الأحد و أسلم وجهه لله، كما حصل للجاهليين الذين تخلوا عن شركهم و قبلوا الإسلام و تابوا إلى الله فعفا عنهم و غفر لهم ذنوبهم السابقه.

و يتبيّن من هذا العرض الموجز أنّ كل الذنوب-حتى الشرك-قابله للتوبه، و تؤكد على ذلك الآيتان (٥٣ و ٥٤) من سوره الزمر حيث يقول تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أُنْيَبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ .**

و قد ذكر بعض المفسّرين أن الآيات التى تتحدث عن غفران جميع الذنوب

ص: ٣٨٨

هي آيات عامه قابله للتخصيص- و لكن لا يمكن الحكم بصحة هذا القول، لأنه يتناقض و منطبق هذه الآيه التي اعتبرت التوبه نعمه و منه من الله على المذنبين، و أكدت ذلك بالقرائن، لذلك لا يمكن تخصيص هذه الآيات، فهي- كما في الاصطلاح- تأبى التخصيص.

إضافه إلى ذلك كله فقد يحتمل أن يلجأ مرتكب القتل العمد إلى التوبه، و يخلص الطاعه لله في بقيه عمره، و يتجنب ارتكاب الذنوب و لا يعصى الله بعد ذلك، و لا يعمد إلى ارتكاب جريمه قتل مشابهه، فهل يصح أن يبأس التائب- في مثل هذه الحاله- من رحمه الله و عفوه و مغفرته؟ و هل يجوز القول بأن هذا الشخص مع توبته و ندمه و سيقى مشمولاً بعذاب الله المؤبد؟ إن القول برفض توبه إنسان كهذا يكون مخالفاً لروح التعاليم الدينيه الساميه التي جاء بها الأنبياء لتربيه البشر و هدايتهم في جميع مراحل التاريخ.

و الذي نلاحظه في تاريخنا الإسلامى، هو أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد عفا عن أخطر المجرمين من أمثال «وحشى» الذى قتل «حمزه بن عبد المطلب» عم النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قبل النبي توبته، و كذلك لا يمكن القول بأن ارتكاب جريمه القتل في حال الشرك يختلف عنه في حال الإيمان، بحيث يقال باحتمال التغاضى و العفو عن الجريمه في الحاله الأولى، و عدم احتمالها في حاله الإيمان، و قد سبق أن علمنا أن ليس هناك ذنب أعظم من الشرك بالله، و عرفنا أن هذا الذنب- أيضاً- قابل للتوبه و ان الله يعفو عن المشرك إذا تاب عن شركه و اعتنق الإسلام... فكيف- و الحاله هذه- يمكن القول بأن جريمه القتل العمد- التي لم يذكر القرآن أنها أعظم الجرائم ليست قابله للتوبه أو العفو؟ إن قولنا بأن جريمه قتل العمد قابله للتوبه و العفو لا يقلل من عظم خطوره هذه الجريمه، و قبول التوبه في هذا المجال لا يعنى أن التوبه متيسره بسيطه في مثل هذه الحاله، بل أنها من أصعب الأمور، و هي إن أريد تحقيقها- تحتاج إلى

بذل و تضحيات كبيره للتعويض عما خلفته الجريمة من آثار خطيره و سيئه على المجتمع، و التعويض فى هذا المجال ليس بالأمر اليسير (١) و لكننا أردنا من ذلك أن نبين أن باب التوبه ليست مغلقه على من تاب و آمن و عمل صالحا ثم اهتدى، حتى لو كان قد ارتكب فى وقت من الأوقات جريمه كالقتل المتعمد.

## ما هي أنواع القتل؟

لقد قسم الفقهاء القتل إلى ثلاثه أنواع: كما ورد فى كتب القصاص و الديات، و قد استندوا فى هذا التقسيم على ما استلهموه من الآيات القرآنيه و الروايات و الأحاديث الوارده فى هذا المجال... و هذه الأنواع هي:

١-القتل العمد.

٢-القتل شبه العمد.

٣-القتل الخطأ.

و القتل العمد هو الذى يحصل باستخدام وسائل القتل مع وجود سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، مثل أن يعمد إنسان إلى قتل إنسان آخر مستخدما فى ذلك وسائل كالسكين أو العصى أو الحجاره أو غير ذلك من الوسائل القاتله.

أما القتل شبه العمد فهو الذى يكون مسبقا بإصرار القاتل على إيذاء القتيل دون استهداف قتله، فيؤدى الإيذاء إلى القتل، كأن يضرب شخص شخصا آخر، دون أن يقصد قتله، فيؤدى الضرب إلى قتل المضروب.

و القتل الخطأ هو القتل الذى يحصل دون أن يكون لدى القاتل سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، و لم يكن يهدف إلى إيذاء القتيل، و يحدث هذا-مثلا-

ص: ٣٩٠

---

(١ - ١) - إن الآيات التى وردت فى بيان خطوره قتل الأبرياء لها أثر يهز الإنسان من الأعماق، و فى حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم» و قال صلى الله عليه و آله و سلم أيضا: «لو أن رجلا قتل بالمشرق و آخر رضى بالمغرب لا شرك فى دمه» من تفسير المنار، الجزء الخامس، ص ٣٦١.

لدى محاوله إنسان اصطياد بعض الحيوانات بنوع من أنواع السلاح،فبدل أن يقع السلاح فى الحيوان يقع سهوا على إنسان آخر فيقتله.

و قد وردت الأحكام المختلفه لهذه الأنواع الثلاثه من القتل فى الكتب الفقهيه.

ص: ٣٩١

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

سبب النزول

لقد ذكرت الروايات و التفاسير الإسلاميه أسباب عده لنزول هذه الآيه، و كلها تتشابه مع بعضها الآخر، و من ذلك أن الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم حين عاد من واقعه خيبر بعث أسامه بن زيد مع جمع من المسلمين إلى يهود كانوا يسكنون في قريه فدك، من أجل دعوتهم إلى الإسلام أو الإذعان لشروط الذمه، مرداس اليهودي، و هو أحد الذين عرفوا بقدم جيش الإسلام و كان قد أخذ أمواله و أولاده و لجأ بهم إلى أحد الجبال، هب لاستقبال المسلمين و هو يشهد بوحدانيه الله و رساله النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و قد ظن أسامه بن زيد أن هذا اليهودي يتظاهر بالإسلام خوفا على نفسه و حفظا لماله و أنه لا يبطن الإسلام في الحقيقه فعمد أسامه إلى قتل هذا اليهودي و استولى على أغنامه، و ما أن وصل نبأ هذه الواقعة إلى النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم تأثر تأثرا شديدا منها و قال صَلَّى الله عليه و آله و سلم ما معناه إن أسامه لم يكن ليعرف ما في نفس هذا



الإنسان فلعله كان قد أسلم حقيقه.

عند ذلك نزلت الآيه المذكوره فحذرت المسلمين من أن تكون الغنائم الحريه أو أمثالها سببا في رفض إسلام من يظهر الإسلام، مؤكده ضروره قبول إسلام مثل هذا الإنسان.

## التفسير

### اشاره

بعد أن وردت التأكيدات اللازمه-في الآيات السابقه-فيما يخص حمايه أرواح الأبرياء،ورد في هذه الآيه أمر احترازي يدعو إلى حمايه أرواح الأبرياء الذين قد يعرضون إلى الاتهام من قبل الآخرين،إذ تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا... .

تأمر هذه الآيه المسلمين أن يستقبلوا-بكل رحابه صدر- أولئك الذين يظهرون الإسلام و أن يتجنبوا إساءه الظن بإيمان أو إسلام هؤلاء،و تؤكد الآيه بعد ذلك محذره و ناهيه عن أن تكون نعم الدنيا الزائله سببا في اتهام أفراد أظهروا الإسلام،أو قتلهم على أنهم من الأعداء و الاستيلاء على أموالهم،إذ تقول الآيه:

...تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...

### (١)

و تؤكد على أن النعم الخالده القيمه هي عند الله بقوله: ...فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ .

و تشير الآيه أيضا إلى حروب الجاهليه التي كانت تنشب بدوافع ماديه مثل السلب و النهب فتقول: ...كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ... (٢) و تضيف-مخاطبه المسلمين-أنهم في ظل الإسلام و لطف الله و كرمه و فضله قد نجوا من ذلك الوضع السيء مؤكده أن شكر هذه النعمه الكبيره يستلزم منهم التحقق و التثبيت

ص: ٣٩٣

١ - ١) - العرض كلمه على وزن (مرض)و تعنى كل شىء زائل لا- دوام له،و على هذا الأساس فإن«عرض الحياه الدنيا»معناه رؤوس الأموال الدنيويه التي يكون مصير جميعها إلى الزوال و الفناء لا محاله.

٢ - ٢) - و قد ورد في تفسير هذه الآيه احتمال آخر،هو أنها تخاطب المسلمين بأنهم كان لهم نفس الحاله عند إسلامهم، أى أنهم أقروا بالإسلام بألستهم و قبل منهم إسلامهم،و في حين لم يكن أحد غير الله يعلم بما يخفونه في سرائرهم.

من الأمور، إذ تقول الآية: ...فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

### الجهاد الإسلامي نقي من البعد المادي:

توضح الآية السالفه هذه الحقيقه بصوره جليه، وهى أنّ أى مسلم يجب أن لا يتقدم إلى ساحه الجهاد بأهداف ماديه، و لذلك عليه أن يقبل -منذ الوهله الأولى- من العدو إظهاره للإيمان و يلبي نداءه للصلح و السلام، حتى لو حرم المسلم بقبوله إيمان العدو الكثير من الغنائم الماديه، و السبب فى ذلك أن هدف الجهاد فى الإسلام ليس التوسع و لا الاستيلاء على الغنائم الماديه، بل الهدف من الجهاد الإسلامى هو تحرير البشر من قيود العبوديه لغير الله، سواء كان هذا الغير هم الطغاه الجابره، أو كانت العبوديه للمال و للثروه و الجاه، و يجب على كل مسلم أن يسعى إلى هذه الحقيقه كلما برقت له بارقه أمل صوبها.

و تذكر الآية الكريمه المسلمين بعهدهم فى الجاهليه، حيث كانوا يحملون الأفكار الماديه الدنيئه قبل إسلامهم، فكانوا يتسبون فى إراقه سيول من الدماء لأسباب ماديه محضه، و قد نجوا اليوم بفضل إسلامهم و إيمانهم من تلك الحروب و تغير أسلوب حياتهم.

كما تشير الآية إلى حقيقه أخرى، وهى أنّ المسلمين ساعه إظهارهم للإسلام لم يكن أحد ليعرف حقيقه هذا الإظهار أو حقيقه ما ينويه المظهر للإسلام، و تؤكد لهم ضروره أن يطبقوا ما كانوا هم عليه عند إسلامهم على من يظهر الإسلام أمامهم من الأعداء.

### سؤال:

قد يطرأ على الذهن سؤال، و هو لو أنّ الإسلام قبل دعوى كل من يتظاهر بالإسلام منذ الوهله الأولى دون التحقيق من حقيقه هذه الدعوى، لأصبح ذلك

سببا في إيجاد أرضيه النفاق و ظهور المنافقين في المحيط الإسلامي، و بهذا الأسلوب يمكن للكثير من الأعداء إساءه استغلال هذه الظاهره و التستر في ظل الإسلام، و من خلال ذلك القيام بأعمال عدائيه ضد الإسلام؟

### الجواب:

من الممكن القول أن ليس هناك قانون في العالم لا يمكن إساءه استغلاله أبدا، بل المهم في القانون هو أن يحوى في أغلب جوانبه النفع للعموم، لو رفضنا- منذ الوهله الأولى- إسلام من يظهر الإسلام من الأعداء و غيرهم لمجرد عدم معرفتنا بسريره هذا الذى يظهر الإسلام، لأدى رفضنا في كثير من الحالات إلى مفاسد لا تحمد عقباها، بل ستكون أكثر ضررا على الإسلام، إذ أنها تعنى سحق المبادئ و العواطف الإنسانيه، و يكون- هذا الرفض- عند ذلك و سيله بيد كل من يضمر العداء لصاحبه لیتهمه بأن إظهاره للإسلام لم يكن إظهارا حقيقيا مخلصا أو مطابقا لما في سريرته، و بهذه الصوره من الممكن أن تراق دماء كثيره لأناس أبرياء.

و فوق كل ذلك فإن الكثيرين لدى بدء كل دعوه ممن تكون توجهاتهم لهذه الدعوه بسيطه و شكيله و ظاهريه، و لكنهم بمرور الزمان و اتصالهم الدائم بتلك الدعوه- تتجذر في نفوسهم مبادئ الدعوه و تتأصل و تتعزز، لذلك لا يمكن القبول برفض مثل هؤلاء الضعيفى الصله بالدعوه.

اشاره

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)

التفسير

اشاره

تناولت الآيات السابقة الحديث عن الجهاد، والآيتان الأخيرتان تبينان التمايز بين المجاهدين وغيرهم من القاعدين، فتؤكد عدم التساوى بين من يبذل المال و النفس رخيصين في سبيل الهدف الإلهي السامي، و بين من يقعد عن هذا البذل سبب آخر غير المرض الذي يحول دونه و دون المشاركة في الجهاد، لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ....

و واضح من هذه الآية أن المقصود بالقاعدين فيها هم أولئك المؤمنون بالإسلام الذين لم يشاركوا في الجهاد في سبيله بسبب افتقارهم إلى العزم الكافي

لذلك، وتبين هنا-أيضا-أن الجهاد المقصود لم يكن واجبا عينيا، فلو كان واجبا عينيا لما تحدث القرآن عن هؤلاء التاركين للجهاد بمثل هذه اللهجة المرنة و لم يكن ليوعدهم بالثواب.

و على هذا الأساس فإن فضل المجاهدين على القاعدين لا يمكن إنكاره حتى لو كان الجهاد ليس واجبا عينيا، ولا تشمل الآيه بأى حال من الأحوال أولئك الذين أحجموا عن المشاركة في الجهاد نفاقا، وعدوانا و يجب الانتباه-أيضا-إلى أن عبارته غير أولي الضرر لها مفهوم واسع يشمل كل أولئك الذين يعانون من نقص العضو أو المرض أو الضعف الشديد، مما يحرمهم من المشاركة في الجهاد، فهؤلاء مستثنون من ذلك.

و تكرر الآيه من جديد مسأله التفاضل بشكل أوضح و أكثر صراحة، و تؤكد في نهايه المقارنه، أن الله وهب المجاهدين أجرا عظيما، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً (١).

و لكن-كما أسلفنا-لما كان في الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدين يقف أولئك الذين لم يكن الجهاد بالنسبه لهم واجبا عينيا أو لم يشاركووا في الجهاد بسبب مرض أو عجز أو عله أخرى أعجزتهم عن هذه المشاركة، فذلك و لأجل أن لا يغفل ما لهؤلاء من نيه صالحه و إيمانه و أعمال صالحه أخرى فقد وعدوا خيرا حيث تقول الآيه الكريمه: ... وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الْبَدِيهِيِّ أَن هُنَاكَ فَرْقًا شَاسِعًا بَيْنَ الْخَيْرِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ الْمَجَاهِدُونَ، وَبَيْنَ ذَلِكَ الَّذِي يَصِيبُ الْقَاعِدِينَ مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَشَارِكَةِ فِي الْجِهَادِ.

و تبين الآيه القرآنيه في هذا المجال: أن لكل عمل صالح نصيب محفوظ من

ص: ٣٩٧

١ - ١) -لقد وردت عبارته «درجه» في الآيه على صيغه النكره، و تؤكد كتب الأدب بأن النكره في مثل هذه الحالات تأتي لبيان العظمه و الأهميه-أى أن درجه المجاهدين من السمو و الرفعه بحيث لا يمكن للبشر معرفتها بصوره كامله- و هذا شبيهه بالعباره التي تطلق لبيان القيمه العظيمه لشيء يجهل قيمته البشر.

الثواب لا يغفل ولا ينسى، خاصه و هي تتحدث عن قاعدين أحبوا المشاركة في الجهاد و كانوا يرونه ساميا مقدسا، و بما أن عدم كون هذا الجهاد واجبا عينيا قد حال دون تحقق هذا الهدف السامي المقدس فإن أولئك الذين قعدوا عن المشاركة فيه سينالون من الثواب على قدر رغبتهم في المشاركة، أما أولئك الذين عجزوا عن المشاركة بسبب عاهه أو مرض إلا أنهم كانوا يرغبون في الاشتراك في الجهاد برغبه جامحه، بل كانوا يعشقون الجهاد، لذلك فإن لهم - أيضا - سهم و نصيب لا ينكر من ثواب المجاهدين، كما

جاء في حديث مروى عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يخاطب فيه جند الإسلام فيقول: «لقد خلفتم في المدينة أقواما ما سرتهم مسيرا و لا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، و هم الذين صحت نياتهم و نصحت جيوبهم و هوت أفئدتهم للجهاد و قد منعهم عن المسير ضرر أو غيره». (١)

و بما أن أهميه الجهاد في الإسلام بالغه جدا، لذلك تتطرق الآية مره أخرى للمجاهدين و تؤكد بأن لهم أجرا عظيما يفوق كثيرا أجر القاعدين عن الجهاد عن عجز،... وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا .

و تشرح الآية التاليه - و هي الآية (٩٦) من سوره النساء - نوع هذا الأجر العظيم فقول أنه: دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً فَلَوْ أَنَّ أَفْرَادًا مِنْ بَيْنِ الْمُجَاهِدِينَ تَوَرَّطُوا فِي زَلَّةٍ أَثْنَاءِ أَدَائِهِمْ لَوَاجِبِهِمْ فَندَمُوا عَلَى تِلْكَ الزَّلَّةِ، فقد وعدهم الله بالمغفره و العفو، حيث يقول في نهايه الآية: ... وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

### نكات مهمه حول المجاهدين:

١- لقد كررت الآية (٩٥) عباره المجاهدين ثلاث مرات:

في المره الأولى ذكر المجاهدون مع الهدف و الوسيله الخاصه بالجهاد:

ص: ٣٩٨

١- (١) - تفسير الصافي، هامش الآية المذكوره.

الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ...

و في الثانية: ذكر اسم المجاهدين مقرونا بوسيله الجهاد، و لم يذكر شيء عن الهدف: الْمُجَاهِدُونَ (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ... .

و أما في المرحلة الأخيره فقد جاءت الآيه باسم المجاهدين فقط، حيث يدل ذلك بوضوح على الأسلوب البلاغى الرفيع فى الكلام القرآنى، حيث يتعرف السامع شيئا فشيئا بواسطته على الموضوع و تخف قيوده و صفاته لديه، و تصل درجة التعرف إلى مرحله يفهم السامع بها كل شيء من خلال إشاره واحده.

٢- لقد ذكرت الآيه فى البدايه تفوق المجاهدين على القاعدين بعبارته مفرده و هى «درجه» بينما فى الآيه التاليه جاءت هذه العباره بصيغته الجمع «درجات» و جلى أن لا- تناقض بين هاتين العبارتين، لأن القصد من العباره الأولى تبيان تفوق المجاهدين على غيرهم، و لكن العباره الثانيه تشرح هذا التفوق حين تقترن بذكر عبارات «المغفره» و «الرحمه»، و بعباره أخرى فإن الفرق بين هاتين العبارتين «درجه» و «درجات» هو الفرق بين المجمل و المفصل.

كما يمكن الاستفاده من عبارته «درجات» على أنها تعنى أن المجاهدين ليسوا كلهم فى درجه أو مستوى واحد، بل تختلف درجاتهم باختلاف درجه إخلاصهم و تفانيهم و تحملهم للمشاق، و تختلف بذلك منزلتهم المعنويه، لأنه من البديهي أن الذين يجاهدون الأعداء فى صف واحد ليسوا جميعا بمستوى جهادى واحد، كلها تختلف درجات الإخلاص لدى كل واحد منهم بالقياس إلى أمثالهم، و لذلك فإن لكل واحد منهم ثوبا خاصا به يتناسب مع عمله الجهادى و نيتته فى هذا العمل.

### الأهميه بالبالغه للجهاد:

إنّ الجهاد قانون عام فى عالم الخلقه، فإنّ كل مخلوق سواء كان من

النباتات أو الحيوانات يسعى لإزاله ما يعترض طريقه من موانع بواسطة الجهاد، لكي يستطيع كل واحد منهم بلوغ الكمال المطلوب في التكوين.

و على سبيل المثال فجذر النبات الذى ينشط للحصول على الغذاء و الطاقه بصوره دائمه، لو ترك نشاطه، هذا و كف عن السعى لاستحال عليه إدامه حياته.

و لذلك فإن هذا الجذر حين يعترض طريقه مانع فى عمق الأرض يحال تخطيه بثقبه، و العجيب هنا أنّ الجذور الرقيقه تعمل فى مثل هذه الحاله كالمسمار الفولاذى فى ثقب الموانع التى تعترضها، فلو عجزت فى هذا المجال لحرفت طريقها و اجتازت المانع عن طريق الالتفات حوله.

و فى داخل وجود الإنسان أيضا و حتى فى ساعات النوم هناك صراع غريب و مستمر ما دام الإنسان حيا، و هو الصراع بين كريات الدم البيضاء و الأجسام المعاديه المهاجمه، فلو أن هذا الصراع توقف لساعه واحده و تخلت الكريات البيض عن الدفاع، لتسلط الجراثيم و المكروبات المتنوعه على كافه أجهزه جسم الإنسان و تعرضت حياته إلى الخطر.

إنّ ما هو موجود فى أوساط المجتمعات و القوميات و الشعوب فى العالم من كفاح من أجل البقاء، هو عين ذلك الكفاح و الجهاد الذى لمسناه فى النبات و فى جسم الإنسان.

و على هذا الأساس فإن كل من يواصل «الجهاد» و «المراقبه» تكون الحياه من نصيبه و هو منتصر دائما-أما الذين تلهيهم عن الجهاد الأهواء و الملذات و الشهوات و الأنانيه و حبّ الذات فلن ينالهم غير الفناء و الدمار عاجلا أو آجلا، و سيحل محلهم أناس يمتازون بالحيويه و النشاط و الكفاح الدؤوب.

و هذا هو الشئ الذى يؤكّد عليه

رسول الله محمد صلى الله عليه و آله و سلم إذ يقول: «فمن ترك الجهاد أبسه الله ذلا و فقرا فى معيشته، و محقا فى دينه، إنّ الله أعزّ أمتى بسنابك خيلها



يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي مَنْاسِبِهِ أُخْرَى: «اغزوا تورثوا أبناءكم مجدا» (٢).

أما

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السَّلام فهو يقول في مستهل خطبته عن الجهاد «...فإنَّ الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصَّه أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينه، وجنته الوثيقه، فمن تركه رغبه عنه ألبسه الله ثواب الدل وشملة البلاء، وديث بالصغار و القماء...» (٣).

و يجب الالتفات إلى أنَّ الجهاد لا يقتصر معناه على الحرب أو القتال المسلح، بل هو أيضا كل سعي حثيث و جهد جهيد يبذل من أجل التقدم نحو تحقيق الأهداف المقدسه-الإلهيه-و من هذا المنطلق فإنَّه بالإضافة إلى الحروب الدفاعيه أو الهجوميه- أحيانا-فإنَّ الكفاح العلمى و المنطقى و الاقتصادى و الثقافى و السياسى يعتبر نوعا من الجهاد.

ص: ٤٠١

---

١-١) -الوسائل، كتاب الجهاد، ج ١، ص ٢ و ١٦.

٢-٢) -الوسائل، كتاب الجهاد، ج ١، ص ٢ و ١٦.

٣-٣) -نهج البلاغه، الخطبه ٢٧.

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ قُتِلْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا (٩٩)

سبب النزول

لقد أذرت رؤساء قريش قبل بدء غزوه بدر جميع الأفراد من أهالي مكة الذين يستطيعون حمل السلاح، أن عليهم أن يتأهبوا لقتال المسلمين، محذرين بأن من يخالف هذا الأمر ستهدم داره و تصادر أمواله، وقد أدى هذا التهديد بنفر من الذين كانوا قد أسلموا في الظاهر، ولكنهم كانوا قد رفضوا الهجرة لشده حبهم لموطنهم ولأموالهم... أدى بهؤلاء إلى أن يرغموا على مشاركة الوثنيين في التحرك إلى ساحه الحرب، وراودهم الشك في انتصار المسلمين لقله عددهم، فكان أن قتلوا و هم إلى جانب المشركين.

فنزلت الآيات المذكوره و حدثت عن المصير الأسود الذي لاقاه هؤلاء بسبب إصرارهم على البقاء في موطن الشرك.

تعقياً للبحوث الخاصّة بالجهاد، تشير الآيات الثلاث الأخيره إلى المصير الأسود الذى كان من نصيب أولئك الذين ادعوا الإسلام و لكنهم رفضوا أن يطبقوا خطه الإسلام فى الهجره، فانحرفوا إلى مزالق رهيبه، فكانت نتيجة انحرافهم أن أصابهم القتل و هم فى صفوف المشركين.

فالقرآن الكريم يذكر كيف أنّ الملائكة لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، يسألونهم عن حالهم فى الدنيا و أنهم لو كانوا حقاً من المسلمين، فلما ذا اشركو فى صفوف المشركين لقتال المسلمين إنّ الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كُنتم... فيجيب هؤلاء بأنهم تعرضوا فى مواطنهم للضغط و أن ذلك أعجزهم عن تنفيذ الأمر الإلهى قالوا كُنا مُستضعفين فى الأرض .

لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم، إذ يرد الملائكة عليهم قائلين: لما ذا لم تتركوا موطن الشرك و تنجوا بأنفسكم من الظلم، و الكبت عن طريق الهجره إلى أرض غير أرضكم من أرض الله الواسعه، قالوا أ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .

و فى النهايه تشير الآيه إلى مصير هؤلاء فتقول بأنّ الذين امتنعوا عن الهجره لأسباب واهيه أو لمصالحهم الشخصيه، و قرروا البقاء فى محيط ملوث و فضلوا الكبت و القمع على الهجره فإن مكان هؤلاء سيكون فى جهنم، و إن نهايتهم و عاقبتهم هناك ستكون سيئه لا محاله: فَأُولَئِكَ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا .

أمّا الآيه الاخرى من الآيات الثلاث المذكوره، فهى تستثنى المستضعفين و العاجزين الحقيقيين لا المزيفين، فتقول: إنّ أولئك الرجال و النساء و الأطفال الذين لم يجدوا لأنفسهم مخرجا للهجره، و لم يتمكنوا من إيجاد وسيله للنجاه من

محيطهم الملوث، فهم مستثنون من حكم العذاب، لأنّ هؤلاء معذورون في الحقيقة، وإنّ الله لا يكلف نفساً ما لا تطيق، إلاّ المُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا .

و الآيه الأخيره من الآيات الثلاث المذكوره تبين احتمال أن يشمل الله بعفوه هؤلاء، إذ تقول: فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا .

وقد يرد هنا سؤال وهو: لو أن هؤلاء الأشخاص كانوا في الحقيقة معذورين، فلما ذا لا تعدهم الآيه بعفو إلهي حتمى، بل تبين احتمال أن يشملهم هذا العفو إذ تأتي الآيه بعبارته «عسى» لتأكيد احتماليه الأمر؟ و جواب هذا السؤال هو نفس الجواب الذى ذكرناه فى ذيل الآيه (٨٤) من سوره النساء و الذى بينا من خلاله أن القصد من استخدام مثل هذه العبارات هو أن الحكم الوارد فى الآيه مقيد بشروط خاصه يجب الالتفات إليها، و هنا يكون الشرط هو أن يتبادر هؤلاء المستضعفون حقيقه إلى الهجره-دون تردد-حتى ما سنحت لهم فرصه ذلك دون أن يقصروا فى هذا الأمر فعند ذلك يشملهم العفو الإلهي.

### نقاط يجب الالتفات إليها:

#### إشارة

#### ١- استقلال الزوج

إنّ الإتيان بكلمه توفى فى الآيه الشريفه الماره الذكر بدلا من ذكر كلمه «الموت» إنّما هو فى الحقيقة إشاره إلى أنّ الموت ليس هو الفناء التام، بل هو حاله تتلقى فيها الملائكه روح الإنسان، أى أن الملائكه يقبضون من الإنسان روحه التى هى جوهر وجوده، فتؤخذ هذه الروح إلى العالم الآخر، و إنّ الإتيان بمثل هذه العباره بصوره متكرره فى القرآن الكريم، يعتبر من أوضح الأدله القرآنيه على قضيه وجود الروح و بقائها بعد الموت، حيث سنتطرق إلى ذلك لدى تفسير

الآيه الخاصه بالروح.

و إن هذا هو جواب أولئك الذين يزعمون أنّ القرآن لم يشر مطلقا إلى قضيه الروح (١).

## ٢- ملك الموت أم ملائكه الموت

لدى البحث فى موارد متعدده من القرآن الكريم (أى حوالى ١٢ موردا) و التى وردت فيها عبارته «توفى» و هى تتحدث عن الموت، نستنتج أن قبض الأرواح يقوم به ملائكه متعددون و ليس ملكا واحدا، و هؤلاء الملائكه هم المكلفون بنقل أرواح بنى آدم من هذه الدنيا إلى العالم الآخر، فى الآيه الماره الذكر ورد اسم الملائكه بصيغه الجمع، و هذا هو أحد الأدله على أن قبض الأرواح يقوم به ملائكه متعددون فنحن.

نقرأ فى الآيه (٦١) من سوره الأنعام قوله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا...**

و هناك من الآيات ما ينسب قبض الروح إلى ملك الموت (٢)، و هذا الملك هو كبير ملائكه قبض الروح الذى ذكر فى الأحاديث باسم «عزرائيل».

و يتضح لنا ممّا سبق جواب من يسأل عن كيفية قيام ملك واحد بقبض أرواح أناس عديدين فى آن واحد و فى مناطق مختلفه.

و مع ذلك فإننا لو افترضنا أنّ هناك ملك واحد فقط لقبض الأرواح لا العديد من الملائكه، فعند هذا الفرض لا يرد أيضا أى معضل، و السبب هو أنّ التجرد الوجودى لهذا الملك يقتضى أن تكون دائره عمله و نفوذه و سيعه متراميه الأطراف بشكل خارق للعادة، لأن أى وجود مجرد عن ماده يمكن أن تكون إحاطته واسعه بما يخص عالم ماده و-

قد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ

ص: ٤٠٥

١-١) -لمعرفه معنى «توفى» من الناحيه اللغويه يرجى مراجعه الجزء الثانى من تفسيرنا هذا.

٢-٢) -سوره السجده.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ سَأَلَ مَلَكَ الْمَوْتِ عَنْ كَيْفِيَةِ إِحْاطَتِهِ بِمَا فِي الْعَالَمِ، أَجَابَهُ هَذَا الْمَلَكُ: «مَا الدُّنْيَا عِنْدِي كُلِّهَا فِيمَا سَخَرَهَا اللَّهُ لِي وَ مَكْنِي عَلَيْهَا إِلَّا كَالدَّرْهِمِ فِي كَفِّ الرَّجْلِ يَقْلِبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ» (١).

و لكننا نرى في بعض الآيات أن قبض الروح ينسب إلى الله عزّ وجلّ: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٢)، وهذا لا يتناقض مع الآيات السابقة، لأن في كثير من الحالات حين يتمّ عمل بوسيله معينه، ينسب فعل هذا العمل تارة للوسيله ذاتها، و أخرى للذي أوجد و صنع هذه الوسيله، و كلا النسبتين صحيحتان.

و الطريف أنّ القرآن قد نسب فعل الكثير من أحداث العالم إلى الملائكة الذين هم مكلفون من قبل الله سبحانه و تعالى، و نحن نعلم أن لعباره «ملائكته» أو «ملك» معانى واسعة تدور بين معنى «الموجودات المجرّده العاقله» إلى معنى «الطاقات و القوى الطبيعیه».

### ٣- من هو المستضعف؟

لدى البحث في الآيات القرآنيه و الأحاديث و الروايات يستنتج أن المستضعف هو ذلك الشخص الذى يعانى من ضعف فكرى أو بدنى أو اقتصادى يمنعه من التعرف على الحق و الباطل، أو أنه ذلك الذى يستطيع التعرف على العقيدته الصادقه الحقه، إلا أنه و لمعاناته من عجز جسمانى أو مالى أو قيود يفرضها عليه المحيط الذى يعيش فيه، يعجز عن أداء واجباته التى كلف بها بصوره كامله، كما يعجز عن القيام بالهجره.

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «و لا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجه فسمعتها أذنه و وعائها قلبه» (٣).

ص: ٤٠٦

١- ١) - تفسير البرهان، الجزء الثانى، ص ٣٩١، هامش الآيه الأولى من سوره الإسراء.

٢- ٢) - من سوره الزمر الآيه ٤٢.

٣- ٣) - نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٣٦.

عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه حين سئل: أى قوم يقال لهم المستضعفون؟ فأجاب عليه السلام: «الضعيف من لم ترفع له حجه، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف» (١).

و واضح من الروايات المذكوره أنّ المستضعف هو ذلك الذى يعانى من ضعف فكرى عقائدى، إلا أنّ الآيه موضوع البحث و الآيه (٧٥) من نفس هذه السوره التى سبق و أن تحدثنا فيها تدلان على أنّ المستضعف هو ذلك الذى استضعف عمليا، فهو يعرف الحق و يميزه، و لكن الكبت الذى يعانى منه فى المحيط الذى يعيش فيه لا يسمح له بالعمل بالحق الذى عرفه.

ص: ٤٠٧

---

١-١) -نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٣٩.

اشاره

وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

التفسير

اشاره

الهجره حكم اسلامي بناء:

بعد أن بحثت الآيات السابقه حول الأفراد الذين يقعون فريسه الذل و المسكنه بسبب عدم إيفائهم بواجب الهجره، تشرح الآيه الأخيره بشكل صريح و حاسم أهميه الهجره في قسمين:

في القسم الأول: تشير هذه الآيه إلى نعم و بركات الهجره في الحياه الدنيا، فتقول إن الذي يهاجر في سبيل الله إلى أى نقطه من نقاط هذه الأرض الواسعه، سيجد الكثير من النقاط الآمنه الواسعه ليستقر فيها، و يعمل هناك بالحق و يرغم أنف المعارضين و مَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ...

و يجب الالتفات إلى أن عبارته «مراغم» مشتقه من المصدر «رغام» على وزن «كلام» و الذى يعنى التراب، و الإرغام معناه التمرغ في التراب و الإذلال



و«مراغم» صيغه لاسم المفعول و اسم مكان أيضا.

وقد وردت في الآيه هذه بمعنى اسم مكان كذلك، أى أنها المكان الذى يمكن فيه تحقيق الحق و تطبيقه و العمل به، كما يمكن فيه إدانته المعارضين للحق و تمريرغ أنفسهم بالتراب.

بعد ذلك تشير الآيه في القسم الثانى منها إلى الجانب المعنوى الأخرى للهجرة: وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، و على هذا الأساس فإن المهاجرين فى كل الأحوال سينالهم نصر كبير، سواء وصلوا إلى المكان الذى يستهدفونه ليتمتعوا فيه بحريه العمل بواجباتهم، أو لم يصلوا إليه فيفقدوا حياتهم فى هذا الطريق، و فى هذا المجال و على الرغم من بدهاه حقيقه تلقى الصالحين أجرهم من الله سبحانه و تعالى، إلا- أن الآيه موضوع البحث قد صرحت بهذا الأمر بقولها:

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...

و هذا يوضح مدى عظمه و أهميه الثواب و الأجر الذى يناله المهاجرون.

### الإسلام و الهجرة:

إنّ الإسلام-استنادا إلى هذه الآيه و آيات كثيره أخرى-يأمر المسلمين بكل صراحه بالهجرة من المحيط الذى يعانون فيه- لأسباب خاصه-من عدم التمكن من أداء واجباتهم إلى محيط و منطق آمنه، و سبب هذا الأمر واضح، لأنّ الإسلام لا يحدّ بمكان و لا يقيد بمحيط معين خاص، و لهذا فإن التمسك المفرط بالمحيط و محل التولد و العلاقات المختلفه الاخرى لا تقف فى نظر الإسلام حائلا دون هجره المسلمين.

و لذلك نرى انفصام كل هذه العلاقات فى الصدر الأوّل للإسلام و من أجل حمايه الإسلام و تقدمه، و فى هذا المجال يقول أحد المؤرخين الغربيين: إنّ

القبيله و العائله هما الشجره الوحيده التى تنبت فى الصحراء، و لن يستطيع أحد الحياه دون اللجوء إليها، إلا أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم قد قلع هذه الشجره التى نمت بلحم و دم عائلته، و فعل ذلك من أجل ربه و خالقه (فقد فصم النبي صلى الله عليه و آله و سلم علاقته بقريش فى سبيل الإسلام) (١).

علاوه على ما ذكر فإن من بين جميع الموجودات الحيه، حين تتعرض حياه أى واحدا أو مجموعه منها إلى الخطر، نراها تضطر إلى ترك مكان تواجدها و الهجره منه إلى مأوى و ملجأ أمن آخر، و الكثير من أبناء البشر الأقدمين عمدوا إلى الهجره من مكان ولادتهم- بسبب تغير الظروف الجغرافيه فيه- إلى نقاط أخرى من العالم من أجل مواصله الحياه، و ليس البشر وحدهم الذين مارسوا الهجره، بل هناك من بين الحيوانات أنواع كثيره عرفت بالحيوانات المهاجره، مثل الطيور التى تضطر أحيانا إلى الدوران حول الأرض تقريبا من أجل إيجاد مأوى تواصل فيه حياتها، و بعض هذه الطيور تهاجر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى، و أحيانا تقطع مسافه حوالى (١٨) ألف كيلومتر للوصول الى المكان الذى تريد العيش فيه.

و هذه الشواهد هى خير دليل على أن الهجره هى إحدى القوانين الخالده للحياه، فهل يصح أن يكون الإنسان أقل حظا من الحيوان فى هذا المجال؟ و حين تتعرض، حياهه المعنويه، و كيانه و أهدافه المقدسه التى هى أئمن و أعلى من حياهه الماديه إلى الخطر، فهل يستطيع هذا الإنسان البقاء فى مكان الخطر متشبثا بالأرض و المولد و غير ذلك متحملا ألوان الذل و الإهانه و الحرمان و سلب الحريات، و الأهم من ذلك كله زوال أهدافه التى يعيش من أجلها؟! أو أن عليه أن يختار قانون الطبيعه فى الهجره، و يترك ذلك المكان، و يختار مكانا آخر يتيسر فيه المجال لنموه المادى و المعنوى؟

ص: ٤١٠

الطريف فى هذا الأمر أنّ الهجره-أى تلك الهجره التى كانت لأجل حفظ النفس و حمايه الشريعه الإسلاميه-تعتبر مبدأ-أو بدايه-التاريخ الإسلامى، و هى بذلك تعد البنيه الأساسيه لكل الأحداث السياسيه و الاعلاميه و الاجتماعيه للمسلمين.

فلننظر لما ذا انتخبت هجره الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مبدأ-أو بدايه-للتاريخ الإسلامى؟ إنّ هذا الموضوع جدير بالملاحظه، لأننا نعلم أن أى مجموعته بشريه صغرت أو كبرت، تتخذ لنفسها مبدأ أو بدايه تاريخيه تحسب منه تاريخها، فالمسيحيون مثلاً اتخذوا بدايه تاريخهم السنه التى ولد فيها عيسى عليه السلام، أما المسلمون فمع وجود أحداث مهمه كثيره وقعت لهم قبل الهجره، مثل يوم ولاده النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و يوم البعثه المحمديه الشريفيه، و فتح مكّه، و وفاه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، لكنهم لم يتخذوا أى واحد من الأحداث مبدأ أو بدايه لتاريخهم، بل اعتبروا حادثه الهجره وحدها بدايه للتاريخ الإسلامى.

إنّ التاريخ يقول أنّ المسلمين بدأوا يفكرون بتعيين بدايه تاريخهم الذى له أهميه عامه و شامله فى زمن الخليفه الثانى الذى توسعت فى عهده رقعه البلاد الإسلاميه-و أنّ المسلمين بعد البحث الكثير فى هذا الأمر، اختاروا رأى على بن أبى طالب عليه السلام باتخاذ حادثه الهجره النبويه الشريفيه مبدأ و بدايه للتاريخ الإسلامى (١).

و الحقيقه أنّ هذا الإختيار كان هو المتعين، لأنّ الهجره كانت أهم و المع حدث أو برنامج حصل للإسلام، و كانت الهجره مبدأ فصل جديد مهم فى التاريخ الإسلامى، فالمسلمون حين وجودهم فى مكّه كانوا يمارسون تعلم شؤونهم

ص: ٤١١

---

١-١) -تاريخ الطبرى، الجزء الثانى، ص ١١٢، و يجب التنبيه إلى وجود رسائل من أيام الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، مذيله بالتاريخ الهجرى. راجع كتاب (مكاتيب الرسول) للأحمدى.

الحياتيه وفق دينهم الجديد(الإسلام)و لم تكن لديهم فى هذه الحاله-على ما يبدو-أى قدره سياسيه و اجتماعيه،و لكنهم بعد الهجره شكلوا مباشره الدوله الإسلاميه التى تقدمت بسرعه فائقه-فى كل المجالات-و لو أنّ المسلمين لم يدعنوا لأمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى اختيار الهجره و فضلوا البقاء فى مكّه،لما تيسر عند ذلك للإسلام أن يمتد خارج حدود مكّه،بل حتى كان من الممكن أن يقبر الإسلام فى مكّه و يمحي أثره.

و يتّضح لنا أنّ الهجره لم تكن حكما خاصا بزمن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم،بل أنّها تجب على المسلمين متى ما تعرضوا لظروف مشابهه لتلك الظروف التى اضطرت النبى و أصحابه صلى الله عليه و آله و سلم إلى ترك مكّه و الهجره إلى المدينه.

و القرآن يعتبر الهجره فى الأساس جوهر لوجود الحريه و الرفاه،و قد أشارت الآيه-موضوع البحث-إلى هذا الأمر،كما أن الآيه (٤١)من سوره النحل تشير من جانب آخر إلى هذه الحقيقه،إذ تقول: **وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَسِبَنَّا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .**

و تجدر الإشارة-أيضا-إلى هذه النقطه،و هى أنّ الهجره فى نظر الإسلام لا تقتصر على الهجره المكانيه و الخارجيه،بل يلزم قبل ذلك أن تتحقق لدى الفرد المسلم هجره باطنيه فى نفسه،يترك بها كل ما ينافى الأصاله و الكرامه الإنسانيه،لكى يتيسر له بهذا السبيل إلى الهجره المكانيه-إذن فالهجره الباطنيه ضروريه قبل أن يبدأ الإنسان المسلم هجرته الخارجيه-و إذا لم يكن هذا الإنسان بحاجة إلى الهجره الخارجيه،يكون قد نال درجه المهاجرين بهجرته الباطنيه.

و الأساس فى الهجره هو الفرار من «الظلمات»إلى «النور»و من الكفر إلى الإيمان،و من الخطأ و العصيان إلى إطاعه حكم الله،لذلك نجد فى الحديث ما يدل على أنّ المهاجرين الذين هاجروا بأجسامهم دون أن تتحقق الهجره فى بواطنهم و أرواحهم،ليسوا فى درجه المهاجرين،و على عكس هؤلاء فإنّ من تتحقق لديه

الهجره الباطنيه الروحيه و لم يتمكن أو لم يحتج إلى الهجره الخارجيه فهو فى عداد المهاجرين حقا.

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام قوله: «و يقول الرجل هاجرت، و لم يهاجر، إنّما المهاجرون الذين يهجرون السيئات و لم يأتوا بها».

و

عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من فر بدينه من أرض إلى أرض و إن كان شبرا من الأرض، استوجب الجنّه و كان رفيق محمّد و إبراهيم عليهما السلام» (١). لأنّ هذين النّبيين هما قاده و أئمّه مهاجري العالم.

ص: ٤١٣

---

١- ١) -نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٤١.

اشاره

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١)

التفسير

اشاره

صلاه المسافر:

بعد الآيات التي تحدثت سابقا عن الجهاد و الهجره، تتطرق الآيه (١٠١) من سوره النساء-التي هي موضوع بحثنا الآن-إلى صلاه المسافر، فتبين أن لا-مانع للمسلم من أن يقصر صلاته لدى السفر إذا خاف من خطر الكافرين الذين هم الأعداء البارزون للمسلمين، وقد عبّرت هذه الآيه عن السفر بالضرب في الأرض، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه لدى السفر (١).

و يرد هنا سؤال: و هو أن الآيه هذه قد جعلت الخوف من العدو شرطاً لقصر الصلاة، بينما نقرأ في البحوث الفقهيّه أنّ حكم صلاه القصر يعتبر حكماً عاماً يشمل جميع أنواع السفر، سواء كان فيه الخوف من الأعداء أو كان سفراً آمناً لا خوف فيه، وقد وردت روايات عديده عن طرق الشيعة و السنه في مجال صلاه

ص: ٤١٤

القصر تؤيد كلها شموليه حكم صلاه القصر لكل أنواع السفر المباح (١).

و في جواب هذا السؤال يجب القول: بأنّ تقييد حكم القصر في صلاه بالخوف قد يكون سببه واحدا من الموارد التاليه:

أ- إنّ القيد جاء بسبب وضع المسلمين في بدايه العصر الإسلامى، و يصطلح على هذا القيد ب«القيد الغالب» أى أنّ أغلب أسفار المسلمين في ذلك الزمن كانت مشوبه بالخوف، و جاء في علم الأصول أنّ القيود الغالبه لا مفهوم لها مستدلا بآيه وَ رَبَّائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ (٢) أى بنات نساءكم اللواتى تربونهنّ و هنّ من أزواج سابقين و هنّ حرام عليكم.

حيث نواجه في هذه الآيه نفس مسأله «القيد الغالب» لأن بنات الزوجه يعتبرن محارم للزوج-سواء تربين في حجره أم لم تربين لديه- و لكن بما أنّ أغلب النساء المطلقات اللواتى يتزوجن مرّه أخرى هنّ نساء شابات لداهنّ أطفال صغار تتمّ تربيتهم في حجر الزوج الجديد، لذلك جاءت الآيه بقيد «حجوركم».

ب- و يعتقد بعض المفسرين أنّ صلاه القصر شرعت في البدايه لزمن الخوف- كما جاء في الآيه موضوع البحث- و إنّ هذا الحكم قد توسع فيما بعد فشمّل جميع الحالات.

ج- و يحتمل أيضا أن يكون في هذا القيد جانب توكيدى، أى أن صلاه القصر لازمه للمسافر أينما كان، و لكن في حاله الخوف من العدو تكون هذه الصلاه مؤكده أكثر.

و على أى حال، فليس هناك من شك أنّ صلاه القصر للمسافر- مع الأخذ

ص: ٤١٥

---

١- ١) - للاطلاع أكثر راجع الجزء الخامس من كتاب وسائل الشيعه، و كتاب سنن البيهقى، الجزء الثالث، ص ١٣٤ و غيرهما من الكتب.

٢- ٢) - النساء، ٢٣.

بنظر الاعتبار الروايات المفسّره لهذه الآيه-لا تقتصر على حاله الخوف، و لهذا السبب فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كان فى أسفاره حتى فى موسم الحج (فى أرض منى) يقصر صلاته.

### سؤال:

و هنا يرد سؤال آخر، و هو أنّ الآيه قد أتت بعبارة وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ و ليس فى هذه العبارة دلالة الحتميه فى الحكم، أى لا تحتم على المسافر أن يقصر صلاته، فكيف يمكن القول أنّ صلاه القصر واجب عينى للمسافر و ليس واجبا تخييريا؟

### الجواب:

لقد وجه هذان السؤالان إلى أئمة الإسلام، فأشاروا لدى الإجابة عليهما إلى نقطتين مهمتين:

التّقطة الأولى: هى أنّ عبارة «لا جناح»، أى لا- ذنب عليكم، قد استخدمت فى بعض الموارد فى القرآن الكريم للدلالة على الوجوب، فمثلا فى آيه: إِنَّ الصَّفاَ وَ المَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتِ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا (١) فى حين أن جميع المسلمين يعرفون أنّ السعى بين الصفا و المروه واجب سواء فى الحج أو العمرة.

و كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و الأئمة عليهم السلام و المسلمون يؤدون السعى بعنوان الواجب...

و قد نقل عن الإمام الباقر عليه السلام حديث بهذا المضمون (٢).

و بعبارة أخرى فإنّ عبارة «لا جناح» فى الآيه موضوع البحث و كذلك فى آيه الحج-جاءت لِنفى التحريم، و السبب هو أنّ بعض المسلمين فى بدء الإسلام، و لوجود أصنام على جبلى الصفا و المروه، كانوا يظنون أنّ السعى بينهما من

ص: ٤١٦

١- ١) - من سوره البقره، الآيه ١٥٨.

٢- ٢) - نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٤٢.



عادات و تقاليد الوثنيين، في حين أنه لم يكن كذلك، فجاءت عبارته «لا جناح» في الآية المذكورة لرفع الوهم الحاصل.

و كذلك في حاله المسافر، من الممكن أن يتوهم البعض أن قصر الصلاه في السفر قد يعتبر نوعا من المعصيه، فجاء القرآن الكريم في الآية بعبارته «لا جناح» لرفع هذا الوهم أيضا.

و النقطة الثانيه: هي أن بعض الروايات قد أشارت إلى أن قصر الصلاه في السفر نوع من التسهيل الإلهي، و تقتضى الأدب أن لا يرد هذا التسهيل و لا يتجاهل.

و في روايات أهل السنه

نقل عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال في موضوع قصر الصلاه: «صدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» (١).

كما ورد مثل هذا الحديث في مصادر الشيعة حيث

ينقل الإمام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قوله بأن: الإفطار في السفر و قصر الصلاه فيه هديتان إلهيتان فمن انصرف عنهما أصبح رادًا لهديه الله (٢).

أمّا النقطة الثالثه: التي يجب الانتباه لها فهي أن بعض المسلمين قد تصوروا أن الآية (١٠١) من سوره النساء تبين حكم صلاه الخائف (أثناء الحروب و أمثال ذلك) و يستدلون لذلك بعبارته «إِنْ خِفْتُمْ الْوَارِدَةَ فِي الْآيَةِ، و لكن جملة إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فِيهَا مفهوم عام يشمل كل أنواع السفر سواء كان من الأسفار الاعتيادية أو كان سفرا من أجل الجهاد، و الذي تناولته الآية التاليه بصوره مستقله.

إذن فعبارته «إِنْ خِفْتُمْ» -و كما أسلفنا- تعتبر نوعا من القيود أو الشروط

ص: ٤١٧

---

١ - ١) - جاء هذا الحديث في سنن البيهقي، الجزء الثالث، ص ١٣٤ نقلا- عن صحيح مسلم، كما ورد في كتب التفاسير و الفقه أيضا.

٢ - ٢) - وسائل الشيعة الجزء الخامس، ص ٥٤٠.

الغالبه، حيث أنّ أغلب أسفار المسلمين في ذلك الزمان كانت مشوبه بالخوف و الخطر-لذلك فلا دلالة على اقتصار الآيه على الصلاه في حاله الخوف، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الخوف من هجوم العدو موجود أثناء الحروب و ليس في محلّه أن يقال لمن في ساحه الحرب إنّ خِفْتُمْ من هجوم العدو، و هذا دليل آخر على أنّ الآيه تشير إلى جميع أنواع السّفر التي يحتمل أن يوجد فيها بعض الأخطار على المسافر.

كما يجب التنبيه إلى أنّ شروط صلاه المسافر لم ترد في القرآن، كما لم ترد شروط و أوصاف بقيه الأحكام الإسلاميه فيه أيضا، بل أشارت إلى ذلك السنّه الشريفه.

و من هذه الشروط أنّ صلاه القصر لا تجب في الأسفار التي لا تبلغ المسافه فيها ثمانيه فراسخ، لأنّ المسافر في تلك الأيام كان يقطع في اليوم الواحد مسافه الثمانيه فراسخ بصوره اعتياديه.

و الشرط الآخر هو أنّ المسافر الذي يتخذ من السّفر حرفه لنفسه أو جزءا من برنامج حياته اليوميّه مستثنى من القصر في الصلاه، لأنّ السّفر بالنسبه إلى أمثال هؤلاء أمر اعتيادي، و ليس أمرا استثنائيا.

كما أنّ من يسافر من أجل ارتكاب معصيه، لا يكون مشمولاً لحكم صلاه المسافر، أي لا يجوز له القصر في الصلاه، و السبب هو أن حكم القصر يعتبر نوعاً من التسهيل الإلهي، و لا يمكن أن يشمل هذا التسهيل من يسير في طريق معصيه الله.

كما أنّ أي مسافر لم يصل إلى حدّ الترخيص (أي إلى النقطة التي لا يمكن سماع صوت أذان المدينه فيها، أو لا يمكن مشاهدته أسوار المدينه عندها) لا يمكنه أن يقصر صلاته، لأنّه في هذه الحاله لا يعد خارجاً عن حدود المدينه و لا يعتبر في عداد المسافرين.

و بالإضافه إلى ما ذكر هناك أحكام أخرى ذكرتها كتب الفقه بالتفصيل، وقد ذكرت الأحاديث التي وردت في هذا الأمر كتب الحديث.

ص: ٤١٩

اشاره

وَ إِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لِنَاتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَ لَآ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)

سبب النزول

نزل النبي صلى الله عليه و آله و سلم مع عدد من المسلمين أرض الحديبيه- وهم في طريقهم إلى مكه- فسمعت قريش بذلك فبعثت بخالد بن الوليد على رأس زمره من مائتى شخص لاعتراض طريق النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين الذين معه و منعهم من الوصول إلى مكه، فاستقر خالد و الذين رافقوه فى الجبال القريبه من مكه.

و لما كان موعد صلاه الظهر، أذن بلال، فصلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالمسلمين جماعه، فشهد خالد بن الوليد صلاه المسلمين ففكر فى خطه للهجوم على المسلمين، و أخبر جماعته أن يغتتموا فرصه أداء المسلمين لصلاه العصر التى

يعتبرونها أعزّ عليهم من أعينهم، فيباغتونهم بهجوم خاطف و هم فى الصّلاه و يقضون عليهم.

و فى هذه الأثناء نزلت الآيه بحكم صلاه الخوف التى تصون المسلمين من كل هجوم خاطف.

و هذه الآيه إحدى معاجز القرآن الكريم حيث أخبرت عن وقوع هجوم قبل قيام العدو بتنفيذه و بذلك أفشلت خطه العدو، و يقال بأنّ خالدًا أعلن إسلامه حال مشاهدته لذلك المشهد بعينه.

## التفسير

### إشاره

بعد آيات الجهاد السابقه تبين هذه الآيه للمسلمين طريقه صلاه الخوف التى تؤدى فى ساحه الحرب، فتخاطب الآيه النبى صلّى الله عليه وآله و سلم قائله: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ... فإذا سجدت جماعه و انقضت الركعه الأولى من الصّلاه، على النبى أن يقف فى مكانه فتؤدى الجماعه-سريعا-الركعه الثانيه و تعود إلى ساحه القتال لمواجهة العدو.

و تأتى بعد ذلك الجماعه الثانيه التى لم تصل بعد، و تأخذ مكان الجماعه الأولى فتصلّى مع النبى: فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ... و على الجماعه الثانيه أن لا تضع أرضا لامة حربها، بل تحتفظ بها معها: وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ... .

و تشير الآيه إلى أنّ أداء الصّلاه بهذا الأسلوب من أجل أن يبقى المسلمون فى مأمن من أى هجوم مباغت قد يقوم به العدو عليهم، لأنّه يتحين الفرص دائما لتنفيذ هذا الهجوم، و يتمنى لو تخلى المسلمون و غفلوا عن أسلحتهم و أمتعتهم ليشنّ عليهم حملته الغادره: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً... .

و لما كان حمل السلاح و الوسائل الدفاعيه الأخرى صعبا أثناء أداء الصلاه فى بعض الأحيان مثل أن يكون بعض المسلمين يعانون من ضعف بدنى أو مرضى أو جراحات تحملوها من ساحه القتال، فيشق عليهم بذلك حمل السلاح أو وسائل الدفاع الأخرى، لذلك تأمر الآيه فى الختام قائله: **وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ .**

و هذا مشروط بأن يحتفظ المسلمون بما يقيهم من وسائل الدفاع كالدرع، و أمثالها حتى فى حاله وجود العذر كالضعف أو المرض، و ذلك لحمايه أنفسهم إذا باغتهم العدو بهجومه إلى أن تصلهم الإمدادات حيث تقول الآيه: **وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ ...**

### **و هنا عدّه ملاحظات جديره بالانتباه، هي:**

١- واضح أنّ الهدف من وجود النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم بين المسلمين فى حال إقامه صلاه الخوف، لا يعنى أنّ هذه الصلاه لا تقام إلاّ بوجود النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم، بل القصد و الهدف هنا فى الآيه هو أن يكون للمقاتلين و المجاهدين إمام أو قائد يتقدمهم و يؤمهم فى صلاه الجماعه أثناء الحرب، و من هذا المنطلق نرى الإمام على و الإمام الحسين عليهما السلام قد أقاما صلاه الخوف، كما أنّ العديد من قادة الجيوش الإسلاميه كحذيفه قد قاموا بهذه العباده الإسلاميه فى ساعات الضروره [\(١\)](#).

٢- الآيه تأمر المجموعه الأولى بأن تحتفظ بسلاحها أثناء أداء صلاه الخوف، لكنها تقول للمجموعه الثانيه أن لا تلقى أرضا بوسائلها الدفاعيه كالدرع و الأسلحه الأخرى.

و من المحتمل أن يكون الفرق بين هاتين المجموعتين هو أنّ العدو قد لا- يكون على علم بعد بخطه المسلمين أثناء أداء المجموعه الأولى لصلاتها، و فى

ص: ٤٢٢

هذه الحالة يكون احتمال هجوم العدو على المسلمين ضعيفا، أمّا بالنسبة للمجموعه الثانيه-حين-ينتبه العدو لمراسم الصّلاه فيكون هجومه على المسلمين أكثر احتمالا.

٣-إنّ القصد من الاحتفاظ بالمتاع المطلوب من المسلمين فى الآيه- موضوع البحث-هو أن يراقب المسلمون وسائلهم الأخرى الحربية و الشخصيه و الغذائيه و الحيوانات التى جلبوها لتكون غذاء لهم،بالإضافه إلى الدفاع عن أنفسهم.

٤-من الواضح أنّ أداء الصّلاه جماعه ليست واجبه فى الإسلام،لكنّها من المستحبات المؤكده كثيرا،و هذه الآيه تعتبر أحد الأدله الحيه على التأكيد بالنسبه لأهميه مراسيم صلاه الجماعه فى الإسلام،بحيث إنّ هذه الصّلاه-صلاه الجماعه-تقام حتى فى ساحه الحرب بالاستفاده من أسلوب و طريقه صلاه الخوف، و يستدل من هذا الموضوع على أهميه الصّلاه نفسها بالإضافه إلى أهميه إقامتها جماعه.

و من الطبيعى أن يكون لصلاه الجماعه تأثير نفسى و معنوى على المقاتلين من زاويه التنسيق فى الهدف،كما أنّ لها تأثير على العدو-أيضا-حين يرى أنّ المسلمين حتى و هم فى ساحه القتال يهتمون بواجباتهم الدينيه.

### **كيفية صلاه الخوف:**

لا يبدو فى الآيه-موضوع البحث-التوضيح اللازم لكيفية أداء صلاه الخوف.و هذا هو أسلوب القرآن إذ يبين كليات الحكم،و يترك شرح الأحكام إلى السنّه الشريفه.

و طريقه أداء صلاه الخوف-كما توضحها السنّه-هى أن تتحول الصّلاه الرباعيه إلى صلاه ثنائيه،أى تحويل صلاه الظهر أو العصر مثلا التى هى أربع

ركعات في كل منهما إلى صلاة بركعتين، فتصلى المجموعه الأولى ركعه واحده مع الإمام، ثم يتوقف الإمام بعد أداء الركعه الأولى فتؤدى المجموعه الأولى الركعه الثانيه فرادى، ثم تعود إلى جبهه القتال، فتأتى المجموعه الثانيه لتأخذ مكان المجموعه الأولى خلف الإمام، فتؤدى الركعه الأولى جماعه مع الإمام و تؤدى الركعه الثانيه فرادى (وقد وردت طرق أخرى لأداء صلاة الخوف، و لكن أشهرها الطريقه التي تحدثنا عنها هنا).



اشاره

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)

التفسير

اشاره

أهميه فريضة الصلاة:

بعد أن ذكرت الآيه السابقه صلاه الخوف، و أكدت ضروره إقامتها حتى في جبهات الحرب، تحت الآيه (١٠٣) المسلمين على أن لا ينسوا ذكر الله بعد أداء الصلاه، وليذكروا الله حين قيامهم و قعودهم و أثناء نومهم على جنوبهم و ليسألوه العون و النصر، و القصد من ذكر الله في حاله القيام و القعود و النوم على الجنين، يحتمل أن يكون في فترات الاستراحه التي تسنح للمسلمين و هم في ساحه الحرب، كما يحتمل أن تكون في الحالات المختلفه للقتال، أى أثناء وقوف المقاتل أو جلوسه أو استلقائه على أحد جنبيه و هو يقاتل بأحد أنواع الأسلحه الحريه كالقوس و السهم مثلاً. (١)

ص: ٤٢٥

١ - ١) - «قيام» تاره يأتى بمعناه المصدرى، (و يعنى به حاله القيام، و تاره يأتى للجمع أى «قائمين» - و «قعود» كذلك أيضاً، فيأتى بمعنى حاله القعود و الجلوس، و يأتى بمعنى «قاعدين» للجمع. و فى الآيه أعلاه يحتمل كلا الأمرين.

إن هذه الآية تشير في الحقيقة إلى أمر إسلامي مهم، يدل على أن أداء الصلاة في أوقات معينة ليس معناه أن ينسى الإنسان ذكر الله في الحالات الأخرى، فالصلاة أمر انضباطي يحيى و يجدد روح التوجه إلى الله لدى الفرد، فيستطيع في أوقات أخرى غير وقت الصلاة أن يحتفظ بذكر الله في ذهنه، سواء كان في ساحه القتال أو في مكان آخر.

وقد فسرت هذه الآية في روايات عديدة على أنها تبين كيفية أداء الصلاة بالنسبة للمرضى، أى أنهم إذا استطاعوا فليؤدوا الصلاة قياماً، وإن لم يقدرُوا على ذلك ففعوداً، وإذا عجزوا عن القعود فعلى أحد جنبيهم.

و هذا التفسير في الحقيقة نوع من التعميم و التوسع في معنى الآية، و لو أنها لا تخص هذا المجال (١).

و تؤكد هذه الآية أن حكم صلاة الخوف هم حكم استثنائي طارئ، و على المسلمين إذا ارتفعت عنهم حاله الخوف أن يؤدوا صلاتهم بالطريقه المعتاده فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة... .

و توضح الآية في النهايه سر التأكيد على الصلاة بقولها إن الصلاة فريضه ثابتة للمؤمنين و أنها غير قابله للتغيير: ...إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .

إن عبارته «موقوت» من المصدر «وقت»، و على هذا الأساس فإن الآية تبين أنه حتى في ساحه الحرب يجب على المسلمين أداء هذه الفريضه الإسلاميه، لأن للصلاة أوقات محده لا يمكن تخطيها (٢).

و لكن الروايات العديده التى وردت فى شرح هذه الآية تبين أن عبارته

ص: ٤٢٦

---

١- ١) - للاطلاع أكثر عن الأحاديث التي وردت في هذا المجال راجع كتاب نور الثقلين الجزء الأول، ص ٥٤٥.  
٢- ٢) - و يؤيد كتاب كثر العرفان، في الجزء الأول، ص ٥٩، هذا المعنى، كما جاء في تفسير التبيان و في مجمع البيان أيضا ذكر هذا الأمر.

«موقوتاً» تعنى «ثابتاً» و«واجباً» ممّا لا ينافى مفهوم الآيه أيضاً، و النتيجة هى أنّهما قريبين من المعنى الأوّل.

### سؤال:

يقول البعض: إنهم لا ينكرون فلسفه و اهميه الصّلاه و آثارها التربويه، و لكنهم يسألون عن ضروره إقامتها فى أوقات محدده، و يرون أن الأحسن أن يترك الناس أحراراً لكى يؤدى كل منهم الصّلاه متى ما سنحت له الفرصه أو متى ما وجد استعداداً روحياً لأداء هذه الفريضه؟

### الجواب:

إنّ التّجربه قد أثبت أنّ القضايا التربويه لو لم تخضع لشروط و قيود معينه، فإنّ العديد من الناس سيتجاهلون و يتركون هذه القضايا، و سيؤدى هذا التّجاهل إلى أن تتزلزل أركانها، لذلك فإنّ القضايا التربويه يجب أن تخضع لقيود خاصه و يخصص لأدائها أوقات محدده، و أن لا يسمح لأحد بتخطى هذه القيود أو تجاهل تلك الأوقات، خاصه و إنّ أداء فريضه كالصّلاه و فى وقت معين و بصوره جماعيه يظهر عظمتها و هيبتها و تأثيرها القوى الذى لا يمكن لأحد نكرانه، و الصّلاه فى الحقيقه من أهمّ العوامل فى تربيّه الإنسان و تكوين شخصيته الإنسانيه.

ص: ٤٢٧

اشاره

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا  
(١٠٤)

سبب النزول

اشاره

فرع السلاح بسلاح يشابهه:

روى عن ابن عباس و مفسرين آخرين أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ-بعد الأحداث الأليمه لواقعه أحد-صعد إلى جبل أحد و كان على الجبل أبو سفيان، فخاطب النبي بلهجه الفاتح بقوله:«يا محمّد يوم بيوم بدر!»و عنى أبو سفيان بذلك أن انتصارهم فى أحد كان مقابل هزيمتهم فى واقعه بدر.

فطلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من المسلمين أن يردوا عليه فوراً،و لعل النبي أراد أن يثبت لأبى سفيان إنّ من تربوا فى ظل الرساله الإسلاميه يتمتعون بكامل الوعى، فرد المسلمون على أبى سفيان:هيهات أن يستوى الوضع بين المؤمنين و المشركين،فشهداء المؤمنين فى الجنّه و قتلى المشركين فى النار.

فأجاب أبو سفيان-صارخا و مفتخرا-بالعباره التاليه:

«لنا العزى و لا عزى لكم»فردّ عليه المسلمون:

«اللّٰه مولانا و لا مولى لكم» و لما عجز أبو سفيان عن الردّ على هذا الجواب و الشعار الإسلامى الحى تخلى عن صنمه «العزى» و عرج على صنم آخر هو «هبل» متوسلا إليه بقوله: «أعل هبل، أعل هبل» فردّ عليه المسلمون بجواب قوى علّمهم إياه نبي الإسلام صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو:

«اللّٰه أعلى و أجل».

فما أعت أبأ سفيان الحيله و لم تجده شعاراته الوثنيه نفعا قال صارخا:

«موعدنا فى أرض بدر الصغرى».

عاد المسلمون من ساحه القتال متخنين بالجراح، و حين كان يعتصرهم الألم من أحداث أحد، نزلت الآيه المذكوره أعلاه محذره المسلمين من الغفله عن المشركين مطالبه إياهم بملاحقه قوى الشرك دون كلل أو ملل، و أن لا يتأثروا بحوادث مؤلمه كحادثه أحد، فهب المسلمون و هم فى تلك الحاله لملاحقه العدو، فما أن سمع المشركون بعزم المسلمين حتى أسرعوا الخطى مبتعدين عن المدينه و عادوا إلى مكّه (١).

إنّ سبب التّزول هذا يعلمنا أنّ المسلمين يجب أن لا يغيب عن بالهم أنواع التكتيك الذى يستخدمه العدو، و أن يواجهوا كل أسلوب حربى يتبعه العدو، سواء الأسلوب القتالى أو النفسى بأسلوب إسلامى أقوى، و أعنف من أسلوب العدو، و أن يواجهوا منطق الأعداء بمنطق أقوى و أشد، و يقابلوا سلاحهم بسلاح أمضى، و حتى شعارات الأعداء يجب أن تقابل بشعارات إسلاميه ضاربه، و بغير ذلك فإنّ الرياح ستجرى بما يشتهي الأعداء.

و من هذا المنطلق، فإنّنا نحن المسلمين -بدلا من أن نجلس و نذرف الدموع على ما مر و يمر علينا من أحداث مؤلمه مريره، و ما تشهده مجتمعاتنا من مفاسد رهيبه تحيط بهذه المجتمعات من كل جانب، علينا أن نبادر بصوره فعاله إلى

ص: ٤٢٩

العمل، فنواجه العدو والمكتوب بكتابات تدحضه و تقمعه، ونواجه الإعلام الضال المسموم المضلل بأسلوب إعلامي يحبطه و يقضى على أمره، ونقابل مراكز اللهو الخليع ببناء مراكز للهو البريء السليم لشبابنا و أبنائنا، ونقرع الأفكار و الأطروحات و المذاهب السياسيه و الاقتصاديه و الاجتماعيه بالفكر الإسلامى الجامع بأسلوب عصرى يفهمه الجميع.

و إذا استطعنا أن نواجه أعداءنا بهذه الصورة فقد أفلحنا فى الحفاظ على كياننا الإسلامى، و فى أن نبرز للعالم بشكل مجتمع تقدمى أصيل.

## التفسير

أعقبت الآيه-موضوع البحث هذه-الآيات السابقه التى تحدثت عن الجهاد و الهجره و استهدفت إحياء روح التضحيه و الفداء لدى المسلمين بقولها:

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ

و هذا تأكيد على ضروره أن لا يواجه المسلمون عدوهم اللدود بأسلوب دفاعى، بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجوميه دائما، لأن هذا الأسلوب الأخير له أثر قامع للعدو و مؤكد على معنوياته.

و قد جرب المسلمون هذا الأمر فى مواجهتهم للعدو بعد واقعه أحد التى هزموا فيها، فارغموا العدو على الفرار مع أنه كان لم يزل يتلذذ بطعم الإنتصار الذى أحرزه فى أحد. إذ لما علم المشركون بقدوم المسلمين خافوا من العوده إلى ساحه القتال، و أسرعوا مبتعدين عن المدينه.

بعد ذلك تأتى الآيه باستدلال حى و واضح للحكم الذى جاءت به، فتسأل المسلمين لما ذا الوهن؟ فأنتم حين يصيبكم ضرر فى ساحه الجهاد فإن عدوكم سيصيبه هو الآخر سهم من هذا الضرر، مع فارق هو أن المسلمين يأملون أن يعينهم الله و يشملهم برحمته الواسعه، بينما الكافرون لا- يرجون و لا- يتوقعون ذلك، حيث تقول الآيه: **إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ...**

و فى الختام-و من أجل إعاده التأكيد-تطلب الآيه من المسلمين أن لا ينسوا علم الله بجميع الأمور،فهو يعلم معاناه المسلمين و مشاكلهم و آلامهم و مساعيهم و جهودهم،و يعلم أنهم أحيانا يصابون بالتهاون و الفتور،فتقول الآيه:

وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

و سيرى المسلمون نتيجة كل الحالات تلك.

ص: ٤٣١

اشاره

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦)

سبب النزول

لقد نقلوا واقعه مفصله عن سبب نزول الآيتين المذكورتين، خلاصتها أنّ في قبيله بنى الأبيرق المعروفه نسيبا كان ثلاثة أشقاء هم «بشر» و«بشير» و«مبشر» سطا أحدهم وهو «بشير» على دار أحد المسلمين و يدعى «رفاعه» فسرق سيفه و درعه و كميّه من الغداء، و كان ابن أخيه و يدعى «قتاده» من مجاهدى بدر فأخبر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالواقعه.

و لكن الأشقاء الثلاثة اتهموا شخصا من المسلمين اسمه «لييد» الذى كان يسكن فى دار واحد معهم، فتألم لييد ألما شديدا من هذه التهمه الباطله و استل سيفه و توجه إلى الأشقاء الثلاثة صارخا فى وجوههم قائلا: «ا تتهموننى أنا بالسرقه و أنتم أجدر بهذا العمل؟ فأنتم هم أولئك المنافقون الذين كنتم تهجون النبى و تنسبون أبيات الهجو إلى قريش، فأما أن تثبتوا ما تنسبونّه لى من تهمه، أو أن أهوى بسيفى على رؤسكم».



فلما رأى أخوه السارق ذلك حاولوا استرضاء «ليبد» ولكنهم لما علموا أنّ القضية قد وصلت إلى أسمع النبي بواسطة «قتاده» لجؤوا إلى أحد متكلمي قبيلتهم فطلبوا منه أن يذهب مع جمع من الناس إلى النبي و يتظاهر بأنّ الحق إلى جانبهم ليبرئ السارق و يتهم «قتاده» بتلفيق التهمه على شقيقهم، و قد قبل النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم استنادا إلى واجب العمل بظاهر الأمور-شهاده تلك المجموعه و أنّ «قتاده» على عمله.

و قد تألم «قتاده» الذي كان يعرف نفسه برئيا... تألم من هذه الواقعة و عاد إلى عمّه و أخبره بالحادث مظهرا أسفه الكبير لما حصل، فخفف عليه عمّه و قال «لا- تحزن يا قتاده إن الله في عوننا» فنزلت الآيتان المذكورتان لتعلننا براءه الرجل، و تؤنبا مرتكبي الخيانه الحقيقيين.

و نقلوا- أيضا- واقعه أخرى في سبب نزول الآيتين، و هي أن درعا لأحد الأنصار كانت قد سرقت في إحدى الحروب، و كان الشك يدور على شخص من قبيله «الأبيرق» في سرقة ذلك الدرع، و لما علم السارق بأنّ الشكوك بدأت تدور حوله رمى الدرع في دار أحد اليهود، و طلب من قبيلته أن يشهدوا ببراءته أمام النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و يستدلوا بذلك على وجود الدرع في دار اليهودي، و لمّا رأى النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم الأمر بتلك الصورة برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهاده التي جاءت لصالحه و أدين الرجل اليهودي بسرقة الدرع، فنزلت الآيتان المذكورتان لتوضحا الحقيقه.

## التفسير

## إشارة

## منع الدفاع عن الخائنين:

يعرف الله سبحانه و تعالى- في بدايه الآيه (١٠٥) من سوره النساء- نيّه محمّدا صلّى الله عليه و آله و سلّم بأنّ الهدف من إنزال الكتاب السماوي هو تحقيق مبادئ الحق

و العدالة بين الناس، إذ تقول الآية: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ... .

ثم يحذّر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من حمايه الخائنين أبدا بقوله: وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا .

و مع أنّ الآية خطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و لكن ممّا لا شك فيه هو أنّ هذا الحكم حكم عام لجميع القضاة و المحكمين، و بهذا الدليل فإنّ مثل هذا الخطاب ليس المفهوم منه أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تبدر منه مثل هذه الأعمال، لأن الحكم المذكور يشمل جميع الأفراد.

□ □  
أمّا الآية الأخرى فهي تأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بطلب المغفره من الله سبحانه و تعالى، إذ تقول: وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

و حول سبب الاستغفار المطلوب في هذه الآية توجد احتمالات عديده، هي:

الأول: إنّ الاستغفار هو لترك الأولى الذي حصل بسبب الاستعجال في الحكم في القضيّه التي نزلت بسببها الآيتان، أي مع أنّ ذلك القدر من الاعتراف، و شهاده الطرفين كان كافيا لإصدار الحكم من قبل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، إلاّ أنّه كان الأخرى أن يجرى تحقيق أكثر في ذلك المجال.

و الثاني: هو أنّ النبي قد حكم في تلك القضيّه وفقا لقوانين القضاء الإسلامي، و بما أنّ الأدله التي جاء بها الخائنون كانت بحسب الظاهر أقوى، لذلك أعطى الحق لهم، و بعد انكشاف الحقيقه و وصول الحق إلى صاحبه يأتي الأمر بطلب المغفره من الله، ليس لذنب مرتكب، بل لتعرض حق فرد مسلم إلى خطر الزوال بسبب خيانه البعض من الأشخاص (أي أن الاستغفار بحسب الاصطلاح- لأجل الحكم الحقيقي لا الحكم الظاهري).

و قد احتمل البعض أن يكون الاستغفار مطلوبا من طرفي الدعوى اللذين

ظهر منهما الخلاف في عرض و متابعه دعواهما.

و

في حديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَ لَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ الْحَنُّ بِحِجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ» (١).

يتبين لنا من هذا الحديث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَكْلَفٌ بِالْحُكْمِ وَفَقًا لظَاهِرِ الْقَضِيَّةِ وَاسْتِنَادًا إِلَى أَدْلِهِ طَرَفِي الدَّعْوَى، وَبَدِيهِي أَنَّ الْحَقَّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ يَصِلُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَيَحْتَمِلُ أحيانًا أَنْ لَا يَنْطَبِقُ ظَاهِرُ الدَّلِيلِ وَشَهَادَةُ الشُّهُودِ مَعَ الْحَقِيقَةِ، فَيَجِبُ الْإِتْبَاهُ هُنَا إِلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يَغْيِرُ مِنَ الْحَقِيقَةِ شَيْئًا فَلَا يَصْبِحُ الْحَقُّ بَاطِلًا وَ لَا الْبَاطِلُ حَقًّا.

ص: ٤٣٥

---

١- ١) - تفسير المنار، الجزء الخامس، ص ٣٩٤، نقلا عن صحيحى مسلم و البخارى.

اشاره

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسِهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مِمَّا لَا يُرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)

التفسير

بعد الآيات التي جاءت بتحريم الدفاع عن الخائنين، تستطرد الآيات الثلاث الأخيره في التشديد على حرمة الدفاع عن الخائنين، بالأخص أولئك الذين يخونون أنفسهم.

و يجب الانتباه هنا إلى أن الآية (١٠٧) تشير إلى الذين يخونون أنفسهم، بينما الذي عرفنا من سبب نزول الآيات السابقه، هو أنها نزلت في شأن الذين يخونون الغير، و في هذا إشاره إلى ذلك المعنى الدقيق الذي ينبه إليه القرآن في العديد من الآيات، و هو أن أى عمل يصدر عن الإنسان يتأثر بنتيجته-سواء كانت حسنه أو سيئه-الإنسان ذاته قبل غيره، كما جاء في الآية (٧) من سوره

الإسراء، إذ تقول إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .

أو أنّ الآيه المذكوره تشير إلى موضوع آخر أكد عليه القرآن أيضا، وهو أن جميع أفراد البشر هم جميعا كأعضاء جسد واحد، فإذا أضر أحدهم بغيره فكأنما أضرّ بنفسه، أى يكون بالضبط كالذى يصنع نفسه بنفسه.

و الأمر الآخر فى الآيه أنّها لا تخص الذين يرتكبون الخيانه لمرّه واحده ثمّ يندمون على ما فعلوا، حيث لا ضروره لاستعمال العنف و الشده مع هؤلاء، بل هم بحاجه إلى الرأفه أكثر، و الشده يجب أن تطبق على أولئك الذين يحترفون الخيانه و تكون جزءا من حياتهم.

و يدل على هذه القرينه الوارده فى الآيه من خلال عبارته يَخْتَانُونَ التى هى فعل مضارع يدل على الاستمراريه، بالإضافة إلى القرينه الأخرى التى تفهم من عبارتى خَوَانًا أى كثير الخيانه و أَيْمًا أى كثير الذنب، و الكلمه الأخيره جاءت لتأكيد عبارته «خوان» فى الآيه، كما أنّ الآيه السابقه جاءت بكلمه «خائن» التى هى اسم فاعل و التى لها معنى و صفى يدل على تكرار الفعل.

لقد تعرض الخائنون فى الآيه الأخرى إلى التوبيخ، حيث قالت أن هؤلاء يستحيون أن تظهر بواطن أعمالهم و سرائرهم و تنكشف إلى الناس، لكنهم لا يستحيون لذلك من الله سبحانه و تعالى، إذ تقول الآيه: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ... فلا يتورع هؤلاء من تدبير الخبط الخيانيه فى ظلام الليل، و التحدث بما لا يرضى الله الذى يراهم و يراقب أعمالهم، أينما كانوا: وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا .

بعد ذلك تتوجه الآيه (١٠٩) من سوره النساء بالحديث عن شخص السارق الذى تمّ الدفاع عنه، و تقول بأنه على فرض أن يتمّ الدفاع عن هؤلاء فى الدنيا فمن يستطيع الدفاع عنهم يوم القيامه، أن من يقدر أن يكون لهؤلاء و كيلا ليرتب أعمالهم و يحل مشاكلهم؟! حيث تقول الآيه: هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي

الْحَيَاءِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا

و لذلك فإنّ الدفاع عن هؤلاء الخونه في الدنيا ليس له أثر إلا القليل، لأنهم سوف لا يجدون أبدا من يدافع عنهم أمام الله في الحياه الآخره الخالده.

و الحقيقه هي أنّ الآيات الثلاث الأخيره تحمل في البدايه إرشادات إلى النّبي صلّى الله عليه وآله و سلّم و إلى كل قاض يريد أن يحكم بالحق، بأنّ يتبها حتى يفوتوا الفرصه على أولئك الذين يريدون انتهاك حقوق الآخرين، عبر وسائل مصطنعه و شهود مزورين.

بعد ذلك تحذر الآيه الخائنين و من يدافع عنهم، بأنّ ينتظروا عواقب سيئه لأعمالهم في هذه الدنيا و في الآخره أيضا.

و في تلك الآيات سر من أسرار البلاغه القرآنيه، حيث أنّها أحاطت جميع جوانب القضييه و أعطت الإرشادات و التحذيرات اللازمه في كل مورد، مع أنّ موضوع القضييه يبدو موضوعا صغيرا بحسب الظاهر، إذ يدور حول درع مسروقه أو مواد غذائيه أو يهودى من أعداء الإسلام.

و قد تناولت الآيه-أيضا-الإشاره إلى النّبي صلّى الله عليه وآله و سلّم الذى يعتبر إنسانا معصوما عن الخطأ، كما أشارت إلى الأفراد الذين يحترفون الخيانه، أو الذين يدافعون عن الخائنين اندفاعا وراء عصبيات قبلية، إشارات تتناسب و منزله الأشخاص المشار إليهم في الآيات المذكوره.

اشاره

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَ إِثْمًا مُبِينًا (١١٢)

التفسير

اشاره

لقد بينت هذه الآيات الثلاث، ثلاثه أحكام كليه بعد أن تطرقت الآيات السابقه إلى مسائل خاصه بالخيانة و التهمه.

١-لقد وردت في الآيه (١١٠) من الآيات الثلاث أعلاه الإشاره أولاً إلى هذه الحقيقه و هى أن باب التوبه مفتوح أمام المسيئين على كل حال، فإذا ارتكب أحد ظلماً بحق نفسه أو غيره، و ندم حقيقه على فعلته، أو استغفر الله لذنبه، و كفر عن خطيئته فيجد الله غفوراً رحيماً، حيث تقول الآيه: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا .

٢-يجب الانتباه إلى أن الآيه الأولى تشير إلى نوعين من الذنوب، حيث جاءت فيها كلمه «سوء» و كلمه «الظلم» للنفس، و لدى النظر إلى قرينه المقابله، و كذلك الأصل اللغوى لعباره «سوء» التي تعنى هنا الإضرار بالغير، يفهم من الآيه

أنّ أى نوع من الذنوب-سواء كانت من نوع الإضرار بالغير،أو الإضرار بالنفس قابله للغفران إذا تاب فاعلمها توبه حقيقه و سعى إلى التكفير عنها.

□  
و يفهم-أيضا-من العبارة القرآنيه: يَجِدُ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا إِنَّ التَّوْبَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَهَا مِنَ الْأَثْرِ بَحِيثٌ يَجِدُ الْإِنْسَانَ التَّائِبَ نَتِيجَتَهَا فِي بَاطِنِ نَفْسِهِ،فَمِنْ نَاحِيَةٍ فَإِنَّ تَأْنِيْبَ الضَّمِيرِ الَّذِي يَخْلُقُهُ ارْتِكَابُ الذَّنْبِ يَزُولُ عَنِ الْمَذْنُوبِ التَّائِبِ نَظْرًا لِلْغُفْرَانِ الَّذِي يَنَالُهُ مِنَ اللَّهِ الْغُفُورِ،و مِنْ جَانِبٍ آخَرَ يَحْسُ الْإِنْسَانُ التَّائِبُ بِالْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ كَانَ يَحْسُ بِالْبَعْدِ عَنْهُ بِسَبَبِ الذَّنْبِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ.

٣-إنّ الآيه الثانيه من الآيات الثلاث الأخيره،تحكى نفس الحقيقه التى وردت بصوره إجماليه فى الآيات السابقه،حيث تؤكّد أنّ أى ذنب يقترفه الإنسان ستكون نتيجته فى النهايه على المذنب نفسه،و يكون قد أضّرّ بنفسه بذنبه،إذ تقول الآيه: وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّهُ يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ... .

□ □  
و فى آخر الآيه تأكيد على أنّ الله عالم بأعمال العباد،و هو حكيم يجازى كل إنسان بما يستحقه: وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

و بالصوره الماره الذكر فإنّ الذنوب مهما اختلفت فى الظاهر،فإنّ اضرارها ستلحق أحيانا بالغير و تلحق أحيانا أخرى بمرتكبها،و لكن بالتحليل النهائى، فإنّ الذنب تعود نتيجته كلها إلى الإنسان المذنب نفسه،و إن الآثار السيئه للذنب تظهر قبل كل شىء فى روح و نفس الشخص المذنب.

٤-أمّا الآيه الثالثه من الآيات الأخيره،فهى تشير إلى خطوره خطيئه اتهام الناس الأبرياء،إذ تقول: وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

و قد قسمت هذه الآيه الذنب الذى يرتكبه شخص و ينسبها زورا إلى غيره، إلى قسمين:سمت الأول بالخطيئه،و الثانى بالإثم.



وقد قال المفسِّرون الكثير في شأن الفرق بين هذين النوعين من الذنب، و أقرب الأقوال إلى الذهن هو أنّ الخطيئه مشتقه من الخطأ، و الذى يعنى فى الأصل: الزلل أو الذنب الذى يصدر دون قصد من صاحبه، و يكون أحياناً مشمولاً بالكفاره و الغرامه لكن معنى الخطيئه قد توسع تدريجياً، و أخذ يشمل كل ذنب سواء المتعمد أو غير المقصود، حيث أنّ روح الإنسان لا تحتمل الذنب- أ كان عمداً أو عن غير عمد- و حين يصدر الذنب من الإنسان إنّما هو فى الحقيقه نوع من الزلل و الخطأ الذى لا يناسب مقامه كإنسان.

و النتيجة من هذا القول أنّ الخطيئه لها معنى واسع يشمل الذنب المتعمد و الذنب الصادر عن غير عمد، أمّا كلمه «إثم» فتطلق عادة على الذنوب الصادره عن عمد، و تعنى- فى الأصل- ذلك الشئ الذى يمنع الإنسان من عمل معين، و لما كانت الذنوب تحول دون وصول الخيرات إلى الإنسان فقد سميت «إثماً».

و تجدر الإشارة إلى أنّ الآيه استخدمت كناية جميله بالنسبه للتهمه، و هى أنّها جعلت الذنب فى هذا المجال كالسهم، و جعلت نسبته إلى الغير زوراً بمتابته رمى السهم صوب الهدف، و هذه إشاره إلى أنّه فى حين أنّ تصويب السهم نحو إنسان آخر قد يؤدى إلى القضاء عليه، فإنّ رمى الإنسان البرىء بذنوب لم يقترفه يكون بمتابته رميه بسهم يقضى على سمعته التى هى بمنزله دمه.

و بديهي أنّ وزر و عاقبه هذا العمل تكونان فى النهايه- و إلى الأبد- على عاتق الشخص الذى ينسب التهمه زوراً إلى غيره، و أنّ عبارته «احتمل» الوارده فى الآيه تعنى أخذ على عاتقه إنّما جاءت للدلاله على ثقل و بقاء هذه المسؤوليه!

### جريمه البهتان:

إنّ اتهام إنسان برىء يعتبر من أقبح الأعمال التى أذانها الإسلام بعنف، و إنّ

الآية المذكوره أخيرا التي وردت بهذا الشأن-بالإضافة إلى الروايات الإسلاميه العديده التي إلى جانبها-توضح رأى الإسلام الصريح عن هذا العمل.

ينقل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أحد الحكماء أنه قال: «أن البهتان على البريء أثقل من جبال راسيات» (١) و

نقل عنه عليه السلام قوله: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء» أى أن الإيمان يذوب و يزول من قلب المؤمن بسبب اتهامه لأخيه المؤمن، كما يذوب الملح في الماء و يزول عن النظر (٢).

فالتهمه و البهتان-في الحقيقه-هما أقبح أنواع الكذب، لأنهما بالإضافة إلى احتوائهما لمفاسد الكذب، فإنهما أيضا يحملان أضرار الغيبه، و هما كذلك من أسوأ أنواع الظلم و الجور و لهذا السبب

يقول صلى الله عليه و آله و سلم بهذا الخصوص: «من بهت مؤمنا أو مؤمنه أو قال فيهما ما ليس فيهما أقامه الله تعالى يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج مما قاله» (٣).

و حقيقه الأمر أن إشاعه مثل هذا العمل الجبان-فى أى محيط إنسانى كان- يؤدى فى النهايه إلى انهيار نظام العدالة الاجتماعيه، و اختلاط الحق بالباطل، و تورط البريء و تبرئه المذنب، و زوال الثقة من بين الناس.

ص: ٤٤٢

١-١) -سفينه البحار، الجزء الأول، فى ماده بهت.

٢-٢) -أصول الكافي، الجزء الثانى، ص ٢٦٩، باب التهمه و سوء الظن.

٣-٣) -سفينه البحار، الجزء الأول، ص ١١١.

اشاره

وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)

التفسير

اشاره

فى هذه الآيه الكريمه اشاره اخرى إلى حادته «بنى الأبيرق» التى تحدثنا عنها لدى تطرقنا إلى سبب النزول فى آيات سابقه، و هذه تؤكد أن الله قد صان النبى صلى الله عليه و آله و سلم بفضله و رحمته-سبحانه و تعالى-من كيد بعض المنافقين الذين كانوا يأترون به صلى الله عليه و آله و سلم ليحرفوه عن طريق الحق و العدل، فكانت رحمه الله أقرب إلى نبيه فصانته من كيد المنافقين، حيث تقول الآيه: وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ .

لقد سعى أولئك المنافقون-من خلال اتهامهم لشخص برىء و جرّ النبى و توريطه فى هذه الحادته-إلى إلحاق ضربه بشخصيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم الاجتماعيه و المعنويه أولاً، و تحقيق مآربهم الدينيه بحق إنسان مسلم برىء ثانياً، و لكنّ الله العزيز العليم كان لهم بالمرصاد، فصان نبيه صلى الله عليه و آله و سلم من تلك المؤامره و أحبط عمل المنافقين.

و يذكر بعض المفسرين سببا آخر لنزول هذه الآية و هو أنّ جماعه من قبيله «بنى ثقيف» وردوا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم فذكروا له أنّهم مستعدون لمبايعته بشرطين:

الأول هو أن يرغم أفراد هذه القبيله على كسر أصنامهم بأيديهم، والثانى أن يسمح النبي لهم بأن يواصلوا عباده صنمهم (العزى) لسنه واحده أخرى! فنزل أمر الله على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يبدى أیه مرونه أمام هؤلاء، حيث نزلت الآية المذكوره و أعلنت بأن فضل الله و رحمته قد شملت النبي و صانته من تلك الوسوس.

بعد ذلك تذكر الآية أن هؤلاء القوم إنما يرمون بأنفسهم فى الضلاله و لا يضرّون بعملهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم شيئا، إذ تقول... **وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ... .**

و أخيرا توضح الآية سبب عصمه النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن الخطأ و الزلل و الذنب، فتذكر أنّ الله أنزل على نبيه الكتاب و الحكمة و علمه ما لم يكن يعلم من قبل:

**وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ...**

ثم تردف الآية ذلك بجملة: **وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا .**

#### مصدر عصمه الأنبياء!:

إنّ هذه الآية الأخيره من الآيات التى تشير إلى عصمه النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن ارتكاب الخطأ و السهو و الذنب، فتقول بأنّ العون الإلهي الذى شمل النبي صلى الله عليه و آله و سلم هو الذى صانه من الخطأ و الضلاله التى كان يريد المنافقون أن يوقعوه فيها، و لكنّهم و بفضل هذه المعونه الإلهيه عجزوا عن تحقيق مآربهم، و لم يلحق النبي صلى الله عليه و آله و سلم أى ضرر نتيجة كيد المنافقين.

و هكذا فقد عصم الله نبيه و صانه من كل خطأ أو سهو أو ذنب، كى يستطيع النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يصبح قدوه و أسوه للامة الإسلاميه و نبراسا لها فى فعل الخيرات

و الحسنات، و قد صانه الله العزيز القدير من عواقب كل خطأ يحتمل أن يقع فيه أى زعيم، لكى يبعد الأمة الإسلاميه عن الحيره فى قضيه إطاعه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و ليجنبها التناقض بين فعلى الطاعه و عدمها، نعم لقد عصم الله نبيه محمدا صلى الله عليه و آله و سلم من كل خطأ، لكى يضمن له ثقه المسلمين الكامله به، حيث تعتبر هذه الثقه من أولويات شروط الزعامه الإلهيه.

و قد ورد فى آخر الآيه دليل من الأدله الأساسيه لقضيه العصمه بشكل مجمل، و هذا الدليل هو قوله تعالى أنه علم نبيه صلى الله عليه و آله و سلم من العلوم و المعارف التى يكون النبى فى ظلها مصونا من الوقوع فى أى خطأ أو زلل، و لأن العلم و المعرفه تكون نتيجتهما فى المرحله النهائيه حفظ الإنسان من ارتكاب الخطأ.

فالطبيب-مثلا-لا يقدم أبدا على شرب ماء ملوث بأنواع الجراثيم الفتاكه، بعد أن أجرى عليه الفحوصات المخبريه و اكتشف تلوثه بتلك الجراثيم الخطيره.

نستنتج من هذا المثل أن علم الطب الذى تعلمه هذا الطبيب، هو السبب فى حفظه و منعه من شرب الماء الملوث بالجراثيم القاتله، فقد وفر هذا العلم العصمه و المصونه للطبيب حيال ارتكاب مثل هذا الخطأ، لكن الإنسان الذى يجهل خطوره ذلك الماء يحتمل كثيرا أن يقدم على شربه.

و هكذا يتبين أن مصدر الكثير من الأخطاء هو الجهل بمقدمات العمل أو مستلزماته أو عواقبه، لذلك فإن من يحاط عن طريق الوحي الإلهى إحاطه كامله بالقضايا المختلفه و مقدماتها و مستلزماتها و عواقبها لن يقع فى خطأ، و لن يرتكب أى زلل أبدا، و لن يضل الطريق، و لن يمارس ذنبا مطلقا.

و يجب أن لا نقع فى الوهم هنا، فإن هذا العلم الذى بحوزه النبى صلى الله عليه و آله و سلم من جانب الله سبحانه و تعالى ليس عملا- مفروضا و لا- يحمل طابع القسر و الإجبار، أى أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليس مجبورا أبدا على أن يعمل بعلمه، بل أنه يمارس عمله بكامل اختياره، فكما أن الطبيب الذى ذكرناه فى مثلنا السابق مع علمه بحاله

الماء الملوث فإنه ليس مرغما على عدم شرب هذا الماء، بل هو بإرادته المطلقة يمتنع عن شربه.

و إذا تساءل أحد: لما ذا شمل الله نبيه وحده بهذا الفضل الإلهي، و لم يشمل الآخرين؟ كان الجواب: إن ذلك قد حدث للمسؤوليه العظيمه و الخطيره التي تتضمنها قياده التي أنيطت بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و حمل أعبائها الثقيله على عاتقه، و لأن الآخرين لا يحملون مثل هذه الأعباء الثقيله، لذلك فإن الله اللطيف الخبير يهب لعبده من قدره و الطاقه بمقدار ما يضع على عاتق هذا العبد من مسؤوليات، و لن يكلف الله نفسا إلا و سعتها فيجب التعمق في هذا الأمر.

ص: ٤٤٤

اشاره

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِتِّغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)

التفسير

اشاره

النجوى أو الهمس:

لقد أشارت الآيات السابقة إلى اجتماعات سرية شيطانية كان يعقدها بعض المنافقين أو أشباههم، وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى هذا الأمر بشيء من التفصيل، وكلمة «النجوى» لا تعنى الهمس فقط، بل تطلق على كل اجتماع سرى أيضا، لأنها مشتقة من المادة «نجوه» على وزن «دفعه» أى بمعنى الأرض المرتفعه، و بما أنّ الأرض المرتفعه تكون شبه معزوله عن الأراضى التى حولها، و أن الجلسات السريه و الهمس يتّمان بمعزل عن الأفراد الذين يكونون فى الأراضى المحيطه بها سميت هذه الأخيره بالنجوى.

و يرى بعضهم أنّ كلمه «النجوى» مشتقه من ماده «النجاه» أى التحرر، و بمعنى أن البقع المرتفعه تكون بمنأى و منجى عن خطر السيل، و إن الاجتماع السرى أو الهمس يكونان بمنجى من معرفه الآخرين.

و الآيه هنا تذكر أنّ أغلب الاجتماعات السريه التي يعقدها أولئك تهدف إلى غايات شيطانيه شريره لا خير فيها و لا فائده، إذ تقول: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ .

و لكي لا- يحصل و هم من أن كل نجوى أو همس أو اجتماع سري يعتبر عملا مذموما أو حراما جاءت الآيه بأمثال كمقدمه لبيان قانون كلي، و أوضحت الموارد التي تجوز فيها النجوى، مثل أن يوصى الإنسان بصدقه أو بمعونه للآخرين أو بالقيام بعمل صالح أو أن يصلح بين الناس، فتقول الآيه في هذا المجال: إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ .

فإذا كان هذا النوع من النجوى أو الهمس أو الاجتماعات السريه لا يشوبه الرياء و التظاهر، بل كان مخصصا لنيل مرضاه الله، فإنّ الله سيخصص لمثل هذه الأعمال ثوابا و أجرا عظيما، حيث تقول الآيه: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

و قد عرف القرآن النجوى و الهمس و الاجتماعات السريه- من حيث المبدأ -بأنها من الأعمال الشيطانيه، في قوله تعالى: إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ... (١)

و السبب هو أنّ هذه الأعمال غالبا ما تحدث لأغراض سيئه، و حيث أنّ عمل الخير و الشىء النافع و الإيجابي لا يحتاج في العاده إلى أن يكون- أو يبقى- سريا أو مكتوما عن الناس، و لذلك فلا حاجه بالتحدث عن مثل هذه الأعمال بالهمس و النجوى، أو في اجتماعات سريه.

و لما كان من المحتمل أن تطرأ ظروف استثنائية تجبر الإنسان على الاستفاده من أسلوب النجوى في أعمال الخير، لذلك ورد الاستثناء بصوره مكرره في القرآن، كما في قوله تعالى:

ص: ٤٤٨



لَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَلَّجْتُمْ فَلَا تَتَلَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَلَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى...

(١)

و النجوى إذا حصلت ابتداء فى جمع من الناس، أثارت لديهم سوء الظن حيالها، حتى أنّ سوء الظن قد يبدر من الأصدقاء حيال النجوى التى تحصل بينهم، و على هذا الأساس فإنّ الأفضل أن لا يبادر الإنسان إلى النجوى إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، و هذه هى فلسفه هذا الحكم الوارد فى القرآن.

و بديهى أنّ سمعه الإنسان تستلزم-أحيانا-اتباع أسلوب النجوى، و من جملة هذه الموارد تأتى مسأله الصدقات أو المعونات المالىة، التى أجاز القرآن استخدام النجوى بشأنها لحفظ ماء الوجه و سمعه الأشخاص الذين يتلقون هذه المعونات.

و المجال الآخر للنجوى هو عند الأمر بالمعروف، حيث أنّ هذا الأمر لو تمّ أحيانا بصورة علنيه لأصبح سببا فى فضيحه أو خجل الشخص المخاطب بالمعروف بين الناس الحاضرين، و قد يصبح سببا فى أن يمتنع عن قبول ذلك و يقاوم هذا الأمر الذى عبّرت عنه الآيه بالمعروف.

و الحاله الأخرى التى يجوز فيها النجوى هى فى مجال الإصلاح بين الناس، الذى يقتضى أن يكون سرىا أحيانا لضمان تحقيقه، إذ من الممكن لو أنّ الأمر تمّ بصورة علنيه لحال دون حدوث الإصلاح، لذلك يجب أن يتمّ الإصلاح بالتحدث إلى كل طرف من أطراف النزاع بصورة خفيه، أى بطريق النجوى.

إذن فالنجوى جائزه و قد تكون ضروريه فى الحالات الثلاث التى مر الحديث عنها، و كذلك فى حالات مشابهه.

و الملفت للنظر فى الحالات الثلاث المذكوره أعلاه هو أنّها تأتى كلها ضمن معنى «الصدقه» و ذلك لأنّ من يأمر بالمعروف إنّما يدفع زكاه علمه، و من يسعى فى إصلاح ذات البين يدفع بذلك زكاه قدرته و منزلته المؤثره فى الناس.

ص: ٤٤٩

و

قد نقل عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السّلام قوله: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ زَكَاةَ جَاهِكُمْ كَمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ زَكَاةَ مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ» (١).

و

نقل عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ لِأَبِي أَيُّوبَ: «أَلَا- أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يَحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ تَصْلَحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقْرُبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا» (٢).

ص: ٤٥٠

---

١-١) -تفسير نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٥٠، وفي كتب أخرى للتفسير.

٢-٢) -تفسير القرطبي، الجزء الثالث ص ١٩٥٥ في شرح الآية.

## إشاره

وَ مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَ نُضَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)

## سبب النزول

لقد قلنا فى سبب نزول الآيه السابقه: إن بشير بن الأبيرق كان قد سرق من أحد المسلمين، و أتهم إنسانا بريئا بهذه السرقة، و استطاع بالأجواء المزيفه التى اختلقها أمام النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يبرئ نفسه، و لكن حين نزلت تلك الآيات افتضح أمره، فبدلاً من أن يختار طريق التوبه بعد فضيحتة، سار فى طريق الكفر و ارتد عن الإسلام بصوره علنيه رسميه.

فنزلت الآيه الأخيره متضمنه إشاره إلى هذا الموضوع، بالإضافة إلى بيانها لحكم إسلامى عام و كلى.

## التفسير

## إشاره

حين يرتكب الإنسان خطأ و يدرك هذا الخطأ، فليس أمامه سوى طريقين:

أحدهما: طريق العوده و التوبه التى أشارت الآيات السابقه إلى أثرها فى

و الطريق الثانی: هو أن يسلك الإنسان سبيل العناد، وقد أشارت الآيه الأخيره إلى الآثار و العواقب السيئه لهذا الطريق، حيث أعلنت أن من يواجه النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالعناد و المخالفه بعد وضوح الحق له، و يسير فى طريق غير طريق المؤمنين فإن الله سوف لن يهديه إلى غير هذا الطريق، و سيرسله الله فى يوم القيامة إلى جهنم، و ما أسوأ هذا المكان الذى ينتظره! فتقول الآيه: **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَ نُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا .**

و يجب الانتباه إلى أن عبارته يُشَاقِقِ مأخوذه من ماده «شقاق» بمعنى المخالفه الصريحه المقرونه بالحق و الضغينه و تؤكد جملته مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ هذا المعنى أيضا، و فى الحقيقه فإن من يكون هذا شأنه فلن يلقى مصيرا خيرا مما ذكرته الآيه له، مصير ينطوى على نهايه مشؤومه له فى هذه الدنيا و عاقبه سيئه أليمه فى الدار الآخره، فهو فى الدنيا- كما تقول الآيه- يستمر منجرفا فى الطريق الأعوج الذى اختاره، فتتوسع بذلك زاويه انحرافه عن جاده الحق و الصواب، و هذا الطريق هو الذى اختاره لنفسه و البناء الذى وضع أساسه بيده، و لهذا لم يكن قد وقع عليهم أى ظلم من الخارج.

و أما بالنسبه لقول الآيه: **نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ** فهو إشاره إلى حرمان هؤلاء من التوفيق المعنوى، لتمييز الحق، و مواصلتهم السير فى طريق الضلاله، و قد بينا تفاصيل هذا الموضوع لدى الحديث عن تفسير الهدايه و الضلاله فى الجزء الأول من تفسيرنا هذا.

و حين تقول الآيه: **نُصَلِّهِ جَهَنَّمَ** فهى تشير إلى مصير هؤلاء يوم القيامة.

و هناك تفسير آخر حول جملته **نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ** و هو أن هؤلاء و أمثالهم، يوكل أمرهم إلى الآلهه المصطنعه التى انتخبوها لأنفسهم.

يعتبر الإجماع أحد الأدلة الفقهيّة الأربعة، وهو بمعنى اتفاق علماء و مفكرى الإسلام حول مسألة فقهيّة. و ذكروا فى علم أصول الفقه أدله مختلفه لإثبات حجيه الإجماع، و من ضمنها الآيه الأ-خيره التى مرّ البحث فى تفسيرها، إذ يعتبرها البعض دليلا- على حجيه الإجماع لأنها تقول أنّ من يختار طريقا غير طريق المؤمنين سيكون له مصير مشؤوم أسود فى الدنيا و الآخره.

و بناء على هذه الآيه، فإنّ أى طريق يختاره المؤمنون- فى أى مسأله كانت -يجب على الجميع السير فى هذا الطريق.

و الحقيقه أنّ هذه الآيه لا- صله لها بمسأله حجيه الإجماع، لا من قريب و لا من بعيد(و طبيعى إنّنا نقبل حجيه الإجماع الذى يكشف لنا عن قول المعصوم، و لكننا نعتبر حجيه السنه و قول المعصوم دليلا لحجيه هذا الإجماع، و ليس الآيه المذكوره).

و السبب فى عدم قبولنا دلالة هذه الآيه على حجيه الإجماع، هو أنّها تعين أوّلا: عقوبات للأشخاص الذين يخالفون النبى صراحة و عن علم و إدراك، و يختارون طريقا غير طريق المؤمنين، فهذان العنصران يشكّلان باتحادهما العلّه لذلك المصير المشؤوم، مع التأكيد بأن هذا المصير إنّما يتحقق لدى اختيار الشخص للعنصرين المذكورين عن علم و درايه. و ليس لهذا الموضوع أيه صله بمسأله حجيه الإجماع، و لا يدل بوحده على هذه الحجيه.

و الأمر الثانى: هو أنّ المقصود بعبارته سبيل المؤمنين الوارده فى الآيه، هو طريق التوحيد و الخضوع لله و وحده، و هو مبدأ الإسلام، و ليس معناه الفتاوى الفقهيّه أو الأحكام الفرعيّه، و هذه الحقيقه يثبتها ظاهر الآيه بالإضافه إلى ما قيل فى سبب نزولها.

و الحقيقه هى أنّ السير فى طريق غير طريق المؤمنين لا يتجاوز عن كونه

مخالفة للنبي، وكلا العنصرين يعودان إلى موضوع واحد.

و ينقل أنه حين كان أمير المؤمنين على عليه السلام في الكوفة، جاءه جمع من الناس و طلبوا منه أن يعين لهم إماما لصلاة الجماعة (لكني يصلوا خلفه صلاة التراويح جماعة، حيث كان عمر بن الخطاب في زمانه قد أمر بأن تصلى هذه الصلاة جماعة) و ما كان من الإمام غير أن يمتنع عما طلبوا منه، و نهى عن إقامة جماعه كذلك (لأن الجماعة لم تشرع في النوافل) لكن هذه الجماعة التي سمعت الحكم الصريح الحازم من الإمام على عليه السلام أصرت على عنادها، و أخذت بالصراخ و العويل، داعية الناس إلى الإحتجاج على حكم الإمام.

فجاءت جماعة أخرى إلى الإمام على عليه السلام و أخبرته بما أخذ يفعله أولئك القوم و بعضيائهم لأمره، فطلب أن يتركوا و شأنهم ليختاروا من شاؤوا ليصلى بهم تلك الجماعة غير الشرعية (1) ثم تلى الإمام هذه الآية الأخيرة، و في هذا الخبر دليل آخر على التفسير الذي تحدثنا عنه بالنسبة لهذه الآية.

ص: ٤٥٤

---

١- ١) -نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٥١.

اشاره

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)

التفسير

اشاره

الشرك ذنب لا يغتفر:

تشير هذه الآيه مره أخرى إلى خطوره جريمه الشرك الذى يعتبر ذنبا لا يغتفر و لا يتصور وجود ذنب أعظم منه، و يأتي هذا البحث بعد أن تحدثت الآيات السابقه عن المنافقين و المرتدين الذين ينساقون بعد إسلامهم إلى الكفر.

و لقد مرّ ما يشابه مضمون هذه الآيه، فى نفس سوره النساء فى الآيه (٤٨) و ما إعادته تكرار مثل هذه المسائل التربويه إلا دليل على بلاغه القرآن، لأنّ المسائل الأساسيه تستلزم التكرار فى فواصل مختلفه بغيه ترسيخها فى الأذهان و النفوس.

و الحقيقه أنّ الذنوب تشبه سائر الأمراض، فما دام المرض لم يهاجم موقعا مهما فى جسم الإنسان و لم يشل أحد هذه المواقع، كانت قدره الدفاعيه للجسم تحمل معها الشفاء و التحسن، و لكن لو هاجم المرض مركزا حساسا فى جسم الإنسان-مثل الدماغ- و أوجد نتيجة لذلك شللا فى الجسم، فإنّ أبواب الأمل

بالشفاء و التحسن قد تغلق في مثل هذه الحالة التي تنذر بقدوم الموت المحتم.

و الشرك كهذا المرض الأخير يشل مركزا حساسا في روح الإنسان، و ينشر الظلمه في نفسه، و إذا استمر الشرك فلا أمل يرتجى في نجاه الإنسان، بينما لو بقيت حقيقه التوحيد و عباده الواحد الأحد التي هي ينبوع كل فضيله و حركه...

لو بقيت هذه الحقيقه حيه فلا يعدم الإنسان الآمل في غفران ذنوبه الأخرى، و في هذا المجال تقول الآيه الكريمة: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

و قد قلنا: بأن هذه الآيه قد تكررت مرّتين في هذه السوره، و ما ذلك إلا لتزليل آثار الشرك و الوثنيه- و إلى الأبد- من نفوس أولئك الناس الذين ظل الشرك يعشش في أعماق نفوسهم لآماد طويله، و لتظهر آثار التوحيد المعنويه و الماديه على وجوه هؤلاء.

و لكن تتمه الآيتين تختلف في إحداهما عن الأخرى اختلافا طفيفا، حيث تقول الآيه الأخيره: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا بينما الآيه السابقه تقول: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

و في الحقيقه فإن الآيه السابقه تشير إلى الفساد العظيم الذي ينطوى عليه الشرك فيما يخص الجانب الإلهي، و معرفه الله، أمّا الآيه الأخيره فقد بيّنت الأضرار التي يلحقها الشرك بنفس الإنسان و التي لا يمكن تلافيها، فهناك تبحث الآيه في الجانب العلمى من القضية، و هنا تتناول الآيه الأخيره الجانب العلمى منها و نتائجها الخارجيه.

و يتّضح من هذا أنّ الآيتين تعتبر إحداهما بالنسبه للأخرى بمثابه اللازم و الملزوم بحسب الاصطلاح (و قد اشتمل الجزء الثالث من نفس هذا التفسير على توضيحات أكثر حول هذه الآيه).



إشاره

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَأَمُرَّنَّهُمْ فَلْيَكْفُرُوا أَوْ لَيُرْمَنَّ اللَّهُ فِي الْخَالِ وَاللَّهُ قَدِيرٌ (١١٩) يَدْعُهُمْ يُؤْمِنُ بِهِمْ وَ مَا يَعْبُدُهُمْ إِلَّا الشَّيْطَانُ الْأَعْرُورُ (١٢٠) أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)

التفسير

إشاره

مكاند الشيطان:

إن الآيه الأولى-من مجموع الآيات الخمس الأخيره-تشرح أوضاع المشركين الذين أشارت إليهم الآيه السابقه لهذه الأخيره، وهذه الآيه إنما تبين سبب ضلال المشركين، فتذكر أنهم يعانون من ضيق شديد في أفق تفكيرهم، إذ يتركون عباده الله خالق و منشئ عالم الوجود الواسع، و يخضعون أمام المخلوقات التي لا تملك أقل أثر إيجابي في الوجود، بل هي-أحيانا مضلله كالشيطان: إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا .

و مما يلفت النظر أن هذه الآيه تحصر أصنام المشركين بنوعين من المخلوقات هما «إناث» و«شيطان مرید».

و كلمه «إناث» مشتقه من المصدر «أنث» على وزن «أدب» و تعنى المخلوق الرقيق اللطيف و المرن، و لهذا السبب فإنّ العرب تقول: «أنث الحديد» إذا لآ في النار، و قد سمي جنس المرأه ب«الإناث» لأنها أكثر رقه و لطفاً و لنا من الرجل.

لكن بعض المفسرين يرى هنا- أن القرآن يشير في هذه الآيه إلى أصنام كانت معروفه لدى قبائل العرب حيث انتخبت كل قبيله صنما من هذه الأصنام و وضعت له اسما مؤنثا. فالصنم «اللات» سمي هكذا ليكون مؤنثا لكلمه لفظ الجلاله «الله»، أما الصنم «عزى» فهو مؤنث كلمه «عز» و كذلك أصنام أخرى مثل «مناه» و«نائله» و أمثالها.

بينما يرى بعض آخر من كبار المفسرين أن القصد من كلمه «إناث» الوارده في الآيه ليس المعنى المعروف بالمؤنث، بل أن القصد منها هو الجذر اللغوى الذى اشتقت منه هذه اللفظه، أى أن المشركين يعبدون مخلوقات ضعيفه و مطاوعه بين يدي الإنسان، و أن وجود هذه المخلوقات بكاملها قابل للتأثر و الانحناء أمام الأحداث، و بعبارة أوضح: أنها موجودات لا تملك الإراده و الإختيار و لا تنفع و لا تضر شيئا أبدا.

أما كلمه «مرید» و هى من حيث الجذر اللغوى مأخوذه من ماده «مرد» بمعنى سقوط أوراق و أغصان الشجر، و لهذا سمي الشاب اليفع الذى لم ينبت الشعر فى وجهه بالأمرد، و على هذا فإنّ الشيطان المرید يعنى ذلك الشيطان الذى سقطت منه جميع صفات الفضيله، و لم يبق فى وجوده شيء من مصادر القوه.

أو قد تكون هذه الكلمه مأخوذه من الأصل «مرود» بمعنى الطغيان و الجبروت، أى أن معبود هؤلاء الوثنيين هو شيطان متكبر متجبر.

و الحقيقه أنّ القرآن قسم أصنام هؤلاء المشركين إلى نوعين: بعضها ضعيف

الإرادة مطلقاً، والبعض الآخر طاغ متكبر متجبر، لكي يبين أن الذي يسلم قياده و يخضع لمثل هذه الأصنام إنما يعيش في ضلال واضح مبين.

بعد ذلك كله تشير الآيه إلى صفات الشيطان و أهدافه و عداوته الخاص لأبناء آدم و تتناول بالشرح بعضاً من خطته الدنيئه، و قبل كل شيء تؤكد أن الله قد أبعد الشيطان عن رحمته لَعَنَهُ اللهُ .

و في الحقيقة فإنّ أساس شقاء و تعاسه الشيطان هو البعد عن رحمه الله، التي أصابته بسبب غروره و تكبره المفرطين، و بديهي أنّ من يكون بعيداً عن رحمه الله كالشيطان، يكون خاوياً من كل خير أو حسن، و لا يمكنه أن يترك خيراً أو حسناً في حياه غيره، و فاقد الشيء لا يعطيه، فهو لن يكون غير نافع فحسب، بل سيكون ضاراً أيضاً.

ثمّ تذكر الآيه التاليه أنّ الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضاً من خطته:

أولها: أن يأخذ من عباد الله نصيباً معيناً، حيث تقول الآيه حاكيه قول الشيطان: **وَ قَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا** فالشيطان يعلم بعجزه عن إغواء جميع عباد الله، لأنّ من يستسلم لإرادته الشيطان و يخضع له هم فقط أولئك المنجرفون وراء الأهواء و النزوات، و الذين لا إيمان لهم، أو ضعاف الإيمان.

و الثانيه: خطط الشيطان تلخصها الآيه بعبارته: **وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ** .

و الثالثه: اشغلهم بالامنيات العريضة و طول الأمل **وَ لَأَمْتِنَنَّاهُمْ (١)** .

أمّا الخطه الرابعه: ففيها يدعو الشيطان اتباعه إلى القيام بأعمال خرافيه، مثل قطع أو خرق أذان الحيوانات كما جاء في الآيه: **وَ لَأَمْرُنَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ** و هذه إشاره لواحد من أقبح الأعمال التي كان يرتكبها الجاهليون

ص: ٤٥٩

١-١) - إنّ عبارته «و لا مئنيهم» تعود إلى المصدر «منى» على وزن «منع» و تعنى قياس الشيء أو تقييمه، و لكنّها ترد في أغلب الأحيان لتعنى القياس و التقييم و الآمال الوهميه و الخياليه أمّا النطفه التي تسمى ب«منى» فمعناها أن قياس تركيب أولى الموجودات الحسيه قد تمّ فيها.

المشركون، حيث كانوا يقطعون أو يخرقون أذان بعض المواشى، و كانوا يحرمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أى نوع من أنواع الانتفاع بهذه الحيوانات.

وخماس: الخطط التى أقسم الشيطان أن ينفذها ضد الإنسان، هى ما ورد على لسانه فى الآيه إذ تقول: **وَلَأْمُرَنَّهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ... وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَشِيرُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَدَ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ مِنْذُ خَلْقِهِ إِيَّاهُ-التزعه إلى التوحيد و عباده الواحد الأحد،بالإضافه إلى بقيه الصفات و الخصال الحميده الأخرى، و لكن وساوس الشيطان و الانجراف وراء الأهواء و النزوات تبعد الإنسان عن الطريق المستقيم الصحيح، و تحرفه إلى الطرق المعوجه الشاذه.**

و الشاهد على **و القبول أيضا الآيه (٣٠) من سورة الزوم، إذ تقول: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .**

و نقل عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه فسّره بأنّ القصد من التغيير المذكور فى هذه الآيه من سورة النساء هو تغيير فطره الإنسان و حرفها عن التوحيد و عن أمر الله (١) .

و هذا الضرر الذى لا- يمكن التعويض عنه، يلحقه الشيطان بأساس سعادته الإنسان، لأنّه يعكس له الحقائق و الوقائع و يستبدلها بمجموعه من الأوهام و الخرافات و الوسوس التى تؤدى إلى تغيير السعاده بالشقاء للناس، و قد أكّدت الآيه فى آخرها مبدأ كليا، و هو أنّ أى إنسان يعبد الشيطان و يجعله لنفسه وليا من دون الله، فقد ارتكب إثما و ذنبا واضحا إذ تقول الآيه: **وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُبِينًا .**

و الآيه التى تلت هذه الآيه جاءت ببعض النقاط بمثابة الدليل على ما جاءت به الآيه السابقه حيث ذكرت أنّ الشيطان يستمر فى إعطائه الوعود الكاذبه

ص : ٤٦٠

لأولئك ويُمنيهم الأُمْنِيَات الطوال العراض، و لكنه لا يفعل شيئاً بالنسبه لهؤلاء غير الإغواء و الخداع: يَعِدُّهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ مَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١).

و بيّنت آخر آيه من الآيات الخمس الأخيره مصير اتباع الشيطان، بأنهم ستكون نتيجتهم السكنى فى جهنم التى لا يجدون منها مفراً أبداً، فتقول الآيه:

أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا

(٢)

ص: ٤٦١

---

١-١) -الغرور يعنى فى الأصل الأثر الواضح للشيء، و لكنه يطلق فى الغالب على الآثار التى لها ظاهر خادع و باطن كريه، و يطلق على كل شيء يخدع الإنسان مثل المال و الجاه و السلطان التى تبعد الإنسان عن الحق و عن جاده الصواب على أنه ماده للغرور.  
٢-٢) -المحيص مشتق من المصدر «حيص» و يعنى العدول و الانصراف عن الشيء، و على هذا الأساس فإن المحييص هو وسيله الانصراف و الفرار.

اشاره

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)

التفسير

لقد بينت الآيات السابقه أنّ الذين يتخذون الشيطان وليا لهم، إنّما ينالهم ضرر واضح و مبین، و أنّ الشيطان يعدهم زيفا و خداعا و يلهيهم بالأمنيات الواهيه الخياليه الطويله العريضه، و إن وعد الشيطان مكر و خداع لا غير.

أمّا فى هذه الآيه الأخيره-التي هى موضوع بحثنا الآن-فقد بينت مقابل أولئك فى النهايه أعمال المؤمنين و الثواب الذى سينالونه يوم القيامه، من جنّات و بساتين و أنهار تجرى فيها، حيث تقول الآيه: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

و إنّ هذه النعمه العظيمه دائمه أبدا، و ليست كنعم الدنيا الزائله، فالؤمنون فى الجنّه يتمتعون بما أوتوه من خير دائما أبدا، تؤكّد هذه بعباره خالدين فيها أبداً.

و إنّ هذا الوعد وعد صادق و ليس كوعود الشيطان الزائفه، حيث تقول الآيه:

و بديهي أنّ أى فرد لا يستطيع -أبدا- أن يكون أصدق قولاً من الله العزيز القدير فى وعوده و فى كلامه، كما تقول الآية: وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً وَ طَبِيعَى أَنْ عَدَمَ الْوَفَاءِ بِالْوَعْدِ نَاتِجٌ إِمَّا عَنِ الْعِجْزِ وَ إِمَّا الْجَهْلِ وَ الْحَاجَةِ، وَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى مَنْزَهُ عَنِ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

اشاره

لَيْسَ بِأُمَّتِكُمْ وَلَا أُمَّةَ نَبِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا (١٢٤)

سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان-و تفاسير أخرى-أن المسلمين و أهل الكتاب كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض، فكان أهل الكتاب يتباهون بكون نبيهم قد بعث قبل نبي الإسلام و إن كتابهم أسبق من كتاب المسلمين، بينما كان المسلمون يفتخرون على أهل الكتاب بأن نبيهم هو خاتم الأنبياء و أن كتابه هو آخر الكتب السماويه و أكملها.

و في روايه أخرى، نقل أن اليهود كانوا يدعون أنهم هم الشعب المختار، و أن نار جهنم لا تمسيهم إلا لأيام معدودات، كما ورد في سوره البقره-الآيه (٨٠) وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً... و أن المسلمين كانوا يقولون، ردًا على كلام اليهود هذا: بأنهم خير الأمم لأن الله قال في شأنهم: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ



و لذلك نزلت الآيه الأخيره هذه و دحضت كل تلك الدعاوى و حددت قيمه كل شخص بما يقوم به من أعمال.

## التفسير

### إشاره

### امتيازات حقيقه و أخرى زائفه:

لقد بينت هذه الآيه واحدا من أهم أعمده أو أركان الإسلام، هو أنّ القيمه الوجوديه لأى إنسان و ما يناله من ثواب أو عقاب، لا تمت بصله إلى دعاوى و أمنيات هذا الإنسان مطلقا، بل أن تلك القيمه ترتبط بشكل وثيق بعمل الإنسان و إيمانه و أنّ هذا مبدأ ثابت، و سنّه غير قابله للتغيير، و قانون تتساوى الأمم جميعها أمامه، و لذلك تقول الآيه فى بدايتها: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ... و تستطرد فتقول: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَ لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا .

و كذلك الذين يعلمون الخير، و يتمتعون بالإيمان، سواء أ كانوا من الرجال أو النساء-فإنهم يدخلون الجنّه و لا يصيبهم أقل ظلم أبدا، حيث تقول الآيه: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (٢) .

و بهذه الصوره يعمد القرآن إلى نبد كل العصبيات بكل بساطه، معتبرا الاعتبارات و الارتباطات المصطنعه الخياليه و الاجتماعيه و العرقه و أمثالها خاويه من كل قيمه إذا قيست برساله دينيه، و يعتبر الإيمان بمبادئ الرساله و العمل بأحكامها هو الأساس.

و فى تفسير الآيه الأولى من الآيتين الأخيرتين حديث نقلته مصادر الشيعه

ص: ٤٦٥

١-١ - آل عمران، ١١٠.

٢-٢ - لقد أوضحنا المراد من عباره «نقير» فى تفسير الآيه ٥٣ من نفس هذه السوره.

و السنّه، مفاده أنّ المسلمين حين نزلت هذه الآيه استولى عليهم الرعب و أخذوا يكون خوفاً، لمعرفتهم بأنّ الإنسان معرض للخطأ و يحتمل كثيراً صدور ذنوب منه، فلو فرض عدم وجود عفو أو غفران و أن يؤخذ كل إنسان بجريرته، فإنّ الأمر سيكون في غاية الصعوبه، لذلك لجئوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فذكروا له أن هذه الآيه قد أفقدتهم كل أمل، فأقسم النبي لهم بالله أنّه ما جاءت به الآيه هو الصحيح، و لكنه بشرهم بأنّها ستكون خير محفز لهم للتقرب إلى الله و القيام بالأعمال الصالحه، و إنّ ما سيصيبهم من محن و مصائب و آلام حتى لو كانت من وخز شوكة سيكون كفاره لذنوبهم (١).

### سؤال:

من الممكن أن يستدل البعض من الجمله القرآنيه التاليه: **وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** على أنّ قضيه الشفاعه و نظائرها قد ألغيت بهذه الآيه بصوره تامه، فيعتبرونها دليلاً لإلغاء الشفاعه بصوره مطلقه.

### الجواب:

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الشفاعه لا تعنى أنّ الشفعاء من أمثال الأنبياء و الأئمه و الصالحين لهم جهاز أو تنظيم مستقل يقابل قدره الله، بل الصحيح هو أنّ الشفعاء لا يشفعون لأحد إلاّ بإذن الله، و على هذا الأساس فإنّ مثل هذه الشفاعه ستعود في النهايه إلى الله و تعتبر فرعا من ولايه و نصره و عون الله.

ص: ٤٦٦

اشاره

وَمِنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. (١٢٥) وَاللَّهُ مَعِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦)

التفسير

لقد تحدثت الآيات السابقة عن أثر الإيمان والعمل، كما بينت أن أتباع أى مذهب أو شريعته غير شرع الله لا يغنى عن الإنسان شيئاً، والآيه الحاضره تداركت كل و هم قد يطرأ على الذهن من سياق الآيات السابقه، فأوضحت أفضليه شريعته الإسلام و تفوقها على سائر الشرائع الموجوده، حيث قالت وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا .

و مع أنّ هذه الآيه قد جاءت بصيغه الاستفهام، إلا أنّها تهدف إلى كسب الاعتراف من السامع بالحقيقه التي أوضحتها.

لقد بينت الآيه-موضوع البحث-أمورا ثلاثه تكون مقياسا للتفاضل بين الشرائع و بيانا لخيرها:

١-الاستسلام و الخضوع المطلق لله العزيز القدير، حيث تقول الآيه: أَسْلَمَ

٢-فعل الخير، كما تقول الآية: وَهُوَ مُحْسِنٌ و المقصود بفعل الخير-هنا- كل خير يفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله، و

في حديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذكره صاحب تفسير الثقلين في تفسيره للآية-هذه- و هو جواب لمن سأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تحديد معنى الإحسان، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فالإحسان في هذه الآية هو كل عمل ينجزه الإنسان و يقصد به التعبد لله و التقرب إليه، و أن يكون الإنسان لدى إنجازه لهذا العمل قد جعل الله نصب عينيه، و كأنه يراه، فإن كان هو يعجز عن رؤيه الله فإن الله يراه و يشهد على أعماله.

٣-إتباع شريعته إبراهيم النقيه الخالصة، كما في الآية: وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (٢).

و دليل الاعتماد على شريعته إبراهيم ما ذكرته الآية نفسها في آخرها: إِذْ تَقُولُ: وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا.

### ما هو معنى الخليل؟

إنَّ كلمه «خليل» قد تكون مشتقه من المصدر «خله» على وزن «حجبه» الذي يعنى الصداقه، و قد يكون اشتقاقها من المصدر «خله» على وزن «ضربه» بمعنى الحاجه.

ص: ٤٦٨

١-١) -الوجه في اللغه هو مقدمه الرأس، أو ذلك الجزء من البدن الذى يشمل الجبهه و العينين و الأنف و الفم و الجبين، و لما كان الوجه بمثابة مرآه لروح الإنسان و قلبه، و فيه الحواس التى تربط باطن الإنسان بالعالم الخارجى، لذلك جاء فى الآية التعبير عنه بذات الإنسان و نفسه.

٢-٢) -إنَّ عبارته «ملّه» الوارده فى الآية أعلاه تعنى «الشريعة أو الدين» و الفرق بين الملّه و الدين أن الأولى لا تنسب إلى الله، أى لا يقال «ملّه الله» و يمكن أن تضاف إلى النبي بينما كلمه الدين أو الشريعة يمكن أى يضافا إلى لفظ الجلاله فيقال: «دين الله» أو «شريعته الله» كما يمكن إضافتهما إلى النبي أيضا، و عبارته «حنيف» تعنى الشخص الذى يترك الأديان الباطله و يتبع دين الحق.

وقد اختلف المفسرون في أى المعنيين أقرب إلى مفهوم الآية موضوع البحث.

فأى البعض منهم أنّ المعنى الثانى أقرب لحقيقه هذه الآية، لأنّ إبراهيم عليه السّلام كان يؤمن بأنّه محتاج إلى الله فى كل شؤونه بدون استثناء، ولكن مفسّرين آخرين يرون أنّه ما دامت الآية تتحدث عن منزله وهبها الله لنبيه إبراهيم فالمقصود بكلمه «الخليل» الوارده هو «الصديق» لأننا لو قلنا أنّ الله قد انتخب إبراهيم صديقا له، يكون أقرب كثيرا إلى الذهن من قولنا أنّ الله انتخب إبراهيم ليكون محتاجا إليه. لأنّ الحاجة إلى الله لا تقتصر على إبراهيم وحده، بل يشاركه و يساويه فيها جميع المخلوقات، فالكل محتاجون إلى الله دون استثناء، و كان تقول الآية (١٥) من سورة فاطر: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ هَذَا عَلَى عَكْسِ الصَّدَاقَةِ وَ الْخَلَّةِ مَعَ اللَّهِ الَّتِي لَا يَتَسَاوَى فِيهَا كُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ.

و فى روايه عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «أنّه (الله) إنّما اتّخذ إبراهيم خليلا لطاعته و مسارعتة إلى رضاه لا لحاجه منه سبحانه إلى خلته» و تدل هذه الروايه (١) أيضا بأنّ عباره «خليل» الوارده فى الآية المذكوره إنّما تعنى الصديق و لا تعنى غيره.

و على هذا الأساس لنرى ما الذى امتاز به إبراهيم لينال هذه المنزله العظيمه من الله، لقد ذكرت الروايات الوارده فى هذا المجال عللا مختلفه تكون بمجملها دليلا لهذا الانتخاب، و من هذه الروايات

قول الإمام الصّادق عليه السّلام «إنّما اتّخذ الله إبراهيم خليلا لأنّه لم يرد أحدا و لم يسأل أحدا غير الله» (٢).

و تفيد روايات أخرى أنّ إبراهيم قد حاز هذه الدرجه لكثرة سجوده لله، و إطعامه للجياح و إقامة صلاه الليل، أو لسعيه فى طريق مرضاه الله و طاعته.

ص: ٤٦٩

(١-١) -مجمع البيان فى هامش الآية الشريفه.

(٢-٢) -عيون أخبار الرضا، و تفسير الصافى فى هامش الآية المذكوره و فى تفسير البرهان الجزء الأوّل، ص ٤١٧.

بعد ذلك تتحدث الآية التاليه بملكه الله و المطلقه و إحاطته بجميع الأشياء، حيث تقول: **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**  
**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا** و هذه إشارة إلى أنّ الله حين انتخب إبراهيم خليلاً له، ليس من أجل الحاجه إلى إبراهيم فالله منزه  
عن الاحتياج لأحد، بل أن هذا الإختيار قد تمّ لما لإبراهيم من صفات و خصال و سجايا طيبه بارزه لم توجد في غيره.

اشاره

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَدِ أُمِّ الْيَتَامَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَزْعَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)

التفسير

اشاره

عود على حقوق المرأة:

تجيب الآيه الأخيره هذه على أسئله وردت حول النساء من قبل المسلمين (و بالأخص حول اليتامى منهن) فتخاطب النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تبين له أنّ الله هو الذى يفتى فى الأسئلة التى وجهت إليك يا محمد صلى الله عليه و آله و سلم حول الأحكام الخاصه بحقوق النساء، فتقول: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ... .

و تضيف الآيه إنّ ما ورد فى القرآن الكريم حول الفتيات اليتامى اللواتى كنتم تتصرفون فى أموالهنّ، و لم تكونوا لتتزوجوا بهنّ، و لم تدفعوا أموالهنّ إليهنّ لكى يتزوجن من آخرين، فإنه يجيب على قسم آخر من اسئلتكم و يبين لكم قبح ما كنتم تعلمون من ظلم بحق هؤلاء النسوة، و مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَدِ أُمِّ الْيَتَامَىٰ

النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ...

(١)

ثمّ توصى الآيه الكريمة بالأولاد الذكور الصغار الذين كانوا يحرمون من الإرث وفق التقاليد الجاهليه، فتؤكد ضروره رعايه حقوقهم، حيث تقول:

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ

كما تعود الآيه فتكرر التأكيد على حقوق اليتامى، فتذكر أن الله يوصيكم فى أن تراعوا العداله فى تعاملكم مع اليتامى: وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ... .

و فى الختام تجلب الآيه الانتباه إلى أن أى عمل خير يصدر منكم و بالأخص إذا كان فى حق اليتامى و المستضعفين فإنه لا يخفى على الله- و إنكم ستنالون أجر ذلك فى النهايه، حيث تقول الآيه: وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا .

هذا و يجب الالتفات إلى أن عبارته يَسْتَفْتُونَكَ مشتقه من المصدر «فتوى» أو «فتيا» و معناها الإجابة على كل سؤال معضل، و لما كانت هذه الكلمه تعود فى الأصل إلى كلمه «فتى» أى الشاب اليافع، فمن الممكن أن الفتوى كانت تستخدم للتعبير عن الإجابة على الأسئلة المستحدثه، و بعد ذلك أصبحت تطلق بصوره شامله على كل أنواع الأجوبه الخاصه بالمسائل المنتخبه.

ص: ٤٧٢

١-١) - بناء على التفسير الذى أوردناه بشأن الآيه أعلاه يتبين لنا أن عبارته «ما يتلى» مبتدأ و خبرها جملة «يفتيكم فيهن» التى حذفت للقرينه الموجوده فى القسم السابق من الآيه. كما أن عبارته «ترغبون» هنا تعنى عدم الميل و الرغبه، حيث تشير القرائن إلى تقدير «عن» بعد عبارته «ترغبون» فى هذه الآيه و الفرق بين «رغب عنه» و «رغب فيه» واضح.



اشاره

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)

سبب النزول

لقد ورد في الكثير من كتب التفسير والحديث، في سبب نزول هذه الآيه، أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شخص يدعى «رافع بن خديج» وكانت له زوجتان، إحداهما كبيره السن عجوز، والأخرى شابه، فطلق «رافع» زوجته العجوز (اثر خلافات بينهما) لكنه قبل أى تنتهى عدتها-عرض عليها الصلح مشروطا عليها أن لا تضجر إذا قدم عليها زوجته الشابه، أو أن تصبر حتى تنتهى عدتها فيتم الفصل و الفراق بينهما، فقلبت زوجته العجوز الشرط أو الاقتراح الأول، فاصطلحا، فنزلت هذه الآيه الكريمه مبيته حكم هذا العمل.

لقد قلنا سابقا- في هامش الآيتين (٣٤ و ٣٥) من نفس سورة النساء- إن كلمة «نشوز» مشتقة من المصدر «نشز» بمعنى «الأرض المرتفعه» و حين تستخدم هذه العباره في شأن الرجل و المرأة تعنى ذلك «التكبر» و «الطغيان».

و قد بينت الآيات السابقه حكم نشوز المرأة، و فى هذه الآيه إشاره لنشوز الرجل فالآيه تتحدث عن المرأة إذا أحست من زوجها التكبر و الإعراض عنها، و تبين أن لا مانع من أن تتنازل عن بعض حقوقها، و تتصالح مع زوجها، من أجل حمايه العلاقه الزوجيه من التصدع، فتقول: وَ إِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا .

و لئىما كانت المرأة تتنازل عن بعض حقوقها طوعا و عن طيب خاطر و من غير إكراه فلا ذنب فى هذا العمل، حيث عبرت الآيه عن ذلك بعباره «فلا جناح» أى لا ذنب، للدلاله على الحقيقه المذكوره.

و عند النظر إلى سبب نزول الآيه، نستخلص منها مسألتين فقهيتين:

الأولى: إن حكما مثل تقسيم أيام الأسبوع بين الزوجات، له طابع الحق أكثر من طابع الحكم، و لذلك فى إمكان المرأة التخلي عن هذا الحق بشكل تام إذا شاءت أو بصوره جزئيه.

و المسأله الثانيه: إن التراضى و التصالح لا يشترط أن يكون بالمال، بل يصح أن يكون بالتنازل عن حق من الحقوق.

بعد ذلك تؤكد الآيه على أن الصلح خير و أحسن، حيث تقول: وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ و هذه الجملة الصغيره مع أنها جاءت فى مجال الخلافات العائليه، لكنها تبين قانونا كليا عاما شاملا، و تؤكد أن الصلح هو المبدأ الأول فى كل المجالات، و أن الخلاف و النزاع و الصراع و الفراق ليس له وجود فى الطبع و الفطره الإنسانيه السليمه، و لذلك فلا تسوغ هذه الفطره التوسل بالنزاع و ما يجرى مجراه إلا فى

و هذا الأمر على عكس ما يصوره الماديون من أنّ الصراع من أجل البقاء هو الأصل في حياة الموجودات الحيّة، و يزعمون أنّ التكامل يحصل من خلال هذا الصراع.

و قد كان هذا النوع من التفكير سببا في بروز الكثير من النزاعات الدّمويه و الحروب في القرون الأخيره، لكن الإنسان لا يقاس بالحيوانات الأخرى المفترسه بسبب ما يملكه من عقل و إحساس، و إنّ تكامله يتم في ظل التعاون و ليس في ظل النزاع، و من حيث المبدأ فإنّ الصراع من أجل البقاء حتى في الحيوانات لا يعتبر مبدأ مقبولا للتكامل (1).

و تشير الآيه بعد ذلك مباشرة إلى أنّ الإنسان بسبب غريزه حبّ الذات التي يمتلكها تحيط به أمواج البخل، بحيث أنّ كل إنسان يسعى إلى نيل حقوقه دون التنازل عن أقل شيء منها، و هذا هو سبب و منبع النزاع و الصراع، تقول الآيه:

وَ أَخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ

و لذلك فلو أحسّ كلّ من الزوجين بأنّ البخل هو منبع الكثير من الخلاف و أدركوا حقيقة البخل و أنّه من الصفات القبيحه، و سعوا لإصلاح ذات بينهم و أبدوا العفو و الصّفح، فسوف لا يؤدي هذا إلى زوال الخلاف و النزاع العائلي فحسب، بل سيؤدي أيضا إلى إنهاء الكثير من الصراعات الاجتماعيه.

و لكي لا- يسعى الرجال استغلال هذا الحكم الوارد في الآيه، ووجه الخطاب إليهم في نهايتها و دعوا إلى فعل الخير و التزام التقوى، و نبهوا إلى أنّ الله يراقب أعمالهم دائما فليحذروا الانحراف عن جاده الحق و الصواب، تقول الآيه في هذا المجال: وَ إِن تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

ص: ٤٧٥

---

(١-١) - من أجل معرفه تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع راجع الجزء الثاني من هذا التفسير في فصل «الصراع من أجل البقاء».

اشاره

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)

التفسير

اشاره

العدالة شرط في تعدد الزوجات:

نستنتج من الجملة التي وردت في نهايه الآيه السابقه-التي تم البحث عنها و التي دعت الرجال إلى فعل الخير و التزام التقوى- إنها تعتبر نوعا من التهديد للآزواج من الرجال، بأن يراقبوا حالهم و لا ينحرفوا قيد شعره عن جاده الحق و العدالة لدى التعامل مع زوجاتهم.

وقد يرد اعتراض و هو: إن تحقيق العدالة في مجال الحب و العلاقات القليله أمر بعيد المنال، فكيف يمكن إذن و الحاله هذه اتباع العدل مع الزوجات؟ و ردا على الاعتراض المذكور توضح الآيه (١٢٩) من سوره النساء، بأن تحقيق العدالة في مجال الحب بين الزوجات أمر غير ممكن، مهما بذل الإنسان من سعى في هذا المجال فتقول الآيه: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ

و يتبين من عبارته وَ لَوْ حَرَضْتُمْ هذه وجود أشخاص بين المسلمين كانوا يسعون كثيرا لتحقيق تلك العدالة المطلوبه، و لعل سعيهم ذلك كان من أجل الحكم المطلق الذى طالب المسلمين باتباع العدل من زوجاتهم و الذى ورد فى الآيه الثالثه من سوره النساء، التى تقول: ...فَإِنْ حِغْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .

بديهى أن أى حكم سماوى لا يمكن أن ينزل على خلاف فطره البشر، كما لا يمكن أن يكون تكليفا بما لا يطاق، و لما كانت العلاقات القليه تنتج عن عوامل يكون بعضها خارجا عن إرادته الإنسان، لم يحكم الله بتحقيق العدالة فى مجال الحب القلبى بين الزوجات، أما فيما يخص الأعمال و أسلوب التعامل و رعايه الحقوق بين الأزواج ممّا يمكن للإنسان تحقيقه، فقد تمّ التأكيد على تحقيق العدالة فيه.

و لكى لا يسيء الرجال استغلال هذا الحكم، طالبت الآيه الرجال بأن لا يظهروا الميل الكامل لإحدى الزوجات إذا تعسر عليهم تحقيق المساواه فى حبهم لهنّ جميعا، كى لا يضيع حق الأخرى و لا يحرن فى أمرهنّ ما ذا يفعلن! حيث تقول الآيه: فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ... .

و تحذر الآيه فى آخرها أولئك الذين يجحفون فى حقّ زوجاتهم، و تطالبهم بأن يتبعوا طريق الإصلاح و التقوى، و يعرضوا عمّا فات فى الماضى، كى يشملهم الله برحمته و عفوه، فتقول الآيه: وَإِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ... .

لقد وردت روايات اشتملت على مواضيع تخص مسأله تحقيق العدالة بين الزوجات، و تبين عظمه هذا الحكم و القانون الإسلامى.

من هذه الروايات ما

روى عن على بن أبى طالب أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان له امرأتان، فكان إذا كان يوم واحده لا يتوضأ فى بيت الاخرى» (١).

ص: ٤٧٧

روى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن ءابائه عليهم السّلام «أنّ التّبيّ صلى الله عليه وآله و سلم كان يقسم بين نسائه فى مرضه، فيطاف به بينهن». (١)

و كان معاذ بن جبل له امرأتان ماتتا فى الطاعون أقرع بينهما أيهما تدفن قبل الاخرى؟ (٢) أى أيهما يقدم أولاً فى الدفن لكى يتجنب ما من شأنه أن يخذل العدل المفروض اتباعه بين الزوجات.

### جواب على سؤال ضرورى:

كنا قد نوّهنا فى هامش الآية (٣) من نفس هذه السوره- بأنّ بعضا ممن ليس لهم علم استتجوا- من ضم تلك الآية إلى هذه الآية- أن تعدد الزوجات مشروط بتحقيق العدالة بينهما، و أنّه لَمّا كان تحقيق العدالة أمرا غير ممكن، فلذلك قالوا بأنّ الإسلام قد منع تعدد الزوجات.

و يفهم من الروايات الإسلاميه أنّ أوّل من طرح هذا الرأى هو «ابن أبى العوجاء» و كان من أصحاب المذهب المادى، و من المعاصرين للإمام الصادق عليه السّلام، و جاء طرحه لرأيه هذا فى نقاش له مع المفكر الإسلامى المجاهد «هشام بن الحكم» فلما أعى «هشاما» الجواب توجه من بلدته الكوفة إلى المدينه المنوره «لمعرفه الجواب» فقدم على الإمام الصادق عليه السّلام فتعجب الإمام من مقدمه قبل حلول موسم الحج أم العمره، و لكن هشاما أخبر الإمام بسؤال ابن أبى العوجاء، فكان جواب الإمام الصادق عليه السّلام على السؤال هو أنّ المقصود بالعدالة الوارده فى الآية الثالثه من سوره النساء، هى العدالة فى النفقه (و ضروره رعايه الحقوق الزوجيه و أسلوب التعامل مع الزوجه) أمّا العدالة الوارده فى الآية (١٢٩) من نفس السوره (و التى اعتبر تحقيقها أمرا مستحيلا) فالمقصود بها العدالة فى

ص: ٤٧٨

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -المصدر السابق.

الميل القلبي،) وعلى هذا الأساس فإن تعدد الزوجات ليس ممنوعاً ولا مستحيلاً إذا روعيت فيه الشروط الإسلامية، فلما رجع هشام بالجواب إلى ابن أبي العوجاء حلف هذا الأخير أن هذا الجواب ليس من عندك.

و معلوم أنّ تفسيرنا لكلمتي العدالة-الواردتين في الآيه الثالثه و الآيه (١٢٩) من سوره النساء-بمعنيين يختلف أحدهما عن الآخر، إنّما هو للقرينه الواضحه الوارده مع كل من الآيتين المذكورتين، لأنّ الآيه الأخيره تأمر الإنسان أن لا يميل ميلاً شديداً لإحدى زوجاته و يترك الأخريات في الحيره من شأنهنّ، و لهذا فهي تدل على جواز تعدد الزوجات مع اشتراط أن لا يحصل إجحاف بحق إحداهنّ لحساب الأخرى، مع الإذعان باستحاله تحقق المساواه في الحب القلبي لكلا الزوجتين، أمّا في الآيه الثالثه من سوره النساء فقد ورد التصريح في أولها بجواز تعدد الزوجات.

أمّا الآيه الثانيه من الآيتين الأخيرتين، فهي تشير إلى هذه الحقيقه، و هي أنّه لو استحال مواصله الحياه الزوجيه للطرفين-الزوج و الزوجه-و استحال الإصلاح بينهما، فإنّهما-و حاله هذه-غير مرغمين على الاستمرار في مثل هذه الحياه المرّه الكريهه، بل يستطيعان أن ينفصلا عن بعضهما و عليهما اتخاذ موقف شجاع و حاسم في هذا المجال دون خوف أو رهبه من المستقبل، لأنّهما لو انفصلا في مثل تلك الحاله فإنّ الله العليم الحكيم سيغنيهما من فضله و رحمته، فلا- يعدم الأمل في حياه مستقبله أفضل، فتقول الآيه الكريمه في هذا المجال:

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا

إشاره

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ذَكِيمًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

التفسير

لقد أوضحت الآيه السابقه أن إذا اقتضت الضروره لزوجين أن ينفصلا عن بعضهما دون أن يجدا حلا بديلا عن الانفصال فلا مانع من ذلك، وليس عليهما أن يخافا من حياه المستقبل، لأن الله سيشملهما بكرمه و فضله، و يزيل احتياجاتهما برحمته و بركته.

أمّا في الآيه-موضوع البحث- فإنّ الله يؤكّد قدرته على إزاله و رفع تلك الاحتياجات، لأنّه مالك ما في السموات و ما في الأرض و لله ما في السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ و إنّ من يملك ملكا لا نهايه له كهذا الملك، و يملك قدره لا نفاذ



لها أبداً، لن يكون عاجزاً-مطلقاً-عن رفع احتياجات خلقه و عباده.

و لكي تؤكد الآيه ضروره التقوى في هذا المجال و في أى مجال آخر، تشير الآيه إلى أنّ اليهود و النصارى و كل من كان له كتاب سماوى قبل المسلمين قد طلب منهم جميعاً كما طلب منكم مراعاة التقوى وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ....

بعد ذلك تتوجه الآيه إلى مخاطبه المسلمين، فتؤكد لهم أن الالتزام بحكم التقوى سيجلب النفع لهم، و أن ليس لله بتقواهم حاجه، كما تؤكد أنهم إذا عصوا و بغوا، فإن ذلك لا يضر الله أبداً، لأن الله هو مالك ما فى السموات و ما فى الأرض، فهو غير محتاج إلى أحد أبداً، و من حقه أن يشكره عباده دائماً و أبداً، وَ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا .

الغنى و عدم الحاجه هما من صفات الله سبحانه و تعالى-حقيقه-لأنه عزّ و جلّ غنى بالذات، و ارتفاع حاجات غيره و زوالها إنما يتم بعونه و مدده، و كل المخلوقات محتاجه إليه احتياجاً ذاتياً، لذلك فهو يستحق-لذاته-أن يشكره عباده و مخلوقاته، كما أنّ كمالته التى تجعله أهلاً للشكر ليست خارجه عن ذاته، بل هى كلّها فى ذاته، و هو ليس كالمخلوقات التى تمتلك صفاتاً كماله عرضيه خارجيه مكتسبه من الغير.

و فى الآيه التاليه جرى التأكيد-و للمرّه الثالثه-على أنّ كل ما فى السموات و ما فى الأرض هو ملك لله، و إنّ الله هو الحافظ و المدبر و المدير لكل الموجودات وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .

و قد يرد سؤال-هنا-عن سبب تكرار موضوع واحد لثلاث مرات و فى فواصل متقاربه جداً، و هل أن هذا التكرار من أجل التأكيد على الأمر الوارد فى هذا الموضوع، أم هناك سرّ آخر؟ و بالإمعان فى مضمون الآيات يظهر لنا أن الموضوع المتكرر ينطوى فى كل

مرّه على أمر خاص:

ففى المرّه الأولى حيث تحمل الآيه وعدا لزوجين بأنهما إذا انفصلا فإن الله سيغنيهما و لأجل إثبات قدره الله على ذلك، يذكر الله ملكيته لما فى السموات و ما فى الأرض.

أمّا فى المرّه الثانيه فإنّ الآيه توصى بالتقوى، و لكى لا يحصل و هم بأن إطاعه هذا الأمر ينطوى على نفع أو فائده لله، أو أن مخالفته ينطوى على الضرر له، فقد تكررت الجملة للتأكيد على عدم حاجه الله لشيء، و هو مالك ما فى السموات و ما فى الأرض.

و هذا الكلام يشبه فى الحقيقه ما قاله أمير المؤمنين على عليه السلام فى مستهل خطبه الهمام الوارده

فى كتاب نهج البلاغه حيث قال عليه السلام: «بأنّ الله سبحانه و تعالى خلق الخلق حين خلقهم غتيا عن طاعتهم آمنّا عن معصيتهم لأنه لا تضرّه معصيه من عصاه و لا تنفعه طاعه من أطاعه» (١).

و يذكر الله ملكيته لما فى السموات و ما فى الأرض للمرّه الثالثه كمقدمه للموضوع الذى يلى فى الآيه (١٣٣)، ثمّ يبيّن عز من قائل - أنه لا- يأبه فى أن يزيل قوما عن الوجود، ليأتى مكانهم بقوم آخرين أكثر استعدادا و عزما و أكثر دأبا فى طاعه الله و عبادته، و الله قادر على هذا الأمر إن يشأ يذهبكم أيها الناس و يأت بآخرين و كان الله على ذلك قديراً.

و فى تفسير «التبيان» و تفسير «مجمع البيان» نقلا عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه حين نزلت هذه الآيه ربت على كتف سلمان الفارسى و قال بأن المعنى بالآخرين فى الآيه هم قوم من العجم من بلاد فارس.

و هذا الكلام - فى الحقيقه - تنبؤ بالخدمات الكبيره التى قدمها المسلمون الإيرانيون إلى الإسلام.

ص: ٤٨٢

و الآيه الأخيره من الآيات الأربع الماضيه،ورد الحديث فيها عن أناس يزعمون أنهم مسلمون،و يشاركون فى ميادين الجهاد،و يطبقون أحكام الإسلام، دون أن يكون لهم هدف إلهى،بل يهدفون لنيل مكاسب ماديه مثل غنائم الحرب فتنبه الآيه إلى أن الذين يطلبون الأجر الدنيوى يتوهمون فى طلبهم هذا،لأن الله عنده ثواب الدنيا و الآخره معا مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ .

فلما ذا لا يطلب-و لا يرجوا-هؤلاء،الثوابين معا؟!و الله يعلم بنوايا الجميع، و يسمع كل صوت،و يرى كل مشهد،و يعرف أعمال المنافقين و أشباههم، وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا .

و تكرر هذه الآيه الأخيره حقيقه أن الإسلام لا ينظر فقط إلى الجوانب المعنويه و الأخرويه،بل أن ينشد لأتباعه السعادتين الماديه و المعنويه معا.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلِذِي بَيْنِ يَدَيْهِ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا  
فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)

التفسير

اشاره

العدالة الاجتماعيه:

على غرار الأحكام التي وردت في الآيات السابقه حول تطبيق العدالة مع الأيتام و الزوجات تذكر الآيه الأخيره-موضوع البحث- مبدأ أساسيا و قانونا كليا في مجال تطبيق العدالة في جميع الشؤون و الموارد بدون استثناء، و تأمر جميع المؤمنين بإقامه العدالة يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ... .

و يجب الانتباه إلى أنّ كلمه «قوامين» هي جمع لكلمه «قوام» و هي صيغه مبالغه من «قائم» و تعنى «كثير القيام» أى أن على المؤمنين أن يقوموا بالعدل في كل الأحوال و الأعمال و فى كل العصور و الدهور، لكى يصبح العدل جزءا من طبيعتهم و أخلاقهم، و يصبح الانحراف عن العدل مخالفا و مناقضا لطبيعتهم و روحهم.

و الإتيان بكلمه «القيام» فى هذا المكان، يحتمل أن يكون بسبب أن الإنسان حين يريد القيام بأى عمل، يجب عليه أن يقوم على رجليه بصورة عامه و يتابع ذلك العمل، و على هذا الأساس فإن التعبير هنا بالقيام كناية عن العزم و الإراده الراسخه و الإجراء لإنجاز العمل، حتى لو كان هذا العمل من باب حكم القاضى الذى لا يحتاج إلى القيام لدى ممارسه عمله.

و يمكن أن يكون التعبير بالقيام جاء لسبب آخر، و هو أن كلمه «القائم» تطلق عادة على شىء يقف بصورة عموديه على الأرض دون أن يكون فيه انحراف إلى اليمين أو الشمال، و على هذا فإن المعنى المراد منه فى الآيه يكون تأكيداً لضروره تحقيق العداله دون أقل انحراف إلى أى جهه كانت.

و لتأكيد الموضوع جاءت الآيه بكلمه «الشهاده» فشددت على ضروره التخلّى عن كل الملاحظات و المجاملات أثناء أداء الشهاده، و أن يكون هدف الشهاده بالحق هو كسب مرضاه الله فقط، حتى لو أصبحت النتيجة فى ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ... .

و قد شاع هذا الأمر فى كل المجتمعات، و بالأخص المجتمعات الجاهليه، حيث كانت الشهاده تقاس بمقدار الحبّ و الكراهيه و نوع القرابه بين الأشخاص و الشاهد، دون أن يكون للحق و العدل أثر فيما يفعلون.

و قد نقل عن ابن عباس حديث يفيد أن المسلمين الجدد كانوا بعد وصولهم إلى المدينه يتجنبون الإدلاء بالشهاده لاعتبارات القرابه و النسب، إذا كانت الشهاده تؤدى إلى الإضرار بمصالح اقربائهم، فنزلت الآيه المذكوره محذره لمثل هؤلاء (١).

و لكن -و كما تشير الآيه الكريمه- فإنّ هذا العمل لا يتناسب و روح الإيمان،

ص: ٤٨٥

لأنَّ المؤمن الحقيقي هو ذلك الشخص الذى لا- يعير اهتماما للاعتبارات فى مجال الحق و العدل، و يتغاضى عن مصلحته و مصلحه أقاربه من أجل تطبيق الحق و العدل.

و تفيد هذه الآيه أنّ للأقارب الحق فى الإدلاء بالشهاده لصالح- أو ضد- بعضهما البعض، شرط الحفاظ على مبدأ العداله (إلا إذا كانت القرائن تشير إلى وجود انحياز أو تعصب فى الموضوع).

و تشير الآيه بعد ذلك عوامل الانحراف عن مبدأ العداله، فتبين أنّ ثروه الأغنياء يجب أن لا- تحول دون الإدلاء بالشهاده العادله، كما أنّ العواطف و المشاعر التى تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن تكون سببا فى الامتناع عن الأدلاء بالشهاده العادله حتى و لو كانت نتيجتها لغير صالح الفقراء، لأنّ الله أعلم من غيره بحال هؤلاء الذين تكون نتيجه الشهاده العادله ضدهم، فلا- يستطيع صاحب الجاه و السلطان أن يضمرّ بشاهد عادل يتمتع بحمايه الله، و لا الفقير سيبيت جوعانا بسبب تحقيق العداله، تقول الآيه فى هذا المجال: **إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا .**

و للتأكيد أكثر تحكم الآيه بتجنّب اتباع الهوى، لكى لا يبقى مانع أمام سير العداله و تحقيقها إذ تقول الآيه: **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا (١)**.

و يتّضح من هذه الجملة- بجلاء- أن مصدر الظلم و الجور كلّهُ، هو اتباع الهوى، فالمجتمع الذى لا تسوده الأهواء يكون بمأمن من الظلم و الجور.

و لأهميه موضوع تحقيق العداله، يؤكّد القرآن هذا الحكم مرّه أخرى، فيبين أنّ الله ناظر و عالم بأعمال العباد- فهو يشهد و يرى كل من يحاول منع صاحب

ص: ٤٨٦

١- ١) - يمكن أن تكون عبارته «تعدلوا» اشتقاقا إمّا من ماده «العداله» أو من ماده «العدول» فإن كانت من ماده «العداله» يكون معنى الجملة القرآنيه هكذا: فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أى لكى تستطيعوا تحقيق العدل، و أما إذا كانت من ماده «العدول» يكون المعنى هكذا: فلا تتبعوا الهوى فى أن تعدلوا أى لا تتبعوا الهوى فى سبيل الانحراف عن الحق.

الحق عن حقه، أو تحريف الحق، أو الاعراض عن الحق بعد وضوحه، فتقول الآية: وَإِنْ تَلَّوْا (١) أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَذَّابٌ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

و جملة إِنْ تَلَّوْا تشير- فى الواقع -إلى تحريف الحق و تغييره، بينما تشير جملة «تعرضوا» إلى الامتناع عن الحكم بالحق، و هذا هو ذات الشيء المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام (٢) .

و الطريف أن الآية اختتمت بكلمه خَبِيرًا و لم تختتم بكلمه «عليما» لأنّ كلمه «خبير» تطلق بحسب العاده على من يكون مطلعاً على جزئيات و دقائق موضوع معين، و فى هذا دلالة على أن الله يعلم حتى أدنى انحراف يقوم به الإنسان عن مسير الحق و العدل بأى عذر أو وسيله كان، و هو يعلم كل موطن يعتمد فيه إظهار الباطل حقاً، و يجازى على هذا العمل.

و تثبت الآية اهتمام الإسلام المفرط بقضيه العدالة الاجتماعيه، و إن مواطن التأكيد المتكرره فى هذه الآية تبين مدى هذا الاهتمام الذى يوليه الإسلام لمثل هذه القضية الإنسانيه الاجتماعيه الحساسه، و ممّا يؤسف له كثيرا أن نرى الفارق الكبير بين عمل المسلمين و هذا الحكم الإسلامى السامى، و إن هذا هو سرّ تخلف المسلمين.

ص: ٤٨٧

---

١- ١) - إن عبارته «تلّوا» مشتقه من المصدر «لى» على وزن «طى» و تعنى المنع و الإعاقة و قد وردت فى الأصل بمعنى اللى و البرم.

٢- ٢) - تفسير التبيان، الجزء الخامس، ص ٣٥٦.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

سبب النزول

نقل عن ابن عباس أنّ هذه الآيه نزلت في شأن جمع من كبار شخصيات أهل الكتاب-مثل عبد الله بن سلام و أسد بن كعب و أخيه أسيد بن كعب و نفر آخر من هؤلاء-و السبب هو أنّهم قدموا منذ البدايه على الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و قالوا له: إنّهم قد آمنوا به و بكتابه السماوى و بموسى و التوراه و العزيز،و لم يؤمنوا ببقية الأنبياء، فنزلت هذه الآيه و أعلمتهم ضروره الإيمان بجميع الأنبياء و الكتب السماويه (١).

التفسير

يتبين من سبب النزول أنّ الكلام في الآيه موجه إلى جمع من مؤمنى أهل

ص: ٤٨٨



الكتاب الذين قبلوا الإسلام، و لكنهم لعصبيات خاصه أبوا أن يؤمنوا بما جاء قبل الإسلام من أنبياء و كتب سماويه غير الدين الذى كانوا عليه، فجاءت الآيه توصيهم بضروره الإيمان و الإقرار و الاعتراف بجميع الأنبياء و المرسلين و الكتب السماويه، لأن هؤلاء جميعا يسرون نحو هدف واحد، و هم مبعوثون من مبدأ واحد (علما بأن لكل واحد منهم مرتبه خاصه به، فكل واحد منهم جاء ليكمل ما أتى به النبى أو الرسول الذى سبقه من شريعه و دين).

و لذلك فلا- معنى لقبول البعض و إنكار البعض الآخر من هؤلاء الأنبياء و الرسل، فالحقيقه الواحده لا- يمكن التفريق بين أجزائها، و أن العصبيات ليس بإمكانها الوقوف أمام الحقائق، لذلك تقول الآيه الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ...﴾ .

و بعض النظر عن سبب النزول المذكور، فإننا لدى تفسيرنا لهذه الآيه نحتمل أن يكون الخطاب موجها فيها لعامة المؤمنين، أولئك الذين اعتنقوا الإسلام إلا أنه لم يتغلغل بعد فى أعماق قلوبهم، و لهذا السبب يطلب منهم أن يكونوا مؤمنين من أعماقهم.

كما يوجد احتمال آخر، و هو أن الكلام فى هذه الآيه موجه لجميع المؤمنين الذين آمنوا بصوره إجماليه باللّه و الأنبياء، إلا أنهم ما زالوا لم يتعرفوا على جزئيات و تفاصيل العقائد الإسلاميه.

و من هذا المنطلق يبين القرآن أن المؤمنين الحقيقيين يجب أن يعتقدوا بجميع الأنبياء و الكتب السماويه السابقه و ملائكه اللّه، لأن عدم الإيمان بالمذكورين يعطى مفهوم إنكار حكمه اللّه، فهل يمكن أن يترك اللّه الحكيم الملل السابقه بدون قائد أو زعيم يرشدهم فى حياتهم؟! و هل أن الملائكه المعنيين بالآيه هم ملائكه الوحي فقط-الذين يعد

الإيمان بهم جزء لا يتجزأ من الإيمان الضروري بالأنبياء و الكتب السماويه، أو أنهم جميع الملائكه؟ فكما أن بعض الملائكه مكلفون بأمر الوحي و التشريع، يلتزم جمع آخر منهم بتدبير و إرادته عالم الكون و الخلقه؛ و إن الإيمان بهم فى الحقيقه جزء من الإيمان بالله سبحانه و تعالى و قد بينت الآيه فى آخرها-مصير الذين يجهلون هذه الحقائق، حيث قالت: وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا.

و فى هذه الآيه اعتبر الإيمان واجبا و ضروريا بخمسه مبادئ، فبالإضافه إلى ضروره الإيمان بالمبدأ و المعاد، فإن الإيمان لازم و ضرورى بالنسبه إلى الكتب السماويه و الأنبياء و الملائكه.

إنّ عبارته «ضلال بعيد» عبارته دقيقه، و تعنى أنّ الذين لا يؤمنون بالمبادئ الخمسه الماره الذكر، قد انجرفوا خارج الصراط أو الطريق المبدئى، و أن عودتهم إلى هذا الطريق لا تتحقق بسهولة.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْتَعُونَ عَنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)

التفسير

اشاره

مصير المنافقين المعاندين:

تماشياً مع البحث الذى ورد فى الآيه السابقه و الذى تناول وضع الكفار و ضلالهم البعيد، تشير هذه الآيات الأخيره إلى وضع مجموعه من الكفار الذين يتلونون فى كل يوم تلون الحرباء، فهم فى يوم إلى جانب المؤمنين، و فى يوم آخر إلى جانب الكفار، ثم إلى جانب المؤمنين، و فى النهايه إلى جانب الكفار المعاندين، حتى يموتوا على هذه الحاله! فالآيه الأولى من الآيات الثلاثه الأخيره تتحدث عن مصير أفراد كهؤلاء، فتؤكد بأن الله لن يغفر لهم أبداً، و لن يرشدهم إلى طريق الصواب: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا .

إنّ هذا السلوك الحربيّ في التلون المتوالى، إنّما أن يكون نابعا من الجهل و عدم إدراك الأسس الإسلاميه، و إنّما أن يكون خطّه نفضها المنافقون و الكفار المتطرفون من أهل الكتاب لزعه إيمان المسلمين الحقيقيين، و قد سبق شرح هذا الموضوع في الآيه (٧٢) من سوره آل عمران.

و لا تدل الآيه-موضوع البحث-على عدم قبول توبه أمثال هؤلاء، و لكنها تتناول أفرادا يموتون و هم في كفر شديد، فإنّ هؤلاء-نتيجه لأعمالهم-لا يستحقون العفو و الهدايه إلا إذا غيروا اسلوبهم ذلك.

ثمّ تؤكّد الآيه التاليه نوع العذاب الذي يستحقه هؤلاء فتقول: **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .**

و استخدام عباره (بشر) في الآيه إنّما جاء من باب التهكم و الاستهزاء بالأفكار الخاويه الواهيه التي يحملها هؤلاء المنافقون، أو أنّ عباره مشتقه من المصدر «بشر» بمعنى الوجه، و في هذه الحاله تحتمل معانى واسعه فتشمل كل خبر يؤثر في سحنه الإنسان، سواء كان الخبر مفرحا أو محزنا.

و قد أشارت الآيه الأخيره إلى المنافقين بأنهم يتخذون الكفار أصدقاء و أحباء لهم بدلا من المؤمنين، بقولها: **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .**

ثمّ يأتي التساؤل في الآيه عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبه الكافرين، و هل أنّهم يريدون حقّا أن يكتسبوا الشرف و الفخر عبر هذه الصحبه؟ تقول الآيه:

**أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ**

بينما العزه و الشرف كلها لله فإنّ العزّة لله جميعاً لأنّها تنبع من العلم و القدره، و أن الكفار لا يمتلكون من القوّه و العلم شيئا، و لذلك فإنّ علمهم لا شيء أيضا، و لا يستطيعون إنجاز شيء لكي يصبحوا مصدرا للعزّه و الشرف.

إنّ هذه الآيه-في الحقيقه-تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر و العزّه

فى شؤونهم الاقصاديه و السياسيه و الاجتماعيه و الثقافيه عن طريق إنشاء علاقات الود و الصداقه مع اعداء الاسلام، بل إن عليهم أن يعتمدوا فى ذلك على الذات الإلهيه الطاهره التى هى مصدر للعزه و الشرف كله، و أعداء الإسلام لا عزه لديهم لكى يهبوها لأحد، و حتى لو امتلكوها لما أمكن الركون إليهم و الاعتماد عليهم، لأنهم متى ما اقتضت مصالحهم الشخصيه تخلوا عن أقرب حلفائهم و ركضوا وراء مصالحهم، و كأنهم لم يكونوا ليعرفوا هؤلاء الحلفاء مسبقاً، و التاريخ المعاصر خير دليل على هذا السلوك النفعى الانتهازى.

## اشاره

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَجَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)

## سبب النزول

نقل عن ابن عباس أنّ نفرا من المنافقين كانوا يحضرون اجتماعات لعلماء اليهود، حيث كانوا يستهزئون بآيات القرآن في تلك الاجتماعات، فنزلت هذه الآيه و أوضحت النهايه المشؤومه لهذه اللقاءات.

## التفسير

### اشاره

**التهى عن المشاركه فى مجالس يعصى الله فيها:**

لقد ورد فى الآيه (٤٨) من سوره الانعام أمر صريح إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى أن يعرض عن أناس يستهزئون بآيات القرآن و يتكلمون بما لا يليق، و طبعى أنّ هذا الحكم لا ينحصر بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم، و وحده بل يعتبر حكما و أمرا عاما يجب على جميع المسلمين اتّباعه، و قد جاء هذا الحكم على شكل خطاب موجه إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم،

و فلسفته جليه واضحه، لأنه يكون بمثابة كفاح سلبي ضد مثل تلك الأعمال.

و الآيه هذه تكرر الحكم المذكور مره أخرى، و تحذر المسلمين مذكرة إياهم بحكم سابق فى القرآن نهى فيه المسلمون عن المشاركة فى مجالس يستهزأ فيها و يكفر بالقرآن الكريم، حتى يكف أهل هذه المجالس عن الاستهزاء و يدخلوا فى حديث آخر، تقول الآيه: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .

بعد ذلك تبين الآيه لنا نتيجة هذا العمل، و تؤكد أن من يشارك فى مجالس الاستهزاء بالقرآن فهو مثل بقية المشاركين و سيكون مصيره نفس مصير أولئك المستهزئين، تقول الآيه: إِنَّكُمْ إِذَا مِثَلْتُمْ .

ثم تكرر الآيه التأكيد على أن المشاركة فى المجالس المذكوره تدل على الروحيه النفاقية التى يحملها المشاركون، و إن الله يجمع المنافقين و الكافرين فى جهنم حيث العذاب الأليم، تقول الآيه: إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

### إِنَّ الْآيَةَ تَخْبِرُنَا عَنْ عَدِهِ أُمُور:

١- إن المشاركة فى مجالس المعصية تكون بمثابة المشاركة فى ارتكاب المعصية، حتى لو بقى المشارك ساكتا أو ساكتا و لم يشارك فى الاستهزاء بنفسه، لأن السكوت فى مثل هذه الأحوال دليلا على رضا صاحبه بالذنب المرتكب.

٢- لو تعذر النهى عن المنكر بالشكل الإيجابى له، فلا بد أن يتحقق النهى و لو بالصورة السلبية، مثل أن يتعد الإنسان عن مجالس المعصية و يتجنب الحضور فيها.

٣- إن الذين يشجعون أهل المعاصى بسكوتهم و حضورهم فى مجالس المعصية، إنما يجازون و يعاقبون بمثل عقاب العصاة أنفسهم.

٤- لا ضير من مجالسه الكفار إن لم يدخلوا في حديث فيه استهزاء و كفر بالآيات الإلهيه و لم تكن هذه المجالسه تحمل خطرا آخر، و يدل على إباحه المشاركه في مجالس الكفار التي لا يعصون فيها الله قوله تعالى في الآيه: حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ

٥- إنَّ المجامله و المداهنه مع العاصين المذنبين، إنما تدل على وجود روح النفاق لدى الشخص المجامل، و ذلك لأن المسلم الحقيقى الواقعى لا- يمكنه أن يشارك في مجلس يعصى فيه الله و يستهزأ بآياته الكريمه و أحكامه الساميه، دون أن يبدى اعتراضا على هذه المعاصى، أو- على الأقل- أن عدم رضاه عليها بترك هذا المجلس.

ص: ٤٩٦



اشاره

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

التفسير

اشاره

صفات المنافقين:

تبيّن هذه الآيه -و آيات أخرى تاليه- قسما آخر من صفات المنافقين و أفكارهم المضطربه، فتؤكد أنّ المنافقين يسعون دائما لاستغلال أى حدث لصالحهم، فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين، زاعمين بأنهم شاركوا المؤمنين فى تحقيق النصر و ادعوا بأنهم قدموا دعما مؤثرا للمؤمنين فى هذا المجال، مطالبين بعد ذلك بمشاركه المؤمنين فى الثمار المعنويه و الماديه للنصر حيث تقول الآيه فى حقهم: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ....

و هؤلاء المنافقون ينقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهرى من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء، و يعلنون لهم الرضى و الموافقه

بقولهم أنهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين و عدم الاستسلام لهم، و يدعون بأنهم شركاء فى النصر الذى حققه أعداء الإسلام تقول الآية: **وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ... (١)**.

و على هذا المنوال تحاول هذه الفئة المنافقه أن تستغل الفرصه لدى انتصار المسلمين ليكون لهم نصيب من هذا النصر و سهم من الغنائم، و لإظهار المنه على المسلمين، و فى حاله انكسار المسلمين تظهر هذه الفئة الرضى و الفرح لدى الكفار، و تدفعهم إلى الإصرار على كفرهم و تتجسس لصالحهم، و تهيب لهم أسباب الفوز المادى، فهم تاره رفاق الطريق مع الكفار، و تاره شركاؤهم فى الجريمة، و هكذا يمزون حياتهم بالتلون و النفاق و اللعب على الحبال المختلفه.

و لكن القرآن الكريم يوضح بعبارة واحده مصير هؤلاء و نهايتهم السوداء، و يبين أنهم-لا محاله-سيلاقون ذلك اليوم الذى تكشف فيه الحجب عن جرائمهم و يرفع النقاب عن وجوههم الكريهه، و عند ذلك-أى فى ذلك اليوم، و هو يوم القيامه-سيحكم الله بينهم و هو أحكم الحاكمين، فتقول الآية فى هذا المجال: **فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**.

و لكى يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء، تؤكد هذه الآية-فى آخرها-بأن الله لن يجعل للكافرين مجالاً للانتصار أو التسلط على المسلمين، و ذلك حيث تقول الآية: **وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**.

و هنا يرد هذا السؤال، و هو: هل أن العبارة الأخيره تفيد عدم انتصار الكفار على المؤمنين من حيث المنطق، أو أنها تشمل عدم انتصار الكفار من الناحيه العسكريه أيضاً؟ و لما كانت كلمه «سبيل» نكره جاءت فى سياق النفى و تؤدى معنى عاماً،

ص: ٤٩٨

---

١-١) -إن عبارة «استحوذ» مشتقه من «حوذ» و هى تعنى هنا دفع أو ساق إلى القيام بأمر معين.

لذلك يفهم من الآيه أن الكافرين بالإضافة إلى عدم انتصارهم من حيث المنطق على المؤمنين، فهم لن ينتصروا و لن يتسلطوا على المؤمنين فى أى من النواحي العسكريه و السياسيه و الثقافيه و الاقتصاديه، بل و لا فى أى مجال آخر.

و ما نشاهده من انتصار للكافرين على المسلمين فى الميادين المختلفه، إنما هو بسبب أنّ المسلمين المغلوبين لم يكونوا ليمثلوا- فى الحقيقه- المسلمين، المؤمنين الحقيقيين، بل هم مسلمون نسوا آدابهم و تقاليدهم الإيمانيه، و تخلوا عن مسئولياتهم و تكاليفهم و واجباتهم الدينيه بصوره تامه، فلا كلام عن الاتحاد و التضامن و الأخوه الإسلاميه بينهم، و لا هم يقومون بواجب الجهاد بمعناه الحقيقى، كما لم يبادروا إلى اكتساب العلم الذى أوجبه الإسلام و جعله فريضه على كل مسلم و مسلمه و دعا إلى تحصيله و طلبه من يوم الولاده حتى ساعه الوفاه، حيث

قال النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: «أطلب العلم من المهد إلى اللحد».

و لما أصبحوا هكذا فقد استحقوا أن يكونوا مغلوبين للكفار.

و قد استدل جمع من الفقهاء بهذه الآيه على أنّ الكفار لا يمكن أن يتسلطوا على المسلمين المؤمنين من الناحيه الحقيقه و الحكميه، و نظرا للعموميه الملحوظه فى الآيه، لا يستبعد أن تشمل الآيه هذا الأمر أيضا.

و ممّا يلفت النظر فى هذه الآيه هو التعبير عن انتصار المؤمنين بكلمه «الفتح» بينما عبرت الآيه عن انتصار الكفار بكلمه «النصيب» و هو إشاره إلى أن انتصار الكفار إنما هو نصيب محدود و زائل، و أنّ الفتح و النصر النهائى هو للمؤمنين.

اشاره

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَآؤُنَ النَّاسَ وَلا يُذَكِّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)  
مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ وَلا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)

التفسير

لقد وردت في هذه الآيه خمس صفات للمنافقين، في عبارته قصيره، وهى: - ١- إن هؤلاء- لأجل تحقيق أهدافهم الدنيه- يتوسلون بالخدعه و الحيله، حتى أنهم يريدون على حسب ظنهم أن يخدعوا الله تعالى أيضا، ولكنهم يقعون في نفس الوقت و من حيث لا- يشعرون في حبال خدعتهم و مكرهم، إذ هم- لأجل اكتساب ثروات ماديه تافهه- يخسرون الثروات الكبيره الكامنه في وجودهم، تقول الآيه في هذا المجال: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ...

و يستفاد التفسير المذكور أعلاه بالواو الحالیه الوارده مع عبارته: وَهُوَ خَادِعُهُمْ .

هناك قصه مشهوره مفادها أن أحد الأکابر كان ينصح أهل الحرف من

مواطنيه، بأن ينتبهوا لكي لا يخدعهم المسافرون الغرباء، فقال أحدهم: كيف يمكن للغرباء البسطاء الذين لا يعرفون شيئاً عن وضع المدينة و أهلها، أن يخدعوا أهل الحرف فيها نحن بمقدورنا خداع أولئك الغرباء، فأجابهم بأن قصده من الانخداع بالغرباء هو هذا المعنى، أى أن تنالوا من هؤلاء ثروه تافهه بالخداع، و تفقدوا بذلك ثروه الإيمان العظيمه! ٢- إنَّ المنافقين بعيدون عن رحمه الله، و لذلك فهم لا- يتلذذون بعباده الله و التقرب إليه، و يدل على ذلك أنهم حين يريدون أداء الصَّلاه يقومون إليها و هم كسالى خائر و القوى، تقول الآيه فى هذا الأمر: وَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى... .

٣- و لما كان المنافقون لا- يؤمنون بالله و بوعوده، فهم حين يقومون بأداء عباده معينه، إنما يفعلون ذلك رياء و نفاقاً و ليس من أجل مرضاه الله، تقول الآيه:

يُرَآؤْنَ النَّاسَ...

٤- و لو نطقت ألسن هؤلاء المنافقين بشيء من ذكر الله، فإنَّ هذا الذكر لا يتجاوز حدود الألسن، لأنَّه ليس من قلوبهم، و لا هو نابع من وعيهم و يقظتهم، و حتى لو حصل هذا الأمر فهو نادر و قليل، تقول الآيه: وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا .

٥- إنَّ المنافقين يعيشون فى حيره دائمه و دون أى هدف أو خطه لطريقه الحياه معينه، و لهذا فهم يعيشون حاله من التردد و التذبذب، فلا هم مع المؤمنين حقاً و لا هم يقفون إلى جانب الكفار ظاهراً، و فى هذا تقول الآيه الكريمه:

مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ...

و يحسن هنا الالتفات إلى أن كلمه «مذبذب» اسم مفعول من الأصل «ذبذب» و هى تعنى فى الأصل صوتاً خاصاً يسمع لدى تحريك شيء معلق إثر تصادمه بأمواج الهواء، و قد أطلقت كلمه «مذبذب» على الإنسان الحائر الذى يفتقر إلى

الهدف أو إلى أى خطّه و طريقه للحياه.

هذا واحد من أدق التعابير التى أطلقها القرآن الكريم على المنافقين، كما هى إشاره إلى إمكانيه معرفه المنافقين عن طريق هذا التذبذب الظاهر فى حركتهم و نطقهم، كما يمكن أن يفهم من هذا التعبير أن المنافقين هم كشيء معلق يتحرك بدون أى هدف و ليس لحركته أى اتجاه معين، بل يحركه الهواء من أى صوب كان اتجاهه و يأخذه معه إلى الجبهه التى يتحرك فيها.

و تبين الآيه فى الختام مصير هؤلاء المنافقين، و توضح أنّهم أناس قد سلب الله عنهم حمايته نتيجة لأعمالهم و تركهم يتيهون فى الطريق المنحرف الذى سلكوه بأنفسهم، فهم لن يهتدوا أبدا إلى طريق النجاه، لأنّ الله كتب عليهم التيه و الضلاله عقابا لهم على أعمالهم.

تقول الآيه الكريمه فى ذلك: **وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا**، (و قد شرحنا معنى الإضلال، و بيّنا كيف أنه لا يتنافى مع حريه الإراده و الانتخاب، و ذلك فى الجزء الأول من هذا التفسير فى هامش الآيه (٢٤) من سوره البقره).

ص: ٥٠٢

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)

التفسير

لقد أشارت الآيات السابقة إلى قسم من صفات المنافقين، والآيات التالية - هذه - تحذر المؤمنين و تأمرهم أن لا يعتمدوا على المنافقين و الكفار بدل الاعتماد على المؤمنين، و أن لا يطلبوا النصره منهم يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

و تبين أن الاعتماد على الكفار يعتبر جريمه و خرقا صارخا للقانون الإلهي و شركا بالله، و نظرا لقانون العدل الإلهي فإن هذه الجريمه تستحق عقابا شديدا، حيث تؤكد الآية: أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١) .

ص: ٥٠٣

١- ١) - إن كلمة «سلطان» مشتقه من ماده أو مصدر «سلاطه» على وزن «مقاله» و هى تعنى القوه و القدره على التغلب

و في الآيه الثانيه من الآيات الأخيره بيان لأحوال المنافقين،الذين اتخذهم بعض الغافلين من المؤمنين أصدقاء لأنفسهم،حيث توضح الآيه أنّ المنافقين يستقرون في القيامة في أحط و أسفل دركه من دركات جهنم،و لن يستطيع أحد أن ينصرهم أو ينقذهم من هذا المصير أبدا،تقول الآيه: **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . (١)**

و يتبين من هذه الآيه أن النفاق في نظر الإسلام أشد أنواع الكفر،و إن المنافقين أبعد الخلق من الله،و لهذا السبب فإن مستقرهم و مكانهم النهائي في أحط نقطه من نقاط جهنم،و هم يستحقون هذا العقاب،لأنّ ما يلحق البشريه من ويلات من جانب هؤلاء هو أشد خطرا من كل الأخطار، فإنّ هؤلاء بسبب احتمائهم بظاهر الإيمان يحملون بصوره غادره و بمطلق الحره على المؤمنين العزل و يطعنونهم من الخلف بخناجرهم المسمومه،و بديهى أن يكون حال اعداء -كهؤلاء- يظهرن بلباس الأصدقاء،أشدّ خطرا من الأعداء المعروفين الذين يعلنون عداوتهم صراحه،و في الواقع فإنّ التّفاق هو أسلوب و سلوك كل فرد ابتر و منحط و مشبوه و جبان و ملوث بكل الخبائث و من لا شخصيه له.

و قد أوضحت الآيه الثالثه من الآيات الأخيره،أنّ المجال مفتوح حتى لأكثر الناس تلوثا للتوبه من أعمالهم و إصلاح شأنهم،و السعى للتعويض بالخير عن ماضيهم المشين،و العوده إلى رحمة الله و التمسك بحبله و الإخلاص لله بالإيمان به تقول الآيه: **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ .**

(١)

على الآخرين،و في كلمه «سلطان»معنى لاسم المصدر حيث تطلق على كل أنواع التسلط،و لهذا السبب تطلق كلمه «سلطان»أيضا على «السبب»الذى يسلط الإنسان على الآخرين من أمثاله،كما تطلق على أصحاب القدره و النفوذ،و لكنها في الآيه المذكوره أعلاه إنما تعنى الحججه و الدليل.

ص: ٥٠٤

١ - ١) - إنّ كلمه «درك»تعنى أحط نقطه في أعماق البحر،و يسمى آخر جبل متصل بالجبال التى توصل الإنسان إلى قعر البحر،ب«الدرك»أيضا،و يظهر أن هذه المعانى مأخوذه من معنى «درك الشئ»أى الوصول إليه-كما تسمى السلالم التى توصل الإنسان إلى موضع سفلى كالسرداب و البئر ب«الدرك»و هذه العبارة تقابل السلالم التى يتسلق بها الإنسان إلى أعلى حيث تسمى بالدرجات.



فالتائبون هؤلاء سيكونون أهلاً للنجاه فى النهايه و يستحقون صحبه المؤمنين، تقول الآيه: فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ... .

و إِنَّ اللَّهَ سَيَهَبُ ثَوَابًا وَ أَجْرًا عَظِيمًا لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا .

و مِمَّا يلفت النظر أَنَّ الآيه تبيّن أن هؤلاء التائبين مع المؤمنين، و ذلك للتدليل على أن منزله المؤمنين الثابتين أكبر و أعظم من منزله هؤلاء، فالمؤمنون الراسخون فى إيمانهم هم الأصل، و هؤلاء هم الفروع، و ما يظهر عليهم من نور و صفاء إنّما هو بسبب وجودهم فى ظل المؤمنين الراسخين.

و هناك أمر ثان يجب الانتباه إليه فى هذه الآيه، و هو أنّها بيّنت مسير المنافقين بصوره واضحه و صريحه، إذ عينت لهم أحط نقطه من الجحيم مكانا و مستقرا، بينما شخصت للمؤمنين الأجر و الثواب العظيم الذى لا حدّ له و لا حصر، بل هو منوط بعظمه الله و لطفه جلت عظمته.

ص: ٥٠٥

اشاره

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)

التفسير

اشاره

العقاب الإلهي ليس دافعه الانتقام:

لقد أظهرت و بينت الآيات السابقه صورا من عقاب الكافرين و المنافقين، و الآيه الأخيره-التي هي موضوع بحثنا الآن-تشير إلى حقيقه ثابتة و هي أنّ العقاب الإلهي الموجه للبشر العاصين ليس بدافع الانتقام و لا هو بدافع التظاهر بالقوه، كما أنه ليس تعويضا عن الخسائر الناجمه عن تلك المعاصي، فهذه الأمور إنّما تحصل ممن في طبيعته النقص و الحاجه، و الله سبحانه و تعالى منزّه من كل نقص و لا يحتاج أبدا إلى شيء.

إذن فالعقاب الذي يلحق الإنسان لما يرتكبه من معاصي، إنّما هو انعكاس للنتائج السيئه التي ترتبت على تلك المعاصي-سواء كانت فعلية أو فكرية- و لذلك يقول الله تعالى عزّ من قائل في هذه الآيه: مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ .

و بالنظر إلى أنّ حقيقه الشكر هي أن يستغل الإنسان النعم التي وهبها الله له

فى الجهات المخصفه لها فى الطبعه و الخلق، ىتضح لنا أن القصد من الآيه إنما هو: إن من يؤمن و يعمل الخير و ىستغل الهبات الإلهيه فى المجالات التى خصصت لها من حيث الخلق- دون إساءه هذا الاستغلال- فلا شك أن هذا الإنسان المؤمن لا يصيبه أى عقاب من الله، و لتأكيد هذا الأمر تضيف الآيه مبینة أن الله عالم بأعمال و نوايا عباده، و هو ىشكر و ىثب كل من ىفعل الخير من العباد لوجه الله. فتقول الآيه: وَ كَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا .

و قد قدمت هذه الآيه مسأله الشكر على الإيمان لأجل بیان هذه الحقيقه، و هى أن الإنسان ما لم ىدرك نعم الله و هباته العظیمه و ىشكره على هذه النعم فلن ىستطیع التوصل إلى معرفه الله و الايمان به، لأن أنعمه سبحانه و تعالى إنما هى وسائل لمعرفة.

و قد ورد فى كتب العقیده الإسلاميه فى بحث «وجوب معرفه الله» عن جمع من الباحثين أنهم استدلوا على معرفه الله بوجوب شكر النعم و جعلوا من الوجوب الفطرى لشكر المنعم دليلا على لزوم معرفته (فدقق).

اشاره

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنَّ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)

التفسير

اشاره

فى هذه الآيه إشارتان إلى التكليف الأخلاقيه الإسلاميه:

الأولى: تبين أن الله لا يحب التجاهر بالكلام البذىء، ولا يرضى بما يصدر من كلام عن عيوب الناس و فضائح أعمالهم، فتقول الآيه: لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ....

إن عدم الرضى من نشر فضائح أعمال الناس، تابع من حقيقه أن الله هو ستار العيوب، فلا يجب أن يقوم عباده بكشف سيئات الآخرين من أمثالهم أو الإساءه إلى سمعتهم، و ممّا لا يخفى على أحد هو أن لكل إنسان نقاط ضعف خفيه، و لو انكشفت هذه العيوب لساد المجتمع جو من سوء الظن بين أفراده، فيصعب عندئذ قيام التعاون بين هؤلاء الأفراد، لذلك منع الإسلام و حرّم التحدث عن نقائص أو فضائح أعمال الآخرين دون وجود هدف سليم، لتبقى الأواصر الاجتماعيه قويه مستحكمه، و رعايه للجوانب الإنسانيه الأخرى فى هذا المجال.

و تجدر الإشارة إلى أنّ كلمه «سوء» تشمل كل أنواع القبح و الفضيحه، و المقصود من عباره «الجهر...من القول» هو كل حاله من الكشف و الفضح اللفظى، سواء كان بصوره شكوى، أو على شكل حكايه أو لعن أو ذم أو غيبه.

و قد استدل بهذه الآيه-أيضا على تحريم الغيبه، إلا أن مفهومها لا ينحصر بهذه الصفه الأخيره، بل يشمل كل أنواع الكلام البدىء و المذموم.

إلا- أنّ الآيه الكريمة لم تحرم القول بالسوء تحريما مطلقا، فقد استثنت حاله يمكن فيها أن يصار إلى الكشف و الفضح، و هذه الحاله هى إذا وقع الإنسان مظلوما حين قالت الآيه: **إِلَّا مَنْ ظَلِمَ** و بهذا الدليل يستطيع المظلوم- فى مقام الدفاع عن نفسه- أن يكشف فضائح الظالم، سواء عن طريق الشكوى أو فضح مساوى الظالم أو توجيه النقد له، أو استغابته، و لا يسكت على الظلم حتى استعاد حقوقه من الظالم.

و حقيقه هذا الاستثناء هى أنّ الله أراد به أن يسلب من الظالمين فرصه إساءه استغلال حكم المنع و التحريم، و لكى لا يكون هذا الحكم سببا فى سكوت المظلوم عن المطالبه بحقه من الظالم.

واضح من الآيه بأنّ عمليه الكشف و الفضح يجب أن تنحصر فى إطار بيان مساوى الظالم لدى الدفاع عن المظلومين أو لدى دفاع المظلوم عن نفسه.

و لكى تسد الآيه الطريق على كل انتهازى كاذب يريد إساءه استغلال هذا الحكم بدعوى وقوع الظلم عليه أكدت على أنّ الله يراقب أعمال البشر و يعلم و يسمع بكل ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآيه: **وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**.

و فى الآيه التاليه يشير القرآن الكريم إلى النقطه المواجهه لهذا الحكم، حيث يبيح التحدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها(على عكس المساوى التى يجب أن تكتم إلا فى حاله استثنائيه) كما تبيح-أو بالأحرى تحث-الفرد على إصدار العفو على من ارتكب السوء بحقه، لأنّ العفو عند المقدره من صفات الله العزيز

القدير الذى يعفو عن عباده مع امتلاكه القدره على الانتقام بأى صورته شاء، فتقول الآية فى هذا المجال: **إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا** .

### العفو عن المعتدى و أثره على نزعه العدوان:

سؤال يطراً هنا على الذهن و هو: ألا يعتبر العفو عن الظالم المعتدى تأييداً لظلمه و تشجيعاً لنزعه العدوان لديه؟ ألا يؤدي العفو إلى ظهور حاله سلبيه من اللامبالاه لدى المظلومين.

و الجواب هو: أن العفو لا يصله له بمسأله تحقيق العدل و مكافحه الظالم، و الدليل على ذلك ما نقرؤه فى الأحكام الإسلاميه من نهى عن ارتكاب الظلم و أمر بعدم الخضوع له، كما فى الآيه **لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (١)** و قول أمير المؤمنين على عليه السلام «كونا للظالم خصما و للمظلوم عوناً» (٢) و قوله تعالى: **فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ (٣)** .

كما نقرأ من جانب آخر الأمر بالعفو و الصفح كما فى قوله تعالى: **وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (٤)** و قوله: **وَ لِيَعْفُوا وَ لِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ . (٥)**

من الممكن أن يتبادر إلى ذهن بعض البسطاء أن هناك تناقضا بين هذين الحكمين، و لدى الإمعان فيما ورد فى المصادر الإسلاميه فى هذا المجال، يتضح أن العفو و الصفح يجب أن يكون فى موضع بحيث لا يساء استغلاله، و إن الدعوه إلى مكافحه الظلم و قمع الظالم يكون له مجال آخر.

ص: ٥١٠

١-١) -البقره، ٢٧٩.

٢-٢) -نهج البلاغه، الوصيه رقم ٤٨.

٣-٣) -الحجرات، ٩.

٤-٤) -البقره، ٢٣٧.

٥-٥) -النور، ٢٢.

و يجدر توضيح أنّ العفو و الصفح يكونان لدى تملك القدره و عند الإنتصار على العدو و هزيمته النهائيه، أى فى حال لا  
يحتمل فيها حصول أى خطر جديد من جانب العدو، و يكون العفو و الصفح عنه سببا لإصلاحه و استقامته و دفعه إلى إعاده  
النظر فى سلوكه، و التاريخ الإسلامى فيه أمثله كثيره فى هذا المجال، و

الحديث المشهور القائل «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدره عليه» (1) خير دليل على هذا القول.

أمّا فى حاله وجود خطر من جانب العدو، و احتمال أن يؤدى العفو عنه إلى تجريه و تماديه أكثر فى عدوانه، أو إذا اعتبر العفو  
استسلاما للظلم و خضوعا أمامه و رضى به، فإنّ الإسلام لا يجيز مطلقا مثل هذا العفو، و كما أن أئمه الإسلام لم ينتخبوا طريق  
العفو فى مثل هذه المجالات.

ص: ٥١١

---

(١ - ١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه العاشره.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

التفسير

اشاره

لا تمييز بين الأنبياء:

تحدثت الآيات الأخيره عن مواقف طائفه من الكافرين، و مواقف أخرى لطائفه من المؤمنين، كما ذكرت هذه الآيات نهايه كل من الطائفتين، و هى بهذا تأتى مكمله للآيات السابقه التى تحدثت بشأن المنافقين.

و تشير الآيه الأولى إلى طائفه فرقوا بين الأنبياء، فاعتبروا بعضهم على حق و البعض الآخر على باطل، فتؤكد أنّ هذا النفر من الناس كفار حقيقيون.

و الواقع أنّ هذه الآيه توضح موقف اليهود و النصارى، فاليهود كانوا يرفضون الإيمان بالنبي عيسى نبي النصارى، و اليهود و النصارى معا كانوا يرفضون



الإذعان لنبوه نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي حِينِ أَنْ كَتَابِيهِمُ السَّمَاوِيِّينَ قَدْ أَثْبَتَا نُبُوهُ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ.

و هذا التمييز بين الحقائق الثابتة و قبول بعضها و رفض البعض الآخر، سببه أنّ هؤلاء كانوا يتبعون أهواءهم و نزواتهم و يسيرون وراء عصبياتهم الجاهلية، و ينبع أحيانا من حسد هؤلاء و نظرتهم الضيقة.

و هذا دليل عدم إيمان هؤلاء بالأنبياء و بالله، لأنّ الإيمان ليس هو قبول ما طابق هوى النفس أو رفض ما يخالف الأهواء و الميل، فهذه الحالة ما هي إلا نوع من عبادة الهوى و لا صلة لها بالإيمان، فالإيمان الحقيقي هو ذلك الذي يدفع الإنسان إلى قبول الحقيقة - سواء طبقت هواه و ميوله أو خالفتهما - و لذلك فإنّ القرآن الكريم اعتبر الذين يزعمون أنّهم يؤمنون بالله و ببعض الأنبياء كفارا حقيقين، و على هذا الأساس فإن ما يتظاهرون به من إيمان لا حقيقه و لا قيمه له مطلقا، لأنّه لا ينبع من روح طلب الحقيقة.

و القرآن الكريم يهدد هؤلاء - و أمثالهم - بأنهم يلقون الذل و الهوان، حيث تقول الآية: **وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** و قد يكون وصف العذاب في هذه الآية بـ «المهين» سببه أنّ هؤلاء بقبولهم بعض الأنبياء و رفضهم الإيمان بالبعض الآخر منهم، إنّما يوجّهون الإهانة بحق عدد من الأنبياء، لذلك يجب أن ينال هؤلاء عذابا مهينا يتناسب و اهانتهم تلك.

### **التناسب بين الذنب و العقاب:**

و يجدر هنا توضيح أنّ العذاب قد يكون أليما أحيانا، مثل: الجلد و التعذيب الجسدى، و قد يكون مهينا كرش الشخص بالقاذورات، أو يكون العذاب عظيما كأن يكون العقاب أمام أعين الناس، و قد يكون أثره عميقا في نفس الإنسان يستمر معه لمده طويله و يسمى هذا بالعذاب الشديد، و ما إلى ذلك من أنواع العذاب.

و واضح أنّ وصف العذاب بواحد من الصفات يتناسب مع نوع الذنب، و لذلك فقد ورد في كثير من الآيات القرآنيه أنّ عقاب الظالمين هو العذاب الأليم، لأنّه يتناسب و ألم الظلم الذى يمارسه الظالم على المظلوم، و هكذا بالنسبه للأنواع الأخرى من العذاب، و قد قصدنا بهذا الشرح تقريب مسأله العذاب إلى الأذهان، علما بأنّ العذاب الأخرى شىء لا يمكن مقارنته بما هو موجود من عذاب فى حياتنا الدنيويه هذه.

و قد تطرقت الآيه الأخيره إلى موقف المؤمنين الذين آمنوا بالله و بجميع أنبيائه و رسله و لم يفرقوا بين أى من الأنبياء و الرسل و أخلصوا للحق، و كافحوا كل أنواع العصبية الباطله، و بينت أنّ الله سيوفى هؤلاء المؤمنين أجرهم و ثوابهم فى القريب العاجل، فتقول الآيه: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ... .

و بديهي أنّ الإيمان بجميع الأنبياء و الرسل لا يتنافى و مسأله تفضيل بعضهم على البعض الآخر، لأنّ مسأله التفاضل هذه ترتبط ارتباطا وثيقا بأهميه و عظم المسؤوليه التى تحمّلها كل منهم، و طبعي أنّ المسؤوليات المناطه بالأنبياء عليهم السلام تتفاوت من حيث الأهميه و الخطوره بالنسبه لكل منهم، و قد ثبت هذا الأمر بالدليل القطعى و المهم هنا أن لا يحصل تمايز أو تفریق فى الإيمان بالأنبياء و الإقرار بنبوّتهم.

و قد أكدت الآيه فى الختام أنّ الله سيغفر للمؤمنين الذين ارتكبوا اخطاء بالانجرار وراء العصبية و ممارسه التفرقه بين الأنبياء إن أخلص هؤلاء المؤمنون فى إيمانهم و عادوا إلى الله، أى تابوا إليه من اخطائهم السابقه، حيث تقول الآيه: وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

و يجب الانتباه هنا إلى أنّ الآيات الأخيره ذكرت الذين يعمدون إلى التفرقه بين الأنبياء بأنهم كفار حقيقيون، بينما لم تذكر الذين يؤمنون بجميع الأنبياء بأنهم

مؤمنون حقاً و حقيقه، بل وصفتهم بالمؤمنين فقط، وقد يكون هذا التفاوت فى الوصف هو لبيان أنّ المؤمنين حقاً هم أولئك الذين استقرّ الإيمان فى قلوبهم و ظهرت آثاره على أعمالهم، و كما يقول الخبر المأثور بأنّ «الإيمان ما وقر فى القلب و صدقه العمل».

و يدلّ على هذا الأمر آيات وردت فى بدايه سوره الأنفال التى ذكرت المؤمنين بأوصاف عديده: أولها الإيمان بالله، و يلى ذلك إقامة الصّلاه و إيتاء الزكاه و التوكل على الله و الاعتماد عليه، ثمّ يأتى التأكيد بعد سرد هذه الصفات فى قول الله تعالى فى الآية المذكوره: **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا...** .

## اشاره

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)

## سبب النزول

جاء في تفاسير «التبيان» و«مجمع البيان» و«روح المعاني» حول سبب نزول هاتين الآيتين، أن عددا من اليهود جاءوا إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا له: لو كنت حقا نبيا مرسلا من قبل الله فأرنا كتابك السماوي كله دفعه واحده، كما جاء موسى بالتوراه كلها دفعه واحده، فنزلت الآيتان جوابا لهؤلاء اليهود.

## التفسير

## اشاره

### هدف اليهود من اختلاق الأعدار:

تشير الآيه الأولى إلى طلب أهل الكتاب «اليهود» من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينزل عليهم كتابا من السماء كاملا و في دفعه واحده، فتقول:

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ...

و لا شك أنّ هؤلاء لم يكونوا صادقين في نواياهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ الهدف من نزول الكتاب السماوى هو الإرشاد و الهدايه و التربيّه، وقد يتحقق هذا الهدف أحيانا عن طريق نزول كتاب كامل من السماء دفعه واحده، و أحيانا أخرى يتحقق الهدف عن طريق نزول الكتاب السماوى على دفعات و بصورة تدريجيّه.

و بناء على هذا فقد كان الأجدد باليهود أن يطالبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدليل و يسألوه عن تعاليم ساميه قيمه، لا أن يحددوا له طريقه لنزول الكتب السماويه و يطالبوه بأن ينزل عليهم كتابا الطريقه التى عينوها.

و لهذا السبب فضح الله نواياهم السيئه بعد طلبهم هذا، و أوضح للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ هذا العمل هو ديدن اليهود، و أنّهم معروفون بصلفهم و عنادهم و اختلافهم الأعداء مع نبيهم الكبير موسى بن عمران عليه السلام، فقد طلب هؤلاء من نبيهم ما هو أكبر و أعجب إذ سألوه أن يريهم الله جهارا و علنا! تقول الآيه: فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً... .

و ما مصدر هذا الطلب العجيب الغريب البعيد عن المنطق غير الصلف و العناد، فهم بطلبهم هذا قد تبوّأ عقيدته المشركين الوثنيين فى تجسيد الله و تحديده، و قد أدى عنادهم هذا إلى نزول عذاب الله عليهم، صاعقه من السماء أحاطت بهم لما ارتكبه من ظلم كبير، تقول الآيه: فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .

ثمّ تشير الآيه إلى عمل قبيح آخر ارتكبه اليهود، و ذلك حين لجئوا إلى عباده العجل بعد أن شاهدوا بأعينهم المعجزات الكثيره و الدلائل الواضحه، فتقول: ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ... .

و مع كل هذا الصلف و العناد و الشرك، يريهم الله لطفه و رحمته و يغفر لهم لعلمهم يرتدعوا عن غيرهم، و يهب لنبيهم موسى عليه السلام ملكا بارزا و سلطانا مبينا، و يفضح السامرى صاحب العجل و يخمد فتنته و فى هذا تقول الآيه: فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَ آتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا .

لكن اليهود بسبب ما انطوت عليه سريرتهم من شر-لم يستيقظوا من غفلتهم، و لم يخرجوا من ضلالتهم، و لم يتخلوا عن صلفهم و غرورهم، فرفع الله جبل الطور لينزله على رؤوسهم، حتى أخذ منهم العهد و الميثاق و أمرهم أن يدخلوا خاضعين خاشعين-من باب بيت المقدس-دليلا- على توبتهم و ندمهم، و أكد عليهم أن يكفوا عن أى عمل فى أيام السبت، و أن لا- يسلكوا سبيل العدوان، و أن لا يأكلوا السمك الذى حرم صيده عليهم فى ذلك اليوم، و فوق كل ذلك أخذ الله منهم ميثاقا غليظا مؤكدا، و لكنهم لم يثبتوا-مطلقا-وفاءهم لأى من هذه المواثيق و العهود (1) يقول القرآن الكريم فى هذا المجال: وَ رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَ قُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا .

فهل يصح أن تكون هذه المجموعه مع ما تمتلكه من سوابق سيئه و تاريخ أسود صادقه مع النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم فيما طلبته منه و إن كان هؤلاء صادقين، لما ذا إذن لم يلتزموا بما نزل عليهم صريحا فى كتابهم السماوى و حول العلامات الخاصه بخاتم النبیین؟ و لما ذا أصروا على تجاهل كل ما أتى به النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم من براهين و أدله واضحه بينه؟ و هنا تجدر الإشارة إلى أمرين، و هما:

أولاً-لو اعترض معترض فقال: إن تلك الأعمال كانت خاصه باليهود السابقين، فما صلتها باليهود فى زمن النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم؟ فنقول: إن اليهود فى زمن النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم لم يبدوا اعتراضا و استنكارا- أبدا-لأعمال أسلافهم السابقين، بل كانوا يظهرون الرضى عن تلك الأعمال.

ص: ٥١٨

١-١) -للاطلاع أكثر على قضيه جبل الطور، و هل أن رفعه فوق رؤوس اليهود كان نتيجة زلزه، أم هناك عامل آخر و كذلك فيما يتعلق بعجل السامرى، و مساوى اليهود، راجع الجزء الأول من هذا التفسير فى البحث الخاص بهذه المواضع.

أمّا الأمر الثّاني: فيخصّ مسأله نزول التوراه دفعه واحده، حيث قلنا فى سبب نزول الآيتين الأخيرتين: «إنّ اليهود كانوا يزعمون نزول هذا الكتاب السماوى دفعه واحده، فى حين أنّ هذا الأمر لا يعتبر من الأمور المؤكّده، و لعل الشىء الذى أدى إلى حصول هذا الوهم هو الوصايا العشره» التى نزلت فى ألواح دفعه واحده على النّبى موسى عليه السّلام، بينما لا يوجد لدينا دليل على نزول بقيه أحكام التوراه دفعه واحده.

اشاره

فَبِمَا نَقَضْتُمْ هِمَّ مِيثَاقِهِمْ وَكُفِّرْتُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)

التفسير

اشاره

نماذج أخرى من ممارسات اليهود العدوانية:

تشير هذه الآيات إلى نماذج أخرى من انتهاكات بنى إسرائيل و ممارساتهم العدوانية التي واجهوا بها أنبياء الله.

فالآية الأولى تشير إلى قيام اليهود بنقض العهود، و إلى ارتداد بعضهم و كفرهم بآيات الله و قتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب الله و الحرمان من رحمته و حرمانهم من قسم من نعم الله الطاهره.

فقد أنكر هؤلاء آيات الله و كفروا بها بعد نقضهم للعهد و اتبعوا بذلك سبيل



الضلال و لم يكتفوا بهذا الحد، بل تمادوا في غيهم، فارتكبت أياديهم الآثمة جريمة كبرى، إذ عمدوا إلى قتل الهداه و القاده إلى طريق الحق من أنبياء الله، إيغالا منهم في اتباع طريق الباطل و الابتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجه من العناد و الصلف و الوقاحه، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخرية و الاستهزاء، و وصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحه أن قلوبهم تغطيها حجب عن سماع و قبول قول الأنبياء! تقول الآية الأولى من الآيات الأربع الأخيرة: **فَبِمَا نَقْضِهِمْ (١) مِيثَاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ...**

و هنا يؤكد القرآن الكريم أن قلوب هؤلاء مختمه حقا، بحيث لا ينفذ إليها أى حق، و سبب ذلك هو كفرهم و انعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم و صلفهم إلا القليل منهم.

و قد تجاوز هؤلاء المجرمون الحد، فالصقوا بمریم العذراء الطاهره تهمه شنيعه و بهتانا عظيما، هي أم لأحد أنبياء الله الكبار، و ذلك لأنها حملت به بإذن الله دون أن يمسه رجل، تقول الآية في هذا المجال: **وَ كُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا .**

و قد تباهى هؤلاء الجناه و افتخروا بقتلهم الأنبياء، و زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، تقول الآية: **وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ...** و لعل هؤلاء كانوا يأتون بعبارته «رسول الله» استهزاء و نكايه، و قد كذبوا بدعواهم هذه في قتل المسيح، فهم لم يقتلوه و لم يصلبوه، بل صلبوا شخصا شبيها بعيسى المسيح عليه السلام، و إلى هذه الواقعة تشير الآية بقولها:

ص: ٥٢١

١- ١) - إن عبارته «فبما نقضهم» من ناحيه الإعراب جار و مجرور، و يجب أن يكون لها عامل محذوف قد يكون تقديره «لعناهم» أو جملة «حرما عليهم» الوارده في الآية (١٦٠) التاليه، و على هذا الأساس فإن ما ورد في هذا الإطار يكون بمثابة جملة معترضه، تضيفى في مثل هذه الحاله جمالا أكثر على الكلام القرآنى البليغ.

وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَّبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ...

و أكددت الآيه أنّ الذين اختلفوا فى أمر المسيح عليه السّلام كانوا-هم أنفسهم- فى شك من أمرهم، فلم يكن أحدهم يؤمن و يعتقد بما يقول، بل كانوا يتبعون الأوهام و الظن، تقول الآيه: وَ إِنَّ الَّذِينَ اختلفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ... .

و قد بحث المفسّرون حول موضوع الخلاف الوارد فى هذه الآيه، فاحتمل بعضهم أن يكون الخلاف حول منزله و مقام المسيح عليه السّلام حيث اعتبره جمع من المسيحيين ابناً لله، و رفض البعض الآخر- كاليهود- كونه نبياً، و إن كل هؤلاء كانوا على خطأ من أمرهم.

و قد يكون المقصود بالخلاف هو موضوع كيفية قتل المسيح عليه السّلام حيث قال البعض بأنّه قتل، و قال آخرون بأنّه لم يقتل، و لم يكن أى من هاتين الطائفتين ليثق بقول نفسه.

أو لعل الذين ادعوا قتل المسيح وقعوا فى شك من هذا الأمر لعدم معرفتهم بالمسيح عليه السّلام، فاختلفوا فى الذى قتلوه هل كان هو المسيح، أو هو شخص غيره...؟! و يأتى القرآن ليؤكد هنا بأن هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبداً، بل رفعه الله إليه، و الله هو القادر على كل شىء، و هو الحكيم لدى فعل أى شىء، تقول الآيه: وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً .

### اسطوره الصليب؟

يؤكد القرآن الكريم فى الآيه الماره الذكر على أنّ المسيح عليه السّلام لم يقتل و لم يصلب، بل اشتبه الأمر على اليهود فظنوا أنّهم صلبوه، و هم لم يقتلوه أبداً! أمّا الأناجيل الأربعة الموجوده اليوم فى متناول أيدينا فهى كلها تقول بأنّ

ص: ٥٢٢

المسيح عليه السّلام قد صلب و قتل على هذه الصورة، وقد جاء هذا القول فى الفصول الأخيره من هذه الأناجيل الأربعه «متى - لوقا - مرقس - يوحنا» و بصوره تفصيليه.

و المسيحيون اليوم يعتقدون بهذا الأمر بصوره عامّه، و مسأله الصلب أو قتل المسيح عليه السّلام تعتبر اليوم أحد أهم المسائل الأساسيه للديانته المسيحيه، و نحن نعلم أنّ المسيحيين اليوم لا- يعتبرون المسيح عليه السّلام مجرد نبي أرسل لهدايه و إرشاد البشريه، بل يعتقدون بأنّه «ابن الله» من أركان الثالوث المقدس لديهم، و يزعمون بأنّ هدف مجيء المسيح إلى هذا العالم ليكون قربانا يفتدى بنفسه مقابل الخطايا و الآثام التى يرتكبها البشر.

فيقولون: إنّّه جاء ليضحى بنفسه من أجل ذنوبهم و خطاياهم، و قد صلب و قتل ليغسل بدمه ذنوب البشر، و لينقذ البشريه من العقاب، و لذلك فهم يعتقدون بأنّ طريق الخلاص و النجاه من العذاب و العقاب هو الإيمان بهذا الموضوع.

و من هذا المنطلق فهم -أحيانا- يدعون المسيحيه بدين «الإنقاذ» أو دين «الفداء» و يسمّون المسيح عليه السّلام ب«المنقذ» أو «المخلص» أو «الفادى».

و اعتمادهم المفرط على الصليب و اتخاذه شعارا لأنفسهم إنّما يركز على قضيه القتل و الصلب هذه.

كانت تلك نبذه عن عقيدته المسيحيين حول مصير المسيح عليه السّلام.

أمّا المسلمون فلا يشك أحدهم ببطلان و زيف هذه العقيدته، و السبب هو أنّ المسيح عيسى بن مريم عليه السّلام، كان نبيا كسائر أنبياء الله أوّلا، و لم يكن هو الله و لا ابن الله، لأن الله واحد أحد فرد صمد لا شبيهه و لا مثل و لا زوج له و لا ولد.

و ثانيا: إنّ مسأله الفداء و التضحيه من أجل خطايا الآخرين، تعتبر مسأله بعيده عن المنطق كل البعد، فكل إنسان يؤخذ بجريته و عمله، و إنّ طريق النجاه و الخلاص يكون فى الإيمان و العمل الصالح فقط.

و ثالثاً: إنَّ عقيدته الفداء من أجل الخطايا تعتبر خير مشجع على الفساد و ممارسه الذنوب، و تؤدى بالبشرية إلى التلوث و الهلاك.

و حين تلاحظ أن القرآن يؤكّد على قضيه عدم صلب المسيح عليه السّلام مع أنّ هذه القضيه تظهر للعيان و كأنّها مسأله اعتياديه بسيطه، من أجل دحض عقيدته الفداء الخرافيه بشدّه، لمنع المسيحيين من الإيغال فى هذا الاعتقاد الفاسد، و لكى يؤمنوا بأنّ طريق الخلاص و النجاه إنّما هو فى أعمالهم هم أنفسهم و ليس فى ظل الصليب.

رابعاً: هناك قرائن موجوده تثبت و هن و ضعف قضيه الاعتقاد بصلب المسيح عليه السّلام هى:

١- المعروف أنّ الأناجيل الأربعة المتداوله فى الوقت الحاضر، و التى تشهد بصلب المسيح عليه السّلام - كانت قد دوّنت بعده بسنين طويله، و قد دوّنها حواريوه أو التالون من أنصاره عليه السّلام - و هذه حقيقه يعترف بها حتى المؤرخون المسيحيون.

كما نعرف أيضاً أنّ حوارى المسيح عليه السّلام قد هربوا حين هجم الأعداء عليه، و الأناجيل نفسها تشهد بهذا الأمر (١) و على هذا الأساس فإنّ هؤلاء الحواريين قد تلقفوا مسأله صلب عيسى المسيح عليه السّلام من أفواه الناس الآخرين، و لم يكونوا حاضرين أثناء تنفيذ عمليه الصلب، و قد أدت التطورات التى حصلت آنذاك إلى تهيئه الأجواء المساعدّه للاشتباه بشخص آخر و صلبه بدل المسيح عليه السّلام، و سنوضح هذا الأمر فيما يلى من حديثنا.

٢- إنّ العامل الآخر الذى يجعل من الاشتباه بشخص آخر بدل المسيح عليه السّلام أمراً محتملاً هو أنّ المجموعه التى كلّفت بالقبض على عيسى المسيح عليه السّلام و التى ذهبت إلى بستان «جستيمانى» هذه المجموعه كانت تتشكل من أفراد الجيش الرومى الذين كانوا منهمكين فى أمور عسكريه، فهم لم يكونوا يعرفون اليهود

ص: ٥٢٤

(١ - ١) - لقد ترك الحواريون المسيح عليه السّلام فى ذلك الوقت و هربوا كلهم... (من إنجيل متى، الإصحاح ٢٦ الجملة ٥٧).

و لغتهم و تقاليدهم، كما لم يميزوا بين حوارى المسيح عليه السّلام و بين المسيح نفسه.

٣- تذكر الأناجيل أن الهجوم على مقر عيسى المسيح عليه السّلام قد تمّ ليلا، و بديهي أنّ ظلام الليل يعتبر خير ستار للشخص المطلوب ليتخفى به و يهرب، و ليقع شخص آخر فى أيدي المهاجمين.

٤- يستنتج من نصوص جميع الأناجيل أنّ المقبوض عليه قد اختار الصمت أمام «بيلاطيس» الحاكم الرومى لسبت المقدس- آنذاك- و لم يتفوه إلا بالقليل دفاعا عن نفسه و يستبعد كثيرا أن يقع عيسى المسيح عليه السّلام فى خطر كهذا و لا يدافع عن نفسه بما يستحقه الدفاع عن النفس، و هو المعروف بالفصاحة و البلاغه و الشجاعه و الشهامه.

ألا يحتمل فى هذا المجال أن يكون شخص آخر- ك«يهوذا الأسخربوطى» الذى خان و وشى بعيسى المسيح عليه السّلام و كان يشبهه كثيرا- قد وقع هو بدل المسيح فى الأسر و أنّه لهول الموقف قد استولى عليه الخوف و الرعب، فعجز عن الدفاع عن نفسه أو التحدث أمام الجلادين بشيء.

نقرأ فى الأناجيل أنّ «يهوذا الأسخربوطى» لم يظهر بعد حادثه الصّيب أبدا، و أنّه- كما تقول هذه الأناجيل- قد قتل نفسه و انتحر (١).

٥- لقد بيّنا أنّ حوارى المسيح عليه السّلام- و كما ذكرت الأناجيل- قد هربوا حين أحسوا بالخطر يحدق بهم، كما هرب و اختفى الأنصار الآخرون، و أخذوا يراقبون الأوضاع عن بعد، بحيث أصبح الشخص المقبوض عليه وحيدا بين الجنود الرومان، و لم يكن أى من أصحابه قريبا منه، و لذلك لا يستبعد و لا يبدو غريبا أن يقع خطأ أو سهو فى تشخيص هويه الشخص المقبوض عليه.

٦- و نقرأ فى الأناجيل- أيضا- أنّ الشخص المصلوب قد اشتكى من ربه

ص: ٥٢٥

(و ليس لربّه) لأنّه-بحسب قوله-قد جفاه و تركه بأيدي الأعداء ليقتلوه (١) ! فلو صدقنا مقوله أنّ المسيح جاء لهذه الدنيا ليصلب و لينقذ بصلبه البشريه من عواقب خطاياهم و آثامهم، فلا يليق لمن يحمل هدفا ساميا كهذا الهدف أن يصدر منه هذا الكلام، و هذا دليل على أن الشخص المصلوب لم يكن المسيح نفسه، بل كان إنسانا ضعيفا و جباناً، و عاجزاً، و مثل هذا الإنسان يمكن أن يصدر منه كلام كالذي سبق، لا يمكن أن يكون هذا الإنسان هو المسيح عليه السّلام (٢) .

٧-لقد نفت بعض الأناجيل الموجوده مثل إنجيل «برنابا» قضيه صلب المسيح عليه السّلام (و هذا الإنجيل هو غير الأناجيل الأربعة التي يقبلها المسيحيون) كما أنّ بعضاً من الطوائف المسيحيه أبدت شكوكها حول قضيه الصلب (٣) و قد ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا، فادعوا بأن التاريخ قد ذكر شخصين باسم «عيسى» أحدهما عيسى المصلوب و الآخر هو عيسى غير المصلوب و بينهما فاصل زمني يقدر بخمسائه عام (٤) .

كانت تلك مجموعه من القرائن المؤيده لقول القرآن الكريم في قضيه الشبهه الحاصل في قتل أو صلب المسيح عليه السّلام.

ص: ٥٢٦

---

١-١) -إنجيل متى-الإصحاح ٢٧، الجملتان ٤٦ و ٤٧.

٢-٢) -لقد اقتبسنا عدداً من القرائن المذكوره أعلاه من كتاب «بطل الصليب».

٣-٣) -تفسير المنار، الجزء السابع، ص ٣٤.

٤-٤) -الميزان، الجزء الثالث، ص ٣٤٥.

اشاره

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)

التفسير

اشاره

هنالك احتمالان فى تفسير هذه الآيه، و كل واحد منهما جدير بالملاحظه من جوانب متعدده:

١- إن الآيه تؤكد إن أى إنسان يمكن أن لا يعتبر من أهل الكتاب ما لم يؤمن قبل موته بالمسيح عليه السلام حيث تقول: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ... و أن هذا الأمر يتم حين يشرف الإنسان على الموت و تضعف صلته بهذه الدنيا، و تقوى هذه الصلة بعالم ما بعد الموت، و ترفع عن عينيه الحجب فيرى بعد ذلك الكثير من الحقائق و يدركها، و فى هذه اللحظه يرى المسيح بعين بصيرته و يؤمن به، فالذين أنكروا نبوته يؤمنون به، و الذين وصفوه بالألوهيه يدركون فى تلك اللحظه خطأهم و انحرافهم.

و بديهى أن مثل هذا الإيمان لا- ينفع صاحبه، كما أن فرعون و الأقوام الأخرى و أقوام استولى عليهم العذاب، فقالوا: آمنا فلم ينفعهم إيمانهم أبداً، فالأجدر بالإنسان أن يؤمن قبل أن تدركه لحظه العذاب عند الموت، حين لا ينفع الإيمان صاحبه.

و تجدر الإشارة-هنا- إلى أنّ الضمير في عبارته «قبل موته» يعود لأهل الكتاب بناء على التفسير الذى ذكرناه.

٢- قد يكون المقصود فى الآيه هو أنّ جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح قبل موته، فاليهود يؤمنون بنبوته و المسيحيون يتخلون عن الاعتقاد برؤوبيه المسيح عليه السّلام، و يحدث هذا-طبقا للروايات الإسلاميه- حين ينزل المسيح عليه السّلام من السماء لدى ظهور المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه، و واضح أنّ عيسى المسيح سيعلن فى مثل هذا اليوم انصواءه تحت رايه الإسلام، لأن الشريعه السماويه التى جاء بها إنّما نزلت قبل الإسلام، و لذلك فهى منسوخه به.

و بناء على هذا التفسير فإنّ الضمير فى عبارته «قبل موته» يعود إلى عيسى المسيح عليه السّلام.

و

قد نقل عن النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلمّ قوله: «كيف بكم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم» (١) و طبيعى أنّ هذا التفسير يشمل اليهود و المسيحيين الموجودين فى زمن ظهور المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، و نزول عيسى المسيح عليه السّلام من السماء.

و جاء فى تفسير «على بن إبراهيم» نقلا عن «شهر بن حوشب» إنّ الحجاج ذكر يوما أنّ هناك آيه فى القرآن قد أتبعته كثيرا و هو حائر فى معناها، فسأله «شهر» عن الآيه، فقال الحجاج: إنّها آيه و إنّ من أهل الكتاب... و ذكر أنّه قتل يهودا و مسيحيين و لم يشاهد فيهم أثرا لمثل هذا الإيمان.

فأجابه «شهر» بأنّ تفسيره للآيه لم يكن تفسيرا صحيحا، فاستغرب الحجاج و سأل عن التفسير الصحيح للآيه.

فأجاب «شهر» بأنّ تفسير الآيه هو أنّ المسيح ينزل من السماء قبل نهايه العالم، فلا يبقى يهودى أو غير يهودى إلاّ و يؤمن بالمسيح قبل موته، و أنّ المسيح

ص: ٥٢٨

---

١-١) -مسند أحمد، و صحيح البخارى، و صحيح مسلم، و سنن البيهقى، كما جاء فى تفسير الميزان.



سيقوم الصّلاه خلف المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

فلما سمع الحجاج هذا الكلام قال ل«شهر» ويلك من أين جئت بهذا التفسير؟ فأجابه «شهر» بأنه قد سمعه من محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام.

و عند ذلك قال الحجاج: «و الله جئت بها من عين صافيه» (١).

و تقول الآيه فى الختام: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً أَى شهادة المسيح عليه السّلام على قومه بأنه قد بلغهم رساله الله و لم يدعهم لاتخاذها إلها من دون الله، بل دعاهم إلى الإقرار بربوبيه الله الواحد القهار.

### سؤال:

و قد يعترض البعض بأنّ المسيح عليه السّلام- كما جاء فى الآيه (١١٧) من سوره المائده- إنّما يقصر شهادته على الزمن الذى كان هو موجودا فيه بين قومه و يتصل عن الشهاده بالنسبه للأزمنه التى جاءت بعده، و ذلك بدلاله الآيه التى جاءت على لسانه و هى تقول: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ لَكِنِ الْآيَةَ الَّتِي هِيَ موضوع بحثنا الآن تدل على أنّ المسيح عليه السّلام يشهد على الجميع يوم القيامة، سواء أولئك الذين كانوا فى عصره و زمانه أو الذين لم يكونوا فى ذلك الزمان.

### الجواب:

و الجواب على هذا الاعتراض هو أنّنا لو أمعنا النظر فى مضمون الآيتين المذكورتين، لرأينا أنّهما تدلان على أنّ الآيه الأخيره التى هى موضوع البحث- تتحدث عن الشهاده حول تبليغ الرساله و نفى الألوهيه عن المسيح عليه السّلام بينما الآيه (١١٧) من سوره المائده تشهد على أعمال أولئك القوم.

فالآيه الأخيره تذكر أنّ عيسى المسيح عليه السّلام سيشهد على جميع الذين نسبوا

ص: ٥٢٩

له الألوهيه، سواء من كانوا فى زمانه أو من جاءوا بعد ذلك الزمان، و أن المسيح عليه السّلام يؤكّد أنّه لم يدع هؤلاء القوم إلى مثل هذا الأمر أبداً، بينما الآيه (١١٧) من سوره المائده تذكر على لسان المسيح عليه السّلام أنّه علاوه على الدعوه لرسالته بالأسلوب الصحيح، فهو قد حال طيله فتره بقاءه بين قومه -دون انحرافهم، إلا أنّهم انحرفوا بعده و نسبوا له الألوهيه فى زمن لم يكن هو موجوداً بينهم، ليشهد على أعمالهم و ليحول دون انحرافهم.

ص : ٥٣٠

إشاره

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَ بَصَّيْنَاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذْنَاهُم بِالرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)

التفسير

إشاره

مصير الصالحين و الطالحين من اليهود:

لقد أشارت الآيات السابقة إلى نماذج من انتهاكات اليهود، أما الآيات الأخيره فإنما ذكرت نماذج أخرى من تلك الانتهاكات، و بينت العقوبات التي استحقها اليهود بسبب تمردهم و عصيانهم، و العذاب الذي لا قوه و سيلاقوه نتيجة لذلك في الدنيا و الآخرة. فالآية الأولى من الآيات الأخيره تبين أن الله قد حرم بعضا من الأشياء الطاهره على اليهود بسبب ممارستهم الظلم و الجور، و تصديهم للسائرين في

طريق الله، حيث تقول الآية: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا كَمَا عاقبهم الله بالحرمان من تلك الطيبات لتعاملهم بالربا على الرغم من منعهم من ممارسه المعاملات الربويه و لاستيلائهم على أموال الآخرين بطرق غير مشروعه،فتقول الآية في هذا المجال: وَ أَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكَلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ... .

و تؤكد الآية أنّ عذاب اليهود لمعاصيهم تلك لا يقتصر على العقاب الدنيوى، بل سيذيقهم الله-أيضا-عقاب و عذاب الآخرة الأليم الذى يشمل الكافرين من اليهود،تقول الآية الكريمة: وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

و تجدر الإشارة-هنا إلى عده أمور،و هي:

١-إنّ المقصود بالطيبات المحرمة على اليهود هي تلك التى ذكرتها الآية (١٤٦) من سوره الأنعام، و التى شملت بعض الحيوانات و شحوم حيوانات أخرى كالبقر و الأغنام التى أحبها اليهود،و لم يكن هذا التحريم تحريما تكوينيا، بل كان تحريما تشريعا قانونيا،أى أن اليهود منعوا من استعمال هذه النعم مع أنّها كانت متيسره فى أيديهم.

و قد جاء ذكر بعض هذا التحريم فى التوراه المتداوله بيد اليهود حاليا،فى «سفر الآوين»فى الفصل الحادى عشر،و لكن لم تشر التوراه الحاليه إلى الطابع العقابى لهذا التحريم (١).

٢-أمّا هل أنّ هذا التحريم يتميز بطابع شمولى،أى هل يشمل غير الظالمين من اليهود،أم يخص الظالمين و حدهم؟فإنّ ظاهر الآية المذكوره أعلاه و الآية (١٤٦) من سوره الأنعام،يدلان على أنّ التحريم له طابع عام بدلاله عبارته«لهم» على عكس العقاب الأخرى الذى تخصصه الآية لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ و على هذا الأساس فإنّ هذا التحريم له طابع عقابى بالنسبه للظالمين من اليهود،كما يحمل

ص: ٥٣٢

(١-١) -راجع الجزء الثانى من تفسيرنا هذا.

طابع الاختبار و الامتحان بالنسبه لأخبارهم الذين يشكلون الأقلية فيهم.

و قد ذهب بعض المفسيّرين إلى أنّ هذا التحريم يشمل الظالمين من اليهود فقط، كما تدل بعض الروايات على هذا الرأى-أيضا- فقد جاء فى تفسير البرهان فى تفسير الآيه (١٤٦) من سوره الأنعام،

نقلا- عن الإمام الصّيادق عليه السّلام: «إنّ زعماء بنى إسرائيل كانوا قد حرموا على فقراء طائفهم أكل لحوم الطيور و شحوم الحيوانات، و لهذا السبب حرم الله على هؤلاء الظالمين مثل هذه الطيبات عقابا لهم على ظلمهم و جورهم (١)».

٣-و تدل هذه الآيه-أيضا-على أنّ تشريع تحريم «الربا» لم يقتصر على الإسلام وحده، بل كان محرما لدى الأقوام و الديانات السابقه، و التوراه المتداوله حاليا و المحرفه إنّما تحرم على اليهود أخذ الربا من أبناء عقيدتهم فقط، و لا تعتبر أخذه من أبناء الديانات الأخرى حراما عليهم (٢).

و قد أشارت الآيه الثالثه من الآيات الأخيره إلى حقيقه مهمه اعتمدها القرآن الكريم مرارا فى آيات متعدده، و هى أنّ ذمّ اليهود و انتقادهم فى القرآن لا- يقومان على أساس عنصري أو طائفى على الإطلاق، لأنّ الإسلام لم يذم أبناء أى طائفه أو عنصر لانتمائهم الطائفى أو العرقى، بل وجه الذم و الانتقاد للمنحرفين و الضالمين منهم فقط، لذلك استثنت هذه الآيه المؤمنين الأتقياء من اليهود و مدحتهم و بشرتهم بنيل أجر عظيم، حيث تقول الآيه الكريمه: لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَ مَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (٣).

ص: ٥٣٣

١-١) -تفسير البرهان، الجزء الأول، ص ٥٥٩.

٢-٢) -التوراه، سفر التثنيه، الفصل ٢٣، الجملتان ١٩ و ٢٠.

٣-٣) -لقد شرحنا بنوع من التفصيل، معنى عباره «الراسخون فى العلم» و ذلك فى الجزء الثانى من تفسيرنا هذا.

وقد آمن جمع من كبار الطائفه اليهوديه بالإسلام حين بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم و حين شاهدوا على يديه الكريمتين دلائل أحقيته الإسلام، و دافع هؤلاء بأرواحهم و أموالهم عن الإسلام، و كانوا موضع احترام و تقدير النبي صلى الله عليه وآله وسلم و سائر المسلمين.

ص: ٥٣٤

اشاره

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)

التفسير

لقد تناولت الآيات السابقة مسأله التمييز الذى مارسه اليهود بشأن الأنبياء، حيث كانوا يؤمنون و يصدقون ببعض أنبياء الله تعالى و يكفرون بالبعض الآخر منهم.

أما الآيات أعلاه فهى ترد على اليهود، و تؤكد أن الله أوحى إلى نبيه محمدًا صلى الله عليه و آله و سلم كما أنزل الوحي على أنبيائه نوح و النبيين الذين جاؤوا من بعد نوح، و كما أوحى إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب عليهم السلام و أنزل الوحي على

الأنبياء من أبناء يعقوب، و على عيسى و أيوب و يونس و هارون و سليمان عليهم السّلام، و كما أنزل الله على داود عليه السّلام كتاب الزّبور، حيث تقول الآية: إِذَا أُوحِيَٰٓا إِلَيْكَ كَلِمًا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَىٰ وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا .

و هذه الآية تردّ على اليهود مؤكّده على أنّ شرائع الأنبياء العظام مستقاه كلها من ينبوع الوحي الإلهي، و إنهم جميعا يسرون في طريق واحد، و لذلك لا تجوز التفرقه بينهم.

و قد تكون هذه الآية خطابا للمشركين و الكفار من عرب الجاهلية، الذين كانوا يظهرن الدهشه و العجب من نزول الوحي على نبي الإسلام محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم، فهي تردّ على هؤلاء مؤكّده أن لا عجب في نزول الوحي على محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم و قد نزل قبل ذلك على الأنبياء السابقين.

ثمّ تبين الآية أنّ الوحي لم يقتصر نزوله على هؤلاء الأنبياء، بل نزل على أنبياء آخرين حكى الله قصصهم للنبي محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم من قبل، و أنبياء لم يحك الله قصصهم، و كل هؤلاء الأنبياء أرسلهم الله إلى خلقه، و أنزل عليهم الوحي من عنده، تقول الآية: وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ...

و تبين هذه الآية في آخرها قضيه مهمّه جدّا، و هي أنّ الله قد كلم موسى بدل أن ينزل عليه الوحي، فنقول: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ...

و على هذا الأساس فإنّ صله الوحي ظلت باقيه بين البشر، و لم يكن من عدل الله أن يترك البشر دون مرشد أو قائد، أو أن يتركهم دون أن يعين لهم واجباتهم و تكاليفهم، و هو الذي بعث الأنبياء و الرسل للبشر مبشرين و منذرين، لكي يبشروا الناس برحمته و ثوابه، و يندرونهم من عذابه و عقابه لكي يتمّ الحجه عليهم فلا يبقى لهم عذر أو حجه، تقول الآية: رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لِقَلًا



فقد أحكم الله العزيز القدير خطه إرسال الأنبياء و نفذها بكل دقه، و بهذا تؤكد الآيه وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا فحكمته توجب تحقيق هذا العمل، و قدرته تمهد السبيل إلى تنفيذه، و على عكس ذلك فإن إهمال هذا الأمر المهم، إما أن يدل على الافتقار إلى الحكمة و المعرفة، أو أنه دلالة على العجز، و الله منزّه عن كل هذه العيوب.

أمّا الآيه الأخرى فهي تطمئن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و توضح له أن المهم هو أن الله قد شهد بما أنزل عليه من كتاب، و ليس المهم أن يؤمن نفر من هؤلاء بهذا الكتاب أو يكفروا به- فتؤكد الآيه في هذا المجال- لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ .

و لم يكن اختيار الله لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم لمنصب النبوه أمرا عبثا- و العياذ بالله- بل كان هذا الاختيار نابعا من علم الله بما كان يتمتع به النبي من لياقه و كفاءه لهذا المنصب العظيم، و لنزول آيات الله عليه- حيث تقول الآيه: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ .

و يمكن- أيضا- أن تشمل هذه الآيه معنى آخر، و هو أن ما نزل على النبي صلى الله عليه و آله و سلم من آيات إنما ينبع من بحر علم الله اللامتناهى، و إن محتوى هذه الآيات يعتبر دليلا واضحا على أنها نابعه من علم الله- و على هذا الأساس فإن الشاهد على صدق ادعاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم هو الآيات القرآنيه، و لا- يحتاج إلى دليل آخر لإثبات دعوته، فلو لم يكن محمد صلى الله عليه و آله و سلم يتلقى الوحي من قبل الله سبحانه و تعالى لما أمكنه أبدا- و هو المعروف بالأسمى- أن يأتي بكتاب كالقرآن يشتمل على أرفع و أسمى التعاليم و الفلسفات و القوانين و المبادئ الأخلاقيه و البرامج الاجتماعيه.

و القرآن الكريم يؤكد أن ليس الله وحده الذى يشهد بأن دعوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم هي الحق، بل يشهد معه ملائكته بأحقيه هذه الدعوه، مع أن شهاده الله كافيه وحدها فى هذا المجال تقول الآيه الكريمه: وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

و يجب-هنا-الانتباه إلى عدّه أمور، وهي:

١- إنّ بعض المفسّرين فهموا من عبارته **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا...** إنّها تهدف إلى بيان حقيقته من النّبي صلّى الله عليه وآله و سلّم و هي أنّ جميع الخصائص التي وردت في الشرائع السماوية التي نزلت على الأنبياء قبله، جاءت مجتمعاً في الشريعة التي أنزلها الله عليه، و إنّ كل خصلة اتصف بها عباد الله الصالحون هي موجودة فيه صلّى الله عليه وآله و سلّم.

و قد أشارت بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام إلى هذا الموضوع أيضاً فكان ما استلهمه المفسّرون من هذه الآية نابعاً أو مستندا على تلك الروايات (١).

٢- نقرأ في الآيات الأخيرة أنّ الزّبور من الكتب السماوية أنزله الله على داود -ولا- يتنافى هذا مع ما ورد من أنّ الأنبياء أولى العزم الذين نزلت عليهم كتب من الله هم خمسة أنبياء فقط، حيث إنّ الآيات القرآنية و الروايات الإسلامية توضح أنّ الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء كانت على نوعين، هما:

النوع الأوّل: الكتب التي اشتملت على الأحكام التشريعية، حيث أنّ كل كتاب من هذه الكتب قد أعلن عن شريعه جديده، و أنّ هذه الكتب السماوية هي خمسة فقط نزلت على خمسة أنبياء هم «اولوا العزم».

النوع الثّاني: الكتب التي لم تحتو على أحكام جديده، بل كان فيها الحكم و النصائح و الإرشادات و الوصايا و أنواع الدعاء، و كتاب «الزّبور» الذي نزل على داود عليه السّلام من هذا النوع الثّاني من الكتب السماوية -و«مزامير داود» أو «زبور داود» الذي ورد اسمه في «العهد القديم» دليل على هذا الأمر الذي أثبتناه، مع العلم أنّ كتاب «العهد القديم» لم يسلم من التحريف، كما لم تسلم كتب العهد الجديد و القديم الأخرى من التحريف أيضاً، إلّا أنّ ما يمكن قوله هو أنّ هذه

ص: ٥٣٨

(١- ١) -راجع تفاسير الصافي، ص ١٣٩، و البرهان الجزء الأوّل، ص ٤٢٧، و نور الثقلين، الجزء الأوّل، ص ٥٧٣.

الكتب قد احتفظت نوعا ما بشكلها القديم.

و كتاب «مزامير داود» يشتمل على مائه و خمسين فصلا، يسمى كل فصل منه «مزمورا» و هو من أوله إلى آخره يشتمل على صنوف النصح و الإرشاد و الدعاء و المناجاة.

و

نقل عن أبي ذر رضى الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن عدد الأنبياء فأجابه النبي: بأن عددهم يبلغ مائه و أربعا و عشرين ألفا، فسأل أبو ذر رضى الله عنه عن عدد الرسل من بين هؤلاء الأنبياء- فأجابه النبي صلى الله عليه و آله و سلم: بأن عددهم هو ثلاثمائة و ثلاثه عشر رسولا و الباقون كلهم أنبياء... فسأل أبو ذر مره أخرى عن عدد الكتب السماويه التي نزلت على أولئك الأنبياء و الرسل، فأجابه النبي صلى الله عليه و آله و سلم: بأنها مائه و أربع كتب، نزل عشره منها على آدم، و نزل خمسون منها على شيث، و ثلاثون على إدريس، و عشره كتب على إبراهيم، حيث يصبح مجموع هذه الكتب مائه كتاب، و الأربعة الأخرى هي التوراه، و الإنجيل و الزبور و القرآن (١).

٣- إنَّ عبارته «أسباط» هي صيغته للجمع و مفردهما «سبط» و معناها طوائف بنى إسرائيل، و لكن المقصود منها فى الآيه هم الأنبياء الذين بعثوا من هذه الطوائف (٢).

٤- لقد كان نزول الوحي على الأنبياء يتم بصور مختلفه، فمره ينزل بالوحي ملك من الملائكه المكلفين به و أحيانا يلقى الوحي على النبي بواسطه الإلهام القلبي، و أخرى ينزل بصوره صوت يسمعه النبي، أى أن الله يخلق الأمواج الصوتيه فى الفضاء أو الأجسام فيسمعها أنبياءه و بهذه الواسطه كان يتم التخاطب بينهم و بين الله سبحانه و تعالى.

و من الذين حظوا بمزيه التخاطب مع الله النبي موسى بن عمران عليه السلام، فكان

ص: ٥٣٩

١- ١) - مجمع البيان، الجزء الأول، ص ٤٧٦.

٢- ٢) - لقد ورد ذكر الأسباط بالتفصيل فى الجزء الأول من تفسيرنا هذا.

يسمع الصوت، أحيانا من شجره وادى الأيمن، و أحيانا فى جبل طور، و لذلك لقب هذا النبى بـ«كليم الله»، و لعل مجىء اسم النبى موسى عليه السّلام فى الآيات الأخيره بصورة منفصله كان من أجل بيان هذه الخصيصه التى امتاز بها موسى عليه السّلام على غيره من أنبياء الله عليهم السّلام.

ص : ٥٤٠

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)

التفسير

جرى البحث فى الآيات السابقه حول المؤمنين و غير المؤمنين، أمّا الآيات الثلاثه الأخيره فهى تشير إلى مجموعته اختارت أقبح أنواع الكفر، فهؤلاء-بالإضافه- إلى انحرافهم و ضلالهم سعوا إلى تحريف و إضلال الآخرين، و قد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا و ظلموا الآخرين معهم لأنهم لم يسيروا فى طريق الحق و لم يسمحوا للآخرين-أيضا-بأتباع هذا السبيل، و الآيه الكريمة تصف هؤلاء بأنهم فى ضلال بعيد و ذلك بقولها: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا .

فلما ذا-يا ترى-استحق هؤلاء الإبعاد عن طريق الحق؟إنهم استحقوا ذلك لدعوتهم الآخرين إلى طريق الضلال، حيث من المستبعد جدًا أن يتخلوا عن طريق هم يدعون الآخرين لاتباعه-فقط خلط هؤلاء كفرهم بالعناد، و وضعوا

أقدامهم فى طريق الضلال و الانحراف، و ابتعدوا بذلك كثيرا عن طريق الحق و الصواب.

أما الآيه الأخرى فتشير إلى الذين كفروا و ظلموا، إذ ظلموا الحق أولاً لعدم التزامهم بالصواب، كما ظلموا أنفسهم بذلك- أيضاً- إذ حرموها من السعادة و سقطوا فى هوه الضلاله، و ظلموا الآخرين حين منعوهم من التوجه إلى طريق الحق و الصواب، فهؤلاء لن يشملهم أبداً عفو الله، و إن الله لا يهديهم أبداً إلا إلى طريق جهنم، تقول الآيه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَ لَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ....

فهؤلاء باقون و خالدون فى جهنم دائماً و أبداً، كما تقول الآيه: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا....

و على هؤلاء أن يعلموا أن وعد الله حق، و أن تهديده يتحقق لا- محاله، فليس ذلك على الله بالأمر الصعب تقول الآيه: وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

و نشاهد فى الآيتين المذكورتين تأكيداً من طراز خاص حول هذا النوع من الكفار و العقوبات التى ينالونها- فمن جهة يوصف انحرافهم بالضلال البعيد، و من جهة ثانية تؤكد الآيه باستخدام عبارته لَمْ يَكُنِ اللَّهُ... أَنَّ الْعَفْوَ عَنِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ لَا يَلِيقُ بِمَنْزِلَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى، و من جانب آخر فقد جاء التأكيد على خلود هؤلاء فى النار و التشديد على أنه خلود أبدي، لأن هؤلاء و أمثالهم بالإضافة إلى خروجهم عن جاده الحق و انحرافهم، سعوا إلى إبعاد و حرف الآخرين عن هذا السبيل، و بذلك تحملوا مسئولية و إثماً عظيماً.

إشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)

التفسير

لقد أوضحت الآيات السابقة نهايه و عاقبه الناس الذين انعدم لديهم عنصر الإيمان، أما الآيه الأخيره فهي تدعو إلى الإيمان و تبين نتیجه هذا الإيمان، و تستخدم في ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامى عبارات و اصطلاحات تشير عند الأفراد الرغبه و الاندفاع نحو الإيمان.

و هذه الآيه تشير في البدايه إلى أنّ النبى المرسل هو ذلك الذى كان ينتظر الناس ظهوره، و الذى أشارت إليه الكتب السماويه السابقه، و هو يحمل إليهم شريعته الحق و العداله فتقول الآيه في هذا المجال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ (١) بِالْحَقِّ (٢) .

ص: ٥٤٣

١- ١) - يبدو من سياق الآيه أنّ حرفى «ال» الداخلة على كلمه «رسول» هما «ال» العهديه، و فيها إشاره إلى النبى الذى كانوا ينتظرون قدومه، و لم يقتصر هذا الانتظار على اليهود و النصارى و حدهم، بل أنّ المشركين - أيضا - كانوا يتوقعون - لما سمعوه من أهل الكتاب - ظهور النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

٢- ٢) - لقد فسرت بعض الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السلام كلمه «الحق» الوارده فى الآيه إشاره إلى ولايه على بن أبى طالب عليه السلام، و قد بيّنا سابقا إن مثل هذه التفاسير واضحه فى بيان المصاديق، و هى لا تدل على الحصر.

ثم تردف الآيه بأن هذا النبي قد جاء إلى الناس من الله الذي تعهد تربيته الخلق أجمعين، و ذلك من خلال عبارته القرآنيه الوارده فى هذه الآيه، وهى عبارته: مِنْ رَبِّكُمْ .

و بعد ذلك تؤكد الآيه-على أنّ إيمان الأفراد إنّما تعود فائدته و يعود نفعه عليهم أنفسهم، أى أن الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم به غيره تقول الآيه: فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ .

كما تؤكد الآيه فى النهايه على أن من يتخذ الكفر سبيلا لنفسه فلن يضرّ الله بعمله هذا أبدا، لأن الله يملك كل ما فى السماوات و ما فى الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أى شىء من الآخرين، تقول الآيه فى هذا الصدد: وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

و تبين الآيه فى النهايه أنّ أحكام الله و أوامره كلّها لمصلحة البشر، لأنّها نابعه من حكمه الله و علمه و هى قائمه على أساس تحقيق مصالح الناس، و منافعهم الخيره، فتقول الآيه: وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

و من المنطلق نفسه فإنّ ما أرسله الله من شرائع لتنظيم الحياه الاجتماعيه للبشر بواسطه الأنبياء عليهم السّلام، لم يكن -مطلقا- لحاجه الله إلى ذلك، بل إنّ نابع من علمه و حكمته، فهل يحق للبشر بعد هذا البيان أن يتركوا طريق الإيمان و يتبعوا سبيل الكفر؟



اشاره

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ إِنَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)

التفسير

اشاره

اسطوره التثليث الوهميه:

تتطرق هذه الآيه و الآيه التي تليها إلى واحد من أهم انحرافات الطائفة المسيحيه، وهذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أي وجود آلهة ثلاثه و يأتي التطرق إلى هذا البحث في سياق البحوث القرآنيه التي وردت في الآيات السابقه عن أهل الكتاب و الكفار.

فهذه الآيه تحذر في البدايه أهل الكتاب من المغالاه و التطرف في دينهم، و تدعوهم أن لا يقولوا على الله غير الحق، حيث تقول: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ....

لقد كانت قضيه الغلو في حق القاده السابقين إحدى أخطر منابع الانحراف

فى الأديان السماويه، فالإنسان بما أنه يميل إلى ذاته يندفع بهذا الميل إلى إظهار زعمائه وقادته بصورة أكبر مما هم عليه، لكى يضىفى على نفسه الأهميه و العظمه من خلال هؤلاء القاده، وقد يدفع الإنسان التصور الواهى بأن الإيمان هو المبالغه و الغلو فى احترام و تعظيم القاده- إلى الوقوع فى متهات هذا النوع من الانحراف الرهيب.

و الغلو فى أصله ينطوى على عيب كبير يفسد العنصر الأساسى للدين- الذى هو عباده الله و توحيده- و لهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاه أو المغالين بعنف و شدّه، إذ عرفت كتب الفقه و العقائد هذه الفئه من الناس بأنهم أشد كفرا من الآخرين.

بعد ذلك تشير الآيه الكريمه إلى عدّه نقاط، يعتبر كل واحد منها فى حدّ ذاته دليلا على بطلان قضيه التثليث، و عدم صحه الوهيه المسيح عليه السّلام، و هذه النقاط هى:

١- لقد حصرت الآيه بنوه السيد المسيح عليه السّلام بمريم عليها السّلام إنّما الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، و إشارة النبوه- هذه الوارده فى سته عشر مكانا من القرآن الكريم- إنّما تُؤكّد أنّ المسيح عليه السّلام هو إنسان كسائر الناس، خلق فى بطن امه، و مرّ بدور الجنين فى ذلك الرحم، و فتح عينيه على الدنيا حين ولد من بطن مريم عليها السّلام كما يولد أفراد البشر من بطون أمهاتهم و مرّ بفترة الرضاعه و تربى فى حجر امه، ممّا يثبت بأنّه امتلك كل صفات البشر فكيف يمكن- و حاله المسيح عليه السّلام هذه- أن يكون إلها أزليا أبديا، و هو فى وجوده محكوم بالظواهر و القوانين الماديه الطبيعيه و يتأثر بالتحويلات الجارويه فى عالم الوجود؟! و عباره الحصر التى هى «إنّما» الوارده فى الآيه تحصر بنوه المسيح عليه السّلام بمريم عليها السّلام و تؤكّد على أنّه و إن لم يكن له والد، فليس معنى ذلك أن أباه هو الله، بل هو فقط ابن مريم عليها السّلام.

٢- تؤكد الآية الكريمة أنّ المسيح عليه السّلام هو رسول الله و مبعوث إلى البشر من قبله سبحانه و تعالى، و إن هذه المنزلة-أى منزله النبوه-لا تتناسب و مقام الألوهيه.

و الجدير بالذكر هو أنّ معظم كلام المسيح عليه السّلام الوارد قسم منه فى الأنجيل المتداوله فى الوقت الحاضر، إنّما يؤكد نبوته و بعثته لهدايه الناس، و ليس فيه دلالة على ادعائه الألوهيه و الربوبيه.

٣- تبين الآية أن عيسى المسيح عليه السّلام هو كلمه الله التى ألقاها إلى مريم عليها السّلام حيث تقول: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ

و قد وردت عبارته: «كلمه» فى وصف المسيح فى عدد من الآيات القرآنيه، و هذه إشاره إلى كون المسيح مخلوقا بشريا، إذ أن الكلمات مخلوقه من قبل الله، كما أنّ الموجودات فى الكون من مخلوقاته عزّ و جلّ، فكما أن الكلمات تبين مكونات أنفسنا- نحن البشر- و تدل على صفاتنا و أخلاقياتنا، فإنّ مخلوقات الكون تحكى صفات خالقها و جماله و تدل على جلاله و عظمته.

و على هذا الأساس فقد وردت عبارته «كلمه» فى عدد من العبارات القرآنيه، لتشمل جميع مخلوقات الله، كما فى الآية (١٠٩) من سوره الكهف و الآية (٢٩) من سوره لقمان، و بديهى أنّ الكلمات الإلهيه تتفاوت بعضها مع البعض فى المنزله و الأهميه و عيسى عليه السّلام يعتبر إحدى كلمات الله البارزه الأهميه، لكونه ولد من غير أب، إضافة إلى كونه يتمتع بمقام رساله الإلهيه.

٤- تشير الآية إلى أنّ عيسى المسيح عليه السّلام هو روح مخلوقه من قبل الله، حيث تقول وَ رُوحٌ مِنْهُ و هذه العبارة التى وردت فى شأن خلق آدم-أو بعباره أخرى خلق البشر أجمعين-فى القرآن الكريم، إنّما تدل على عظمه تلك الروح التى خلقها الله تعالى و أودعها فى أفراد البشر بصوره عامه، و فى المسيح عليه السّلام و سائر الأنبياء بصوره خاصه.

و على الرغم من أن البعض أساء الاستفادة من هذه العبارة وفسرها بأن المسيح عليه السلام هو جزء من الله سبحانه و تعالى، مستندا إلى عبارته «منه» و لكن الواضح في مثل هذه الحالات أن كلمة «من» ليست للتبعيض، بل تدل على مصدر و منشأ و أصل وجود الشيء.

و هناك طرفه تاريخيه تذكر أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني، دخل يوما في نقاش مع «علي بن الحسين الواقدي» و هو أحد المفكرين الإسلاميين في ذلك العصر، فقال له هذا الطبيب: «توجد في كتابكم السماوي آيه تبين أن المسيح عليه السلام هو جزء من الله...» و تلا هذا النصراني الآيه موضوع البحث، فرد عليه «الواقدي» مباشرة تاليا هذه الآيه: وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ... (١)، و أضاف مبيّنا أن كلمة «من» لو كانت تفيد التبعيض، لاقتضى ذلك أن تكون جميع موجودات السماء و الأرض -بناء على هذه الآيه- جزءا من الله، فلما سمع الطبيب النصراني كلام الواقدي أسلم في الحال، و سر إسلامه هارون الرشيد فكافأ الواقدي بجائزه مناسبه (٢).

إن ما يثير العجب -إضافه إلى ما ذكر- هو أن المسيحيين يرون ولاده المسيح من أم دون أب دليلا على ألوهيته، و هم ينسون في هذا المجال أن آدم عليه السلام كان قد ولد من غير أب، و لا أم، و لم ير أحد هذه الخصيصه الموجوده في آدم دليلا على ربوبيته.

بعد ذلك تؤكد الآيه على ضروره الإيمان بالله الواحد الأحد و بأنبيائه، و نبذ عقيدته التثليث، مبشره المؤمنين بأنهم إن نبذوا هذه العقيدته فسيكون ذلك خيرا لهم حيث قالت الآيه: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ... .

ص: ٥٤٨

١- (١) -الجائيه، ١٣.

٢- (٢) -تفسير المنار، الجزء السادس، ص ٨٤.

و تعيد الآيه التأكيد على وحدانيه الله قائله: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ... و هى تخاطب المسيحيين لأنهم حين يدعون التثليث يقبلون- أيضا-بوحدانيه الله، فلو كان لله ولد لوجب أن يكون شبيهه، و هذه حاله تناقض أساس الوحدانيه.

فكيف-إذن-يمكن أن يكون لله ولد، و هو منزّه من نقص الحاجه إلى زوجه أو ولد، كما هو منزّه من نقائص التجسيم و أعراضه؟ تقول الآيه: سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ... و الله هو مالك كل ما فى السموات و ما فى الأرض و الموجودات كلها مخلوقاته و هو خالقها جميعا، و المسيح عليه السلام- أيضا-واحد من خلق الله، فكيف يمكن الادعاء بهذا الاستثناء فيه؟ و هل يمكن المملوك و المخلوق أن يكون ابنا للمالك و الخالق؟! حيث تؤكد الآيه: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ... و الله هو المدبر و الحافظ و الرازق و الراعى لمخلوقاته، تقول الآيه: وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .

و الحقيقه هى أن الله الأزلى الأبدى الذى يرعى جميع الموجودات منذ الأزل إلى الأبد لا يحتاج مطلقا إلى ولد، فهل هو كسائر الناس لكى يحتاج إلى ولد يخلفه من بعد الموت؟

### عقيدته التثليث أكبر خرافه مسيحيه:

ليس فى الانحرافات التى تورط بها العالم المسيحي أكبر من انحراف عقيدته التثليث، لأن المسيحيين يعتقدون صراحه بالتالوث الإلهي، و هم فى نفس الوقت يصرحون بأن الله واحد! أى أنهم يرون الحقيقه فى التثليث و التوحيد فى أن واحد.

و قد خلقت هذه القضيه-التي لها حدان متناقضان-مشكله كبيره للمفكرين و الباحثين المسيحيين.

فلو كان المسيحيون مستعدين لقبول مسأله التوحيد بأنها«مجازيه»و قبول

مسأله التثليث بأنها مسأله حقيقه أو قبول العكس، لأمكن تبرير هذا الأمر، و لكنهم يرون الحقيقه فى الجمع بين هذين المتناقضين، فيقولون أن الثلاثه واحد كما يقولون أن الواحد ثلاثه فى نفس الوقت.

و ما يلاحظ من ادعاء فى الكتابات التبشيره الأخيره للمسيحيين، و التى توزع للناس الجهلاء، من أن التثليث شىء مجازى، إنما هو كلام مشوب بالرياء و لا يتلاءم مطلقا مع المصادر الأساسيه للمسيحيه، كما لا يتفق مع الآراء و المعتقدات الحقيقه للمفكرين المسيحيين.

و يواجه المسيحيون-هنا-قضيه لا تتفق مع العقل فالمعادله التى افترضوا فيها أن ١ ٣ لا يقبلها حتى الأطفال الذين هم فى مرحله الدراسه الابتدائيه.

و لهذا السبب ادعوا أن هذه القضيه لا تقاس بمقياس العقل، و طلبوا الإذعان بها عبر ما سمّوه بالرؤيه التعبدية القليه.

و كان هذا التناقض منشأ للتباعد الحاصل لديهم بين الدين و العقل، و سببا لجر الدين إلى متاهات خطيره، الأمر الذى اضطهرهم إلى القول بأن الدين ليس له صلته بالعقل، أو ليس فيه الطابع العقلانى، و أنه ذو طابع تعبدى محض.

و هذا هو أساس التناقض بين الدين و العلم فى منطق المسيحيه، فالعلم يحكم بأن الثلاثه لا تساوى الواحد، و المسيحيه المعاصره تصر على أنهما متساويان! و يجب الالتفات-هنا-إلى عدّه نقاط حول هذا الاعتقاد المسيحى:

١- لم يشر أى من الأناجيل المتداوله فى الوقت الحاضر إلى مسأله التثليث لذلك يعتقد الباحثون المسيحيون أن مصدر التثليث فى الأناجيل خفى و غير بارز، و فى هذا المجال يقول الباحث الأمريكى المستر هاكس: «إنّ قضيه التثليث تعتبر فى العهدين القديم و الجديد خفيه و غير واضحه، (القاموس المقدس، ص ٣٤٥، طبعه بيروت).

و ذكر المؤرّخون أنّ قضيه التثليث قد برزت بعد القرن الثالث الميلادى لدى المسيحيين و إن منشأ هذه البدعه كان الغلو من جانب، و اختلاط المسيحيين بالأقوام الأخرى من جانب آخر.

و يرى البعض احتمال أن يكون مصدر التثليث عند المسيحيين واردا من عقيدته الثالوث الهندي، أى عباده الهنود للآلهه الثلاثه (١).

٢- إنّ قضيه التثليث القائله بأن الثلاثه واحد تعتبر أمرا غير معقول أبدا، و يرفضها العقل بالبداهه، و الشىء الذى نعرفه هو أن الدين لا يمكنه أن يكون منفصلا عن العقل و العلم، فالعلم الحقيقى و الدين الواقعى كلاهما متفقان و متناسقان دائما- لا يمكن القول بأن الدين أمر تعبدي محض- لأننا لو أزحنا العقل جانبا عند قبول مبادئ الدين و أذعنا للعباده العمياء الصماء، فلا يبقى لدينا ما نميز به بين الأديان المختلفه.

و فى هذه الحاله، أى دليل يوجب على الإنسان أن يعبد الله و لا يعبد الأصنام؟ و أى دليل يدعو المسيحيين إلى التبشير لدينهم لا للأديان الأخرى؟ و من هذا المنطلق فإن الخصائص التى يراها المسيحيون لدينهم و يصرون على دعوه الناس للقبول بها، هى بحدّ ذاتها دليل على أن الدين يجب أن يعرف بمنطق العقل، و هذا يناقض دعواهم حول قضيه التثليث التى يرون فيها انفصال الدين عن العقل.

و ليس هناك كلام يستطيع تحطيم الدين أشد و أقبح من أن يقال: إن الدين لا يمتلك طابعا عقلانيا و منطقيا، و أنّه ذو طابع تعبدي محض! ٣- إنّ الأدله العديده التى يستشهد بها- فى مجال إثبات التوحيد، و وحدانيه الذات الإلهيه- ترفض كل أنواع التشبيه أو التثليث- فالله سبحانه و تعالى هو وجود مطلق لا يحد بالجهات، و هو أزلى أبدي لا حدود لعلمه و لقدرته و لقوته.

ص: ٥٥١

(١-١) - انظر دائره المعارف للقرن العشرين (لفريد وجدى) فى ماده (ثالوث)...

و بديهي أنه لا يمكن تصور الشئيه في اللامتناهي، لأنّ فرض وجود لا متناهيين يجعل من هذين الإثنين متناهيين و محدودين، لأنّ وجود الأوّل يفتقر إلى قدره و قوه و وجود الثّاني كما أنّ وجود الثّاني يفتقر إلى وجود و خصائص الأوّل، و على هذا الأساس فإنّ كلا الوجودين محدودان.

و بعبارة أخرى: إنّنا لو افترضنا وجود لا متناهيين من جميع الجهات، فلا بدّ حين يصل اللامتناهي الأوّل إلى تخوم اللامتناهي الثّاني ينتهي إلى هذا الحد كما أنّ اللامتناهي الثّاني حين يصل إلى حد اللامتناهي الأوّل ينتهي هو أيضا، و على هذا الأساس فإنّ كليهما يكونان محدودين و لا تنطبق صفة اللامتناهي على أي منهما، بل هما متناهيان محدودان، و النتيجة هي أنّ ذات الله-الذي هو وجود لا متناه-لا يمكن أن تقبل التعدد أبدا.

و هكذا فإنّنا لو اعتقدنا بأنّ الذات الإلهيه تتكون من الأقسام الثلاثة، لا يستلزم أن يكون كل من هذه الأقسام محدودا، و لا تصح فيه صفة اللامحدود و اللامتناهي، و كذلك فإنّ أي مركب في تكوينه يكون محتاجا إلى أجزائه التي تكونه، فوجود المركب يكون معلولا لوجود أجزائه.

و إذا افترضنا التركيب في ذات الله لزم أن تكون هذه الذات محتاجه أو معلوله لعلّه سابقه في حين إنّنا نعرف أنّ الله غير محتاج، و هو العله الأولى لعالم الوجود، و عله العلل كلها منذ الأزل و إلى الأبد.

٤-بالإضافه إلى كل ما ذكر، كيف يمكن للذات الإلهيه أن تتجسد في هيكل إنسانى لتصبح محتاجه إلى الجسم و المكان و الغذاء و اللباس و أمثالها؟ إنّ فرض الحدود لله الأزلى الأبدى، أو تجسيده في هيكل إنسان و وضعه جنينا في رحم أمّ، يعتبر من أقبح التهم التي تلصق بذات الله المقدسه المنزهه عن كل النقائص، كما أنّ افتراض وجود الابن لله-و هو يستلزم عوارض التجسيم المختلفه-إنما هو افتراض غير منطقي و بعيد عن العقل بعدا مطلقا.



بدليل أنّ أى إنسان لم ينشأ فى محيط مسيحى و لم يتربّ منذ طفولته على هذه التعليمات الوهميه الخاطئه عند ما يسمع هذه التعابير المنافيه للفطره الإنسانيه و المخالفه لما يحكم به العقل البشرى، يشعر بالسخط و الاشمئزاز، و إذا كان المسيحيون أنفسهم لا يرون بأسا فى كلمات مثل «الله الأب» و «الله الابن» فما ذلك إلا لأنهم جبلوا على هذه التعاليم الخاطئه منذ نعومه أظفارهم.

٥- لوحظ فى السنين الأخيره أنّ جماعه من المبشرين المسيحيين يلجؤون إلى أمثله سفسطائيه من أجل خداع الجهلاء من الناس فى قبول قضيه التثليث.

من هذه الأمثله قولهم أن اجتماع التوحيد و التثليث معا يمكن تشبيهه بقرص الشمس و النور و الحراره النابعتين من هذا القرص، حيث أنّها ثلاثه أشياء فى شىء واحد.

أو تشبيههم ذلك بانعكاس صورهِ إنسان فى ثلاث مرايا فى آن واحد، فهذا الإنسان مع كونه واحداً إلا أنه يظهر و كأنه ثلاثه فى المرايا الثلاث.

كما يشبهون التثليث بالمثلث الذى له ثلاث زوايا من الخارج، و يقولون بأنّ هذه الزوايا لو مدت من الدخل لوصلت كلها إلى نقطه واحده؟! لكننا بالتعمق قليلا فى هذه الأمثله يتبين لنا أن لا صلّه لها بموضوع بحثنا الحاضر، فقرص الشمس شىء و نورها شىء آخر و النور الذى يتكون من الأشعه فوق الحمراء يختلف عن الحراره التى تتكون من الأشعه دون الحمراء، و هذه الأشياء الثلاثه تختلف الواحده منها عن الأخرى من حيث النظره العلميه، و هى ليست بمجموعها شيئا واحداً من خلال هذه النظره.

و إذا صح القول بأنّ هذه الأشياء الثلاثه شىء واحد، إنّما يكون ذلك من باب التسامح أو التعبير المجازى ليس إلا.

و الأوضح من ذلك مثال الجسم و المرايا الثلاث، فالصوره الموجوده فى المرايا عن الجسم ليست إلا انعكاسا للنور، و بديهي أنّ انعكاس النور عن جسم

معين غير ذات الجسم، و على هذا الأساس فليس هناك أى اتحاد حقيقى أو ذاتى بين الجسم و صورته المنعكسه فى المرآه، و هذه قضيه يدركها حتى المدارس المبتدى لعلم الفيزياء.

أمّا فى مثال المثلث فالأمر واضح كما فى المثالين السابقين، حيث أن زوايا المثلث المتعدده لا علاقه لها بالبدايه بالامتداد الداخلى الحاصل للزوايا، و الذى يوصلها جميعا إلى نقطه واحده.

و الذى يثير العجب- أكثر من ذلك- هو محاوله بعض المسيحيين المستشرقين مطابقه قضيه «التوحيد فى التثليث» مع نظريه «وحده الوجود» التى يقول بها الصوفيون (1) و الأمر الواضح من غير دليل فى هذا المجال- هو إنّما لو قبلنا بالنظريه الخاطئه و المنحرفه القائله بوحده الوجود، لاقتضى ذلك منّا أن ندعن بأن كل موجودات العالم أو الكون هى جزء من ذات الله سبحانه و تعالى، بل الإذعان بأنّها هى عين ذاته.

عند ذلك لا يبقى معنى للتثليث، بل تصبح جميع الموجودات- صغيرها و كبيرها- جزءا أو مظهر الله سبحانه، و على هذا الأساس فلا يمكن تطابق نظريه التثليث المسيحيه بالنظريه الصوفيه القائله بوحده الوجود بأى شكل من الأشكال، علما بأن النظريه الصوفيه هذه قد دحضت و بان بطلانها.

٦- يقول بعض المسيحيين- أحيانا- إنّها حين يسمّون المسيح عليه السّلام ب«ابن الله» إنّما يفعلون ذلك كما يفعل المسلمون فى تسميه سبط الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم الحسين بن على بن أبى طالب عليه السّلام ب«ثار الله و ابن ثاره» أو كالتسميه التى وردت فى بعض الروايات لعلى بن أبى طالب عليه السّلام حيث سمي فيها ب«يد الله»، و هؤلاء المسيحيون يفسرون كلمه «ثار» بأنّها تعنى الدم، أى أنّ العبارة الوارده فى الحسين الشهيد عليه السّلام

ص: ٥٥٤

١- ١) - المراد بوحده الوجود عند الصوفيه، هى وحده الموجود، و يستدلون بها على أن الوجود ليس أكثر من واحد يظهر فى صور مختلفه، و إن هذا الواحد هو الله.

تعنى «دم الله و ابن دمه».

إنّ هذا الأمر هو عين الخطأ:

أولاً: لأنّ العرب لم تطلق كلمه الثأر أبدا لتعنى بها الدم، بل اعتبرت الثأر دائما ثمنا للدم، و لذلك فإن معنى عبارته أن الله هو الذى يأخذ ثمن دم الحسين الشهيد، و أن هذا الأمر منوط به سبحانه و تعالى، أى أنّ الحسين عليه السلام لم يكن ملكا أو تابعا لعشيرته أو قبيله معينه لتطالب بدمه، بل هو يخص العالم و البشريه جمعاء و يكون تابعا لعالم الوجود و ذات الله المقدسه، و لذلك فإنّ الله هو الذى يطالب و يأخذ ثمن دم هذا الشهيد- كما أن الحسين هو ابن على بن أبى طالب عليه السلام الذى استشهد فى سبيل الله، و الله هو الذى يطالب و يأخذ ثمن دمه أيضا.

و ثانيا: حين يعبر فى بعض الأحيان عن بعض أولياء الله بعبارته «يد الله» فإنّ هذا التعبير- حتما- من باب التشبيه و الكنايه و المجاز ليس إلّا.

فهل يجيز أى مسيحي لنفسه أن يقال فى عبارته «ابن الله» الوارده عندهم فى حق المسيح عليه السلام أنّها ضرب من المجاز و الكنايه؟ بديهى أنّه لا يقبل ذلك، لأنّ المصادر المسيحيه الأصلية اعتبرت صفه البنوه لله سبحانه منحصره بالمسيح عليه السلام وحده و ليس فى غيره، و اعتبروا تلك الصفه حقيقه لا مجازيه، و ما بادر إليه بعض المسيحيين من الادعاء بأن هذه الصفه هى من باب الكنايه أو المجاز، إنّما هو من أجل خداع البسطاء من الناس.

و لإيضاح هذا الأمر نحيل القارى إلى كتاب «القاموس المقدس» فى ماده «الله» حيث يقول هذا الكتاب بأنّ عبارته «ابن الله» هى واحده من القاب منجى و مخلص وفادى المسيحيين، و أن هذا اللقب لا يطلق على أى شخص آخر إلّا إذا وجدت قرائن تبين بأنّ المقصود هو ليس الابن الحقيقى لله (1).

ص: ٥٥٥

اشاره

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

سبب النزول

روى جمع من المفسرين أنّ هذه الآية نزلت بشأن طائفة من مسيحيي نجران، حين زاروا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم واستفسروا منه عن سبب اعتراضه على نبيهم المسيح عليه السلام، فسألهم النبي عليه السلام عن أى اعتراض هم يتحدثون؟ فقالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنك تقول بأن المسيح هو عبد الله ورسوله...» فنزلت الآيتان جواباً على قولهم هذا.

## المسيح هو عبد الله:

على الرغم من أن هاتين الآيتين لهما سبب نزول خاص بهما، إلا أنهما جاءتا في سياق الآيات السابقة التي تحدثت في نفي الألوهية عن المسيح عليه السلام و علاقتهما بالآيات السابقة في دحض قضيه التثليث واضحه و جليه.

في البدايه تشير الآيه الأولى إلى دليل آخر لدحض دعوى ألوهيه المسيح، فتقول مخاطبه المسيحيين: كيف تعتقدون بألوهيه عيسى عليه السلام في حين أن المسيح لم يستنكف عن عباده الله و الخضوع بالعبوديه له سبحانه، كما لم يستنكف الملائكه المقربون من هذه العباده؟ حيث قالت الآيه: لَنْ يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .

و بديهى أن من يكون عبدا لا يمكن أن يصبح معبودا في آن واحد، فهل يمكن أن يعبد فرد نفسه؟ أو هل يكون العابد و المعبود و الرب فردا واحدا؟ و في هذا المجال ينقل بعض المفسرين حادثه طريفه تحكى أن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام لكى يدين و يفند عقيدته التثليث المنحرفه قال لكبير المسيحيين في ذلك الحين-و كان يلقب ب«الجالليق»-بأن المسيح عليه السلام كان حسنا في كل شيء لو لا وجود عيب واحد فيه، و هو قله عبادته لله، فغضب الجالليق و قال للإمام الرضا عليه السلام: ما أعظم هذا الخطأ الذى وقعت فيه، إن عيسى المسيح كان من أكثر أهل زمانه عباده، فسأله الإمام عليه السلام على الفور: و من كان يعبده المسيح؟!فها أنت قد أقررت بنفسك أن المسيح كان عبدا و مخلوقا لله و أنه كان يعبد الله و لم يكن معبودا و لا رباً؟فسكت الجالليق و لم يجر جوابا. (1)

بعد ذلك تشير الآيه إلى أن الذين يمتنعون عن عباده الله و الخضوع له بالعبوديه، يكون امتناعهم هذا ناشئا عن التكبر و الأنانيه و إن الله سيحضر هؤلاء

ص: ٥٥٧

الناس فى يوم القيامه و يجازى كل واحد منهم بالعقاب الذى يناسبه، فتقول الآيه:

وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا

و إنَّ الله العزيز القدير سيكافئ فى يوم القيامه أولئك الذين آمنوا و عملوا الصالحات و قاموا بالأعمال الخيره، و يعطيهم ثوابهم كاملا غير منقوص و يجزل لهم الثواب و النعم، أما الذين تكبروا و امتنعوا عن عباده الله، فإنهم سينالون منه عذابا أليما شديدا، و لن يجدوا فى يوم القيامه لأنفسهم وليا أو حاميا من دون الله، حيث تقول الآيه: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

فى هذه الآيه نقطتان يجب الانتباه إليهما، و هما:

١- إنَّ كلمه «استنكاف» تأتى بمعنى الامتناع أو الاستياء الشديد من شىء، و لها معان واسع، و تحدد معناها- هنا- بما أتى بعدها من قرينه فى عبارته استكبروا لإنَّ الامتناع عن عباده الله و رفض الخضوع له بالعبوديه إما ناشئ عن الجهل أو الغفله. و أحيانا أخرى ينشأ هذا الامتناع عن التكبر و الأنانيه و الغرور، و مع أن الامتناعين يعتبران ذنبا، إلا أن الامتناع الأخير يفوق الأول قبحا بمراتب كبيره.

٢- إنَّ الآيه جاءت بعبارته توضح عدم استنكاف الملائكه المقربين عن عباده الله، و ذلك ردًا على المسيحيين الذين يثنون الآلهه (الأب و لابن و روح القدس) و لتدحض عن هذا الطريق فرضيه وجود المعبود الثالث الذى ادعاه المسيحيون و مثلوه فى أحد الملائكه المسمى ب«روح القدس» و لتثبت التوحيد و وحدانيه ذات الله سبحانه و تعالى.

و قد تكون هذه الآيه إشاره إلى الشرك الذى وقع فيه الوثنيون العرب، و الشرك الذى تورط به المسيحيون حيث أنَّ مشركى الجاهليه كانوا يعتبرون

الملائكة أبناء الله سبحانه، أو يعدونهم جزءاً منه، فجاءت هذه الآية لترد عليهم و تخصص أقوالهم هذه.

و عند التعمق فى هذين الأمرين يتبين لنا-بجلاء-أنّ الآية لم تأت لبيان التفاضل بين الملائكة و الأنبياء، بل جاءت فقط لدحض عقيدة «الأقنوم الثالث» أو دحض عقيدة المشركين العرب فى الملائكة، و ليس فيها أى دلالة على مسألة التفاضل بين المسيح عليه السلام و بين الملائكة.

ص: ٥٥٩

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

التفسير

اشاره

النور المبين:

بعد أن تناولت الآيات السابقه بعضا من انحرافات أهل الكتاب بالنسبه لمبدأ التوحيد و مبادئ و تعاليم الأنبياء، جاءت الآيتان الأخيرتان لتختما القول في بيان سبيل النّجاه و الخلاص من تلك الانحرافات.

لقد توجه الخطاب أولا- إلى عامه الناس، مبينا أنّ الله قد بعث من جانبه نبيا يحمل معه الدلائل و البراهين الواضحه، و بعث معه النور المبين المتجسد في القرآن الكريم الذي يهدى الناس إلى طريق السعاده الأبدية، حيث تقول الآيه الأولى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا .

و يعتقد بعض العلماء أنّ كلمه «برهان» المشتقه من المصدر «بره» على وزن «فرح» تعنى الابيضاض -و لما كانت الأدله الواضحه تجلى للمسامع وجه الحق و تجعله واضحا مشرقا أبيض لذلك سميت ب«البرهان».



والمقصود بالبرهان الوارد في الآيه موضوع البحث-و كما يقول جمع من المفسرين و تؤكد ذلك القرائن-هو شخص نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالنُّورِ هُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ الَّذِي عَبَّرَتْ عَنْهُ آيَاتُ أُخْرَى بِالنُّورِ أَيْضًا.

و قد فسرت الأحاديث المتعدده المنقوله عن أهل البيت عليهم السّلام-و التي أوردتها تفاسير «نور الثقلين» و«على بن إبراهيم» و«مجمع البيان»-أن «البرهان» هو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و«النور» هو على بن أبي طالب عليه السّلام.

و لا- يتنافى هذا التفسير مع ذلك الذي أوردناه قبله، حيث يمكن أن يقصد بعبارته «النور» معان عديده لتشمل «القرآن» و«أمير المؤمنين على عليه السّلام» الذي يعتبر حافظا و مفسرا للقرآن و مدافعا عنه.

و توضح الآيه الثانيه عاقبه أتباع هذا البرهان و هذا النور، فتؤكد على أن الذين آمنوا بالله و تمسكوا بهذا الكتاب السماوي، سيدخلهم الله عاجلا في رحمته الواسعه، و يجزل لهم الثواب من فضله و رحمته، و يهديهم إلى الطريق المستقيم. تقول الآيه: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (١).

ص: ٥٦١

---

١-١) -راجع تفسير سوره الحمد في تفسيرنا هذا الجزء الأول للاطلاع على تفسير عبارته «الصراط المستقيم».

اشاره

يَسِّرْ تَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

سبب النزول

نقل الكثير من المفسرين عن جابر بن عبد الله الأنصاري قوله بأنه كان يعاني من مرض شديد، فعاده النبي صلى الله عليه وآله وسلم و توضع عنده و رش عليه من ماء وضوئه صلى الله عليه وآله وسلم، فذكر جابر -و هو يفكر في الموت- للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ورثته هن أخواته فقط، و استفسر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن كيفية تقسيم الإرث بينهن، فنزلت هذه الآية و التي تسمى -أيضاً- «آيه الفرائض» و بينت طريقه تقسيم الإرث بينهن (و قد وردت الروايه المذكوره أعلاه بفارق طفيف في تفاسير «مجمع البيان» و «التبيان» و «المنار» و «الدر المنثور» و غيرها من التفاسير...).

و يعتقد البعض أن هذه الآية هي آخر آيه من آيات الأحكام نزولاً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١).

ص: ٥٦٢

تبيّن الآيه الوارده أعلاه كميّه الإيرث للأخوه و الأخوات، و قد بيّنا فى أوائل سورّه النساء- فى تفسير الآيه الثانيه عشر منها- إنّ القرآن اشتمل على آيتين توضّحان مسأله الإيرث للأخوه و الأخوات و إنّ إحدى هاتين الآيتين هى الآيه الثانيه عشره من سورّه النساء، و الثانيه هى الآيه الأخيره موضوع بحثنا هذا و هى آخر آيه من سورّه النساء.

و على الرغم ممّا ورد من اختلاف فى الآيتين فيما يخص مقدار الإيرث، إلا أنّ كل آيه من هاتين الآيتين تتناول نوعا من الأخوه و الأخوات كما أوضحنا فى بدايه السوره.

فالآيه الأولى تخصّ الأخوه و الأخوات غير الأشقاء، أى الذين هم من أمّ واحده و آباء متعددين.

أمّا الآيه الثانيه أى الأخيره، فهى تتناول الإيرث بالنسبه للأخوه الأشقاء، أى الذين هم من أمّ واحده و أب واحد، أو من أمهات متعدّدات و أب واحد.

و الدليل على قولنا هذا، أنّ من ينتسب إلى شخص المتوفى بالواسطه يتعين إرثه بمقدار ما يرثه الواسطه من شخص المتوفى.

فالأخوه و الأخوات غير الأشقاء- أى الذين هم من أمّ واحده و آباء متعددين- يرثون بمقدار حصّه أمهم من الإيرث و التى هى الثلث.

أمّا الأخوه و الأخوات الأشقاء- أى الذين هم من أمّ واحده و أب واحد، أو من أب واحد و أمهات متعدّدات- فهم يرثون بمقدار حصّه والدهم من الإيرث التى هى الثلثان.

و لما كانت الآيه الثانيه عشره من سورّه النساء تتحدث عن حصّه الثلث من الإيرث للأخوه و الأخوات، و تتناول الآيه الأخيره حصّه الثلثين، لذلك يتّضح أنّ الآيه السابقه تخصّ الأخوه و الأخوات غير الأشقاء الذين يرتبطون بشخص

المتوفى عن طريق أمهم، وأن الآيه الأخيره تخصّ الأخوه و الأخوات الأشقاء الذين يرتبطون بشخص المتوفى عن طريق الأب أو عن طريق الأب و الأمّ معا.

و الروايات الوارده عن الأئمه عليهم السلام فى هذا المجال تؤكّد هذه الحقيقه أيضا.

و على أى حال فإن كانت حصّه الأخ أو الأخت هى الثلث أو الثلثان، فإنّ الباقي من الإرث يوزع بناء على القانون الإسلامى بين الباقيين من الورثه، و هكذا و بعد أن توضح لنا عدم وجود أى تناقض بين الآيتين، نتطرق الآن إلى تفسير الأحكام الوارده فى الآيه الأخيره.

□  
و تجدر الإشاره هنا إلى أنّ الآيه جاءت لتفصل إرث الكلاله أى إرث الأخوه و الأخوات (1) فتقول الآيه: يَسْأَلُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ... أى يسألونك فخيرهم بأنّ الله هو الذى يعين حكم «الكلاله» (أى الأخوه و الأخوات).

بعد ذلك تشير الآيه إلى عدد من الأحكام، وهى:

1- إذا مات رجل و لم يكن له ولد و كانت له أخت واحده، فإنّ هذه الأخت ترث نصف ميراثه تقول الآيه الكريمه: إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ... .

2- إذا ماتت امرأه و لم يكن لها ولد، و كان لها أخ واحد-شقيق من أبيها وحده أو من أبيها و أمها معا- فإنّ أخاها الوحيد يرثها، تقول الآيه: وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ... .

□  
3- إذا مات شخص و كانت له أختان فقط، فإنّهما ترثان ثلثى ما تركه من الميراث، تقول الآيه الكريمه: فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ... .

4- إذا كان ورثه الشخص المتوفى عددا من الأخوه و الأخوات أكثر من اثنين، فإنّ ميراثه يقسم جميعه بينهم، بحيث تكون حصّه الأخ من الميراث ضعف

ص: ٥٦٤

---

1-1) -لمعرفه معنى «الكلاله» و سبب إطلاقها على الأخوه و الأخوات، راجع تفسير الآيه الثانيه عشره من سوره النساء.

حصّه الأخت الواحده منه. تقول الآيه الكريمة: وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ... .

و فى الختام تؤكد الآيه أنّ الله يبيّن للناس هذه الحقائق لكي يصونهم من الانحراف و الضلاله، و يدلهم على طريق الصواب و السعاده (و حقيق أن يكون الطريق الذى يرسمه الله للناس و يهديهم إليه هو الطريق الصحيح) و الله هو العالم العارف بكل شىء، و فى هذا المجال تقول الآيه الكريمة: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١) .

و الجدير بالذكر هنا أنّ الآيه-موضوع البحث-إنّما تبين إرث الأخوه و الأخوات فى حاله عدم وجود ولد الشخص المتوفى، و لم تتطرق الآيه إلى وجود الأب و الأم للشخص المتوفى، و لكن بناء على الآيات الوارده فى بدايه سوره النساء-فإن الأب و الأم يأتون فى مصاف الأبناء فى الطبقة الأولى من الوارثين، و لذلك يتوضح أن المقصود من الآيه الأخيره هى حاله عدم وجود أبناء و عدم وجود أبوين للشخص المتوفى.

انتهى تفسير سوره النساء

ص: ٥٦٥

---

١ - ١) - و جمله «أن تضلوا» بمعنى «أن لا تضلوا» حيث تكون كلمه «لا» مقدره، و القرآن و كلام العرب الفصحاء مليان بمثل هذه التعابير البليغه.



## سوره المائده

### اشاره

مدتيه و عدد آياتها مائه و عشرون آيه

ص: ٥٦٧





إن هذه السورة من السور المدنية، وتشتمل على مائة و عشرين آية، وقيل أنها نزلت بعد سورة الفتح، وتدل روايات على أنها نزلت كلها في فترة حجّه الوداع بين مكة والمدينة (١).

وتشتمل هذه السورة على مجموعه من المعارف والعقائد الإسلاميه بالإضافة إلى سلسله من الأحكام والواجبات الدينيه.

وقد وردت في القسم الأول منها الإشارة إلى قضيه الخلاف بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقضايا أخرى مثل: عقيدته التثليث المسيحيه، ومواضيع خاصه بيوم القيامة والحشر واستجواب الأنبياء حول أممهم.

أمّا القسم الثاني فقد اشتمل على قضيه الوفاء بالعهود والمواثيق، وقضايا العداله الاجتماعيه، والشهاده العادله، وتحريم قتل النفس (من خلال ذكر قضيه ابني آدم، و قتل قابيل لأخيه هابيل) بالإضافة إلى بيان أقسام من الأغذيه المحرمه والمحلله، وأقسام من أحكام الوضوء والتيمم.

أمّا وجه تسميه السوره ب«سوره المائده» فهو لورود قضيّه نزول المائده السماويه على حوارى المسيح عليه السلام فى الآيه (١١٤) منها.

ص: ٥٦٩

---

١- ١) - تفسير المنار- الجزء السادس، ص ١١٦، ويجب الانتباه إلى أنّ المقصود بالسوره المدنيه، هو نزولها بعد هجره النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكّه إلى المدينه، حتى لو لم تكن السوره قد نزلت فى المدينه نفسها.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

التفسير

اشاره

الإلزام بالوفاء بالعهد و الميثاق:

تدل الروايات الإسلاميه و أقوال المفسرين على أنّ هذه السوره هي آخر سوره أو من السور الأخيره التي نزلت على النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و

قد ورد في تفسير العياشى نقلا عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام على بن أبى طالب عليه السلام قال: «نزلت المائده قبل أن يقبض النبي صلى الله عليه و آله و سلم بشهرين أو ثلاثه» (١).

و ما ورد بشأن هذه السوره من أنّها من السور الناسخه و ليست المنسوخه يعتبر إشاره إلى المعنى المذكور أعلاه.

و لا يتنافى هذا الكلام مع ذلك الذى ورد فى الجزء الثانى من تفسيرنا هذا-

ص: ٥٧٠

١- ١) -تفسير البرهان- الجزء الأول، ص ٤٣٠، يجب الانتباه إلى أن ورد أحكام الوضوء و التيمم و أمثالهما فى هذه السوره، لا ينافى كونها آخر سوره من سور القرآن، لأنّ أغلب هذه الأحكام لها طابع تكرارى، أى أنّها وردت بصوره مكرره للتأكيد عليها، لذلك ترى بعضا من هذه الأحكام قد وردت فى سوره النساء أيضا.

فى هامش الآيه (٢٨١) من سوره البقره- حيث قلنا هناك بأن هذه الآيه هى آخر آيه نزلت على النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأن كلامنا الحالى هو عن آخر سوره نزلت على النبى صلى الله عليه وآله وسلم و كلامنا السابق كان عن آيه واحده.

لقد تمّ التأكيد فى هذه السوره- لما تمتاز به من موقع خاص- على مجموعه من المفاهيم الإسلاميه، و على آخر البرامج و المشاريع الدينيه، و قضيه قياده الأممه و خلافه النبى صلى الله عليه وآله وسلم، و قد يكون هذا هو السبب فى استهلال سوره المائده بقضيه الإلزام بالوفاء بالعهد و الميثاق، حيث تقول الآيه فى أول جملتها: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...** و ذلك لكى تلزم المؤمنين بالوفاء بعهودهم التى عقدوها فى الماضى مع الله أو تلك التى أشارت إليها هذه السوره.

و يأتى هذا التأكيد على غرار ما يفعله المسافر فى اللحظات الأخيره، من الوداع مع أهله و أقاربه و أنصاره حيث يؤكد عليهم أن لا ينسوا وصاياه و نصائحه، و أن يوفوا بالعهود و المواثيق التى عقدوها معه.

و يجب الالتفات إلى أن كلمه «عقود» هى صيغه جمع من «عقد» التى تعنى فى الأصل شد أطراف شىء معين ببعضها شدا محكما، و من هنا يسمّى شد طرفى الحبل أو شد حبلين ببعضهما «عقدا».

بعد ذلك تنتقل الآيه من هذا المعنى المحسوس إلى المفهوم المعنوى فتسمّى كلّ عهد أو ميثاق عقدا، لكن بعض المفسرين- قالوا بأنّ كلمه «عقد» مفهوم أضيق من العهد، لأن كلمه العقد تطلق على العهود المحكمه إحكاما كافيا، و لا- تطلق على كل العهود، و إذا وردت فى بعض الروايات أو فى عبارات المفسرين كلمتا العقد و العهد للدلاله على معنى واحد فذلك لا ينافى ما قلناه، لأنّ المقصود فى هذه الروايات أو العبارات هو التفسير الإجمالى لهاتين الكلمتين لا بيان جزئياتهما.

و نظرا لأنّ كلمه العقود هى صيغه جمع دخلت عليها الألف و اللام للدلاله

على الاستغراق، و الجملة التي وردت فيها هذه الكلمة جملة مطلقه أيضا إطلاقا تاما، لذلك فإن الآيه-موضوع البحث-تعتبر دليلا على وجوب الوفاء بجميع العهود التي تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلك العهود التي تعقد مع الله سبحانه و تعالى عقدا محكما.

و بذلك تشمل هذه الآيه جميع العهود و المواثيق الإلهيه و الإنسانيه و الاتفاقيات السياسيه و الاقتصاديه و الاجتماعيه، و التجاريه، و عقود الزواج، و أمثال ذلك، و لها مفهوم واسع يطوى بين جنبيه جميع جوانب حياه الإنسان العقائديه و العمليه، و يشمل العهود الفطريه و التوحيديه و حتى العهود التي يعقدها الناس فيما بينهم على مختلف قضايا الحياه.

و جاء في تفسير «روح المعاني» عن «الراغب الأصفهاني» أنّ العقد-نظرا لطرفيه ينقسم إلى ثلاثه أنواع، فأحيانا يكون عقدا بين العبد و ربه، و طورا بين الفرد و نفسه، و حيننا بين الفرد و نظائره من سائر أفراد البشر (1).

و طبيعي أن لكل من هذه الأنواع الثلاثه من العقود طرفين، و غايه الأمر أنّ الإنسان حين يتعاقد مع نفسه يفترض هذه النفس بمثابه الشخص الثاني، أو الطرف الآخر من العقد.

و على أى حال، فإنّ مفهوم هذه الآيه-لسعته-يشمل حتى تلك العقود و العهود التي يقيمها المسلمون مع غير المسلمين.

و هناك عدّه أمور في هذه الآيه يجب الانتباه إليها و هي:

1-تعتبر هذه الآيه من الآيات التي تستدل بها جميع كتب الفقه، في البحوث الخاصه بالحقوق الإسلاميه و تستخلص منها قاعده فقهيه مهمه هي «أصالة اللزوم في العقود» أى أنّ كل عقد أو عهد يقام بين اثنين حول أشياء أو أعمال يكون لازم التنفيذ.

ص: ٥٧٢

و يعتقد جمع من الباحثين أنّ أنواع المعاملات و الشركات و الاتفاقيات الموجوده فى عصرنا الحاضر، و التى لم يكن لها وجود فى السابق، أو التى ستوجد بين العقلاء فى المستقبل، و التى تقوم على أسس و مقاييس صحيحة- تدخل ضمن هذه القاعده، حيث تؤكد هذه الآيه صحتها جميعا(و طبيعى أن الضوابط الكليه التى أقرّها الإسلام للعقود و العهود يجب أن تراعى فى هذا المجال).

و الاستدلال بهذه الآيه كقاعده فقهيه ليس معناه أنّها لا تشمل العهود الإلهيه المعقوده بين البشر و بين الله تعالى، أو القضايا الخاصه بالقياده و الزعامه الإسلاميه التى أخذ النبى صلى الله عليه و آله و سلم العهد و الميثاق فيها من الأُمّه، بل إنّ للآيه مفهومًا واسعًا يشمل جميع هذه الأمور.

و تجدر الإشارة هنا إلى أن حقيقه العهد و الميثاق ذات طرفين، و لزوم الوفاء بالعهد يبقى ساريا ما دام لم يقم أحد من المتعاقدين بنقض العهد، و لو نقض أحد الطرفين العقد لم يكن الطرف الثانى عند ذلك ملزما بالوفاء بالعهد إذ يخرج العهد بهذا النقض من حقيقه العهد و الميثاق.

٢- إنّ قضيه الوفاء بالعهد و الميثاق التى تطرحها الآيه-موضوع البحث- تعتبر واحدا من أهم مستلزمات الحياه الاجتماعيه، إذ بدونها لا- يتم أى نوع من التعاون و التكافل الاجتماعى، و إذا فقد نوع البشر هذه الخصله فقدوا بذلك حياتهم الاجتماعيه و آثارها أيضا.

و لهذا تؤكد مصادر التشريع الإسلامى بشكل لا مثيل له-على قضيه الوفاء بالعهد التى قد تكون من القضايا النوادر التى تمتاز بهذا النوع من السعه و الشموليّه، لأنّ الوفاء لو انعدم بين أبناء المجتمع الواحد لظهرت الفوضى و عم الاضطراب فيه و زالت الثقه العامه، و زوال الثقه يعتبر من أكبر و أخطر الكوارث.

و

قد ورد فى نهج البلاغه من قول الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام لمالك

الأشتر رضى الله عنه ما يلي:

«فإنه ليس من فرائض الله شيء للناس أشد عليه اجتماعا-مع تفرق أهوائهم و تشتت آرائهم-من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم-دون المسلمين-لما استوبلوا من عواقب الغدر» (١).

و جملة

«لما استوبلوا من عواقب الغدر» معناها:لما نالهم من وبال من عواقب الغدر.

و

ينقل عن الإمام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «إن الله لا يقبل إلا العمل الصالح، ولا يقبل الله إلا الوفاء بالشروط و العهود» (٢).

و

نقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا دين لمن لا عهد له» (٣).

و التأكيدات الشديده هذه كلها تدل على أن موضوع الوفاء بالعهد لا فرق في الالتزام به بين إنسان و إنسان آخر-سواء كان مسلما أو غير مسلم-و هو-كما يصطلح عليه-يعتبر من حقوق الإنسان بصورة عامه، و ليس فقط-من حقوق أنصار الدين الواحد.

و

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ثلاث لم يجعل الله عزّ و جلّ لأحد فيهنّ رخصه: أداء الأمانه إلى البر و الفاجر، و الوفاء بالعهد للبر و الفاجر، و بر الوالدين برين كانا أو فاجرين!» (٤).

نقل عن الإمام على عليه السلام بأن العهد حتى لو كان بالإشارة يجب الوفاء به، و ذلك في قوله: «إذا أومى أحد من المسلمين أو أشار إلى أحد من المشركين، فنزل على ذلك فهو في أمان» (٥).

ص: ٥٧٤

١- ١) -نهج البلاغه، رسائل الإمام على عليه السلام، الرسالة ٥٣.

٢- ٢) -سفينه البحار، الجزء الثاني، ص ٢٩٤.

٣- ٣) -البحار، الجزء السادس عشر، ص ١٤٤.

٤- ٤) -أصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٢.

٥- ٥) -مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ٢٥٠.

و بعد أن تطرقت الآية إلى حكم الوفاء بالعهد و الميثاق-سواء كان إلهيا أو إنسانيا محضا-أردفت بيان مجموعته أخرى من الأحكام الإسلامية، كان الأوّل منها حليه لحوم بعض الحيوانات، فبيّنت أن المواشى و أجنحتها تحل لحومهما على المسلمين، حيث تقول الآية: **أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** و كلمه «الأنعام» صيغه جمع من «نعم» و تعنى الإبل و البقر و الأغنام (١).

أمّا كلمه «بهيمه» فهى مشتقه من المصدر «بهمه» على وزن «تهمه» و تعنى فى الأصل الحجر الصلب، و يقال لكل ما يعسر دركه «مبهما» و جميع الحيوانات التى لا- تمتلك القدره على النطق تسمى «بهيمه» لأنّ أصواتها تكون مبهمه للبشر، و قد جرت العاده على إطلاق كلمه «بهيمه» على المواشى من الحيوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحيوانات الوحشية و الطيور.

و من جانب آخر فإن جنين المواشى يطلق عليه اسم «بهيمه» لأنه يكون مبهما نوعا ما.

و على الأساس المذكور فإنّ حكم حليه بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ يشمل إمّا جميع المواشى ما عدا التى استثنتها الآية فيما بعد، أو تكون الجملة بمعنى أجنه الحيوانات من ذوات اللحم الحلال (تلك الأجنه التى اكتمل نموها و هى فى بطن أمّها، و كسى جلدها بالشعر أو الصوف) (٢).

و لما كان حكم حليه حيوانات كالإبل و البقر و الأغنام قد تبين للناس قبل هذه الآية، لذلك من المحتمل أن تكون الآية- موضوع البحث-إشارة إلى حليه أجنه هذه الحيوانات.

و الظاهر من الآية أنّها تشمل معنى واسعا، أى تبين حليه هذه الحيوانات

ص: ٥٧٥

١- ١) - إذا جاءت كلمه «نعم» مفردة فهى تعنى الإبل، و إذا جاءت جمعا فتعنى الأنواع الثلاثة، مفردات الراغب ماده (نعم).

٢- ٢) - لو قلنا: إنّ كلمه «بهيمه» تعنى الحيوانات وحدها دون الأجنه، لكانت إضافة كلمه «بهيمه» إلى كلمه «أنعام» إضافة بيانية، أمّا إذا قلنا: إنّها تعنى الأجنه أيضا، تكون هذه الإضافة «لامية».

بالإضافة إلى حليه لحوم أجنحتها أيضا، ومع أنّ هذا الحكم كان قد توضح في السابق إلاّ أنّه جاء مكررا في هذه الآية كمقدمه للاستثناءات الواردة فيها.

و يتبين لنا ممّا تقدم أن علاقته الجملة الأخيره و حكمها بالأصل الكلى-الذى هو لزوم الوفاء بالعهد-هى التأكيد على كون الأحكام الإلهيه نوعا من العهد بين الله و عباده-حيث تعتبر حليه لحوم بعض الحيوانات و حرمة لحوم البعض الآخر منها قسما من تلك الأحكام.

و فى الختام تبين الآية موردين تستثنيهما من حكم حليه لحوم المواشى، و أحد هذين الموردين هو اللحوم التى سيتم بيان حرمتها فيما بعد،حيث تقول الآية: **إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ** و المورد الثانى هو أن يكون الإنسان فى حاله إجماع للحج أو العمرة، حيث يحرم عليه الصيد فى هذه الحالة،فتقول الآية: **غَيْرَ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ (١)**.

و فى آخر الآية يأتى التأكيد على أنّ الله إذا أراد شيئا أو حكما انجزه أو أصدره،لأنه عالم بكل شىء،و هو مالك الأشياء كلها،و إذا رأى أن صدور حكم تكون فيه مصلحة عباده و تقتضى الحكمه صدورهم،أصدر هذا الحكم و شرعه، حيث تقول الآية فى هذا المجال: **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**.

ص: ٥٧٤

---

١ - ١) -طبيعى أن جملة «إلا- ما يتلى عليكم»هى جملة استثنائية،و إن جملة «غير محلى الصيد»هى حال من ضمير «كم»و تكون نتيجة للاستثناء بحسب المعنى.



اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ  
رِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَ  
لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)

التفسير

اشاره

ثمانية احكام في آيه واحده:

لقد بينت هذه الآيه عددا من الأحكام الإلهيه الإسلاميه المهمه، و هي من الأحكام الأواخر التي نزلت على النبي صلى الله عليه و  
آله و سلم و كلها أو أغلبها تتعلق بحج بيت الله، و هي على الوجه التالي:

١-الطلب من المؤمنين بعدم انتهاك شعائر الله، و نهيمهم عن المساس بحرمه هذه الشعائر المقدسه، كما تقول الآيه الكريمه: يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ... و اختلف المفسرون حول المراد بكلمه «الشعائر» الوارده هنا، و بالنظر إلى الأجزاء الأخرى من  
هذه الآيه، و إلى السنه التي نزلت فيها و هي السنه

العاشره للهجره التى أدى فيها النبى صلى الله عليه وآله وسلم آخر حجّه إلى مكّه المكرمه هى حجّه الوداع، يتّضح أنّ المراد بهذه الكلمه مناسك الحج التى كلف المسلمون باحترامها كلّها، ويؤكد هذا الرأى مجيء كلمه «الشّعائر» فى القرآن الكريم مقترنه بالحديث عن مناسك الحج دائما (١).

٢-دعت الآيه إلى احترام الأشهر الحرم وهى شهور من السنه القمريه، كما نهت عن الدخول فى حرب فى هذه الشهور، حيث قالت: **وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ...**

٣-حرمت الآيه المساس بالقرايين المخصصه للذبح فى شعائر الحج، سواء ما كان منها ذا علامه و هو المسمّى ب«الهدى» (٢) أو تلك الخاليه من العلامات و التى تسمّى ب«القلائد» (٣) أى نهت عن ذبحها و أكل لحومها حتى تصل إلى محل القران للحج و تذبح فيه، فقالت الآيه: **وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْقَلَائِدَ...**

٤-أوجبت الآيه توفير الحريه التامه لحجاج بيت الله الحرام أثناء موسم الحج، الذى تزول خلاله كل الفوارق القبليه و العرقيه و اللغويه و الطبقيه، و نهت عن مضايقه المتوجهين إلى زياره بيت الله الحرام ابتغاء لمرضاته، أو حتى الذين توجهوا إلى هذه الزياره و هم يحملون معهم أهدافا أخرى كالتجاره و الكسب الحلال لا- فرق فيهم بين صديق أو غريم، فما داموا كلهم مسلمين و قصدهم زياره بيت الله، فهم يتمتعون بالحصانه كما تقول الآيه الكريمه: **وَلَا آمِنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَنْتُغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَانًا...**

يعتقد بعض المفسرين و الفقهاء أنّ الجمله القرآنيه المذكوره أعلاه ذات معنى عام و تشمل غير المسلمين، أى المشركين أيضا إن هم جاءوا لزياره بيت الله الحرام يجب أن يتعرضوا للمضايقه من قبل المسلمين.

ص: ٥٧٨

١-١) -سوره البقره، الآيه ١٥٨ و سوره الحج، الآيتان ٣٢ و ٣٦.

٢-٢) -الهدى جمع «هديه» و هو يعنى هنا المواشى التى تهدى لتكون قرابين إلى بيت الله الحرام.

٣-٣) -القلائد جمع «قلايده» و هى الشىء الذى يوضع حول رقبه الإنسان أو الحيوان، و تعنى هنا المواشى التى تعلم بالقلائد لذبحها فى مراسم الحج.

و لكن نظرا لنزول آيه تحريم دخول المشركين إلى المسجد الحرام في سورة التوبه التي نزلت في العام التاسع للهجره، و نزول سورة المائده في أواخر عمر النبي الكريم صلى الله عليه و آله و سلم أى في العام العاشر للهجره و هى سورة لم يطرأ النسخ على أى من الأحكام الوارده فيها-بحسب روايات الطائفتين الشيعه و السنه-لذلك يستبعد أن يكون هذا التفسير صحيحا، و الحق أن الحكم المذكور خاص بالمسلمين و حدهم.

٥-لقد خصصت هذه الآيه حكم حرمة الصيد بوقت الإحرام فقط، و أعلنت أن الخروج من حاله الإحرام إيدان بجواز الصيد للمسلمين-حيث تقول الآيه الكريمه: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا .

٦-منعت هذه الآيه الكريمه المسلمين من مضايقه أولئك النفر من المسلمين الذين كانوا قبل إسلامهم يضايقون المسلمين الأوائل في زياره بيت الله الحرام و يمنعونهم من أداء مناسك الحج، و كان هذا في واقعه الحديبيه، فممنع المسلمون من تجديد الأحقاد و مضايقه أولئك النفر في زمن الحج بعد أن أسلموا و قبلوا الإسلام لهم ديناً، تقول الآيه الكريمه: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا (١) .

و مع أن هذا الحكم قد نزل في مجال زياره بيت الله الحرام، لكنه-في الحقيقه-يعد حكما عاما، و قانونا كليا يدعو المسلمين إلى نبذ«الحقد» و عدم إحياء الأحداث السابقه في أذهانهم بهدف الانتقام من مسيبيها.

و لما كانت خصله الحقد إحدى عناصر ظهور و بروز النفاق و الفرقه لدى المجتمعات يتضح لنا-منذ ذلك-جليا أهميه هذا الحكم الإسلامى فى التصدى و الوقوف بوجه استعمار نار النفاق بين المسلمين و بالأخص فى زمن كان نبى

ص: ٥٧٩

١-١) -تفيد أقوال أهل اللغه و التفسير أن كلمه«جرم»تعنى فى الأصل قطع الثمار أو قطفها من الأغصان قبل الأوان، و تطلق- أيضا على كل عمل مكروه، كما تطلق على الآخرين بالقيام بعمل غير محبوب-و هنا فإن عبارته«لا يجر منكم»تعنى لا يحملنكم على القيام بعمل غير صائب.

الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوشك على وداع المسلمين و الرحيل عنهم.

٧- تؤكد الآية-جريا على سياق البحث الذى تناولته و بهدف إكماله-على أنّ المسلمين بدلا من أن يتحدوا للانتقام من خصومهم السابقين الذين أسلموا- و أصبحوا بحكم إسلامهم أصدقاء-عليهم جميعا أن يتحدوا فى سبيل فعل الخيرات و التزام التقوى، و أن لا يتعاونوا-فى سبيل الشر و العدوان تقول الآية:

وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ...

٨- و لكى تعزز الآية الأحكام السابقة و تؤكد لها تدعو المسلمين فى الختام إلى اتباع التقوى و تجنب معصية الله، محذره من عذاب الله الشديد، فتقول:

وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

### التعاون فى أعمال الخير:

إنّ الدعوة إلى التعاون التى تؤكد عليها الآية الكريمة تعتبر مبدأ إسلاميا عاما، تدخل فى إطاره جميع المجالات الاجتماعية و الأخلاقية و السياسيه و الحقوقية و غيرها و قد أوجبت هذه الدعوة على المسلمين التعاون فى أعمال الخير، كما منعتهم و نهتهم عن التعاون فى أعمال الشرّ و الإثم اللذين يدخل إطارهما الظلم و الاستبداد و الجور بكل أصنافها.

و يأتى هذا المبدأ الإسلامى تماما على نقيض مبدأ ساد فى العصر الجاهلى، و ما زال يطبق حتى فى عصرنا الحاضر، و هو المبدأ القائل: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، و كان فى العصر الجاهلى إذا غزت جماعه من إحدى القبائل جماعه من قبيله أخرى، هب أفراد القبيله الغازيه لموازره الغازين بغض النظر عما إذا كان الغزو لغرض عادل أو ظالم، و نرى فى وقتنا الحاضر-أيضا-آثار هذا المبدأ الجاهلى فى العلاقات الدوليه، و بالذات لدى الدول المتحالفه حين تهب فى الغالب لحمايه بعضها البعض، و التضامن و التعاون معا حيال القضايا الدوليه دون رعايه لمبدأ العداله و دون تمييز بين الظالم و المظلوم: لقد ألغى الإسلام هذا المبدأ

الجاهلي، و دعى المسلمين إلى التعاون في أعمال الخير و المشاريع النافعه و البناء فقط، و نهى عن التعاون في الظلم و العدوان.

و الطريق في هذا المجال هو مجيء كلمتي «البر» و «التقوى» معا و على التوالي في الآية، حيث أنّ الكلمه الأولى تحمل طابعا إيجابيا و تشير الى الأعمال النافعه، و الثانيه لها طابع النهي و المنع و تشير إلى الامتناع عن الأعمال المنكره- و على هذا الأساس- أيضا- فإن التعاون و التآزر يجب أن يتم سواء في الدّعوه إلى عمل الخير، أو في مكافحه الأعمال المنكره.

و قد استخدم الفقه الإسلامى هذا القانون في القضايا الحقوقيه، حيث حرّم قسما من المعاملات و العقود التجاريه التى فيها طابع الإغاثه على المعاصى أو المنكرات، كبيع الأعناب إلى مصانع الخمور أو بيع السلاح إلى أعداء الإسلام و أعداء الحق و العدله، أو تأجير محل للاكتساب لتمارس فيه المعاملات غير الشرعيه و الأعمال المنكره (و بديهي أن لهذه الأحكام شروطا تناولتها كتب الفقه الإسلامى بالتوضيح).

إنّ إحياء هذا المبدأ لدى المجتمعات الإسلاميه، و تعاون المسلمين في أعمال الخير و المشاريع النافعه البناءه دون الاهتمام بالعلاقات الشخصيه و العرقيه و النسبيه، و الامتناع عن تقديم أى نوع من التعاون إلى الأفراد الذين يمارسون الظلم و العدوان، بغض النظر عن تبعيه أو انتمائه الفئه الظالمه، كل ذلك من شأنه أن يزيل الكثير من النواقص الاجتماعيه.

أمّا في العلاقات الدوليه، فلو امتنعت دول العالم عن التعاون مع كل دوله معتديه- أيّا كانت- لقضى بذلك على جذور العدوان و الاستعمار و الاستغلال في العالم، و لكن حين ينقلب الوضع فتتعاون الدول مع المعتدين و الظالمين بحجّه أنّ مصالحهم الدوليه تقتضى ذلك، فلا يمكن توقع الخير أبدا من وضع كالذى يسود العالم اليوم.

لقد تناولت الأحاديث و الروايات الإسلاميه هذه القضيه بتأكيد كبير،

-١

نقل عن النبي محمد صَلَّى اللهُ عليه و آله و سَلَّم في هذا المجال قوله: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمه و أعوان الظلمه و أشباه الظلمه حتى من برىء لهم قلما و لاق لهم دواه؟ قال: فيجتمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في جهنم» (١).

-٢

نقل عن صفوان الجمال، و هو أحد أنصار الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم عليه السَّلام، بأنه تشرف بلقاء الإمام عليه السَّلام فقال له الكاظم عليه السَّلام: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً.

قلت: جعلت فداك، أى شيء؟ قال: كراؤك جمالك من هذا الرجل، يعنى هارون.

قال: و الله ما أكريته أشرا و لا بطرا و لا للصيد و لا للهو و لكنى أكريته لهذا الطريق-يعنى طريق مكه- و لا أتولاه بنفسى، و لكن أبعث معه غلمانى.

فقال لى: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم.

قال: من أحب بقاءهم فهو منهم، و من كان منهم كان ورد النار... إلى آخر الحديث (٢).

و

فى حديث عن النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سَلَّم خاطب به علياً عليه السَّلام قائلاً:

«يا على كفر بالله العلى العظيم من هذه الأئمه عشره... و بائع السلاح لأهل الحرب» (٣).

ص: ٥٨٢

١-١) - وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ١٣١.

٢-٢) - الوسائل، ج ١٢، ص ١٣١-١٣٢.

٣-٣) - وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ٧١.

اشاره

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحِمُّ الْخَنِزِيرُ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا  
ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ يَوْمَ الْقِيَامِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ  
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ (٣)

التفسير

اشاره

لقد تميّت الإشاره فى بدايه السوره إلى الحلال من لحوم المواشى، و ورد-أيضا-أنّ هناك استثناءات تحرم فيها لحوم المواشى، حيث ذكرتها الآيه الأخيره-موضوع البحث-فى أحد عشر موردا تكرر ذكر بعضها فى آيات قرآنيه أخرى على سبيل التأكيد.

و المحرمات التى وردت فى هذه الآيه، بحسب الترتيب الذى جاءت عليه كما يلى:

أولا: الميته.

ص: ٥٨٣

ثانيا:الدم.

ثالثا:لحم الخنزير.

رابعا:الحيوانات التى تذبح باسم الأصنام،أو باسم غير اسم الله،كما كان يفعل الجاهليون،وقد تحدثنا عن هذه اللحوم الأربعة المحرمة فى الجزء الأول من تفسيرنا هذا.

خامسا:الحيوانات المخنوقه،سواء كان الخنق بسبب الفخ الذى تقع فيه أو بواسطة الإنسان أو بنفسها،و كان الجاهليون يخنقون الحيوانات أحيانا للانتفاع بلحومها وقد أشارت الآية إلى هذا النوع باسم«المنخنقه».

و ورد فى بعض الروايات أنّ المجوس كان من عاداتهم أن يخنقوا الحيوانات التى يريدون أكلها،ولهذا يمكن أن تشملهم الآية أيضا (١).

سادسا:الحيوانات التى تموت نتيجة تعرضها للضرب و التعذيب،أو التى تموت عن مرض و سُميت فى الآية ب«الموقوذه» (٢).

و نقل القرطبي فى تفسيره أن عرب الجاهليه اعتادوا على ضرب بعض الحيوانات حتى الموت إكراما لأصنامهم و تقربا لها.

سابعا:الحيوان الذى يموت نتيجة السقوط من مكان مرتفع،و قد سمي هذا النوع فى الآية ب«المرتديه».

ثامنا:الحيوان الذى يموت جراء نطحه من قبل حيوان آخر،و قد سمت الآية هذا النوع من الحيوانات ب«النطيحه».

تاسعا:الحيوان الذى يقتل نتيجة هجوم حيوان متوحش عليه،و سمي هذا النوع فى الآية ب«ما أكل السبع».

و قد يكون جزءا من فلسفه تحريم هذه الأنواع من الحيوانات،هو عدم

ص: ٥٨٤

١-١) -وسائل الشيعة،ج ١٦،ص ١٧٣.

٢-٢) -الموقوذه المضروبه بعنف حتى الموت.



نزفها المقدار الكافي من الدم لدى الموت أو القتل، لأنه ما لم تقطع عروق رقابها لا تنزف الدم بمقدار كاف، ولما كان الدم محيطا مناسباً جداً لنمو مختلف أنواع الجراثيم، وبما أنه يتفسخ حين يموت الحيوان قبل الأجزاء الأخرى من الجسد، لذلك يتسمم لحم الحيوان ولا يمكن أن يعد هذا اللحم من اللحوم السليمة، وغالبا ما يحصل هذا التسمم عند ما يموت الحيوان على أثر مرض أو من جراء التعذيب أو نتيجة تعرضه لملاحقه حيوان متوحش آخر.

من جانب آخر فإن الشرط المعنوي للذبح لا يتحقق في أي نوع من تلك الحيوانات، أي شرط ذكر اسم الله و توجيه الحيوان صوب القبلة لدى الذبح.

لقد ذكرت الآيه شرطا واحدا لو تحقق لأصبحت لحوم الحيوانات المذكوره حلالا، وهذا الشرط هو أن يذبح الحيوان قبل موته وفق الآداب و التقاليد الإسلامية، ليخرج الدم منه بالقدر الكافي فيحل بذلك لحمه، ولذلك جاءت عبارته **إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ** بعد موارد التحريم مباشرة.

و يرى بعض المفسرين أن هذا الاستثناء يخص القسم الأخير فقط، أي ذلك الذي جاء تحت عنوان: **وَمَا أَكَلَ السَّعْيُ** لكن أغلب المفسرين يرون أن الاستثناء يشمل جميع الأنواع المذكوره، والنظريه الأخيره أقرب للحقيقه من غيرها.

و هنا قد يسأل البعض: لما ذا لم تدخل جميع أنواع الحيوانات المحرمه في الآيه في إطار «الميته» التي ذكرت كأول نوع من المحرمات الأحد عشر في الآيه، أليست الميته في مفهومها تعنى كل الأنواع المذكوره؟ والجواب هو: إن الميته لها معان واسعه من حيث مفهوم الفقهي الشرعي، فكل حيوان لم يذبح وفق الطريقه الشرعيه يدخل في إطار مفهوم الميته، أمّا المعنى اللغوي للميته فيشمل فقط-الحيوان الذي يموت بصوره طبيعیه. و لهذا السبب فإن الأنواع المذكوره في الآيه-غير الميته-لا تدخل من الناحيه اللغويه

ضمن مفهوم الميتة، و هي محتاجه إلى البيان و التوضيح.

عاشرا: كان الوثنيون في العصر الجاهلي ينصبون صخورا حول الكعبه ليست على أشكال أو هيئات معينه، و كانوا يسمون هذه الصخور ب«النصب» حيث كانوا يذبحون قرابينهم أمامها و يمسحون الصخور تلك بدم القران.

و الفرق بين النصب و الأصنام هو أنّ النصب ليست لها أشكال و صور بخلاف الأصنام، و قد حرم الإسلام لحوم القرابين التي كانت تذبح على تلك النصب، فجاء حكم التحريم في الآيه بقوله تعالى: **وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**.

و واضح أنّ تحريم هذا النوع من اللحوم إنّما يحمل طابعا معنويا و ليس ماديا. و في الحقيقه فإن هذا النوع يعتبر من تلك القرابين التي تدخل ضمن مدلول العبارة القرآنيه: **وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** و قد ذكر تشخيصا في الآيه بسبب رواجه لدى عرب الجاهليه.

أحد عشر: و هناك نوع آخر من اللحوم المحرمه، و هو اللحوم التي تذبح و توزع بطريقه القمار، و توضيح ذلك هو أنّ عشره من الأشخاص يتراهنون فيما بينهم فيشترتون حيوانا و يذبحونه، ثمّ يأتون بعشره سهام كتب على سبعة منها عبارة «فائز»، و على الثلاثه الأخرى كتبت عبارة «خاسر»، فتوضع في كيس و تسحب واحده واحده باسم كل من الأشخاص العشره على طريقه الاقتراع، فالأشخاص الذين تخرج النبال السبعه الفائزه بأسمائهم يأخذون قسما من اللحم دون أن يدفعوا ثمنا لما أخذوه من اللحم، أمّا الأشخاص الثلاثه الآخرون الذين تخرج النبال الخاسره بأسمائهم فيتحملون ثمن الحيوان بالتساوى، فيدفع كلّ واحد منهم ثلث قيمه الحيوان دون أن يناله شيء من لحمه.

و قد سمي الجاهليون هذه النبال ب«الأزلام» و هي صيغه جمع من «زلم» و قد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم، لا بمعنى وجود تأصل الحرمة في اللحم، بل لأنّ الحيوان كان يذبح في عمل هو أشبه بالقمار، و يجب القول هنا أن تحريم

القمار و أمثاله لا ينحصر في اللحوم فقط، بل إن القمار محرم في كل شيء و بأيّ صورته كان.

و لكي تؤكّد الآيه موضوع التحريم و تشدد على حرمة تلك الأنواع من اللحوم تقول في الختام: **ذَلِكُمْ فَسُقُ . (١)**

### الاعتدال في تناول اللحوم:

إنّ الذي نستنتجه من البحث المار الذكر و من المصادر الإسلاميه الأخرى، هو أنّ الإسلام اتبع في قضيه تناول اللحوم أسلوباً معتدلاً تمام الاعتدال جرياً على طريقته الخاصه في أحكامه الأخرى.

و يختلف أسلوبه هذا اختلافاً كبيراً مع ما سار عليه الجاهليون في أكل لحم النصب و الميتة و الدم و أشباه ذلك، و ما يسير عليه الكثير من الغربيين في الوقت الحاضر في أكل حتى الديدان و السلاحف و الضفادع و غيرها.

و يختلف مع الطريقه التي سار عليها الهنود في تحريم كل أنواع اللحوم على أنفسهم.

فقد أباح الإسلام لحوم الحيوانات التي تتغذى على الأشياء الطاهره التي لا تعافها النفس البشريه، و ألغى الأساليب التي فيها طابع الإفراط أو التفريط.

و قد عيّن الإسلام شروطاً أبان من خلالها أنواع اللحوم التي يحلّ للإنسان الاستفادة منها، و هي: - ١- لحوم الحيوانات التي تقتات على الأعشاب، أمّا الحيوانات التي تقتات على اللحوم فهي غالباً ما تأكل لحوم حيوانات ميتة أو موبوءة، و بذلك قد تكون سبباً في نقل أنواع الأمراض لدى تناول لحومها، بينما الحيوانات التي تأكل

ص: ٥٨٧

---

١ - ١) - بالرغم من أنّ «ذلكم»، اشاره لمفرد، إلاّ أنّه لَمَّا كان يحتوى على ضمير الجمع، و قد فرض المجموع بمثابه الشيء الواحد، فلا اشكال في هذا الاستعمال.

العشب يكون غذاؤها سليما و خاليا من الأمراض.

و قد تقدم أيضا فى تفسير الآية (٧٢) من سورة البقره بأن الحيوانات تورث صفاتها عن طريق لحومها أيضا، فمن يأكل لحم حيوان متوحش يرث صفات الوحش كالقسوه و العنف، و بناء على هذا الدليل -أيضا- حرمت لحوم الحيوانات الجلاله، و هى التى تأكل فضلات غيرها من الحيوانات.

٢- أن لا تكون الحيوانات التى ينتفع من لحمها كريهه للنفس الإنسانيه.

٣- أن لا يترك لحم الحيوان أثرا سيئا أو ضارا على جسم أو نفس الإنسان.

٤- لقد حرمت الحيوانات التى تذبح فى طريق الشرك فى سبيل الأصنام، و أمثال ذلك لما فيها من نجاسه معنويه.

٥- لقد بين الإسلام أحكاما خاصه لطريقه ذبح الحيوانات لكل واحد منها- بدوره- الأثر الصحى و الأخلاقى على الإنسان.

بعد أن بينت الآيه الأحكام التى مر ذكرها أوردت جملتين تحتويان معنى عميقا: الأولى منهما تقول: **الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اٰخِشُوْنَ .**

و الثانيه هى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا .**

### **متى أكمل الله الدين للمسلمين:**

إن أهم بحث طرحه هاتان الفقرتان القرآنيتان يتركز فى كنهه و حقيقته كلمه «اليوم» الوارده فيهما.

فأى يوم يا ترى هو ذلك «اليوم» الذى اجتمعت فيه هذه الأحداث الأربعة

المصيريه، و هي يأس الكفار، و إكمال الدين، و إتمام النعمه، و قبول الله لدين الإسلام دينا ختاميا لكل البشريه؟ لقد قال المفسرون الكثير في هذا المجال، و ممّا لا شك فيه و لا ريب أن يوما عظيما في تاريخ حياه النبي صلى الله عليه و آله و سلم - كهذا اليوم - لا يمكن أن يكون يوما عاديا كسائر الأيام، و لو قلنا بأنه يوم عادى لما بقى مبرر لإضفاء مثل هذه الأهميه العظيمه عليه كما ورد في الآيه.

و قيل أنّ بعضا من اليهود و النصارى قالوا في شأن هذا اليوم بأنه لو كان قد ورد في كتبهم مثله لآخذوه عيدا لأنفسهم و لاهتموا به اهتماما عظيما (١).

و لنبحث الآن في القرائن و الدلائل و في تاريخ نزول هذه الآيه و تاريخ حياه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الروايات المختلفه المستفاده من مصادر إسلاميه عديده، لنرى أى يوم هو هذا اليوم العظيم؟ ترى هل هو اليوم الذى أنزل فيه الله الأحكام المذكوره في نفس الآيه و الخاصه بالحلال و الحرام من اللحوم؟ بديهى أنه ليس ذلك لأنّ نزول هذه الأحكام لا يوجب إعطاء تلك الأهميه العظيمه، و لا يمكن أن يكون سببا لإكمال الدين، لأنّها لم تكن آخر الأحكام التى نزلت على النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و الدليل على هذا القول ما نراه من أحكام تلت الأحكام السابقه في نزولها، كما لا يمكن القول بأن الأحكام المذكوره هي السبب في يأس الكفار، بل إنّ ما يثير اليأس لدى الكفار هو إيجاد دعامه راسخه قويه لمستقبل الإسلام، و بعبارة أخرى فإنّ نزول أحكام الحلال و الحرام من اللحوم لا يترك أثرا في نفوس الكفار، فما ذا يضيرهم لو كان بعض اللحوم حلالا و بعضها الآخر حراما؟! فهل المراد من ذلك «اليوم» هو يوم عرفه من حجّه الوداع، آخر حجّه قام بها

ص: ٥٨٩

النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم (كما احتمله بعض المفسرين)؟ و جواب هذا السؤال هو النفي أيضا، لأن الدلائل المذكورة لا تتطابق مع هذا التفسير، حيث لم تقع أى حادثة مهمه في مثل ذلك اليوم لتكون سببا ليأس الكفار و لو كان المراد هو حشود المسلمين الذين شاركوا النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في يوم عرفه، فقد كانت هذه الحشود تحيط بالنبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في مكة قبل هذا اليوم أيضا، و لو كان المقصود هو نزول الأحكام المذكورة في ذلك اليوم، فلم تكن الأحكام تلك شيئا مهما مخيفا بالنسبة للكفار.

ثم هل المقصود بذلك «اليوم» هو يوم فتح مكة (كما احتمله البعض)؟ و من المعلوم أن سورة المائدة نزلت بعد فتره طويله من فتح مكة! أو أن المراد هو يوم نزول آيات سورة البراءه، و لكنها نزلت قبل فتره طويله من سورة المائدة.

و الأعجب من كل ما ذكر هو قول البعض بأن هذا اليوم هو يوم ظهور الإسلام و بعثه النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم مع أن هذين الحدثين لا علاقته زمنيه بينهما و بين يوم نزول هذه الآية مطلقا و بينهما فارق زمنى بعيد جدا. و هكذا يتضح لنا أن أيّا من الاحتمالات الستة المذكوره لا تتلاءم مع محتوى الآية موضوع البحث.

و يبقى لدينا احتمال أخير ذكره جميع مفسري الشيعة في تفاسيرهم و أيده كما دعمته روايات كثيره، و هذا الاحتمال يتناسب تماما مع محتوى الآية حيث يعتبر «يوم غدير خم» أى اليوم الذى نصب النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم عليا أمير المؤمنين عليه السلام بصوره رسميه و علنيه خليفه له، حيث غشى الكفار فى هذا اليوم سيل من اليأس، و قد كانوا يتوهمون أن دين الإسلام سينتهى بوفاه النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم و آلهم و سلم و أن الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهليه، لكنهم حين شاهدوا أن النبي أوصى بالخلافه بعده لرجل كان فريدا بين المسلمين فى علمه و تقواه و قوته و عدالته، و هو على

بن أبي طالب عليه السّلام، و رأوا النّبي و هو يأخذ البيعه لعلّى عليه السّلام أحاط بهم اليأس من كل جانب، و فقدوا الأمل فيما توقعوه من شر لمستقبل الإسلام و أدركوا أن هذا الدين باق راسخ.

ففى يوم غدير خم أصبح الدين كاملا، إذ لو لم يتمّ تعيين خليفه للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و لو لم يتمّ تعيين وضع مستقبل الأُمّة الإسلاميه، لم تكن لتكتمل الشريعه بدون ذلك و لم يكن ليكتمل الدين.

نعم فى يوم غدير خم أكمل الله و أتمّ نعمته بتعيين على عليه السّلام، هذا الشخصيه اللائقه الكفو، قائدا و زعيما للأُمه بعد النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و فى هذا اليوم-أيضا-رضى الله بالإسلام ديننا، بل خاتما للأديان، بعد أن اكتملت مشاريع هذا الدين، و اجتمعت فيه الجهات الأربع.

و فيما يلى قرائن أخرى إضافه إلى ما ذكر فى دعم و تأييد هذا التفسير:

أ-لقد ذكرت تفاسير «الرازى» و «روح المعانى» و «المنار» فى تفسير هذه الآيه أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لم يعيش أكثر من واحد و ثمانين يوما بعد نزول هذه الآيه، و هذا أمر يثير الانتباه فى حد ذاته، إذ حين نرى أنّ وفاه النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم كانت فى اليوم الثّانى عشر من ربيع الأوّل (بحسب الروايات الوارده فى مصادر جمهور السنّه، و حتى فى بعض روايات الشيعة، كالتى ذكرها الكلينى فى كتابه المعروف بالكافى) نستنتج أن نزول الآيه كان بالضبط فى يوم الثامن عشر من ذى الحجّه الحرام، و هو يوم غدير خم (1).

ب- ذكرت روايات كثيره-نقلتها مصادر السنّه و الشيعة- أنّ هذه الآيه الكريمه نزلت فى يوم غدير خم، و بعد أن أبلغ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم المسلمين بولايه على

ص: ٥٩١

١- ١) - إنّ هذا الحساب يكون صحيحا إذا لم ندخل يوم وفاه النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و يوم غدير خم فى الحساب، و أن يكون فى ثلاثه أشهر متتاليات مشهرات عدد أيام كل منهما (٢٩) يوما، و نظرا لأنّ أى حدث تاريخى لم يحصل قبل و بعد يوم غدير خم، فمن المرجح أن يكون المراد باليوم المذكور فى الآيه هو يوم غدير خم.

بن أبي طالب عليه السلام، و من هذه الروايات:

١- ما نقله العالم السنّي المشهور «ابن جرير الطبري» في كتاب «الولايه» عن «زيد بن أرقم» الصحابي المعروف، أنّ هذه الآية نزلت في يوم غدير خم بشأن علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢- ونقل الحافظ «أبو نعيم الأصفهاني» في كتاب «ما نزل من القرآن بحق علي عليه السلام» عن «أبي سعيد الخدري» و هو صحابي معروف- أنّ النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم أعطى في «يوم غدير خم» علياً منصب الولايه... و إنّ الناس في ذلك اليوم لم يكادوا ليتفرقوا حتى نزلت آيه: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... فقال النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم و في تلك اللحظه «الله أكبر علي إكمال الدين و إتمام النعمه و رضى الرب برسالتي و بالولايه لعلي عليه السلام من بعدى» ثمّ

قال صَلَّى الله عليه و آله و سلّم: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم و ال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره و اخذل من خذله».

٣- و روى «الخطيب البغدادي» في «تاريخه» عن «أبي هريره» عن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم أنّ آيه الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... نزلت عقب حادثه «غدير خم» و العهد بالولايه لعلي عليه السلام و قول عمر بن الخطاب: «بخ بخ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي و مولى كل مسلم» (١).

و جاء في كتاب «الغدير» إضافة إلى الروايات الثلاث المذكوره، ثلاث عشره روايه أخرى في هذا المجال.

ورود في كتاب «إحقاق الحق» نقلاً عن الجزء الثاني من تفسير «ابن كثير» من الصفحه ١٤ و عن كتاب «مقتل الخوارج» في الصفحه ٤٧

عن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم أنّ هذه الآية نزلت في واقعه غدير خم.

ص: ٥٩٢

١- ١) -لقد أورد العلامة الأميني رحمه الله هذه الروايات الثلاثه بتفاصيلها في الجزء الأول من كتابه «الغدير» في الصفحات ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ كما ورد في كتاب «إحقاق الحق» في الجزء السادس و الصفحه ٣٥٣ أن نزول الآية كان في حادثه غدير خم نقلاً عن أبي هريره من طريقين، كما نقلها عن أبي سعيد الخدري من عده طرق.



و نرى فى تفسير «البرهان» و تفسير «نور الثقلين» عشر روايات من طرق مختلفه حول نزول الآيه فى حق على عليه السلام أو فى يوم غدير خم، و نقل كل هذه الروايات يحتاج إلى رساله منفرده (١).

و قد ذكر العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين فى كتابه «المراجعات» أن الروايات الصحيحه المنقوله عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام تقول بنزول هذه الآيه فى «يوم غدير خم» و إن جمهور السنّه أيضا قد نقلوا سته أحاديث بأسانيد مختلفه عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم تصرح كلها بنزول الآيه فى واقعه غدير خم (٢).

يتضح ممّا تقدم أنّ الروايات و الأخبار التى أكدت نزول الآيه-موضوع البحث- فى واقعه غدير خم ليست من نوع أخبار الآحاد لكى يمكن تجاهلها، عن طريق اعتبار الضعف فى بعض أسانيدها، بل هى أخبار إن لم تكن فى حكم المتواتر فهى على أقل تقدير من الأخبار المستفيضه التى تناقلتها المصادر الإسلاميه المشهوره.

و مع ذلك فإننا نرى بعضا من العلماء المتعصبين من أهل السنّه كالألوسى فى تفسير «روح المعانى» الذى تجاهل الأخبار الوارده فى هذا المجال لمجرد ضعف سند واحد منها، و قد وصم هؤلاء هذه الروايه بأنّها موضوعه أو غير صحيحه، لأنّها لم تكن لتلائم أذواقهم الشخصيه، و قد مرّ بعضهم فى تفسيره لهذه الآيه مرور الكرام و لم يلمح إليها بشيء، كما فى تفسير المنار، و لعل صاحب المنار وجد نفسه فى مأزق حيال هذه الروايات فهو إن وصمها بالضعف خالف بذلك منطق العدل و الإنصاف، و إن قبلها عمل شيئا خلافا لميله و ذوقه.

و قد وردت فى الآيه (٥٥) من سوره النور نقطه مهمّه جديره بالانتباه- فالآيه تقول:

ص: ٥٩٣

١-١) -راجع تفسير الآيه فى الجزء الأول من تفسير البرهان و الجزء الأول من تفسير «نور الثقلين».

٢-٢) -راجع كتاب «المراجعات» الطبعة الرابعه، ص ٣٨.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسَّيَّرْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَسِّرَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعِيدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا... وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْطَعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَعْدًا عَلَى نَفْسِهِ بِأَنْ يَرْسِخَ دَعَائِمَ الدِّينِ، الَّذِي ارْتَضَاهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَرْضِ.

وَلَمَّا كَانَ نَزُولُ سُورَةِ النُّورِ قَبْلَ نَزُولِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَنَظَرًا إِلَى جَمَلِهِ رَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا الْوَارِدَةَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ -مَوْضُوعِ الْبَحْثِ- وَالتِّي نَزَلَتْ فِي حَقِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِذَلِكَ كُلَّهُ نَسْتَنْتِجُ أَنَّ حُكْمَ الْإِسْلَامِ يَتَعَزَّزُ وَيَتَرَسَّخُ فِي الْأَرْضِ إِذَا اقْتَرَنَ بِالْوَلَايَةِ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الدِّينَ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ وَوَعَدَ بِتَرْسِيخِ دَعَائِمِهِ وَتَعَزِيزِهِ، وَبِعِبَارِهِ أَوْضَحَ أَنَّ الْإِسْلَامَ إِذَا أُريدَ لَهُ أَنْ يَعمَ الْعَالَمَ كُلَّهُ يَجِبُ عَدَمُ فَصْلِهِ عَنِ الْوَلَايَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

أَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي الَّذِي نَسْتَنْتِجُهُ مِنْ ضَمَنِ الْآيَةِ الْوَارِدَةِ فِي سُورَةِ النُّورِ إِلَى الْآيَةِ التِّي هِيَ مَوْضُوعُ بَحْثِنَا الْآنَ، فَهُوَ أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى قَدْ أَعْطَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَعُودًا ثَلَاثَةً:

أُولَاهَا: الْخِلَافَةُ عَلَى الْأَرْضِ.

وَالثَّانِي: تَحَقُّقُ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ لِكَي تَكُونَ الْعِبَادَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وَالثَّلَاثُ: اسْتِقْرَارُ الدِّينِ الَّذِي يَرْضَاهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ.

وَلَقَدْ تَحَقَّقَتْ هَذِهِ الْوَعُودُ الثَّلَاثَةُ فِي «يَوْمِ غَدِيرِ خَمٍّ» بِنَزُولِ آيَةِ: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... فَمِثَالُ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ الصَّالِحِ هُوَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي نَصَبَ وَصِيًّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَدَلَّتْ عِبَارَةُ الْيَوْمَ يَيَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ... عَلَى أَنَّ الْأَمْنَ قَدْ تَحَقَّقَ بِصُورِهِ نَسْبِيهِ لَدَى الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا بَيَّنَّتْ عِبَارَةُ: وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا إِنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَارَ الدِّينَ الَّذِي يَرْضِيهِ، وَأَقْرَبَهُ بَيْنَ عِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ لَا يَنَافِي الرِّوَايَةَ التِّي تَصْرَحُ بِأَنَّ آيَةَ سُورَةِ النُّورِ قَدْ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ عَجَلِ اللَّهِ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عِبَارَةَ آمَنُوا مِنْكُمْ لَهَا مَعْنَى وَاسِعَةٌ تَحَقُّقُ وَاحِدٍ مِنْ مَصَادِقِهِ فِي «يَوْمِ غَدِيرِ خَمٍّ» وَسَيَتَحَقَّقُ

على مدى أوسع و أعم فى زمن ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف (و على أساس هذا التفسير فإن كلمة الأرض فى الآيه الأخيره ليست بمعنى كل الكره الأرضيه، بل لها مفهوم واسع يمكن أن يشمل مساحه من الأرض أو الكره الأرضيه بكاملها).

و يدل على هذا الأمر المواضع التى وردت فيها كلمه «الأرض» فى القرآن الكريم، حيث وردت أحيانا لتعنى جزءا من الأرض، و أخرى لتعنى الأرض كلها، (فأمعنوا النظر و دققوا فى هذا الأمر).

### سؤال يفرض نفسه:

و أخيرا بقى سؤال ملح و هو:

أولا: إن الأدله المذكوره فى الآيه-موضوع البحث- و الأدله التى ستأتى فى تفسير الآيه (٦٧) من سوره المائده و التى تقول: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ... لو كانت كلها تخص واقعه واحده، فلما ذا فصل القرآن بين هاتين الآيتين و لم تأتيا متعاقبين فى مكان واحد؟ و ثانيا: لا يوجد ترابط موضوعى بين ذلك الجزء من الآيه الذى يتحدث عن واقعه «غدير خم» و بين الجزء الآخر منها الذى يتحدث عن الحلال و الحرام من اللحوم، فما هو سبب هذه المفارقة الظاهره؟ (١)

### الجواب:

أولا: نحن نعلم أن الآيات القرآنيه- و كذلك سور القرآن الكريم- لم تجمع كلها مرتبه بحسب نزولها الزمنى، بل نشاهد كثيرا من السور التى نزلت فى المدينه فيها آيات مكيه أى نزلت فى مكه، كما نلاحظ آيات مدينه بين السور المكيه أيضا.

و بناء على هذه الحقيقه، فلا عجب- إذن- من وجود هذا الفاصل فى القرآن

ص: ٥٩٥

---

١- ١) -لقد أورد هذا الاعتراض تلميحا صاحب تفسير «المنار» لدى الحديث عن هذه الآيه، ج ٦، ص ٢٦٦.

بين الآيتين المذكورتين (و يجب الاعتراف بأن ترتيب الآيات القرآنيه بالصوره التي هي عليها الآن قد حصل بأمر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه) فلو كانت الآيات القرآنيه مرتبه بحسب زمن نزولها لأصبح الاعتراض واردا في هذا المجال.

ثانيا: هناك احتمال بأن يكون سبب حشر موضوع واقعه «غدير خم» في آيه تشمل على موضوع لا صلح لها به مطلقا، مثل موضوع أحكام الحلال و الحرام من اللحوم، إنما هو لصيانه الموضوع الأول من أن تصل إليه يد التحريف أو الحذف أو التغيير.

إن الأحداث التي وقعت في اللحظات الأخيره من عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم و الاعتراض الصريح الذي واجهه طلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكتابه وصيته، إلى حدّ وصفوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لدى طلبه هذا الأمر بأنه يهجر (و العياذ بالله) و قد وردت تفاصيل هذه الوقائع في الكتب الإسلاميه المعروفه، سواء عن طريق جمهور السنّه أو الشيعه، و هي تدل بوضوح على الحساسيه المفرطه التي كانت لدى نفر من الناس تجاه قضيه الخلافه بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم يتركوا وسيله إلا استخدموها لإنكار هذا الأمر (١).

فلا- يستبعد- و الحاله هذه- أن تتخذ اجراءات وقائيه لحمايه الأدله و الوثائق الخاصه بالخلافه من أجل إيصالها إلى الأجيال المتعاقبه دون أن تمسّ بها يد التحريف أو الحذف، و من هذه الإجراءات حشر موضوع الخلافه-المهم جدّا- في القرآن بين آيات الأحكام الشرعيه الفرعيه لإبعاد عيون و أيدي المعارضين و العابثين عنها.

إضافه إلى ذلك- و كما أسلفنا في حديثنا- فإنّ الوثائق الخاصه بنزول آيه:

ص: ٥٩٦

---

١- ١) -نقل هذه الوقعه واحده من أشهر كتب السنّه و هو كتاب «صحيح البخارى» و في عدّه أبواب منها باب «كتاب المرضي» في الجزء الرابع، و باب «كتاب العلم» في الجزء الأول، ص ٢٢ و في باب «جوائز وفد» من كتاب الجهاد، ص ١١٨، ج ٢ كما وردت في كتاب «صحيح مسلم» في آخر الوصايا بالإضافه إلى كتب أخرى ذكرها المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله في كتابه «المراجعات» تحت عنوان «رزيه يوم الخميس».

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...

الوارده في واقعه «غدِير خم» حول قضيه الخلافه بعد النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم تقتصر كتب الشيعة وحدهم على ذكرها، بل تناقلها- أيضا- الكثير من كتب السنه من طرق متعدده عن ثلاثه من الصحابه المعروفين.

لقد أعادت الآيه- في نهايتها- الكره في التحدث عن اللحوم المحرمه فبيّنت حكم الاضطرار في حاله المعاناه من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا- يكون هدف الشخص ارتكاب المعصيه من تناول ذلك، مشيره إلى غفران الله و رحمته في عدم إلقاء عباده عند الاضطرار إلى تحمل المعاناه و المشقه، و عدم معاقبتهم في مثل هذه الحالات. قالت الآيه الكريمة:

فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و المراد بالمخمصه هنا الجوع الشديد الذى يؤدى إلى انخماص البطن، سواء كان بسبب حاله المجاعه العامه، أو كان ناتجا عن الحرمان الخاص.

أمّا عبارته غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فمعناها غير مائل إلى ارتكاب الذنب، و قد يكون الإتيان بها تأكيداً لمفهوم الاضطرار، أو أنّ الهدف منها هو المنع من الإفراط في أكل اللحم الحرام أثناء الضروره، توهما من الشخص بأن ذلك حلال في مثل هذه الحاله، و منعا من أن يحاول الشخص بنفسه إعداد مقدمات الاضطرار أو أن يحصل الاضطرار أثناء قيام الشخص بسفر من أجل ارتكاب الحرام فيه.

هذه المعانى كلها يحتمل ورودها ضمن العبارة الأخيره الماضيه «و لأجل الاطلاع على توضيحات أكثر في هذا المجال، راجع الجزء الأول من تفسيرنا هذا».

ص: ٥٩٧

اشاره

يَسْتَلُونَكَ ۗ ذَا أُجَلٍّ لَهُمْ قُلْ أَجَلٌ لَّكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تُعَلَّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)

سبب النزول

ذكر المفسرون أسبابا عديده لنزول هذه الآيه، وأكثر هذه الأسباب ملاءمه مع فحوى الآيه هو: أن «زيد الخير» و«عدي بن حاتم» اللذين كانا من الصحابه المقرّبين، قدما على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبراه بأن قومهما يصيدون بواسطه كلاب وصقور الصيد، وإن هذه الكلاب تصيد لهم الحيوانات الوحشيه من ذوات اللحم الحلال، وتأتى بالحيوان المصيد حيا فى بعض الأحيان فيذبح، وأحيانا أخرى تأتى به وقد قتلته قبل وصولها إلى أصحابها دون أن يتاح لهم ذبحه، وسألا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حكم الصيد والمقتول بواسطه كلاب الصيد وهل يعتبر ميتة وحراما أم لا؟... فنزلت الآيه هذه وأجابت على سؤالهما. (١)

ص: ٥٩٨

## الحلال من الصيد:

أعقبت الآيه الأخيره آيتين سبق و أن تناولتا أحكاما عن الحلال و الحرام عن اللحوم، و قد بينت هذه الآيه نوعا آخر من اللحوم أو الحيوانات التي يحل للإنسان تناولها، و جاءت على صيغه جواب لسؤال ذكرته الآيه نفسها بقولها:

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ...

فتأمر الآيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم -أولا- بأن يخبرهم إن كل ما كان طيبا و طاهرا فهو حلال لهم، حيث تقول: قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ... داله على أن كل ما حرمه الإسلام يعتبر من الخبائث غير الطاهره، و إن القوانين الإلهيه لا- تحرم- مطلقا- الموجودات الطاهره التى خلقها الله لينتفع بها البشر، و إن الجهاز التشريعى يعمل دائما بتنسيق تام مع الجهاز التكوينى و فى كل مكان.

ثم تبين الآيه أنواع الصيد الحلال، فتشير إلى الصيد الذى تجلبه أو تصيده الحيوانات المدربه على الصيد، فتؤكد بأنه حلال، بقولها: **وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ (١).**

و عباره جوارح مشتقه من المصدر «جرح» الذى يعنى أحيانا «الكسب» و تاره يعنى «الجرح» الذى يصاب به البدن، و لذلك يطلق على الحيوانات المدرّبه على الصيد، سواء كانت من الطيور أو من غيرها، اسم «جارحه» و جمعها «جوارح» أى الحيوان الذى يجرح صيده، أو بالمعنى الآخر الحيوان الذى يكسب لصاحبه، و أمّا إطلاق لفظه «الجوارح» على أعضاء الجسم فلأن الإنسان يستطيع بواسطتها إنجاز الأعمال أو الاكتساب.

و جمله **وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ** تشمل كل الحيوانات المدرّبه على

ص: ٥٩٩

١ - ١) - هناك محذوف مقدر فى بدايه هذه الجملة القرآنيه، حيث إن الأصل يفترض أن يكون «و صيد ما علمتم» و ذلك استدلالا بالقرينه الوارده فى جمله **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ...** (فليلاحظ ذلك).

الصيد، و لكن كلمه «مكلبين» التي تعنى تدريب الكلاب للقيام بأعمال الصيد، و المشتقه من ماده «كلب» أى الكلب، تقييد هذه الجملة و تخصصها بـكلاب الصيد، و لذلك فإنها لا تشمل الصيد بحيوانات غير هذه الكلاب مثل الصقور المدربه على الصيد.

و لذلك ذهب فقهاء الشيعة إلى تخصيص الصيد الحلال بما يصاد من قبل كلاب الصيد، لكن جمعا من علماء السنّه و مفسريهم ذهبوا إلى جواز الكل و أعطوا تفسيراً واسعاً لعباره «مكلبين» و لم يخصوا ذلك بـكلاب الصيد فقط.

إلا أننا نرى أنّ المصدر الأساس لهذه الكلمه المشتقه إنما يدل على أنّها مخصصه بـكلاب الصيد فقط، و بديهى أنّ الصيد الذى تجلبه حيوانات مدربه أخرى، يعتبر حلالاً فى حاله جلبه حياً و ذبحه وفق الطريقه الشرعيه.

أما عبارته **تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ** فإنها تشير إلى عدّه أمور هى ١- إنّ تدريب مثل هذه الحيوانات يجب أن يستمر، فلو نسيت ما تعلمته و قتلت حيواناً كما تفعله بعض الكلاب السائبه، فلا يعتبر عند ذلك ما قتلته صيداً، و لا يحل لحم هذا الحيوان المقتول فى مثل هذه الحاله، و الدليل على هذا القول هو كون فعل «تعلمونهن» فعلاً مضارعاً، و الفعل المضارع يدل على الحال و الاستقبال.

٢- يجب أن يتمّ تدريب هذه الكلاب وفق الأصول الصحيحه التى تتلاءم مع مفهوم عبارته القرآنيه **مِمَّا عَلَّمَكُمُ**...

إنّ العلوم كلها-سواء كانت بسيطه أم معقده- مصدرها هو الله، و إنّ الإنسان لا يملك بنفسه شيئاً ما لم يعلمه الله.

إضافه إلى ما ذكر فإنّ كلاب الصيد يجب أن تدرّب بحيث تأتمر بأمر صاحبها، أى تتحرك بأمره و تعود إليه بأمره أيضاً.

و بديهى أنّ الحيوان الذى تصيده كلاب الصيد، يجب أن يذبح وفق الطريقه



الشرعيه إن جلب حيًا، وإن مات الحيوان قبل دركه فله حلال وإن لم يذبح.

و أخيرا أشارت الآية الكريمة إلى شرطين آخرين من شروط تحليل مثل هذا النوع من الصيد.

أولهما: أن لا يأكل كلب الصيد من صيده شيئا، حيث قالت الآية: فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ... .

و على هذا الأساس فإن الكلاب لو أكلت من الصيد شيئا قبل إيصاله إلى صاحبها، و تركت قسما آخر منه، فلا يحل لحم مثل هذا الصيد و يدخل ضمن حكم ما أَكَلَ السَّبُعُ الذي ورد في الآية السابقة، و مثل هذا الكلب الذي يأكل الصيد لا يعتبر في الحقيقة كلبا مدربا، كما لا يعتبر ما تركه من الصيد مصداقا لعبارة مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ لأنه في هذه الحالة يكون (أى الكلب) قد صاد لنفسه (لكن بعض الفقهاء لم يروا في هذا الموضوع شرطا، مستندين إلى روايات وردت في مصادر الحديث و ذكرتها كتب الفقه بالتفصيل).

و مجمل القول هو أن كلاب الصيد يجب أن تدرب بحيث لا تأكل من الصيد الذي تمسكه.

و الأمر الثاني: هو ضرورة ذكر اسم الله على الصيد بعد أن يتركه الكلب، حيث قالت الآية: وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ... .

و لكي تضمن الآية رعايه الأحكام الإلهيه-هذه-كلها، أكددت في الختام قائله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ داعيه إلى الخوف من الله العزيز القدير، و من حسابه السريع (1).

ص: ٦٠١

١- ١) -لقد شرحنا معنى جملة «سريع الحساب» في الجزء الثاني من تفسيرنا هذا.

اشاره

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)

التفسير

اشاره

حكم طعام أهل الكتاب و حكم الزواج بهم:

تناولت هذه الآيه، التي جاءت مكمله للآيات السابقه، نوعا آخر من الغذاء الحلال، فبيّنت أنّ كل غذاء طاهر حلال، وإنّ غذاء أهل الكتاب حلال للمسلمين، و غذاء المسلمين حلال لأهل الكتاب، و حيث قالت الآيه: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ... .

و تشمل هذه الآيه الكريمه على أمور نجلب الالتفات إليها، و هي:

١- إنّ المراد بكلمه «اليوم» الوارده في هذه الآيه هو يوم «عرفه» بناء على ما اعتقده بعض المفسرين، و قد ذهب مفسرون آخرون إلى أنّ المراد هو اليوم

الذى تلا فتح خير- ولا يبعد- أن يكون هو نفس «يوم غدير خم» الذى تحقق فيه النصر الكامل للمسلمين على الكفار (و س تناول هذا الموضوع بالشرح قريبا).

٢- لقد تناولت هذه الآية قضيه تحليل الطيبات مع أنها كانت حلالا قبل نزول الآية و الهدف من ذلك هو أن تكون هذه القضية مقدمه لبيان حكم «طعام أهل الكتاب».

٣- ما هو المقصود ب «طعام أهل الكتاب» الذى اعتبرته الآية حلالا على المسلمين؟ يعتقد أغلب مفسرى علماء السنه أن «طعام أهل الكتاب» يشمل كل أنواع الطعام، سواء كان من لحوم الحيوانات المذبوحه بأيدي أهل الكتاب أنفسهم أو غير ذلك من الطعام، بينما تعتقد الأغلبيه الساحقه من مفسرى الشيعة و فقهاءهم أن المقصود من «طعام أهل الكتاب» هو غير اللحوم المذبوحه بأيدي أهل الكتاب، إلا أن هناك القليل من علماء الشيعة- أيضا- ممن يقولون بصحة النظرية الأولى التى اتبعها أهل السنه.

و تؤكد رأى غالبية الشيعة- فى هذا المجال- الروايات العديده الوارده عن أئمه أهل البيت عليهم السلام.

فقد جاء فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال فى هذه الآية: «عنى بطعامهم ها هنا الحبوب و الفاكهه غير الذبائح التى يذبحون، فإنه لا يذكرون اسم الله عليها».

و وردت روايات عديده أخرى فى هذا المجال فى الجزء السادس عشر من كتاب وسائل الشيعة فى الباب ٥١ من أبواب الأَطعمه و الأشربه، فى الصفحه ٣٧١.

و بالإمعان فى الآيات السابقه يتبين أن التفسير الثانى ذهبت إليه الأ-كثريه من مفسرى الشيعة و فقهاءهم (تفسير الطعام بغير الذبيحه) هو أقرب إلى الحقيقه من

و ذلك- كما أوضح الإمام الصادق عليه السلام في الروايه التي أوردناها أعلاه- لأنّ أهل الكتاب لا يراعون الشروط الإسلاميه فى ذبائحهم، فهم لا- يذكرون اسم الله على الذبيحه، و لا- يوجهونها صوب القبلة أثناء ذبحها، كما أنّهم لا يلتزمون برعايه الشروط الأخرى- فهل يعقل أن تحرم الآيه السابقه- و بصوره صريحه- لحم الحيوان المذبوح بهذه الطريقه، و تأتي آيه أخرى بضدها لتحلله؟! و ترد على الذهن فى هذا المجال أسئله نلخصها فيما يلى:

١- لو كان المقصود بالطعام سائر الأغذيه ما عدا لحوم ذبائح أهل الكتاب، فإنّ هذه الأغذيه كانت حلالا من قبل، و لا فرق بين وجودها فى أيدي أهل الكتاب أو غيرهم، فهل كان شراء الحبوب و الغلات من أهل الكتاب قبل نزول هذه الآيه شيئا مخالفا للشرع، فى حين أن المسلمين كانوا دائما يتعاطون مع أهل الكتاب شراء و بيع هذه الأشياء؟! إذا توجهنا إلى نقطه أساسيه فى الآيه الكريمه، يتوضح لنا بجلاء جواب هذا السؤال، فالآيه الأخيره- هذه- نزلت فى زمن كان للإسلام فيه السلطه الكامله على شبه الجزيره العربيه و قد أثبت الإسلام وجوده فى كل الساحات و الميادين على طول هذه الجزيره و عرضها، بحيث أنّ أعداء الإسلام قد تملكهم اليأس التام لعجزهم عن دحر المسلمين، و لذلك اقتضت الضروره- فى مثل هذا الظرف المناسب للمسلمين- أن ترفع القيود و الحدود التى كانت مفروضه قبل هذا فى مجال مخالطه المسلمين لغيرهم، حيث كانت هذه القيود تحول دون تراور المسلمين مع الغير.

لذلك نزلت هذه الآيه الكريمه و أعلنت تخفيف قيود التعامل و المعاشره مع أهل الكتاب، بعد أن ترسخت قواعد و أساس الحكومه الإسلاميه، و لم يعد هناك ما يخشى منه من جانب غير المسلمين، فسمحت الآيه بالتراور بين المسلمين

وغيرهم، وأحلت طعام بعضهم لبعض كما أحلت الزواج فيها بينهم (و لكن على أساس الشروط التي سنبيّنها).

جدير بالقول أنّ الذين لا يرون طهاره أهل الكتاب يشترطون أن يكون طعامهم خاليا من الرطوبه أو البلبل، وإذا كان الطعام رطبا يشترط أن لا تكون أيادي أهل الكتاب قد مسته لكي يستطيع المسلمون تناول هذا الطعام، كما يرى هؤلاء عدم جواز تناول طعام أهل الكتاب إن لم تتوفر الشروط المذكوره فيه.

إلاّ أنّ مجموعه أخرى من العلماء الذين يرون طهاره أهل الكتاب، لا يجدون بأسا في تناول الطعام مع أهل الكتاب و الحلول ضيفا عليهم، شرط أن لا يكون طعامهم من لحوم ذبائحهم و أن يحصل اليقين من براءته من نجاسه عرضيه (كأن يكون قد تنجس باختلاطه أو ملامسته للخمره أو الجعه «ماء العشير»).

و خلاصه القول: إنّ الآية-موضوع البحث- جاءت لترفع الحدود و القيود السابقه الخاصه بمعاشره أهل الكتاب، و الدليل على ذلك هو إشاره الآية لإباحه طعام المسلمين لأهل الكتاب، أى السماح للمسلمين باستضافتهم، كما تنطرق الآية بعد ذلك مباشره إلى حكم الزواج بين المسلمين و أهل الكتاب (أى الزواج بنساء أهل الكتاب).

و بديهى أنّ النظام الذى يمتلكه السيطره الكامله على أوضاع المجتمع، هو وحده القادر على إصدار مثل هذا الحكم لمصلحه أتباعه دون أن يساوره أى قلق بسبب الأعداء، و قد ظهرت هذه الحاله فى الحقيقه فى يوم غدير خم، أو فى يوم عرفه فى حجّه الوداع كما اعتقده البعض، أو بعد فتح خيبر، مع أن يوم غدير خم هو الأقرب إلى هذا الموضوع.

أورد صاحب تفسير المنار فى كتابه اعتراضا آخر فى تفسير هذه الآية، حيث يقول بأنّ كلمه «طعام» وردت فى كثير من آيات القرآن بمعنى كل أنواع الطعام، و هى تشمل اللحوم أيضا، فكيف يمكن تقييد الآية بالحبوب و الفواكه

و أمثالها؟، ثم يقول بأنه طرح هذا الاعتراض في مجلس كان يضم جمعا من الشيعة فلم يجب أحد عليه.

و باعتقادنا نحن أنّ جواب اعتراض صاحب كتاب المنار واضح، فنحن لا نتكر أنّ لفظه «طعام» تحمل مفهوما واسعا، إلا أنّ ما ورد في الآيات السابقة، كبيان أنواع اللحوم المحرمة - وبالخصوص لحوم الحيوانات التي لم يذكر اسم الله عليها لدى ذبحها - إنما يخص هذا المفهوم الواسع و يحدد كلمه «طعام» في الآية بغير اللحوم، ولا ينكر أحد أن كل عام أو مطلق قابل للتخصيص و التقييد، كما نعلم أنّ أهل الكتاب لا يلتزمون بذكر اسم الله على ذبائحهم، ناهيك على أنّهم لا يراعون - أيضا - الشروط الواردة في السنّه في مجال الذبح.

و جاء في كتاب «كنز العرفان» حول تفسير هذه الآية اعتراض آخر خلاصته أن كلمه «طيبات» لها مفهوم واسع، و هي «عامّه» بحسب الاصطلاح، بينما جملة وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ خاصّه، و طبيعي أنّ ذكر الخاص بعد العام يجب أن يكون لسبب، و لكن السبب في هذا المجال غير واضح، ثم يرجو صاحب الكتاب من الله أن يحل له هذه المعضلة العلميه (١).

إنّ جواب هذا الاعتراض يتّضح أيضا ممّا قلناه سابقا بأنّ الآية إنّما جاءت بعباره أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ كمقدمه من أجل بيان رفع القيود في التقارب مع أهل الكتاب، فالحقيقه أنّ الآية تقول بأنّ كل شيء طيب هو حلال للمسلمين، و بناء على هذا فإنّ طعام أهل الكتاب (إذ كان طيبا و طاهرا) هو حلال أيضا للمسلمين - و أن الحدود و القيود التي كانت تقف حائلا دون تقارب المسلمين مع أهل الكتاب قد رفعت أو خففت في هذا اليوم بعد الانتصارات التي أحرزها المسلمون فيه، (فليمعن النظر في هذا).

ص: ٦٠٦

بعد أن بيّنت هذه الآية عليه طعام أهل الكتاب تحدثت عن الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات و من أهل الكتاب، فقالت بأن المسلمين يستطيعون الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات و من أهل الكتاب، شرط أن يدفعوا لهن مهورهن، حيث تقول الآية: وَالْمُحْصِنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ... على أن يكون التواصل بوسيله الزواج المشروع و ليس عن طريق الزنا الصريح، و لا عن طريق المعاشرة الخفيه، حيث تقول الآية: مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ (١).

و هذا الجزء من الآية الكريمه يقلل فى الحقيقه الحدود التى كانت مفروضه على الزواج بين المسلمين و غيرهم، و يبيّن جواز زواج المسلم بالمرأه الكتاييه ضمن شروط خاصّه.

و قد اختلف فقهاء المسلمين فى أنّ جواز الزواج بالمرأه الكتاييه هل ينحصر بالنوع المؤقت من الزواج، أو يشمل النوعين: الدائم و المؤقت؟ لا يرى علماء السنّه فرقا بين نوعى الزواج فى هذا المجال، و يعتقدون بأنّ الآية عامه، بينما يعتقد جمع من علماء الشيعه أنّ الآية مقتصره على الزواج المؤقت، و تؤيد روايات وردت عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام هذا الرأى أيضا.

و القرائن الموجوده فى الآية يمكن أن تكون دليلا على هذا القول.

و أوّل هذه القرائن هو قوله تعالى: إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ و لو أن لفظه «الأجر» تطلق على المهر فى نوعى الزواج الدائم و المؤقت، إلا أنّها غالبا ما ترد لبيان المهر فى الزواج المؤقت، أى أنّها تناسب هذا الأخير أكثر.

ص: ٦٠٧

١- ١) -لقد أوضحنا فى هذا الجزء من تفسيرنا هذا فى تفسير الآية (٢٥) من سوره النساء، أنّ كلمه «أخذان» جمع «أخذن» و هى تعنى فى الأصل الصديق، و عاده ما تطلق على الصداقه السريه غير الشرعيه مع الجنس الآخر.

أَمَّا الْقَرِينَةَ الثَّانِيَةَ فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ...

فهى تتلاءم أكثر مع الزواج المؤقت، لأنّ الزواج الدائم ليس فيه شبه الزنا أو الصداقه السريه لكى ينهى عنه، بينما يشتهبه بعض السذج من الناس -أحياناً- فى الزواج المؤقت فيخلطون بينه و بين الزنا و الصداقه السريه غير المشروعه مع المرأه.

أضف إلى ذلك كلّ ورد هذه التعابير فى الآيه (٢٥) من سوره النساء، و كما نعلم فإنّ تلك الآيه نزلت فى شأن الزواج المؤقت.

مع ذلك كلّ فإنّ هناك العديد من الفقهاء ممن يجيزون الزواج بالكتايات بصوره مطلقه، و لا يرون القرائن المذكوره المذكوره كافيّه لتخصيص الآيه، كما يستدلون فى هذا المجال ببعض الروايات «للاطلاع على تفاصيل أكثر فى المجال يجدر الرجوع إلى كتب الفقه».

و لا- يخفى علينا ما شاع فى عالم اليوم من تقاليد الجاهليه بصوره مختلفه، و من ذلك انتخاب الرجل أو المرأه خليلاً من الجنس الآخر و بصوره علنيه، و قد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلى فى التحلل و الخلاعه و المجون الجنسي، ففى حين كان الإنسان الجاهلى ينتخب الأخلاء سرّاً و فى الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأساً من إعلان هذا الأمر و التباهى به بكل صلف و وقاحه، و يعتبر هذا التقليد المشين نوعاً صريحاً و مفضوحاً من الفحشاء و هديه مشؤومه انتقلت من الغرب إلى الشرق و أصبحت مصدراً للكثير من النكبات و الكوارث.

و لا- يفوتنا أن نوضح هذه النقطة و هى أن الآيه أجازت تناول طعام أهل الكتاب كما أجازت إطعامهم وفق الشروط التى ذكرت، بينما فى قضيه الزواج أجازت فقط الزواج بنساء أهل الكتاب، و لم تجز للنساء المسلمات الزواج بالرجال من أهل الكتاب.



و فلسفه هذا الأمر جليہ واضحہ لا تحتاج إلى الشرح و التفصيل، لأنّ النساء بما يمتلكنه من عواطف و مشاعر رقيقه يكن أكثر عرضه لاكتساب أفكار أزواجهنّ، من الرجال.

و لكي تسد الآيه طريق إساءه استغلال موضوع التقارب و المعاشره مع أهل الكتاب و الزواج من المرأه الكتابيه على البعض من ضعاف النفوس، و تحول دون الانحراف إلى هذا الأمر بعلم أو بدون علم، حذرت المسلمين في جزئها الأخير فقالت: **وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** .

و هذه إشاره إلى أنّ التسهيلات الوارده في الآيه بالإضافة إلى كونها تؤدي إلى السعه و رفع الحرج عن حياه المسلمين، يجب أن تكون-أيضا-سببا لتغلغل الإسلام إلى نفوس الأجانب، لا أن يقع المسلمون تحت نفوذ و تأثير الغير فيتركوا دينهم، و حيث سيؤدي بهم هذا الأمر إلى نيل العقاب الإلهي الصارم الشديد.

و هناك احتمال آخر في تفسير هذا الجزء من الآيه نظرا لبعض الروايات الوارده و سبب النزول المذكور، و هو أن نفرا من المسلمين أعلنوا-بعد نزول هذه الآيه و حكم حليه طعام أهل الكتاب و الزواج بالكتايبات-استياءهم من تطبيق هذه الأحكام، فحذرتهم الآيه من الاعتراض على حكم الله و من الكفر بهذه الحكم، و أنذرتهم بأنّ أعمالهم ستذهب هباء و ستكون عاقبتهم الخسران.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَمَا طَهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

التفسير

اشاره

تطهير الجسم و الروح:

لقد تناولت الآيات السابقة بحوثاً متعدده عن الطيبات الجسمانيه و النعم الماديه، أما الآيه الأخيره فهي تتحدث عن الطيبات الروحيه و ما يكون سببا لطهاره الروح و النفس الإنسانيه، فقد بينت هذه الآيه أحكاماً مثل الوضوء و الغسل و التيمم، التي تكون سببا في صفاء و طهاره الروح الإنسانيه-فخاطبت المؤمنين في البدايه موضحه أحكام الوضوء بقولها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

قُمْتُمْ (١) إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ

لم توضّح الآيه مناطق الوجه التي يجب غسلها في الوضوء، لكن الروايات التي وردت عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام قد بيّنت بصوره مفصله طريقه الوضوء التي كانت النبي صلّى الله عليه وآله و سلّم يعمل بها.

١- إنّ حدود الوجه طولاً- من منابت الشعر على الجبهه حتى منتهى الذقن، و عرضاً ما يقع من الوجه بين الأصبع الوسطى و الإبهام- وهذا هو ما يسمّى و يفهم من الوجه عرفاً، لأنّ الوجه هو ذلك الجزء من الجسم الذي يواجه الإنسان لدى التلاقى مع نظيره.

٢- لقد ذكرت الآيه حدود ما يجب غسله من اليدين في الوضوء، فأشارت إلى أنّ الغسل يكون حتى المرفقين- و قد جاء التصريح بالمرفقين في الآيه لكي لا يتوهم بأنّ الغسل المطلوب هو للرسغين كما هو العاده في غسل الأيدي.

و يتبيّن من هذا التوضيح أنّ كلمه «إلى» الواردة في الآيه هي لمجرّد بيان حد الغسل و ليست لبيان أسلوبه كما التبس على البعض، حيث ظنوا أنّ المقصود في الآيه هو غسل اليدين ابتداءً من أطراف الأصابع حتى المرفقين (و راج هذا الأسلوب لدى جماعات من أهل السنه).

و لتوضيح هذا الأمر نقول: أنّه حين يطلب إنسان من صباغ أن يصبغ جدار غرفه من حد ارضيتها لغايه متر واحد، فالمفهوم من ذلك أنّه لا يطلب أن يبدأ

ص: ٦١١

١ - ١) - وردت روايات عديده عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام تؤكّد أنّ المراد بجمله «قمتم» هو القيام من النوم، حيث لدى الإمعان في محتويات الآيه يتأكد لنا هذا الأمر أيضاً، لأنّ الجمل التاليه التي تبين فيها الآيه حكم التيمم قد وردت فيها عباره أوّجاءً أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْعَائِطِ، فلو كانت الآيه تبين في بدايتها حكم جميع من ليسوا على وضوء، فإن عطف الجملة الأخيره- بالأخص- بحرف «أو» لا يتلاءم و ظاهر هذه الآيه، لأنّ المقصود فيها يدخل ضمن عنوان من هو ليس على وضوء أيضاً. أمّا إذا كان الآيه في بدايتها تتكلم بصوره خاصه عن الذين يقومون من النوم، أي أنها تبين فقط ما أصطلح عليه ب«حدث النوم» فإن الجملة المذكوره تصبح مفهومه بشكل تام.

الصباغ عمله من تحت إلى فوق، بل إن ذكر هذه الحدود هو فقط لبيان المساحة المراد صبغها لا- أكثر و لا أقل، و على هذا الأساس فإن الآيه أرادت من ذكر حدود اليد بيان المقدار الذي يجب غسله منها لا أسلوب و كيفية الغسل.

و قد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أسلوب الغسل وفق سنّه النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.

و يجب الانتباه إلى أنّ المرفق-أيضا- يجب غسله أثناء الوضوء، لأن الغايه فى مثل هذه الحالات تدخل ضمن المعنى، أى أن الحدّ يدخل فى حكم المحدود (١).

٣- إن حرف (ب) الوارد مع عبارته «برؤوسكم» فى الآيه يعنى التبعض، كما صرّحت به بعض الروايات و أيده البعض من علماء اللغه، و المراد بذلك بعض من الرأس، أى مسح بعض من الرأس حيث أكدت روايات الشيعة أنّ هذا البعض هو ربع الرأس من مقدمته، فيجب مسح جزء من هذا الربع حتى لو كان قليلا باليد، بينما الرائج بين البعض من طوائف السنّه فى مسح كل الرأس و حتى الأذنين لا يتلاءم مع ما يفهم من هذه الآيه الكريمة.

٤- إن اقتران عبارته «أرجلكم» بعبارته «رؤوسكم» دليل على أنّ الأرجل يجب أن تمسح هى-أيضا- أن تغسل، و ما فتح اللام فى «أرجلكم» إلّا لأنّها معطوفه محلا على «رؤوسكم» و ليست معطوفه على «وجوهكم» (٢).

٥- تعنى كلمه «كعب» فى اللغه التتوء الظاهر خلف الرجل، كما تعنى-أيضا-

ص: ٦١٢

١- ١) -لقد ذكر «سيبويه» الذى هو من مشاهير علماء اللغه العربيه أنّه متى ما كان الشىء الوارد بعد (إلى) و الشىء الوارد قبلها من جنس واحد، و يدخل هذا (المابعد) فى الحكم-أمّا لو كانا من جنسين مختلفين فيعتبر خارجا عن الحكم-فلو قيل: أمسك إلى آخر ساعه من النهار، يكون المفهوم من هذه الجملة أن الإمساك يشمل الساعه الأخيره أيضا، بينما لو قيل: أمسك إلى أول الليل فإنّ أول الليل لا يدخل ضمن حكم الإمساك (المنار، ج ٦، ص ٢٢٣).

٢- ٢) -ليس هناك من شك بأنّ عبارته «وجوهكم» تفصلها مسافه كبيره نسيبا عن عبارته «أرجلكم» لذلك يستبعد أن تكون الأخيره معطوفه على «وجوهكم»، إضافة إلى ذلك فإنّ الكثير من القراء قد قرءوا عبارته «أرجلكم» بكسر اللام.

بعد ذلك كله بينت الآيه حكم الغسل عن جنابه حيث قالت: **وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا...** و الواضح أنّ المراد من جملة «فاطَّهروا» هو غسل جميع الجسم، لأنّه لو كان المراد جزءا خاصا منه لاقتضى ذكر ذلك الجزء، و على هذا الأساس فإنّ العبارة المذكوره تعنى جميع الجسم - و قد جاء حكم مشابه لهذا الحكم فى الآيه (٤٣) من سوره النساء حيث تقول: **حَتَّى تَغْتَسِلُوا**.

إنّ كلمه «جنباً» - و كما أوضحنا سابقا فى الجزء الثالث من تفسيرنا هذا، لدى تفسير الآيه (٤٣) من سوره النساء - مصدر، و قد وردت بمعنى اسم الفاعل، و تعنى فى الأصل «المتباعد» أو «البعيد» لأنّ الجذر الأصلي هو «جنابه» بمعنى «بعد»، و سبب إطلاق هذا اللفظ على الإنسان المجنب لأن هذا الإنسان يجب عليه أن يتعد عن الصلاه و التوقف فى المساجد و أمثالها.

و تطلق هذه الكلمه «جنب» على المفرد و الجمع و المذكر و المؤنث، و إطلاق «جار الجنب» على البعيد هو لنفس المناسبه.

و يمكن أن يستدل من الآيه التى تدعو المجنب إلى الاغتسال قبل الصلاه على أن غسل الجنابه يجرى، و ينوب عن الوضوء أيضا.

و من ثمّ بادرت الآيه إلى بيان حكم التيمم حيث قالت: **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسَٰتُكُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا...**

ص: ٦١٣

١ - ١) - لقد ذكر القاموس ثلاثه معان للكعب و هى: النتوء الظاهر خلف الرجل، و المفصل، و النتوئين البارزين على جانبي الرجل - و قد بينت السنه الشريفه أن المراد فى الآيه ليس النتوآت المذكورات و لكن العلماء اختلفوا فى هل أن المراد هو النتوء البارز خلف الرجل أو هو المفصل؟ - و على أى حال - فإن الاحتياط يوجب أن يكون المسح حتى المفصل.

و هنا يجب الالتفات إلى أن جملة **أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ** و **أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ** هما- كما أشرنا سابقا- معطوفتان على بديهة الآية، أى على جملة: **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ** فالآية أشارت فى البدايه حقيقه إلى قضيه النوم، و تطرقت فى آخرها إلى نوعين آخرين من موجبات الوضوء و الغسل.

أما لو عطفنا الجملتين على جملة **عَلَى سَفَرٍ** فسنواجه مشكلتين فى هذه الآية و هما أولا: إنَّ عوده الإنسان بعد التخلّى لا يمكن أن تكون كحاله المرض أو السّفَر فلا تناظر بين تلك و هاتين الحاليتين، لذلك ترانا مضطرين إلى أن نأخذ حرف «أو» الوارد فى الآية بمعنى الواو العاطفه (و أكد هذا الأمر جمع من المفسّرين) و هذا خلاف لظاهر الآية.

بالإضافه إلى ذلك فإنّ ذكر التغوط بصوره خاصّه من بين كل موجبات الوضوء سيبقى بدون مبرر، لكننا لو فسّرنا الآية بالصوره التى قلناها سابقا فلا يبقى بعد ذلك مبرر لهذين الاعتراضين الأخيرين، (و مع أننا اعتبرنا فى تفسير الآية (٤٣) من سوره النساء)، و جريا على ما فعله الكثير من المفسّرين، اعتبرنا كلمه «أو» بمعنى الواو العاطفه، إلاّ أنّ الذى ذكرناه مؤخرا- هنا- يعتبر أقرب إلى القبول من ذلك.

أما الموضوع الآخر فهو تكرار موضوع الجنابه مرّتين فى هذه الآية، و يحتمل أن يكون هدف هذا التكرار هو التأكيد على هذه القضيه، أو قد تكون كلمه «جنبا» الوارده بمعنى الجنابه التى تحدث أثناء النوم أو بسبب الاحتلام، بينما المراد من جملة **أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ** هو الجنابه الحاصله نتيجة المقاربه الجنسيه بين الرجل و المرأة، و إذا فسّرنا كلمه «قمتم» الوارده فى الآية بالقيام من النوم (كما ورد فى روايات أئمّه أهل البيت عليهم السّلام و أيضا اشتملت الآية على قرينه بهذا الخصوص) يكون تفسيرنا هذا تأييدا للمعنى الذى أوردناه بخصوص تكرار موضوع الجنابه.

لقد بينت الآيه-بعد ذلك-أسلوب التيمم بصوره إجماليه فقالت: فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ... و الواضح هنا هو أنّ المراد ليس حمل شىء من التراب و مسح الوجه و اليدين به، بل أنّ المقصود هو ضرب الكفين على تراب طاهر ثم مسح الوجه و اليدين بهما، لكن بعض الفقهاء استدلوا بعبارة «منه» الموجوده فى الآيه و قالوا بضروره أن يلاصق الكفين شىء و لو قليل من التراب (١).

بقيت مسأله أخيره فى هذا المجال، و هى مسأله معنى كلمتى صَبَّحاً طَيِّباً فقد ذهب الكثير من علماء اللغه إلى أنّ لكلمه «صعيد» معنيين هما التراب أولاً، أو كل شىء يغطى سطح البسيطه أى الكره الأرضيه ثانياً، سواء كان تراباً أو صخراً أو حصى أو حجراً أو غير ذلك من الأشياء، و قد أدى هذا إلى حصول اختلاف فى آراء الفقهاء حول الشىء الذى يجوز التيمم به، هل هو التراب وحده أو أنّ الحجر و الرمل و أمثالهما-أيضاً-يجوز التيمم بهما؟ و حين نرجع إلى الأصل اللغوى لكلمه «صعيد» الذى يدل على «الصعود و الارتفاع» فإن المعنى الثانى لهذه الكلمه يبدو أقرب إلى الذهن.

و تطلق كلمه «طيب» على الأشياء التى تلائم الطبع و الذوق الإنسانى، و قد أطلق القرآن الكريم هذه الكلمه فى موارد كثيره مثل: «البلد الطيب» و «مساكن طيبه» و «ريح طيبه» و «حياه طيبه» و غيرها... و كذلك فإنّ كل شىء طاهر يعتبر طيباً، لأنّ طبع الإنسان ينفر من الأشياء النجسه المدنّسه، و من هذا نستدل على أنّ تراب التيمم يجب أن يكون تراباً طاهراً أيضاً.

و قد أكّدت الروايات الوارده إلينا عن أئمّه الإسلام عليهم السّلام على هذا الموضوع

ص: ٦١٥

---

١- ١) -لقد أوضحنا فى تفسير الآيه (٤٣) من سوره النساء، بصوره مفصله، أحكام التيمم و فلسفتها الإسلاميه و كيف أن التيمم لا يعتبر مغايراً للوقايه الصحّيه، بل فيه جانب وقائى صحى أيضاً، و كذلك حول معنى «غائط» و قضايا أخرى فليراجع....

بصوره متكرره، و نقرأ واحده من هذه الروايات و هي تقول:

«نهى أمير المؤمنين أن يتيمم الرجل بتراب من أثر الطريق» (١).

و الجدير بالنظر أنّ عبارة «التيمم» الواردة في القرآن و الحديث بمعنى التكليف الشرعى الذى مضى الحديث عنه، جاءت فى اللغه بمعنى «القصد» و القرآن الكريم يقرر أنّ الإنسان لى قصد التيمم عليه أن يختار قطعه طاهره من الأرض من بين القطعات المختلفه للتيمم منها. قطعه ينطبق عليها مفهوم «الصعيد» معرضه للأمطار و الشمس و الرياح، و بديهى أن تكون قبل اتخاذها للتيمم مثل هذه القطعه من الأرض التى لم تتعرض لوطء الأقدام، فيها الصفات التى تستوعبها كلمه «طيب» و عندئذ فإن هذه القطعه من الأرض -بالإضافه إلى كونها لا تضرّ بالصحة- تكون أيضا -و كما أسلفنا لى تفسيرنا للآيه (٤٣) من سوره النساء- ذات أثر أيضا فى قتل الجراثيم و الميكروبات، كما يؤكده العلماء من ذوى الإختصاص فى هذا المجال.

### فلسفه الوضوء و التيمم:

لقد تناولنا فلسفه التيمم بالبحث بصوره وافية فى الآيه (٤٣) من سوره النساء، أمّا بالنسبه لفلسفه الوضوء فالشئ الذى لا يختلف عليه اثنان، هو أنّ للوضوء فائدتين واضحتين:

إحداهما صحيه و الأخرى أخلاقيه معنويه، فغسل الوجه و اليدين فى اليوم خمس مرّات أو على الأقل ثلاث مرّات، لا يخفى أثره فى نظافه الإنسان و صحته، أمّا الفائده الأخلاقيه المعنويه فهى فى الأثر التربوى الذى يخلفه قصد التقرب إلى الله فى نفس الإنسان حين يعقد التيه للوضوء بالأخصّ حين ندرك أنّ المفهوم النفسى للنيه يعنى أن حركه الإنسان أثناء الوضوء و التى تبدأ من الرأس

ص: ٦١٦



و تنتهى بالقدمين-هى خطوات فى طاعه الله.

و نقرأ

فى روايه عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «إنما أمر بالوضوء و بدئ به لأن يكون العبد طاهرا إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه، مطيعا له فيما أمره نقيا من الأدناس و النجاسه، مع ما فيه من ذهاب الكسل، و طرد النعاس، و تركيه الفؤاد للقيام بين يدي الجبار» (١).

و تتوضح فلسفه الوضوء أكثر فى الحديث عن فلسفه الغسل، و الذى سنتناوله فيما يلى:

### فلسفه الغسل:

قد يسأل البعض لما ذا أمر الإسلام بغسل كامل الجسم لدى حصول «الجنابه» فى حين أن عضوا معيننا واحدا يتلوث أو يتسخ فى هذه الحاله؟ فهل هناك فرق بين البول الخارج من ذلك العضو، و بين «المنى» الخارج منه أثناء الجنابه بحيث يجرى غسل العضو وحده فى حاله التبول، بينما يجب غسل الجسم كله بعد خروج المنى من العضو؟ لهذا السؤال جوابان، مجمل و مفصل، و هما كما يلى: فالجواب المجمل يتلخص فى أن خروج المنى من الإنسان لا ينحصر أثره فى العضو الذى يخرج منه، أى أنه ليس كالبول و الفضلات الأخرى.

و الدليل على هذا القول هو تأثير الجسم كله أثناء خروج المنى من العضو بحيث تطرأ على خلايا الجسم كلها حاله من الاسترخاء و الخمول، و هذه الحاله هى الدليل على تأثير الجنابه على أجزاء الجسم كلها، و قد أظهرت بحوث العلماء المتخصصين-فى هذا المجال- أن هناك سلسلتين عصبيتين نباتيتين فى جسم الإنسان، هما السلسله السمبثاويه (الأعصاب المحركه) و السلسله شبه

ص: ٦١٧

السمبثاويه (الاعصاب الكابحه) تمتدان فى كافه أجزاء الجسم و أجهزته الداخليه، و تتولى السلسله السمبثاويه تحفير أجهزه الجسم على العمل و تسريع عملها، بينما السلسله شبه السمبثاويه تعمل عكس الأولى، فتحدّ عمل أجهزه الجسم و تبطنها فالأولى تلعب دور جهاز دفع البنزين فى السياره من أجل تحريكها و الأخرى يكون دورها دور الكابح فيها لإيقافها عن الحركه، و بالتوازن الحاصل فى عمل هاتين السلسلتين العصبيتين تعمل جمع أجهزه جسم الإنسان بصوره متوازنه أيضا.

و قد تحدث فى جسم الإنسان- أحيانا- فعاليات تعيق استمرار هذا التوازن فيطغى عمل أحد السلسلتين العصبيتين على عمل الجمله الأخرى، و من هذه الفعاليات وصول الإنسان إلى الذروه فى اللذه الجنسيه، أى ما يسمى بحاله «الأوركازم» التى تقترن بخروج المنى من عضو الإنسان، و فى هذه الحاله يطغى عمل السلسله العصبية شبه السمبثاويه الكابح على عمل السلسله العصبية الأخرى التى هى السمبثاويه الدافعه فيختل التوازن بصوره سلبيه فى جسم الإنسان، و قد ثبت بالتجربه أن الشىء الذى يمكنه إعاده التوازن بين عمل تلك السلسلتين العصبيتين، هو وصول الماء إلى جسم الإنسان، و لما كانت حاله «الأوركازم» التى يصل إليها الإنسان لدى «الجنابه» تؤثر بصوره محسوسه على أجهزه جسم الإنسان و تخل بتوازن السلسلتين العصبيتين المذكورتين، لذلك أمر الإسلام بأن يباشر الإنسان غسل كل جسمه بعد كل مقاربه جنسيه، أو لدى خروج «المنى» منه، حيث يعود بهذا الغسل التوازن بين عمل السلسلتين العصبيتين السمبثاويه و شبه السمبثاويه فى كل أجزاء الجسم، فتعود لها حالتها الطبيعیه فى الحركه و الحياه (1).

ص: ٦١٨

---

١- ١) - و نقرأ فى روايه عن الإمام الثامن على بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «إنّ الجنابه خارجه من كل جسده فلذلك

و بديهي أنّ فائده الغسل لا تنحصر في الذي تحدثنا عنه قبل قليل، بل أنّ الغسل يعتبر أيضا نوعا من العبادة التي لها آثار أخلاقية لا تنكره، و لهذا السبب يبطل الغسل إن لم يكن مقترنا بتيه الطاعة و التقرب إلى الله سبحانه، لأنّ الحقيقة هي أنّ الجسم و الروح كليهما يتأثران أثناء خروج «المني» من الإنسان أو لدى حصول المقاربه الجنسيه- فالروح تجر بذلك وراء الشهوات الماديه و يدفع الجسم إلى حاله الخمول و الركود.

و غسل الجنابه يعتبر غسلا للجسم بما يشمله من عمليه إيصال الماء إلى جميع أجزائه، و يعتبر غسلا للروح بما يحتويه من نيه الطاعة و التقرب إلى الله، أي أنّ لهذا الغسل أثرين مادي و روحي، يدفع الأثر المادي منه الجسم إلى استعادته حاله النشاط و الفعاليه، و يدفع الأثر الروحي الإنسان للتوجه إلى الله و إلى المعنويات.

أضف إلى ذلك كلاً أنّ وجوب غسل الجنابه في الإسلام هو أيضا من أجل إبقاء جسم الإنسان المسلم طاهرا، كما هو رعايه للجانب الصحي في حياه الإنسان، و قد يوجد الكثير من الناس ممن لا يعتنون بنظافه أجسامهم لكن هذا الأمر و الواجب الإسلامي يجبرهم على غسل أجسامهم بين فتره و أخرى و لا- يقتصر التهاون في غسل الجسم على إنسان اليهود القديمه، بل حتى في عصرنا الحاضر هناك الكثير ممن لا يعتنون بغسل أجسامهم، بل يتهاونون في هذا الأمر الحياتي المهم (و طبيعي أن حكم غسل الجنابه حكم عام، و قانون كلي يشمل حتى الشخص الذي غسل جسمه قبل حصول الجنابه بقليل).

إنّ الجوانب الثلاثه المذكوره فيما سبق- توضح بمجموعها سبب وجوب الغسل لدى خروج المنى من الإنسان سواء كان في أثناء النوم أو اليقظه و كذلك

(١)

وجب عليه تطهير جسده كله» و في هذه الروايه إشاره للبحث الذي تناولناه أعلاه- من وسائل الشيعه، ج ١، ص ٤٦٦.

ص: ٦١٩

بعد المقاربه الجنسيه (حتى لو لم تؤد إلى خروج المنى).

و قد أوضحت الآيه-في آخرها- أنّ الأوامر الإلهيه ليس فيها ما يحرّج الإنسان أو يوجد العسر له، بل إنها أوامر شرعت لتحقيق فوائد و منافع معينه للناس، فقالت الآيه **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُنِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** .

و تؤكد هذه العبارات القرآنيه الأخيره أنّ جميع الأحكام و الأوامر الشرعيه الإلهيه و الضوابط الإسلاميه هي في الحقيقه لمصلحه الناس و لحمايه منافعهم، و ليس فيها أى هدف آخر، و إنّ الله يريد بالأحكام الأخيره الوارده فى الآيه- موضوع البحث- أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانيه و الروحيه معا.

و يجب هنا الانتباه إلى أن جمله **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ** مع أنّها وردت فى أواخر الآيات التى اشتملت على أحكام الغسل و الوضوء و التيمم، إلّا- أنّها تبيّن قانونا عاما معناه أنّ أحكام الله ليست تكاليف شاقّه أبدا، و لو كان فى أى حكم شرعى العسر و الحرج لأى فرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء على الاستثناء الوارد فى جمله القرآنيه الأخيره من الآيه موضوع البحث، و لهذا لو كان الصوم يشكل مشقه و عناء على أى فرد بسبب مرض أو شيخوخه أمّا ما شابه ذلك، لسقط أدائه عن هذا الفرد و ارتفع التكليف عنه، بناء على هذا الدليل نفسه.

و لا- يخفى- أيضا- أنّ هناك من الأحكام الإلهيه ما يظهر فيها الصعوبه و المشقه بذاتها مثل حكم الجهاد، إلّا أنّه و لدى مقارنه المصالح التى تتحقق بالجهاد مع الصعوبات و المشاق التى فيه، تترجح كفه المصالح و أهميتها فلا تكون المشاق أمامها شيئا يذكر، و قد سمي القانون الذى أثبتته جمله القرآنيه الأخيره بقانون «لا حرج» و هو مبدأ أساسى يستخدمه الفقهاء فى أبواب مختلفه و يستنبطون منه أحكاما كثيره.

اشاره

وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ اطَعْنَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

التفسير

اشاره

العهد الزبانيه:

تناولت الآيه السابقه مجموعه من الأحكام الإسلاميه بالإضافة إلى موضوع إكمال النعمه الإلهيه على المسلمين، وجاءت الآيه الأخيره لتكمل السياق الموضوعي لما سبق من آيات، فاستقطبت انتباه المسلمين إلى أهميه و عظمه النعم الإلهيه التي أعظمها و أهمها نعمه الإيمان و الهدايه و الإسلام، تقول الآيه: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ... و مع أن كلمه «نعمه» جاءت بصيغه المفرد في هذه الآيه، إلا أنها وردت اسم جنس لتفيد العموم، حيث عنى بالنعمه جميع النعم، كما يحتمل أيضا أن يكون المراد نعمه الإسلام بصوره خاصه، و التي أشارت إليها الآيه السابقه بصوره إجماليه حيث قالت: وَ لِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ...

فأى نعمه أعظم من أن ينال الإنسان في ظل الإسلام- كل الهبات الإلهيه و المفاخر و الإمكانيات الدنيويه، بعد أن كان الناس يعانون في الجاهليه من التشتت و الجهل و الضلال و يسود بينهم قانون الغاب، و كان الفساد و الظلم يعم

مجتمعهم آنذاك، وقد تحولوا بفضل الإسلام إلى مجتمع يسوده الاتحاد و التماسك و العلم، و يرفل بالنعم و الإمكانيات المادية و المعنوية الزاخره.

بعد هذا تعيد الآيه إلى الأذهان ذلك العهد الذى بين البشر و بين الله، فتقول وَ مِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا...

هناك احتمالان حول المعنى المراد بلفظه «العهد» الوارده فى الآيه و موضوعه.

الاحتمال الأول: أن يكون هو ذلك العهد الذى عقده المسلمون فى بدايه ظهور الإسلام فى واقعه «الحديبه» أو واقعه «حجه الوداع» أو «العقبه» مع الله، أو بصوره عامه هو العقد الذى عقده جميع المسلمين بصوره ضمنيه مع الله بمجرد قبولهم الإسلام.

و الاحتمال الثانى: هو أن يكون العهد المقصود فى الآيه الكريمه الأخيره هو ذلك العهد المعقود بين كل فرد إنسانى -بحكم فطرته و خلقه- و بين الله، و الذى يقال عنه بأنه تم فى «عالم الذر» (١).

و بيان ذلك هو أن الله حين خلق الإنسان أودع فيه استعدادات و مواهب كثيره، و منها نعمه العلم التى بها يتتبع أسرار الخليقه، و تتحقق لديه معرفه الحق، و كذلك نعم كالعقل و الذكاء و الإدراك ليعرف الإنسان بها أنبياء الله و يلتزم بأوامرهم، و الله سبحانه حين أودع هذه النعم لدى الإنسان أخذ منه عهداً بأن يستغلها خير استغلال، و أن لا يهملها أو يسىء استعمالها، فرد الإنسان بلسان الحال و الاستعداد «سمعنا و أطعنا».

و يعتبر هذا العهد أوسع و أحكم و أعم عهد أخذه الله من عباده البشر، و هذا هو العهد الذى يشير إليه الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى خطبته الأولى الوارده

فى كتاب «نهج البلاغه» بقوله: «ليستأدوهم ميثاق فطرته» أى ليطلب منهم أداء

ص: ٦٢٢

---

١-١) -سيرد شرح مفصل عن «عالم الذر» و سبب تسميته بهذا الاسم فى تفسير الآيه (١٧٢) من سوره الأعراف، بإذن الله.

الميثاق الفطرى الذى أخذه منهم و الوفاء به.

و بديهى أن يشمل هذا العهد الواسع جميع المسائل و الأحكام الدينيه.

و لا- مانع مطلقا من أن تكون فى هذه الآيه إشاره إلى جميع العهود و الموائيق التكوينيّه و التشريعيه التى أخذها الله أو النبى صلى الله عليه و آله و سلم من المسلمين بمقتضى فطرتهم فى مراحل مختلفه، و هنا يتوضح لنا الحديث القائل بأن المراد من الميثاق هو العهد الذى أخذه النبى صلى الله عليه و آله و سلم من المسلمين فى حجّه الوداع بخصوص ولايه على بن أبى طالب عليه السلام (1) و يتفق هذا التفسير مع ما ورد أعلاه.

و قد أكدنا مرارا أن التفاسير التى ترد على الآيات القرآنيه، ما هى إلا إشاره لواحد من المصاديق الجليه المعنيه فى كل آيه، و لا تعنى مطلقا انحصار المعنى بالتفسير الوارد.

و تجدر الإشاره- أيضا- إلى أن كلمه «ميثاق» مشتقه من المصدر «وثاقه» أو «وثوق» و تعنى الشدّ المحكم بالحبل و أمثاله، كما يطلق على كل عمل يؤدى إلى راحه البال و اطمئنان خاطر، حيث أن العهد يكون بمثابة عقده تربط شخصين أو جماعتين أحدهما بالآخر، و لذلك سمى «ميثاقا».

و فى النهايه تُفكّد الآيه على ضروره التزام التقوى، محذره أن الله محيط بأسرار البشر، و عالم بما يختلج فى صدورهم، بقولها: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

و تدل عباره بِذَاتِ الصُّدُورِ على أن الله عالم بأدق أسرار البشر المكونه فى أعماق نفوسهم و التى لا يمكن لأى مخلوق معرفتها غير صاحب السرّ و خالقه، أى الله العالم بذات الصدور.

و قد شرحنا فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا سبب نسبه العواطف و المشاعر و النوايا و العزائم إلى القلب أو إلى مكنونات الصدور.

ص: ٦٢٣

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۸) وَعِدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (۹) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۱۰)

التفسير

اشاره

دعوه مؤكده إلى العداله:

إن الآيه الأولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العداله، وهي شبيهه بتلك الدعوه الوارده في الآيه (۱۳۵) من سوره النساء، التي مضى ذكرها مع اختلاف طفيف.

فتخاطب هذه الآيه أولا المؤمنين قائله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ .

ثم تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدله، وتحذّر المسلمين من هذا الانحراف مؤكده أن الأحقاد و العداوات القبليه و الثارات الشخصيه، يجب أن لا تحول دون تحقيق العدل، و يجب أن لا تكون سببا للاعتداء على حقوق



الآخرين، لأن العدالة أرفع وأسمى من كل شيء، فتقول الآية الكريمة: **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓيَٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا... و تكرر الآيه التأكيد لبيان ما للعدل من أهميه قصوى فتقول **إِعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى** .**

و بما أنّ العدالة تعتبر أهم أركان التقوى، تؤكد الآية مرّه ثالثه قائله: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** .

و الفرق بين فحوى هذه الآيه و الآيه المشابهه لها الوارده فى سورة النساء، يتحدد من عدّه جهات:

أولاً: إنّ الآيه الوارده فى سورة النساء دعت إلى إقامة العدل و الشهاده لله، أمّا الآيه الأخيره فقد دعت إلى القيام لله و الشهاده بالحق و العدل، و لعل وجود هذا الفارق لأنّ الآيه الوارده فى سورة النساء استهدفت بيان ضروره أن تكون الشهاده لله، لا لأقارب و ذوى الشاهد، بينما الآيه الأخيره و لكونها تتحدث عن الأعداء أوردت تعابير مثل الشهاده بالعدل و القسط أى تجنب الشهاده بالظلم و الجور.

ثانياً: أشارت الآيه الوارده فى سورة النساء إلى واحد من عوامل الانحراف عن العدالة، بينما الآيه الأخيره أشارت إلى عامل آخر فى نفس المجال، فهناك ذكرت الآيه عامل الحب المفرط الذى لا يستند على تبرير أو دليل، بينما ذكرت الآيه الأخيره الحقد المفرط الذى لا مبرر له.

و لكن الآيتين كليهما تتلاقيان فى عامل إتباع الأهواء و النزوات التى تتحدث عنها الآيه الأولى فى جمله: **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوٰى أَنْ تَعْدِلُوْا... لأنّ الهوى مصدر كلّ ظلم و جور ينشأ من الاندفاع الأعمى و وراء الأهواء و المصالح الشخصيه، لا من دافع الحب أو الكراهيه، و على هذا الأساس فإنّ المصدر الحقيقى للانحراف عن العدل هو نفس إتباع الهوى، و**

قد جاء فى كلام النبى صلى الله عليه و آله و سلم

و الإمام على بن أبي طالب عليه السلام قولهما: «أما إتباع الهوى فيصّد عن الحق» (١).

## العدل ركن إسلامي مهم:

قلما نجد قضية أعطى الإسلام لها أهميه قصوى كقضية العدل، فهي وقضية التوحيد سيان في تشعب جذورهما إلى جميع الأصول والفروع الإسلاميه، و بعبارة أخرى: كما أنّ جميع القضايا العقائديه و العمليه و الاجتماعيه و الفرديه و الأخلاقيه و القانونيه لا تنفصل مطلقا عن حقيقه التوحيد، فكذلك لا تنفصل كل هذه القضايا و لا تخلو أبدا من روح العدل.

و ليس من العجيب و الحاله هذه أن يكون العدل واحدا من أصول العقيده و الدين، و أساسا من أسس الفكر الإسلامى، و هو مع كونه صفة من صفات الله سبحانه و يدخل ضمن مبادئ المعرفة الإلهيه، إلا أنه يشتمل على معان واسعة في خصائصه و مزاياه، و لذلك كان ما أولته البحوث الاجتماعيه في الإسلام من الاهتمام بالعدل و الاعتماد عليه يفوق ما حظيت به المبادئ الإسلاميه الأخرى من ذلك.

و يكفى إيراد عدد من الأحاديث و الروايات نماذج لدرك أهميه هذه الحقيقه:

١-

روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «إياكم و الظلم فإنّ الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة» (٢).

و بديهى أن كل ما هو موجود من خير و بركه و نعم هو من النور و فى النور،

ص: ٦٢٦

---

١- ١) -ورد هذا الحديث نقلا عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى كتاب سفينه البحار فى ماده (هوى)، و ورد فى كتاب نهج البلاغه فى الخطبه ٤٢ نقلا عن على بن أبى طالب عليه السلام.

٢- ٢) -سفينه البحار، ماده (ظلم).

وإنّ الظلام هو مصدر كل عدم وفاقه.

٢-و

قال النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم أيضا: «بالعدل قامت السموات والأرض» (١).

ويعتبر هذا القول من أوضح التعابير التي قيلت في شأن العدل، ومعناه أنّ حياة البشر المحدودة في الكره الأرضيه ليست وحدها التي يكون قوامها العدل، بل إنّ حياه و وجود الكون بأكمله، و السماوات و الأرضين كلها قائمه بالعدل، و في ظل حاله من توازن القوى الفاعله فيها، و وجود و استقرار كل شيء في محله منها، بحيث لو أنّها انحرفت عن هذا التوازن لحظه واحده أو بمقدار قيد أنمله لحكمت على نفسها بالفناء و الزوال.

و يؤيد هذا القول حديث آخر هو: «الملك يبقى مع الكفر و لا يبقى مع الظلم» لأنّ للظلم أثرا سريعا في هذه الحياه الدنيويه و من نتائجه الحروب و الاضطرابات و القلاقل و الفوضى السياسيه و الاجتماعيه و الأخلاقيه و الأزمات الاقتصاديه التي تعمّ العالم اليوم، و هذا ما يثبت الحقيقه المذكوره بصوره جيده.

و يجب الانتباه جيدا إلى أنّ اهتمام الإسلام لم ينصب في مجرد العداله، بل إنه أولى أهميه أكبر لتحقيق العداله، و طبعي أنّ محض تلاوه هذه الآيات في المجالس أو من على المنابر، و كتابتها في الكتب، لا يجدي نفعا في استعاده العداله المفقوده، و علاج التمييز الطبقي و العنصري، و الفساد و الاجتماعى في المجتمع الإسلامى، بل إنّ عظمه هذه الآيات و الأحكام تتجلى في يوم تطبق فيه العداله في صميم حياه المسلمين.

بعد التأكيد الشديد الذى حملته الآيه الكريمه حول قضيه العداله و ضروره تطبيقها بادرت الآيه التاليه و تمشيا مع الأسلوب القرآنى، فأعدت إلى الأذهان

ص: ٦٢٧

ما أعدّه الله للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه و نعمه العظيمه، حيث تقول الآية:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

كما ذكرت الآية في المقابل جزاء الكافرين الذين يكذبون بآيات الله، فقالت: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية جعلت المغفرة و الأجر العظيم في إطار «وعد الله» بينما ذكرت عقاب جهنم بأنّه نتيجة للكفر و للتكذيب بآيات الله، و ما هذا إلاّ-إشارة إلى فضل الله و رحمته لعباده فيما يخص نعم و هبات الآخرة التي لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت و عظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقا، كما أنّها إشارة -أيضا- إلى أنّ عقاب الآخرة ليس فيه طابع انتقامي أبدا، بل هو نتيجة عادله لما ارتكبه الإنسان من أعمال سيئه في حياته.

أمّا فيما يخص معنى عبارته «أصحاب الجحيم» (1) فهي مع ما في كلمه «أصحاب» من معنى الملازمه، أي أن الكافرين و المكذبين بآيات الله يلازمون جهنم، لكن هذه الآية لو حدها لا يمكن أن تكون دليلا على مسأله «الخلود» في نار جهنم، كما جاء توضيح ذلك في تفسير «التيان» و «مجمع البيان» و تفسير «الفخر الرّازي»، لأنّ الملازمه ربما تكون دائمه، و قد تستمر لفترة طويله ثم تنقطع، بدلاله التعبير القرآني الوارد في شأن ركاب سفينه نوح النبي عليه السّلام حيث وردت فيهم عبارته «أصحاب السفينه» و هم لم يكونوا ملازمين لتلك السفينه ملازمه دائمه.

و مع انتفاء الشك حول خلود الكفار في نار جهنم، فالآيه الكريمة-موضوع البحث-لم تتحدث بشيء عن هذا «الخلود» بل يستنتج هذا من آيات قرآنيه أخرى.

ص: ٦٢٨

١-١) -إنّ كلمه جحيم تعنى النار الشديده الالتهاب، و قد أطلقت في القرآن على نار جهنم كما في هذه الآية، و على نار الدنيا كالنار التي سعروها لحرق النبي إبراهيم عليه السّلام الآية (٩٧) من سوره الصافات.

إشاره

﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١١)

التفسير

لقد ذكرت الآيات السابقه بعضا من النعم الإلهيه، وجاءت الآيه الأخيره تخاطب المسلمين و تذكر لهم أنواعا من النعم التي أنعم الله بها عليهم، لكي يؤدوا شكرها عن طريق طاعه الله و السعى لتحقيق مبادئ العداله، فتقول الآيه: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ... ﴾ .

و قد دأب القرآن الكريم في كثير من آياته على تذكير المسلمين بالنعم المختلفه التي أنعم الله بها عليهم، و ذلك من أجل تعزيز دافع الإيمان لديهم، و لاستثاره و تحفيز دافع الشكر و الصمود فيهم ليقفوا بوجه المشاكل، و الآيه الأخيره من سنخ تلك الآيات.

و اختلف المفسرون حول الواقعه التي تشير إليها الآيه موضوع البحث، فبعضهم قال: بأنها إشاره إلى إنقاذ المسلمين من قبيله «بنى النضير» اليهوديه التي

تواطأت على قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالمسلمين في المدينة.

و ذهب البعض الآخر من المفسرين على أنها إشاره إلى واقعه «بطن النخل» التي حصلت في العام السادس من الهجره النبويه في واقعه «الحديبيه» حيث قرر المشركون هناك في ذلك الحين-بزعامه (خالد بن الوليد)-الهجوم على المسلمين أثناء أدائهم لصلاه العصر، فعلم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بهذه المؤامره فصلى صلاه الخوف القصيره، مما أدى إلى إحباط المؤامره.

و قد ذكر مفسرون آخرون وقائع أخرى من حياه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالمسلمين المليئه بالحوادث، و قالوا بأن هذه الآيه إشاره لتلك الوقائع.

و يرى مفسرون آخرون أن هذه الآيه إشاره إلى كل الوقائع و الأحداث التي حصلت طيله التاريخ الإسلامى حتى ذلك الوقت.

و لو تغاضينا عن كلمه «قوم» الوارده في هذه الآيه بصيغه النكره التي تدل على وحده المجموعه المعينه، فإنّ هذا التفسير يمكن اعتباره من أحسن التفاسير في هذا المجال.

و الآيه على كل حال تلفت انتباه المسلمين إلى الأخطار التي تعرضوا لها، و كان يحتمل أن تدفع بالوجود الإسلامى إلى الفناء و الزوال و إلى الأبد، و لكن فضل الله و نعمته شملتهم و أنقذت الإسلام و المسلمين من تلك الأخطار.

كما تحذر الآيه المسلمين و تنبههم إلى ضروره التزام التقوى و الاعتماد على الله كدليل على شكر ذلك الفضل و تلك النعمه، و ليعلموا بأنهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم و السند و الحمايه من الله في حياتهم الدنيويه هذه، و في هذا المجال تقول الآيه الكريمه: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .**

و واضح أنّ التوكل على الله ليس معناه التخلي عن المسؤوليات أو الاستسلام لحوادث الزمان، بل يعنى أنّ الإنسان حين يستخدم طاقاته و الإمكانيات المتوفره لديه، يجب عليه أن ينتبه في نفس الوقت إلى أنّ هذه

الطاقات و الإمكانيات ليست من عنده بل أن مصدرها و منشأها هو الله تعالى، و إذا حصل هذا التوجه فإن من شأنه أن يقضى على دافع الغرور و الأنانيه عند الإنسان أولاً، و من ثم لا يدع إلى نفسه طريقا للخوف و القلق و اليأس حيال الأحداث و المشاكل مهما كبرت و عظمت، لأنه يعلم بأنّ سنده و حاميه هو الله الذي فاقت قدرته كل القدرات.

إضافه إلى ما ذكر، فإنّ تقديم الأمر بالتقوى على قضيه التوكل يستشف منه أنّ حمايه الله و رعايته تشمل حال المتقين.

و يجب الانتباه إلى أنّ عبارته «التقوى» المشتقه من المصدر «وقايه» معناها حمايه النفس و إبعادها عن عناصر السوء و الفساد.

ص: ٦٣١

اشاره

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْ أَوْلِيَاءَكُمْ فَأَرْضْتُمْ اللَّهَ فَرَضًا حَسِينًا فَكْفَرْنَا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَأَدْخَلْنَاكُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)

التفسير

لقد أشارت هذه الآيه أولاً إلى قضيه الوفاء بالعهد، وقد تكررت هذه الإشارة في مناسبات مختلفه في آيات قرآنيه عديده، وربما كانت إحدى فلسفات هذا التأكيد المتكرر على أهميه الوفاء بالعهد و ذم نقضه، هي إعطاء أهميه قصوى لقضيه ميثاق الغدير الذي سيرد في الآيه (٦٧) من هذه السوره.

و الآيه في بدايتها تشير إلى العهد الذي أخذه الله من بني إسرائيل على أن يعملوا بأحكامه، وإرساله إليهم بعد هذا العهد اثني عشر زعيماً وقائدا ليكون كل واحد منهم زعيماً لطائفه واحده من طوائف بني إسرائيل الاثنتي عشر- حيث تقول الآيه الكريمه: وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا .



و الأصل فى كلمه «نقيب» إنها تعنى الثقب الكبير الواسع، و تطلق بالأخص على الطرق المحفوره تحت الأرض، و سبب استخدام كلمه نقيب للدلاله على الزعامه، لأنّ زعيم كل جماعه يكون عليما بأسرار قومهم، و كأنّه قد صنع ثقبا كبيرا يطلع من خلاله على أسرارهم، كما تطلق كلمه نقيب أحيانا على الشخص الذى يكون بمثابة المعرف للجماعه، و حين تطلق كلمه «مناقب» على الفضائل و المآثر، يكون ذلك لأنّ الفضائل لا تعرف إلا عن طريق البحث و التنقيب فى آثار الشخص.

و ذهب بعض المفسرين إلى أنّ كلمه «نقيب» الوارده فى الآيه موضوع البحث إنما تعنى فقط-العارف بالأسرار، لكننا نستبعد هذا الأمر استنادا لما يدلنا عليه التاريخ و الحديث و هو أن نقباء بنى إسرائيل هم زعماء الطوائف الإسرائيليه، جاء فى تفسير «روح المعانى» عن ابن عباس قوله:

«إنّهم كانوا وزراء ثم صاروا أنبياء بعد ذلك». أى أنّهم كانوا وزراء للنبي موسى عليه السلام ثم نالوا منزله النبوه بعده (١).

و نقرأ فى أحوال النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه حين قدم أهل المدينه فى ليله العقبه لدعوته صلى الله عليه و آله و سلم إلى منطقه العقبه، أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أهل المدينه لينتخبوا من بينهم اثني عشر نقيبا على عدد نقباء بنى إسرائيل، و بديهى أنّ مهمّه هؤلاء كانت زعامه قومهم و ليس فقط إخبار النبي بتقارير عن أوضاعهم (٢).

لقد وردت روايات عديده من طرق السنه، و هى تلفت الانتباه- لما فيها من إشاره إلى خلفاء النبي الأئمه الإثني عشر عليهم السلام و بيان أن عددهم يساوى عدد نقباء بنى إسرائيل- ننقل هنا قسما من هذه الروايات:

١- ينقل «أحمد بن حنبل»- و هو أحد أئمه السنه الأربعة، عن «مسروق» أنّه

ص: ٦٣٣

(١- ١) - تفسير روح المعانى، ج ٦، ص ٧٨.

(٢- ٢) - سفينه البحار، فى ماده «نقيب».

سأل عبد الله بن مسعود: كم عدد الذين سيحكمون هذه الأمة؟ فرد ابن مسعود قائلا:

«لقد سألتنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال: «اثني عشر كعدّه نعباء بنى إسرائيل» (١).

٢-و

جاء فى تاريخ «ابن عساکر» نقلا عن ابن مسعود، أنّهم سألو النّبى عن عدد الخلفاء الذين سيحكمون هذه الأمة، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عَدَّةَ الْخُلَفَاءِ بَعْدِي عِدَّةُ نَعْبَاءِ مُوسَى» (٢) ٣-و ورد فى «منتخب كنز العمال» عن جابر بن سمره قوله «سيحكم هذه الأمة اثنا عشر خليفه بعدد نعباء بنى إسرائيل» (٣).

و جاء مثل هذا الحديث أيضا فى كتاب (ينابيع الموده) فى الصفحه ٤٤٥ و كذلك فى كتاب (البدايه و النهايه)، ج ٦ فى الصفحه ٢٤٧ أيضا.

و تشير الآيه بعد ذلك إلى وعد الله لبنى إسرائيل حيث تقول: <sup>□</sup> <sup>□</sup> وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ .

و إنّ هذا الوعد سيتحقق إذا التزم بنو إسرائيل بالشروط التاليه:

١- أن يلتزموا بإقامه الصلاه كما تقول الآيه: لَئِن أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ .<sup>□</sup>

٢-و أن يدفعوا زكاه أموالهم: <sup>□</sup> وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ .

٣- أن يؤمنوا بالرسول الذين بعثهم الله و يحترموا و ينصروا هؤلاء الرسل، حيث تقول الآيه وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْهُمْ (٤).

ص: ٦٣٤

١-١) -مسند أحمد، ص ٣٩٨، طبعه مصر، سنه ١٣١٣.

٢-٢) -كتاب فيض القدير فى شرح الجامع الصغير، ج ٢، ص ٤٥٩.

٣-٣) -منتخب كنز العمال فى حاشيه مسند أحمد، ج ٥، ص ٣١٢.

٤-٤) -إنّ عبارته «عزرتموهم» مشتقه من ماده «تعزير» أى المنع أو العون، أمّا حين تسمى بعض العقوبات الإسلاميه بالتعزير فذلك لأنّ هذه العقوبات تكون فى الحقيقه عونا للمذنب لكى يرتدع عن مواصله الذنب، و هذا دليل على أنّ العقوبات الإسلاميه لا تتسم بطابع الانتقام بل تحمل طابعا تربويا لذلك سميت بالتعزير.

٤-و بالإضافة إلى الشروط الثلاثة المذكوره أعلاه، أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التي تعتبر نوعا من معاملات القرض الحسن مع الله سبحانه و تعالى حيث تقول الآية: وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .

ثم أردفت الآية الكريمه ببيان نتائج الوفاء بالشروط المذكوره بقوله تعالى:

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

كما بينت الآية مصير الذين يكفرون و لا يلتزمون بما أمر الله حيث تقول:

فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

لقد أوضحنا في الجزء الثاني من تفسيرنا هذا لما ذا اصطلاح القرآن المجيد على الإنفاق، أنه قرض لله سبحانه؟ و يبقى في هذا المجال-أيضا-سؤال أخير و هو لما ذا تقدمت مسألنا الصّلاه و الزكاه على الإيمان بموسى عليه السلام، في حين أنّ الإيمان يجب أن يسبق العمل؟ و يجيب بعض المفسّرين على هذا السؤال بقولهم: إن المراد بعبارة «الرسال» الوارده في الآية هم الأنبياء الذين جاءوا بعد النبي موسى عليه السلام و ليس موسى نفسه، لذلك فإن الأمر الوارد هنا بخصوص الإيمان بالرسال يحمل على أنه أمر لمّا يستقبل من الزمان، فلا- يتعارض لذلك و روده بعد الأمر بالصّلاه و الزكاه، كما يحتمل-أيضا-أن يكون المراد بعبارة «الرسال»هم «نقباء» بنى إسرائيل حيث أخذ الله الميثاق من بنى إسرائيل بأن يكونوا أولياء معهم،(و نقرأ في تفسير«مجمع البيان» أنّ بعضا من المفسّرين القدماء، احتملوا أن يكون نقباء بنى إسرائيل رسلا من قبل الله، و يؤيد هذا الاحتمال الرأى الأخير الذى ذهبنا إليه).

اشاره

فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)

التفسير

اشاره

إن هذه الآيه الكريمه جاءت تشير إلى نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه الله عليهم و الذى ذكرته الآيه السابقه.

كما ذكرت هذه الآيه نتائج و عواقب هذا النقض حيث تقول: فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً (١).

و الحقيقه هى أن هؤلاء عوقبوا بهذين الجزاءين بسبب نقضهم لميثاقهم، فقد حرموا من رحمه الله، و تحجرت أفكارهم و قلوبهم فلم تعد تبدى أى مرونة أمام الحقائق.

ص: ٦٣٦

١ - ١) - إن كلمه «لعن» تعنى فى اللغه «الطرد و الإبعاد» و حين ينسب اللعن إلى الله فإنه يعنى الحرمان من رحمته، أما كلمه «قاسيه» فهى فى الأصل مشتقه من المصدر «قساوه» و تطلق على الأخص على الحجر الصلد، و لذلك أطلقت على الذين لا يبدون أى مرونة من جانبهم أمام الحقائق التى تتكشف لهم.

و تشرح الآية آثار هذا التحجر فتقول: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...

و وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ... .

ولا يستبعد أن تكون علامات و آثار نبي الإسلام محمد صلى الله عليه و آله و سلم و التي أشير إليها في آيات قرآنيه أخرى، جزءا من الأمور التي نسيها بنو إسرائيل - كما يحتمل أن تكون هذه الجملة القرآنيه إشاره إلى ما حرفه أو نسيه جمع من علماء اليهود أثناء تدوينهم للتوراه من جديد بعد أن فقدت التوراه الأصلية، و إن ما وصل إلى هؤلاء من كتاب موسى الحقيقى كان جزءا من ذلك الكتاب و قد اختلط بالكثير من الخرافات، و قد نسي هؤلاء حتى هذا الجزء الباقى من كتاب موسى عليه السلام.

ثم تتطرق الآية إلى ظاهره خبيثه طالما برزت لدى اليهود - بصوره عامه - إلا - ما ندر منهم، و هى الخيانه التي كانت تتكشف للمسلمين بين فتره و أخرى، تقول الآية الكريمه فى هذا المجال: **وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ (١) مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ... .**

و فى الختام تطلب الآية من النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يعفو عن هؤلاء و يصفح عنهم، مؤكداً أن الله يحب المحسنين، و ذلك فى قوله تعالى: **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .**

و لنرى هل أن المراد فى الآية أن يعفو النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن الأخطاء السابقه للأقلية الصالحه من اليهود، أم أن المراد هو العفو عن الأغلبه الطالحه منهم؟ إن ظاهر الآية يدعم و يؤيد الاحتمال الثانى، لأن الأقلية الصالحه لم ترتكب ذنبا أو خيانه لكى يطلب من النبي صلى الله عليه و آله و سلم العفو عنهم - و الظن الغالب هو أن العفو

ص: ٦٣٧

١- ١) - إن كلمه «خائنه» مع كونها اسما للفاعل، فهى فى هذه الآية تكون بمعنى المصدر و تطابق كلمه الخيانه... و قد جرت عاده العرب على استخدام مثل هذه الاستعمالات فى أشعارهم حيث جاؤوا باسم الفاعل و عنوا به المصدر فى كلمات مثل «العافيه» و «الخاطيه» و قد احتملوا أيضا أن تكون كلمه «خائنه» صفة للطائفه.

و الصفح المطلوبان فى الآيه يشملان-فقط-تلك الحالات التى كان اليهود يوجهون فيها أذاهم و تحرشاتهم و استفزازاتهم إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لا يشملان أخطاء اليهود و جرائمهم بحق الأهداف و المبادئ الإسلاميه، حيث لا معنى للعفو فى هذا المجال.

### الممارسات التحريفية لليهود:

إنّ ما يستشف من مجموع الآيات الواردة فى القرآن الكريم بخصوص الممارسات التحريفية لليهود، هو أنّهم كانوا يمارسون أنواع التحريف فى الكتب السماويه الخاصه بهم.

و كان تحريفهم يتخذ أحيانا طابعا معنويا، أى أنّهم كانوا يفسّرون العبارات الواردة فى تلك الكتب بشكل يناقض المعنى الحقيقى لها، فهم كانوا يحفظون الألفاظ كما هى لكنهم كانوا يغيرون معانيها و هو (التحريف المعنوى)، و كانوا-أيضا-يقومون بتحريف الألفاظ فى بعض الأحيان، فهم بدل أن يقولوا «سمعنا و أطعنا» كانوا يقولون «سمعنا و عصينا» كما كانوا أحيانا يخفون بعض الآيات الإلهيه، فما كان يطابق أهواءهم أظهره، و أخفوا الآيات التى لم تكن لتتلاءم مع ميولهم و رغباتهم و هو «التحريف اللفظى»، و قد وصلت بهم الوقاحه إلى حد أنّهم مع موجود الكتاب السماوى بين أيديهم كانوا يخادعون الناس بوضع أيديهم على الحقائق الواردة فيها، لكى لا يستطيع الناظر قراءتها.

و ستأتى تفاصيل هذا الموضوع لدى تفسير الآيه (٤١) من نفس هذه السوره فى قصّه «ابن صوريا».

### هل يجعل الله قلب الإنسان قاسيا؟

نقرأ فى الآيه-موضوع البحث- إنّ الله ينسب لنفسه فعل جعل القسوه فى

قلوب مجموعه من اليهود! والذى نعرفه هو أنّ هذه القسوه ما هي إلاّ نتيجه لارتكاب الذنوب و الانحرافات، فكيف إذن ينسب الله فعل جعل القسوه فى قلوب أولئك اليهود إلى نفسه؟ و لو كان هذا الفعل من الله، فكيف يكون أولئك الأشخاص مسئولين عن أعمالهم، ألا يعتبر هذا نوعا من الجبر؟ ولدى الإمعان بدقه فى الآيات القرآنيه المختلفه، و منها الآيه موضوع البحث، يتبين لنا أنّ الأشخاص إنما يحرمون-بسبب اخطائهم و ذنوبهم-من لطف الله و رحمته و هدايته، و أنّ أعمالهم هذه فى الحقيقه مصدر لمجموعه من الانحرافات الفكرية و الأخلاقية، بحيث يستحيل على الإنسان-أحيانا-أن يجنب نفسه عواقبها و نتائجها.

و بما أنّ العلل-أو الأسباب-تعطى آثارها بإذن الله، لذلك نسب مثل هذه الآثار فى القرآن الكريم إلى الله، ففى الآيه موضوع البحث ﴿نقرأ أنّ اليهود-نتيجه لنقضهم الميثاق-جعل الله قلوبهم قاسيه. كما نقرأ فى الآيه (٢٧) من سوره إبراهيم قوله ﴿تعالى و يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ و فى الآيه (٧٧) من سوره التوبه نقرأ قوله سبحانه: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

و واضح أنّ هذه الآثار السيئه تنبع من عمل الإنسان نفسه، و لا تناقض فى هذا الأمر حريه الإراده و الإختيار، لأنّ مقدمات تلك الآثار تكون من عمل الإنسان و تصدر عنه بعلمه و اختياره، و لأنّ آثار عمله هي النتيجه الحتميه للعمل نفسه، و على سبيل المثال لو أنّ إنسانا تناول شيئا من المشروبات الكحوليه، و حصلت لديه حاله من السكر، فقام على أثر هذه الحاله بارتكاب جريمه معينه، فهو و إن كان لا-يمتلك إرادته فى حاله السكر، إلاّ أنّه قبل ذلك أقدم على شرب الخمره مختارا و مدركا لما يفعل، و بذلك هيأ بنفسه مقدمات العمل الجنائى، و هو يعمل احتمال صدور هذا العمل منه فى حاله السكر، و لذلك فهو مسئول عن هذا

العمل، فلو قيل في مثل هذه الحالة: إنَّ شخصا قد شرب الخمره فسلبنا منه عقله، فتورط نتيجة عمله في ارتكاب جريمه، فهل في هذا القول أى تناقض أو هل يستشف منه مفهوم الجبر؟ و خلاصه القول فإنَّ كل أنواع الهدايه و الضلال و أمثالها التى تنسب فى القرآن الكريم إلى الله سبحانه، إنَّما تحصل بشكل حتمى كنتيجه للمقدمات و الأعمال التى تصدر من الإنسان نفسه، و على أثرها يستحق إمَّا الهدايه أو الضلال، و فى غير ذلك فإنَّ العدل و الحكمه الإلهيين، لا يسمحان مطلقا أن يساق إنسان إلى طريق الهدايه دون أى مبرر، أو أن يساق آخر إلى طريق الضلال دون وجود سبب لذلك (١).

ص : ٦٤٠

---

١- ١) - لقد وردت تفاصيل أخرى فى هذا المجال- أيضا- فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.



اشاره

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِذَا نَصَرْنَا نَحْنُ نَرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)

التفسير

اشاره

العداء الأبدى:

لقد تناولت الآيه السابقه ظاهره نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه الله منهم، أما الآيه الأخيره-هذه-فهى تتحدث عن نقض العهد عند النصارى الذين نسوا قسما من أوامر الله التى كلّفوا بها-فتقول الآيه فى هذا المجال: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِذَا نَصَرْنَا نَحْنُ نَرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فهذه الآيه تدل بوضوح على أنّ النصارى-أيضا-كانوا قد عقدوا مع الله عهدا على أن لا ينحرفوا عن حقيقه التوحيد، وأن لا- ينسوا أوامر و أحكام الله، وأن لا- يكتنموا علائم خاتم النبیین صلّى الله عليه و آله و سلّم، لكنهم تورطوا بنفس ما تورط به اليهود مع فارق واحد، و هو أنّ القرآن الكريم يصرّح بالنسبه لليهود بأنّ القليل منهم كانوا من الصالحين، بينما يذكر القرآن بأنّ مجموعه من النصارى اختارت طريق الانحراف، حيث يفهم من هذه التعبير أنّ المنحرفين من اليهود كانوا أكثر من المنحرفين من

إنَّ تاريخ تدوين الأناجيل المتداوله يدل على أنَّها كتبت بعد المسيح عليه السَّلام بسنين طويله و بأيدى بعض المسيحيين، و هذا هو دليل وجود الكثير من التناقض الصريح فيها، و يدلنا هذا-أيضا-على أنَّ كتبه الأناجيل قد نسوا- بصوره تامه-أجزاء غير قليله من الإنجيل الأصلى، و وجود خرافات فى الأناجيل المتداوله من قبيل قصه صنع المسيح عليه السَّلام للخمره (١) الأمر الذى يرفضه العقل و يتنافى حتى مع بعض آيات التوراه و الإنجيل المتداولين، و كذلك قصه مريم المجدليه (٢) و غيرها من القصص، كلها دليل على ذلك التناقض.

أمَّا كلمه «نصارى» التى وردت فى الآيه فهى صيغه جمع نصرانى، فقد وردت تفاسير مختلفه حولها، و منها أن المسيح قد تربى فى صباه ببلده الناصره، و قيل-أيضا-أنَّ هذه الكلمه هى نسبه إلى نصران، و هى قريه يوليها المسيحيون احتراماً خاصاً، و يحتمل-أيضا-أن يكون وجه التسميه ناشئاً عن قول المسيح عليه السَّلام كما تحكيه الآيه عنه إذ تقول: **كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ (٣)** فسمى المسيحيون لذلك بالنصارى.

و لما كان جمع من النصارى يقولون ما لا يفعلون، و يزعمون أنَّهم من أنصار المسيح عليه السَّلام يقول القرآن فى هذه الآيه: **وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى... وَ هُمْ لَمْ يَكُونُوا صَادِقِينَ فِى دَعْوَاهُمْ هَذِهِ، لَذَلِكَ تَسْتَطِرِدُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فَتَبَيِّنُ نَتِيجَةَ هَذَا الْادْعَاءِ الْكَاذِبِ، وَ هُوَ انْتِشَارُ عِدَاءِ أَبَدِيٍّ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا تَقُولُ الْآيَةُ: فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .**

ص: ٤٤٢

١-١) -إنجيل يوحنا، الإصحاح ٢، الآيات ٢-١٢.

٢-٢) -إنجيل لوقا، الإصحاح ٧، الآيات ٣٦-٤٧.

٣-٣) -يوسف، ١٤.

كما ذكرت الآية نوعا آخر من الجزاء والعقاب لهذه الطائفة النصرانية، وهو أنهم سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وسيرونها بأعينهم حيث تقول الآية: سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

و تجدر الإشارة هنا إلى عدّه أمور، هي:

١- إنَّ عبارته «أغرينا» مشتقة من المصدر «إغراء» وتعني الصاق شيء بشيء آخر، كما تعني الترغيب أو حمل الشخص على القيام بعمل معين، بحيث يدفع الشخص إلى الارتباط بأهداف معينه.

و على هذا الأساس يكون مفهوم الآية-موضوع البحث- هو أن نقض النصارى لعهدهم و ارتكابهم المعاصى أديا إلى أن تنتشر العداوه فيما بينهم و يعمهم النفاق و الخلاف،(و المعلوم أن آثار الأسباب التكوينية و الطبيعيه تنسب إلى الله) و ما نراه اليوم من صراعات كثيره بين الدول المسيحيه، كانت فى يوم ما سببا لاندلاع الحربين العالميتين، و هى كذلك سبب للتكتلات المقترنه بالعداله و البغضاء المستمره فيما بينهم، أضف إلى ذلك الخلافات المذهبيه الكثيره التى تسود بين الطوائف المسيحيه التى ما زالت سببا لاستمرار الصراع و الاقتتال فيما بينهم.

و قد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من استمرار العداوه، هو العداوه و البغضاء الموجوده بين اليهود و النصارى و استمرارها حتى فناء العالم، و لكن الملاحظ من ظاهر الآية هو استمرار العداوه بين المسيحيين أنفسهم (١) .

و غنى عن البيان أن مثل هذه العاقبه لا تقتصر على المسيحيين وحدهم، فلو أن المسلمين ساروا فى نفس هذا الطريق فإن مصيرهم سيكون مشابها لمصير المسيحيين أيضا.

٢- إنَّ كلمه «العداوه» مشتقة من المصدر «عدو» و هى بمعنى التجاوز

ص: ٦٤٣

---

١- ١) - و على هذا الأساس فإن الضمير فى كلمه «بينهم» تعود إلى كلمه «النصارى» المذكوره فى بدايه الآية.

و الانتهاك، أما كلمة «البغضاء» المشتقة من المصدر «بغض» فهي تعنى النفور و الاستياء الشديد من شىء معين، و يحتمل أن يكون الفرق بين الكلمتين المذكورتين هو أن لكلمه «بغض» طابع وجدانى أكثر ممّا هو عملى، كما فى كلمه «العداوه» التى لها طابع عملى، و قد يكون لكلمه «بعض» أو «بغضاء» مفهوم أشمل يستوعب العملى منه و القلبى الوجدانى.

٣- يستدل من الآيه هذه على أنّ النصرارى كطائفه دينيه (أو اليهود و النصرارى معا) سيكون لهم وجود فى هذه الدنيا حتى يوم القيامه، و قد يقول معترض فى هذا المجال: أنّ الأخبار الإسلاميه تفيد بأن دينا واحدا سيعم العالم كله بعد ظهور المهدي (عج) و لن تكون هناك أديان أخرى غير هذا الدين الذى هو الإسلام الحنيف، فكيف إذن يمكن الجمع و التوفيق و رفع هذا التناقض الظاهر؟ و الجواب هو أنّه يحتمل أن يبقى من المسيحيه و اليهوديه حتى بعد ظهور المهدي (عج) شىء ضئيل على شكل أقلية ضعيفه جدا، لأن ما نعلمه هو بقاء حرّيه الإراده للبشر حتى فى عصر المهدي (عج) و إنّ الدين الإسلامى فى ذلك العصر لا يأخذ طابعا إجباريا، مع أن الأغلبيه العظمى من البشر ستتبع طريق الحق و تميل إليه، و الأهم من هذا كله فإن الحكم فى الأرض سيكون للإسلام وحده.

إشاره

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)

التفسير

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نقض اليهود و النصارى لميثاقهم، جاءت الآيه الأخيره لتخاطب أهل الكتاب بصورة عامه و تدعوهم إلى الإسلام الذى طهر الديانتين اليهوديه و المسيحيه من الخرافات التى لصقت بهما، و الذى يهديهم إلى الصراط السوى المستقيم، و الذى ليس فيه أى انحراف أو اعوجاج.

و تبين الآيه- فى البدايه- أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم المبعوث إليهم جاء ليظهر الكثير من الحقائق الخاصه بالكتب السماويه التى أخفوها هم (أهل الكتاب) و كتموها عن الناس، و إن هذا الرسول يتغاضى عن كثير من تلك الحقائق التى انتفت الحاجه إليها و زال تأثيرها بزوال العصور التى نزلت لها، فتقول الآيه فى هذا المجال: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

و تدلّ هذه الجملة القرآنية على أنّ أهل الكتاب كانوا قد أخفوا و كتموا الكثير من الحقائق، لكن نبي الإسلام صلّى الله عليه و آله و سلّم قد أظهر من تلك الحقائق ما يفى منها بحاجه البشرية في عصر الإسلام، مثل بيان حقيقه التوحيد و طهاره الأنبياء و تنزههم عمّا نسب إليهم في التوراه و الإنجيل المزورين، كما بيّن تحريم الربا، و الخمره و أمثالهما، بينما بقيت حقائق تخص الأمم السابقه و الأزمنه الغابره ممّا لا أثر لذكرها في تربيّه الأجيال الإسلاميه، فلم يتمّ التطرق إليها.

و تشير الآيه الكريمة -أيضاً- إلى أهميه و عظمه القرآن المجيد و آثاره العميقه في هدايه و إرشاد و تربيّه البشريه، فتقول: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ النور الذي يهدى به الله كل من يتغى كسب مرضاته إلى سبل السلام، كما تقول الآيه الأخرى: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ... و ينقذهم من أنواع الظلمات (كظلمه الشرك و ظلمه الجهل و ظلمه التفرقه و النفاق و غيرها...) و يهديهم إلى نور التوحيد و العلم و الاتحاد، حيث تقول الآيه:

وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ...

و إضافه إلى ذلك كلّه يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج و لا انحراف في جانبيه العقائدى و العملى أبداً، كما تقول الآيه: وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

لقد اختلف المفسّرون في المعنى المراد من كلمه «النور» الوارده في الآيه، فذهب البعض منهم إلى أنّها تعنى شخص النبي محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم، و قال مفسرون آخرون: إنّ المعنى بالنور هو القرآن المجيد.

و حين نلاحظ آيات قرآنيه عديده تشبه القرآن بالنور، يتبيّن لنا أنّ كلمه «النور» الوارده في الآيه -موضوع البحث- إنّما تعنى القرآن، و على هذا الأساس فإنّ عطف عباره «كتاب مبين» على كلمه «النور» يعتبر من قبيل عطف التوضيح،

كما نقرأ فى الآيه (٥٧) من سورة الاعراف: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى اُنزِلَ مَعَهُ اُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ  
وفى الآيه (٨) من سورة التغابن نقرأ ما يلى: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى اُنزِلَ... و آيات عديده اخرى تشير الى نفس  
المعنى، بينما لا نجد فى القرآن آيه اطلقت فيها كلمه النور على شخص النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

و اضافه الى ما ذكر فى ان الضمير المفرد الوارد فى عبارته «به» الوارده فى الآيه الثانيه من الآيتين الأخيرتين، يؤكد هذا الموضوع  
أيضا، و هو أن النور و الكتاب المبين هما إشارتان لحقيقته واحده.

و مع اننا نجد روايات عديده تفسر كلمه «النور» على أنها إشاره الى الإمام على بن أبى طالب أمير المؤمنين عليه السلام أو الأئمه  
الإثنى عشر عليهم السلام جميعهم، لكن الواضح هو أن هذا التفسير يعتبر من باب بيان بواطن الآيات، لأننا كما نعلم أن للآيات  
القرآنيه-بالإضاافه الى معانيها الظاهريه-معان باطنيه يعبر عنها ب«بواطن القرآن» أو «بطون القرآن»، و دليل قولنا هذا أن الأئمه  
عليهم السلام لم يكن لهم وجود فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لكى يدعو القرآن أهل الكتاب للإيمان بهم.

أمّا الأمر الثانى الوارد فى الآيه الثانيه من الآيتين الأخيرتين، فهو أن القرآن يبشر أولئك الذين يسعون لكسب مرضاه الله بأنهم  
سيحفظون فى ظل القرآن بنعم عظيمه ثلاثه هى:

أولاً: الهدايه الى سبل السلامه التى تشمل سلامه الفرد و المجتمع، و الروح و الجسد و العائله، و السلامه الأخلاقيه، و كل هذه  
الأمر تدخل فى الجانب العملى من العقيدته.

و ثانيا: نعمه النجاه من ظلمات الكفر و الإلحاد.

و ثالثا: الهدايه الى النور، و فى هذا دلالة على الطابع العقائدى، و يتم كل ذلك من خلال أقصر و أقرب الطرق و هو الذى أشارت  
إليه الآيه ب الصراط المستقيم .

و بديهي أن هذه النعم لا- يحظى بها إلا- من أسلم وجهه لله، و خضع للحق بالعبوديه و الطاعه، و كان مصداقا للعباره القرآنيه القائله: مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ <sup>□</sup> بَيْنَمَا لَا يَحْضَى الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُعَانِدُونَ وَ أَعْدَاءَ الْحَقِّ بِأَيِّ فَائِدَةٍ مُطْلَقًا، كما تشير إلى ذلك آيات قرآنيه عديده.

و بديهي- أيضا- أن كل هذه النتائج و الآثار، إنما تحصل بمشيئه الله و إرادته وحده دون سواه، كما تشير عبارته «بإذنه» الوارده فى الآيه الأخيره.

ص: ٦٤٨



اشاره

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي  
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)

التفسير

اشاره

كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله!؟

جاءت هذه الآيه الكريمه لتكمل بحثا تطرقت إليه آيات سابقه، فحملت بعنفٍ على دعوى ربوبيه المسيح عليه السلام، و بينت أن هذه الدعوى ما هي إلا الكفر الصريح، حيث قالت: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... .

و لكي يتضح لنا مفهوم هذه الجملة، يجب أن نعرف أن للمسيحيين عدّه دعاوى باطله بالنسبه إلى الله سبحانه و تعالى.

فهم أولًا: يعتقدون بالآلهه الثلاث (أى الثلاث) و قد أشارت الآيه (١٧١) من سوره النساء إلى هذا الأمر حيث قالت: لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً  
انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ

و ثانياً: إنهم يقولون: إن خالق الكون و الوجود هو واحد من هؤلاء الآلهة الثلاث و يسمونه بالإله الأب (٢) و القرآن الكريم يبطل هذا الاعتقاد-أيضاً- في الآية (٧٣) من سورة المائدة حيث يقول: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ... و سيأتي بإذن الله تفسير هذه الآية قريبا في نفس هذا الجزء.

و ثالثاً: إن المسيحيين يقولون: إن الآلهة الثلاث مع تعددهم الحقيقي هم واحد، حيث يعبرون عن ذلك أحيانا بـ«الوحده في التثليث»، و هذا الأمر أشارت إليه الآية الأخيرة حيث قالت حكاية عن دعوى المسيحيين: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... و قالوا: إن المسيح ابن مريم هو الله! و إن هذين الإثنين يشكلان مع روح القدس حقيقه واحده في ذوات ثلاثه متعدده! و قد ورد كل جانب من جوانب عقيدة التثليث، الذي يعتبر من أكبر انحرافات المسيحيين في واحده من الآيات القرآنيه، و نفى نفيا شديدا (راجع تفسير الآية ١٧١- من سورة النساء من تفسيرنا هذا و فيه التوضيح اللازم في بيان بطلان عقيدة التثليث).

و يتبين-مما سلف- أن بعض المفسرين مثل «الفخر الرازي» قد توهموا في قولهم بعدم وجود أحد من النصارى ممن يصرح باعتقاده في اتحاد المسيح بالله، و ذلك لعدم إمام هؤلاء المفسرين بالكتب المسيحيه، مع أن المصادر المسيحيه المتداوله تصرح بقضيه «الوحده في التثليث» و من المحتمل أن مثل هذه الكتب لم تكن متداوله في زمن الرازي، أو أنها لم تصل إليه و إلى أمثاله الذين شاركوه

ص: ٦٥٠

(١-١) - لقد مضى تفسير هذه الآية في بدايه هذا الجزء من تفسيرنا.

(٢-٢) - نقرأ في المصادر المسيحيه أن «الإله الأب» هو خالق جميع الكائنات (قاموس الكتاب المقدس، الصفحه ٣٤٥) كما نقرأ أن الرب هو الموجود بنفسه، و إن هذا هو اسم خالق جميع المخلوقات و حاكم كل الكائنات، و إنه هو الروح اللامتناهيه الأزليه الأبدية... (قاموس الكتاب المقدس، ص ٣٤٤).

فى هذا الرأى.

بعد ذلك و لكى تبطل الآيه الكريمه عقيدته ألوهيه المسيح عليه السّلام تقول: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْمَآرِضِ جَمِيعًا ... و هذه إشاره إلى أنّ المسيح عليه السّلام إنّما هو بشر كأمه و كسائر أفراد البشر، و على هذا الأساس فهو يعتبر-لكونه مخلوقا-فى مصاف المخلوقات الأخرى يشاركها فى الفناء و العدم، و من حاله كهذا كيف يمكنه أن يكون إلهًا أزليا أبديًا؟! و بتعبير آخر: لو كان المسيح عليه السّلام إلهًا لاستحال على خالق الكون أن يهلكه، و تكون نتيجة ذلك أن تتحدد قدره هذا الخالق، و من كانت قدرته محدوده لا يمكن أن يكون إلهًا، لأنّ قدره الله كذاته لا تحدّها حدود مطلقًا (تدبّر جيدا).

إنّ ذكر عباره «المسيح بن مريم» بصوره متكرره فى الآيه، قد يكون إشاره إلى هذه الحقيقه، و هى اعتراف المسيحيين بنوّه المسيح عليه السّلام لمريم، أى أنّه ولد من أم و أنّه كان جنينا فى بطن أمه قبل أن يولد، و حين ولد طفلا-احتاج إلى النمو ليصبح كبيرا، فهل يمكن أن يستقر الإله فى محيط صغير كرحم الأم، و يتعرض لجميع تحولات الوجود و الولاده و يحتاج للأمّ حين كان جنيا و حين الرضاعه؟! و الجدير بالانتباه أنّ الآيه الأخيره تذكر بالإضافه إلى اسم المسيح عليه السّلام اسم أمّه و تذكرها بكلمه «أمه» و بهذه الصوره تميز الآيه أمّ المسيح عليه السّلام عن سائر أفراد البشر، و يحتمل أن يكون هذا التعبير بسبب أنّ المسيحيين أثناء ممارستهم للعباده، يعبدون أمّ المسيح أيضا، و الكنائس الموجوده اليوم تشتمل على تماثيل لأمّ المسيح، حيث يقف المسيحيون أمامها تعظيما و تعبدا.

و إلى هذا الأمر تشير الآيه (١١٦) من سوره المائده فتقول: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ... و هذا الخطاب حكايه عمّا يحصل من حوار فى يوم القيامه.

و فى الختام ترد الآيه الكريمه على أقوال أولئك الذين اعتبروا ولاده المسيح

من غير أب دليلا على ألوهيته فتقول: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فالله قادر على أن يخلق إنسانا من غير أب و من غير أم كما خلق آدم عليه السلام، و هو قادر أيضا على أن يخلق إنسانا من غير أب كما خلق عيسى المسيح عليه السلام، و قدره الله هذه كقدرته فى خلق البشر من آبائهم و أمهاتهم، و هذا التنوع فى الخلق دليل على قدرته، و ليس دليلا على أى شىء آخر سوى هذه القدره.

ص: ٦٥٢

اشاره

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)

التفسير

استكمالا للبحوث السابقه التي تناولت بعض انحرافات اليهود و النصارى، تشير الآيه الأخيره إلى أحد الدعوى الباطله التي تمسك بها هؤلاء،فتقول:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ

و لم يكن هذا الامتياز الوهمى الذى ادعاه اليهود و النصارى لأنفسهم هو الوحيد من نوعه، إذ أن القرآن الكريم قد أشار فى آيات عديده إلى أمثال هذه الادعاء.

ففى الآيه (١١١) من سوره البقره، أشار القرآن إلى ادعائهم الذى زعموا فيه أن أحدا غيرهم لا يدخل الجنه، و زعموا أن الجنه هى حكر على اليهود و النصارى، و قد فند القرآن هذه الادعاء.

كما جاء الآيه (٨٠) من سوره البقره ادعاء آخر لليهود، و هو زعمهم أن نار

جهنم لن تمسهم إلا في أيام معدوده، وقد وبخهم القرآن على زعمهم هذا.

و في الآيه الأخيره يشير القرآن الكرم إلى ادعائهم البنوه لله، و زعمهم أنهم أحياء لله، و لا- شك أن هؤلاء لم يعرفوا أنفسهم كأبناء حقيقيين لله، بل إن المسيحيين و حدهم يدعون أن المسيح هو الابن الحقيقي لله، و قد صرحوا بهذا الأمر (1) و أنهم حين اختاروا لأنفسهم صفه البنوه لله و أدعوا بأنهم الله إنما ليظهروا بأن لهم علاقه خاصه بالله سبحانه، و كأنهم أرادوا كل من ينتمى إليهم انتماء قوميا أو عقائديا يصبح من أبناء الله و أحيائه حتى لو لم يقم بأى عمل صالح. (2)

و واضح لدينا أن القرآن الكريم حارب كل هذه الامتيازات و الدعاوى الوهميه، فهو لا يرى للإنسان امتيازاً إلا بالإيمان و العمل الصالح و التقوى، و لذلك تقول الآيه الأخيره في تنفيذ و إبطال الادعاء الأخير: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ فَمَا لَهُمْ قُلُوبٌ بِحَسَبِ اعْتِرَافِهِمْ أَنفُسِهِمْ-يشملهم العذاب الإلهي حيث قالوا بأن العذاب يمسهم لأيام معدوده، فكيف يتلاءم ذلك الادعاء و هذا الاعتراف؟ و كيف يمكن أن يشمل عذاب الله أبناءه و أحياءه؟! و من هنا يثبت أن لا أساس و لا صحه لهذا الادعاء، و قد شهد تاريخ هؤلاء على أنهم حتى في هذه الدنيا ابتلوا بسلسله من العقوبات الإلهيه، و يعتبر هذا دليلاً آخر على زيف و بطلان دعواهم تلك.

و لكي تؤكد الآيه الكريمه زيف و بطلان الدعوى المذكوره استطردت تقول:

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ...

و القانون الإلهي عام، فإن الله يُعَفِّرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ... .

و بالإضافة إلى ذلك فإن كل البشر هم من خلق الله، و هم عباده و أرقاؤه، و على هذا الأساس ليس من المنطق إطلاق اسم «ابن الله» على أى منهم، حيث

ص: ٦٥٤

- ١- ١) -تقول المصادر المسيحيه بأن عبارته «ابن الله» هي فقط من ألقاب منقذ المسيحيين وفاديههم، و إن هذا اللقب لا يطلق على أحد غيره إلا إذا دلت القرينه على أن المراد ليس البنوه الحقيقيه لله (قاموس الكتاب المقدس، ص ٣٤٥).
- ٢- ٢) -ظهرت في الآونه الأخيره لدينا مجموعه تبشر للمسيحيه و تسمى نفسها جماعه «ابن الله».

تقول الآية: وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَ الْاَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا... .

و فى النهايه تعود المخلوقات كلها الى الله، حيث تؤكد الآية هنا بقولها:

وَ اِلَيْهِ الْمَصِيْرُ

و قد يسأل البعض: أين و متى ادعى اليهود و النصارى أنهم أبناء الله حتى لو كان معنى البنوه فى هذه الآية هو معنى مجازى و غير حقيقى).

الجواب هو أنّ الأناجيل المتداوله قد ذكرت هذه العبارة، و يلاحظ ذلك فيها بصورة متكرره، من ذلك ما جاء فى إنجيل يوحنا فى الإصحاح ٨-الآيه ٤١ و ما بعدها، حيث نقرأ على لسان عيسى فى خطابه لليهود قوله: «إنكم تمارسون أعمال أبيكم، فقال له اليهود: نحن لم نولد من الزنا و إن أبانا واحد و هو الله! فقال لهم عيسى: لو كان أبوكم هو الله لكنتم احببتمونى...».

و قد ورد فى الروايات الإسلاميه-أيضا- فى حديث عن ابن عباس مضمونه أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم دعا جمعا من اليهود إلى دين الإسلام و حذّره من عذاب الله، فقال له اليهود: كيف نخوفنا من عذاب الله و نحن أبناءه و أحباؤه (١)! و ورد فى تفسير مجمع البيان، فى تفسير الآية موضوع البحث، حديث على غرار الحديث المذكور أعلاه، مضمونه أنّ جمعا من اليهود حين هددهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعذاب الله قالوا: لا تهددنا فنحن أبناء الله و أحباؤه، و هو إن غضب علينا يكون غضبه كغضب الإنسان على ولده، و هو غضب سريع الزوال.

ص: ٦٥٥

اشاره

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَنَّ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ  
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

التفسير

اشاره

تكرر هذه الآيه الخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود و النصارى، فتبين لهم أن النبي المرسل إليهم مرسل من عند الله، أرسله في عصر ظلت البشريه قبله فتره دون أن يكون لها نبي، فبين لهم هذا النبي الحقائق، لكي لا يقولوا بعد هذا إن الله لم يرسل إليهم من يهديهم إلى الصراط السوي و يبشرهم بلطف الله و رحمته و يحذرهم من الانحراف و الاعوجاج، و ينذرهم بعذاب الله، حيث تقول الآيه: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَنَّ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ... .

نعم، فالبشير و النذير هو نبي الإسلام محمد صلى الله عليه و آله و سلم الذي يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات برحمه الله و ثوابه، و ينذر الذين كفروا و العاصين بعذاب الله و عقابه، و قد جاء ليبشر و لينذر أهل الكتاب و البشريه جمعاء، حيث تؤكد الآيه هذا بقوله تعالى: فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ .



أمّا كلمه «فتره» الوارده فى الآيه فهى تعنى فى الأصل الهدوء و السكينه كما تطلق على الفاصله الزمنيه بين حركتين أو جهدين أو نهضتين أو ثورتين.

و قد شهدت الفاصله الزمنيه بين موسى عليه السلام و عيسى عليه السلام عددا من الأنبياء و الرسل، بينما لم يكن الأمر كذلك فى الفاصله الزمنيه بين عيسى عليه السلام و النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و لذلك أطلق القرآن الكريم على هذه الفاصله الأخيره اصطلاح فتره من الرُّسل و المعروف أن هذه الفتره دامت ستمائه عام تقريبا (1).

أمّا ما جاء فى القرآن- فى سوره يس الآيه ١٤- و ما ذكره المفسرون، فيدلان على أنّ ثلاثه من الرسل- على الأقل- قد بعثوا فى الفاصله الزمنيه بين النبى عيسى عليه السلام و نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و قد ذكر البعض أنّ أربعة من الرسل بعثوا فى تلك المده، و على أى حال لا بدّ أن تكون هناك فتره خلت من الرسل بين وفاه أولئك الرسل و النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و لذلك عبر القرآن عن تلك الفتره الخاليه من الرسل بقوله: **عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ** .

### سؤال:

و قد يعترض البعض بأنّه كيف يمكن القول بوجود مثل تلك الفتره مع أنّ الاعتقاد السائد لدينا يقضى بأن المجتمع البشرى لا يمكن أن يخلو و لو للحظه من رسول أو إمام معين من قبل الله سبحانه و تعالى؟

### الجواب:

إنّ القرآن الكريم حين يقول: **عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ** إنّما ينفى وجود الرسل فى تلك المده، و لا يتنافى هذا الأمر مع القول بوجود أوصياء للرسل فى ذلك الوقت.

ص: ٦٥٧

١- ١) - و يرى البعض أنّ هذه الفتره تبلغ أكثر من ستمائه عام، و آخرون يرون أنّها أقل من هذه المده و استنادا على قول البعض فإنّ الفاصله الزمنيه بين ولاده المسيح عليه السلام و هجره نبى الإسلام محمد صلى الله عليه و آله و سلم و وفق التاريخ الميلادى تبلغ ٦٢١ عاما و ٩٥ يوما (تفسير ابن الفتوح الرازى، ج ٤، هامش الصفحه ١٥٤).

و بعبارة أخرى، فإنّ الرسل هم أشخاص كانوا يمارسون الدعوه على نطاق واسع، وكانوا يبشرون و يندرون الناس، و يثرون الحركة و النشاط فى المجتمعات، و يوقظونها من سباتها بهدف إيصال نداءهم الى الجميع، بينما لم يكن جميع أوصياء الرسل ليحملوا مثل تلك المهمه، بل يحتمل -أيضا- إنهم لظروف و عوامل اجتماعيه خاصه، كانوا يعيشون بين الناس أحيانا متخفين متنكرين.

و

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى إحدى خطبه الوارده فى كتاب «نهج البلاغه» فى هذا المجال ما يلى: «اللهم بلى، لا- تخلو الأرض من قائم لله بحجه إما ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا لئلا تبطل حجج الله و بيناته، يحفظ الله بهم حججه و بيناته حتى يودعوها نظراءهم و يزرعوها فى قلوب أشباههم» (١).

و واضح أن المجتمع البشرى لو خلى من الرسل الثورين و الدعاه العالمين، لعمت هذه المجتمع الخرافات و الوسوس الشيطانيه و الانحرافات و الجهل بالتعاليم الإلهيه، و تكون مثل هذه الحاله خير حجه بأيدي أولئك الذين يريدون الفرار و التخلي عن المسؤوليات، لذلك فإن الله يبطل هذه الحجه عن طريق الرجال الرساليين المرتبطين به و الموجودين دائما بين أبناء البشر.

و فى الختام تؤكد الآيه على شموليه قدره الله عزّ و جلّ فتقول: <sup>□</sup> وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و هذا بيان بأنّ إرسال الأنبياء و الرسل و تعيين أوصيائهم أمر يسير بالنسبه لقدره الله العزيز المطلقه.

ص: ٤٥٨

وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَ جَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَ اتَّأَمَّكُمْ مِّلًا لَّمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ اذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَرْتَدُوا عَلَيَّ أَذْبَارِكُمْ فَتَتَّقُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنِّ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمُوهَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)

## بنو إسرائيل و الأرض المقدسة:

جاءت هذه الآيات لتشير لدى اليهود دافع التوجه إلى الحق و السعى لمعرفة أولاه، و إيقاظ ضمائرهم حيال الأخطاء و الآثام التي ارتكبوها ثانياً، و لكي تحفزهم إلى السعى لتلافي أخطائهم و التعويض عنها، و يذكرهم القرآن في الآيه الأولى بما قاله النبي موسى عليه السلام لأصحابه حيث تقول: **وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...**

و لا- يخفى أن عبارته (نعمة الله) تشمل جميع الأنعم الإلهيه، لكن الآيه استطرقت فبيّنت ثلاثاً من أهم هذه النعم، أولها نعمة ظهور أنبياء و قاده كثيرين بين اليهود، و التي تعتبر أكبر نعمة و هبتها الله لهم، فتقول الآيه: **إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءً...** و قد نقل أن في زمن موسى بن عمران وحده كان يوجد بين اليهود سبعون نبياً، و إن السبعين رجلاً- الذين ذهبوا مع موسى عليه السلام إلى جبل «الطور» كانوا كلهم بمنزلة الأنبياء.

و في ظل هذه النعمة (نعمة وجود الأنبياء) نجى اليهود من هاويه الشرك و الوثنيه و عباده العجل و تخلصوا من مختلف أنواع الخرافات و الأوهام و القبائح و الخبائث، لذلك أصبحت هذه النعمة أكبر النعم المعنويه التي أنعم الله بها على بني إسرائيل.

بعد هذا تشير الآيه إلى أكبر نعمة ماديه و هبتها الله لليهود فتقول: **وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا...** و تعتبر هذه النعمة- أيضاً- مقدمه للنعم المعنويه، فقد عانى بنو إسرائيل لسنين طويله من ذل العبوديه في ظل الحكم الفرعوني، فلم يكونوا ليمتلكوا في تلك الفتره أى نوع من حريه الإراده، بل كانوا يعاملون معاملة البهائم المكبله في القيود، و قد أنقذهم الله من كل تلك القيود ببركه النبي موسى بن عمران عليه السلام و ملكهم مصائرهم و مقدراتهم.

و قد ظن البعض أنّ المراد من كلمه «الملوك» الوارده فى الآيه هم المملوك و السلاطين الذين ظهوروا من سلاله بنى إسرائيل، فى حين أنّ المعروف هو أنّ بنى إسرائيل لم يحكموا إلاّ- فتره قصيره، فلم يحظ منهم إلاّ القليل بمنزله الملوكيه، بينما الآيه- موضوع البحث- تقول: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَ هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَمَتُّعِ جَمِيعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهَذِهِ الْمَنْزَلَةِ، وَ يَتَبَيَّنُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْمُرَادَ بِكَلِمَةِ «مُلُوكٍ» الْوَارِدَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَمَلَّكُوا مَصَائِرَهُمْ وَ مَقْدَارَتَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبَلِينَ بِقِيُودِ الْعِبُودِيَّةِ فِي ظِلِّ الْحُكْمِ الْفِرْعَوْنِيِّ.

إضافه إلى ذلك فإنّ كلمه «ملك» فى اللغه لها معان عديده منها «السلطان» و منها «المالك لزمان الأمور» و منها- أيضا- «المالك لرقبه شىء معين (1)» .

و

نقل فى تفسير «الدر المنثور» عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم حديثا جاء فيه: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم و دابه و امرأه كتب ملكا...».

و تشير هذه الآيه فى اخرها إلى أنّ الله قد وهب بنى إسرائيل فى ذلك الزمان نعماء لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر فى ذلك الحين فتقول: وَ أَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ وَ كَانَتْ هَذِهِ النِّعْمُ وَ الْوَافِرُ كَثِيرُهُ الْأَنْوَاعِ، فَمِنْهَا نَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مَخَالِبِ الْفِرَاعِنَةِ الطَّغَاهِ، وَ انْفِلَاقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَ نَزُولِ غِذَاءٍ خَاصٍ عَلَيْهِمْ مِثْلَ «المن و السلوى»، و قد أوردنا تفاصيل ذلك فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا، لدى تفسير الآيه (٥٧) من سوره البقره.

و الآيه التاليه تبين واقعه دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسه نقلا عن لسان نبيهم موسى عليه السلام فتقول: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَزِدُّوا عَلَيَّ أَدْبَارَكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ .

و قد اختلف المفسرون حول المراد بعبارته (الأرض المقدسه) الوارده فى الآيه،

ص: ٦٦١

(١- ١) -نقرأ فى كتب أن الملك هو «من كان له الملك، و الملك هو ما يملكه الإنسان و يتصرف به- أو- العظمه و السلطه».

و حول موقعها الجغرافى من العالم.

فيرى البعض أنها أرض «بيت المقدس» حيث القدس الشريف، و آخرون يرون أنها «أرض الشام» و فئه ثالته ترى أنها «الأردن و فلسطين» و جماعه أخرى تقول أنها أرض «الطور».

و لكن لا يستبعد أن يكون المراد من العبارة المذكوره كل أرض الشام التى تشمل جميع الاحتمالات الوارده، لأن هذه الأرض - كما يشهد التاريخ - تعتبر مهذا للأنبياء، و مهبطا للوحى، و محلا لظهور الأديان السماويه الكبرى، كما أنها كانت لفترت طوال من التاريخ مركزا للتوحيد و عباده الله الواحد الأحد، و نشر تعاليم الأنبياء... لهذه الأسباب كلها سميت ب«الأرض المقدسه» مع أن هذا الاسم يطلق عن منطقته «بيت المقدس» بصوره خاصه أحيانا (و قد بينا هذا الأمر فى الجزء الأول من كتابنا هذا).

□  
و يستدل من جمله كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ... إِنَّ اللَّهَ قد قرر أن يعيش بنو إسرائيل فى الأرض المقدسه بالرغد و الرخاء و الرفاه (شريطه أن يحموا هذا الأرض من دنس الشرك و الوثنيه) و أن لا ينحرفوا (عن تعاليم الأنبياء) إن لم يلتزموا بهذا الأمر سيحيط بهم من قبل الله عذاب أليم شديد.

و على هذا الأساس لا يوجد أى تناقض بين فشل جيل من بنى إسرائيل الذين خوطبوا بهذه الآيه فى دخول الأرض المقدسه، و ابتلائهم بالتيه و الضياع لمدته أربعين عاما فى الصحارى و القفار، حتى نجح الجيل التالى من بعدهم بدخول تلك الأرض، لا يوجد أى تناقض بين ما ذكر و بين جمله كتب الله عليكم... لأن هذا التقدير الإلهى و القرار الربانى إنما قيد بشروط لم ينفذها ذلك الجيل الأول من بنى إسرائيل، و توضح هذا الأمر الآيات التالیه.

و قد واجه بنو إسرائيل دعوه موسى عليه السلام للدخول إلى الأرض المقدسه مواجهه الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الانتصارات فى

ظل الصدف و المعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد في هذا المجال، و ردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السّلام بقولهم كما تنقله الآية: **قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ (١)** وَ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ .

و يدل جواب بنى إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذى خلفه الحكم الفرعونى على نفوس هؤلاء فإنّ فى كلمه «لن» التى تفيد التأييد دلالة على الخوف و الرعب العميقين اللذين استوليا على هذه الطائفة ممّا أرغمهم على الامتناع عن الدخول فى أى صراع من أجل تحرير الأرض المقدسه و تطهيرها.

و كان على بنى إسرائيل أن يحرروا تلك الأرض بكفاحهم و تضحياتهم، أمّا لو أنّ الأعداء تركوا الأرض المقدسه أو أبيدوا فيها بمعجزه على خلاف السنه الإلهيه الطبيعيه، فإن بنى إسرائيل بدخولهم إليها فى مثل هذه الحاله دون أى عناء أو مشقه- كانوا سيواجهون العجز فى إداره تلك الأرض الواسعه الغنيه، و لم يكونوا لبيدوا أى اهتمام بالحفاظ على شىء حصلوا عليه دون جهد أو معاناه، فلا يظهر لديهم و الحاله هذه أى استعداد أو كفاءه لعمل ذلك.

أمّا المراد من عباره قَوْمًا جَبَّارِينَ فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقه» (٢) الذين كانوا يمتلكون أجساما ضخمه، و كانت لهم أطوال خارقه، بحيث ذهب الكثير إلى المبالغه فى طول أجسام هؤلاء و صنعوا الأساطير

ص: ٦٦٣

١- ١) -يجب الانتباه إلى أنّ كلمه «جبار» مأخوذه أو مشتقه من الأصل (جبر) أى إصلاح الشىء بالقسر و الإرغام، و لذلك سمى إصلاح العظم المكسور (تجبيراً) فهذه الكلمه تطلق من جهه على كل نوع من التجبير و الإصلاح، و من جهه أخرى تطلق على كل أنواع التسلط القسرى، و حين تطلق كلمه (جبار) على الله سبحانه و تعالى فذلك إمّا لتسلطه على كل شىء، أو لأنه هو المصلح لكل موجود محتاج إلى الإصلاح.

٢- ٢) -العمالقه قوم من العنصر السامى يعيشون فى شمال شبه جزيره العرب بالقرب من صحراء سيناء، و قد هاجموا معصر و استولوا عليها لفترات طويله و دامت حكومتهم حوالى ٥٠٠ عام منذ عام ٢٢١٣ قبل الميلاد حتى عام ١٧٠٣ قبل الميلاد. عن دائره المعارف لفريد وجدى، ج ٦٠، ص ٢٣٢ (الطبعه الثالثه).

الخرافيه من ذلك، وكتبوا فيهم مواضيع تثير السخرية لا يسندها أى دليل علمى، و بالأخص فيما كتبه عن المدعوب «عوج» فى التواريخ المصطنعه المشوبه بالخرافات و الأساطير.

و يبدو أن مثل هذه الخرافات التى تسربت حتى إلى بعض الكتب الإسلاميه، و إنما هى من صنع بنى إسرائيل، و التى تسمى عادة ب«الإسرائيليات» و الدليل على هذا القول هو ما ورد نصا فى التوراه المتداوله من أساطير خرافيه تشبه أساطير العمالقه، نقرأ فى سفر الأعداد فى أواخر الفصل الثالث عشر «إن الأرض التى ذهب بنو إسرائيل إليها لاستقصاء أخبارها هى أرض تبيد ساكنيها و إن جميع من فيها هم أناس طوال و فيهم العمالقه من أبناء «عناق» بشكل كان بنو إسرائيل الذين ذهبوا للتجسس هناك أشبه بالجراد قياسا بأحجام العمالقه الموجودين فى تلك الأرض!».

بعد هذا الحديث يشير القرآن الكريم إلى رجلين أنعم الله عليهما بالإيمان و التقوى و الورع و شملهما بنعمه الكبيره، فجمعا صفات الشجاعه و الشهامه و المقاومه مع الدرك الاجتماعى و العسكرى مما دفعهما إلى الدفاع عن اقتراح النبى موسى عليه السلام فواجهها بنى إسرائيل بقولهما: ادخلوا عليهم من باب المدينه، و حين تدخلون عليهم سيواجهون الأمر الواقع فتكونون أنتم المنتصرون، تقول الآيه الكريمه فى هذا المجال: قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ .

و تؤكد الآيه -بعد ذلك على ضروره الاعتماد على الله فى كل خطوه من الخطوات، و الاستمداد من روح الإيمان بقوله تعالى: وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .

و ما ذكره أغلب المفسرين حول هويه هذين الرجلين هو أنهم «يوشع بن نون» و «كالب بن يوحنا» و هما من النقباء الإثنى عشر فى بنى إسرائيل، كما ورد



مع كل الاحتمالات العديده الوارده فى تفسير جملة مَنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ إِلَّا- أَنَّ الواضح من ظاهر هذه الجملة، هو أَنَّ الرجلين المذكورين فى الآيه هما من جماعه تخاف الله و تخشاه وحده دون غيره، و يؤيد هذا التفسير ما جاء فى جملة أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا... فأى نعمه أكبر و أرفع من أن يخاف الإنسان من الله وحده و لا يخشى أحدا سواه.

و قد يسأل سائل فى هذا المجال عن مصدر علم هذين الرجلين، و كيف أنهما علما أن بنى إسرائيل ستكون لهم الغلبه إن هم دخلوا المدينه-أو الأرض المقدسه-فى هجوم مباغت؟ و جوابه:لعل علم هذين الرجلين بتلك الغلبه كان نابعا من ثقتهما بأقوال النبى موسى عليه السلام أو أنهما اعتمدا على قاعده كليه فى الحروب، مفادها أن الجماعه المهاجمه إن استطاعت الوصول إلى مقر و مركز العدو-أى تمكنت من محاربه العدو فى داره-فإنها ستنصر عليه (٢) عاده.

و المستهدفون فى تلك الحرب هم قوم المعالقه، و هم بسبب ما كانوا عليه من طول خارق، كان أسهل عليهم أن يحاربوا فى بر أو فضاء مفتوح بدل الحرب فى مدينه، فيها-بحسب العاده-الأزقه و الطرق الملتوبه (بغض النظر عن الجوانب الأسطوريه التى تتحدث عن الطول الخارق لهؤلاء المعالقه)، أضف إلى ذلك كله أَنَّ المعالقه-كما نقل-كانوا على رغم قاماتهم الطويله أناسا جبناء رعاعيد، يرهبهم كل هجوم مباغت، و كل هذه الأسباب أصبحت دليلا قويا لدى الرجلين المذكورين ليقولا بحتميه انتصار بنى إسرائيل.

ص: ٦٦٥

١-١) -الباب الأول من سفر التثنيه فى التوراه المتداوليه، فيه إشاره إلى أَنَّ اسمى هذين الرجلين هما «يوشع» و «كاليب».

٢-٢) -و قد أشار الإمام على بن أبى طالب فى إحدى خطبه الوارده فى كتاب نهج البلاغه التى هذه الحقيقه بقوله عليه السلام: (فو الله ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا) (الخطبه ٢٧).

و الذى حصل حقيقه هو أنّ بنى إسرائيل لم يقتنعوا بأى من الاقتراحات المذكوره، فهم بسبب الضعف و الجبن المتأصلين فى نفوسهم خاطبوا موسى عليه السّلام و أخبروه صراحه بأنّهم لن يدخلوا تلك الأرض ما دام العمالقه موجودين فيها، و طالبوا موسى أن يذهب هو و ربه لمحاربه العمالقه و سألوه أن يخبرهم عن انتصاره حيث هم قاعدون، و فى هذا المجال تقول الآيه الكريمه: **قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .**

و تبين هذه الآيه مدى الوقاحه التى وصل إليها بنو إسرائيل فى مخاطبه نبيهم موسى عليه السّلام، فهم بقولهم «لن» و «أبدا» أكدوا رفضهم القاطع للدخول إلى الأرض المقدسه، كما أنّهم استخفوا بموسى عليه السّلام و دعوته و استهزءوا بهما، بقولهم: **فَادْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا- إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ...** كما أنّهم-أيضا-لم يعيروا التفاتا لاقتراح الرجلين المؤمنين المذكورين فى الآيه، و لم يبدوا حيال ذلك أى جواب.

و الطريف فى الأمر أن التوراه المتداوله قد أوردت أجزاء مهمّه من هذه القصه، فى الباب الرابع عشر من سفر الأعداد، حيث جاء فيها أن جميع بنى إسرائيل لاموا موسى و هارون أخاه و قالوا جميعا: ليتنا متنا جميعا فى أرض مصر أو فى الفلاه، فلما ذا جاء بنا الرّب إلى هذه الأرض لكى نقتل بحدّ السيف، و تسي عيالنا و أطفالنا بعدنا... فحار موسى و أخاه هارون أمام القوم، ما ذا يفعلان؟ أمّا يوشع بن نون و كاليب بن يفته، اللذان كانا من مجموعه الرجال الذين ذهبوا للتجسس على تلك الأرض فقد شقا جييهما...

ثمّ نقرأ فى الآيه التاليه أنّ موسى أصابه اليأس و القنوط من القوم، و رفع يديه للدعاء مناجيا ربّه قائلا: **إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ حَرِيهَ التَّصَرَّفِ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ وَ أَخِيهِ، وَ طَلَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَهُمَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ الْعِصَاهُ، لَكِي يَلْقَى هَؤُلَاءِ جِزَاءَ أَعْمَالِهِمْ وَ يَبَادِرُوا إِلَى إِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ،** حيث تقول الآيه الكريمه فى هذا المجال:

**قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَأَفْرِقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**

و بديهي إن رفض بنى إسرائيل القاطع لأمر نبيهم كان بمثابة الكفر، و ما استخدام القرآن لعبارة «الفاسق» بحق هؤلاء إلا لأن كلمه «الفسق» لها معان واسعة، و تشمل كل خروج و انحراف عن سنه العبوديه لله، و لذلك نقرأ فى القرآن الكريم- حين التحدث عن انحراف الشيطان- قول الله تعالى: فَفَسَقَ عَنِّ أَمْرٍ رَبِّهِ... (١).

و تجدر هنا الإشارة إلى أن جملة: مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ... الواردة فى الآيات السابقه تدل على وجود قله من اليهود كانت تخشى الله، و منهم الرجلان المذكوران فى إحدى الآيات الأخيره و هما «يوشع» و «كاليب» بينما نلاحظ أن موسى عليه السلام لا يذكر هنا غير نفسه و أخيه، و لا يذكر و لو حتى بالتلميح أحدا من تلك القله، و قد يكون السبب هو أن هارون لكونه الوصى لأخيه موسى عليه السلام و لكونه أبرز شخصيه فى بنى إسرائيل من بعد موسى عليه السلام... لذلك ذكر اسمه دون غيره.

و كانت نتيجة صلف و عناد بنى إسرائيل أنهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب الله دعاء نبيه موسى عليه السلام، فحرم عليهم دخول الأرض المقدسه، المليئه بالخيرات مدّه أربعين عاما، و فى هذا المجال تقول الآيه القرآنيه الكريمه: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً....

و زادهم عذابا إذ كتب عليهم التيه و الضياع فى البرارى و القفار طيله تلك الفتره، حيث تقول الآيه فى ذلك: يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ... و قد سميت الصحراء التى تاه فيها بنو إسرائيل باسم «التيه» أيضا، و كانت جزءا من صحراء سيناء، كما ذكرنا فى الجزء الأول من تفسيرنا هذا.

بعد ذلك تذكر الآيه أن ما نال بنى إسرائيل من عذاب فى تلك المده، كان مناسبا لما فعلوه، و تطلب من موسى عليه السلام أن لا يحزن على المصير الذى لا قوه حيث تقول الآيه الكريمه: فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .

ص: ٦٦٧

و ربما كان سبب ورود الجملة الأخيره، هو أنّ موسى عليه السّلام قد ثارت عاطفته بعد أن علم بالعذاب الذى كتبه الله على بنى إسرائيل، فطلب من الله العفو لقومه- كما ورد فى التوراه المتداوله- فأجابه برد سريع أوضح له أن بنى إسرائيل يستحقون ذلك العذاب، و هم لا- يستحقون العفو الإلهى لأنّهم أناس فاسقون و عصاه، متكبرون، و من كان هذا شأنه سيلاقى- حتما- مثل هذا المصير.

و يجب الانتباه إلى أنّ حرمان بنى إسرائيل من الدخول إلى الأرض المقدسه، لم يكن له طابع للانتقام (كما أن جميع العقوبات الإلهيه ليس فيها طابع انتقامى، بل هى إما أن تكون لأجل تقويم شخصيه الفرد، أو تكون نتيجة لأخطائه و معاصيه.

و قد اشتمل هذا الحرمان على فلسفه خاصّه، حيث تحرر بنو إسرائيل بعد معاناه طويله قاسوها فى ظل الكبت و القمع الفرعونى اللذين خلفا فيهم عقد الإحساس باحتقار النفس و الذل و الضعه و النقص، لذلك فهم لم يبدوا استعدادا لتطهير أنفسهم و أرواحهم فى تلك الفتره بعد التحرر و فى ظل قياده و زعامه نبيّهم موسى عليه السّلام كما لم يكونوا مستعدين لتلك القفزه المعنويه التى كان من شأنها أن تهىء لهم حياه جديده مقرونه بالفخر و العز و السؤدد، و جوابهم لموسى عليه السّلام-الذى اشتمل على رفضهم الدخول إلى ميدان الجهاد التحررى فى الأرض المقدسه- خير دليل على هذه الحقيقه.

لذلك كان من الضرورى أن يعانى بنو إسرائيل من التيه و الضياع فى الصحراء، ليزول الجيل الضعيف العاجز منهم بشكل تدريجى و ليحل محله جيل جديد فى محيط الصحراء، محيط الحريره و فى أحضان التعاليم الإلهيه، و قد صقلت نفوسهم حياه الصحراء القاسيه الضاريه، و وهبت لأرواحهم و أنفسهم القوه و القدره، و أعدتهم لخوض غمار ذلك الجهاد ليقوموا بحكومته الحق فى تلك الأرض المقدسه!

اشاره

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسِطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)

التفسير

اشاره

أول حادثه قتل على الأرض:

لقد تناولت هذه الآيات الثلاث الأخيره قصه ولدى آدم عليه السلام و كيف قتل أحدهما أخاه الآخر، و لعل وجه الصله بين هذه الآيات و الآيات التي سبقتها فى شأن بنى إسرائيل، هو غريزه «الحسد» التي كانت دائما أساسا للكثير من مخالفات و انتهاكات بنى إسرائيل حيث يحذرهم الله فى هذه الآيات من مغبه و عاقبه الحسد الوخيمه القاتله، التي تؤدى أحيانا إلى أن يعمد أخ إلى قتل أخيه! و الآيه تقول فى هذا المجال لنبى الله أن يتلو على قومه قصه ولدى آدم: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ... .

و لعل استخدام كلمه «بالحق» فى هذه الآيه جاء للإشاره إلى أن القصه المذكوره قد أضيفت لها خرافات مختلفه، و لبيان أن القرآن الكريم جاء بالقصه الحقيقيه التى حصلت بين ولدى آدم عليه السلام.

و لا شك أن كلمه «آدم» الوارده فى الآيه، تشير إلى أبى البشرىه الحاضره، و إن ما ذهب إليه البعض مع أنها إشاره إلى شخص من بنى إسرائيل اسمه «آدم» لا أساس له من الواقع، لأن هذه الكلمه استخدمت مرارا فى القرآن للدلاله على اسم أبى البشرىه، فلو صح الافتراض الأخير لوجب أن تشتمل الآيه- أو الآيات- التى بعدها على قرينه تصرف الاسم عن مسماه الحقيقى الأول، و لا يمكن لآيه من أجل ذلك... التى سيأتى تفسيرها قريبا، أن تكون قرينه على الافتراض المذكور كما سيأتى تفصيله.

و تواصل الآيه سرد القصه فتقول: إِذْ قَرَّبًا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ... .

و قد أدت هذه الوقعه إلى أن يهدد الأخ-الذى لم يتقبل الله القربان منه- أخاه بالقتل و يقسم أنه قاتله لا محاله، كما جاء فى قوله تعالى فى الآيه: قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ أما الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشيرا إلى أن عدم قبول القربان منه إنما نتج عن عله فى عمله، و أنه ليس لأخيه أى ذنب فى رفض القربان، مؤكدا أن الله يقبل أعمال المتقين فقط حيث تقول الآيه: قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

و أكد له أنه لو نفذ تهديده و عمد إلى قتله، فإنه-أى الأخ الذى تقبل الله منه القربان- لن يمد يده لقتل أخيه، فهو يخاف الله و يخشاه، و لن يرتكب أو يلوث يده بمثل هذا الإثم حيث تقول الآيه: لئن بسطت إلي يديك لتقتلني ﴿٣٠﴾ أنا ببأس يدي إليك لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

و أضاف هذا الأخ الصالح-مخاطبا أخاه الذى أراد أن يقتله-أنه لا يريد أن

يتحمل آثام الآخرين، قائلا له: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ (١) بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ (أى لأنك إن نفذت تهديدك فستتحمل ذنوبى السابقه أيضا، لأنك سلبت منى حق الحياه و عليك التعويض عن ذلك، و لما كنت لا تمتلك عملا صالحا لتعوض به، فما عليك إلا أن تتحمل إثمي أيضا، و بديهي أنك لو قبلت هذه المسؤوليه الخطيره فستكون حتما من أهل النار، لأن النار هى جزاء الظالمين) كما تقول الآيه:

فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ

### نقاط مهمه يجب الانتباه لها:

١- إن القرآن الكريم لم يذكر فى هذه الآيه- و لا فى آيات أخرى- أى اسم لأبناء آدم عليه السلام: لكن الروايات الإسلاميه تدل على أن ولدى آدم المذكورين فى هذه الآيه كان اسم أحدهما «هايل» و الآخر «قاييل» و قد ورد فى سفر التكوين من التوراه فى الباب الرابع أن ولدى آدم المذكورين اسمهما «قائن» و «هايل».

و قد ذكر المفسّر المعروف «أبو الفتوح الرازى» أن هذين الاسمين قد وردا بألفاظ مختلفه، فالاسم الأوّل جاء فيه «هايل» و «هايل» و «هابل» و «هابن»، أما الاسم الثانى فجاء فيه «قاييل» و «قايين» و «قابل» و «قابن» أو «قبن»، و على أى صورته كان الاسم فإنّ الاختلاف بين الروايات الإسلاميه و نص التوراه بخصوص اسم «قاييل» نابع عن الاختلاف اللغوى، و لا يشكل أمرا مهما فى هذا المجال.

و الغريب فى الأمر أنّ أحد الكتاب المسيحيين قد أورد الاختلاف المذكور دليلا اعترض به على القرآن، فقال: إنّ القرآن أورد لفظه «قاييل» بدل «قائن»! و الجواب هو أنّ مثل هذا الاختلاف اللغوى أمر شائع و بالأخص فى مجال الأسماء- فمثلا كلمه «إبراهيم» الوارده فى القرآن قد وردت فى التوراه على شكل «أبراهام»، كما أنّ القرآن الكريم لم يأت مطلقا باسم «هايل» و «قاييل»

ص: ٦٧١

١- ١) - إن كلمه «تبوء» مشتقه من المصدر «بواء» أى «العوده».

و قد ورد هذان الاسمان فى الروايات الإسلاميه فقط (١).

٢- إنَّ المعروف عن «القربان» هو أنَّه كل شىء يحصل به التقرب إلى الله، لكن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عن ماهيه القربان الذى قدمه ولدا آدم، بينما نقلت الروايات الإسلاميه -و التوراه فى سفر التكوين، الباب الرابع- أنَّ «هايل» كان يمتلك ماشيه فاختر أفضل أغنامه و منتوجاتها للقربان المذكور، و أنَّ «قاييل» الذى كان صاحب زرع، قد اختار لقربانه أردأ الأنواع من زرعه.

٣- لم يرد فى القرآن أى توضيح عن الأسلوب الذى عرف به ابنا آدم قبول قربان أحدهما و رفض قربان الآخر عند الله - و الذى ورد فى هذا المجال هو ما نقلته بعض الروايات الإسلاميه من أنَّ هذين الشخصين كانا قد وضعا قربانهما على قمه جبل، فنزلت صاعقه فأحرقت قربان هايل دلالة على قبوله، و بقى قربان قاييل على حاله لم يمسه شىء، و كانت لهذه العلامه سابقه معروفه أيضاً.

لكن بعض المفسرين يعتقدون أنَّ قبول و رفض القربانين إنما أعلننا عن طريق الوحي لآدم عليه السلام، و ما كان سبب ذلك غير أنَّ هايل كان إنسانا ذا سريره نقيه يحبّ التضحيه و العفو فى سبيل الله فتقبل الله لذلك قربانه، بينما كان قاييل رجلاً ملوث القلب حسوداً معانداً فرفض الله قربانه، و الآيات التاليه توضح حقيقه ما جبلت عليه نفسا هذين الأخوين من خير و شر.

٤- يستنتج من هذه الآيات -بصوره جليه- أنَّ مصدر أولى النزاعات و الجرائم فى العالم الإنسانى هو «الحسد» و يدلنا هذا الموضوع على خطوره هذه الرذيله الأخلاقيه و أثرها العجيب فى الأحداث الاجتماعيه.

ص: ٦٧٢

---

١ - ١) - و قد كتب العلامه الفقيه الشَّيخ «محمد جواد البلاغى» رساله فى هذا المجال سماها ب «الأكاذيب الأعاجيب» جمع فيها أكاذيب من نمط الكذبه التى جاء ذكرها أعلاه.



اشاره

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِى سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)

التفسير

اشاره

التستر على الجريمة:

تواصل هاتان الآيتان بقيه الواقعة التي حصلت بين ابني آدم عليه السلام، فتبين الآيه الأولى منهما أن نفسى قابيل هي التي دفعته إلى قتل أخيه فقتله، حيث تقول:

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ

و نظرا لأن كلمه «طوع» تأتي فى الأصل من «الطاعه» لذلك يستدل من هذه العبارة على أن قلب «قابيل» بعد أن تقبل الله قربان أخيه هايل أخذت تعصف به الأحاسيس و المشاعر المتناقضه، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد و كانت تدفعه إلى الانتقام من أخيه «هايل» و من جانب آخر كانت عواطفه الإنسانيه و شعوره الفطرى يقبح الذنب و الظلم و الجور و قتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمة، لكن نفسه الأماره بالسوء تغلبت رويدا رويدا على مشاعره

الرادعه فطوعت ضميره الحى و كبلته بقيودها و أعدته لتقل أخيه، و تدل عبارته «طوعت» مع قصرها على جميع المعانى التى ذكرناها لأنّ عمليه التطويح كما نعلم لا تتمّ فى لحظه واحده، بل تحصل بشكل تدريجى و عبر صراعات مختلفه.

و تشير الآيه- فى آخرها- إلى نتيجه عمل «قاييل» فتقول فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فأين ضرر أكبر من أن يشتري الإنسان لنفسه عذابا سيلازمه إلى يوم القيامة، و يشمل عذاب الضمير و عقاب الله و العار و الأبدى.

و قد حاول البعض الاستدلال من كلمه «أصبح» على أن جريمه القتل قد وقعت ليلا، فى حين أنّ كلمه «أصبح» من حيث معناها اللغوى لا تنحصر فى زمن معين ليلا مكان أم نهارا، بل تدل على حدوث شىء ما، كما جاء فى الآيه (١٠٣) من سوره آل عمران فى قوله تعالى: ... فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...

و تفيد بعض الروايات المنقوله عن الإمام الصّادق عليه السّلام أن قاييل حين قتل أخاه ترك جثته فى العراء حائرا لا يدرى ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتى حملت الوحوش المفترسه على جثته «هابيل» فاضطر «قاييل» (ربّما نتيجه لضغط وجدانى شديد) إلى حمل جثته أخيه مده من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، لكن الطيور الجارحه أحاطت به و هى تنتظر أن يضعها على الأرض للهجوم عليها ثانيه و فى تلك الأثناء بعث الله غرابا (كما تصرّح الآيه) فأخذ يحفر الأرض و يزيح التراب ليدفن جسد غراب ميت آخر، أو ليخفى جزءا من طعامه- كما هى عادته الغرابان- و ليدل بذلك «قاييل» كيف يدفن جثته أخيه، حيث تقول الآيه الكريمة، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ (١).

ص: ٦٧٤

١- ١) - جاء فى مجمع البيان أنّ كلمه «يبحث» معناها فى الأصل هو البحث عن شىء فى التراب ثمّ استعملت فى مختلف أنواع البحوث، أمّا كلمه «سوأه» فهى تعنى كل شىء يستاء الإنسان من رؤيته، و لذلك تطلق أحيانا على جسد الميت، و على عوره الإنسان، و يجب الانتباه هنا إلى أنّ الفاعل فى جملة «ليريه» قد يكون هو الله، أى أنّ الله

و لا- غرابه في أن يتعلم إنسان شيئاً من طير من الطيور، فالتاريخ و التجربة يدلان على أن للكثير من الحيوانات مجموعه من المعلومات الغريزيه تعلمها منها البشر على طول التاريخ، مكملاً بذلك معلوماته و معارفه، و حتى بعض الكتب الطبيه تذكر أن الإنسان مدين في جزء من معلوماته الطبيه للحيوانات! ثم تشير الآيه الكريمه إلى أن قابيل استاء من غفلته و جهله، فأخذ يؤنب نفسه كيف أصبح أضعف من الغراب فلا يستطيع دفن أخيه مثله، فتقول الآيه:

قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَهُ أَخِي...

و كانت العاقبه أن ندم قابيل على فعلته الشنيعه كما تقول الآيه: فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ .

فهل كان ندمه على جريمته، خوفاً من افتضاح أمره أمام أبويه؟ أو ربّما أخوته الآخرين اللذين كانوا سيلومونه على فعلته؟ أم أن ندمه كان إشفاقاً على نفسه، لأنه حمل جسد أخيه القليل لفته دون أن يعلم ما ذا يفعل به أو كيف يدفنه؟ أم كان سبب الندم هو ما يشعر به الإنسان-عاده-من قلق و استياء بعد ارتكاب كل عمل قبيح؟ مهما كانت أسباب الندم و دوافعه لدى «قابيل» فذلك لا يعنى أنه تاب من فعلته و جريمته التي ارتكبها، فالتوبه معناها أن لا يعاود الإنسان المذنب تكرار الذنب، خوف من الله و استقباحاً للذنب، و لم يشر القرآن الكريم إلى صدور مثل هذه التوبه عن «قابيل»، و قد تكون الآيه التاليه إشاره إلى عدم صدور التوبه عنه.

ورد في حديث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قوله: «لا- تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل» (1).

(1)

أراد أن يرى «قابيل» كيف يدفن أخاه، و ذلك احتراماً ل«هابيل» و يحتمل أن يكون الغراب هو الفاعل في الجملة المذكوره.

ص: ٦٧٥

---

(1-1) -مسند أحمد بن حنبل كما جاء في تفسير «في ضلال القرآن»، ج ٢، ص ٧٠٣، في تفسير الآيه.

و يستدل من هذا الحديث أيضا على أنّ من سنّ سنّه سيئّه، سيقى يتحمل وزرها ما دامت باقيه فى الدنيا.

مِمّا لا-ريب فيه أنّ قصّه ولدى آدم عليه السّلام قصّه حقيقيه، يثبتها ظاهر الآيات القرآنيه الأخيره و الروايات الإسلاميه، كما أنّ عباره «بالحق» الوارده فى هذه القصّه القرآنيه تعتبر شاهدا على هذا الأمر، و على هذا الأساس فإنّ الأقوال التى افترضت لهذه القصّه طابعا رمزيا من قبيل التشبيه أو الكنايه أو القصّه المفترضه لا أساس لها مطلقا.

و لا-مانع من أن تكون هذه القصّه الحقيقيه مثلا من الصراع الدائم الذى يطغى على المجتمعات البشريه، حيث يقف فى أحد جانبيه أناس جبلوا على الطهاره و الصفاء و الإيمان و العمل الصالح المقبول عند الله، و فى الجانب الآخر يقف أفراد تدنسوا بالانحراف و جبلوا على الحقد و الحسد و الضغينه و البغضاء و العمل الشرير.

و كم هو العدد الكبير من أولئك الإبرار الأخيار الذين ذاقوا حلاوه الشهاده على أيدي هؤلاء الأشرار الذين سيدركون-فى النهايه-فضاعه الأعمال الآ-ثمه التى ارتكبوها، و سيسعون إلى إخفائها و التستر عليها، فتظهر لهم فى مثل هذه اللحظات آمالهم السوداء الشبيهه بالغراب-المذكور فى الآيه القرآنيه الأخيره-فتحثهم و تدفعهم إلى إخفاء جرائمهم، لكنهم سوف لا يجنون فى النهايه غير الخيبه و الخسران.

ص: ٦٧٦

اشاره

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُشْرِفُونَ (٣٢)

التفسير

اشاره

وحده الإنسانيه و كرامتها:

إن هذه الآيه تقوم باستخلاص نتيجه إنسانيه كليه بعد الآيات التي تطرقت إلى قصه ولدى آدم عليه السلام.

ففي البدايه تشير الآيه إلى حقيقه اجتماعيه تربويه مهمه، وهي أن قتل أى إنسان، إن لم يكن قصاصا لقتل إنسان آخر، أو لم يكن بسبب جريمه الإفساد فى الأرض، فهو بمثابة قتل الجنس البشرى بأجمعه، كما أن إنقاذ أى إنسان من الموت، يعد بمثابة إنقاذ الإنسانيه كلها من الفناء، حيث تقول الآيه الكريمه: مِنْ أَجْلِ (١) ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا .

ص: ٦٧٧

١ - ١) - إن كلمه «أجل» التي هي على وزن «نخل» تعنى فى الأصل الجريمه، وقد شاع استعمالها فيما بعد فى كل عمل له عاقبه سيئه، ثم استعملت لكل عمل ذى عاقبه، وهي الآيه تستخدم للتعليل أو بيان عله الشىء.

و يرد هنا سؤال و هو: كيف يكون قتل إنسان واحد مساويا لقتل الناس جميعا، و كيف يكون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانية جمعاء من الفناء؟ و لقد وردت أجوبه عديده من قبل المفسرين على هذا السؤال... جاء في تفسير «التبيان» سته أجوبه عليه، و في «مجمع البيان» خمس أجوبه، و في «كنز العرفان» أربعه أجوبه، و لكن بعضا من هذه الأجوبه يتعد كثيرا عن معنى هذه الآيه.

و كما قلنا في بدايه تفسير هذه الآيه، فإنها تتحدث عن حقيقه اجتماعيه تربويه، لأنه: أولا: إن من يقتل إنسانا بريئا و يلطخ يده بدم برىء يكون في الحقيقه- مستعدا لقتل أناس آخرين يساوونه في الإنسانية و البراءه، فهو- في الحقيقه- إنسان قاتل، و ضحيته إنسان آخر برىء، و معلوم أنه لا فرق بين الأبرياء من الناس من هذه الزاويه.

كما أن أى إنسان يقوم- بدافع حب النوع الإنساني- بإنقاذ إنسان آخر من الموت، يكون مستعدا للقيام بعملية الإنقاذ الإنسانية هذه بشأن أى إنسان آخر، فهذا الإنسان المنقذ يحب إنقاذ الناس الأبرياء، لذلك لا فرق لديه بين إنسان برىء و آخر مثله.

و نظرا لكلمه «فكأنما» التي يستخدمها القرآن في هذا المجال، فإننا نستدل بأن موت و حياه إنسان واحد، مع أنه لا يساوى موت و حياه المجتمع، إلا أنه يكون شبيها بذلك.

و ثانيا: إن المجتمع يشكل في الحقيقه كيانا واحدا، و أعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد، و أن أى ضرر يصيب أحد أعضائه يكون أثره واضحا- بصوره أو بأخرى- في سائر الأعضاء، و لأن المجتمع البشرى يتشكل من الأفراد، لذلك

فإن فقدان أى فرد منهم يعتبر خساره للجميع الإنسانى الكبير، لأنّ هذا الفقدان يترك أثرا بمقدار ما كان لصاحبه من أثر فى المجتمع، لذلك يشمل الضرر جميع أفراد المجتمع.

و من جانب آخر فإن إحياء فرد من أفراد المجتمع، يكون-لنفس السبب الذى ذكرناه-بمثابه إحياء و إنقاذ جميع أفراد المجتمع، لأنّ لكل إنسان أثر بمقدار وجوده فى بناء المجتمع الإنسانى و فى مجال رفع احتياجاته، فيكون هذا الأثر قليلا بالنسبه للبعض و كثيرا بالنسبه للبعض الآخر.

و حين نقرأ فى الروايات أنّ جزاء و عقاب قاتل النفس المحرمه، يكون كجزاء قاتل جميع أفراد البشر، إنّما ذلك إشاره لهذا المعنى الذى ذكرناه، و لا يعنى أنّ الناس متساوون مع بعضهم فى كل الجهات، و لذلك نقرأ فى تفسير هذه الروايات-أيضا-أنّ عقاب القاتل يتناسب مع عدد الأفراد الذين قتلهم تناسبا طريدا قله و زياده.

و تبين هذه الآيه بجلاء أهميه حياه و موت الإنسان فى نظر القرآن الكريم، و تتجلى عظمه هذه الآيه أكثر حين نعلم أنّها نزلت فى محيط لم يكن يعير أى أهميه لدماء أفراد الإنسانيه.

و تلفت الانتباه فى هذا المجال روايات عديده ذكرت أنّ هذه الآيه مع أنّها تتحدث-أو يشير ظاهرها-إلى الحياه و الموت الماديين، إلا أنّ الأهمّ من ذلك هو الموت و الحياه المعنويين، أى إضلال الفرد أو إنقاذ من الضلال،

و قد سأل شخص الإمام الصادق عليه السّلام عن تفسير هذه الآيه فأجابه عليه السّلام قائلا: «من حرق أو غرق-ثمّ سكت عليه السّلام-ثمّ قال: تأويلها الأعظم أنّ دعاها فاستجابت له».

و فحوى قول الإمام الصّادق عليه السّلام فى هذه الروايه هو الإنقاذ من الحريق أو الغرق ثمّ يستطرد الإمام عليه السّلام-بعد سكوت-فبيّن أن التّأويل الأعظم لهذه الآيه هو دعوه الغير إلى طريق الحق و الخير أو الباطل و الشر، و تحقق القبول من

و السؤال الآخر الذى يمكن أن يرد فى هذا المجال أيضا، هو عن سبب ورود اسم بنى إسرائيل بالذات فى هذه الآية، مع أنها تشمل حكما لا يخص هذه الطائفة؟ و يمكن القول فى الجواب بأن سبب الإتيان باسم بنى إسرائيل فى هذه الآية هو أن هذه الطائفة قد شاعت بينها حوادث القتل و إراقه الدماء، و بالأخص ما كان منها ناشئا عن الحسد و حبّ الذات و الأنانية و حبّ التسلط، و ما زال الذين يتعرضون للقتل على أيدي هذه الطائفة فى الوقت الحاضر- هم الأبرياء من الناس غالبا، و لهذا السبب ورد هذا الحكم الإلهي- لأول مرّة- فى سيره بنى إسرائيل! و تشير الآية فى آخرها- إلى انتهاكات بنى إسرائيل، فتؤكد أن هذه الطائفة على الرغم من ظهور الأنبياء بينهم يحملون الدلائل الواضحة لإرشادهم، إلا أنّ الكثير منهم قد نقضوا و انتهكوا القوانين الإلهية، و اتبعوا سبيل الإسراف فى حياتهم، حيث تقول الآية: **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**

و يجدر الانتباه إلى أنّ كلمه «إسراف» لها معان واسعة، تشمل كل تجاوز أو تعد عن الحدود، و لو أنّها تستخدم فى الغالب فى مجال الهبات و النفقات.

ص: ٦٨٠



إشارة

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

سبب النزول

ورد في سبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين، أن جماعة من المشركين قدموا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأعلنوا إسلامهم لكنهم -لعدم تعودهم على طقس و مناخ المدينة- أصيبوا ببعض الأمراض، فنصحهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يذهبوا إلى منطقته ذات مناخ جيد من الصحراء خارج المدينة، كانت مرتعا لإبل الزكاه، وأجاز لهم الانتفاع بلبن تلك الإبل بما يكفيهم، ففعلوا و تعافوا مما كانوا يعانون منه من الأمراض، لكنهم بدل أن يقدموا الشكر على صنيع النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم، وعمدوا إلى قتل الرعاة المسلمين و التمثيل بهم و سمل عيونهم، و نهبوا إبل الزكاه و ارتدوا عن الإسلام إلى الشرك، فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإلقاء القبض عليهم و القصاص منهم بمثل ما ارتكبوه بحق أولئك الرعاة الأبرياء، و جزاء لهم على جرائمهم فسملت عيونهم

و قطعت أوصالهم و قتلوا، لكي يصبحوا عبره لغيرهم فلا- تسول لأحد نفسه أن يرتكب مثل هذه الجرائم الوحشية البشعة، و قد نزلت الآيتان الأخيرتان و هما تبيّنان حكم الإسلام في هذه الجماعه (١).

### جزاء مرتكب العدوان:

تكمل الآيه الأولى-من الآيتين الأخيرتين-البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول قتل النفس، و تبيّن جزاء و عقاب من يشهر السلاح بوجه المسلمين، و ينهب أموالهم عن طريق التهديد بالقتل أو بارتكاب القتل، فتقول: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ .**

و معنى قطع الأيدي و الأرجل من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى.

و يجدر الانتباه هنا إلى عدّه أمور، و هى:

١- إنّ المراد جملة الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الواردة فى الآيه- كما تشير إليه أحاديث أهل البيت و يدل عليه سبب نزول الآيه- هو ارتكاب العدوان ضد أرواح أو أموال الناس باستخدام السلاح و التهديد به، سواء كان هذا العدوان من قبل قطاع الطرق خارج المدن أو داخلها، و على هذا الأساس فإن الآيه تشمل أيضا الأشرار الذين يعتقدون على أرواح الناس و أموالهم و نواويسهم.

و الذى يلفت الانتباه فى هذه الآيه هو أنّها اعتبرت العدوان الممارس ضد البشر بمثابة إعلان الحرب و ممارسه العدوان ضد الله و رسوله، و هذه النقطة تبيّن بل تثبت مدى اهتمام الإسلام العظيم بحقوق البشر و رعايه أمنهم و سلامتهم.

٢- المراد بقطع اليد أو الرجل-المذكور فى الآيه، و كما أشارت إليه كتب

ص: ٦٨٢

(١- ١) - تفسير المنار، الجزء السادس، ص ٣٥٣، و تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٢١٤٥.

الفقه- هو القطع بنفس المقدار الذى ينفذ بحق السارق لدى قطع يده، أى مجرد قطع أربعة من أصابع اليد أو الرجل (١).

٣- هل أنّ العقوبات الأربع المذكوره فى الآيه لها طابع تخيىرى؟ أى هل أن الحكومه الإسلاميه مخيره فى استخدام أى منهما بحق الفرد الذى تراه يستحق ذلك، أم أن العقوبه يجب أن تتناسب و نوع الجريمه التى ارتكبها الفرد؟ أى إذ ارتكب الفرد المحارب جريمه قتل ضد أفراد أبرياء تطبق بحقه عقوبه الإعدام، و إن ارتكب سرقة عن طريق التهديد بالسلاح تنفذ فيه عقوبه قطع أصابع اليد أو الرجل، و إذا ارتكب الجريمتين معا يكون عقابه الإعدام و الصلب على الأعواد لفته معينه لكى يعتبر به الناس، و إذا شهر الفرد المحارب السلاح على الناس دون أن يراق أى دم أو تتم سرقة شىء يكون عقابه النفى إلى بلد آخر؟ لا شك أنّ الاحتمال الثانى- و هو تطبيق العقوبه المتناسبه مع الجريمه أقرب إلى الحقيقه، و قد أيد هذا المعنى ما ورد فى أحاديث عن أئمه أهل البيت عليهم السلام أيضا (٢).

و بالرغم من أنّ بعض الأحاديث أشارت إلى أنّ الحكومه الإسلاميه مخيره فى انتخاب أى من العقوبات الأربع الوارده، لكننا- نظرا للأحاديث التى أشرنا إليها قبل قليل- نرى أنّ المراد من التخيير لا يعنى أن تنتخب الحكومه الإسلاميه واحدا من العقوبات المذكوره انتخابا اعتباطيا دون أن تأخذ نوع الجريمه بنظر الإعتبار، حيث من المستبعد كثيرا أن تكون عقوبتا الإعدام و الصلب متساويتين مع عقوبه النفى، أو أن تكونا بمنزله واحده! و يلاحظ هذا الأمر أيضا فى الكثير من القوانين الوضعيه المعاصره بصوره واضحه، حيث تعين عقوبات مختلفه لنوع واحد من الجرائم، و على سبيل المثال

ص: ٦٨٣

١- (١) - كنز العرفان فى فقه القرآن، ج ٢، ص ٣٥٢.

٢- (٢) - نور الثقلين، ج ١، ص ٦٢٢.

نرى أن بعض الجرائم تتراوح عقوبتها بين ٣ سنين إلى ١٠ سنين من السجن، و القاضى يتعامل فى هذا المجال وفق ما يراه مناسباً لواقع الحال، و ليس وفق ما يشتهيهِ هو، فتارة يكون المناسب فى الجريمة أن تطبق العقوبه المشدده، و أخرى يتناسب معها تخفيف العقوبه، نظراً للظروف المحيطه و الملابسات الوارده فى حاله ارتكاب الجريمة.

و هذا القانون الإسلامى الذى جاء بحق المحاربين، يتفاوت فيه أسلوب العقاب و نوعه مع اختلاف الجريمة التى يرتكبها الفرد المحارب أو الجماعه المحاربه.

و غنى عن القول أنّ العقوبات المشدده التى جاء بها الإسلام لقطاع الطريق تتوضح فلسفتها فى الأهميه القصوى التى أعارها هذا الدين للدماء البريئه، لكى يحول دون اعتداء الأفراد الأشقياء الأشرار القتل على أرواح و أموال و أعراض الناس الأبرياء (١).

و فى الختام تشير الآيه إلى أن هذه العقوبات هى لفضح المجرمين فى الدنيا، و سوف لا يتوقف الأمر على هذه العقوبات، بل سينالون يوم القيامة عقاباً أشد و أقسى حيث تقول الآيه: **ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**.

و يستدل من هذه الجملة القرآنيه على أن العقوبات الإسلاميه الدنيويه التى تنفذ فى المجرمين لن تكون حائلاً دون نيلهم لعقاب الآخره، و لكن طريق العوده و التوبه لا- يغلق حتى بوجه مجرمين خطيرين كالذين ذكرتهم الآيه إن هم عادوا إلى رشدهم و بادروا إلى إصلاح أنفسهم، و لكى يبقى مجال التعويض عن الأخطاء مفتوحاً تقول الآيه الثانيه:

ص: ٤٨٤

---

١ - ١) - إن الأحكام التى تطرقنا إليها جاءت على شكل بحث تفسيرى ملخص، و تفاصيل هذه الأحكام و شروطها موجود فى كتب الفقه.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و الذى يظهر من هذه الآيه هو أنّ العقاب و الحدّ الشرعى يرفعان عن أولئك المجرمين فى حاله انصرفهم طوعا عن ارتكاب الجريمه و ندمهم قبل أن يلقى القبض عليهم فقط.

و بديهى أنّ توبه هؤلاء لا- تسقط العقاب عنهم إن كانوا قد ارتكبوا جريمه قتل أو سرقة، إلا فى حاله ارتكاب جريمه التهديد بالسلاح فإن العقوبه تسقط إن هم تابوا و ندموا قبل إلقاء القبض عليهم.

و بعباره أخرى فإنّ التوبه فى مثل هذه الجرائم لها تأثير فى ما يخص الله فقط، أمّا حق الناس فلا يسقط بالتوبه ما لم يرض صاحب الحق.

و هكذا فإنّ عقاب المحارب يكون أشدّ و أقسى من عقاب السارق أو القاتل العادى، فهو إن تاب نجا من العقوبه التى تشمله لكونه محاربا، لكنه لا يتخلص من عقوبه السرقة و القتل العاديين.

و قد يطرأ هنا سؤال و هو كيف يمكن إثبات التوبه ما دامت هى عمليه قلبيه باطنيه؟ و الجواب هو: أن طرق إثبات التوبه فى هذا المجال كثيره وافره، و أحدها:

أن يشهد عادلان على أنّهما سمعا توبه المجرم فى مكان ما، و أنّه تاب دون أن يرغمه أحد على التوبه، و الآخر: أنّ يغير المجرم أسلوب حياته بشكل تظهر عليه آثار التوبه بجلاء.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)

التفسير

اشاره

حقيقه التوسل إلى الله:

توجه هذه الآيه الخطاب إلى الأفراد المؤمنين، تتضمن تكاليف ثلاثه يؤدي الالتزام بها و تطبيقها إلى نيل الفلاح، وهذه التكاليف هي:

١- إتباع الحيطه و التقوى، كما تقول الآيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...

٢- إختيار وسيله للتقرب إلى الله سبحانه و تعالى، حيث تقول الآيه:

وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...

٣- الجهاد في سبيل الله، إذ تقول الآيه: وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ...

و ستكون نتيجة الالتزام بهذه التكاليف الإلهيه و تطبيقها نيل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام و الإيمان فتقول الآيه الكريمه في هذا المجال: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

إن أهم موضوع سنتناوله بالبحث في هذه الآيه، هو الدعوه الموجهه للإنسان المؤمن لاختيار طريقه تؤدي إلى التقرب إلى الله سبحانه و تعالى.

فكلمه «الوسيله» فى الأصل بمعنى نشدان التقرب أو طلب الشىء الذى يؤدى إلى التقرب للغير عن ميل و رغبه، و على هذا الأساس فإن كلمه «الوسيله» الوارده فى هذه الآيه لها معان كثيره واسع، فهى تشمل كل عمل أو شىء يؤدى إلى التقرب إلى الله سبحانه و تعالى، و أهم الوسائل فى هذا المجال هى الإيمان بالله و بنبيه صلى الله عليه و آله و سلم و الجهاد فى سبيل الله، و العبادات كالصلاه و الزكاه و الصوم، و الحج إلى بيت الله الحرام و صله الرحم و الإنفاق فى سبيل الله سرًا و علانيه و كذلك الأعمال الصالحه- كما

يقول الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى خطبه له وردت فى «نهج البلاغه» منها: «إنّ أفضل ما توسل به المتوسلين إلى الله سبحانه و تعالى الإيمان به و برسوله و الجهاد فى سبيله فإنّه ذروه الإسلام و كلمه الإخلاص فإنّها الفطره، و إقامه الصلاه فإنّها المله (١)، و إيتاء الزكاه فإنّها فريضه واجبه، و صوم شهر رمضان فإنه جنه من العقاب، و حج البيت و اعتماره فإنهما ينفيان الفقر، و يرحضان (٢) الذنب، و صله الرحم فإنها مثراه (٣) فى المال و منساه (٤) فى الأجل و صدقه السرّ فإنّها تكفر الخطيئه، و صدقه العلانيه فإنّها تدفع ميتة السوء، و صنائع المعروف فإنّها تقى مصارع الهوان...» (٥).

كما أن شفاعه الأنبياء و الأئمه و الأولياء الصالحين تقرب-أيضا- إلى الله وفق ما نصر عليه القرآن الكريم، و هى داخله فى المفهوم الواسع لكلمه «الوسيله»-و كذلك إتباع النبى و الإمام و السير على نهجهم، كل ذلك يوجب التقرب إلى الساحة الإلهيه المقدسه. و حتى عند ما نقسم على الله بمقام الأنبياء و الأئمه و الصالحين فإنه يدلّ على حبنا لهم و الاهتمام بالدين الذى دعوا إليه، هذا

ص: ٦٨٧

١-١) -الملة شريعه الإسلام.

٢-٢) -يرحضان يطهران أو يغسلان.

٣-٣) -مثراه مكثره.

٤-٤) -منساه مطيله.

٥-٥) -نهج البلاغه، الخطبه ١١٠.

القسم يعتبر-أيضا-واحدا من المعانى الداخلة فى المفهوم الواسع لكلمه «الوسيله».

و الذين خصصوا هذه الآيه و قيدها ببعض هذه المفاهيم لا- يمتلكون فى الحقيقه أى دليل على هذا التخصيص، لأن كلمه «الوسيله» تطلق فى اللغه على كل شىء يؤدى إلى التقرب.

و الجدير بالذكر هنا هو أنّ المراد من التوسل لا يعنى-أبدا-طلب شىء من شخص النبى أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن-عن طريق الأعمال الصالحه و السير على نهج النبى و الإمام-بطلب الشفاعة منهم إلى الله، أو أن يقسم بجاههم و بدينهم (و هذا يعتبر نوعا من الاحترام لمنزلتهم و هو نوع من العباده) و يطلب من الله بذلك حاجته، و ليس فى هذا المعنى أى أثر للشرك، كما لا يخالف الآيات القرآنيه الأخرى، و لا يخرج عن عموم الآيه الأخيره موضوع البحث «فتدبر».

### التوسل فى القرآن:

هناك آيات قرآنيه أخرى تدل بوضوح على أنّ التوسل بمقام إنسان صالح عند الله، و طلب شىء من الله عن طريق التوسل بجاه هذا الإنسان عند الله، لا يعتبر أمرا محظورا و لا ينافى التوحيد.

فنحن نقرأ فى الآيه (٦٤) من سوره النساء قوله تعالى: **وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا .**

كما نقرأ فى الآيه (٩٧) من سوره يوسف، إنّ أخوه يوسف طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم الله، فقبل يعقوب هذا الطلب و نفذه.

و الآيه (١١٤) من سوره التوبه تشير إلى موضوع استغفار إبراهيم لأبيه، و هذا دليل على تأثير دعاء الأنبياء فى حق الآخرين.



وقد ورد هذا الموضوع في آيات قرآنيه أخرى أيضا.

### التوسل في الزوايات الإسلاميه:

إن الروايات العديده التي وردت عن طرق الشيعة و السنه تفيد بوضوح أنّ التوسل بالمعنى الذى عرضناه لا ريب و لا شبهه فيه، بل أنه يعد عملا- جيدا أيضا، و هذه الزوايات كثيره و قد نقلتها كتب عديده، و نحن نورد بعضها منها مما ورد فى مصادر جمهور السنه على سبيل المثال لا الحصر.

١- جاء فى كتاب «وفاء الوفا» لمؤلفه العالم السنّى المشهور «السمهودى» إن طلب العون و الشفاعه من النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو التوسل إلى الله بجاه النبى و شخصه جائز قبل أن يولد صلى الله عليه و آله و سلم و بعد ولادته و وفاته و فى عالم البرزخ و فى يوم القيامة، ثم ينقل «السمهودى» فى هذا المجال عن عمر بن الخطاب الروايه المعروفه التى تتحدث عن توسل آدم عليه السلام إلى الله نبى الإسلام محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك لعلم آدم بأنّ هذا النبى سيأتى إلى الوجود فى المستقبل، و لعلمه بالمنزله العظيمه التى يحظى بها عند الله، فيقول آدم: «ربّ إنّى أسألك بحق محمّد لما غفرت لى» (١).

ثم ينقل «السمهودى» حديثا آخر عن جماعه من رواه الحديث كالنسائى و الترمذى، و هما عالمان مشهوران من أهل السنه، كدليل على جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم فى حياته و خلاصه هذا الحديث إنّ رجلا بصيرا طلب من النبى أن يدعو له بشفاء مريضه، فأمره النبى صلى الله عليه و آله و سلم بتلاوه هذا الدعاء:

«اللهم إنّى أسألك و أتوجه إليك بنبيك محمّد نبى الرّحمة يا محمّد إنّى توجهت بك إلى ربّى فى حاجتى لتقضى لى، اللهم شفّعه فى» (٢).

ص: ٦٨٩

١ - ١) - وفاء الوفاء، ج ٣، ص ١٣٧١، فى كتاب «التوصل إلى حقيقه التوسل» نقل الحديث المذكور أعلاه كواحد من دلائل النبوه، ص ٢١٥.

٢ - ٢) - كتاب (وفاء الوفاء)، ص ١٣٧٢.

و بعد هذا الحديث ينقل «السمهودى» حديثا ثالثا فى جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم بعد وفاته، فيذكر أن صاحب حاجه جاء فى زمن عثمان إلى قبر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فجلس بجوار القبر و دعا الله بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه و آله و سلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن تقضى حاجتى».

ثم يضيف «السمهودى» إنه لم تمض فتره حتى قضيت حاجه الرجل (١).

٢- أميا صاحب كتاب «التوصل إلى حقيقه التوسل» الذى يعارض بشده موضوع التوسل فهو ينقل (٢٦) حديثا من كتب و مصادر مختلفه ينعكس منها جواز التوسل، و مع أنه سعى فى أن يطعن بإسناد تلك الأحاديث، إلا أن الواضح هو أنه متى ما كانت الروايات كثيره فى موضوع معين لدرجه التواتر- لا يبقى عند ذلك مجال للطعن، و التجريح فى سند الحديث، و الروايات التى وردت فى المصادر الإسلاميه بشأن التوسل قد تجاوزت حد التواتر لكثرتها.

و من هذه الأحاديث التى رواها صاحب الكتاب المذكور، الحديث التالى:

نقل «ابن حجر المكى» صاحب كتاب «الصواعق» عن الإمام «الشافعى»، و هو أحد أئمة السنه الأربعة المشهورين، أنه كان يتوسل إلى أهل بيت النبى و يقول:

آل النبى ذريعتى

و هم إليه وسيلتى

أرجو بهم أعطى غدا

بيد اليمين صحيفتى (٢)

و ينقل صاحب كتاب «التوصل...» أيضا عن (البيهقى) أن الجفاف أصاب المسلمين فى أحد الأعوام من عهد الخليفه الثانى، فذهب بلال و معه عدد من الصحابه إلى قبر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قال: «يا رسول الله استسق لأمتك... فإنهم

ص: ٦٩٠

١-١) -وفاء الوفاء، ص ١٣٧٣.

٢-٢) -كتاب «التوصل...»، ص ٣٢٩.

قد هلكوا...» (١).

و نقل أيضا عن «ابن حجر» من كتاب «الخيارات الحسان» أنّ الإمام الشافعي كان أثناء وجوده في بغداد يزور أبا حنيفة و يتوسل إليه في حوائجه (٢).

و من صحيح «الدارمي» ينقل صاحب كتاب «التوصل...» أيضا، أن بعض الصحابه في المدينه اشتكوا إلى عائشه ما يعانونه من الجفاف الشديد الذي أصاب البلده في أحد الأعوام، فأشارت عليهم أن يفتحوا فجوه في سقف المسجد على قبر النبي صلى الله عليه و آله و سلم حتى ينزل اللّمة المطر ببركه قبر النبي صلى الله عليه و آله و سلم ففعلوا ذلك و نزل مطر غزيرا! و نقل «الآلوسي» في تفسيره الكثير من الأحاديث و الروايات الشبيهه بالأحاديث الماره الذكر، و لكنّه بعد إجراء تحليل و نقاش طويل حولها حتى أنّه تشدد في نقدها اضطر إلى الإذعان بها، فذكر أنّه بعد البحث الذي أجراه لا يرى مانعا من التوسل إلى الله بمقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم سواء في حياته أو بعد وفاته، ثمّ أطال البحث في هذا المجال، و قال بأنّ التوسل إلى الله بمقام غير النبي لا مانع فيه - أيضا - شريطه أن يكون المتوسل به صاحب منزله عند الله (٣).

أما مصادر الشيعة فقد تناولت هذا الموضوع بشكل واضح، لا نرى معه أي حاجه إلى نقل الأحاديث الواردة بهذا الصدد.

### ملاحظات ضروريه:

نرى من الضروري - هنا - الإشارة إلى عدّه أمور:

ص: ٦٩١

١- ١) - كتاب التوصل...، ص ٢٥٣.

٢- ٢) - كتاب التوصل...، ص ٣٣١.

٣- ٣) - روح المعاني، (ج ٤-٦)، ص ١١٤-١١٥.

١- لقد أسلفنا القول بأن التوسل ليس معناه طلب الحاجه من النبي أو الإمام، بل المراد منه جعل النبي أو الإمام شفيعا إلى الله في قضاء الحاجه، وهذا الأمر- في الحقيقة- توجه إلى الله، لأن احترام النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو من أجل أنه رسول الله والسائر على هدايه، والعجب هنا أن يدعى البعض أن هذا التوسل نوع من الشرك، في حين أن المعروف عن الشرك هو القول بوجود من يشارك الله سبحانه في صفاته وأعماله، والتوسل الذي تحدثنا عنه لا صلة له مطلقا ولا تشابه مع الشرك.

٢- يصرّ البعض وجود الفرق بين حياه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمه المعصومين عليهم السلام وبين وفاتهم، وكما رأيت فإن الكثير من الأحاديث السالفه كان يخص ما بعد وفاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بالإضافة إلى ذلك فإن الفرد المسلم يعتقد بأن للنبي والصالحين بعد وفاتهم حياه برزخيه أوسع من الحياه الدنيا، وقد صرح القرآن في هذا المجال بخصوص حياه الشهداء، حيث أكد أنهم ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم (١)....

٣- وأصرّ آخرون على أن هناك فرقا بين طلب الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين القسم على الله بجاه النبي، فهؤلاء يجيزون طلب الدعاء ولا يجيزون ما سواه، في حين لا يوجد بين هذين الأمرين أى فرق منطقي.

٤- يسعى البعض من كتاب وعلماء السنه وبالأخص «الوهابيون» منهم، وبعناد خاص، إلى الادعاء بضعف جميع الأحاديث الوارده في موضوع التوسل، أو تجاهلها بشتى الحجج الواهيه.

وهؤلاء يبحثون هذا الموضوع بأسلوب خاص يظهر من خلاله لكل ناظر محايد أنهم اختاروا في البدايه هذا الاعتقاد لأنفسهم، ثم يحاولون- بعد ذلك- فرضه على الروايات الإسلاميه ويعمدون بشكل من الأشكال إلى إزاحه كل من يخالف معتقدهم هذا عن طريقهم، وهذا الأسلوب المشوب بالعصبيه ومجافاه

ص: ٦٩٢

المنطق لا يقبل به أى باحث منصف مطلقاً.

٥- لقد بينا أنّ أحاديث التوسل قد وصلت بكثرتها إلى حد التواتر، أى أنّها لوفرتها تغنى الباحث عن التحقيق فى أسانيدها، إضافة إلى ذلك فإنّ من بين هذه الأحاديث الكثير من الروايات و الأحاديث الصحيحة، فلا يبقى بذلك لمن يريد الاعتراض على بعض الأسانيد أى مجال.

٦- ويتبين ممّا قلناه سابقاً أن لا تناقض بين الروايات التى وردت فى تفسير الآيه الأخيره تلك التى تقول بأنّ النبى دعا الناس إلى أن يطلبوا له الوسيله من الله، أو ما

جاء عن الإمام على عليه السّلام فى كتاب «الكافى» من أنّه قال: بأنّ (الوسيله) هى أرفع و أسمى منزله فى الجنّه فلا ينافى ما ذكرناه نحن فى تفسير الآيه، لأنّ الوسيله- كما أوضحنا- تشمل كل أنواع التقرب إلى الله، و إن تقرب النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى الله، و كذلك ما قيل عن أرفع منزله فى الجنّه، هما من مصاديق الوسيله.

ص: ٦٩٣

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)  
يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧)

التفسير

تعقيا على الآيه السابقه التي كلفت المؤمنين بالتقوى و الجهاد و إعداد الوسيله، جاءت الآيتان الأخيرتان و هما تشيران إلى مصير الكافرين، و تؤكدان أنهم مهما بذلوا-حتى لو كان كل ما فى الأرض أو ضعفه-فى سبيل انتقاذ أنفسهم من عذاب يوم القيامة، فلن يقبل منهم ذلك-و أنهم سينالون العذاب الشديد، فتقول الآيه الكريمه فى هذا المجال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

و قد وردت بنفس المضمون آيه أخرى و هى الآيه (٤٧) من سوره الرعد.

و يبين هذا الأسلوب القرآنى أقصى درجات التأكيد فيما يخص العقوبات الإلهيه التى لا يمكن-مطلقا-التخلص منها بأى ثروه أو قدره مهما بلغت، و حتى

لو شملت جميع ما فى الأرض أو ضعف ذلك، وإن طريق الخلاص الوحيد يمكن فقط- فى اتباع التقوى و الجهاد فى سبيل الله و القيام بالأعمال الصالحة.

بعد ذلك تشير الآيه التاليه إلى استمرار عذاب الله، و توضح أنّ الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدرُوا على ذلك، و إنّ عذابهم ثابت و باق لا يتغير، كما تقول الآيه: يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

و سنوافيكم بتفاصيل أكثر عن العقوبه الدائمه الأبدية، و عن خلود الكفار فى نار جهنم، لدى تفسير الآيه (١٠٨) من سوره هود، بإذن الله.

اشاره

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا اَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ اصْلَحَ فَانَّ اللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ اِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ لَهٗ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْاَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

التفسير

اشاره

عقوبه السرقة:

لقد بينت آيات سابقه عقاب و حكم «المحارب» الذى يتعرض لأرواح و أموال و نواميس الناس عن طريق التهديد بالسلاح، أما الآيات الثلاث الأخيره فهى تبين حكم السارق و السارقه أى الفرد الذى يسرق خلسه أموال و ممتلكات الناس، فتقول الآيه أولاً: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا اَيْدِيَهُمَا....

و قد قدمت هذه الآيه الرجل السارق على المرأه السارقه، بينما الآيه التى ذكرت حد و عقوبه الزنا قد قدمت المرأه الزانيه على الرجل الزانى، و لعل هذا التفاوت ناشئ عن حقيقه أن السرقة غالباً ما تصدر عن الرجال، بينما النساء الخليعات المستهترات يشكلن فى الغالب العامل و العنصر المحفز للزنا!



بعد ذلك تبيّن الآيه أنّ العقوبه المذكوره هي جزاء من الله لجريمه السرقة المرتكبه من قبل الرجل أو المرأه، حيث تقول: **جَزَاءٌ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ...**

و الحقيقة هي أنّ هذه الجملة القرآنيه تشير.

أولاً: إلى أنّ العقوبه المذكوره نتيجه لعمل الشخص السارق أو السارقه و أنّها شيء اكتسبه هو أو هي لنفسها.

و ثانياً: إلى أنّ الهدف من تنفيذ هذه العقوبه هو وقايه المجتمع و تحقيق الحق و العدل فيه لأنّ كلمه «نكال» تعنى العقوبه التي تنفذ لتحقيق الوقايه و ترك المعصيه، و هذه الكلمه تعنى في الأصل «اللجام» و تطلق أيضا على كل عمل يحول دون حصول الانحراف.

و لكي لا يتوهم الناس وجود الإجحاف في هذه العقوبه، تؤكد الآيه في آخرها-على أنّ الله عزيز، أى قادر على كل شيء، فلا حاجة له للانتقام من الأفراد، و هو حكيم-أيضا- لا يمكن أن يعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلك، حيث تقول الآيه: **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.**

أمّا الآيه الثانيه فهي تفتح لمن ارتكب هذه المعصيه باب العوده و التوبه، فتقول: **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.**

و السؤال الوارد هنا هو: هل أنّ التوبه وحدها تكفى لغفران الذنب فقط، أم أنّها تسقط عنه حد أو عقوبه السرقة أيضا؟ إنّ المعروف لدى فقهاء الشيعة أنّ مرتكب السرقة إن تاب قبل أن تثبت سرقة في محكمه إسلاميه يسقط عنه حد السرقة أيضا، أمّا إذا شهد عادلان على سرقة فإن التوبه لا تسقط عنه الحد.

و الحقيقة هي أنّ التوبه-في هذه الحاله التي تطرقت لها الآيه-هي تلك التي تتمّ قبل ثبوت الجرم في المحكمه، و لو لا ذلك لتظاهر كل سارق بالتوبه لدى

ثبوت الجرم عليه، بغية إنقاذ نفسه من الحدّ أو العقوبه، فلا يبقى -و حاله هذه- مبرر لإجراء الحدّ عليه بعد التوبه! و بعبارة أخرى: إنّ التوبه الاختياريه هي تلك التي تتمّ قبل أن يثبت الجرم في المحكمه بينما التوبه الاضطراريه هي التوبه التي تصدر من الإنسان العاصي لدى مشاهدته العذاب الإلهي، أو لدى بلوغه حاله الاحتضار، و مثل هذه التوبه لا قيمه لها مطلقا.

ثمّ توجه الآيه الأخرى الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فتقول: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و يجدر الانتباه هنا إلى عدّه نقاط، و هي:

### أ- شروط معاقبه السارق:

لقد بيّن القرآن الكريم في الآيات الأخيره التي تطرقت لحكم السرقة أساس للقضيه، على عادته بالنسبه لسائر الأحكام، و قد ترك التفصيل في ذلك إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و الذي يستدل من مجموع الروايات الإسلاميه هو أن تنفيذ هذا الحد الإسلامي (أى قطع اليد) مقيد بشروط كثيره، لا يجوز -بدون تحققها- المباشره بإجراء الحدّ، و من هذه الشروط.

١- أن يكون الحدّ الأدنى لثمن الشيء المسروق مبلغ ربع دينار (١).

٢- أن تتمّ السرقة من مكان محفوظ، أى أن تكون من دار أو محل للكسب أو من جيوب و مخابئ داخلية.

٣- أن لا تكون السرقة في زمن الجفاف أو المجاعه التي يعانى الناس فيها

ص: ٦٩٨

١-١) -الدينار الوارد في هذا الحكم يبلغ مثقالا شرعيا من الذهب المسكوك و يعادل ثمانية عشر حبه أى ثلاثة أرباع المثقال المتعارف.

من الجوع لعدم حصولهم على المواد الغذائية.

٤- أن يكون السارق-أثناء ارتكابه لجريمه السرقة-بالغا عقلا حر الإراده.

٥- لا يطبق حدّ السرقة في حاله سرقة الأب من مال ولده، أو الشريك من مال شريكه المخصوص بالشركه.

٦- وقد استثنت الفاكهه المسروقه من البساتين من حدّ السرقة.

٧- كما استثنت من ذلك حاله اشتباه السارق بين ماله و مال غيره.

و هناك شروط أخرى تطرقت إليها كتب الفقه في باب السرقة.

و يجب هنا التأكيد على أنّ السرقة حرام سواء تحققت الشروط المذكوره أعلاه فيها أو لم تتحقق، و أما هذه الشروط فهي مختصه بموضوع الحدّ و العقوبه الخاصه بالسرقة.

و السرقة بأى شكل حصلت، و مهما كان مبلغ و ثمن الشئ المسروق، حرام فى الإسلام.

### **ب-المقدار الذى يجب قطعه من يد السارق:**

لقد اشتهر لدى فقهاء الشيعة-استنادا على روايات أهل البيت عليهم السلام- أنّ حدّ السرقة يتحقق بقطع أربع من أصابع يد السارق اليمنى فقط دون زياده، بينما قال فقهاء السنّه بأكثر من ذلك.

### **ج-حدّ السرقة و أقاويل اعداء الإسلام:**

كثيرا ما كرر اعداء الإسلام أو حتى بعض المسلمين من الذين يجهلون أسرار التشريع الإسلامى، أنّ هذه العقوبه الإسلاميه تتسم بالعنف الشديد، و أنّها لو نفذت فى عصرنا الحاضر للزم أن تقطع أيدي الكثير من الناس، و إن هذا

سيؤدي بالإضافة إلى حرمان أفراد من أحد أعضاء جسمهم الحساسه سيؤدي إلى فضيحة الفرد طيله حياته بسبب الأثر البارز الذي يخلفه حد السرقة مدى العمر.

و للردّ على هذا الاعتراض يجب الانتباه إلى الحقيقه التاليه:

أولاً: لقد بينا فيما سبق أن حكم السرقة-وفق الشروط التي ذكرناها-لا يشمل كل سارق،فهذا الحكم يشمل فقط تلك المجموعه من السراق الذين يشكلون خطرا على المجتمع.

ثانياً: إنّ احتمال تنفيذ عقوبه السرقة يقل نظرا للشروط الخاصه التي يجب توفرها حتى تثبت الجريمه على المتهم بالسرقة.

ثانياً: إنّ أكثر الاعتراضات التي يوردها الأفراد الذين يجهلون أو الذين لا يعرفون الكثير عن القوانين الإسلاميه،منشؤها النظره الأحاديه الجانب التي يرون و يبحثون بها الحكم الإسلامى بعيدا عن الأحكام الأخرى،أى أنّهم يفترضون هذا الحكم فى مجتمع بعيد كل البعد عن الإسلام.

فلو علمنا أنّ الإسلام ليس حكما واحدا فقط،بل يشتمل على مجموعه كبيره من الأحكام لو طبقت فى مجتمع معين لأدت إلى تحقيق العداله الاجتماعيه و مكافحه الفقر و الجهل،و لأدت إلى تحقيق التعليم و التريه الصحيحين،و لنشرت الوعى و الورع و التقوى بين الناس،و بهذا يتضح لنا ندره احتمال بروز حوادث تحتاج إلى تطبيق هذا الحكم أو العقوبه الإسلاميه.

و يجب أن لا يجرنا هذا القول إلى الوهم بأنّ هذا الحكم الإسلامى لا يجب تطبيقه فى المجتمعات المعاصره،بل المراد من قولنا هذا هو أن تؤخذ كل الشروط المذكوره بنظر الإعتبار أثناء إصدار الحكم فى هذا المجال.

و خلاصه القول: إنّ الحكومه الإسلاميه مكلفه بأن توفر لكل أفراد الأُمَّه احتياجاتها الأوليه و أن توفر لهم التعليم اللازم،و تربي فيهم الملكات و الخصال

الفاضله الخيره، و تحسن إعدادهم من الناحيه الأخلاقيه، و طبيعي أنه إذا حصل هذا الأمر فلا يظهر في محيط كهذا إلا القليل النادر ممن يرتكبون مخالفه أو جريمه.

رابعاً: إن ما نلاحظه اليوم من ارتفاع في عدد السرقات ناجم عن عدم تطبيق هذا الحكم الإسلامى، بينما يندر في البيئات التى تطبق هذا الحكم بروز مثل هذه الحوادث، فهى تتمتع بوضع أمنى جيد فيما يخص حمايه أموال الناس، فزوار بيت الله الحرام كثيرا ما تركوا حقائبهم فى الأزقه و الطرقات دون عين تحرسها فلم يجرأ أحد على مد يده إليها الى أن يأتى موظفو اداره المفقودات و يحملوها الى الاداره حتى يأتى صاحبها و يستردها بعد ذكر العلامات الخاصه، و أغلب المحلات تفتقد إلى الأبواب و الأوصده الكافيه، و فى هذا الحال لا تمتد يد سارق نحوها. أو يكونوا فقدوا شيئا ثم راجعوا لذلك إداره المفقودات فوجده عندها.

و الأمر الملفت للنظر هو أن هذا الحكم الإسلامى و على الرغم من تطبيقه لعدّه قرون، حيث كان المسلمون و منذ عصر صدر الإسلام يعيشون آمنين مطمئنين فى ظله، فهو لم ينفذ طيله تلك الفتره إلا بحق عدد قليل من الأفراد.

فهل يعتبر قطع عدد من الأيدي الآثمه لكى ينعم المجتمع لقرون عديده بالأمن ثنا غاليا لهذا الأمن؟!!

#### د-اعتراضات أخرى:

يقول البعض: إن تنفيذ حدّ أو عقوبه السرقة فى سارق من أجل ربع دينار يعتبر منافيا للاحترام الفائق الذى يفرضه الإسلام لحياه الإنسان المسلم و حمايتها من كل خطر، بحيث أنّ الإسلام فرض ديه باهظه مقابل قطع أربعة أصابع من يد أى إنسان، و قد ذكرت بعض كتب التاريخ بأن هذا السؤال وجهه البعض إلى العالم الإسلامى الكبير الشريف المرتضى علم الهدى قبل حوالى ألف

سنه، و جاء السؤال فى البيت التالى: - يد بـخمس مئین عسجد و دیت ما بالها قطعت فى ربع دینار؟ (١) فأجاب السید المرتضى رحمه الله بییت آخر هو:

عزّ الأمانه أغلاها و أرخصها

ذل الخیانه فافهم حکمه البارى (٢)

ص: ٧٠٢

---

١ - ١) - يجب الانتباه إلى أن الخمسمائة دينار إنما تدفع ديه قطع خمسة أصابع، وقد أسلفنا أن المذهب الشيعى يرى عقوبه السارق فى قطع أربعة أصابع من اليد.

٢ - ٢) - ذكر هذه الحادثة (الألوسى) فى تفسيره، ج ٣، ص ٦، لكنّه ذكر اسم (علم الدين السخاوى) بدل اسم (علم الهدى).











































بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩